عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



رُيَّاس البحر الهندي
عصر الاستكشاف العثماني

تأليف: جانكارلو كازالي
ترجمة: مصطفى قاسم

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

رُيّاس البحر الهندي

عصر الاستكشاف العثماني

تأليف: جانكارلو كازالي
ترجمة: مصطفى قاسم

أغسطس 2018
364

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 596 - 9

العنوان الأصلي للكتاب

The Ottoman Age of Exploration

By

Giancarlo Casale

Oxford University Press, 2010

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ذو القعدة 1439 هـ - أغسطس 2018

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

تقديم المترجم

الإمبراطورية العثمانية في المحيط الهندي في الميزان

«جمعت الدولة العثمانية بين الضدين خلال القرن السادس عشر؛ إذ سيطرت إلى حد خانق على تجارة البحر الأحمر، وفرضت عليها ضرائب عالية، وشاركت بنفسها فيها من جانب، ومن جانب آخر كفلت حرية التجارة، وفرضت ضرائب مخفضة في الخليج العربي والطريق البري المار من البصرة إلى حلب»

في العام 1517، غزا السلطان العثماني سليم «العابس» مصر، ما جعل إمبراطوريته - للمرة الأولى في تاريخها - على اتصال مباشر مع العالم التجاري للمحيط الهندي. وخلال العقود التالية، أصبح العثمانيون أكثر انخراطا في شؤون هذه المنطقة الشاسعة التي كانت مجهولة لهم في السابق، وشكلوا في النهاية تحديا عسكريا وأيديولوجيا وتجاريا للإمبراطورية البرتغالية التي كانت منافسهم الرئيس في السيطرة على طرق التجارة المربحة خلال آسيا البحرية. فكان غزو مصر فاتحة «عصر الاستكشاف العثماني»، على حد تعبير الكتاب الحالي.

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع مصطلحات «الاستكشاف» و«الاكتشافات» و«عصر الاستكشاف» هو المحيط الأطلسي والأمريكتان مجالا لهذا الاستكشاف، والأوروبيون روادا له، وأمثلته التاريخية الكبرى: اكتشاف الأمريكتين (الذي بدأته رحلات كريستوفر كولومبس Christopher Columbus في الفترة من 1492 إلى 1502، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (الذي أنجزه فاسكو دا غاما Vasco da Gama في الفترة من 1497 إلى 1499، ثم اكتشاف الطريق الغربي من الأمريكتين إلى شرق آسيا (الدوران حول الأرض بقيادة فرناندو ماجلان Ferdinand Magellan في الأعوام من 1519 إلى 1522، ولاحقا اكتشاف أستراليا وجزر المحيط الهادي (الذي بدأه الهولندي فيلم يانسون Willem Janszoon في العام 1606، وأكمله الإنجليزيان جيمس كوك James Cook نحو العام 1770، وجورج فانكوفر George Vancouver نحو العام 1794).

لكننا بذلك نتجاهل الدافع الأول الذي أطلق عصر الاستكشاف برمته، وجعل البرتغاليين والإسبان يعثرون «مصادفةً» أو «خطأً» على الأمريكتين، وهو استكشاف طريق بديل إلى المحيط الهندي وجزر الهند الشرقية غير طريق مصر والبحر الأحمر(*)، ثم جاء اكتشاف الأمريكتين «في الطريق» إلى ذلك؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يجدوا رياحا مواتية تأخذهم حول الرأس الجنوبي لأفريقيا إلا بالإبحار بعيدا داخل المحيط الأطلسي. وكذلك أرسلت بعثات هولندية وإنجليزية وفرنسية عديدة إلى أمريكا الشمالية حتى القرن السابع عشر؛ بحثا عن ممر شمالي غربي مراوغ إلى الشرق.

وعلى ذلك، فإذا اعْتُبِر وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي وعالمه عبر رأس الرجاء الصالح استكشافا لأنه أنتج طريقا بحريا لم يكن معروفا من قبل، وأخذهم إلى عالم كانت صلتهم به في السابق مقطوعة، ومعرفتهم عنه شبه معدومة، هو عالم المحيط الهندي الذي كان مع ذلك جزءا أصيلا من العالم القديم، فهل يمكن اعتبار وصول العثمانيين إلى جزر الهند الشرقية استكشافا من النوع ذاته؟ هل ينطبق هذا

(*) تشير جزر الهند Indies، أو جزر الهند الشرقية East Indies، إلى بلاد جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، وتشير تحديدا إلى أرخبيل الملايو، وتوسعا إلى آسيا التي تعرضت للتأثير الثقافي الهندي، والكلمة مشتقة من اسم نهر Indus (السند).

المعنى للاكتشاف والاستكشاف على دخول العثمانيين المحيطَ الهندي ونشاطاتهم فيه على مدار القرن السادس عشر، مع الأخذ في الحسبان أن المحيط الهندي كان قبل تطفل البرتغاليين عليه بحيرة تجارية إسلامية بكل معنى الكلمة؟ فإن عُدّ وصول البرتغاليين إلى الأرخبيلين الأطلسيين ماديرا والأزور، وإبحارهم على طول غرب أفريقيا حتى رأسها الجنوبي، ثم دورانهم حول رأس الرجاء الصالح، ووصولهم إلى الهند استكشافا، فهل يكون انطلاق العثمانيين من السويس ووصولهم إلى باب المندب واليمن وسواكن ومصوع وزيلع ومومباسا وغيرها على ساحل شرق أفريقيا، وكجرات وكاليكوت وغيرها على الساحل الغربي للهند، وسومطرة في أرخبيل الملايو اكتشافا واستكشافا بالقدر نفسه؟

في تقصيه «عصر الاستكشاف العثماني»، ينطلق المؤلف جانكارلو كازالي أستاذ التاريخ بجامعة مينيسوتا من تعريف للاستكشاف يقوم على أربع خصائص أساسية، متى توافرت في هذا النشاط أو ذاك كان استكشافا:(1) العزلة الجغرافية والثقافية النسبيتين في البداية،(2) التبني اللاحق لأيديولوجيات سياسية توسعية تركزت بوجه خاص على طرق التجارة والملاحة البحريتين،(3) الابتكار في بضعة مجالات رئيسة من مجالات التقنية العسكرية والبحرية جعلت التوسع فيما وراء البحار ممكنا،(4) الاهتمام الفكري المكثف إلى درجة غير مسبوقة بالعالم الخارجي.

يُثبت الكتاب، أولا بإيجاز في مقدمته، ولاحقا بالتفصيل على امتداد فصوله، أن هذا التعريف لعصر الاستكشاف ينطبق على الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر في علاقتها بالمحيط الهندي وجزر الهند الشرقية، وتحديدا منذ غزو مصر في العام 1517، وحتى طرد العثمانيين من اليمن في العام 1636. ربما يمكننا القول إن الإمبراطورية العثمانية قبل التاريخ الأول كانت جاهلة تماما بالمحيط الهندي وعالمه، وبعد أن غزت مصر طورت أيديولوجيا توسعية ومزاعم بالسيادة العالمية، قامت على حمل السلطان العثماني لقبي «خليفة المسلمين» و«خادم الحرمين الشريفين»، وتلا ذلك - وسبقه في حالات كثيرة - تقدم في مجالات تقنية مثل صناعة السفن والمدافع ورسم الخرائط، وكذلك اهتمام فكري أصيل بالعالم الخارجي. باختصار، ينطبق تعريف الاستكشاف بأركانه الأربعة على وصول العثمانيين إلى المحيط الهندي ونشاطاتهم فيه.

يُعَد هذا الكتاب أول رواية تاريخية شاملة لهذا الصراع على الهيمنة العالمية الذي غطى نحو قرن من الزمن، وامتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى مضيق ملقا، ومن داخل أفريقيا إلى سهول آسيا الوسطى. وتأسيسا على بحث موسع في أرشيفات تركيا والبرتغال، فضلا عن المواد التي كتبت في ثلاث قارات وبأكثر من خمس لغات، يقدم الكتاب صورة غير مسبوقة للامتداد العالمي للدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر، وذلك من خلال سرد مثير لحياة سلاطين وصدور أعظمين وولاة وجواسيس ورُيّاس بحر ومرتزقة ونساء من الحريم السلطاني أثرت أفعالهم في عصر الاستكشاف العثماني. كان على رأس هؤلاء، إلى جانب سلاطين مثل سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني، صدور أعظمون مثل إبراهيم باشا البرغي، وسليمان باشا الخادم، ورستم باشا، وعلي باشا سميز، ومحمد باشا صوكولو، فضلا عن فاعلين آخرين من ولاة مصر واليمن، مثل مصطفى النشار وعويس باشا وداود باشا وأوزدمير باشا وحسن باشا وسنان باشا، وكذلك رُيّاس بحر وقراصنة كُثر مثل بيري وحسين الرومي وخير الدين الرومي وسلمان وخوجه صفر ومصطفى بيرم وسيدي علي وسفر ومير علي بك وغيرهم، وهؤلاء هم أبطال قصة عصر الاستكشاف العثماني التي يسرد هذا الكتاب حلقاتها(*).

أدرك هؤلاء الفاعلون المزايا الاستراتيجية التي كان يمكن للإمبراطورية أن تحققها من حضورها القوي في المحيط الهندي، وكذلك الأرباح الطائلة التي كان يمكنها أن تجنيها من تجارة التوابل. وشكّل هؤلاء الرجال معا ما أسماه كازالي «عصبة المحيط الهندي» داخل البلاط والنخبة الحاكمة العثمانية، وهي جماعة ضغط كانت لها مصالح في توسيع الوجود العثماني في المحيط الهندي، وتقويته واستمرار تدفق تجارة هذا المحيط إلى البحر الأحمر، ومنه إلى مصر وحوض البحر الأبيض المتوسط.

والكتاب في هذا الجانب تحديدا - وجود جماعات ضغط وأصحاب مصالح في البلاط العثماني ودائرة صنع القرار الإمبراطوري - ينقض فكرة نمطية متواترة في

(*) كان لرُيّاس البحر - كما يثبت الكتاب الحالي - الفضل في بدء الاستكشاف العثماني للمحيط الهندي واستمراره، لذلك آثر المترجم إبراز دورهم في عنوان الترجمة العربية للكتاب، علما بأن الكتاب تحت النشر باللغة التركية بعنوان «سلاطين المحيط الهندي: عصر الاستكشاف العثماني» (بتواصل شخصي مع المؤلف).

كتب التاريخ سبق أن أبرزها المترجم في عمل سابق(*)، مؤداها أن فارقا جوهريا بين الدولة التاريخية الغربية والإسلامية تمثل في العلاقة بين الاقتصاد والسياسة، بمعنى «لمصلحة مَنْ تدار الدولة»، وهو الفارق الذي أوجزه أودوفيتش Udovitch بقوله إن «التاجر في الدول المدينية(**) الإيطالية كان بوسعه أن يقول: L'etat c'est moi (الدولة أنا) ، بينما لم يكن بوسع التاجر في مصر الفاطمية إلا أن يقول: L'etat n'est pas contre moi (الدولة ليست ضدي)»، وهو ما ينطبق بالطبع على عصر قوة الدولة المصرية والإسلامية عموما وازدهارها، وليس عصر تراجعها وأزمتها الاقتصادية الذي امتصت الدولة فيه التاجر واستنزفته حتى فرّ وهاجر، كما حدث مع تجار الكارم(***) الذين هربوا من مصر المملوكية إبان عهد الأشرف برسباي (1422 - 1438) بسبب الاحتكار والابتزاز من جانب الدولة.

وفي المقابل، تُقدم الدولة الغربية في كتب التاريخ على أنها وقفت بكل قوتها وراء مصالح التجار في الداخل والخارج، وهي العلاقة التي تجلت في أوضح حالاتها في نماذج شركة الهند الشرقية الهولندية والبريطانية، والشركة الأفريقية الملكية وشركة سيراليون البريطانيتين، وشركة السنغال وشركة جزر الهند الغربية الفرنسيتين على سبيل المثال لا الحصر، وهي لم تتمتع بحماية الدولة فقط، بل كانت رأس حربة للتوسع والاستعمار، وكان لها - كما في حالة شركة الهند الشرقية البريطانية - جيوش جرارة احتلت أكبر وأهم مستعمرة لبريطانيا، الهند، وأدارتها لما يقارب ثلاثة قرون إلى أن ضمها التاج البريطاني في العام 1874.

(*) روناد فيندلاي، كيفين أورورك «القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (جزءان)، ترجمة مصطفى قاسم، الرياض، دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015.

(**) الدولة المدينية، أو الدولة - المدينة city-state كيان سياسي أو قائم بذاته، يتكون إقليمه من مدينة واحدة كبيرة وتوابعها. من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين (مثل بابل وأور)، ومدن كنعان الفينيقية (مثل صور وصيدا)، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية (مثل أثينا واسبرطة وثيفا وكورنث، ثم البندقية وجنوه) وغيرها من الدول المدينية الإيطالية، ومن أمثلتها المعاصرة إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان. [المترجم].

(***) «الكارم» هم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق الذين اضطلعوا بدور الوساطة من مصر بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر الأبيض المتوسط، وتولوا تنظيم الحياة التجارية والاقتصادية في مصر بداية من زمن الفاطميين حتى زمن المماليك، يُختلَف في أصل تسميتهم، إذ يرده البعض إلى «الكانم»، وهي منطقة في بلاد السودان الغربي واسم لتجارها الذين أقام بعضهم في مصر، ويرده غيرهم إلى كلمة تاميلية وهندية بمعنى التجارة، وكلمة أمهرية بمعنى «الحبهان»، وهو أحد التوابل التي تاجروا فيها، ويرده غيرهم إلى العنبر الأصفر أي «الكارم» الذي كانوا يجلبونه وتصنع منه قلائد النساء في مصر، وهناك من حلل الكلمة إلى «كار + يم» بمعنى حرفة التجارة في البحار البعيدة، أو من رأى أنها تعني المواد الغذائية، أو مشتقة من الكرم والجود.

لكن ها هو هذا الكتاب يعارض هذه الفكرة، ولو جزئيا: للدولة العثمانية فقط ولفترة محدودة من تاريخها؛ إذ شكّل أصحاب المصالح التجارية في المحيط الهندي وتجار التوابل ورعاتهم من الصدور الأعظمين والولاة والوزراء الذين سماهم الكتاب «عصبة المحيط الهندي» قوةَ دفع كبيرة وراء الاستراتيجية العثمانية التوسعية في المحيط الهندي وجزر الهند الشرقية.

وفي الخط الفكري ذاته، يثبت الكتاب أن تدخل الدولة العثمانية في المحيط الهندي كان في المقام الأول لضمان حرية التجارة وحماية مصالح التجار؛ إذ كان السبب الأساس وراء تدخلها في المحيط الهندي ابتداء، وتعاونها مع مسلمي المحيط واستخدامها خطاب السيادة العالمية هو عرقلة البرتغاليين للتجارة الحرة في ذلك المحيط وحصارهم للبحر الأحمر. وفي كل المفاوضات مع البرتغاليين، كان مطلب حرية التجارة للجميع (مسلمين وغير مسلمين) وفي كل الموانئ - الخاضعة للعثمانيين والبرتغاليين وغيرهم - هو المطلبَ الأساس للجانب العثماني، وكان هو نفسه ما أحبط التوصل إلى اتفاق بسبب إصرار البرتغاليين - حتى النهاية - على تطبيق سياسة الاحتكار والتمسك بعقلية الحروب الصليبية التي أبت الاعتراف بوجود المسلمين أو مصالحهم.

لكن من الممكن التوفيق بين هاتين الرؤيتين للدولة العثمانية: كونها دولة تبتز التجار ولا تراعي مصالحهم، كما في الرؤية النمطية للدولة الإسلامية، وعملها في المحيط الهندي لمصلحة حرية التجارة ومن أجل مصالح التجار، كما في هذا الكتاب؛ فقد جمعت الدولة العثمانية بين الضدين خلال القرن السادس عشر؛ إذ سيطرت إلى حد خانق على تجارة البحر الأحمر، وفرضت عليها ضرائب عالية، وشاركت بنفسها فيها من جانب، ومن جانب آخر كفلت حرية التجارة، وفرضت ضرائب مخفضة في الخليج العربي والطريق البري المار من البصرة إلى حلب؛ ففي المناطق التي كانت تحت سيطرة عثمانية كاملة، كما هي الحال في البحر الأحمر، كانت الضرائب العالية هي القاعدة بسبب غياب الطرق المنافسة، أما في المناطق التي شهدت منافسة مثل الخليج العربي الذي تحكم البرتغاليون في مدخله بسيطرتهم على ميناء هرمز، فكانت التجارة الحرة والمعدلات الضريبية المعقولة هي الحل لتشجيع مرور التجار وبضائعهم، ومن ثم زيادة عائدات

الدولة. وفوق ذلك كله، كان عمل الدولة العثمانية من أجل حرية التجارة في المحيط الهندي - في حقيقته - يستهدف ضمان استمرار الحركة التجارية عبر البحر الأحمر لجباية الضرائب العالية نفسها عليها.

وإلى جانب نقض الفكرة النمطية السابقة، ولو جزئيا، يتحدى الكتاب السرديات التقليدية للهيمنة الغربية؛ إذ يدفع بأن العثمانيين لم يكونوا فقط مشاركين نشطين في عصر الاستكشاف، بل تفوقوا في النهاية على البرتغاليين في لعبة السياسة العالمية، مستفيدين في ذلك من القوة البحرية والمكانة السلالية والدربة التجارية لفرض سيادتهم الإمبريالية على أنحاء المحيط الهندي.

ينتمي هذا الكتاب - في هذا الجانب - إلى اتجاه بحثي متنامٍ يثبت أن المجتمعات الإسلامية الشرق أوسطية، ومن ضمنها العثمانيون، لم تدخل في حالة تدهور أو مَوات مع توسع الإمبراطورية البرتغالية. وقد أحرزت دراسات المحيط الهندي تقدما يكفي لاستبعاد التصور الخاطئ الذي يذهب إلى أن وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي أدى إلى توقف الحركة التجارية بين ذلك المحيط والبحر الأبيض المتوسط نهائيا. ويذهب المؤلف إلى أبعد من ذلك؛ إلى أن الإمبراطورية العثمانية أصبحت فاعلا نشطا تجاريا وعسكريا في المحيط الهندي، وأن لقاءها مع البرتغاليين كان الفاتحة لأول مواجهة بين «أيديولوجيات عالمية» متنافسة، اتخذت من الكرة الأرضية كلها مسرحا للهيمنة والتنافس. ومع أن الدين ظل يعرِّف المنافسة بين الإمبراطوريتين، فإن المصالح التجارية كانت تلقي بظلالها على أي اعتبار آخر.

يبيّن الكتاب كيف حصَّل العثمانيون معرفة الجغرافيين والرحّالة الأوروبيين والعرب، لاسيما في مجال رسم الخرائط؛ فقد كانت الأعمال البرتغالية والإسبانية والإيطالية والهولندية في هذا المجال متوافرة في الإمبراطورية العثمانية، وسرعان ما ألهمت رحّالة عثمانيين بكتابة تقارير حول رحلاتهم في المحيط الهندي، ولقاءاتهم مع البرتغاليين الواصلين حديثا والسكان والحكام المسلمين المحليين هناك.

يحلل الكتاب الدوافع وراء كتابة هذه التقارير وتأثيرها في رؤية النخبة الحاكمة العثمانية، واستغلال هذه المعرفة في الصراعات الداخلية بشأن السياسات العثمانية في منطقة المحيط الهندي. كان اللقاء مع البرتغاليين في المحيط الهندي، ومن قبلهم مع الممالك والإمارات الإسلامية المختلفة هناك، دافعا لصياغة وعي عالمي جديد،

وأوجد - بالتوازي مع المزاعم العالمية البرتغالية - زعما عالميا عثمانيا بأن السلطان هو خليفة المسلمين، لاسيما في المحيط الهندي الذي لقيت هذه الدعوة قبولا فيه بسبب الأعمال العدوانية البرتغالية في المقام الأول.

يقدم الكتاب - إذن - سردية أصيلة ومتبصرة للتوسع العثماني في عالم المحيط الهندي إبان ذروة القوة لتلك الدولة خلال القرن السادس عشر. ومن خلال الاعتماد على مصادر عثمانية وبرتغالية، يفند الكتاب الرؤية الأقدم التي تذهب إلى أن القوى الإسلامية لم تستجب للتوسع البحري الأوروبي إلا ببطء ووهن. وبدلا من ذلك يعرض الكتاب الأفعال العثمانية التي تكشف عن استراتيجية جيوسياسية متروية وضغوط من أصحاب مصالح محليين أقوياء. ويثبت أن الإمبراطورية العثمانية لم تكن «ضحية» للتوسع الأوروبي فيما وراء البحار، كما في الرؤية المهيمنة على الكتابة التاريخية، بل كانت شريكا نشطا في الاستكشاف على أصعدته الأربعة جميعها، كما يثبت الكتاب الحالي.

يجمع المؤلف هذه السردية واسعة النطاق في نص موجز وممتع في قراءته. تبدأ مقدمة الكتاب بالدفع بأن «عصر الاستكشاف العثماني» اشترك مع نظيره الأوروبي في السمات الأربع الرئيسة. ثم يطور الفصل الأول هذه الفكرة بالدفع بأن سياسات المحيط الهندي التي تبناها السلطان سليم الأول لم تختلف عن سياسات هنري الملاح البرتغالي. ويناقش الفصل الثاني العقدين الثالث والرابع من القرن السادس عشر في السياسة العثمانية اللذين انطبعا بالصدارة العظمى لإبراهيم باشا البرغي، باعتبارهما «عصر الاستطلاع» الذي تغلب فيه العثمانيون على عقبات إمدادية هائلة لبناء أسطول البحر الأحمر وبدء الحضور في شرق أفريقيا والهند. ويسرد الفصلان الثالث والرابع قصة «الحرب العالمية» الأولى التي حاول العثمانيون من خلالها تأكيد حضورهم في بحر العرب وأجزاء الهند الإسلامية خلال العقدين الخامس والسادس من القرن السادس عشر. ويتقصى الفصلان الخامس والسادس ذروة التقدم العثماني في المحيط الهندي خلال العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر اللذين انطبعا بصدارة محمد باشا صوكولو، وشملا كلا من الحملات العسكرية الكبيرة و«القوة الناعمة» التي قامت على جمع المسلمين تحت راية السلطان.

وفي الفصل الختامي، يتناول المؤلف تراجع القوة السياسية والعسكرية العثمانية بعد حملة فاشلة لبناء قاعدة عسكرية متقدمة في مومباسا في العام 1589، وصعود قوى إسلامية منافسة في الهند وسومطرة. ويدفع المؤلف في هذا الفصل بأن العثمانيين مع أنهم أُجبروا في النهاية على التخلي عن استراتيجيتهم الكبرى، فإن الإمبراطورية نجحت بدرجة كبيرة في إنجاز أهدافها في تحرير التجارة في المحيط الهند، ودحض مزاعم الهيمنة البرتغالية.

***

لقد استمر الوجود العثماني المباشر في المحيط الهندي، على اتساعه، من شرق أفريقيا والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والخليج العربي حتى الهند وأرخبيل الملايو نحو قرن من الزمن، تحديدا من العام 1517 الذي غزا فيه العثمانيون مصر حتى فشل حملة مير علي بك على شرق أفريقيا في العام 1589، وإن ظلوا بعدها في اليمن وباب المندب حتى العام 1636. وعلى مدار تلك العقود، كان الوجود العثماني قويا عسكريا وأيديولوجيا وتجاريا.

عسكريا، سيطر العثمانيون على البحر الأحمر برمته، وأكملوا سيطرتهم على شرقه الذي توجد فيه المدينتان المشرفتان وجدة بسيطرتهم على شاطئه الغربي باحتلالهم موانئ سواكن ومصوع وإريتريا، وحملاتهم على شرق أفريقيا وتعاونهم مع جماعاتها المسلمة ضد البرتغاليين وحلفائهم المحليين، واحتلوا اليمن، وضموا البصرة وإمارات غرب الخليج العربي، ومارسوا نفوذا كبيرا على الممالك والجماعات المسلمة على طول ساحل الهند وفي أرخبيل الملايو.

وأيديولوجيا، نالت الدولة العثمانية اعتراف جميع المسلمين في أنحاء المحيط الهندي بأنها الممثل الأعلى للمسلمين والقَيِّم على مصالحهم، والسلطة العليا عليهم التي تتجاوز السلطات المحلية. بل إن السلطات والجماعات المسلمة هناك كانت تستدعي العثمانيين لحمايتهم أو للتعبير عن مصالحهم. وللمفارقة، كما يؤكد هذا الكتاب، استفاد الوجود العثماني العسكري والأيديولوجي والتجاري في المحيط الهندي من الوجود البرتغالي؛ إذ كان التهديد الذي شكّله البرتغاليون على الممالك والجماعات المسلمة في المحيط الهندي، وحصارهم البحر الأحمر وحظرهم تجارةَ المسلمين هي الدافع إلى احتضان هذه الجماعات،

وتلك الممالك لخطاب السلطة العالمية العثمانية، واستدعائهم للعثمانيين مرات ومرات للتصدي للتدخلات البرتغالية. حدث ذلك من سلطنات الهند ومن سومطرة على الطرف الشرقي للمحيط الهندي، ومن سلطنة عدل وومباسا والجماعات المسلمة على الطرف الغربي للمحيط. وبسبب الوجود البرتغالي، نشر العثمانيون المدافع وتقنية صبها واستخدامها في هذه المناطق، ومعها اعتراف بالسيادة العالمية العثمانية على المسلمين.

وتجاريا كسر العثمانيون الحصار البرتغالي على البحر الأحمر، وجعلوا منه بحيرة عثمانية، والأهم من ذلك أنهم كسروا الحظر البرتغالي على التجار المسلمين في المحيط الهندي، فواصل التجار العمل بين موانئ الهند وجنوب شرق آسيا من ناحية والبحر الأحمر وما وراءه من ناحية أخرى، بل إن التجارة على هذا الطريق لم تتأثر للحد الذي يُربَط غالبا باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وفتحه، إذ ظل التجار المسلمون يجلبون التوابل وغيرها من الهند وجنوب شرق آسيا إلى مصر التي كانت تباع فيها لتجار أوروبيين كانوا يأخذونها إلى دول أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط. وزاد العثمانيون على ذلك صفة أخرى اشتركوا فيها مع قوى الاستكشاف الأوروبية في ذلك العصر، لاسيما البرتغال، وهي أن الدولة شاركت بنفسها في تجارة التوابل، سواء بشرائها من سومطرة في مقابل الأسلحة، أو بالحصول على خراج اليمن في شكل توابل، كانت في البداية تباع في مصر ويذهب ريعها إلى إسطنبول، ثم صارت تُنقل إلى إسطنبول مباشرة، وتباع هناك تفاديا للفساد الذي شاب الطريقة الأولى. وبالتزامن مع ذلك فتحت الدولة العثمانية طريقا تجاريا بريا بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط عبر البصرة وبغداد وحلب، وخفّضت الضريبة عليه، ما شجع مرور التجار المسلمين وغير المسلمين، وحتى المسؤولين البرتغاليين.

في الحساب الختامي هل خرجت الدولة العثمانية مهزومة من المحيط الهندي أمام البرتغاليين؟ ظاهر الحال يجيب عن هذا السؤال بـ «نعم»، لكن التحليل المتأني، كما يفعل الكتاب الحالي، يجيب بعكس ذلك. احتل العثمانيون اليمنَ ومن بعده سواكن ومصوع وإريتريا، وساعدوا حليفهم أحمد غري، حاكم سلطنة عدل، في هزيمة إثيوبيا والاستيلاء على معظم إقليمها بعض الوقت، وأمدوا حلفاءهم في آتشيه وكُجرات بالسلاح والرجال، وأمّنوا البحر الأحمر، واحتلوا

الشاطئ الغربي للخليج العربي حتى الأحساء والقطيف جنوبا، ووصلت سفنهم على ساحل شرق أفريقيا حتى مومباسا. ومع أنهم فشلوا في حصار ديو وإسقاطها بقيادة سليمان باشا الخادم في العام 1538، وفشلوا في حصار هرمز والاستيلاء عليها بقيادة الريس بيري في العام 1552، فإن وجودهم ظل قويا في المحيط الهندي، وظل اليمن والبحر الأحمر تحت سيطرتهم، وظل حلفاؤهم في الهند وسومطرة يقوّضون الوجود البرتغالي ويكسرون احتكار البرتغاليين للتجارة، وظلت أساطيلهم تحمي التجارة الإسلامية، وتمارس القرصنة على الشحن البرتغالي، وتوزع الدعم على الحلفاء المختلفين والمنتشرين.

وحتى بعد فشل حملتهم الثانية على الساحل السواحلي وما نتج عنه من توقف أعمالهم التوسعية، ظل البحر الأحمر بحيرة عثمانية حتى القرن التاسع عشر، وفرض العثمانيون نموذج حرية التجارة على المحيط الهندي والخليج العربي، ما أدى إلى ازدهار التجارة والتجار في مصر والشام خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر والربع الأول من القرن التالي. وقبل أن ينتهي الوجود العسكري العثماني في المحيط الهندي، كان منافسوهم البرتغاليون يتكبدون المصير عينه؛ إذ طُرِدوا من هرمز في العام 1622؛ إثر هجوم منسق بين شركة الهند الشرقية البريطانية والشاه عباس، ثم طردهم الهولنديون من ملقا في العام 1631. فمع دخول القوى الإمبريالية الغربية الجديدة المشهدَ، تلاشى العثمانيون وشبكة حلفائهم وأعدائهم.

لكن هل كان هذا الأداء السياسي والعسكري لائقا بالدولة العثمانية أمام البرتغال؟ أي مع الأخذ بعين الاعتبار أن الدولة العثمانية كانت - وهي في أوج قوتها إبان القرن السادس عشر - إمبراطورية مترامية الأطراف (غطت الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والقرن الأفريقي وآسيا الصغرى ومعظم جنوب شرق أوروبا وأجزاء من وسط أوروبا والقوقاز)، ووفيرة السكان (ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليونا)(*) وكثيرة الحروب والانتصارات الكبرى، في حين كانت البرتغال دولة محاصَرة صغيرة المساحة (كانت قد بدأت من فورها في استعمار أمريكا الجنوبية وانتزاع

(*) عدد السكان مأخوذ من كتاب «الشبكة الإنسانية: نظرة محلقة على التاريخ العالمي»، تأليف جون روبرت مكنيل ووليام هاردي مكنيل، ترجمة مصطفى قاسم، العدد 458، 2018، الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

بضعة مواطئ قدم متفرقة على محيط المحيط الهندي) وقليلة السكان (بالكاد مليون وربع مليون نسمة خلال القرن السادس عشر)(*).

إن من تصدوا لهذا السؤال خرجوا بأن العملاق العثماني كان دولة «برية» مجالها التوسع الإقليمي والحروب البرية، وأن الدولة البرية تفضل العائدات الزراعية على الدخول التجارية، وأن الحرب في المحيط الهندي كانت بحرية في المقام الأول. لكن الأحداث فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأسود تثبت أنها كانت دولة بحرية من الطراز الأول، حتى أن فتح القسطنطينية لم يحدث إلا بفضل التمكن من الحرب البرية والبحرية معا، وقد استعصى على الفاتحين السابقين بسبب البحر الذي ظل متنفسا للمدينة في نوبات حصارها الكثيرة السابقة. وعلى مستوى التسلح البحري، كان الأسطول العثماني خلال القرن السادس عشر من أكثر أساطيل العالم تفوقا، من حيث نوعية السفن والمدافع المركّبة عليها، ومن حيث الخرائط والمعرفة الجغرافية والملاحية، كما يثبت الكتاب الحالي.

لكن في المقابل، عمل العثمانيون في المحيط الهندي في ظروف صعبة؛ إذ كان عليهم بسبب الافتقار إلى الغابات في منطقة البحر الأحمر القاحلة أن ينقلوا - عن طريق البحر نحو ألف ميل من غابات الأناضول البعيدة - كلّ لوح خشبي دخل في سفينة أبحرت في المحيط الهندي، ثم ينقلوه - أي الخشب - ثانية ومعه كل المستلزمات الأخرى أكثر من مائة ميل عبر الصحراء إلى ترسانة السويس. والأهم من ذلك أن أعين الإمبراطورية العثمانية كانت مسلطة دائما على الشمال والغرب والشرق، حيث روسيا والقوقاز والنمسا والبلقان وروما وإسبانيا. كان المجد، في أعين السلاطين العثمانيين، متربعا على أبواب فيينا وروما، وأحواض أنهار الدون والدانوب والفولغا، والبحر الأبيض المتوسط، وليس في البحر الأحمر ولا المحيط الهندي اللذين ما كان لهما أن يفرضا نفسيهما على طموح السياسة العثمانية لولا عصبة المحيط الهندي. كان الميدان الذي اختارته «إمبراطورية السلاطين» لإظهار قوتها هو أوروبا والبحر الأبيض المتوسط، وليس جزر الهند الشرقية التي كانت الميدان الذي فرضته «إمبراطورية رُيّاس البحر»، على رغم صد «السلاطين» عن الجنوب وشؤونه.

(*) عدد السكان مأخوذ من كتاب «القوة والوفرة».

على أنه ينبغي التنبيه على أن الكتاب - بتعبير المؤلف – لا يعرض تاريخا مقارنا، بل تاريخا سرديا كُتب من منظور العثمانيين. لذلك يأتي في بعض المواضع احتفاءٌ قد يبدو مبالغا فيه بمنجز العثمانيين في هذا الحدث أو ذاك، أو انتقاص قد يبدو مبالغا فيه لمنجز البرتغاليين في هذا الحدث أو ذاك، أو إشادة قد تبدو مفرطة بشخصيات عثمانية، أو استخفاف قد يبدو مفرطا أيضا بشخصيات برتغالية. وجاءت هذه كلها بلغة المؤلف (الأمريكي من أصل إيطالي) وعباراته، نقلها المترجم بأمانة من دون زيادة أو نقصان، وهي قبل كل شيء أحكام مسندة بالأدلة التاريخية تقدم رواية مغايرة للخط الرئيس في مجال التاريخ العثماني وتاريخ المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا خلال العصر الحديث المبكر. وربما وجب هذا التنبيه بسبب هذه المغايرة.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن القارئ سيتعجب من عزيمة دولة البرتغال الصغيرة ومثابرتها وقوتها، ووجودها الواسع، وردها الانتقامي العنيف والمبالغ فيه وغير المؤجل على كل ما اعتبرته اعتداء على مناطق سيادتها الفعلية أو الأيديولوجية، وسيتعجب من منجزها وبقائها في المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا حتى النصف الثاني من القرن العشرين، حتى إن كان هذا المعقل أو ذاك قد انتُزع منها على طول الطريق مع وصول القوى الإمبريالية الأوروبية الجديدة للمشهد، مع الأخذ في الحسبان أن المسافة التي تفصل البرتغال عن أقرب معاقلها في الهند كانت أضعاف المسافة التي تفصل إسطنبول - وليس ولاية اليمن القريبة - عن مسرح الأحداث في المحيط الهندي، ومع الإقرار في المقابل بوجود برزخ السويس الفاصل بين البحر الأبيض المتوسط «العثماني» والبحر الأحمر «العثماني» وما وراءه.

سيلاحظ القارئ - كأحد التفسيرات الممكنة لتلك النتيجة بعيدة المدى - تعدد القيادات البحرية البرتغالية في مقابل قلتها على الجانب العثماني. فعلى الرغم من أن الكتاب كُتب من منظور العثمانيين، وبالرجوع إلى كتاباتهم في المقام الأول، فإن ممثلي القيادات البحرية العثمانية الفذة في المنطقة كانوا أفرادا معدودين تتابعوا بفواصل عقود، لكنهم لم يتعاصروا قط، حتى إنه قد فصلت بين بعضهم سنوات وعقود لم تشهد قيادة بارزة. من ذلك مثلا أن موت الريس سفر كان إيذانا بموت المشروع الإمبريالي العثماني في المحيط الهندي، وأن فشل حملة الريس مير علي بك الصغيرة وهزيمتها وأسر أفرادها كان النهاية الفعلية للوجود العسكري العثماني في

المحيط الهندي خارج موانئ اليمن والبحر الأحمر. وفي المقابل كان كل أسطول أو سرب بحري برتغالي يأتي في كل عام تحت إمرة كابتن غير الذي قاد الأسطول أو السرب السابق، أو بمعنى آخر لم يأتِ أسطولان أو سربان بحريان برتغاليان متتاليان بقيادة كابتن أو أميرال(*) واحد. وللمفارقة كانت السياسة البرتغالية واحدة على رغم تغير الفاعلين في المنطقة، وكانت السياسة العثمانية متغيرة على رغم وحدة الفاعلين في المنطقة.

ربما نتج ذلك - في جزء منه فقط - عن التحيزات في كتابة التاريخ العثماني؛ لأن معظم مدونات التاريخ العثماني كُتِبت برعاية فاعلين كبار، في الغالب صدور أعظمِين، ولعلها لذلك غضت الطرف عن أسماء الفاعلين الآخرين وإسهاماتهم، من باب إرجاع كل الفضل إلى راعي المؤلف والكتاب، وهو ما يتأكد من حقيقة أن معرفتنا بريّسي البحر البارزَين سفر ومير علي ونشاطاتهما مستمدة في معظمها من المصادر البرتغالية وليست العثمانية. لكن يبقى أن البرتغال على صغر حجمها، وضآلة عدد سكانها، وصغر حجم قواتها البحرية في المحيط الهندي، والمسافة الشاسعة التي تفصلها عن ذلك المحيط وعالمه، قدمت أضعاف القيادات البحرية التي قدمتها الإمبراطورية العثمانية على ضخامتها وجيوشها الجرارة وقربها من مسرح الأحداث.

وربما يتمثل سبب أقوى لنقص القيادات البحرية العثمانية البارزة - مقارنة بالبرتغال - في الخصومات والصراعات والمنافسة الصفرية بين القيادات المحلية العثمانية، فضلا على القيادات في البلاط الإمبراطوري. من ذلك مثلا أن قائدين بارزين بحجم الريس سلمان وخير الدين الرومي لم تنتهِ حياتهما بالموت الطبيعي، أو في ساحات المعارك ضد الأعداء، بل باغتيال خير الدين لسلمان، ثم قتل خير الدين على أيدي رجال سلمان. وقبلهما أُعدِم أمير البحر المملوكي المميز حسين الكردي بأمر السلطان سليم. ومن ذلك أيضا أن الريس سفر الذي يعدد المؤلف سجاياه كقيادة

(*) الكلمة admiral [أدميرال] وتنويعاتها في اللغات الأوروبية مأخوذة من الأصل العربي emir albahr [أمير البحر] الذي نُقل إلى اللغة الفرنسية في الشكل Amiral (أميرال)، بعد انتقال صقلية من حكم المسلمين إلى النورمان، عندما استعمل روجر الثاني الصقلي Roger II of Sicily (1095 - 1154) أمراء بحر سبق أن خدموا الحكام المسلمين على الجزيرة، وبناء عليه تُعرِّب في الكتاب الحالي إلى أميرال. [المترجم].

بحرية فذة قضى معظم حياته المهنية بلا عمل في ترسانة السويس بسبب التنافس والصراعات داخل البلاط العثماني، وما كاد يعطَى الأوامر بالعمل حتى عاجلته المنية. يوحي ذلك إجمالا بأن العثمانيين ربما أداروا دولتهم بقيادة متناحرة فيما بينها بدلا من أن تكون متضافرة، سواء على مستوى البلاط وفاعليه، أو على مستوى الأساطيل والأسراب البحرية والقواعد البحرية المتقدمة. يتأكد ذلك من حقيقة أن من يسميهم الكتاب «عصبة المحيط الهندي» انتهت حياة كثيرين منهم بالقتل بسبب فسادهم كولاة لمصر أو اليمن.

لكن إجمالا يمثل هذا الكتاب اتجاها جديدا يثبت أن التفوق البحري لم يكن قط حكرا على الغرب، كما ترسخ في العقول بداية من حركة الاستكشاف الأوروبية وبناء الإمبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار. فركوب البحر وإظهار القوة العسكرية على صفحته سابق على وجود الأمم الأوروبية الإمبريالية نفسها، وهو جانب شاركت فيه كل الجماعات والثقافات على امتداد التاريخ، وعلى امتداد الكرة الأرضية قبل أن تتحدد ملامح الأمم الأوروبية الحديثة، كما يثبت كتاب آخر من الاتجاه نفسه بعنوان «البحر والحضارة: التاريخ البحري للعالم» The Sea and Civilization: A Maritime History of the World للمؤلف لنكن بين Lincoln Paine.

***

فيما يتعلق بعملية الترجمة، ثمة ملحوظة تتعلق بتعريب أسماء أبطال الرواية العثمانيين؛ ففي أسماء الأعلام العثمانية صوكولو محمد باشا وخادم سليمان باشا وخوجه سنان باشا وقليج علي باشا وخازندار سنان باشا وأوزدمير أوغلو عثمان على سبيل المثال لا الحصر، تمثل الكلمة الأولى فيها نعتا لصاحب الاسم؛ إذ تشير - على التوالي - إما إلى انتمائه العرقي، أو مسقط رأسه، مثل «صوكولو»، أو صفته الوظيفية لدى السلطان مثل «الخادم»، أو صفة تبجيلية له مثل «خوجه» التي تعني «الكبير»، أو صفته الجسدية مثل «قليج» التي تعني «القوي المتين»(*)، أو وظيفته مثل «خازندار» التي تعني «أمين الخزانة»، أو نسبة إلى أبيه مثل «أوزدمير أوغلو» التي تعني «ابن أوزدمير». وإذا اتبعنا القاعدة العربية بكتابة نعت الشخص بعد

(*) تُعرَّب كثيرا إلى «علج»، وكانت تُستخدم في الأندلس للإشارة إلى الشخص الجديد على الدين، سواء كان مسيحيا أسلم أو مسلما تنصَّر.

اسمه، كأن نكتب - على التوالي أيضا - محمد باشا صوكولو، وسليمان باشا الخادم، وسنان باشا خوجه، وعلي باشا قليج، وسنان باشا الخازندار، وعثمان أوزدمير أوغلو، فإن الاسم بهذا الترتيب لن يحيل ذهن القارئ إلى الاسم الدارج لهذه الشخصية أو تلك كما اعتاد أن يقرأه أو يسمعه. لذلك أبقى المترجم على أسماء الأعلام العثمانية بترتيبها في اللغة العثمانية، إلا ما اشتهر منها بالترتيب الصحيح للاسم، مثل محمد باشا صوكولو، وسليمان باشا الخادم، أو من كانت هناك صعوبة في اسمه بالترتيب العثماني، مثل خازندار سنان (الأيسر سنان الخازندار)، أو أوزدمير أوغلو عثمان (الأيسر عثمان أوزدمير أوغلو)، أو سميز علي باشا (الأيسر علي باشا سميز). وفي كل الحالات يكتب المترجم أسماء الأعلام بترتيبها العثماني بالحروف اللاتينية مع أول ظهور لها في الكتاب.

كذلك حرص المترجم على استخدام الألقاب الوظيفية والرتب العسكرية بأسمائها عند العثمانيين والبرتغاليين. لذلك يترجم رتبة أمير أمراء البحر العثماني إلى «قبودان»، في مقابل «أميرال» في الحالة البرتغالية. ويترجم رتبة القائد البحري للميناء أو الأسطول أو السرب البحري في الحالة العثمانية إلى «قبطان» و«ريس»، في مقابل «كابتن» في الحالة البرتغالية. وفيما يخص الرتبة البحرية «ريس»، فإن اللغة التركية العثمانية تضعها بعد اسم حاملها، مثل بيري ريس Piri Reis، وسلمان ريس Selman Reis، وسفر ريس Sefer Reis وغيرهم. لكن ذلك يحجب عن القارئ العربي أنها رتبة بحرية، لذلك استخدم المترجم الطريقة العربية لإضافة الرتب العسكرية للأسماء بتعريف هذه الرتبة ووضعها أمام اسم حاملها، ليصير الاسم الريس بيري والريس سلمان والريس سفر وهكذا.

وفيما يتعلق بأسماء الأماكن، حرص المترجم على أن يستخدمها من منظور هذا الفاعل أو ذاك (العثماني أو البرتغالي)، مثل استخدام اسم «القدس» و«أورشليم». كما حرص على استخدام أسماء الأماكن كما ظهرت في الكتابات العربية والعثمانية المعاصرة، كلما تيسر له الوصول إليها، مثل استخدام أسماء «مليبار» و«السامري» و«كجرات»، بدلا من مالابار والزامورين وغوجارات على التوالي.

وفي الختام، سيظل عصر الاستكشاف ورحلاته وأحداثه ومغامراته ونتائجه أحد الموضوعات القليلة التي تثير شغف الناس في كل زمان ومكان. وإلى جانب هذا

الموضوع، يتناول الكتاب الحالي جزءا مهما من تاريخ منطقتنا العربية والشرق الأوسط والعالم الإسلامي، ويسرد الصراع البرتغالي - العثماني للهيمنة على المحيط الهندي وعالمه خلال هذه الفترة المبكرة من عصر الإمبراطوريات الأوروبية قبل وصول الهولنديين والإنجليز والفرنسيين، ويكشف جوانب ظلت خفية من تاريخ الدولة العثمانية؛ لذلك يأمل المترجم أن يكون إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية، شاكرا كلا من سلسلة «عالم المعرفة»، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، على تبني الكتاب ونشره، والمؤلف جانكارلو كازالي على تزويده بالكتاب الأجنبي، ورده على كل الاستفسارات بشأن النص.

مصطفى قاسم

الرياض، ديسمبر 2017

كلمة المؤلف للقارئ العربي(*)

يشرفني أن أقدم لقراء العربية ترجمة كتابي «رُيّاس البحر الهندي - عصر الاستكشاف العثماني»، وهو شرف لم يكن متوقعا بالنظر إلى أنني كتبت الكتاب أصلا وليس في ذهني إلا جمهور القراء الأوروبي والأمريكي. لذلك كانت بغيتي الأساسية هي أن أسرد قصة التوسع العثماني في المحيط الهندي المسكوت عنها تماما. وابتغيت إلى جانب ذلك أن أتحدى ما درج عليه الغرب من النظر إلى عصر الاستكشاف باعتباره «تاريخهم»، وذلك من خلال تقديم مثال لدولة إسلامية قوية

(*) أُرسلت كلمة المؤلف إلى المترجم في ملف إلكتروني بعد الانتهاء من ترجمة الكتاب. [المترجم].

شاركت هي الأخرى في استكشاف ما وراء البحار، وتنافست بنجاح على حصتها من تجارة التوابل في المحيط الهندي.

استنادا إلى الاهتمام الذي حظي به الكتاب، أعتقد أنه نجح في بلوغ أهدافه، لكن النقائص لا تغيب عن أي عمل تاريخي، وفي حالة هذا الكتاب يتمثل أحد المآخذ الواضحة عليه في إهماله النسبي للمصادر العربية المعاصرة، وهو ما لا يرجع بالطبع إلى نقصها، بل إلى تواضع إلمامي باللغة العربية، ما جعلني أعتمد أكثر من اللازم على المواد المكتوبة باللغة العثمانية واللغات الأوروبية.

يعكس إهمال المصادر العربية – للمفارقة - مشكلة في التخيل التاريخي لا تختلف كثيرا عن المشكلة التي يتصدى لها كتابي، وهي تحديدا اعتياد الناس في تركيا النظر إلى الماضي العثماني باعتباره «تاريخهم»، وليس تاريخ ذلك المجتمع متعدد الأعراق الذي لم تكن الأمم والهويات القومية المكوِّنة له قد وُجدت بعد على النحو الذي نفهمه اليوم. لذلك لايزال كثير من دارسي التاريخ العثماني - حتى غير الأتراك مثلي - يتعلمون قراءة اللغة التركية العثمانية دون اللغة العربية، وشبوا على اعتبار المصادر التركية الحجر الأساس «الحقيقي» للتاريخ العثماني. وبالمثل، لاتزال قلة من الدارسين في العالم العربي - ممن يتبنون الماضي العثماني باعتباره ماضيهم - يتعلمون قراءة اللغة التركية للغوص في كنوز الأرشيفات العثمانية.

لذلك أرجو أن ينتبه القارئ العربي لما يحويه الكتاب، وقبل ذلك لِما غاب عن الكتاب. فإذا شكّلت القصة التي يسرد الكتاب حلقاتِها إلهاما للبعض للنظر إلى عصر الاستكشاف بعين جديدة أبعد استشرافا، فإن ذلك يُعَد انتصارا صغيرا؛ لأن النصر الأكبر يتحقق عندما تثير نقائص الكتاب الكثيرة القراء لتصحيح الأخطاء وسد الفجوات من خلال بحثهم الأصيل.

وأخيرا، أترككم بين يدي المترجم المقتدر والمدقق مصطفى قاسم الذي أَدين له بالامتنان.

أتمنى لكم قراءة ممتعة!

جانكارلو كازالي Giancarlo Casale

Ne revādur ki bir boluk Etrāk
Hind'e varmış gibi ticāret ide,
Ya'nī kim re 's-i māl-i cuz'īden
Nef '-i kullī bulub riyāset ide?

«هل من اللائق أن تعمل ثلة من الأجلاف الأتراك بالتجارة
وأن يذهبوا بعيدا حتى الهند؟
وأن يجمعوا من رأس مال صغير لا يُذكر
ثرواتٍ ضخمة، ويصبحوا من علية القوم؟»

- MUSTAFA ALI, Counsel for Sultans (1581)

ملحوظة
حول المصادر (*)

تعد ندرة المصادر ذات الصلة وسهلة المنال من النوع الذي تقوم عليه الدراسات التقليدية للتاريخ السياسي العثماني خلال العصر الحديث

(*) حول أبيات مصطفى علي التي صُدّر بها الكتاب: كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عائلية، ومع أن الأوروبيين حبيسي العقلية القومية كانوا غالبا يطلقون على السلطان اسم «عظيم الترك» Grand Turk وعلى الإمبراطورية العثمانية اسم «تركيا»، كأنها دولة قومية، فإن اسمها الرسمي ينقل جوهرها العائلي، إذ كانت تسمى دولة آل عثمان «المحروسة» أو «العليّة» أو «الدولة العليّة». وكانت النخبة الحاكمة من العسكريين والمسؤولين والقضاة - وبداية من منتصف القرن التاسع عشر كل المواطنين - يسمون «عثمانيين» على اسم العائلة الحاكمة. وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت كلمة «تركي» لفظة انتقاصية تعني الأجلاف وتستخدم للإشارة إلى الفلاحين الأناضوليين. وكان انتقاص الأتراك لأنفسهم وإعلاؤهم من شأن الآخرين حالة عامة حتى نهاية القرن التاسع عشر. [المترجم].

المبكر(*)، إحدى أصعب العقبات أمام دراسة تاريخ الاستكشاف العثماني فيما وراء البحار. ثمة أسباب عدة نناقشها بمزيد من التفصيل في الصفحات التالية جعلت معظم التواريخ العثمانية المعاصرة، الإخبارية والسردية على حد سواء، لا تعير اهتماما كافيا للأحداث التي وقعت في المحيط الهندي، وتركز بدلا من ذلك على التطورات في العاصمة الإمبراطورية والمناطق الأساسية ضمن الإمبراطورية في البلقان وآسيا الصغرى. وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات البارزة لهذا الاتجاه، فإن المؤرخ بوجه عام يجد نفسه مضطرا إلى البحث في أماكن أخرى عن مصادر تحوي معلومات تكفي لإجراء إعادة بناء مُرضية للأحداث التي وقعت في المحيط الهندي.

تمثل الوثائق الأرشيفية العثمانية التي تتسم بثراء كبير للنصف الثاني من القرن السادس عشر أحد البدائل المهمة، وقد اعتمد هذا الكتاب على مجموعة «دفاتر المهمة» المحفوظة بالأرشيف الرسمي العثماني بإسطنبول(**). تتألف «دفاتر المهمة» من تسجيل حرفي يومي للمراسلات الصادرة من السلاطين لمسؤوليهم في الولايات، وكذلك مراسلاتهم مع الوجهاء الزائرين من الخارج ومع قادة الدول الأخرى. ومع أن هذه المحفوظات لاتزال غير منشورة في معظمها، فإنها مفهرسة جيدا ومكتملة نسبيا بداية من منتصف العقد السابع من القرن السادس عشر، ومن قبل ذلك التاريخ أيضا، وإن كانت غير مكتملة.

وفي حال توافر المراسلات الواردة إلى السلاطين، فإن الكتاب يعتمد عليها أيضا، مع أن هذه المجموعة من الأدلة بقيت - لسوء الحظ - في حالة من الحفظ العشوائي

(*) وفقا للتحقيب الغربي، يبدأ العصر الحديث من القرن السادس عشر تقريبا، وينقسم إلى العصر الحديث المبكر (من معالمه عصر النهضة وعصر الاستكشاف) والعصر الحديث المتأخر الذي يبدأ من نحو منتصف القرن الثامن عشر تقريبا (من معالمه الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والافتراق الكبير). وقبل العصر الحديث، غطت العصور الوسطى القرون من الخامس إلى الخامس عشر وبدأت بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وانتهت بسقوط الإمبراطورية البيزنطية، وتنقسم إلى العصور الوسطى المبكرة التي تسمى عصر الظلام (القرون من الخامس إلى العاشر) والعصور الوسطى الوسيطة (القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر) والعصور الوسطى المتأخرة (القرنين الرابع عشر والخامس عشر). وقبل العصور الوسطى، يمتد العصر القديم الكلاسيكي (راجع حاشية لاحقة حوله) حتى القرن الثامن قبل الميلاد، الذي يشكل جزءا من التاريخ القديم الذي يرجع إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. [المترجم].

(**) «دفاتر المهمة» Muhimme Defterleri («دفاتر الأمور المهمة»، بالإنجليزية Registers of Important Affairs)، تعرف أيضا باسم دفاتر الديوان الهمايوني Divani-i-Humayun Muhimme Defterleri (بالإنجليزية Divani-I Humayuni Registers)، هي مجموعة من 263 دفترا من القرارات والمراسيم السلطانية محفوظة في الأرشيف الرسمي العثماني Başbakanlık State Archives. [المترجم].

مقارنة بالمراسلات الصادرة التي حفظت ضمن «دفاتر المهمة». وثمة وثائق باقية أخرى، يوجد بعضها في أرشيف متحف سراي توبكابي بإسطنبول، بينما يوجد غيرها - لاسيما مراسلات السلاطين مع القادة الأجانب - في مجلدات مكتوبة بخط اليد تُعرف باسم «منشآت نامه» munşe'ātnāmes توجد اليوم متفرقة في عدد كبير من مجموعات المخطوطات.

إلى جانب هذه الوثائق الأرشيفية، تتمثل مجموعة أخرى من المصادر المهمة للدراسة الحالية في مجموعة من الكتابات باللغة التركية لم تستغل حتى الآن كمصادر تاريخية، وهي كتابات في علم الكونيات والجغرافيا والخرائط وقصص الرحلات وغيرها من النماذج الأصيلة لأدب الاستكشاف العثماني خلال القرن السادس عشر(*). ومع أن هذه المصادر لا تحوي غالبا إلا النزر اليسير من المعلومات حول تواريخ أو أحداث بعينها، فإنها مع ذلك مفيدة في إعادة بناء رؤية العالم التي وجهت القادة العثمانيين وهم يضعون مخططهم للتوسع الإمبريالي(**). ونظرا إلى أن هذه الأعمال ومؤلفيها أسهموا بقوة في تشكيل رؤية العالم العثمانية - كما تكشّفت هذه الرؤية بالقدر نفسه في أعمالهم - فإنهم يظهرون في سرديتي كأبطال القصة الجديرين بالبطولة.

اعتمد الكتاب أيضا على عدد من النصوص بلغات أخرى غير التركية العثمانية، إلى الحد الذي سمحت به قدراتي اللغوية. ربما يتمثل أهم هذه المصادر في المجموعات المنشورة الغزيرة متعددة المجلدات من المراسلات الإدارية والكنسية والديبلوماسية لدولة الهند البرتغالية(***). تتمم هذه المصادر أعمال المؤرخين الإخباريين البرتغاليين

(*) علم الكونيات أو الكوزمولوجيا cosmology علم يبحث في أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه. [المترجم].

(**) تترجم كلمة imperial على امتداد النص - وفق السياق - إلى «إمبراطوري» أو «سلطاني» أو «همايوني» أو «إمبريالي»، والإمبريالية تعني بناء الإمبراطوريات من خلال إقامة علاقة اقتصادية وثقافية وإقليمية غير متكافئة بين الدول والأمم، في الأغلب من خلال التوسع العسكري والهيمنة والإخضاع، وتقوم على استغلال الشعوب التابعة لإثراء المراكز الاستعمارية، بدأت في شكلها الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع تكوين الإمبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار، وإن كانت قديمة قدم الدولة ذاتها، وانتهت في شكلها السافر مع تصفية الاستعمار في الربع الثالث من القرن العشرين، وإن كانت العلاقات الإمبريالية الاستغلالية لاتزال قائمة بين المراكز الاستعمارية السابقة وتوابعها. [المترجم].

(***) دولة الهند Estado da India أو دولة الهند البرتغالية Estado Português da Índia أو الهند البرتغالية India Portuguesa (1505 - 1961) هو الاسم الذي أطلق على الممتلكات البرتغالية في المحيط الهندي التي سميت فترةً شركة الهند الشرقية البرتغالية (1628 - 1633). [المترجم].

المعاصرين (التي أثبت كتاب «عقود» Decadas متعدد المجلدات لديوغو دو كوتو Diogo do Couto أنه الأنفع بينها)، والوثائق غير المنشورة من أرشيف توري دو تومبو في لشبونة(*)، فضلا عن كثير من المصادر الغربية الأخرى التي تتراوح من تقارير القناصل البنادقة والفرنسيين إلى قصص الرحلات التي كتبها رحّالة أوروبيون زاروا كلا من الإمبراطورية العثمانية والمحيط الهندي.

وأخيرا، لا يمكن بحال من الأحوال التقليل من شأن المصادر المعاصرة المكتوبة باللغتين العربية والفارسية، غير أن إلمامي المتواضع بهاتين اللغتين اضطرني إلى الاعتماد غير الممحص على الترجمات الحديثة من هاتين اللغتين في حال توافرها. واعتمدتُ أيضا على الطبعات الإنجليزية للمصادر التركية العثمانية في بضع حالات متى توافرت. وما يرد خلاف ذلك في الكتاب، فجله ترجمتي، ولذلك حرصتُ دائما على ذكر النص الأصلي في الهوامش. وفي بضعة مواضع، ترجمتُ من ترجمات فرنسية لمصادر عربية، بدلا من الرجوع إلى الأعمال الأصلية، وذكرت ذلك أيضا في الهوامش.

نظام التدوين المستخدم في الكتاب

يمثل تسجيل أصوات اللغة التركية العثمانية بالأبجدية اللاتينية مشكلة دائمة للمؤرخين؛ فلا يوجد نظام واحد مُرضٍ تماما، وأخشى أن يكون النظام الذي وقع عليه اختياري هو أقلها إرضاء. فبغرض الوضوح وسهولة التدوين الصوتي، آثرتُ ألا أنقل أسماء الأعلام التركية العثمانية صوتيا كاملة، بل أن أكتبها بأقرب تقريب لها في نظام التهجئة باللغة الإنجليزية الأمريكية الحديثة. وعلى خلاف مذهب الكثير من الدارسين، قررتُ ألا أستخدم أي حروف من الأبجدية التركية الحديثة لتوضيح النطق؛ لأن ذلك يزيد الأمر اختلاطا على غير متحدثي اللغة التركية. ويتمثل الاستثناء الوحيد لذلك في استخدام الحرف التركي ğ أو g اللينة، وهو حرف صامت لا يوجد مقابل حقيقي أو حتى تقريب له في اللغة الإنجليزية(**). أما في أسماء

(*) أرشيف توري دو تومبو Torre do Tombo Archives هو الأرشيف الوطني البرتغالي الذي أُسّس في لشبونة في العام 1378 وأعيدت تسميته معهد الأرشيفات الوطنية Instituto dos Arquivos Nacionais. [المترجم].

(**) ğ أو g اللينة هي الحرف التاسع في الأبجدية التركية الحديثة، ومع أنه من الصوامت، فإنه أقرب إلى الصوائت في نطقه، فلا يأتي في أول الكلمات ويستخدم لمد الصائت السابق له، كما في الكلمة التركية dağ [جبل] التي تنطق /:da/ [دا]. [المترجم].

الأماكن، فإنني على غرار ما سبق، استخدمتُ التهجئة الإنجليزية الأكثر تواترا لها، وفي الحالات القليلة التي لا توجد فيها تهجئة إنجليزية، استخدمتُ أقرب مقابل لها وفق النطق الإنجليزي القياسي.

لكنني، على خلاف ذلك، كتبتُ عناوين الكتابات التركية العثمانية والاقتباسات المطولة من النصوص التركية العثمانية (التي تُذكر دائما في الهوامش) كما تنطق في هذه اللغة. والنظام الذي اتبعته هو: أ= ā، ب=b، ت=t، ث=s، پ=p، ج=c، ح=ḥ، خ=ẖ، چ=ç، د=d، ذ=ẕ، ر=r، ز=z، ژ=j، س=s، ش=ş، ص=ṣ، ض= ż، ط=ṭ، ظ=ẓ، ع=’، غ=ġ، ف=f، ق=ḳ، ك=k أو ñ، ل=l، م=m، ن=n، هـ=h، و=v أو ū، ي=y أو ī، ء=‘.

كما نقلتُ الصوائت القصيرة باستخدام الأبجدية التركية الحديثة: a، e، i، ı، o، ö، u، ü.

قائمة الاختصارات

A.N.T.T أرشيف توري دو تومبو الوطني بلشبونة (Lisbon, Arquivo Nacional da Torre do Tombo)

APO الأرشيف البرتغالي الشرقي (Rivara, J. H. da Cunha, ed., Archivo Portuguez - Oriental. 6 vols. in 10 parts. Nova Goa: Imprensa Nacional: 1857-1877)

Calendar of State Papers روزنامة المحفوظات الرسمية (Public Records Office. Calendar of State Papers and Manuscripts Relating to English Affairs Existing in the Archives and Collections of Venice. 38 vols. Great Britain: Public Records Office, 1939-1947.)

Cartas الرسائل (Joao de Castro, Cartas de D. Joao de Castro. Edited by Elaine Sanceau. Lisbon: Agencia Geral do Ultramar, 1955.)

CDP المجموعة الدبلوماسية البرتغالية (Corpo Diplomatico Portuguez. 15 vols. Paris: J. P. Aillaud, 1846.)

DA آسيا (Couto, Dogo do. Da Asia. Lisbon, 1777. [vols. 10-24])

.[of 24 volume Da Asia de Joao de Barros e de Diogo do Couto

ملحوظة: نظرا إلى أن كتاب كوتو عمل متعدد المجلدات يظهر في عديد من النسخ المخطوطة المختلفة وفي الكثير من الطبعات المنشورة غير المكتملة، فقد آثرتُ ألا أذكر الاقتباسات وفقا للمجلد ورقم الصفحة؛ وذلك لأنها تختلف من نسخة إلى أخرى. وبدلا من ذلك، تُذكر الاقتباسات وفقا للتنظيم الداخلي للعمل تبعا للعقد من الزمن والكتاب والفصل).

Documenta Indica وثائق الهند (Joseph Wicki, ed. Documenta Indica. 11 vols. Roma: Institutum Historicum Societatis Iesu, 1948-1994.)

DP وثائق تاريخ البعثات التبشيرية البرتغالية للشرق (Rego, António da Silva, ed., Documentação para a história das Missões do Padroado Português do Oriente. 12 vols. Lisbon: Ministério das Colonias, 1948 - .)

DUP وثائق ما وراء البحار البرتغالية (Documentação ultramarina portuguesa, Lisboa: Centro de Estudos Históricos Ultramarinos da Junta de Investigaçao do Ultramar, 1960-1973.)

EI2 موسوعة الإسلام (The Encyclopaedia of Islam. New Edition. 1954-.)

FS فاريا إي سوزا (Faria e Sousa, Manuel de. Asia Portuguesa. Translated by Isabel Ferreira do Amaral Pereira de Matos, 6 vols. Porto, 1956.)

GAVETAS أدراج توري دو تومبو (As Gavetas da Torre do Tombo. 8 vols. Lisbon: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, 1960-1977.

ملحوظة: تذكر الاقتباسات هنا بالتصنيف الأصلي وفقا للدرج والملف والوثيقة، بدلا من أرقام المجلدات والصفحات في النسخة المنشورة).

MD) Muhimme Defrerleri) دفاتر المهمة (Iştanbul, Başbakanlık Devlet Arşivi, Muhimme Defterleri [Prime Ministry's State Archives, [Registers of Important Affairs])

PM وثائق حول البرتغاليين في موزمبيق وأفريقيا الوسطى (Rego, A. da Silva and T.W. Baxter, eds. Documentos sobre os portugueses em

Mocambique e na Africa central, 1497–1840. 9 vols. Lisbon: Centro (.de Estudos Storicos Ultramarinos, 1962–1989

Sanceau, Elaine, ed.) مجموعة ساو لورنزو SÃO LOURENÇO Collecção de São Lourenço. 3 vols. Lisboa: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos da Junta de Investigaçao do Ultramar, (-1973

Istanbul, Topkapı Sarayı) أرشيف متحف سراي توبكابي .T.S.M.A ([Müzesi Arşivi [The Archive of the Topkapı Palace Museum

Istanbul, Topkapı Sarayı Müzesi) مكتبة متحف سراي توبكابي .T.S.M.K ([Kütüphanesi [The Library of the Topkapı Palace Museum



الخريطة (0.1): الإمبراطورية العثمانية وعالم المحيط الهندي خلال الفترة 1516 - 1589

مقدمة

إمبراطورية من نسج الخيال

«في رد إسلامي متوقع على مزاعم السيادة العالمية المنصوص عليها في معاهدة توردسيلاس، أصبح مفهوم الخلافة العالمية مكونا أساسيا في الخطاب السياسي للإسلام الدولي».

تخيل - لحظةً - أن السلطان العثماني محمد الفاتح لم يفتح مدينة القسطنطينية، وافترض عوضا عن ذلك أن الإمبراطور قسطنطين باليولوج Constantine Palaeologos والبقايا المشتتة من جيشه البيزنطي نجحوا على الرغم من كل العقبات في إنقاذ عاصمتهم في ذلك الثلاثاء المشؤوم من العام 1453، وأنهم تمكنوا على مدار العقود التالية من إعادة احتلال كل البلاد التي شكّلت في السابق قلب إمبراطوريتهم في البلقان والأناضول.

وتخيل الآن أن مطلع القرن السادس عشر شهد صعودا مذهلا في حظوظ هذه الإمبراطورية، كأن تكون جحافل بيزنطية مظفرة قد زحفت أبعد من ذلك وغزت أقاليم مثل

سورية ومصر اللتين فقدتهما الإمبراطورية قبل قرون، وأنهم توسعوا لاحقا إلى بلاد بعيدة وغير مألوفة لهم مثل اليمن والسودان والقرن الأفريقي. ثم تخيل أن الأساطيل البيزنطية بدأت من هذه القواعد المتقدمة في تسيير دوريات في المحيط الهندي، وتنظيم حملات ضخمة على معاقل العدو في هرمز وكجرات(*)، وإرسال فرق إسناد عسكري لدعم حلفائهم في أماكن بعيدة بعضها عن بعض وعن العاصمة الإمبراطورية مثل إندونيسيا والساحل السواحلي(**).

طبيعي أن يرافق هذا التوسعَ العسكريَ الهائلَ تقدمٌ لا يقل روعة في كل المجالات الأخرى. ومن هذا المنطلق، تخيل الخزانة البيزنطية وقد بدأت في استخدام تجارة التوابل لتجاوز اعتمادها التقليدي على الزراعة، وأخذت ترسل وكلاء تجاريين لها إلى أسواق الهند وسومطرة، وتنظم قوافل منتظمة من السفن المملوكة للدولة لجلب الفلفل والقرنفل لأسواق التوابل في مصر. وبالتوازي مع ذلك، تخيل - بالعودة إلى القسطنطينية - أن جماعة جديدة من المفكرين البيزنطيين قد ظهرت، وأنها بدأت بدافع من هذه النجاحات واسعة النطاق وبتمويل من النخب الإمبراطورية سريعة النمو بالمدينة، في تعهد الاهتمام بعلمي رسم الخرائط والجغرافيا الآخذين في التطور. تخيل - باختصار - أن القرن السادس عشر شهد عصر استكشاف بيزنطي.

ماذا لو شهد التاريخ وجود هذه الدولة البيزنطية فعلا؟ كيف كان يمكن للدارسين في عصرنا أن يصفوا نموها؟ إننا في هذه الحالة، نقف - بوصفنا مؤرخين - على أرض أكثر صلابة. فعلى الرغم من أن دولتنا البيزنطية المتخيلة لم يكن لها وجود قط، فإن هناك مجموعة كبيرة من الدراسات الفعلية - وليس المتخيلة كما هي الحال مع إمبراطوريتنا - تتقصى الارتباط الضعيف بين الحياة الفكرية البيزنطية المتأخرة (خلال الفترة التي تُعرف أحيانا باسم عصر النهضة الباليولوجي Palaeologan Renaissance) وتطور إنسانية عصر النهضة في الغرب(***)(1).

(*) يأتي المزيد لاحقا حول سلطنة كجرات (أو غوجارات) Gujarat الهندية. [المترجم].

(**) الساحل السواحلي Swahili Coast هو المنطقة الساحلية لجنوب شرق أفريقيا وجزره بالمحيط الهندي التي يسكنها الشعب السواحلي، تشمل موانئ مثل دار السلام وماليندي وومومباسا وجزرا مثل زنجبار وبيت ولامو (يأتي المزيد لاحقا حول كل منها في متن الكتاب والحواشي). [المترجم].

(***) إنسانية عصر النهضة Renaissance humanism (تمييزا لها عن الحركة الإنسانية فيما بعد عصر النهضة) حركة فكرية قامت على إحياء علوم العصر الكلاسيكي وثقافته، بدأت في الدول المدينية الإيطالية ثم انتشرت عبر أوروبا الغربية خلال القرون من الرابع عشر حتى السادس عشر. [المترجم].

واستنادا إلى الاتجاه الذي تتبناه هذه الأعمال، فلا ريب أن التشابه بين إنجازات مستكشفي القرن السادس عشر البيزنطيين المفترضين وإنجازات معاصريهم من أوروبا الغربية كان سيغدو في وضوح الشمس، ولا بد أنه كان سيمثل إلهاما لسلسلة لا تُحصى من التساؤلات العلمية حول أوجه الشبه والاختلاف النسبية بين الحالتين. ولا ريب أنه كان سيأتي بين التساؤلات المحتملة التي كان يمكن أن يطرحها المؤرخون: «لماذا لم يبدِ البيزنطيون اهتماما كافيا بالعالم الجديد؟»، و«ما أهمية الاختلافات الدينية واللغوية التي كانت تفصلهم عن الغرب؟»، و«هل كان تزامن التوسع البيزنطي والغربي مجرد مصادفة؟» وبغض النظر عن الطرق التي كان يمكن أن تؤطر ضمنها هذه التساؤلات الفردية، فلا شك أن الباحثين من كل الأطياف والخلفيات كانوا سيتصدون لتحدي دمج التاريخ البيزنطي ضمن السردية الأكبر للاستكشاف العالمي الأوروبي.

ماذا - إذن - عن العثمانيين؟ لقد تصادف أن الإمبراطورية العثمانية هي التي أنجزت في العالم الواقعي للقرن السادس عشر كل الأشياء التي أنجزها البيزنطيون الافتراضيون في خيالنا. لكن من العجيب مع ذلك أنه لم تُبذل على الإطلاق محاولة جدية لتصوير هذه الإنجازات العثمانية باعتبارها جزءا من القصة الأكبر للتوسع المادي في الخارج والاختمار الفكري في الداخل اللذين ميّزا تاريخ أوروبا الغربية خلال تلك الفترة[2]. وهنا يكمن التساؤل الرئيس للكتاب الحالي، وهو على وجه التحديد: «هل شارك العثمانيون في عصر الاستكشاف؟» والإجابة على وجه التحديد أيضا هي: «نعم».

تعريف الاستكشاف العثماني

قليلة هي الموضوعات التاريخية التي أثارت شغف الناس مدة طويلة ولأسباب كثيرة مثلما فعل عصر الاستكشاف الأوروبي. وعلى الرغم من الأدبيات الضخمة ودائمة النمو التي كتبت في الموضوع، لايزال الدارسون يختلفون حول أصول الاستكشاف الأوروبي ونطاقه ونتائجه النهائية. ومع أن الظاهرة من النوع الذي يمكن تعريفه بطرق عدة، فإننا لأغراض الكتاب الحالي في حِل من إضفاء مزيد من التعقيد على هذه المشكلة. لذلك يركز الكتاب الحالي على بضع سمات رئيسة للتوسع الأوروبي، تحظى باتفاق عام وذات صلة مباشرة بالحالة العثمانية.

تتمثل أولى هذه السمات في العزلة النسبية لأوروبا الغربية خلال الفترة السابقة مباشرة على أقدم رحلات الاستكشاف. فإبان النصف الأول من القرن الخامس عشر، وهو وقت كان في مقدور التجار المسلمين فيه أن يرتحلوا بلا عوائق من المغرب حتى جنوب شرق آسيا، وكان في مقدور بحّارة الصين المينغية أن يتباهوا ببعثات بحرية ضخمة وصلت بعيدا إلى الغرب حتى هرمز وعدن وومومباسا(*)، كان الأوروبيون الغربيون لايزالون متقوقعين ماديا وفكريا ضمن شريحة صغيرة من العالم يطوقها المحيط الأطلسي الشمالي والبحر الأبيض المتوسط[3]. وحتى عشية رحلة كولومبس البحرية الأولى، وهو وقت متأخر كثيرا، كانت المعرفة الأوروبية بمناطق العالم الأخرى لاتزال تقوم على بضع روايات هزيلة كتبها رحّالة من العصور الوسطى وبضع خرائط ونصوص جغرافية مغبرة لم تُستَعَد وتُترجم من اللغة اليونانية القديمة إلا قبل وقت قصير من انطلاق رحلات الاستكشاف[4]. وعلى ذلك، فإن الاستكشاف الأوروبي كان ممكنا بالدرجة الأولى لأن الأوروبيين كانوا لايزال أمامهم كثير من مناطق العالم التي يمكن استكشافها.

وللمفارقة، بالنظر إلى هذه الحالة من العزلة، تتمثل السمة المميّزة الثانية للاستكشاف الأوروبي في الأيديولوجيا السياسية الجريئة التي رافقته. ليس ثمة مثال أوضح لهذه الأيديولوجيا من معاهدة torديسيلاس Treaty of Tordesillas التي وقّعت في العام 1494 بين ملكي البرتغال وإسبانيا برعاية مقدسة من البابا ألكسندر السادس. اتفقت القوتان الأيبيريتان بموجب هذه المعاهدة على تقسيم كامل العالم غير الأوروبي فيما بينهما، وادعت كل قوة منهما الحق في الغزو والحكم في كل البلاد الواقعة ضمن نصف الكرة الأرضية المخصص لها والسيطرة - من دون منازع - على الملاحة والتجارة البحرية فيه. كان النطاق العالمي الكاسح لهذه الاتفاقية، جنبا إلى جنب مع الربط الصريح فيها بين سلطة الدولة والتجارة البحرية، نموذجا أوليا لنوع جديد من إمبراطورية ما وراء البحار، أعاد تعريف الخطاب السياسي الأوروبي على مدى القرون التالية.

(*) تشير الصين المينغية Ming China إلى إمبراطورية الصين في عهد سلالة مينغ التي حكمت البلاد بين العامين 1368 و1644، تبعت سلالة يوان Yuan المغولية وتبعتها سلالة تشينغ Qing المنشورية، وتعد فترة حكمها واحدة من أفضل فترات التاريخ الصيني من حيث الحكم المنظم والاستقرار الاجتماعي. [المترجم].

على أن معاهدة تورديسيلاس وقّعت في وقت لم تكن البرتغال ولا إسبانيا ولا أي دولة أوروبية أخرى تسيطر فيه على بوصة مربعة واحدة من الأرض (أو حتى سفينة وحيدة) في أي مكان في آسيا أو العالم الجديد. ومع أن التاريخ قد يتضمن أمثلة أخرى لحكام رفعوا مزاعم بالسيادة العالمية على أساس لا يقل هشاشة عن مزاعم القوتين الأيبيريتين، فإن هذه المزاعم نادرا ما تحولت إلى نجاحات على أرض الواقع على هذا النحو المبتكر وغير المتوقع[5].

لا ريب أن القوى الأوروبية عندما أطلقت العنان لهذه التطلعات بعيدة المنال، ارتكنت جزئيا إلى تطورين تقنيين جديدين ومهمين، سمحا بالاستكشاف والتوسع الاستعماري على نطاق لم يكن متخيلا من قبل، هما الأسلحة النارية والسفن الصالحة للإبحار في المحيطات. صحيح أن الأسلحة النارية لم تكن ابتكارا غربيا، إذ إن الاستخدامات العسكرية للبارود كانت معروفة خارج أوروبا قبل القرن السادس عشر، لكن الغرب هو الذي وقف وراء الاستخدام الواسع للمسدسات وتقنيات مثل صب مواسير المدافع الثقيلة من الحديد والبرونز. وعندما اجتمعت الأسلحة النارية مع القرقور carrack، وهو نوع مبتكر من السفن الشراعية كان ملائما للملاحة طويلة المسافات، والأهم من ذلك أنه كان ملائما لنصب أعداد كبيرة من المدافع على متنه، أعطت هذه الأسلحة الغربيين أداة عسكرية ناجعة لتحقيق أحلامهم الإمبريالية. ومع دخول القرن السادس عشر، كانت سفنهم الشراعية ثقيلة التسليح قد تطورت إلى قلاع عائمة بكل معنى الكلمة، ما مكّن الإسبان والبرتغاليين من استخدام البحر لإظهار قوتهم في الخارج على نحو غير مسبوق[6].

وأخيرا، فإنه إلى جانب اعتبارات التقنية والأيديولوجيا السياسية، يتمثل المكون الأخير - وربما الأوروبي أكثر من غيره - لعصر الاستكشاف في التحول الثقافي والفكري المميّز الذي رافقه. فبالتزامن مع انتشار إنسانية عصر النهضة، ومع اختراع المطبعة ذات لوح الأحرف المتحرك، كانت الاكتشافات فاتحة لعصر من الاختمار الفكري الكثيف في الغرب، إذ شكّل طوفان المعلومات الجديدة الآتية من الخارج إلهاما للأوروبيين للقيام بعملية إعادة تقييم شاملة لفهمهم التقليدي للعالم ومكانتهم فيه. فكريا، يمكن اعتبار كثير مما يعد حاليا من الحضارة الغربية نتيجة عرضية مباشرة لرحلات الاستكشاف الأوروبية[7].

هذه إجمالا هي الخصائص الأربع للتوسع الأوروبي خلال القرن السادس عشر التي تشكل التعريف الأساس لمصطلح عصر الاستكشاف في الكتاب الحالي: العزلة الجغرافية والثقافية النسبيتين في البداية، والتبني اللاحق لأيديولوجيات سياسية توسعية تركزت بوجه خاص على طرق التجارة والملاحة البحريتين، والابتكار في بضعة مجالات رئيسة من مجالات التقنية العسكرية والبحرية جعلت التوسع فيما وراء البحار ممكنا، الاهتمام الفكري إلى درجة غير مسبوقة بالعالم الخارجي.

كيف ينطبق هذا التعريف - إذن - على تجربة الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر؟ يدفع الكتاب الحالي بأن التوسع العثماني اشترك بدرجات متفاوتة في جميع هذه السمات الأساسية للاستكشاف الأوروبي، وهو زعم سيكون مفاجئا بلا شك لأولئك الذين اعتادوا النظر إلى الإمبراطورية العثمانية بطريقة مختلفة، أي باعتبارها في البداية «العائق» الأساسي أمام الاستكشاف، ولاحقا «ضحيته» الأساسية. ويمكن للقارئ الحصيف أن يتساءل: أليس من المعروف أن الإسبان والبرتغاليين اعتبروا مغامراتهم فيما وراء البحار توسيعا منطقيا للحملات الصليبية؟(*) أليس صحيحا أيضا أن بناء الإمبراطورية التجارية البرتغالية في جزر الهند الشرقية جاء على حساب التجار المسلمين؟ ألم يسهم ذلك على المدى الطويل في تهميش اقتصاد العالم الإسلامي بشكل دائم؟[8].

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي «نعم» و«لا». فمن ناحية، وحتى لو واصل المؤرخون الجدل حول النتائج الاقتصادية بعيدة المدى للتوسع الأيبيري المبكر، لا يمكن إنكار أن التجار المسلمين هم الذين تحملوا وطأة الأعمال البرتغالية العنيفة المبكرة للسيطرة على تجارة التوابل في المحيط الهندي. لكن هناك - في المقابل - تمييزا لا بد أن يكون واضحا بين المسلمين والعثمانيين، وهو تمييز لا

(*) كان بحث كريستوفر كولومبس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية يراد به جزئيا توجيه هجوم مزدوج على الإسلام من الشرق والغرب. لذلك اصطحب كولومبس معه مترجما يهوديا يتحدث اللغة العربية، واعتقادا منهما أنهما نزلا أرضا إسلامية، بدأ هذا المترجم التحدث باللغة العربية مع السكان الأصليين المشدوهين في كوبا التي «تعثروا» بها وهم في طريقهم إلى رأس الرجاء الصالح. ولذلك أيضا، وعد كولومبس في رسالته للملكين الكاثوليكيين فرناندو الأراغوني وإيزابيلا القشتالية في العام 1493 بقوله: «خلال سبعة أعوام من اليوم سيمكنني أن أزود جلالتكما بخمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي مشاة للحرب وغزو أورشليم الذي من أجله بدأنا هذا العمل». راجع للمترجم كتاب «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس»، تأليف ماثيو كار، أبو ظبي: مشروع كلمة - هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2013.

يمكن من دونه فهم المكانة الحقيقية للإمبراطورية العثمانية في التاريخ الحديث المبكر بشكل صحيح.

على وجه التحديد، يأتي بين الركائز الأساسية لهذا الكتاب أنه قبل أن يبدأ عصر الاستكشاف، لم يكن للإمبراطورية العثمانية أي اتصال حقيقي بالمحيط الهندي، ذلك الجزء من العالم الذي كان على الرغم من الوجود الإسلامي الأصيل والراسخ فيه، بعيدا عن العثمانيين وغريبا عليهم، تماما مثلما كان بالنسبة إلى الأوروبيين المعاصرين. فقبل القرن السادس عشر، لم يكن الدارسون العثمانيون يعرفون شيئا حول تاريخ المحيط الهندي وجغرافيته، وكان رجال الدولة العثمانيون يفتقرون إلى المعرفة الأولية بموارد المحيط الهندي واقتصاده السياسي، وكانت تجارة الإمبراطورية مع المنطقة - على رغم عدم ضآلتها - ينفذها وسطاء بالدرجة الأولى. وفي هذا الجانب، لم يكن حال الإمبراطورية العثمانية مع دخول القرن السادس عشر مختلفا عن حال البرتغال أو إسبانيا، إذ كانت دولة حديثة التشكُّل وسريعة الاتساع، لكن آفاقها الفكرية والسياسية والاقتصادية كانت لاتزال محصورة ضمن حدود حوض البحر الأبيض المتوسط. بل إن هذه الحالة من العزلة النسبية دامت مع العثمانيين أطول منها مع منافسيهم الأوروبيين، إذ لم تنقشع إلا مع الغزو العثماني لمصر في العام 1517، أي بعد عشرين سنة كاملة من دوران فاسكو دا غاما Vasco da Gama البحري المظفر حول رأس الرجاء الصالح.

لكن بمجرد أن نال العثمانيون أخيرا موطئ قدم في هذا الجزء من العالم الذي كان مجهولا لهم في السابق، أسرعوا إلى إعادة تهيئة أنفسهم ومسح المنطقة وتبني مجموعة جديدة من الطموحات الإمبريالية تتناسب مع الاتساع المحيطي لهذه المنطقة. وسرعان ما أدرك العثمانيون أن المنافسة من جانب الأوروبيين (ومن جانب البرتغاليين تحديدا) جعلت تحقيق هذه الطموحات أسهل منالا، وليس العكس؛ إذ أعطت آل عثمان الفرصة لإجراء إعادة تعريف جذرية لمصطلحات السيادة والشرعية في أنحاء العالم الإسلامي قاطبة.

بدأ العثمانيون بعد العام 1517، متذرعين بغزو مصر، في ادعاء نوع جديد من السلطة العليا على كل مسلمي المحيط الهندي، فأعطوا سلالتهم الحاكمة اللقبين اللذين كانا في السابق حكرا على المماليك المصريين: خليفة المسلمين وخادم الحرمين

الشريفين(*). كان هذان اللقبان على الرغم من أصلهما القديم في الفقه الإسلامي، قد فقدا قيمتهما السياسية منذ وقت طويل، وظلا على مدى قرون يُستدعَيان للمراسم والرمزية فقط. لكن بعد وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ونصبهم الحصار البحري الذي قيّد للمرة الأولى في التاريخ الوصول البحري إلى المدينتين المشرفتين مكة والمدينة، نال هذان اللقبان رواجا سياسيا جديدا؛ أثبت العثمانيون براعة في استغلاله. وبفضل جهودهم، لم يأتِ النصف الثاني من القرن السادس عشر إلا وكانت مكانة السلطان العثماني بوصفه القائد الأعلى للعالم الإسلامي السني - نظريا على الأقل - تحظى باعتراف عام في أنحاء آسيا البحرية كلها. خلاصة القول أنه في رد إسلامي متوقع على مزاعم السيادة العالمية المنصوص عليها في معاهدة تورديسيلاس، أصبح مفهوم الخلافة العالمية مكوّنا أساسيا في الخطاب السياسي للإسلام الدولي إلى درجة لم تحدث منذ الإمبراطورية العباسية المبكرة خلال القرنين التاسع والعاشر[9].

لكن كيف تمكن العثمانيون من إنجاز ذلك على أرض الواقع؟ على نحو مماثل تماما - هنا أيضا - لخبرة القوتين الأيبيريتين، يرجع نجاح العثمانيين في معظمه إلى وصولهم الفارق إلى أكثر التقنيات العسكرية تقدما في عصرهم. من ذلك مثلا أن تفوق المدفعية العثمانية كان حاسما في غزو مصر، وكان أشد حسما في نزاعات لاحقة في اليمن وإثيوبيا اللتين لم تكن هذه الأسلحة معروفة فيهما قط قبل التدخل العثماني. ولاحقا، مارست الدولة العثمانية دورا لا يقل تأثيرا في نشر الأسلحة النارية في أنحاء المحيط الهندي الأوسع، وهناك كانت قدرتها على إمداد حلفائها واسعي الانتشار بالمدفعية وسباكي المدافع وغيرها من أشكال المعرفة العسكرية، بمنزلة إضافة ملموسة إلى المكانة الحاضرة فعلا للسلالة العثمانية(**)[10].

(*) كان اللقب «خادم الحرمين الشريفين» الذي يخص المسلمين ودينهم تحديدا جزءا من اللقب الأوسع «أمين المدائن المقدسة الثلاث مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف» الذي حمله آل عثمان بداية من سليمان القانوني. فلأنهم أباطرة العالم، ولأنهم وعاصمتهم ملاذ الكون كما رأى السلاطين العثمانيون في أنفسهم بعد فتح القسطنطينية وبعدما تأكد بغزو مصر والمشرق والمدن المقدسة الثلاث، فقد اعتبروا أنفسهم حماة المسلمين جميعا وأماكنهم المقدسة، وكذلك حماة المسيحيين في إمبراطوريتهم وأماكنهم المقدسة. [المترجم].

(**) بسبب بقايا هذا الارتباط بالخلافة العثمانية الذي يغيب عن الكتابات العربية، كان مسلمو الهند وجنوب شرق آسيا من أشد المعارضين لإلغاء الخلافة في العام 1924، وكان الخوف من ثورتهم سبب عدم اندفاع إنجلترا وراء الإلحاح اليوناني على أخذ إسطنبول وطرد الأتراك منها والإلحاح الروسي على تدويلها بعد احتلال قوات الحلفاء للمدينة في نوفمبر 1918، وكان قبل ذلك أحد الدوافع وراء مشاركة بريطانيا عسكريا للحيلولة دون سقوط أسطنبول أمام الجيش الروسي الرابض على أبوابها في العام 1877. راجع للمترجم كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453 – 1924» (جزأين)، تأليف فيليب مانسل، صادر عن سلسلة «عالم المعرفة»، العددين يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

بالتزامن مع ذلك فوق صفحة البحر، تكشف الأدلة أن العثمانيين بدأوا في تجريب سفن شراعية عالية الأجناب مشابهة لتلك التي كان البرتغاليون يستخدمونها، مع أن هذه السفن لم تؤدِ إلا دورا إسناديا في العمليات البحرية[11]. والأهم من ذلك أن البحّارة العثمانيين تمكنوا من تكييف تقنية القادس التقليدية مع ظروف المحيط الهندي(*)، وبحلول منتصف القرن بلغت ثقتهم بأنفسهم مبلغا مكّنهم من شن عدد من هجمات القرصنة على السفن البرتغالية (**). وفي النهاية، كانت هذه الهجمات ناجعة في تقويض الحصار البحري البرتغالي، ما مكّن العثمانيين من انتزاع نصيب الأسد من تجارة العبور في التوابل التي كانت تنقل في السابق في سفن برتغالية حول رأس الرجاء الصالح.

ومع الزيادة المتنامية في حجم هذه التجارة، ابتكرت الدولة العثمانية مجموعة من السياسات الجديدة للتربح منها. ففي الولايات المجاورة للمحيط الهندي، جرب المسؤولون ذوو العقليات المالية سياسات ضريبية جديدة لتنسيق العبور خلال الطريقين المتنافسين عبر البحر الأحمر والخليج العربي، وحققوا بذلك أقصى عائدات ممكنة من كليهما. وفي البحر الأحمر، غدت الدولة نفسها شريكا نشطا في التجارة من خلال تنظيم قافلة سفن منتظمة كانت تستورد حمولات توابل مملوكة للدولة من اليمن وتعيد بيعها في مصر بربح كبير. كما استقر وكلاء تجاريون عثمانيون في مراكز تجارية بعيدة مثل هرمز وكاليكوت وآتشيه، كانوا ينفذون الصفقات نيابة

(*) القادس galley (والجمع قوادس) سفينة كبيرة تعمل بالمجاديف كانت تستخدم للأغراض العسكرية والتجارية، وكانت غالبا تحتوي على أشرعة لاستخدامها مع الرياح المواتية. [المترجم].

(**) خلال العصر الحديث، مورست القرصنة على نطاق واسع، سواء على السفن في عرض البحار أو على البلدات الساحلية، كشكل من أشكال الحرب غير النظامية ترعاه الدول. وبعد أن تراجعت في غرب البحر الأبيض المتوسط من جنوبه المسلم ضد شماله المسيحي والعكس، شهدت القرصنة عصرها الذهبي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن التالي، إذ انخرط قراصنة إنجليز وفرنسيون متمركزون على جزر الكاريبي في القرصنة على المستعمرات والسفن الإسبانية في البحر الكاريبي، ونشط قراصنة إنجليز حول رأس الرجاء الصالح وعلى ساحل اليمن والهند، وبعد انتهاء حرب الخلافة الإسبانية تفرغ محاربون إنجليز وأمريكيون للقرصنة في الكاريبي وأمريكا الشمالية وغرب أفريقيا والمحيط الهندي. كان كثير من هؤلاء القراصنة يعملون بتفويض من دولهم، منهم الهولنديون المعروفون باسم الشحاذين البحريين sea beggars الذين اتخذوا من القرصنة نوعا من الحرب غير النظامية ضد إسبانيا التي كانت تحتل بلادهم، ومنهم «القرصنة المَلَكية» التي مارسها الأسطول الفرنسي في الكاريبي ضد أمريكا الإسبانية، ومنهم القراصنة الإنجليز من أمثال فرانسيس دريك Francis Drake وجون هوكينز John Hawkins وهنري مورغان Henry Morgan الذين كانوا يستولون على سفن الفضة الإسبانية الآتية من العالم الجديد ويغيرون على المستعمرات الإسبانية وإسبانيا نفسها بتفويض من دولتهم ويتقاسمون الأرباح معها وانضموا لاحقا إلى البحرية الملكية وشغلوا مناصب سياسية. [المترجم].

عن الخزانة الإمبراطورية في هذه الأسواق الواقعة فيما وراء البحار. كانت هذه المبادرات مجتمعة بمنزلة استراتيجية شاملة للسيطرة على تجارة المحيط الهندي، أثبتت مع الوقت أنها أكثر من ند لدولة الهند البرتغالية[12].

وأخيرا، فإن عصر الاستكشاف العثماني قد انطبع مثل نظيره الأوروبي بالتوسع الثقافي والفكري في الداخل، تماما كما انطبع بالتوسع الاقتصادي والإقليمي في الخارج. انطلقت هذه الظاهرة في البداية بفضل رعاية البلاط السلطاني لها، ثم تطورت لاحقا بفضل تدفق المعلومات من أوروبا حول الاكتشافات المذهلة للمستكشفين الغربيين. ومع توالي سنوات القرن، بدأ رحّالة عثمانيون يعودون من رحلات ما وراء البحار بأوصاف من رأي العين لمغامراتهم في الشرق، في حين انشغل الدارسون المقيمون بترجمة أعمال جغرافية عربية كانت مهملة في السابق ونشرها. ومع الوقت، اجتمعت كل هذه الأنواع المختلفة من المصادر في عدد من الخرائط والأطالس والكتابات الجغرافية الجديدة كانت عثمانية على نحو مميّز، أسهمت بقوة في تغيير رؤية العالم العثمانية، وأدّت دورا حاسما في صياغة الأهداف الأيديولوجية والاستراتيجية للعثمانيين في تنافسهم مع خصومهم الإمبرياليين من الغرب[13].

الاستكشاف والسياسة العالمية ومشكلة التمركز حول أوروبا

نتقصى في الصفحات التالية كل هذه التماثلات المذهلة بين التوسع العثماني والأوروبي فيما وراء البحار بمزيد من التفصيل. لكن لا بد أن نؤكد منذ البداية أنه على الرغم من أن القضايا الأساسية التي يطرحها الكتاب الحالي تسترشد بالإطار المقارن، فإن الكتاب مع ذلك يعد في جوهره تاريخا سرديا أكثر منه تاريخا مقارنا. فقد كُتب الكتاب من منظور عثماني، ويركز بالدرجة الأولى على أفعال العثمانيين. نُظمت فصول الكتاب بحسب التسلسل الزمني، إذ يغطي كل منها ما بين عشر سنوات وعشرين سنة، وتقدم الفصول مجتمعة رواية شاملة لقرن الاتصال العثماني مع عالم المحيط الهندي. وعلى امتداد هذه السردية، ينصبُّ التركيز على السياسة، إذ يبرز كل فصل أدوار فاعلين سياسيين بأعينهم وجماعات المصالح التي عبّروا عنها، وفي ثنايا هذه القصة السياسية، يقدم الكتاب مناقشة

لأهم النصوص والخرائط وغيرها من مصادر المعلومات التي استرشد بها هؤلاء الفاعلون على المستويين العملي والأيديولوجي.

يسعى الكتاب من خلال هذه المقاربة السردية إلى دمج مفهوم جديد لـ «السياسة العالمية» global politics ضمن دراسة التاريخ العثماني الحديث المبكر. فمن خلال تفصيل القول في الطرق التي تُرجمت من خلالها رؤية العالم العثمانية الآخذة في التشكُّل إلى استراتيجيات ملموسة للتوسع الإمبريالي فيما وراء البحار، تبيّن هذه المقاربة أن عثمانيي القرن السادس عشر كانوا أبطالا من الطراز الأول في خلق نظام عالمي مدمج حديثا من دول إمبريالية متنافسة. يعد الكتاب الحالي بذلك إسهاما في الأدبيات العلمية المتنامية حول تاريخ الاكتشافات على مستويات عدة. فعلى المستوى الأساسي، يشكل الكتاب تحديا علميا جديا لتفسيرات التاريخ السياسي للقرن السادس عشر التي تصور الإمبراطوريات الأوروبية باعتبارها الدول الوحيدة التي تمكنت من الانخراط في السياسة على مستوى أوسع من المستوى الإقليمي. ويسعى الكتاب إجمالا إلى إتاحة فسحة للحوار بين اتجاهين مهيمنين - وإن ظلا منفصلين - في الكتابات الأخيرة حول العالم الحديث المبكر ككل، وهما اتجاه يركز حصرا على دراسة التقليد الفكري الغربي، واتجاه آخر يعارض الاتجاه الأول عن وعي وقصد.

يمكن إدراج الاتجاه الأول ضمن فئة دراسات اللقاءات encounter studies، وهو مجال يمزج تخصصات التاريخ والنظرية الأدبية بطريقة انتشرت لأول مرة من خلال دراسة قصص الرحلات في العالم الجديد ما بعد الكولومبي[14](*). وأخيرا، وسَّعت دراسات اللقاءات نظرتها لتشمل أي منتج فكري لتفاعل أوروبا مع الآخر خلال العصور الوسطى المتأخرة والعصر الحديث المبكر، بداية من النماذج الغربية للجغرافيا ورسم الخرائط والتاريخ السردي إلى الرسم والشعر الملحمي وحتى أعمال الفلسفة والنظرية القانونية[15].

من خلال إعادة الفحص النقدي لكل هذه الصور والنصوص المتنوعة، تسهم دراسات اللقاءات بقوة في تعميق فهمنا لعصر الاستكشاف في جانبين أساسيين.

(*) ما بعد الكولومبي Post - Columbian نسبة إلى كريستوفر كولومبس الذي اتخذت رحلته الأولى إلى الأمريكتين في العام 1492 معلما لتقسيم تاريخ الأمريكتين إلى ما قبله وما بعده، وهو مصطلح مرادف لما قبل الاستعمار الأوروبي للأمريكتين وما بعده وما قبل الاتصال وما بعده. [المترجم].

أولا، توثق هذه الدراسات أن تفاعل أوروبا مع العالم الخارجي كان - من المنظور الأوروبي - مشروطا بالتقاليد الفكرية الغربية التي تشكّلت خلال العصور الوسطى وعصر النهضة. وتكشف هذه الدراسات - ثانيا - كيف كان اللقاء خبرة تكوينية في بناء الحضارة الغربية وترسيخها على المستوى التأسيسي. لكن ما لا تفعله دراسات اللقاءات هو كشف كثير حول العالم بعيدا عن تصويره من منظور الغربيين، وهي ثغرة يسهل تجاهلها أحيانا بالنظر إلى عالمية موضوع «اللقاءات»، ظاهريا على الأقل. لكن في النهاية، ونتيجة للتركيز الحصري على المؤلفين الأوروبيين والنصوص الأوروبية، يظل خطاب دراسات اللقاءات بطبيعته متمركزا حول أوروبا، حتى عندما يحاول أن يؤطر مناقشته ضمن أكثر السياقات الفكرية عالمية ورحابة[16].

بيد أن ذلك لا ينطبق على التاريخ العالمي world history، وهو معسكر معارض من المؤرخين نذروا أنفسهم خلال العقود القليلة الماضية لبناء سرديات للتاريخ الإنساني تتفادى عن عمدٍ أي انحياز إلى أوروبا أو تمركز حولها. وبدلا من ذلك، يركز دارسو التاريخ العالمي عن عمد على ظواهر لا تسعها فئات التحليل الضيقة جغرافيا وثقافيا، تتراوح من انتقالات التقنية وانتشار الأمراض المعدية إلى أنماط الهجرة وتوطد علاقات التبعية الاقتصادية العالمية. وينتجون في أثناء ذلك أعمالا تتميّز بإبداع وقوة تفسيرية جلية، ويوظفون مدى من المنهجيات والعديد من المنظورات، أوسع من أن توصف بسهولة. وسواء أطر دارسو التاريخ العالمي حججهم في شكل «تماثلات غريبة» أو «افتراقات كبرى» أو «البنادق والجراثيم والفولاذ» أو غيرها من النماذج الأصيلة للتاريخ العالمي التي كتبت خلال السنوات الأخيرة(*)، يمكن القول إن كل هذه الأعمال وأترابها تشترك في الرغبة الأساسية نفسها، وهي القدرة على تفسير تطور الجماعة الإنسانية العالمية باستقلالية تامة عن سردية الحضارة الغربية[17].

(*) العناوين الثلاثة أعمال بارزة في التاريخ العالمي: الأول «تماثلات غريبة» Strange Parallels وهو كتاب يتكون من أكثر من مجلد لفيكتور ليبرمان Victor Lieberman، والثاني «افتراقات كبرى» Great Divergences وهو كتاب لكينيث بوميرانز Kenneth Pomeranz، كما استخدم المصطلح أيضا صمويل هنتنغتون Samuel Huntington ودارسون آخرون لوصف تغلب العالم الغربي على قيود النمو ما قبل الحديثة وانبثاقه خلال القرن التاسع عشر باعتباره الحضارة العالمية الأقوى والأغنى، والثالث «البنادق والجراثيم والفولاذ» Guns, Germs and Steel وهو كتاب لجارد دايموند Jared Diamond. [المترجم]

لكن تكمن المشكلة في أن دارسي التاريخ العالمي من خلال التجنب الواعي لأي إشارة مباشرة للاتجاهات أو النصوص أو الحركات الفكرية الضيقة ثقافيا، وكذلك السياسة التي عكستها هذه الاتجاهات والنصوص والحركات وأحدثتها، استأصلوا العنصر الإنساني من قصتهم. ومع أن ذلك يُعد مأخذا جديا على أي حقبة تاريخية، فإنه يمثل نقيصة عند التعامل مع العالم الحديث المبكر، إذ يظل تاريخ الاستكشاف العالمي إبان القرن السادس عشر - على الرغم مما ينطوي عليه ذلك من مضامين إشكالية بالنسبة إلى مبحث التاريخ العالمي - إحدى أقوى القصص الإنسانية على الإطلاق. فبسبب استعدادهم للتضحية بالعنصر الإنساني على مذبح الشمول، يدفع دارسو التاريخ العالمي ثمنا فكريا باهظا[18].

كيف يمكن - إذن - التوفيق بين هاتين الرؤيتين المتعارضتين للعصر الحديث المبكر؟ يقدم الكتاب الحالي أحد الحلول الممكنة من خلال الجمع بين نوع التاريخ الفكري الممتد الذي يمارسه دارسو اللقاءات العالمية، والسرديات الكبرى الأكثر شمولا التي يمارسها دارسو التاريخ العالمي. ومن خلال تركيزه المزدوج على السياسة والثقافة، يقدم الكتاب مثالا لدولة غير غربية عايشت لقاءها مع العالم الخارجي بوصفه استكشافا، وذلك تحديدا لأن لقاءها معه انطوى على التفاعل الدقيق بين الطموح السياسي والمصلحة الاقتصادية والفضول الفكري، وهي العناصر ذاتها التي ميّزت عصر الاستكشاف الأوروبي[19]. على أن ذلك لا يعني أن خبرة الاستكشاف العثمانية كانت متماثلة دائما مع نظيرتها الأوروبية أو أنها تعبر عن التاريخ الأوسع للعالم الحديث المبكر بسبب تماثلها فقط، بل يعني بالأحرى أن خبرات كل من العثمانيين والأوروبيين كانت جزءا من عملية تفاعلية أكبر، تبنّى فيها كل جانب خططا طموحة للتوسع العالمي، اتبعت المنطق الأساسي ذاته، حتى إن افترقت تفاصيل المشاريع الإمبريالية لكل منهما في جوانب مهمة.

يتمثل أحد هذه الافتراقات في «فشل» الإمبراطورية العثمانية الذي يُوَلوَل عليه كثيرا في استكشاف المحيط الأطلسي أو تأسيس مستعمرات في العالم الجديد كما فعل الأوروبيون، وهو الفشل الذي يتخذ دائما في معظم الأدبيات حول الموضوع دليلا على أن العثمانيين افتقروا إلى كل من وعي الاكتشافات والميل إلى المشاركة فيها[20]. لكن الكتاب الحالي بدلا من أن يسأل: «لماذا لم يستكشف

العثمانيون العالم الجديد؟»، يبدأ بسؤال مختلف تماما: «لماذا كان يجب عليهم أن يفعلوا ذلك أصلا؟». فكما هو معروف لكل تلاميذ المدارس، فإن كولومبس لم يبحر صوب الغرب لاكتشاف قارة جديدة (حاول هو نفسه مرارا وتكرارا أن يفند فكرة وجودها)، بل للبحث عن طريق بديل إلى جزر الهند الشرقية. وبالمثل اكتشف المستكشفون البرتغاليون البرازيل مصادفة وهم في طريقهم إلى الهند، إذ لم يكن بوسعهم أن يجدوا رياحا مواتية تأخذهم حول الرأس الجنوبي لأفريقيا إلا بالإبحار بعيدا داخل المحيط الأطلسي. وبالمثل أيضا، أُرسلت بعثات هولندية وإنجليزية وفرنسية عديدة إلى أمريكا الشمالية حتى القرن السابع عشر بحثا عن ممر شمالي غربي مراوغ إلى الشرق.

وعلى ذلك فإنه من منظور زمنهم، لا يمكن اعتبار عدم تدخل العثمانيين في نصف الكرة الأرضية الغربي تجليا لفشل متراكم، بل كان - على خلاف ذلك - نتيجة منطقية لعدم وقوع العالم الجديد في طريق العثمانيين إلى الهند، كما كان بالنسبة إلى الأوروبيين. ولذلك بمجرد أن نجح العثمانيون في غزو مصر (تلك الجائزة التي كان يمكن للإسبان والبرتغاليين أن يبادلوها وهم راضون بكل ممتلكاتهم في الأمريكتين)، أخذوا يستغلون البحر الأحمر والخليج العربي استغلالا جيدا للوصول إلى كنوز الشرق، بدلا من تفتيش المحيط الأطلسي من دون جدوى بحثا عن طريق أقصر - إلى المحيط الهندي - لم يكن له وجود(*)(21).

لقد أصبحنا بفضل إدراك الأحداث بعد انقضائها - بخمسمائة سنة في هذه الحالة - نعرف المستقبل الواعد الذي كان بانتظار العالم الجديد. لكن في فجر عصر الاستكشاف، لم يكن هذا المستقبل واضحا بحال من الأحوال، ولذلك لا يعد معيارا جيدا لتقييم النجاح النسبي للمشروع الإمبريالي العثماني. وعلى خلاف ذلك، تتمثل مجموعة معايير أكثر إنصافا (وأبعد بالتأكيد عن المفارقة التاريخية) في تلك التي وضعها معاصرو العثمانيين ومنافسوهم إبان القرن السادس عشر. كان الأول بين هؤلاء المعاصرين هو الأميرال أفونسو دي ألبوكيركي Afonso de Albuquerque المؤسس المهيب للإمبراطورية البرتغالية في آسيا البحرية الذي ذكر بأدق وأوضح

(*) بمعنى أن طريق رأس الرجاء الصالح، كما يؤكد الكتاب مرارا وتكرارا، لم يكن أقصر من الطريق القديم إلى جزر الهند الشرقية عبر مصر والبحر الأحمر. [المترجم].

الكلمات ما خطط لإنجازه وهو في طريقه إلى جزر الهند الشرقية، وهو قطع العبور البحري خلال البحر الأحمر، والسيطرة على تجارة التوابل المربحة في المحيط الهندي، واستخدام الأرباح الناتجة عن هذه التجارة في تمويل غزو مصر المملوكية واحتلالها، وفي النهاية تحرير أورشليم إعلاء لشأن المسيحية ومجد التاج البرتغالي[22].

وإذا افترضنا أن العثمانيين المعاصرين كانت تدفعهم مجموعة مماثلة من الأهداف، وهو ما تؤكده الأدلة الواردة في الكتاب الحالي، وإذا أخذنا في الحسبان أنهم في فجر عصر الاستكشاف لم يكونوا أقرب لإنجازها من البرتغاليين، فإن إنجازات العثمانيين على مدار القرن السادس عشر تبدو رائعة حقا. فعلى الرغم من البداية الأسبق للبرتغاليين، كان العثمانيون مع نهاية القرن هم الذين غزوا الدولة المملوكية، وسيطروا على معظم تجارة العبور في التوابل بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، وأخذوا القدس (ومعها مكة والمدينة) إعلاء لشأن الإسلام ومجد آل عثمان. وعلى ذلك، فليس من المبالغة أن نعلن انتصار العثمانيين في الجولة الافتتاحية من الصراع العالمي الأول في التاريخ على الهيمنة، وهذا الكتاب محاولة لسرد قصتهم.

I

سليم الملاح
1512 - 1520م

للوهلة الأولى، لا تبدو شخصيتان تاريخيتان أقل قابلية لتشبيه إحداهما بالأخرى من الأمير البرتغالي الدوم هنري والسلطان العثماني سليم الأول(*). لقد تعودنا تصوير الدوم هنري، أو هنري الملاح - كما يعرف على نطاق واسع - على أنه كان في آن واحد مسيحيا وَرِعا نذر حياته لخدمة الكنيسة، وصاحب رؤية يرجع الفضل إليه وحده في وضع الأسس للتوسع البحري الأوروبي المستقبلي. نال الدوم هنري - على مدار القرون التالية لموته - منزلة البطل الثقافي

(*) يعني لقب الدوم dom المولى أو السيد، وهو مأخوذ من الأصل اللاتيني dominus [دومينوس] الذي استُخدم أحيانا مع الأباطرة الرومان، كان يطلق في البرتغال على كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وأفراد السلالة الإمبراطورية، ومُنِح أيضا لأفراد عائلات النبلاء. [المترجم].

«إن سليم الملاح منح بلاده مفاتيح آسيا البحرية، وترك لحلفائه مهمة فتح الباب والولوج إلى العالم الجديد الواسع الممتد أمامهم»

للحضارة الغربية بلا منازع، لكونه مؤسس مدرسة الملاحة الأسطورية في ساغريس Sagres، والمحسن السخي على علماء الرياضيات والفلك ورسامي الخرائط، وراعي رحلات الاستكشاف الأولى فيما وراء البحار. في المقابل، يمثل سليم الأول، المعروف أكثر بالاسم الشائن سليم العابس(*)، الصورة النمطية للطاغية الشرقي. كان سليم، المستبد والمجرد من الضمير، طاغية متعطشا للدماء لا يرتدع عن فعل أي شيء حتى التمرد المسلح على أبيه، وكان في سعي دائم إلى إنجاز طموحاته في الغزو والفتوح. كيف يمكن - إذن - التشبيه بين هذين الرجلين المختلفين تماما، وغير المتعاصرين؟

غير أنه توجد أرضية خصبة للتشبيه بين هاتين الشخصيتين المهيبتين، لكن ذلك يستلزم منا أن ننظر أبعد من الصور النمطية لحياة كلا الرجلين، كما تُصوَّران عادة في الكتب الدراسية. في حالة الدوم هنري، تبدو هذه المهمة أسهل بفضل الروايات التعديلية الأخيرة التي تصوره، بدلا من شخصية القديس وصاحب الرؤية، شخصيةً عادية حركتها مجموعة أهداف وتطلعات تجذرت عميقا داخل قوالب الفروسية والروح الصليبية التي اشترك الدوم فيهما مع معاصريه جميعا(**). وفق هذه الرؤية، بدأ هنري مسعاه - بلا خطة كبرى - إلى التوسع البرتغالي فيما وراء البحار. وعلى خلاف ما هو شائع عن الدوم، فإنه لم يكن رجلا متعلما، ولا حتى مهتما بالملاحة على وجه الخصوص. ويمكن وصف رحلات «الاستكشاف» الكثيرة التي رعاها (لكنه لم يشارك فيها) على نحو أدق بأنها حملات نفذها قراصنة وصائدو عبيد كانوا يعملون لحساب أنفسهم. أما مدرسة العلم الملاحي التي ينسب إليه الفضل في تأسيسها في ساغريس، فمن الواضح أنها لم ترَ الوجود قط إلا في عقول مؤرخي القرن التاسع عشر[1].

(*) كما يثير الحدث التاريخي الواحد مشاعر متناقضة بين الاحتفاء به وكراهيته لدى الأمم والثقافات المختلفة، ولذلك يعرف بأسماء مختلفة في الثقافات المختلفة، مثل مصطلح «الاسترداد» أو «إعادة الفتح» **reconquesta** الذي يُستخدم في الغرب لوصف انتزاع الأندلس من المسلمين الذي يعرف عربيا باسم «سقوط الأندلس»، يحدث الأمر نفسه مع ألقاب الشخصيات التاريخية، ومنهم السلطان الغازي سليم الأول الذي يعرف في الكتابات الغربية باسم «سليم العابس» Selim the Grim، وسليم الرهيب Selim the Terrible، بينما يعرف في الكتابات العثمانية والعربية باسم «سليم القاطع» أو «الشجاع»، بسبب شجاعته وحسمه في ساحات المعارك. كان لسليم حظ من ألقابه العنيفة تلك؛ إذ اتسم الرجل بوحشية شديدة مع أعدائه وأتباعه، على حد سواء، واشتهر بقتل وزرائه حتى صار أهالي إسطنبول يدعو بعضهم على بعض بالقول: «جعلك الله وزيرا لسليم». [المترجم].

(**) تشير التعديلية revisionism في التاريخ إلى إنكار مزاعم الاتجاه المهيمن على المؤرخين وإعادة فحص الأدلة التاريخية، وتمثل في العلم عموما اتجاها نقديا يفند مقولات الاتجاه المهيمن في هذا الفرع المعرفي أو ذاك. [المترجم].

على أن ذلك لا يعني القول إن إنجازات هنري لم تكن ثورية بحال من الأحوال. صحيح أن الدوم لم ينظم حملاته البحرية على الأطلسي إلا كوسيلة للاستفادة من حاشيته الكبيرة، وأن تلك المآثر لم تشغل إلا حيزا صغيرا من اهتماماته وموارده، وأنه شرع لاحقا في استغلال ساحل غرب أفريقيا في محاولة عقيمة لجمع المال، من أجل حرب مقدسة أخرى ضد مسلمي المغرب، لكن على الرغم من ذلك كله ساعد طموح هنري وملكاته التنظيمية، والموارد البشرية والاقتصادية الكبيرة التي كانت تحت تصرفه، في دفع أتباعه في النهاية إلى السعي وراء مجموعة جديدة تماما من الأهداف في منطقة جديدة من العالم، إذ بمجرد أن رسّخ البرتغاليون أقدامهم في غرب أفريقيا، بفضل إلحاح هنري، أصبح اتجاه التوسع المستقبلي واضحا للجميع، وغدا الطريق إلى الهند مفتوحا أمامهم[2].

وعلى ذلك، فأيا كانت الدوافع الأصلية التي حركت الدوم هنري، فإن نتائجها النهائية كانت هائلة حقا، وتحديدا من خلال النتائج غير المقصودة، يمكن مقارنة إنجازات هنري وسليم بطريقة مباشرة. فكما هي الحال في حملات الدوم هنري على غرب أفريقيا، لم تكن دوافع سليم إلى غزو مصر في العام 1517 أقل غموضا، وحتى لو كانت لديه خطة كبرى، فمن المرجح أنها كانت تتضمن استغلال موارد مصر في هجوم جديد على الشاه إسماعيل في إيران، ولا طموحات واضحة تتعلق بالهند والمحيط الهندي. ومع ذلك، فإن علو همة سليم وسمو طموحاته، كما هي الحال مع الدوم هنري، أخذاه إلى التفكير في إمكانات للربح والتوسع المستقبلي لم يتخيلها أسلافه؛ إذ بمجرد أن وجد العثمانيون أنفسهم سادة النيل وحماة الحرمين الشريفين، مكة والمدينة، لاحت لهم فرصة واضحة لا تقاوم لاستغلال الثروة الناتجة عن تجارة التوابل لرفع لواء الدين والوطن.

يتقصى هذا الفصل التشابه بين طرق فتح الطريق البحري العثماني المباشر إلى جزر الهند الشرقية إبان عهد سليم - في أبعادها العامة - وعملية مماثلة كانت قد حدثت فعلا في البرتغال خلال القرن الخامس عشر؛ ففي حالة العثمانيين، كما في حالة البرتغاليين من قبلهم، انطوت هذه العملية على ثلاثة مكونات رئيسة، تمثل أولها في وعي متنام بالجغرافيا الثقافية والطبيعية لمنطقة من العالم كانت في السابق مجهولة بالنسبة إليهم. وتمثل ثانيها في اهتمام متصاعد بالإمكانات الاقتصادية

للتجارة مع الشرق، وتحديدا تجارة التوابل. وتمثل ثالثها في تبلور مجموعة جديدة تماما من الطموحات السياسية والمزاعم الإمبريالية بالسيادة العالمية شكَّلت مسار التوسع المستقبلي. ومن أجل تجلية هذا التطور المتماثل، يلزمنا أولا أن نتناول التماثل بين العثمانيين والبرتغاليين في التحضير الفكري لبزوغ عصر الاستكشاف خلال العقود السابقة على اتصال كل منهما بالمحيط الهندي.

رسم الخرائط الأوروبي والجغرافيا العربية

خلفية الاستكشاف

مثل بقية أوروبا الغربية، عانت البرتغال - على امتداد العصور الوسطى - من نقص حاد في المعلومات عن العالم الخارجي، كما يتجلى تصويريا في العديد من خرائط الماباموندي الباقية من العصور الوسطى التي تكشف جميعها عن جهل شديد بالمحيط الهندي والعالم كله خارج أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط(*) (الشكل 1 - 1). كان هذا النوع المبكر من «خرائط العالم» بلا قيمة عملية في جميع النواحي؛ إذ كانت في حقيقتها تمثيلات تخيلية للكون المسيحي إبان العصور الوسطى أكثر منها محاولات لتصوير العالم تصويرا واقعيا(**). كان ذلك على أرض الواقع يعني أنه حتى عندما كان الرحَّالة يعودون من الخارج من حين إلى آخر بمعلومات جديدة، فإن هذه المعلومات لم تؤثر في رؤية العالم ذات الأساس الكوني[3]. لذلك عندما بدأت أعداد كبيرة من المستكشفين الأوروبيين في الوصول إلى المحيط الهندي للمرة الأولى مع نهاية القرن الخامس عشر، فإنهم كانوا لايزالون يفهمون هذا المحيط بطريقة أسطورية تماما، أو كما وصفه دارس العصور الوسطى الفرنسي جاك لو غوف Jacques Le Goff بأنه «مخزون الأحلام والأساطير والخرافات لعقلية العصور الوسطى... وجنة عدن المسيَّجة التي تمتزج فيها النشوة بالكوابيس»[4].

(*) تشير الماباموندي mappaemundi (بمعنى خرائط العالم ومفردها mappamundi) إلى أي خريطة للعالم ترجع إلى العصور الوسطى، من أشهرها ماباموندي هيرفورد Hereford Mappamundi التي توجد حاليا في كاتدرائية هيرفورد البريطانية. [المترجم].

(**) كان علم الكون المسيحي - خلال العصور الوسطى - يقوم على أفكار كبرى عن الكون أخذها اللاهوت المسيحي عن الفلاسفة اليونانيين القدماء، من بينها مركزية الأرض للكون، ما جعل هذه الأفكار تكتسي قداسة الدين، وتشكل - على مدى قرون - عائقا أمام تقدم العلم والمناهج العلمية الحديثة. [المترجم].



الشكل (1 - 1): ماباموندي هيرفورد، ترجع إلى نحو العام 1290م، وتعد إحدى أشهر خرائط العالم من أوروبا العصور الوسطى المتأخرة. توجد أورشليم في مركز الخريطة، ويصور المحيط الهندي بوصفه شريطا داكنا رفيعا على طول الحافة اليمنى العليا. الصورة بإذن من Hereford Mappa Mundi Trust, Hereford, England.

يتطابق تاريخ الاكتشافات - إلى حد كبير - مع قصة انبثاق أوروبا من حالة الغيبية الفكرية الممثلة تصويريا في خرائط الماباموندي؛ فمع توالي عودة المستكشفين من رحلات ما وراء البحار بداية من القرن الخامس عشر، وجد الدارسون أنفسهم مضطرين إلى التوفيق بين الكميات الهائلة من المعلومات العلمية الجديدة حول الكرة الأرضية، وكونيات العصور الوسطى التي تكشَّف عوارها شيئا فشيئا، ونتيجة

لأن ذلك تزامن مع ازدهار إنسانية عصر النهضة (وهي حركة علمية كانت هي نفسها منخرطة بقوة في تقويض التقاليد الفكرية لأوروبا العصور الوسطى)، جاءت المحصلة وعيا غربيا جديدا بالعالم الخارجي، وفهما مختلفا تماما لمكانة أوروبا فيه[5].

ترسم هذه التطورات صورة مناقضة تماما لواقع الحال في العالم المعاصر الناطق باللغة العربية الذي لم يكن من الوارد لمعرفة الجغرافيين العرب فيه أن تمر بهذه التحولات الجذرية، وذلك لأنهم كانوا على إلمام قوي بمناطق العالم الأخرى، لاسيما المحيط الهندي، بداية من القرون الأولى للتاريخ الإسلامي. لم يكن الوعي بهذا النقص الحاد في المعرفة أشد منه بين المستكشفين البرتغاليين الأوائل الذين واجهوا على طريق رحلاتهم الاستكشافية مواقف كشفت لهم مرارا وتكرارا عن مدى تخلفهم الفكري النسبي مقارنة بحضارة الإسلام العالمية. من ذلك مثلا أن فاسكو دا غاما ربما لم يكن ليصل إلى الهند مطلقا لو لم يأخذه ملاح عربي محنك إلى هناك من الساحل الأفريقي(*). وعندما وصل دا غاما ورجاله أخيرا لشبه القارة الهندية بعد رحلة ملحمية لأكثر من اثني عشر ألف ميل، كان مما أذهلهم أنهم قابلوا في ميناء كاليكوت مسلمين اثنين من شمال أفريقيا، كانا يعرفان اللغة البرتغالية(**)[6]. وحتى العقدين الثاني والثالث من القرن السادس عشر اللذين انبرى البرتغاليون خلالهما لبناء إمبراطورية بحرية في المحيط الهندي، ظلوا يعتمدون بشدة على المصادر العربية عند وضع خرائط للمنطقة[7].

خلاصة القول أنه لم يكن في وسع الجغرافيين العرب أن يكتشفوا جزر الهند الشرقية بالطريقة نفسها التي اتبعها الأوروبيون، وذلك لأن العرب كانوا يعرفونها فعلا منذ قرون، وكانوا جزءا منها، لكن هل ينطبق ذلك بالضرورة على العثمانيين؟ نظرا إلى أن الإمبراطورية العثمانية تصنف عموما بوصفها دولة إسلامية، يفترض معظم الدارسين الحديثين ببساطة أن العثمانيين كانوا - بالضرورة - على معرفة

(*) خلال الرحلة الخارجية التي أخذت دا غاما إلى الهند، اصطحب بحارا مسلما محليا من ماليندي الواقعة على ساحل كينيا الحالية ليقودهم خلال العبور النهائي إلى كاليكوت، يقال إن هذا البحار هو العُماني الشهير أحمد بن ماجد مؤلف أحد الكتب العربية الأساسية حول الملاحة، ويقال إنه بحار من الكجراتيين، راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

(**) بمعنى أن جيران البرتغاليين في شمال أفريقيا المسلم كانوا ملمين، منذ قرون، بالمحيط الهندي الذي أصبح اكتشافا برتغاليا في وقت متأخر جدا. [المترجم].

وثيقة بإنجازات الجغرافيين العرب منذ وقت مبكر[8]. لكن بالنظر إلى الافتقار شبه الكامل إلى أي دراسات حديثة تفصيلية حول الموضوع، تظل هذه الفرضية غير مؤكدة بأي أدلة علمية صريحة. صحيح أن أعمال الجغرافيا العربية المبكرة لا تغيب عن المكتبات العامة ومجموعات المخطوطات في إسطنبول الحديثة، بل إن كثيرا منها قديم وسابق في وجوده على تأسيس الدولة العثمانية ذاتها بعدة قرون، لكن إلى أن يُعرَف المزيد حول هذه المخطوطات والظروف التي وصلت فيها إلى أيدي العثمانيين، يبقى السؤال مفتوحا حول العدد الذي كان متاحا منها فعلا للدارسين العثمانيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والعدد الذي لم يجلب من البلاد العربية إلا بعد ذلك بوقت طويل، أي بعد فتوحات القرن السادس عشر[9].

وكل ما يمكن قوله، بدرجة من الثقة في الوقت الحاضر، هو أنه فيما يتعلق بالمحيط الهندي، على الأقل، كان العثمانيون يقينا غير ملمين بكل المدونات الجغرافية العربية ذات الصلة. وتكشف مراجعة قوائم مجموعات المخطوطات العثمانية الرئيسة عن أن عددا مذهلا من الأعمال العربية الشهيرة وواسعة الانتشار حول جغرافية المحيط الهندي لم تكن معروفة - على ما يبدو - بين الدوائر المتعلمة العثمانية قبل القرن السادس عشر[10]. من ذلك مثلا أنه لا توجد في أي مجموعة عثمانية إشارة إلى أي من قصص الرحلات المبكرة المهمة لمؤلفين من أمثال ابن خرداذبة، أو أبي زيد الحسن، أو ابن جبير(*). ولا يوجد ضمن المجموعات العثمانية غير نسخة واحدة غير مؤرخة من كتاب البيروني الكلاسيكي «كتاب الهند» التي من الواضح أنها لم تنسخ أو تترجم(**)[11]. ومن المستبعد تماما أن يكون أي عثماني، في هذه الفترة، قد قرأ قصة رحلة ابن بطوطة التي كتبت في أوائل القرن الرابع عشر،

(*) أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبة (نحو 820 إلى 912م)، مؤرخ وجغرافي فارسي خدم الخلافة العباسية، اشتهر بمصنفه «المسالك والممالك». [المترجم].

وهو مختلف عن كتاب الإصطخري، معاصر ابن خرداذبة الذي يحمل العنوان نفسه، والذي أورده المؤلف في الهامش الرقم 9. [المحرر].

أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي (القرن العاشر)، كاتب رحلات ولد ونشأ في سيراف ثم انتقل إلى البصرة، روى رحلة التاجر الفارسي سليمان السيرافي (أو سليمان التاجر) إلى الصين. [المترجم].

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (1 سبتمبر 1145 إلى 29 نوفمبر 1217م)، رحّال وشاعر من طائفة بلنسية الأندلسية، كتب عن رحلاته كتاب «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» المعروف باسم «رحلة ابن جبير». [المترجم].

(**) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (4 سبتمبر 973 إلى 13 ديسمبر 1048م)، عالم موسوعي من خوارزم له مصنفات في مختلف العلوم، منها «كتاب الهند» في الجغرافيا. [المترجم].

على الرغم من تفرد هذا المؤلف الشهير بتقديم أوصاف من رأي العين لكل من الهند، والأناضول (موطن العثمانيين) خلال مسار رحلاته الممتدة(*)[12]. وفي حين رجع ماركو بولو، ومستكشفون برتغاليون لاحقون، لخرائط ملاحية للمحيط الهندي وضعها ملاحون مسلمون محليون(**)، لا توجد أدلة على أن أيا من هذه الخرائط وصلت إلى إسطنبول أصلا[13]؛ فمن بين المجموعة الجغرافية العربية الكلاسيكية كاملة، لا يوجد غير عدد ضئيل من الأعمال يمكن القول بثقة إنها نُسخت وانتشرت بين الدارسين العثمانيين قبل القرن السادس عشر، من بين هذه الأعمال، يبدو أن كتاب زكريا القزويني «عجائب المخلوقات» هو العمل الوحيد الذي كان معروفا عموما بين الدارسين العثمانيين، وهو عبارة عن موسوعة شبه خيالية من القرن الثالث عشر في علم الحيوان وعلم النبات وعلم الكون لا قيمة عملية لها كنص جغرافي(***)[14]. وفي المقابل، يخبرنا الملاح العربي ابن ماجد المعاصر لفاسكو دا غاما أنه رجع إلى أكثر من أربعين عملا مختلفا عند تأليف دليله الشهير للإبحار في المحيط الهندي(****). ومن غير المفاجئ أن نص ابن ماجد لم يكن معروفا هو الآخر للعثمانيين حتى العقد السادس من القرن السادس عشر[15].

ثمة دليل آخر على هذا الاتجاه العام يمكن استنباطه من معدل ترجمة النصوص الجغرافية العربية ذات الصلة إلى اللغة التركية، وهو مقياس مهم لاتساع الجمهور الذي أمكن لأي عمل جغرافي أن يصل إليه. والأرقام هنا هزيلة جدا، إذ لا توجد غير ترجمة واحدة فقط من القرن الرابع عشر، وترجمتين من القرن الخامس عشر،

(*) محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي الشهير بابن بطوطة (25 فبراير 1304 إلى 1368/ 1369م) رَحّال ومؤرخ وجغرافي مغربي لقب بأمير الرحّالة العرب، خرج من طنجة في رحلة استغرقت ثلاثين عاما غطت شمال أفريقيا وغربها، والقرن الأفريقي والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى وجنوب آسيا وجنوب شرقها والصين، سجلها في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». [المترجم].

(**) ماركو بولو Marco Polo (1254إلى 8/ 9 يناير 1324م) تاجر ورحّال بندقي ارتحل خلال آسيا الوسطى وكتب حولها «كتاب عجائب العالم»، أو «رحلات ماركو بولو» الذي عرّف أوروبا بهذا العالم. [المترجم].

(***) أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود القزويني (1203 - 1283م) عالِم ورحّال عربي يعود نسبه إلى أنس بن مالك، استقرت عائلته في قزوين، وارتحل إلى دمشق وبغداد واستقر في الأخيرة، له مؤلفات في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي من أشهرها «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات». [المترجم].

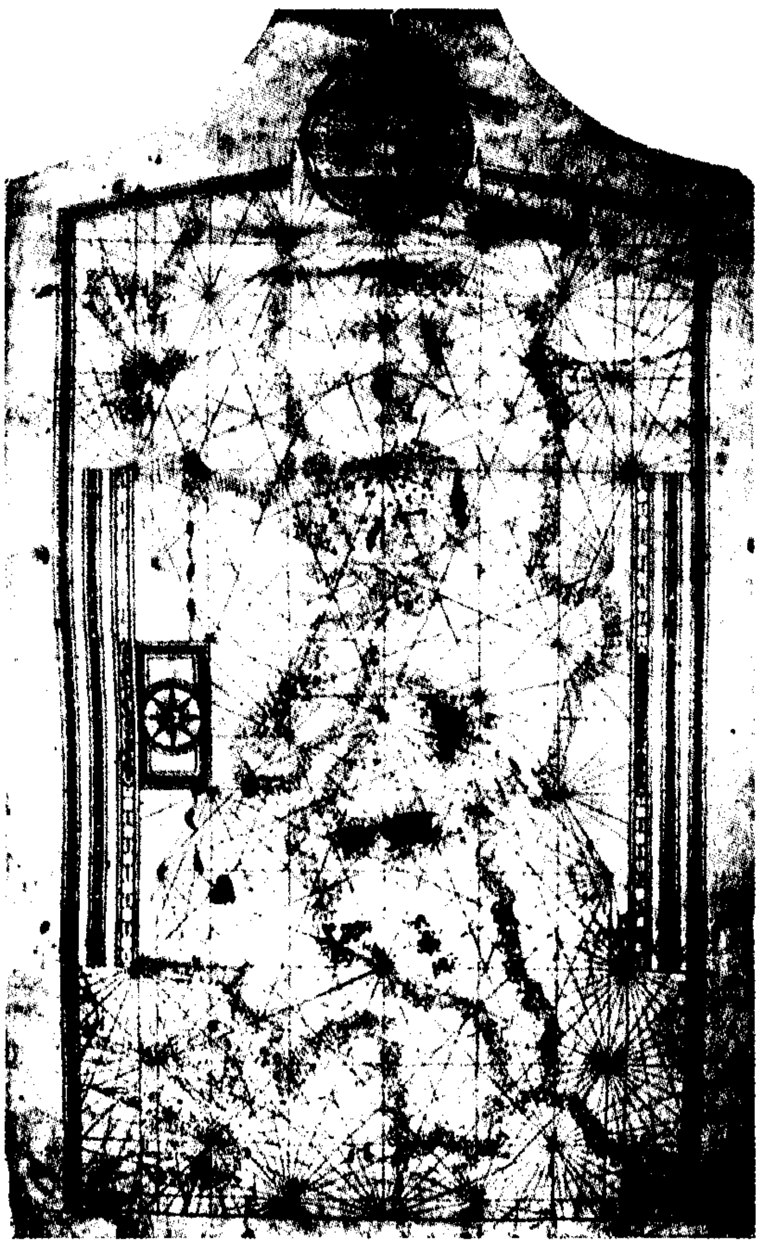
(****) شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد (1421 إلى نحو 1500م)، جغرافي وملاح عُماني ولد في رأس الخيمة على الخليج العربي، برع في الفلك والملاحة والجغرافيا، ولُقّب بـ «معلم بحر الهند» و«أسد البحار»، يقال إنه هو من أخذ فاسكو دا غاما من ماليندي للهند، من كتاباته «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»، و«حاوية الاختصار في أصول علم الإبحار». [المترجم].

والترجمات الثلاث جميعها لعمل واحد، هو كتاب القزويني «عجائب المخلوقات»[16]. وعلى ذلك، فإنه على الرغم من قلة الأدبيات العلمية التفصيلية في هذا الموضوع، فإن كل الأدلة المتاحة تشير إلى استنتاج واحد فقط، هو أنه باستثناء دائرة صغيرة من خريجي المدارس madrasa الذين تلقوا العلم في مراكز علم دولية، مثل تبريز أو القاهرة، كان العثمانيون قبل القرن السادس عشر مقطوعين عن مجموعة النصوص العربية الكلاسيكية حول جغرافية المحيط الهندي[17].

بالنظر إلى هذه الحالة، وعلى اعتبار المستوى العلمي العالي نسبيا للجغرافيين العرب، مقارنة بالأوروبيين في هذا العصر، يمكن توقع أن العثمانيين كانوا أقل اهتماما بأعمال الجغرافيين ورسامي الخرائط الغربيين المعاصرين. لكن من الغريب أن الدارسين العثمانيين كانوا ملمين جيدا بالتطورات الرئيسة في الجغرافيا ورسم الخرائط الأوروبيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كان من أوائل هذه التطورات المهمة نوع جديد من الخرائط الأرضية، هو خرائط البورتولان portolan chart التي بدأت تظهر في المراكز التجارية البحرية في جنوب أوروبا مع نهاية القرن الثالث عشر. ثمة افتراق واضح في خرائط البورتولان عن تقاليد رسم الخرائط السابقة في أوروبا العصور الوسطى، هو أنها كانت ترسم بوصفها أدوات عملية لاستخدامها في الملاحة، وكانت بالتالي أولى الخرائط التي حاولت أن تصور الفضاء الأرضي رياضيا منذ العصر القديم الكلاسيكي(*)[18]. ومع أن أقدم الخرائط من هذا النوع من أصل جنوي على ما يبدو، فإن خرائط البورتولان الباقية من بلدان عديدة تشير إلى أن استخدامها انتشر سريعا في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، من كتالونيا والمغرب في الغرب إلى بلاد الإمبراطورية العثمانية في الشرق (الشكل 2 - 1). واليوم

(*) يشير العصر القديم الكلاسيكي Classical Antiquity إلى حقبة طويلة من التاريخ الثقافي المتمركز حول البحر الأبيض المتوسط للحضارتين المترابطتين اليونان وروما القديمتين اللتين تعرفان معا باسم العالم اليوناني - الروماني، وهي فترة ازدهار المجتمعين اليوناني والروماني وتأثيرهما الكبير في أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، تبدأ من أول الشعر اليوناني المدون لهوميروس إبان القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، مرورا بظهور المسيحية، حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية. وفي الحالة اليونانية يغطي العصر الكلاسيكي Classical Greece القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، من معركة سلاميس Salamis في العام 480 ق. م. التي كانت نقطة التحوّل في دحر الغزو الفارسي الثاني لبلاد اليونان، حتى موت الإسكندر الأكبر في العام 323 ق. م. شهدت استقلال الدول المدينية اليونانية عن الإمبراطورية الفارسية وازدهارها الذي مارس تأثيرا كبيرا في الإمبراطورية الرومانية، وفي مجمل الحضارة الغربية اللاحقة في مجالات السياسة والفن والأدب والفلسفة وغيرها. [المترجم].

يوجد بعض من أفضل النماذج لخرائط البورتولان من القرن الخامس عشر ضمن مجموعات المخطوطات العثمانية، منها خريطة رسام الخرائط الميورقي يوهانز دي فيلاديستس (1428م) Johannes de Villadestes[19] وخرائط باللغة العربية لإبراهيم الكاتبي (1413 -1414م) Ibrahim al-Katibi[20]، وإبراهيم المرسي (1461م) Ibrahim al-Mursi[21].



الشكل (2-1): خريطة إبراهيم الكاتبي، من نحو العام 1413م، لا تختلف في شيء عن خرائط البورتولان الأوروبية المعاصرة، اللهم إلا في تلك المجموعة من أسماء الأماكن المسماة بدقة باللغة على طول السواحل والمكتوبة بالحروف العربية وليست اللاتينية (وإن كانت الكتابة هنا أصغر حجما من أن يمكن تمييزها). المصدر: Topkapı Palace Museum Library, Istanbul, Hazine Ms. 1823.

غير أن خرائط البورتولان انطوت على عيب خطير تمثل في أنها بسبب استخدامها كأدوات ملاحية كانت عادة تصور حوض البحر الأبيض المتوسط فقط، ولم تشمل غير القليل من التفاصيل الأرضية أبعد من الطرق البحرية والأشرطة الساحلية ذات الأهمية المباشرة للبحّارة. لكن ذلك لا ينطبق على نوع جديد من خرائط العالم يعرف عموما باسم خرائط العالم «القطلونية» (Catalan World Maps)، بدأت تظهر فيها كتلة اليابسة الأوراسية وأفريقيا والمحيط الهندي جميعها في صورة واقعية وسهلة التمييز(*). أُنتجت أقدم هذه الخرائط، وهي خريطة ترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر، على جزيرة ميورقة التي كانت مركزا مهما لكل من إنتاج خرائط البورتولان وترجمة النصوص العربية إلى اللغة اللاتينية[22]. ولاحقا، انتشر إنتاج هذه الخرائط على نطاق واسع، وصارت إيطاليا مركز إنتاجها، وهنا أيضا توجد أدلة على أن العثمانيين تابعوا تطور هذه الخرائط باهتمام كبير. من ذلك مثلا أن مجموعة الخرائط بمكتبة سراي توبكابي بإسطنبول تشمل أجزاء من اثنتين من خرائط العالم من هذا النوع، الأولى خريطة قطلونية مبكرة ترجع إلى العقد الثامن من القرن الرابع عشر، والثانية خريطة بندقية الصنع غزيرة التفاصيل ترجع إلى نحو العام 1450، وتمثل أقصى مراحل النضج لتقليد صنع الخرائط من هذا النوع[23].

أما التقدم الرئيس الثالث في رسم الخرائط الأوروبي خلال الحقبة ما قبل الكولومبية فقد ظهر إلى الوجود بفضل استعادة الإنسانيين الإيطاليين النصوص الجغرافية الكلاسيكية من العالم القديم، منها أعمال استرابو(**) وبليني الأكبر(***)، والأهم من الجميع بطليموس(****)[24]. زمنيا، ترجع انطلاقة هذه العملية إلى

(*) أوراسيا Eurasia كلمة منحوتة من كلمتي أوروبا وآسيا، وتشير بذلك إلى كتلة اليابسة الممتدة للقارتين في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والشرقي، من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهادي شرقا ومن القطب الشمالي شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي جنوبا. [المترجم].

(**) استرابو Strabo (أسماه العرب اسطرابون، من 63/64 ق.م إلى نحو 24 م): جغرافي وفيلسوف ومؤرخ يوناني عاش في آسيا الصغرى مع تحول الجمهورية الرومانية إلى إمبراطورية، من أعماله كتاب «الجغرافيا» Geographica. [المترجم].

(***) بليني الأكبر Pliny the Elder أو كايوس بلينيوس اسكوندوس Gaius Plinius Secundus (من العام 23 م إلى 25 أغسطس 79 م): عالم طبيعي وكاتب وقائد عسكري روماني، له مصنفات كثيرة في التاريخ والطبيعة منها كتابه «التاريخ الطبيعي» Naturalis Historia. [المترجم].

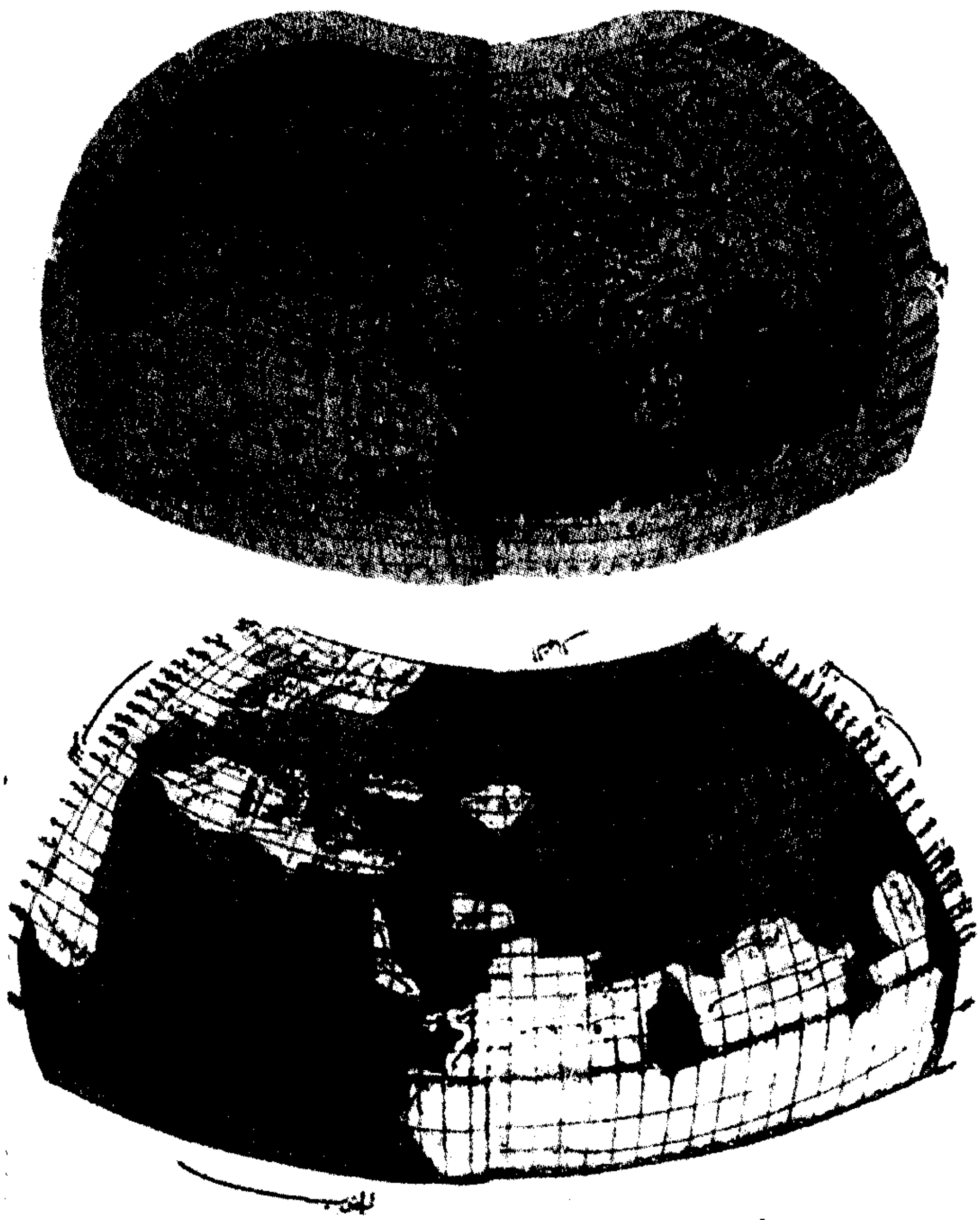
(****) كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemy (نحو العام 100 إلى نحو العام 170): عالم رياضيات وفلك وجغرافيا يوناني - مصري، عاش في الإسكندرية الرومانية، له مصنفات في علوم مختلفة، من أشهرها كتاب «الجغرافيا» Geographia. [المترجم].

العام 1400م الذي تحصّل فيه الإنساني الشهير بالا استروزي Palla Strozzi على نسخة من كتاب بطليموس «الجغرافيا» Geographia، كانت قد جُلبت إلى فلورنسا من القسطنطينية. وبتشجيع من استروزي، وتحت إشراف الدارس البيزنطي مانويل خريسولوروس Manuel Chrysolorus، شرع جاكوبو أنجيلي دا اسكرابريا Jacopo Angeli da Scarperia في ترجمة النص إلى اللاتينية في العام 1406م، ثم تلتها ترجمة الخرائط ذاتها بعد بضع سنوات. ومع حلول منتصف القرن، كان ما لا يقل عن أربع من مدارس رسامي الخرائط في أوروبا قد انبرت في نسخ كتاب «الجغرافيا» وخرائطه، وفي العام 1477م أصبحت إحدى هذه النسخ أول خريطة تنشر مطبوعة في شكل نقش[25]. وبحلول العقد قبل الأخير من القرن الخامس عشر، كانت آلاف النسخ من خرائط بطليموس تنشر وتوزع في أنحاء أوروبا كافة، وبفضل مكانة هذه الصور ذات الإلهام الكلاسيكي وسطوتها، فإنها أدت سريعا إلى إبطال كل الأنواع «الأقدم» من خرائط العالم(*)[26].

مما لا يخلو من دلالة أن هذه العملية نُفِّذت بتمامها في الإمبراطورية العثمانية بفضل رعاية السلطان محمد الثاني (توفي في العام 1481م) خلال العقود الوسطى من القرن الخامس عشر[27]. من بين الأمثلة العديدة لكتاب بطليموس «الجغرافيا» الموجودة حاليا ضمن المجموعات العثمانية، يتمثل أقدمها في مخطوطة بيزنطية غير مؤرخة، ربما ترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر، انتقلت إلى مقتنيات الفاتح بعد فتح القسطنطينية في العام 1453. وبعد بضع سنوات، تحديدا في العام 1465، كلّف محمد الفاتح الدارس البيزنطي جورج أميروتزيس الطرابزوني George Amirutzes of Trabzon بترجمة الكتاب من اللغة اليونانية، وقيل إنه أمر لاحقا بأن تنسخ إحدى خرائطه لتكون الصورة المركزية على سجادة من الحرير[28]. كما طلب الفاتح نسخا إيطالية معاصرة من كتاب «الجغرافيا»، منها نسخة أصلية توجد حاليا في مكتبة سراي توبكابي (ترجع إلى العام 1481 وتشمل خرائط بثلاثين لونا) من الكتاب المطبوع للإنساني الفلورنسي فرنسيسكو بيرلينغيري Francesco Berlinghieri[29]. ومن الأمارات

(*) على رغم أن الخرائط الكلاسيكية أقدم زمنيا من كل خرائط العصور الوسطى، فإنها كانت أحدث من حيث زمن اكتشافها ورواجها. [المترجم].

على أن محمد الفاتح كان يتابع أعمال بيرلينغيري بحرص أن نسخة سراي توبكابي تشمل إهداء شخصيا للسلطان من الدارس، مع أنها لم تصل إلى إسطنبول على ما يبدو إلا بعد وفاة السلطان مباشرة في العام 1481 (الشكل 3-1)[30].



الشكل (3-1): نموذجان لخرائط العالم البطليموسية من القرن الخامس عشر من عهد محمد الفاتح: في الأعلى خريطة للعالم من نسخة فرنسيسكو بيرلينغيري من الأطلس البطليموسي المنشور التي أهداها لمحمد الفاتح في العام 1481، وفي الأسفل الصورة نفسها من ترجمة عربية أقدم لكتاب بطليموس «الجغرافيا»، كان السلطان قد كلّف برسمها وحدها وأكملها جورج أميروتزيس في العام 1465. المصدر للصورة العليا Topkapı Palace Library, Istanbul, GÎ. Ms. 84, 37-38. المصدر للصورة السفلى Cografya - yi Batlamyus Süleymaniye Library, Istanbul, Ayasofya Ms. 2610, fol. 7 (ملحوظة: ظُلّلت الصورة السفلى باستخدام الحاسوب).

وعلى ذلك، فإنه في عشية اكتشافات القرن السادس عشر الكبرى كانت الإمبراطورية العثمانية في موقف فريد؛ إذ كانت دولة إسلامية على حافة سلسلة من الفتوحات جعلتها على اتصال مباشر مع الحضارة الإسلامية بالمحيط الهندي، بعد أن كانت غافلة عن هذه المنطقة وعن الأعمال الكثيرة المكتوبة حولها باللغة العربية. وبدلا من ذلك اعتمد العثمانيون بالدرجة الأولى على مصادر المعلومات عينها حول العالم الخارجي التي كانت متاحة للأوروبيين، وهي خرائط البورتولان وخرائط العالم «القطلونية» والجغرافيا البطليموسية. ولا ريب أن هذه المصادر كانت بدائية لفهم المحيط الهندي إذا ما قورنت بأعمال عربية معاصرة مثل كتاب ابن ماجد «الفوائد في أصول البحر والقواعد». لكنها مع ذلك كانت حتى القرن السادس عشر تشكّل رؤية العالم لدى العثمانيين، تماما كما كانت بالنسبة إلى المستكشفين من البرتغال وإسبانيا.

من أحد المنظورات لا ينطوي ذلك على شيء مفاجئ. ويمكن أن نضرب مثالا مناظرا لذلك من أوروبا، وهو أن أحدا لا يتوقع من الملاحين أو المتعلمين من اسكنديناڤيا العصور الوسطى المتأخرة أن يكونوا على إلمام جيد بخرائط البورتولان الجنوية أو البندقية لمجرد أنها كانت من إنتاج إخوة مسيحيين. ومن الطبيعي أن منطقة البلطيق كانت لها تقاليد فكرية خاصة، ومجموعة مشتركة من الاهتمامات العملية المتمايزة عن اهتمامات جنوب أوروبا، ولذلك فحتى لو كان الحجيج أو التجار أو مسؤولو الكنيسة يسافرون من مكان إلى آخر، فمن غير المعقول أن نفترض بناء على ذلك أن المعرفة نفسها عن العالم كانت متاحة لهاتين المنطقتين. وبالطريقة ذاتها كان العثمانيون الأوائل جزءا من العالم المتنوع للبحر الأبيض المتوسط إبان العصور الوسطى المتأخرة، وكانوا يشتركون في الفهم الأساسي للعالم الذي كان شائعا بين شعوبه. وعلى ذلك فإن المحيط الهندي كان مع دخول القرن السادس عشر لايزال بالنسبة إلى العثمانيين مكانا نائيا وغريبا، وهي الحال التي كانت على وشك التبدل مع تطلعات الفتوح العالمية لدى السلطان سليم العابس.

الجغرافيا العثمانية إبان عهد سليم العابس

مثل جده الفاتح محمد الثاني الذي نجح في تحفيز الاهتمام العثماني المبكر بالخرائط البطليموسية وغيرها من أشكال المعرفة الكلاسيكية، كان سليم من بنّائي الإمبراطوريات الذين لا ينال التعب منهم، وقد دفعته طموحاته إلى تعهد اهتمام

أصيل بالجغرافيا. فتواصل - بتوجيهه - التقليد العثماني الراسخ المتمثل في السعي وراء أحدث منتجات الخرائط من أوروبا الغربية[31]. وربما كان الأهم من ذلك كله هو أن عهد سليم شهد للمرة الأولى على الإطلاق ظهور مجموعة من الأعمال الجغرافية العثمانية الأصيلة، تميّزت بعدم وجود سوابق أجنبية مباشرة لها وبتركيزها الواضح على العالم خارج شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

يتمثل أحد هذه الأعمال في كتاب «خيتاي نامه» Hitāynāme («كتاب كاثاي»)(*) الذي يقدم وصفا من رأي العين لرحلة من إيران إلى الصين سجلها التاجر العثماني علي أكبر Ali Akbar وأهداها إلى سليم في العام 1516[32]. وقد أكثرَ الجغرافيون العثمانيون اللاحقون من أمثال كاتب جلبي Katip Chelebi وأبي بكر بهرام الدمشقي Ebu Bekr Behram Dimashki من الرجوع إلى هذا النص الذي قدم لقرائه معلومات حول تاريخ الصين المعاصرة وثقافتها وسياستها بدرجة من التفصيل لم يظهر لها نظير في المصادر الأوروبية على مدى قرن تقريبا[33]. وفي السنة نفسها التي كُتب فيها هذا الكتاب كتب مؤلف مجهول الكتاب العثماني المهم «واقعات السلطان جم» Vāķı'āt - ı Sulṭān Cem(**)، وهو أيضا وصف من رأي العين لرحلة فيما وراء البحار يسرد ترحال الراحل جم - عم سليم - على مدار الكثير من سنوات حياته التي قضاها في المنفى بين رودس وفرنسا وإيطاليا بعد أن خسر السباق إلى العرش العثماني أمام بايزيد الثاني والد سليم. يعد هذا النص الذي كُتب من منظور أحد أفراد حاشية جم الشخصية أقدم قصة رحلات معروفة في أوروبا باللغة التركية العثمانية[34].

وفيما يتعلق بالمحيط الهندي تحديدا كان رسام الخرائط والقبطان المتوسطي الشهير الريس بيري أهم جغرافي ظهر برعاية سليم خلال هذه السنوات(***)[35].

(*) كاثاي Cathay (الكتابة الإنجليزية لكلمة كاتاي Catai أو خيتاي Hitāy): هو الاسم الذي أُطلق على الصين ويرجع إلى شعب الخيتاي Khitai أو الخيتان Khitan المغولي الذي حكم شمال الصين بين العامين 907 و1125 باسم سلالة لياو Liao، نقله الرحّالة والتاجر البندقي ماركو بولو إلى أوروبا اسما للصين من خلال كتابه «رحلات ماركو بولو». [المترجم].

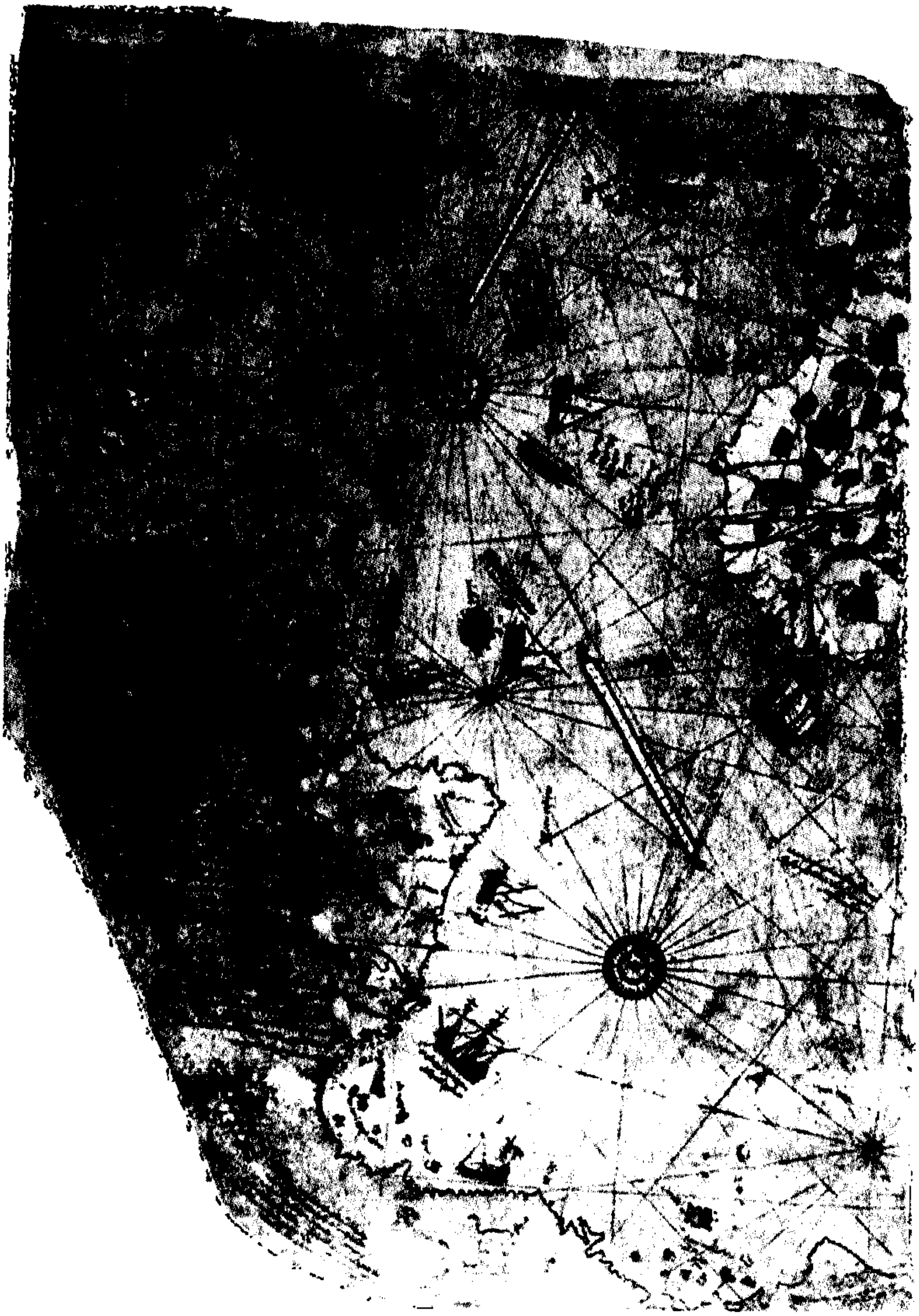
(**) على رغم أن منطوق عناوين الكتابات العثمانية عربي، فقد آثر المترجم على امتداد النص كتابتها بالحروف اللاتينية بجوار أول ذكر لها لأنها عناوين أعمال أجنبية وليست عربية. [المترجم].

(***) ريس reis (والجمع رِيّاس): لقب عثماني لقباطنة البحر مأخوذ من الكلمة العربية «رئيس» أو تحريفها العامي «ريس» الذي لايزال يستخدم في بعض البلاد العربية مع «المراكبية». وعلى رغم أنه رتبة بحرية تُمنح، فإنه في اللغة التركية العثمانية يلي اسم حامله ولا يسبقه، مثل بيري ريس وسلمان ريس وسفر ريس وغيرهم. ولأنه رتبة بحرية فقد عرّفه المترجم ووضعه قبل اسم حامله، ليصير الاسم الريس بيري والريس سلمان والريس سفر وهكذا. (حل محله في اللغة التركية الحديثة اللقب باشكان başkan الذي يعني «رئيس» أيضا). [المترجم].

ولسوء الحظ لم يبقَ إلا جزء من خريطة العالم الشهيرة التي رسمها بيري في العام 1513، وهي أقدم أعماله الباقية والعمل الوحيد المعروف أنه أكمل إبان عهد سليم[36]. يبيّن الجزء الباقي من الخريطة، الذي ربما يشكّل ربعها، المحيط الأطلسي وشواطئه، من بينها - وأعجبها - البحر الكاريبي وجزء طويل من الشريط الساحلي لأمريكا الجنوبية (الشكل 4-1). جعل ذلك من هذه الخريطة - جنبا إلى جنب مع جودتها الفنية العالية مقارنة بأفضل الخرائط الأوروبية في زمنها - إحدى أهم الأيقونات الثقافية لتركيا الحديثة (لذلك ظهرت فترة على ورقة الليرات العشر التركية). وبسبب تاريخ رسمها المبكر نسبيا شكّلت هذه الخريطة إلهاما للعديد من «النظريات» الضعيفة علميا حول سبق العثمانيين لكولومبس إلى اكتشاف أمريكا، بل إن هناك من ذهب إلى أن العثمانيين تلقوا صورا جوية لساحل أمريكا من مخلوقات عليا زائرة![37].

وفيما يخص موضوع الكتاب الحالي فإن المصادفة التاريخية المتمثلة في أن الجزء الوحيد الباقي من هذه الخريطة يصور نصف الكرة الأرضية «الغربي» من شأنها أن تصرف انتباهنا عن حقيقية الارتباط الواضح بين رسم الخريطة وخطط السلطان سليم للتوسع في نصف الكرة الأرضية «الشرقي»، وهو ما يتضح في كتابات بيري اللاحقة التي تساعد في إعادة بناء الأجزاء المفقودة من خريطته وتبيّن أن المحيط الهندي (وليس العالم الجديد) كان بؤرة تركيز العمل الأساسية[38]. كما أننا نعرف أن بيري قدم الخريطة بنفسه للسلطان سليم في القاهرة بعد وقت قصير من دخول سليم المظفر للمدينة في العام 1517[39]. تكتسب هذه المعلومة أهميتها من الارتباط التقليدي بين مصر والمحيط الهندي، وكذلك من معرفة أن السلطان سليم دخل منذ ذلك الحين في مفاوضات مباشرة مع العاهل الهندي مظفر شاه الثاني Muzaffar Shah II، سلطان كجرات، حول إمكانية توجيه ضربة مشتركة للبرتغاليين في غوا(*)[40]. وعلى ذلك فمهما كان الجزء الباقي من خريطة الريس بيري مذهلا للجمهور في عصرنا بسبب المعلومات التي يحويها حول العالم الجديد، فلا بد أنه كان (للسبب نفسه تحديدا)

(*) غوا Goa: مدينة تقع حاليا في ولاية بالاسم نفسه في جنوب غرب الهند على بحر العرب، كانت مقر نائب الملك البرتغالي حاكم دولة الهند البرتغالية منذ أن انتزعتها البرتغال من سلطان بيجابور يوسف عادل شاه في العام 1510 وحتى نقل هذا المقر إلى بانجيم Panjim (أو بانجي Panjai) في العام 1843، وظلت تابعة للبرتغال إلى أن استردت الهند كل ممتلكات دولة الهند البرتغالية في العام 1961. [المترجم].



الشكل (4-1): الجزء الباقي من خريطة العالم التي رسمها الريس بيري في العام 1513. في الخريطة، تظهر إسبانيا وغرب أفريقيا في أعلى اليمين وساحل البرازيل في أسفل اليسار. المصدر: Topkapı Palace Museum Library, Istanbul, Revan Ms. 1633

الجزء الأقل أهمية في نظر السلطان سليم. وربما يدين هذا الجزء من الخريطة ببقائه لهذا السبب تحديدا، بمعنى أنه ربما يكون قد فصل عمدا حتى يتمكن سليم من استخدام الجزء الرئيس من الخريطة بطريقة مريحة عندما شرع في وضع استراتيجية للمحيط الهندي[41].

غير أن شيئا من ذلك لا يغير الحقيقة الأساسية، وهي أن خريطة الريس بيري كانت البداية لحقبة جديدة في تاريخ رسم الخرائط العثماني. تشير ملحوظات المؤلف على هوامش الخريطة إلى أنه رجع في إعدادها إلى أكثر من عشرين عملا مختلفا، منها ثماني خرائط بطليموسية وأربع خرائط بحرية برتغالية منفصلة و«خريطة عربية للهند»، والأخيرة هي أول حالة مسجلة لوصول مصدر عربي حول المحيط الهندي ليد دارس عثماني. ومن الواضح أن بيري توفر على خريطة تخطيطية أصلية للأمريكتين من رحلة كولومبس الثالثة إلى العالم الجديد، وربما جلس بيري شخصيا مع أسير إسباني سبق أن خدم ضمن طاقم إحدى بعثات كولومبس. يشهد ذلك كله على حدوث تحول هائل في فهم العثمانيين للعالم، وينقل لنا بيري نفسه روح مناخ الحماس الفكري الجامح الذي ساد هذه الفترة عندما يتباهى بالقول: «رسمتُ خرائط تمكنتُ فيها من تصوير ضعف عدد الأشياء التي تظهر في خرائط عصرنا، وذلك باستخدام خرائط جديدة للبحار الصينية والهندية التي لم يرها أو يسمع بها أحد في البلاد العثمانية من قبل»[42].

على أننا ونحن نبدي إعجابنا بالمحتوى الثوري لخريطة بيري ينبغي أن نحترس من إغراء أن نرى فيها تحفة لا نظير لها، ما يجعل منها عملا غير ممثّل بطريقة أو بأخرى للبيئة الثقافية العثمانية الأكبر التي رسمت الخريطة في سياقها[43]. ولا بد أنه قد صار واضحا مما سبق أن إلمام الريس بيري بالمعرفة الغربية لم يكن شيئا جديدا أو فريدا البتة، لأن رسامي الخرائط العثمانيين كانوا بحلول القرن السادس عشر يقفون فوق تقليد طويل وراسخ لإنتاج الخرائط وفقا للنماذج الغربية. وعلى ذلك فإن عمل الريس بيري كان جديدا ومثيرا، ليس بسبب أصل مصادره في ذاته، بل بالأحرى بسبب الاتساع الكبير للمعلومات التي وفرتها له المصادر الغربية. وإلى جانب غزو مصر الذي وضع العثمانيين ماديا في اتصال مع منطقة شاسعة كانت مجهولة لهم في السابق، أيقظت خريطة بيري مواطنيه على كون جديد كامل من إمكانات الفتوح والتوسع الإمبريالي.

سليم وتجارة التوابل وغزو مصر

بناء على هذه الخلفية الفكرية المثيرة يمكننا أن نُرجع البداية الحقيقية لعصر الاستكشاف العثماني بدقة إلى قرار السلطان سليم غزو بلدان الإمبراطورية المملوكية في العام 1516. كانت لهذا التحرك نتائج مهمة على التاريخ العثماني اللاحق، إذ ضاعف مساحة الإمبراطورية في سنة واحدة وعزز مكانة العثمانيين بوصفهم الدولة الأقوى في العالم الإسلامي. لكن من المذهل على رغم ذلك أن الدوافع وراء هذا القرار لايزال يلفها حجاب سميك من الغموض بعد نحو خمسمائة سنة من اتخاذه. فهل أريد بهذا الغزو أن يكون ضربة استباقية ضد المنافس الرئيس لسليم، وهو الشاه إسماعيل حاكم إيران، بهدف حرمان الشاه من حليف مصري قوي محتمل؟ أم تراه كان بدلا من ذلك مناورة سياسية لتقوية شرعية سليم على الجبهة الداخلية من خلال الاستيلاء على المراكز الدينية ذات المكانة الكبيرة في القدس ومكة والمدينة؟ أم تراه كان الخطوة الأولى فقط في استراتيجية أكبر كانت تستهدف وضع المحيط الهندي في الفلك العثماني وانتزاع السيطرة على تجارة التوابل من دولة الهند البرتغالية حديثة النشأة؟

من المرجح أن عاملا وحيدا لا يستطيع بمفرده أن يفسر قرار سليم، وربما حتى يكمن قدر كبير من عنصر المصادفة وراء الظروف السياسية المباشرة التي أوصلت جيش سليم أولا إلى سورية ثم إلى مصر. لكن يبدو من المرجح على رغم ذلك أن الاهتمام بتجارة التوابل قد أدى دورا على أقل تقدير في جذب سليم إلى ضفاف النيل(44). وعلى رغم أنه من الصعب تحديد الكيفية والظروف التي اتُّخذ فيها هذا القرار فإن هناك حقيقة واحدة على الأقل تظل واضحة هي أنه مع تراكم المعرفة الجغرافية العثمانية بالمحيط الهندي الذي بدأ خلال السنوات الذي سبقت غزو مصر، كانت جماعات من التجار العثمانيين قد بدأت في الوقت عينه ببناء أولى الصلات التجارية المباشرة مع المنطقة.

من اللافت للانتباه أن هذا الاتصال التجاري المتنامي يرجع في معظمه إلى رجل واحد فقط هو عبد سابق يدعى مالك عياذ Malik Ayaz خدم سلاطين كجرات حاكما لميناء ديو Diu الهندي المهم خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر. لا يُعْرَف الكثير حول هذا الرجل المثير والمبهم الذي يكتنف الغموض أصوله وحياته

المبكرة وتختلف بشأنه المصادر المعاصرة التي تصفه بأنه تتاري أو فارسي أو من أبناء دوبروفنيك أو حتى روسي[45]. لكن أيا كانت خلفية الرجل، وبغض النظر عن لغته الأم الأصلية، من الواضح أنه كان طليقا في اللغة التركية، وتوجد إشارات كافية في السجل التاريخي توحي بأنه أمضى فترة طويلة في الإمبراطورية العثمانية قبل أن يصل كجرات[46]. ومن اللافت للانتباه أن البرتغاليين كانوا يصفون مالك عياذ دائما بأنه «رومي»، وهي كلمة كانت تستخدم عادة في المحيط الهندي إبان القرن السادس عشر للإشارة إلى المسلمين الناطقين باللغة التركية من البحر الأبيض المتوسط العثماني[*]، كما وُصف مالك عياذ في مصدر هندي واحد على الأقل بأنه مولع بـ «العادات الرومية» في مائدة طعامه[47]. أحاط مالك عياذ نفسه كحاكم لميناء ديو - ذلك المركز الرئيس لتجارة العبور الهندية مع البحر الأحمر والخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط - بجماعة كبيرة من الإخوة التجار الروميين، كان ارتباطه بهم قويا إلى حد أن المدينة عُرفت خلال مدة حكمه باسم «ميناء الروميين»[48].

بالنظر إلى أن مالك عياذ كان تاجرا يعمل لحسابه الخاص وكانت له مصالح تجارية كبيرة في البحر الأحمر، فقد كان من الطبيعي أن يتصدى للدفاع عن مصالح هذه الجماعة في وجه العدوان البرتغالي. وعلى مدار السنوات التي تلت الهجمات البرتغالية الأولى على المياه الهندية مع دخول القرن السادس عشر، مارس مالك عياذ دورا فعالا في إقناع قنصوه الغوري الذي كان حينئذ السلطان الحاكم لمصر المملوكية بالتدخل للدفاع عن الشحن الإسلامي. وأظهر عياذ - فترة على الأقل - تعاونا قويا مع أمير البحر المملوكي حسين الكردي Hussein al - Kurdi الذي أبحر أسطوله من مصر إلى الهند في العام 1507. وبحلول شهر مارس من السنة التالية، أثمرت

(*) اتباعا للعرب الذين أطلقوا اسم «الروم» على الإمبراطورية الرومانية الشرقية وأهلها الذين صاروا رعايا للممالك الإسلامية، أطلق العثمانيون على ممتلكاتهم الأوروبية أسم «روملیا» Rumelia أو «روم إيلي» Rumeli الذي يعني «أرض الروم»، وأطلقوا اسم «الروم» على رعاياهم المسيحيين من بقايا هذه الإمبراطورية في الشام والأناضول والبلقان واليونان، ويأتي في اقتباس لاحق من كتاب «مرآة الممالك» للريس سيدي علي أن العثمانيين أطلقوا على بلادهم اسم «بلاد الروم». استخدم بعض المسلمين غير الأتراك اسم «الرومي» Rumi للإشارة إلى العثمانيين أنفسهم، جزئيا بسبب وراثتهم للإمبراطورية الرومانية البائدة، وجزئيا - ربما - لأن الكثير ممن تعامل مع هؤلاء المسلمين ممثلين للدولة العثمانية كانوا من أصول يونانية أو بلقانية أو إيطالية، أي «روميين»، مثل رُيّاس البحر بيري وسلمان وخوجه صفر ومصطفى بيرم وسفر وغيرهم في الهند، والأخوين عروج وخير الدين بربروسا وغيرهما في الجزائر وشمال أفريقيا. [المترجم].

جهودهم المنسقة نتيجة ملموسة عندما نجح أسطول مصري - هندي مُجمَّع في هزيمة الأسطول البرتغالي الأساسي قبالة ساحل شاول، وأسر أو قتل العشرات من البرتغاليين، منهم الدوم لورنزو دي ألميدا Dom Lourenço de Almeida ابن نائب الملك البرتغالي(*).

لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تتآكل ثقة مالك عياذ ودائرته الرومية بحسين الكردي الذي أثبت، على الرغم من مهاراته باعتباره قائدا بحريا، أنه حليف متعجرف وغير مؤتمن. وبحلول العام 1509، كان الشك في نوايا حسين قد تملك من مالك عياذ إلى حد جعله يسحب دعمه لحسين في عشية معركة بحرية حاسمة قبالة ساحل كجرات، وهو القرار الذي أدى إلى تدمير الأسطول المملوكي على أيدي البرتغاليين(**)(49). استطاع حسين الكردي بعد هذه الكارثة أن يعود سالما إلى مصر، ثم أبحر مجددا من السويس في العام 1515 بأسطول مملوكي أكبر بكثير من الأسطول الأول. لكن أفعاله خلال الحملة الثانية لم تزد مالك عياذ إلا شكا في نواياه. فبدلا من تنفيذ الأوامر الصادرة له من القاهرة بأن يتوجه الأسطول مباشرة إلى الهند لرد الضربة للبرتغاليين، حوّل أمير البحر المتمرد بطبيعته كامل قوته إلى اليمن الذي شرع في غزو مدنه الرئيسة في محاولة وقحة لتأسيس إقطاعية شخصية لنفسه(50). روّع ذلك الفعل المراقبين المسلمين في أنحاء المنطقة كلها، لاسيما بعد أن قصف حسين ميناء عدن المستقل في وقت كان الأسطول التجاري الهندي فيه يستعد للإبحار عائدا إلى بلاده مع الرياح الموسمية السنوية(51).

من الواضح أن مالك عياذ وتجار كجرات الروميين حسموا أمرهم بتحويل ولائهم من المماليك إلى العثمانيين، إذ اقتنعوا أخيرا بأن المماليك كانوا إما غير قادرين أو غير راغبين في الدفاع عن مصالحهم على النحو الملائم(52). ومن الكاشف أن هذه القطيعة النهائية بين حسين الكردي وتجار المحيط الهندي حدثت قبل أقل من سنة

(*) شاول Chaul مدينة ضمن دولة الهند البرتغالية مهجورة حاليا، كانت تقع على مسافة 60 ميلا جنوب مومباي في ولاية ماهاراشترا الهندية. [المترجم].
كان حاكم دولة الهند البرتغالية يحمل لقب نائب الملك، تماما مثل حاكم الهند البريطانية لاحقا. [المترجم].

(**) كانت معركة ديو Battle of Diu البحرية (تعرف أيضا باسم معركة شاول الثانية The Second Battle of Chaul) في الثالث من فبراير 1509 إيذانا بانتهاء سيطرة المسلمين على طرق الملاحة البحرية في المحيط الهندي وانتقال هذه السيطرة إلى دولة الهند البرتغالية وما تلاها لاحقا من قوى أوروبية تدخلت في المنطقة. [المترجم].

من انطلاق غزو السلطان العثماني سليم للإمبراطورية المملوكية. فهل لعب تجار روميون معينون ممن كانت لهم صلات بمالك عياذ دورا في إقناع سليم بفعل ذلك؟

لا بد من الإقرار بأنه لا توجد أدلة صريحة كافية في كل من المصادر المصرية أو العثمانية على وجود ارتباط مباشر بين التماسات من هؤلاء التجار وقرار سليم بالغزو[53]. لكن المؤرخ المصري المعاصر ابن إياس الذي يكثر من ذكر نشاطات التجار الروميين في القاهرة(*)، يلمح في كتاباته إلى شعور عام بالارتياب فيهم والعداوة نحوهم. من ذلك مثلا أنه يذكر أنه بعد أن وصل إلى القاهرة مباشرة خبر مقتل السلطان المملوكي قنصوة الغوري في المعركة أمام سليم، سرت إشاعات بأن مجندي الجيش الجدد خططوا للخروج من ثكناتهم لإشعال النيران في سوق خان الخليلي المركزي وذبح التجار الروميين الذين كانوا يعملون فيه. وعندما كُشفت هذه المؤامرة، برر الجنود نواياهم بالقول: «هؤلاء التجار يتعاونون مع العثمانيين وأهانوا سيرة سيدنا الطيبة لدى سماع خبر موته»[54].

بعدها أمرت السلطات المملوكية في القاهرة باعتقال عدد كبير من التجار بتهمة إفشاء أسرار الدولة، وذكر ابن إياس أن التحقيقات «كشفت عن عدد من الجواسيس العثمانيين»[55]. لا شك في أن بعض هؤلاء «الجواسيس» على الأقل كانوا مجرد ضحايا لهوس معاداة العثمانيين في وقت كانت قوات سليم فيه تقترب سريعا من العاصمة المملوكية. لكن الانطباع بأن المزاعم المرفوعة ضدهم انطوت على شيء من الحقيقة سرعان ما عززته أفعال سليم، إذ بمجرد أن استتب له الأمر في القاهرة بعد الهزيمة النهائية للجيش المملوكي، كان من أوائل أفعاله باعتباره حاكما جديدا لمصر أن أمر بالقبض على أمير البحر المملوكي المتمرد حسين الكردي وإعدامه، وهو الرجل الذي أثار سلوكه عداء تجار المحيط الهندي. وعيّن سليم خلفا لحسين في منصب الحاكم لميناء جدة تاجرا أذريا يدعى قاسم شرواني Kasim Shirvani الذي كتب من فوره إلى مالك عياذ وسيده مظفر شاه سلطان كجرات يخبرهما بفتوحات سليم[56]. لسوء الحظ، لم تصلنا الرسالة الأولى من هاتين الرسالتين، لكن

(*) زين العابدين محمد بن أحمد المعروف بـ «ابن إياس الحنفي» ويكنى بـ «أبي البركات» (يونيو 1448 إلى ما بعد نوفمبر 1522) مؤرخ مملوكي مصري من أصول شركسية، يعد من أشهر وأهم المؤرخين الذين أرخوا للعصر المملوكي ونهايته بكتابه «بدائع الزهور في أخبار الدهور». [المترجم].

الرسالة الأخيرة التي وصلتنا تضمنت، إلى جانب التفاصيل حول انتصارات سليم في ساحات المعارك في مصر والمشرق(*)، وعدا محددا بأن الأسطول العثماني سيأتي قريبا لمساعدة التجار المسلمين المحاصرين في الهند. جاء في هذه الرسالة أن:

> عشرين سفينة من تلك التي شيّدها الشركس [المماليك] في السابق ترسو حاليا في ميناء جدة، وأن صاحب الجلالة الإمبراطورية [سليم] ملاذ السلطنة وصاحب قلب سليمان - أعانه الله - قد أمر ببناء خمسين سفينة أخرى. ولن يمضي وقت طويل - بإذن الله - قبل أن يأتي السلطان بجند لا يُحصون ليزجَّ بهؤلاء المخربين الغادرين إلى الجحيم ويرميهم واحدا تلو الآخر في رياح العدم [بجنده] المهلِكين كالعاصفة... وحينها سيعم الأمن والسلام[57].

استقبل أفِراد الجماعة التجارية المسلمة في كجرات هذا الإعلان القوي بفرحة عارمة، فيما استقبله مسؤولو دولة الهند البرتغالية بفزع لا يقل شدة. عبّر رد مالك عياذ لسليم الذي أُرسل في أواخر العام 1518 عن بهجته برسالة السلطان، وتضمن عرضا تفصيليا للاستفزازات البرتغالية الأخيرة وخطة لطردهم من الهند بعملية بحرية هندية - عثمانية مشتركة[58]. وعلى الجانب الآخر، نقلت رسالة مستعجلة بعثها نائب الملك البرتغالي أفونسو دي ألبوكيركي إلى لشبونة في الوقت نفسه تحذيرا للملك البرتغالي من إمكانية وقوع احتلال عثماني وشيك للهند، وحذرته من التأثير التحريضي لهذا التحرك الوشيك في الأهالي المسلمين. وبعد تنويه نائب الملك البرتغالي إلى أن الحالة في شبه القارة الهندية كانت هادئة عندما غادرها إلى ملقا قبل عامين(**)، كتب: «أما الآن، ومع ورود هذه الأخبار عن العثمانيين، فقد رجعت لأجد الثورة في كل مكان. وينبغي أن ألفت انتباه سموكم إلى ما قد ينتج عن قدوم العثمانيين جيرانا لنا بالنظر إلى المكانة التي يتمتعون بها في هذه الأنحاء»[59]. وفي

(*) يشير المشرق تحديدا إلى بلاد الشام التي تشمل سورية وفلسطين ولبنان والأردن، ويشير توسعا إلى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط العثمانية من اليونان شمالا حتى مصر جنوبا، مرورا بتركيا وبلاد الشام. من كتاب «ثلاث مدن مشرقية: سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية»، تأليف فيليب مانسل وترجمة مصطفى قاسم، الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العددين نوفمبر وديسمبر 2017. [المترجم].

(**) كانت ملقا Malacca سلطنة ملايوية تقع على جزيرة ملقا الماليزية الحالية، أسسها إسكندر شاه، وبلغت أوجها خلال القرن الخامس عشر مستفيدة من تجارة التوابل، وغطت معظم شبه جزيرة الملايو وجزر رياو وشرق سومطرة. [المترجم].

الخط نفسه، كتب مسؤول برتغالي آخر يدعى آيريس دا غاما Aires da Gama إلى لشبونة في السنة التالية داعيا إلى عمل عسكري فوري ضد كجرات لأن «ديو تنتظر العثمانيين بالترحاب»، و«يسيطر تجارها حاليا على كامل التجارة مع مكة(*)، ولا يفعلون شيئا غير الذهاب والإياب في سفنهم»[60].

بينما كانت خطوط هذه المعارك ترسم عبر المحيط الهندي، كان سليم يعمل بدأب على جبهة البحر الأبيض المتوسط التي اتخذ فيها خطوات لطمأنة الزبائن الأوروبيين التقليديين للتوابل في مصر إلى أن فرص التجارة لن تتقوّض بسبب فتوحاته الأخيرة. لذلك أصدر السلطان فرمانا لدوبروفنيك يجدد الامتيازات التجارية التي تمتع بها تجار المدينة في زمن المماليك[61](**)، وبعث للبندقية بأنه «راغب في صداقة البنادقة وأنه في بداية حكمه الجديد [في مصر] يسعى إلى زيادة الحركة التجارية في تلك الولاية من أجل مصلحة رعاياه ونفعهم ومن أجل إيرادات الدولة»[62]. وخلال بضعة أشهر، كان التجار البنادقة وغيرهم من الأوروبيين في مصر يبيعون ويشترون علنا في أسواق التوابل بالقاهرة، بعد أن كانوا إبان عهد المماليك لا يجرؤون على التوغل داخل البلاد أبعد من الإسكندرية[63].

لكن على الرغم من هذه الإجراءات، قد يكون من الخطأ أن نقطع جازمين بأن مقاربة العثمانيين لتجارة التوابل كانت ناضجة ومكتملة في هذا التاريخ المبكر. فبينما كان «الملك البقّال» البرتغالي مانويل الأول Grocer King Manuel I يسعى ضمن الأهداف الأساسية لاستراتيجيته الإمبريالية إلى «احتكار التاج» لتجارة الفلفل بالمحيط الهندي، وهو احتكار من نوع مبتكر حينذاك، كان الدور التجاري للدولة العثمانية إبان عهد سليم لايزال قاصرا على جمع تعريفة العبور من الموانئ المصرية، تماما كما كانت الحال في زمن النظام المملوكي السابق[64]. ولم يحدث إلا لاحقا في عهد خلفاء سليم أن أخذت الدولة العثمانية تشارك بنفسها في تجارة التوابل بطريقة مماثلة لـ «احتكار الفلفل» الذي طبقه الدوم مانويل. لكن على الرغم من أن

(*) تشير مكة هنا إلى البحر الأحمر ومصر وما وراءهما. [المترجم].

(**) كانت دوبروفنيك Dubrovnik (أو جمهورية راغوزا Ragusa سابقا) دولة بحرية مستقلة تقع في منطقة دلماسيا على البحر الأدرياتيكي، شهدت أوج ازدهارها تحت الحماية العثمانية إلى أن احتلها نابليون في العام 1808. قدمت - مع البندقية - العون التقني للأسطول المصري - الهندي في حربه الخاسرة ضد الأسطول البرتغالي في معركة ديو البحرية في العام 1509. [المترجم].

هذا النظام استغرق عقودا كثيرة حتى ظهر وتطور إلى شكله الناضج، فإن سليما هو الذي مهد الطريق له بتأسيس سابقة لسياسات حكومية متجاوبة مع المصالح التجارية بطريقة لم تعهد مطلقا في السياسات المملوكية. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن رغبة سليم في المشاركة في الشبكة المعقدة والممتدة جغرافيا لتجارة المحيط الهندي كانت لها نتائج سياسية فورية، إذ أوحت له بإعادة صياغة جذرية لأساس مزاعمه بالشرعية الإمبريالية، في تماثل كامل مع المشروع الإمبريالي للتاج البرتغالي.

التطور المتماثل للمزاعم البرتغالية والعثمانية بالسيادة العالمية

قبل عهد جد سليم السلطان محمد الثاني الذي أدى فتحه المزلزل لمدينة القسطنطينية في العام 1453 إلى تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية بالمعنى الكامل للكلمة، كان السلاطين العثمانيون الأوائل يسندون مزاعمهم بالشرعية إلى أصولهم التاريخية كغزاة على الثغور(*) أو مجاهدين نذروا أنفسهم للجهاد ضد كفار بيزنطة(**)[65]. وهم في ذلك لا يختلفون عن ملوك البرتغال الأوائل الذين عُرِفوا باسم «فرسان المسيح» وادعوا لأنفسهم دورا خاصا كونهم مقاتلي المسيحية في المناطق التخومية الوعرة لأيبيريا العصور الوسطى(***).

ثم تمكن البرتغاليون تدريجيا على مدار القرن الخامس عشر من تأمين عدة مواطئ قدم لهم في المغرب، وفي النهاية مدوا سلطتهم حتى ساحل غرب أفريقيا، تلك المنطقة التي لم تطأها قدم أوروبي من قبلهم. وتقديرا لهذا النجاح، منحت البابوية البرتغاليين عددا من المراسيم خصتهم بها بحقوق حصرية في الملاحة والفتوح في كل المناطق المكتشفة حديثا في المحيط الأطلسي وعلى طول ساحل أفريقيا. ومع نهاية

(*) مفهوم التخوم frontier الغربي هو المقابل لمفهوم الثغور الإسلامي كمنطقة للرباط ضد الأعداء وللتوسع الإقليمي المحتمل. [المترجم].

(**) وصف هذا الطرف أو ذاك بأوصاف تحقيرية أو انتقاصية مثل «الكفار» أو «الملاعين» أو غير ذلك هو جزء من خطاب ذلك العصر الذي انطبع بالحروب الدينية وإنكار أديان الآخرين، ويرد دائما ضمن اقتباسات من الكتابات المعاصرة. [المترجم].

(***) كانت مملكة البرتغال برمتها أحد نتاجات الروح الصليبية الجهادية لعملية استرداد أيبيريا، وكانت العاصمة لشبونة قد انتزعها من الأندلسيين في العام 1147 جماعة من الصليبيين الإنجليز والفلمنكيين والألمان، وهم في طريقهم إلى أورشليم، نيابة عن الحاكم المؤسس أفونسو هنريك Afonso Henriques. وبقيت هذه الروح متقدة في النزاعات اللاحقة في شبه الجزيرة الأيبيرية، ولاحقا في شمال أفريقيا، ثم في المحيط الهندي. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

القرن، وبعد فتح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند، أعاد التاج البرتغالي تفسير تلك المراسيم البابوية لتكون الأساس الشرعي لتطلعاته في المحيط الهندي.

تجسد جوهر هذه المزاعم البرتغالية الواسعة في اللقب الإمبراطوري الجديد الذي انتحله الدوم مانويل فور عودة فاسكو دا غاما المظفرة من الهند في العام 1499، وهو «ملك البرتغال وسيد غينيا وسيد الفتوح والملاحة والتجارة في إثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند». على أنه بالنظر إلى أن الدوم مانويل انتحل هذا اللقب في وقت لم يكن يملك فيه سفينة واحدة في أي مكان بالمحيط الهندي، فإن هذا اللقب كان في حقيقته غاية نظرية أكثر منه وصفا واقعيا لسلطة الملك[66]. وقد كشفت الأحداث اللاحقة أن الدوم مانويل لم يكن ينوي مطلقا تحقيق هذا الزعم على أرض الواقع بالعمل صراحة على إبطال سيادة الملوك في الهند أو أي مكان آخر في الشرق(*). إذ لم يرد ملك البرتغال أن يحل نفسه محل هؤلاء الحكام المحليين، بل أراد فحسب أن يعترفوا به سيدا لهم، أي «ملك ملوك» أو إمبراطورا تتجاوز سلطته السيطرة المادية على أي إقليم بعينه[67]. لذلك، على الرغم من سلسلة طويلة من النجاحات العسكرية عبر آسيا البحرية خلال العقود التالية، لم يغير الدوم مانويل أو أي من خلفائه هذا اللقب الملكي قط، إذ احتفظوا دائما على الزعم بأن سلطتهم تمتد عالميا عبر كل جزر الهند الشرقية، وليس فقط الأقاليم المحددة الخاضعة لهم فعليا في أي وقت بعينه[68]. لذلك كتب المؤرخ البرتغالي أنطونيو فاسكونسيلز دي سالدانيا Antonio Vasconcelos de Saldanha أنه «لأول مرة في التاريخ، لا يتطابق لقب ملوك البرتغال مع فضاء جغرافي يسيطرون عليه فعليا، بل بالأحرى مع «فضاء سياسي» يستند إلى شرعية سياسية متخيلة نتجت عن تقاليد ديبلوماسية ونالت شرعيتها من سلطة البابا»[69].

فيمَ يتلاقى هذا النموذج لـ «الإمبراطورية العالمية» مع واقع الحال في الدولة العثمانية المعاصرة؟ من اللافت للانتباه أنه على الرغم من كل الاختلافات الواضحة

(*) حالت دون هذه السيطرة الفعلية المباشرة قلة عدد سكان البرتغال الذي لم يزد خلال القرن السادس عشر على مليون وربع المليون نسمة، ومن بينهم لم يزد عدد الذكور القادرين على حمل السلاح في حروب الشرق على عشرة آلاف أو ستة عشر ألفا على الأكثر في أواخر القرن السادس عشر. وعلى الرغم من نجاح البرتغاليين عسكريا، باستيلائهم على غوا في العام 1510 وملقا في العام 1511 ثم هرمز في العام 1514، فإن محاولتهم احتكار تصدير التوابل إلى أوروبا فشلت في النهاية بسبب فشلهم في الاستيلاء على عدن في العام 1513، وأيضا بسبب نقص عدد السفن والرجال. ولذلك ظل البحر الأحمر مفتوحا للشحن الإسلامي. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

بين الثقافة السياسية في العالمين العثماني والبرتغالي، فإن وصف سالدانيا ينطبق في نواحٍ أساسية عدة على المزاعم الإمبريالية التي رفعها السلطان سليم في العام 1517، تماماً كما ينطبق على مزاعم الدوم مانويل في العام 1499. فإذا كان الدوم مانويل قد أصبح «إمبراطورا» عند عودة فاسكو دا غاما من الهند، فإن سليم هو الآخر اتخذ من دخوله المظفر للقاهرة بداية جديدة عندما لقّب نفسه باللقب المهيب «خادم الحرمين الشريفين» الذي كان في السابق من حق سلاطين المماليك. وبعد ذلك، ألقى سليم القبض على المتوكل، وهو آخر «خليفة» دمية من السلالة العباسية كان يقيم في القاهرة، وانتزع منه لقبه هو الآخر. ومع أن فكرة حمل لقب «الخليفة» داعبت سلاطين سابقين، من أبرزهم محمد الفاتح جد سليم، فإنه لم يحدث أن بدأ ذلك اللقب يلقى قبولا من الحكام المسلمين الآخرين على المستوى الدولي إلا إبان عهد سليم.

ثم بدأ سليم، مسلحا بأوراق اعتماده الجديدة، في رفع مكانته إلى الحاكم الإسلامي العالمي الذي تمتد سيادته، لاسيما فيما يتعلق بالمحيط الهندي، أبعد بكثير من حدود المناطق الخاضعة له فعليا[70](*). وفي العام 1518، وهو وقت مبكر، جاء في رسالة دبلوماسية رسمية (موجهة إلى الحاكم شروان شاه(**)) ضمن الألقاب الكثيرة التي منحها سليم لنفسه، سيادته على شبه الجزيرة العربية واليمن وإثيوبيا وحتى زنجبار، مع أنه في ذلك الوقت لم تكن له أي قوات عسكرية أبعد من ميناء جدة الواقع على البحر الأحمر[71].

لا ريب أن ذلك التموضع ما كان ليعني شيئا لو لم تعترف القوى المحلية في المحيط الهندي بمزاعم سليم، لكن من الواضح أن معظم الحكام في المنطقة

(*) يذكر المؤلف في هامش هذه النقطة أن سليم بعد غزو مصر، بدأ يستخدم في مراسلاته الرسمية لقبي «ظل الله» zill Allah و«صاحب قِران» sạhib-kiṛān (أي ذي القرنين)، والقِران هو اجتماع النجوم الذي يعرف بقران السعدين (وأيضا قران النحسيَن)، واللقب بذلك يعني لغويا صاحب السعود أو صاحب سعود النجوم، ويعني سياسيا فاتح العالم الذي اجتمع تحت سلطانه الشرق والغرب، وقد استعاض عنه سليمان القانوني باللقب المرادف «ظل الله في الأرضين وسلطان البحرين». كان الشاعر الملحمي الفارسي نظامي الكنجوي أول من استخدم اللقب - من وحي ذي القرنين في القرآن الكريم - لوصف الإسكندر الأكبر (الإسكندر ذي القرنين)، وكذلك استخدمه الإمبراطور المغولي تيمورلنك والإمبراطور المُغالي أكبر. [المترجم].

(**) بين القرنين التاسع والسادس عشر، كان شروان شاه Shirvan Shah لقبا لحكام مملكة شروان التي كانت تقع في جنوب جمهورية أذربيجان الحالية، احتفظت به السلالة المَزْيدية Mazyadids العربية أصلا والفارسية ثقافة التي تنسب إلى مَزْيد الشيباني وتعرف أيضا باسم السلالة الشيبانية Shaybanids نسبة إلى قبيلتهم وباسم السلالة اليزيدية Yazidids نسبة إلى مَزْيد بن يزيد. [المترجم].

تقبلوها فعليا. من ذلك مثلا أنه بمجرد أن وصلت أخبار فتوحات سليم إلى مكة، سارع الشريف حاكمها بإرسال ابنه إلى القاهرة لتقديم بيعته الشخصية للسلطان وتسليمه مفاتيح الحرمين الشريفين، وبعدها أقر سليم بقاء الشريف في منصبه[72]. بعد بضعة أشهر، وصل مبعوث من أمير عدن أقسم بالولاء لسليم وطلب المغفرة عن إمداده أسطولا برتغاليا زائرا بالمؤن والمرشدين المحليين في وقت سابق من تلك السنة[73]. وبعد ذلك بوقت قصير، وصلت إلى إسطنبول رسالة مالك عياذ التي خاطب فيها السلطان العثماني صراحة بلقب «خليفة الأرض»[74].

وعلى ذلك، فإن سليم - مثل معاصره البرتغالي الدوم مانويل - بدأ في بناء إجماع على ادعائه نوعا جديدا تماما من السيادة الإمبريالية لم تكن تتطابق مع فضاء جغرافي يخضع لسيطرته فعليا، بل كانت بالأحرى تتطابق مع فضاء سياسي عالمي توسعي تعرفت حدوده من خلال عالمية لغة الإسلام. ليس من المصادفة بحال من الأحوال أنه في الحالتين البرتغالية والعثمانية كلتيهما، كان هذا الزعم الجديد يشير إلى الفضاء السياسي نفسه وهو العالم التجاري للمحيط الهندي الذي اتخذه المسلمون والمسيحيون على حد سواء فضاء للتبادل الاقتصادي وساحة حرب لأيديولوجيات إمبريالية متنافسة.

بدأ سليم في العام 1519 أولى الخطوات الملموسة لفرض هذا الزعم الجديد على أرض الواقع بتنظيم حملة بحرية مسلحة صغيرة إلى اليمن بقيادة القرصان المحنك حسين الرومي Hussein al-Rumi(*)[75]. ومع أن موت السلطان المفاجئ في العام 1520 حال دون إنفاذ الحملة، فإن نطاق الطموحات العثمانية الذي توسع أخيرا قد أصبح عند هذه النقطة جليا للجميع، وواصل اتساعه حتى بعد رحيل سليم. فمن خلال انتحال السلطة والمكانة الناتجتين عن السيطرة على الحرمين الشريفين، وضع سليم خلفاءه على طريق الصدام مع البرتغاليين للسيطرة على المحيط الهندي، وأعطاهم مصادر سياسية وديبلوماسية هائلة للاعتماد عليها في النزاع اللاحق. كان ذلك الصدام الحالة الأولى التي تتصارع فيها قوتان بطريقة مباشرة على مسرح عالمي بهذا الاتساع.

(*) كانت القرصنة على السفن والموانئ الإسلامية هي وسيلة البرتغاليين لحظر تجارة المسلمين في المحيط الهندي وحصارهم للبحر الأحمر. وربما يخص المؤلف رُيّاس البحر العثمانيين في المحيط الهندي بوصف «القراصنة» لأن أغلبيتهم، كما يبيّن الكتاب، بدأوا حياتهم قراصنة مستقلين في البحر الأبيض المتوسط قبل أن ينضموا إلى خدمة العثمانيين. [المترجم].

خاتمة

العثمانيون و«الإرث الإسلامي»

إن الميل للنظر إلى «العالم الإسلامي» باعتباره كتلة غير متمايزة لا تتغير بمرور الزمن، ميل له تاريخ طويل في الكتابات الغربية[76]. تفاقم هذا الميل فيما يتعلق بتاريخ التوسع العثماني في المحيط الهندي بسبب المصادر المتاحة من هذه الحقبة التي لم يميّز مؤلفوها (البرتغاليون والمسلمون الهنود على حد سواء) بعناية بين العثمانيين والمماليك[77]. لذلك تنظر معظم الدراسات الحديثة المعتمدة على هذه المصادر إلى الحملات البحرية المملوكية في أوائل القرن والعمليات العثمانية خلال العقود التالية باعتبارها جزءا من عملية تاريخية واحدة متواصلة وغير متمايزة.

بيد أن هناك فارقا شاسعا بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية، ذلك أن المصلحة من تجارة التوابل قبل وصول البرتغاليين للهند كانت تعود إلى المماليك وحدهم[78]. لا ينفي ذلك أن عددا من البحّارة والمدفعيين العثمانيين عملوا مرتزقة في أسطول المحيط الهندي المملوكي قبل العام 1517، وأن هذا الأسطول تلقى دعما إمداديا محدودا (في شكل مدفعية وإمدادات خشب وربما بعض البحّارة) من بايزيد الثاني والد سليم[79]. لكن لا توجد أدلة على أن بايزيد لعب أي دور مباشر في تنظيم هذا الأسطول أو توجيه نشاطاته، ثم جاء سليم وأوقف شحن الإمدادات لهذا الأسطول بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش[80]. من الواضح أن القوام الرئيس لـ «العثمانيين» الذين تطوعوا للخدمة في الأسطول المملوكي إبان عهد سليم (وهي قوة من نحو ألفي مشرقي عملت تحت إمرة القرصان المتوسطي الريس سلمان) فعلوا ذلك على خلاف رغبة سليم(*)، وهو ما يتأكد من أن سليم بعد أن غزا مصر استدعى قائدهم فورا إلى القاهرة وأمر باعتقاله، فمن الواضح أنه لم يسره أن يجد كثيرا من رعاياه يخدمون في الجيش المملوكي[81].

(*) «عثمانيون» أي من رعايا الدولة العثمانية، وليسوا أتراكا بالضرورة، وتحديدا من المشرق. [المترجم].
الريس سلمان Selman Reis قائد بحري وقرصان عثماني من جزيرة لسبوس Lesbos الإيجية، خدم في أسطول مصر المملوكية قبل انهيارها أمام الغزو العثماني، ثم خدم في الأسطول العثماني. قبل انهيار السلطنة المملوكية بأشهر، قاد قواتها التي صدت هجوما برتغاليا على جدة في العام 1517. وفي خدمة العثمانيين، اقترح على الصدر الأعظم إبراهيم باشا البرغي غزو اليمن وإثيوبيا والساحل السواحلي وطرد البرتغاليين من هرمز وغوا وملقا، وقاد مع خير الدين الرومي غزو اليمن في العام 1527 وتأمين البحر الأحمر من دخول البرتغاليين بتأسيس قاعدة بحرية في جزيرة كمران اليمنية الواقعة في مدخل البحر الأحمر، وساعد الممالك الإسلامية في هرمز والهند وسومطرة في حروبها ضد البرتغاليين. [المترجم].

من الواضح - إذن - أن سليم لم يكن بحال من الأحوال متعاونا أو حتى شريكا بالصمت في المحاولات الواهنة من جانب السلطنة المملوكية لحماية الشحن البحري الإسلامي من البرتغال قبل العام 1517. وعلى ذلك فإنه بالنظر إلى أن الحصار البرتغالي للبحر الأحمر كان قد أُحكِم قبل وقت طويل من وصول سليم إلى مشهد الأحداث، فإن الاتهام الذي يوجه إلى سليم عادة بأنه «فشل في الدفاع» عن طرق التجارة بالمحيط الهندي بعد غزوه مصر يصير بلا معنى[82]. ويمكن القول إنه حتى الحكم المملوكي تضرر (وربما انهار في النهاية) بسبب الأعمال العدائية البرتغالية. لكن بالنسبة إلى العثمانيين إبان عهد سليم، لا يمكن القول إن تجارة التوابل كانت مصدر دخل «مفقود» منهم لم يستطع السلطان أن يحميه، بل كانت هذه التجارة بالأحرى فرصة مستقبلية عظيمة يمكن استغلالها ومصدرا هائلا وغير مستغل للثورة.

ومع الوقت، استغلت أجيال لاحقة من رجال الدولة والتجار والمغامرين العثمانيين هذه الفرصة على النحو الأكمل. لكن ضخامة هذا العمل استلزمت فترة تحضين طويلة قبل أن تثمر جهودهم. وعلى كل، فقد أضاع البرتغاليون نحو عقد من الزمن بين رحلتهم البحرية الأولى حول رأس الرجاء الصالح في العام 1488 (بقيادة بارتلوميو دياز(*)) وحملة المتابعة التي قادها فاسكو دا غاما إلى الهند في العام 1497. وفي المقابل، وصل العثمانيون متأخرا إلى المحيط الهندي، ولذلك ليس مستغربا أن نجد أنهم أيضا ساروا بالسرعة المتأنية نفسها في السعي وراء أهدافهم الاقتصادية والسياسية في المنطقة.

لكننا عندما نتأمل النتائج بعيدة المدى لعهد سليم، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار استمرار أهمية مصر كنقطة جذب للتجارة العالمية بعد فترة طويلة من وصول البرتغاليين للمحيط الهندي. ومع أن كثيرا من المؤرخين الحديثين مازالوا يتشبثون بعناد بمقولة إن طريق رأس الرجاء الصالح البرتغالي للهند كان أسرع وأرخص من أي بديل آخر، ولذلك قضى نهائيا على طريق العبور التقليدي عبر مصر والبحر

(*) بارتلوميو دياز Bartolomeu Dias (نحو 1451 إلى 29 مايو 1500) نبيل من الأسرة الحاكمة البرتغالية أبحر في أواخر العام 1487 بتكليف من الملك جواو الثاني على رأس بعثة لاكتشاف طريق إلى الهند حول الرأس الجنوبي لأفريقيا، دارت البعثة حول أفريقيا ووصلت إلى مياه المحيط الهندي، لكن طاقم دياز رفض أن يواصل الإبحار، فعاد أدراجه، ولم يكتشف لسان رأس الرجاء الصالح الذي اسماه «رأس العواصف» إلا في طريق عودته في مايو 1488. [المترجم].

الأحمر، فإن هناك أدلة كثيرة وقاطعة على ما يبدو على خلاف ذلك[83]. فلم ينخدع البرتغاليون المعاصرون أنفسهم بهذه الأوهام، إذ تبيّن المحفوظات المعاصرة أنهم كانوا واعين بتفوق الطريق المصري التقليدي، ولذلك بقيت مصر والأراضي المقدسة في القلب من حساباتهم الاستراتيجية على امتداد العقود الأولى من القرن السادس عشر. وباعتراف المخططين الاستراتيجيين البرتغاليين الأوائل، فإنهم بحصار البحر الأحمر لم يكونوا يرغبون في تجاوز مصر إلى الأبد، بل كانوا بالأحرى يمهدون الطريق لغزو مصر بإضعاف وصول المماليك إلى العائدات الجمركية وانتزاع هذه الأموال لأنفسهم. وبعد إنجاز ذلك الهدف، وبعد وقوع مصر في قبضتهم، كان يمكنهم حينها السماح بعودة تجارة التوابل إلى طرقها التقليدية، وحينها كانوا سيستغنون عن الشبكة الواهنة والمكلفة من القواعد البرتغالية في المحيط الهندي[84].

في ضوء هذا الطرح، تبدو الفترة الأولى من التوسع البرتغالي كاملة مجرد محاولة محفوفة بالمخاطر ومعقدة للغاية فشلت في النهاية في أن تنجز على مدار عدة عقود ما أنجزه سليم في العام 1517 وخلال بضعة أشهر فقط من العمل العسكري. ومع الوقت، أعطت السيطرة على مصر والأراضي المقدسة العثمانيين ميّزة استراتيجية هائلة على البرتغاليين، تجلت أهميتها أكثر وأكثر مع توالي سنوات القرن السادس عشر. وعلى ذلك، فإن «سليم الملاح» منح بلاده مفاتيح آسيا البحرية، وترك لخلفائه مهمة فتح الباب والولوج إلى العالم الجديد الواسع الممتد أمامهم.

2

إبراهيم باشا وعصر الاستطلاع 1520 - 1536

«انتهت حياة إبراهيم باشا المهنية الناجحة مبتورة، ولو قُدِّر له أن يعيش أطول فلا ريب أنه كان سيواصل العمل من أجل هجوم بحري عثماني كبير على البرتغاليين كانت إنجازات الرجل حتى العام 1536 بمنزلة التحضير له»

شهد العام 1520 بداية العهد الطويل جدا لسليمان العظيم الذي يعده الناس عموما - سواء في عصره أو عصرنا - أعظم السلاطين وأقواهم في تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق(*). لكن على الرغم من كل إنجازات سليمان التي لا تنكر، فإن شهرته التي بُنيت بعناية تستحق أن نتعامل معها بشيء من الشك، ذلك أن سنوات حكمه الست والأربعين شهدت بداية ظاهرة جديدة في تاريخ السلالة العثمانية كانت أبعد ما يمكن عن العظمة التي اشتهر بها سليمان،

(*) على خلاف أبيه سليم الذي عُرف في الكتابات والدوائر الغربية بأسماء سلبية الدلالة، عُرف فيها السلطان العثماني سليمان الأول باسم «سليمان العظيم» Suleiman the Magnificent، واشتُهر في الكتابات العثمانية والعربية باسم «سليمان القانوني». [المترجم].

إذ كان عهده فترة طويلة تصاعد خلالها نفوذ الوزراء والمستشارين وأفراد العائلة الحاكمة إلى حد غير مسبوق، حتى إنهم أخذوا في النهاية يقوّضون سلطة السلطان. وعلى ذلك فإن فهم السياسة خلال عهد سليمان يستلزم تحريك بؤرة التركيز بعيدا عن السلطان لاستيعاب مدى أوسع من الفاعلين السياسيين. فبداية من العام 1520 كانت ثلة متغيرة باستمرار من الشخصيات، منهم صدور أعظمون وولاة وحتى سيدات من الحريم السلطاني، أقوى تأثيرا في تشكيل سياسات الإمبراطورية من الجالس على سدة الحكم في إسطنبول[1].

ما أسباب هذا التغير الجذري في الثقافة السياسية العثمانية؟ على الرغم من خطر التبسيط المخل، يمكن إرجاع ذلك في معظمه إلى شخصية سليمان الرقيقة. فعلى خلاف شخصية أبيه شديدة التجبر، يبدو أن السلطان الشاب عانى طوال حياته من حاجة قهرية إلى الألفة والمودة، لذلك أقام عددا من العلاقات الشخصية القوية سمح لها بأن توجه قراراته بوصفه رئيسا للدولة. يتمثل المثال الأوضح - والأشنع - لهذا الميل في حبه المتقد للجارية روكسلانا Roxelana (لاحقا «السلطانة خُرّم» Hurrem Sultan) التي تزوجها ضاربا بالتقليد العائلي عرض الحائط، وأصبحت لاحقا أحد أقوى مراكز القوة في الإمبراطورية. لكن حتى قبل ذلك، عندما كان سليمان لايزال في زهرة الشباب واعتلى العرش من فوره، استسلم السلطان الشاب لهذا الجانب الرقيق في طبيعته بإغداق العطف على صديق صباه ونديمه إبراهيم الذي ارتبط صعوده الصاروخي خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر ببداية المرحلة الثانية من عصر الاستكشاف العثماني[2].

صعود إبراهيم باشا إلى السلطة

وفقا للروايات المعاصرة عن أصوله، ولد إبراهيم باشا فردا من أفراد الرعية لجمهورية البندقية في بلدة إيبران Epiran التابعة لبرغة(*)، وأسره قراصنة في عمر السادسة وبيع بعدها بوقت قصير عبدا لعائلة غنية، وقيل إنه التقى السلطان

(*) تسمى حاليا إبيروس Epirus وتقع في شمال غرب اليونان على البحر الأيوني، كانت على مدار قرون جزءا من الدولة البحرية البندقية Stato da Mar (نحو 992 - 1797) التي شملت في أوقات مختلفة إستريا ودلماسيا وألبانيا ونيغروبونتي ومورية (شبه جزيرة بيلوبونيز اليونانية) وبعض الجزر الإيجية وكريت وقبرص. [المترجم].

المستقبلي سليمان عندما كان الاثنان في العقد الثاني من العمر. ثمة قصة شائعة حول لقائهما الأول انتشرت على نطاق واسع في فترة لاحقة، تقول إن إبراهيم لفت انتباه الأمير في البداية بسبب عزفه الجميل على الكمان. وبغض النظر عن مدى صحة هذه القصة، فلا ريب أن صداقة قوية ربطت بينهما سريعا. لذلك قُدِّم إبراهيم هديةً لسليمان من مالكه السابق، وقضى الاثنان بقية عقدهما الثاني من العمر معا في العاصمة الإقليمية مانيسا Manisa التي أكمل فيها سليمان تدريبه بوصفه أميرا.

عندما اعتلى سليمان العرش في العام 1520، رافقه إبراهيم إلى إسطنبول، وكان في البداية يقيم في جناح السلطان الخاص ويقضي الليل معه في الغرفة نفسها، وهو أمر كان غير مسبوق ولم يُسمع به من قبل في عالم البلاط السلطاني العثماني شديد الانضباط. وفي السنة التالية بدأ إبراهيم يبني لنفسه قصرا في منطقة قريبة من سراي توبكابي، حتى يظل قريبا عندما لا يكون في حضرة سليمان بجسده. لم يكن الشابان ينفصلان خلال هذه السنوات، حتى إن مسؤولا بندقيا كان يقيم في إسطنبول حينذاك وصف إبراهيم بأنه «قلب السلطان وأنفاسه»[3].

في زمان ومكان كان الوصول فيهما لحضرة السلطان يترجم آليا إلى قوة سياسية خالصة، كانت هذه العلاقة الوثيقة كافية في ذاتها لجعل إبراهيم أحد أقوى الأشخاص تأثيرا في الإمبراطورية. لكن سليمان أراد أن يرفع مكانة إبراهيم من خلال القنوات الرسمية بأسرع ما يمكن، وكان عند اعتلائه العرش قد عين إبراهيم في وظيفة كبير مدربي صقور الصيد، ثم رقاه عدة مرات خلال السنوات التالية. وفي العام 1523، بعد أن أعفى مستشار أبيه المسن بيري محمد Piri Memed من المنصب، أمر السلطان بأن يحل إبراهيم (إبراهيم باشا حينئذ) محله صدرا أعظم، ما جعله اسميا وفعليا صاحب أعلى منصب في الإدارة المدنية والعسكرية العثمانية. كما عيّنه أمير أمراء رومليا (الولاية المتنافس عليها في الإمبراطورية)(*)، وبعد أشهر قليلة، زوّجه عروسا من أشرف عائلات إسطنبول في احتفالات عمّت خلالها الأبهةُ العاصمةَ[4].

(*) شملت إيالة روملیا Rumelia أو روم إيلي Rūm - éli (أرض الروم) مناطق تراقيا ومقدونيا وموسيا في بلغاريا الحالية وتراقيا التركية، كان يحدها شمالا نهرا سافا والدانوب وغربا البحر الأدرياتيكي وجنوبا مورية وكانت عاصمتها بيتولا (في مقدونيا الحالية). في تركيا الحديثة، تستخدم كلمة تراقيا للإشارة إلى الولايات العثمانية في أوروبا. [المترجم].

كان من شأن ذلك كله أن يثير عداء أفراد المؤسسة العثمانية الأقوياء الذين توقعوا من السلطان أن يراعي قواعد الأقدمية الصارمة، وإن كانت غير مكتوبة، في قرارات الترقيات للمناصب الأعلى في الإمبراطورية. وعلى وجه التحديد أحس أحمد باشا Ahmed Pasha، وهو الأقدم بكثير من إبراهيم، والذي كان الوزير الثاني لسليمان خلال صدارة بيري محمد، أن الصدارة العظمى من حقه (وهو محق في ذلك) أو على الأقل من حق شخص له خبرة تضاهي خبرته(*). كان قرار السلطان الشاب ترقية إبراهيم الذي لم يجاوز حينها العقد الثالث من العمر إهانة شديدة لأحمد. ومن باب الترضية لكرامته الجريحة، وربما أيضا كمسوّغ لإبعاده عن العاصمة، عيّنه السلطان واليا لمصر وأرسله إلى القاهرة. ولسوء الحظ رفض أحمد هذا الوضع الجديد، ورفع راية التمرد بعد فترة قصيرة من وصوله إلى ضفاف النيل، فرد سليمان على ذلك بحشد أسطول ضخم وضع إبراهيم على رأسه للإبحار إلى مصر والتعامل مع الأزمة بنفسه[5].

ثمة سببان يكسبان تمرد أحمد باشا وحملة إبراهيم اللاحقة لإعادة احتلال مصر أهمية مركزية بالنسبة إلى قصتنا. أولا كانت مصر بداهة حلقة الوصل المهمة بين المحيط الهندي والإمبراطورية العثمانية، وكان غزوها في العام 1517 هو ما جعل سليم، والد سليمان، يعي لأول مرة إمكانات التوسع البحري في الجنوب الشرقي. وها هي الخسارة المفاجئة للولاية تقطع هذه الصلة تماما، ما كشف هشاشة اتصال العثمانيين بعالم المحيط الهندي بعد أكثر من خمس سنوات من غزو مصر لأول مرة. لكن تمرد أحمد كانت له أيضا نتيجة إيجابية تمثلت في الإتيان بإبراهيم باشا إلى ضفاف النيل، وهي الخبرة التي أثارت في الباشا الشاب والطَموح استجابة مماثلة لما أثارته في سلفه عند غزو مصر: سليم العابس. وسرعان ما بدأ إبراهيم يحلم ببناء إمبراطورية في المحيط الهندي، حتى مع وعيه بأن مواطنيه كانوا في أوائل العقد الثالث من القرن السادس عشر لايزالون يعانون نقصا حادا في المعلومات الموثوق بها حول هذه المنطقة.

(*) كان للسلطان العثماني أربعة وزراء أعلاهم هو الصدر الأعظم وأدناهم هو الوزير الرابع، كان أربعتهم أعضاء في الديوان الهمايوني، وكان الصدر الأعظم هو من يحمل خاتم الإمبراطورية ويصدر الأوامر ويختمها باسم السلطان، وكان من المعتاد أن يحل الوزير الثاني محل الصدر الأعظم وزيرا أول في حال انتهاء خدمته بأي شكل (بتواصل شخصي مع المؤلف). [المترجم].

حملة إبراهيم باشا الاستطلاعية

على الجبهة العسكرية تعامل إبراهيم سريعا مع تمرد أحمد باشا، وأشرف على إعدامه خلال أسابيع قليلة من وصوله إلى الولاية[6]. لكن سرعان ما اتضح أن الحملة الأهم التي قُدّر لإبراهيم أن يخوضها خلال مقامه في مصر لم تكن الحملة ضد قوات أحمد المتمردة، بل ضد البرتغاليين، وأنها لا تخاض بالجنود والمدفعية، بل بالأحرى بالخرائط والنصوص الجغرافية.

بدأت هذه الحملة الاستطلاعية في حقيقة الأمر قبل أن يصل الصدر الأعظم إلى مصر، ذلك أن سفينة إبراهيم أبحرت من إسطنبول إلى رودس بقيادة الملاح ورسام الخرائط الريس بيري، وهو الرجل عينه الذي سافر إلى القاهرة وقدم للسلطان سليم خريطته الشهيرة للعالم في العام 1517[7]. وفقا لرواية جاءت في كتابات لاحقة للريس بيري، فإنهما تعرفا لأول مرة خلال هذه الرحلة التي رأى فيها الباشا بيري وهو يراجع خرائط ملاحية لاتخاذ مسار آمن. أثارت الخرائط اهتمام إبراهيم على الفور، فسأل بيري عن طريقة استخدامها، وفيما بعد ظل الرجلان يتناقشان بانتظام حول الملاحة ورسم الخرائط وعلم البحر[8].

على أننا لا نبالغ في تقدير النتائج بعيدة المدى لهذا اللقاء العابر في عرض البحر على عصر الاستكشاف العثماني برمته، إذ لدى وصولهما الآمن إلى مصر، كلف إبراهيم الريس بيري بإكمال طبعة موسعة من العمل الذي كان يرجع إليه خلال إبحارهما، وهو الأطلس والدليل الملاحي الذي كان بيري قد أكمله أخيرا بعنوان «كتاب البحرية» Kitab - I Bahariye[9]. كان هذا العمل المرجعي في شكله النهائي الذي قُدِّم للسلطان في العام 1526 إسهاما فكريا رائدا واختراقا، حتى إنه اليوم يعد الإنجاز الأهم على الإطلاق للجغرافيا ورسم الخرائط العثمانيين[10].

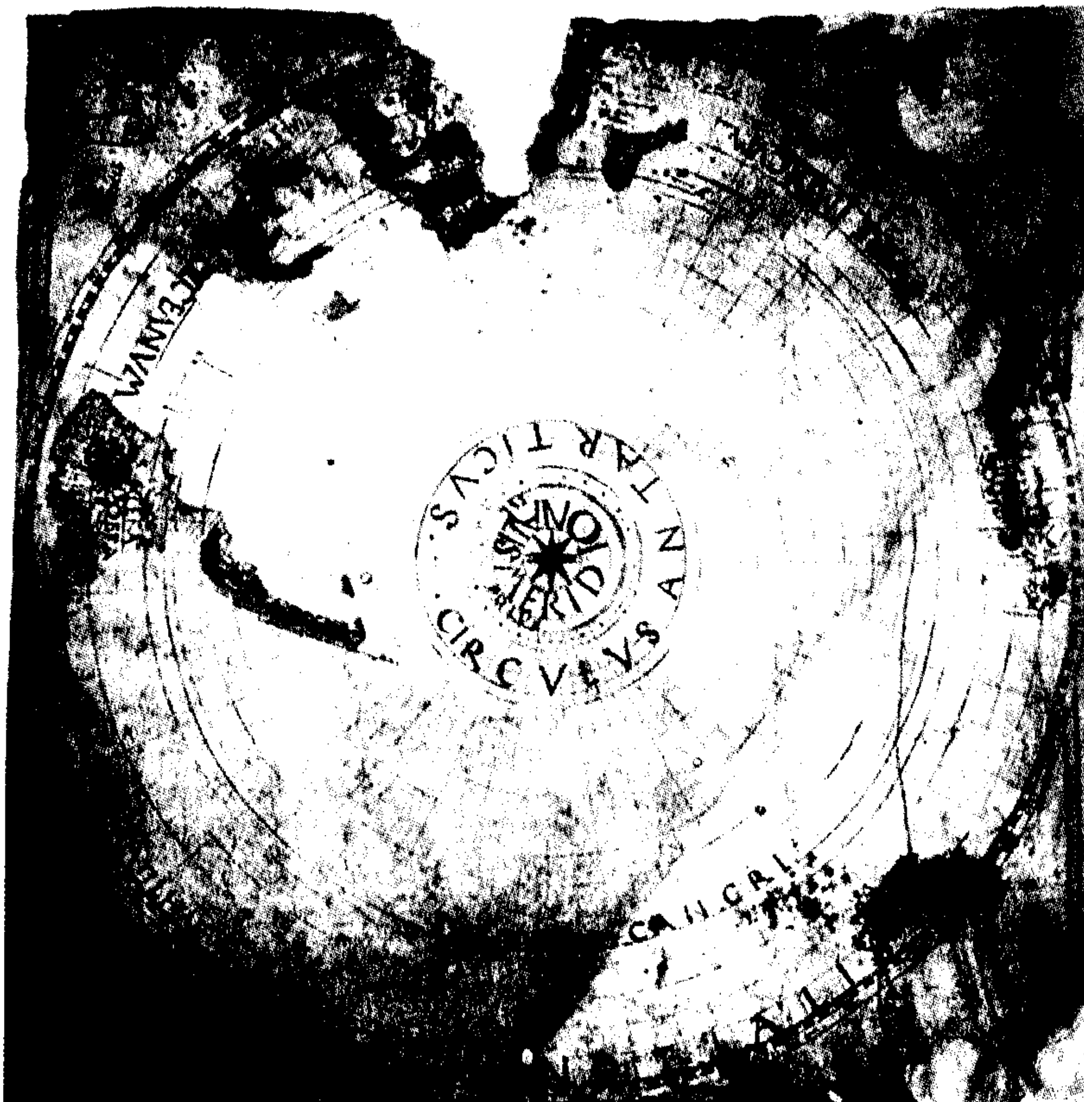
مع أن ثراء أوصاف «كتاب البحرية» للبحر الأبيض المتوسط وشمولها (لاسيما أنها مصحوبة بأكثر من عشر خرائط منفذة بإتقان ومزودة برسوم توضيحية جميلة) هو ما يجذب معظم القراء الحديثين للكتاب قبل أي شيء آخر، فإن الجزء من الكتاب الذي شكّل على الأرجح أهمية فورية لإبراهيم باشا كان قسمه التمهيدي الطويل، وهو الذي لم يُضمَّن في طبعة بيري السابقة، والذي لم يحوِ أي معلومات حول البحر الأبيض المتوسط. وبدلا من ذلك، يعد هذا النص القوي المقفى المكتوب

بلغة عامية واضحة أول عمل أصيل باللغة التركية العثمانية يحتوي على معلومات محددة وتفصيلية حول جغرافية المحيط الهندي. شمل الكتاب ملخصا نصيا مُحَدَّثا لخريطة بيري السابقة للعالم، وأضيفت إليه أقسام جديدة تصف تاريخ دوران فاسكو دا غاما البحري حول أفريقيا واكتشاف كولومبس للعالم الجديد والتقدم التقني الذي مكّن من تنفيذ هذه الرحلات، كل ذلك لكي ينقل الإحساس بالأهمية الفائقة للاكتشافات، فكريا وسياسيا.

بالنظر إلى هذه القيمة الكبيرة لـ «كتاب البحرية»، فإن إبراهيم باشا لو لم ينجز شيئا خلال سنوات صدارته العظمى غير تكليف بيري بإعداد هذا الكتاب، لكان ذلك كافيا لتبرير اشتهار إبراهيم برعاية العلم والتعليم. لكن رائعة الريس بيري لم تكن غير واحدة من عدة أعمال مماثلة أتيحت للعثمانيين خلال منتصف العقد الثالث من القرن السادس عشر بفضل جهود إبراهيم باشا. وهناك مثال آخر لا يقل روعة عن كتاب بيري، هو خريطة لطوفان ماجلان البحري حول الكرة الأرضية تنسب إلى رسام الخرائط الرسمي بالبلاط البرتغالي بيدرو رينيل Pedro Reinel (الشكل 1-2). تحوي هذه الخريطة - لكونها عملا تاريخيا - تسجيلا أصيلا للاكتشافات التي نفذها ماجلان في نصف الكرة الأرضية الغربي ولأحدث المعلومات - حتى العام 1519 - من الرحلات البرتغالية إلى شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا. يشكل هذا العمل أيضا أهمية كبيرة من المنظور التقني لكونه أقدم مثال معروف لمسقط متساوي الأبعاد من القطب على خريطة أرضية، وهو أسلوب لم يُستخدم بانتظام إلا إبان العقد السابع من القرن السادس عشر(11).

على أن ما يميِّز في هذه الخريطة هو أنها توجد اليوم ضمن مجموعة مكتبة سراي توبكابي بإسطنبول. لا شك في أن السلطات البرتغالية اعتبرت الوثيقة التي تحوي هذه المعلومات الحساسة من أسرار الدولة التي لا تقدر بثمن، ولا بد أنها في الظروف الطبيعية كانت محفوظة في أرشيفات بيت الهند بلشبونة(*). ونتيجة لهذه السرية المعتادة، لا يُعْرَف أن خرائط برتغالية رسمية أخرى من

(*) بيت الهند Casa da India هو المنظمة التي أدارت من لشبونة ممتلكات ما وراء البحار خلال أوج الإمبراطورية البرتغالية إبان القرن السادس عشر. [المترجم].



الشكل (1-2): خريطة بيدرو رينيل للعالم وفيها مسقط للقطب الجنوبي، من نحو العام 1519 (أتلفها الماء). المصدر: Topkapı Palace Museum Library, Istanbul, Hazine Ms. 1825.

العقد الثالث من القرن السادس عشر قد بقيت حتى الأزمنة الحديثة[12]. لذلك يعد وجود هذه الخريطة المحددة في حوزة العثمانيين ضربة استخبارية من الطراز الأول، نتجت بلا شك عن حكاية ملحمية من حكايات التجسس الدولي التي لا نعرف حولها شيئا للأسف. ويمكن أن نخمن أن إبراهيم باشا الذي كان اهتمامه الكبير بالجغرافيا ورسم الخرائط معروفا عموما للديبلوماسيين الأجانب، قد أدى بالتأكيد دورا رئيسا في الحصول على هذه الخريطة[13]. فلا يوجد مسؤول عثماني آخر كانت تحت يده المصادر المالية أو الديبلوماسية التي كانت تحت يدي الباشا، أو كانت له اتصالاته الواسعة مع المراكز الغربية المهمة للتجارة والتجسس، لاسيما البندقية[14]. وعلى رغم أن ذلك ليس إلا تخمينا، فإن السيناريو

المرجح هو أن إبراهيم حصل على هذه الخريطة عن طريق وسطاء بنادقة، ربما بمساعدة أنطونيو بيغافيتا Antonio Pigafita المستكشف البارز من بلدة فيتشينسا Vicenza الإيطالية الشمالية، الذي شارك في المرحلة الأولى من بعثة ماجلان، ثم تخلى عن الحملة وعاد إلى إيطاليا (عن طريق لشبونة) في العام 1524، وهي السنة نفسها التي قاد فيها إبراهيم حملته على مصر[15].

يتميز الإسهام الرئيس الثالث لإبراهيم في تقدم المعرفة الجغرافية العثمانية بأنه أفضل توثيقا بكثير مقارنة بإسهاميه الأولين، وهو تبنيه القائد البحري الريس سلمان. انضم هذا البحار العثماني الشهير الذي ترجع أصوله إلى جزيرة لسبوس الإيجية، إلى الخدمة المملوكية في سنوات ما قبل الغزو العثماني لمصر، وشارك بقوة في الحملة المملوكية البحرية الأخيرة على المحيط الهندي في العام 1515، وأظهر لاحقا دفاعا بطوليا عن جدة ضد هجوم برتغالي في العام 1517، قبل أشهر قليلة من الانهيار النهائي للنظام المملوكي. وبعد الغزو العثماني لمصر مباشرة، قُبض عليه وأُرسل إلى إسطنبول وسُجن بتهمة الخيانة، على ما يبدو لأنه التحق بخدمة المماليك على خلاف رغبة السلطان سليم.

يكتنف الغموض سيرة الريس سلمان بعد هذه النقطة، لكن يبدو أنه قد أُطلق سراحه عند وفاة سليم في العام 1520، وبعدها عاد إلى اليمن فترة قصيرة مرتزقا يعمل لحساب نفسه[16]. وعندما وصل إبراهيم باشا إلى مصر في العام 1524، كان سلمان قد عاد إلى القاهرة، لكنه كان لايزال محروما رسميا ويعيش في طي النسيان. وعلى الرغم من سمعة القرصان الملوثة، رأى الصدر الأعظم أنه أيا كانت تجاوزاته السابقة، فإن خبرته تجعله مؤهلا بامتياز لتوفير المعلومات حول الوضع الراهن في المحيط الهندي. لذلك أمر الباشا القرصان بالسفر ثانية إلى جدة ومعاينة الأسطول المملوكي المهجور الذي ظل قابعا في مرساه. لدى عودته قدم سلمان لإبراهيم جردا للسفن والمدفعية المتوافرة في جدة، وقدم المشورة بشأن أفضل الطرق لتجديد هذا الأسطول وإعادته إلى الخدمة[17].

يختلف تقرير سلمان الذي قُدِّم إلى الصدر الأعظم في العام 1525 عن كل الوثائق العثمانية السابقة المتعلقة بآسيا البحرية في أنه اعتمد - جزئيا على الأقل - على خبرات مباشرة في الإبحار خلال المنطقة[18]. وعلى الرغم من إيجازه

(مائة وستة أسطر فقط)، فإنه يصف بتفصيل متفاوت كل المناطق الرئيسة على ساحل المحيط الهندي، من الساحل السواحلي وإثيوبيا واليمن حتى شبه القارة الهندية والأرخبيل الإندونيسي. يبرز التقرير على امتداده الموارد الاقتصادية للمناطق المختلفة ومستوى التطور التقني العام فيها وسهولة احتلال القوات العثمانية لها والاحتفاظ بها.

يتميز تقرير سلمان بأنه جاء مماثلا في النبرة والمحتوى للتقارير التي عاد بها المستكشفون الأوروبيون في الفترة ذاتها. من ذلك مثلا أن سلمان عندما وصف إثيوبيا، كتب أن:

> عاصمة ولاية الحبشة تسمى باب الملوك Bab al - Muluk، وكفارها مشاة حفاة ضعاف مسلحون بأقواس خشبية ودروع مصنوعة من جلد الفيلة. لكنهم مع ذلك يسيطرون على تلك البلاد، فقط لأن أحدا لا يتصدى لهم. ويمكنني أن أقول - والله أعلم - إنه من اليسير انتزاع البلدة التي تسمى طبرة Tabarah [على النيل] بألف رجل... ومعها كامل ولاية الحبشة[19].

مثل رسائل كريستوفر كولومبس أو أفونسو دي ألبوكيركي، تضمن تقرير سلمان توصيات محددة بشأن السياسة الإمبريالية، جنبا إلى جنب مع البيانات الخام حول الجغرافية البشرية والطبيعية الغريبة. ومع أن النص اقترح إثيوبيا باعتبارها فضاء واعدا للتوسع المستقبلي، فإنه دعا أيضا إلى الاحتلال العسكري لليمن والساحل السواحلي لأسباب مماثلة، وأكد ضعف المعاقل البرتغالية في هرمز وغوا وملقا وأنها يمكن أن تكون أهدافا مستقبلية محتملة.

على مدار العقود التالية وضع رجال الدولة العثمانيون كل هذه التوصيات موضع التنفيذ بطريقة أو بأخرى. لذلك يعد تقرير سلمان أشبه بمخطط للتوسع العثماني المستقبلي في المحيط الهندي مكّن إبراهيم باشا من اتخاذ أولى الخطوات الملموسة في اتجاه تأسيس الوجود العثماني في المنطقة. لكنه قبل أن يتمكن من إنجاز ذلك، كان عليه أولا أن يرسخ الحكم العثماني في مصر حتى تكون إدارة الولاية آمنة، ما يؤهلها لأن تكون منصة انطلاق لمزيد من التوسع فيما وراء البحار.

إصلاحات إبراهيم باشا الإدارية في مصر

بقي إبراهيم في مصر أكثر من ستة أشهر، أشرف خلالها على مراجعة كاملة لكل قوانين مصر ونظمها الإدارية وأحكامها العرفية، مع إيلاء اهتمام خاص بالنظم المتعلقة بالعائدات وجمع الضرائب وإعادة توزيع الموارد[20]، وهي النظم التي عُدِّلت وصُنِّفت وأُعلنت معا لاحقا في العام 1525 تحت عنوان «قانون نامه مصر» Kānūnnāme - i Mısır[21]. تمثل الهدف الأساس من هذا القانون في تأكيد عودة مصر إلى السيطرة البيروقراطية الإمبراطورية في إسطنبول، ولذلك أحدث تطبيقه تغييرات مهمة في الجوانب المختلفة للجهاز الإداري والمالي للولاية.

يتعلق الكثير من التجديدات الأهم في «قانون نامه مصر» بالنظام الضريبي الحاكم للتجارة، لاسيما تجارة التوابل في مصر والبحر الأحمر. ومن الواضح إجمالا أن إبراهيم مع أنه أبدى حرصا واضحا على ضمان تدفق العائدات للدولة، عمل أيضا على إعادة تنظيم النظام الضريبي القائم ليكون مواتيا لمصالح التجار[22]. جاء بين التغييرات الأهم التي أدخلها القانون: الإلغاء الدائم لحصص الاستيراد والتصدير المملوكية القسرية التي فرضت على التجار شراء أو بيع كميات محددة سلفا من الفلفل (بأسعار ابتزازية) من خلال وكلاء حكوميين[23]. وبدلا من ذلك، قضت النظم العثمانية الجديدة بأن تجبى الضريبة نفسها على كل السلع التي تعبر الجمارك المصرية، ومن ضمنها الفلفل والتوابل الأخرى، بنسبة العُشر التقليدية («ضريبة العُشر») المنصوص عليها في الشريعة(*). كما أصلح إبراهيم آلية جمع التعريفات التي كان الفساد والنظام الضريبي التعسفي قد نالا منها خلال السنوات الأخيرة للحكم المملوكي[24]. وفي الإسكندرية والقاهرة أعاد تنظيم الجمارك كالتزامات ضريبية تُرسَل إيراداتها مباشرة إلى الحكومة الإقليمية، في حين وُضعت مراكز الجباية البعيدة في جدة وسواكن تحت سلطة مسؤولين معينين (يعرفون باسم الأمناء emins) مُنحوا سلطة تقسيم العائدات من هذين الميناءين بالتساوي بين الخزانة المصرية وشريف مكة.

(*) ليس لهذه الضريبة أصل نصي في الإسلام، لكن الخليفة عمر بن الخطاب طبقها على التجار غير المسلمين الداخلين إلى البلاد الإسلامية معاملةً لهم بمثل ما يفرضون على التجار المسلمين الداخلين بلادهم، وصارت سُنَّة من بعده، وطُبِّقت لاحقا على المسلمين. تقابل الجمارك الحديثة. [المترجم].

ترقى هذه الإصلاحات، إذا وضعت جنبا إلى جنب، إلى إعادة هيكلة «شاملة» للنظم الحكومية لتجارة التوابل العابرة بمقتضى نظام «السوق»، أريد بها مراعاة مصالح التجار والحد من التدخل الحكومي قدر المستطاع. أدرك إبراهيم أن النظام المملوكي المتصلب والاستغلالي القائم على توقع عدم وجود بديل حقيقي لطرق التجارة في زمن الحكم المملوكي قد ضعف بعد أن فتح البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ووطدوا أقدامهم في المحيط الهندي. لذلك حاول الباشا أن يوجد بيئة تجارية أكثر محاباة لتجار التوابل حتى يواصلوا التجارة عبر الموانئ المصرية على الرغم من مخاطر تعرضهم للهجوم من الدوريات البرتغالية. وأراد إبراهيم أيضا أن يزيد تدفق الدخل من هذه التجارة للخزانة الإمبراطورية من خلال الحد من الفساد وإعادة تأكيد حقوق الدولة في بضعة مجالات أساسية. فساعد تأسيسه سلطة الأمناء في جمركي جدة وسواكن مثلا في استعادة الخزانة المصرية نصيبها الشرعي من متحصلات هذين الميناءين التي آلت حصرا إلى سيطرة شريف مكة منذ انهيار النظام المملوكي في العام 1517[25].

تعطي ميزانية الولاية للعام 1527 دلالة قوية على أهمية هذه العائدات لمالية مصر بعد إصلاحات إبراهيم باشا. فوفق الأرقام الرسمية بلغت العائدات الضريبية من الموانئ الأربعة الرئيسة الإسكندرية والسويس وسواكن وجدة (باستبعاد الجزء المخصص لشريف مكة) سبعة عشر مليونا وسبعمائة وواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة وأربع وستين أقجة[*]، من إجمالي إقليمي قدره مائة وستة عشر مليونا وخمسمائة وثمانية وثلاثين ألفا وتسعمائة وأربع وتسعين أقجة[26]، أي ما يشكل أكثر من خمسة عشر في المائة من إجمالي العائدات، وهو رقم لا يخلو من دلالة بالنظر إلى أن إجمالي عائدات الجمارك في الإمبراطورية البرتغالية (من ضمنها التعريفات على النقل البري) في السنة ذاتها شكّل أحد عشر ونصف في المائة فقط من جملة العائدات[27]. يزداد هذا الرقم إثارة للإعجاب بالنظر إلى أنه أُنجز في منتصف العقد الثالث من القرن السادس عشر، وهي السنوات الذهبية للحصار البحري البرتغالي للمسلمين التي انهار خلالها

(*) الأقجة akce هو اسم العملة العثمانية التي بدأ سكها في العام 1327، كانت تحمل على أحد وجهيها شهادة الإسلام وعلى الوجه الآخر اسم الأمير كنوع من الدعاء له بدوام الملك. [المترجم].

الدفاع المنظم عن البحر الأحمر فعليا، إذ لم تحقق الهجمات البرتغالية على الشحن الإسلامي إلى البحر الأحمر ومنه في أي وقت النجاح الذي حققته خلال السنوات 1517 - 1525[28]. وعلى رغم ذلك جاءت نهاية هذه الفترة والإيرادات الجمركية من الموانئ المصرية لاتزال تشكّل مصدرا رئيسا للدخل لأغنى ولايات الإمبراطورية على الإطلاق. وبذلك برزت العائدات الآتية من التجارة باعتبارها مجالا واعدا للنمو في دخل الدولة. وبالنسبة إلى إبراهيم باشا، كانت الطريقة المثلى للاستفادة من هذه الإمكانية واضحة لا لبس فيها، وهي أنه بعد أن نجح في إزالة العوائق الداخلية أمام التجارة من خلال عدد من الإصلاحات الإدارية، كان في حاجة إلى أن يسلّح أسطولا ويزيل التهديد الخارجي الذي شكّله البرتغاليون فوق صفحة البحر.

الحملة العثمانية الأولى على اليمن

خَلُص القرصان الريس سلمان في التقرير الذي قدمه إلى إبراهيم باشا في العام 1525 إلى ملحوظتين حاسمتين من الواضح أنهما تركتا انطباعا خاصا لدى الصدر الأعظم. أولا، حذّر التقرير من أن المدينتين المشرفتين مكة والمدينة كانتا بلا أي دفاعات ضد الهجمات البرتغالية لأن الأسطول المملوكي القديم يرسو مهجورا ومهملا في جدة. ووفق نص التقرير، فإن «المرء لا يستطيع أن يقاوم مشاعر الألم عندما يرى هذه السفن والأسلحة ملقاة بلا استخدام وهو يسمع عن نجاحات البرتغاليين الملاعين في بلاد الهند»[29]. ولعل الأكثر إزعاجا من ذلك أن سلمان ذهب إلى أن اشتداد الهجمات البرتغالية وتسارعها وتهديدها للمدينتين المشرفتين وحتى لأمان مصر نفسها كان مسألة وقت فقط. لذلك حث الصدر الأعظم على تجديد الأسطول القابع في جدة بأسرع ما يمكن قبل أن يوجه البرتغاليون ضربة ثانية (الشكل 2-2). وجاء في التقرير نصا: «خوفا من أن تستخدم هذه السفن والمدافع ضدهم، لم يتوغل البرتغاليون حتى بحر الطور [ويهاجموا مصر] بعد(*). لكنهم إذا علموا أن هذه السفن خارج الخدمة وليس لها أطقم، فإنهم سيأتون حتما بأسطول كبير، لأنه باستثناء هذه السفن لا يوجد شيء هناك لردعهم»[30].

(*) من الواضح أن بحر الطور sea of Tor كان اسما عثمانيا لخليج السويس. [المترجم].



الشكل (2-2): منظر معاصر لجدة خلال الهجوم البرتغالي في العام 1517. تعد جدة المدخل البحري الرئيس للمدينتين المشرفتين مكة والمدينة. المصدر:
Gaspar Correia, Lendas da India (Lisbon, 1858 - 1864).

وسرعان ما اتضح أن هذه التحذيرات تكشف عن بصيرة نافذة. ففي السنة نفسها التي كتب فيها سلمان تقريره، توغل الأسطول البرتغالي عميقا داخل البحر الأحمر ودمر السفن التجارية الإسلامية، إذ أحرق ستا وعشرين سفينة تجارية أو استولى عليها خلال بضعة أسابيع من الحملات. من الواضح - إذن - أن إعادة بناء أسطول جدة كانت حتمية. لكن ذلك، كما أوضح سلمان، كان مجرد نقطة انطلاق، إذ بمجرد أن صار للعثمانيين أسطول تحت أيديهم، حث سلمان إبراهيم على النظر إلى الأمر ليس من منظور الدفاع فقط، بل أيضا من منظور الهجوم، لافتا نظر الباشا إلى بلاد اليمن الواقعة إلى الجنوب، التي كانت - بحسب وصف سلمان - «بلادا بلا صاحب، أي ولاية شاغرة. ولن يكون الاستيلاء عليها ميسورا فقط، بل إنها في حال غزوها ستكون سيدة بلاد الهند وترسل سنويا كميات كبيرة من الذهب والجواهر إلى إسطنبول»(31).

كان القرصان - لا ريب - يعلم ما يقوله، إذ شارك في أعمال عسكرية مطولة في اليمن خلال الحملة المملوكية البحرية الفاشلة في العام 1515، وشارك مرة أخرى فترة قصيرة في أوائل العقد الثالث من القرن السادس عشر. وبحلول منتصف ذلك العقد كانت معظم بلاد اليمن قد وقعت في أيدي جماعة مشاكسة من المرتزقة المشرقيين والشراكسة الذين تخلفوا هناك من الحملة المملوكية الأخيرة، وكان سوء حكمهم الضاري للبلاد قد ذاع صيته. من ذلك أن مؤرخا محليا ذكر أن اليمن كان خلال هذه السنوات «في حالة من الفوضى والنزاع المتواصلين، لم تشهد البلاد خلالها سوى إراقة الدماء وانتهاك حرمة البيوت ونهب السلع وانهمار الدموع»[32]. والأسوأ من ذلك أن النزاع المتواصل بين أمراء الحرب هناك تركهم عاجزين بنيويا عن إقامة جبهة متحدة ضد البرتغاليين كما اتضح جليا في الهجوم المدمر في العام 1525[33].

في هذه الظروف اقتنع إبراهيم باشا بسهولة بأن وضع اليمن تحت السيطرة العثمانية المباشرة لم يكن عملا مربحا فقط، بل أيضا السبيل الوحيد لضمان الأمان الدائم للبحر الأحمر من الهجمات البرتغالية المستقبلية. تصرف الباشا سريعا بأن أمر بنقل تسعة عشر قادسا من الأسطول المهجور في جدة إلى السويس وتجديدها، وعيّن الريس سلمان أميرا عليها[34]. وجمع قوة مقاتلة من أربعة آلاف متطوع من المشاة ووضعهم تحت إمرة خير الدين الرومي Hayreddin al - Rumi، وهو محارب آخر من الحملة المملوكية البحرية الأخيرة ورفيق قديم لسلمان[35]. وقبل أن يغادر القاهرة عائدا إلى إسطنبول في خريف العام 1525، كان آخر عمل لإبراهيم باشا هو تعيين بديل له واليا لمصر.

أما الشخص الذي وقع عليه اختيار الباشا لهذا المنصب الرفيع، وهو خصي ذابل يدعى سليمان الخادم Hadim Suleiman، فقد بدا في ذلك الوقت خليفة غير متوقع (ومؤقت) لإبراهيم الشاب المفعم بالحيوية[36]. لكن هذا المنتج المهيب لبيت السلطان أثبت أنه إداري محنك، وعلى الرغم من خصيه، كان محاربا محنكا في كثير من الحملات العسكرية الكبرى، من ضمنها الغزو العثماني الأخير لرودس (1522). ومع أنه كان فوق السبعين عند تعيينه، فقد عاش أكثر من عشر سنوات بعد موت الصدر الأعظم الشاب، وأثبت مع الوقت أنه النصير الأقوى للتوسع العثماني إلى اليمن وما بعدها.

في البداية، تمثلت المسؤوليات الأساسية للوالي الجديد في إطلاع الصدر الأعظم على تقدم حملة سلمان وتوفير الدعم الإمدادي لها من الترسانة العثمانية في السويس(37). تحت إشراف الوالي، جهز خير الدين الرومي والريس سلمان أسطولهما وغادرا مصر في أواخر العام 1526، متوجهين أولا إلى ميناء جدة الذي توقفا فيه لإخضاع جماعة مسلحة من المشرقيين الذين سيطروا على الميناء والجمرك(38). وبعد أن أتما تلك المهمة، واصلا إبحارهما جنوبا وأنزلا معظم قواتهما في ميناء المخا القريب من فم البحر الأحمر في يناير 1527.

ومن هناك، توغل القائدان العثمانيان بجيشهما إلى الداخل اليمني وبدآ يطلبان استسلام أمراء الحرب المستقلين الكثيرين في المنطقة الذين سرعان ما توحدت مقاومتهم حول شخص يدعى مصطفى بك Mustafa Beg كان يحكم مدينة زبيد منذ العام 1523 وكان خصما قديما للريس سلمان(*)(39). على مدار السنة التالية، دخل سلمان وخير الدين معارك كثيرة مع مصطفى، كان النصر من نصيبهما دائما، وفي سبتمبر 1527 ألحقا بقواته هزيمة حاسمة، وأسراه وقطعا رأسه، وسرحا قواته، وصارت السيادة للعثمانيين بلا منازع على كامل اليمن الساحلي(40). تمثل العائق الرئيس الوحيد في أمير ميناء عدن الذي رفض بعناد أن يفتح أبوابه للقوات العثمانية على الرغم من موافقته على أن يُدعى باسم السلطان في خطبة الجمعة وأن تُضرب العملة باسم السلطان(41). رضي سلمان بهذا الإظهار العلني المنقوص للخضوع إلى إسطنبول، ثم توجه إلى جزيرة كمران الواقعة داخل باب المندب في فم البحر الأحمر، وهناك أنشأ قاعدة بحرية دائمة وعين ابن أخته مصطفى بيرم ريسا لها(**). وهناك

(*) في اللغة التركية العثمانية التي كانت تكتب بحروف عربية قبل أن تتحول الجمهورية التركية إلى الحروف اللاتينية، كان الحرف «ك» ينطق إما «ك» (كما في العربية الفصحى)، أو «ج» (كما في اللهجة المصرية). وفي حال كان الحرف «ك» العثماني ينطق «ج»، فإنه يحوَّل في التركية الحديثة إلى الحرف الصامت ğ الذي يطيل الصائت الذي يسبقه، أو يكتب y إن جاء في آخر الكلمة. لذلك تكتب الكلمة العثمانية beglerbegilik (بكلربكلك) في التركية الحديثة beylerbeylik (بيلربيلك)، وتكتب الكلمة العثمانية beglerbegi (بكلربكي) في التركية الحديثة beylerbeyi (بيلربي)، وتكتب الكلمة العثمانية beg (بك) في التركية الحديثة bey (باي). وفي أمثال هذه الحالات، يستخدم المترجم الكتابة العثمانية. [المترجم].

(**) يصف الكتاب قرابة مصطفى بيرم Mustafa Bayram بالريس سلمان بكلمة nephew، أي ابن أخيه أو أخته، وهي القرابة المبهمة التي يفصلها كتاب «تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر» لمؤلفه محمد بن عمر الطيب بافقيه بأن مصطفى كان ابن أخت سلمان، ويزيد على ذلك أن خير الدين كان ابن أخيه: «في آخر شعبان قُتل الأمير سلمان الرومي بقرية المحاملة قريبا من بندر البقعة، قتله خير الدين ابن أخيه غدرا، ثم إن مصطفى بيرم ولد أخت سلمان رجع بمن معه من جازان، وحاصر خير الدين وزبيد، فخرج إليه خير الدين بمن معه فالتقيا تحت زبيد وقُتل جماعة من العسكريين، وكان خير الدين من جملة القتلى». [المترجم].

أسس سلمان جمركا وأعلن أنه من ذلك الحين صارت كل السفن المبحرة من الهند مطالبة بأن تتوقف وتدفع رسوم عبور[42]. هكذا سيطر العثمانيون للمرة الأولى على التجارة على طرفي البحر الأحمر.

اليمن «سيدة بلاد الهند»

توقع الريس سلمان في تقريره الأصلي لإبراهيم باشا في العام 1525 أنه مع الغزو العثماني لليمن، «سيكون الهلاك التام [للبرتغاليين] أمرا مقضيا، لأن قلاعهم لا تستطيع أن تقدم الدعم بعضها لبعض ولن تتمكن من توحيد مقاومتها»[43]. تشير كل الشواهد إلى أن سلسلة نجاحاته السريعة كان لها أثر إحباطي فوري في البرتغاليين، ومن ذلك أن العام 1527 لم يشهد، للمرة الأولى خلال أكثر من عقد، تطفل الأسطول البرتغالي على البحر الأحمر، وبدلا من ذلك آثر الأميرال لوبو فاس دي سامبايو Lopo Vaz de Sampayo أن يبقى في غوا خوفا من الوجود العثماني في اليمن[44].

مما لا يقل أهمية عن ذلك أن القادة المسلمين في المنطقة بدأوا، بعد إسقاط الحائل البرتغالي، في مفاتحة العثمانيين بعروض تعاون أو طلبات مساعدة. ففي العام 1527، أرسل وزير هرمز لسلمان رسالة (اعترضها جواسيس برتغاليون لاحقا) طلب فيها الدعم العسكري لتحرير جزيرته من الحكم البرتغالي[45]. وبعد بضعة أشهر، أرسل السامري الكاليكوتي (الذي وحّد القراصنة المسلمين على ساحل مليبار وأجبر البرتغاليين على التخلي عن إحدى القلاع هناك في العام 1524) سفارة ناشدت العثمانيين إرسال أسطول إلى الهند(*)[46]. وفي هذه الأثناء، دشّن القرصان مماله Mamale، الذي تزعم الجماعة المسلمة الهندية الجنوبية المجاورة في كانور، طريقا جديدا مهما للتوابل عبر المحيط من سومطرة إلى جزر المالديف(**)، مكّن التجار للمرة الأولى من تجاوز الهند البرتغالية تماما والإبحار مباشرة إلى البحر الأحمر من

(*) السامري (أو الزامورين) Zomorin هو اللقب الوراثي الذي استخدمه حكام الناير الهندوس لمملكة كوزيكود Kozhikode (تعرف أيضا باسم كاليكوت Calicut) على ساحل مليبار الهندي (ولاية كيرالا الحالية). [المترجم].

(**) كانور Cannanore (أو Cannanor وحاليا Kannur) مدينة ومقاطعة في ولاية كيرالا الهندية، كانت في القرن السابع عشر عاصمة سلطنة أراكال Arakkal المسلمة. [المترجم].

جزر التوابل بإندونيسيا[47]. لذلك لم يأتِ العام 1528 إلا وكانت الدوريات البرتغالية البعيدة حتى سومطرة تقابل سفنا تجارية إسلامية تحميها حراسة مسلحة من المرتزقة العثمانيين[48].

وخلال سنتين من وصول العثمانيين إلى اليمن، بدا أن رابطة واسعة من القوى أخذت تلتئم عبر المحيط الهندي تحت الراية العثمانية في تحالف مناهض للبرتغاليين. وهكذا تحقق على أرض الواقع زعم سلمان بأن من يسيطر على اليمن يكون «سيد بلاد الهند» على نحو لم يتوقعه أحد. ومع ذلك، وفي تبدل قاس للحظوظ السياسية، حدث في لحظة النجاح السريع ذاتها أن دخل القائدان العثمانيان الريس سلمان وخير الدين الرومي في نزاع شخصي دام. وفي سرعة مذهلة، أضاع تنافسهما كل مكاسب السنة الفائتة وجعل أي تنسيق واسع النطاق مع المسلمين فيما وراء البحار أمرا مستحيلا.

اليمن يغوص في الفوضى مجددا

لم يكن هذا التبدل السريع في حظوظ سلمان مفاجئا بحال من الأحوال، لأنها لم تكن المرة الأولى في تاريخه المتقلب التي سببت فيها شخصيته الخشنة إضاعة مكاسب تحققت بشق الأنفس. فقبل عقد من الزمن، انهارت علاقته مع القائد المملوكي حسين الكردي خلال الحملة المملوكية في العام 1515 لتصبح عداوة شخصية مريرة انتهت بموت حسين (ربما على يدي سلمان(*)) في العام 1517. وبالمثل، عندما عاد سلمان إلى اليمن مرتزقا في أوائل العقد الثالث من القرن السادس عشر تورط سريعا في عداوة مع حاكم زبيد، وهو الآخر محارب قديم من الحملة المملوكية، واضطر سلمان إلى الفرار عائدا إلى مصر[49].

في هذه المرة، تنازع سلمان على السلطة مع خير الدين الرومي عندما طلب منه خير الدين أن ينسحب من البر ويعود إلى القاعدة على جزيرة كمران بدعوى أنه كأمير بحر لا سلطة له على قوات خير الدين البرية. وعندما رفض سلمان وأصر على أنه وحده القائد

(*) ورد في موضع سابق أن السلطان سليم بعد أن دخل القاهرة، أمر من هناك بالقبض على حسين الكردي وإعدامه، وحيث إن الإعدام حدث في جدة التي كان حسين وسلمان موجودين فيها في ذلك الوقت، فربما يكون سلمان هو من نفذ الأمر كراهية في حسين وليس ولاء لسليم، لأن سلمان نفسه سيقبض عليه لاحقا ويسجن بأمر السلطان سليم (باتصال شخصي مع المؤلف). [المترجم].

الأعلى للحملة، استأجر خصمه بعض السفاحين المشرقيين للتخلص منه، فانقضوا عليه في خيمة الحرب (وهو يلعب الشطرنج وفقا لإحدى الروايات)، وأحاطوا به وطعنوه حتى الموت، ووضعوا بذلك نهاية دموية لتاريخ القرصان وحياته في سبتمبر 1528[(50)].

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يلقى خير الدين المصير نفسه، إذ لم تُتَح له الفرصة للتمتع بثمار خيانته. فبعد اغتيال سلمان، حشد ابن أخته مصطفى بيرم، الذي كان هو الآخر ضابطا كبيرا في الأسطول، قوات عمه وظفر بخير الدين وأمر بإعدامه. ثم أعلن مصطفى بيرم نفسه وريثا لسلمان وحاول فترة قصيرة إعادة السيطرة على اليمن بنفسه. وعلى الرغم من جهوده الحثيثة، فإن الموقف السياسي قد استمر في التدهور، وسرعان ما اضطر إلى مغادرة البر اليمني. جمع مصطفى معظم رجاله المؤتمنين وقطع المدفعية والمؤن المتبقية، وعاد إلى قاعدة عمه البحرية على جزيرة كمران، وبدأ اليمن ينزلق مجددا إلى الفوضى[(51)].

مع انتشار خبر موت سلمان وتراجع ابن أخته خلال الممرات البحرية، بدأ الموقف في منطقة المحيط الهندي الأوسع يتدهور هو الآخر. وبحلول نهاية العام 1528، تجاسر البرتغاليون مرة أخرى على إرسال أسطول إلى البحر الأحمر أَسَرَ ثماني سفن تجارية كبيرة وأربعا وأربعين سفينة صغيرة خلال بضعة أسابيع[(52)]. وفي السنة التالية، أرسلوا أسطولا أكبر طارد التجار المسلمين في البحر وحاول تأسيس سيطرة برتغالية دائمة في أجزاء من اليمن. أبحر كابتن هذا الأسطول، وهو إيتور دا سيلفيرا Eitor da Sylveira، أولا إلى ميناء الشحر في جنوب شبه الجزيرة العربية الذي ضغط على حاكمه لمنح البرتغاليين امتيازات تجارية، ثم هاجم مصطفى بيرم والقوات العثمانية الباقية في قاعدتهم بكمران وأجبرهم على الفرار والتخلي عن الجزيرة، وأخيرا توجه سيلفيرا إلى عدن، وهناك وافق الأمير المحلي (الحاكم نفسه الذي رفض فتح أبوابه لسلمان في العام 1527) على أن يصير تابعا لملك البرتغال وأن يدفع للبرتغاليين إتاوة قدرها عشرة آلاف أشرفي في السنة، وأن يمنع أي سفن تابعة لسيادة عدن من الإبحار في اتجاه مكة[(*)(53)]. والأسوأ من ذلك أن سيلفيرا

(*) الأشرفي: عملة ذهبية انتشرت خلال القرن الخامس عشر في المناطق الإسلامية في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وجنوب آسيا، سُكت لأول مرة في مصر المملوكية في عهد السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (1422 - 1438). [المترجم].

عند مغادرته ترك وراءه حامية دائمة من أربعين جنديا برتغاليا سيطروا على القلعة وأصروا على المشاركة في موكب الأمير الأسبوعي إلى المسجد وهم يلوحون بتفاخر بسيوفهم ومسكتاتهم وأسلحتهم الأخرى في وجوه الأهالي المروعين، كما تذمر مؤرخ محلي لاحقا(*):

> كان ذلك عملا شائنا من أمير عدن. وقد اعترض عليه الفقهاء، لكنه لم يسمع لهم، وكان مبرره لفعل ذلك هو خوفه من أن يدخل الأتراك مدينته. لكنه لعمري أثم في قراره، وكان تدبيره معيبا، وأغضب الله سبحانه وتعالى[54].

وهكذا، فكما بدأت غزوة العثمانيين التجريبية الأولى على عالم المحيط الهندي سريعا، كانت نهايتها مخزية. كان النزاع القاتل داخل القيادة العثمانية السبب الأساس للفشل، لكن كما أوضحت التسوية بين البرتغاليين وأمير عدن، كانت هناك حدود للتعاون الذي كان في وسع العثمانيين أن يتوقعوه من الحكام المسلمين الآخرين. علاوة على أنه كان يجب على العثمانيين، قبل أن يشرعوا في حملتهم، أن يعرفوا أن القوة القتالية المعطاة لسلمان لم تكن كافية للمهمة المكلف بها. فالسفن التي كانت تحت إمرته كانت مجرد سفن مهجورة من الأسطول المملوكي المهجور في جدة كانت قد جُدِّدت على عجل، وحتى قوة الأربعة آلاف «مقاتل» كانت قد تركت انطباعا سيئا عندما أبحرت لأول مرة من مصر، إذ وصفهم أحد المعاصرين بأنهم «زمرة من المتشردين والخليعين الصغار الذين يفتقرون إلى الخبرة»[55].

لكن على الرغم من هذه العوائق الكثيرة، كاد الريس سلمان يؤسس موطئ قدم دائما للعثمانيين في اليمن. وفي أثناء ذلك، استطاع (لفترة مؤقتة) أن يمنع البرتغاليين من الوصول إلى البحر الأحمر، وأن يؤسس للسيطرة العثمانية على التجارة البحرية القادمة من الهند، وأن يثبت إمكانية أن تبني السلالة العثمانية تحالفات في جميع أنحاء المحيط الهندي. ومن خلال ملاحظة الأحداث من بعيد، تعلم الصدر الأعظم الشاب إبراهيم باشا وواليه المسن سليمان الخادم الكثير من الحملة حتى إن فشلت

(*) المسكت musket: بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة، يسمى مستخدمها مسكتي musketeer. [المترجم].

في النهاية، وسرعان ما بدآ التحضير لمحاولة ثانية أكثر جدية بكثير لإظهار القوة العثمانية فيما وراء البحار.

كان ذلك إسهام الريس سلمان في عصر الاستكشاف العثماني. لكن على رغم أن القرصان العاصف لفظ أنفاسه الأخيرة في العام 1528، فإن قصته لم تنتهِ تماما عند هذا الحد، إذ قدّم أتباعه بقيادة ابن أخته مصطفى بيرم إسهاما مهما في صنع عصر الاستكشاف العثماني.

مصطفى بيرم يصل إلى الهند

بعد الهجوم البرتغالي على قاعدتهم البحرية في كمران في العام 1529، فرَّ مصطفى بيرم والجنود الموالون الباقون من حملة سلمان العسكرية إلى ميناء الشحر الواقع على الساحل الحضرمي بجنوب شبه الجزيرة العربية على مسافة نحو ألف ميل من أقرب مركز إمداد عثماني في جدة. لا يُعْرَف السبب الذي جعلهم يختارون هذه القاعدة البعيدة بدلا من العودة إلى مصر العثمانية. لكن على الرغم من بعد ملاذهم، فمن الواضح أنهم ظلوا على اتصال مع كل من سليمان الخادم في القاهرة وأفراد من عائلة الريس سلمان في إسطنبول[56]. وغادروا ميناء الشحر بعد ذلك، على ما يبدو بمباركة السلطات العثمانية في مصر، وأبحروا إلى ميناء ديو في شمال غرب الهند الذي وصلوا إليه في شتاء العام 1531[57].

أحيا وصول مصطفى إلى ديو الارتباط بين هذا الميناء الكجراتي والإمبراطورية العثمانية الذي تأسس لأول مرة إبان عهد السلطان سليم. كان عاهل كجرات في العام 1531 هو السلطان بهادر Bahadur ابن السلطان مظفر شاه الثاني الذي راسل سليم سابقا، وبالمثل كان الحاكم المحلي لديو هو بهاء الملك طوغان Bahaulmulk Tughan ابن مالك عياذ الرئيس السابق لجماعة تجار الرومي الكجراتية. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن مصطفى بيرم ورجاله ما كان لهم لو تعمدوا ذلك أن يصلوا إلى ديو في وقت أهم وأخطر من الوقت الذي وصلوا فيه؛ إذ بلغوها قبل أيام قليلة من الهجوم الكبير الذي شنه الأميرال البرتغالي نونو دا كونيا Nuno da Cunha على المدينة من البحر. في هذه الظروف،

رحب الكجراتيون بالوافدين العثمانيين واعتبروهم مددا من الله، ودعا بهاء الملك طوغان فورا رجال مصطفى بيرم (نحو ستمائة عثماني وأكثر من ألف مساعد عربي ككل) لتولي المسؤولية الكاملة عن دفاعات ديو. وقد فعلوا ذلك، وأوقعوا إصابات كبيرة في البرتغاليين المحاصِرين بوابل من نيران المدافع الضخمة التي جلــبوها معهم من اليمن، وكسروا الحصار البرتغالي بتلغيم التحصينات الواقعة خارج القلعة بالبارود. وخلال أيام قليلة، نجح التعاون بين العثمانيين وقوات كجراتية محلية في دحر البرتغاليين، في أول انتصار «عبر المحيط» في التاريخ العثماني[58].

مع انتشار أخبار هذا النصر، مُحيت ذكرى فشل الريس سلمان الأخير في اليمن، وأعيد تأكيد مكانة آل عثمان كونهم السلالة الإسلامية الأقوى والأبعد نفوذا في المحيط الهندي. وحتى أمير عدن المتمرد الذي لحق به خزي قبول التبعية للبرتغاليين في العام 1529 أعلن الولاء للعثمانيين وأمر بالقبض على الأربعين جنديا الذين شكلوا الحامية البرتغالية الصغيرة التي تركها إيتور دا سيلفيرا وراءه في مدينة الأمير، ووضعهم في الأغلال[59]. وفي كجرات، منح السلطان الممتن بهادر هدايا وألقابا لمصطفى بيرم ودعا رجاله إلى البقاء في كجرات والدخول في خدمته بشكل دائم. كان عرض بهادر سخيا، وفي النهاية قبل كل رجال مصطفى العرض وبقوا[60].

بالنظر إلى أن مملكة بهادر كانت تقع في المركز الجغرافي والتجاري لشبكة المحيط الهندي التجارية والملاحية مترامية الأطراف، فقد قُدِّر لهذه الجماعة من النازحين العثمانيين أن يمارسوا دورا محوريا في الشؤون الهندية على مدار السنوات التالية. ومع أن قائدهم مصطفى بيرم تخلى عن كجرات لاحقا وانضم إلى المُغال(*)، فإن الأفراد الباقين من قوته الذين انضموا إلى خدمة بهادر برزوا سريعا باعتبارهم النخبة الحاكمة الجديدة لكجرات البحرية[61]. وقادوا بذلك الحياة السياسية للسلطنة على مدى الجيل التالي، مع احتفاظهم بروابط مهنية

(*) المُغال Mughals: هم مغول الهند الذين أسسوا السلطنة المغالية الإسلامية التي حكمت معظم شبه القارة الهندية بين العامين 1526 و1858، وهم قبائل تركية - مغولية من فروع المغول Mongols الذين نشأوا في شرق آسيا الوسطى وغزوا الصين ومعظم البلاد الإسلامية الآسيوية حتى وصلوا إلى دمشق في العام 1260 إلى أن دحرهم في العام نفسه المماليك المصريون بقيادة الظاهر بيبرس وسيف الدين قطز في معركة عين جالوت. [المترجم].

وتجارية وحتى عائلية وثيقة مع أفراد المؤسسة العثمانية في إسطنبول ومصر[62]. ويمكن القول إن هؤلاء النازحين الروميين أسسوا ما يمكن اعتباره مستعمرة عثمانية دائمة، وإن كانت غير رسمية، في قلب العالم التجاري للمحيط الهندي.

حملة العام 1531 المجهضة والغزو العثماني للعراق

كان إبراهيم باشا وسليمان الخادم قد بدآ، في هذه الأثناء، من المركزين الإمبراطوريين في إسطنبول والقاهرة، التخطيط لتحركهم التالي. وفي أعقاب النجاح العابر للريس سلمان في اليمن، كان الرجلان أشد عزما من أي وقت مضى على بناء أسطول عثماني قوي في البحر الأحمر، لكن هذا المشروع بالغ الأهمية لأهدافهما طويلة المدى في اليمن وما وراءه كان محفوفا بالصعوبات الإمدادية، لأن افتقار مصر وشبه الجزيرة العربية إلى الغابات كان يعني أن الخشب وغيره من التجهيزات البحرية كان يجب أن تشحن أولا من شمال البحر الأبيض المتوسط ثم تنقل برا إلى السويس بنفقة هائلة، ما كان من شأنه أن يرفع تكلفة بناء أسطول البحر الأحمر إلى مستويات تعجيزية ويعيق الجهود العثمانية لاستخدام البحر لإظهار قوتهم فيما وراء البحار.

يكشف الحل الذي توصل إليه إبراهيم باشا وسليمان الخادم لهذه المشكلة عن مدى علو همة الرجلين ومبلغ طموحهما. فإذ لم تكن هناك حلقة اتصال بحرية مباشرة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، فقد اقترحا أن يوجدا هذه الحلقة من خلال إعادة حفر القناة القديمة التي أغلقت منذ زمن الفراعنة بين النيل وميناء الطور على البحر الأحمر. قبل ذلك في العام 1529، نقل البندقي المقيم في مصر لويجي رونشينوتو Luigi Roncinotto إلى بلاده أنه رأى في الصحراء بين النيل والطور عدة فرق من المهندسين وأكثر من اثني عشر ألف عامل يعيدون حفر هذه القناة القديمة «حتى تستطيع السفن المحملة بالتوابل أن تبحر من الهند إلى الإسكندرية ومن هناك إلى القسطنطينية»[63].

زعم رونشينوتو أن قناة طولها نحو عشرين ميلا كانت قد حفرت فعلا في وقت كتابة تقريره. وفي السنة التالية، ومع تواصل انتشار التقارير بشأن استمرار الحفر، هيمن موضوع القناة على النقاشات السياسية حتى في باريس، وسط شائعات بأن

العثمانيين قد يسعون إلى السلام مع كارلوس الخامس في أوروبا لكي يكرّسوا جهدهم جله لحملة بحرية لاحقة في الهند(*)[64]. وفي نوفمبر 1531، أحال المبعوث البرتغالي للبندقية رسالة استخبارية من مصر (تؤكدها وثائق في الأرشيف العثماني) تتحدث عن بناء أسطول هائل في الترسانة العثمانية في السويس يتألف من نحو ستين قادسا مختلفة الأحجام إضافة إلى عشرين سفينة إمداد. وشدد التقرير على أن مغادرة هذا الأسطول كانت وشيكة وأن سليمان باشا الخادم عُيّن قائدا له وأن ثلاثة آلاف رجل كانوا يستعدون لمرافقة الحملة[65].

قدم هذا التقرير البرتغالي معلومات ثمينة حول عملية صنع القرار وراء هذه التحضيرات الضخمة القائمة في جزء منها على اعتبارات اقتصادية وفي جزء آخر على هواجس حول مكانة السلالة العثمانية. في الجانب الاقتصادي، أكد التقرير أن العام 1531 كان سنة مؤثرة من عمر الحصار البرتغالي للبحر الأحمر، إذ نقل تجار بنادقة في كل من بيروت والإسكندرية أن التوابل أصبحت شحيحة في هذين الميناءين حتى إنهم اضطروا إلى تحميل سفنهم بالبقوليات والقمح بدلا منها. لذلك استدعى إبراهيم باشا للديوان الهمايوني كلا من جيوفاني كونتاريني كاتشاديافولو Gionvanni Contarini “Cacciadiavolo” وفرنسيسكو جوستنياني Francesco Giustiniani، وهما رجلان من عائلتين بندقيتين بارزتين اعتنقا الإسلام(**):

> «ويقال إنهما يمدان السلطان بكل ما يحتاج إلى معرفته لبناء أسطول لإرساله إلى البحر الأحمر، وإنه بفضلهما أصبح ملما بأحوال مملكة البرتغال وإمكانات ملكها، حتى إن السلطان أخذ يعد قوة أكبر مما كان ينتوي في السابق»[66].

(*) كان كارلوس (24 فبراير 1500 إلى 21 سبتمبر 1558) الإمبراطور الروماني المقدس باسم كارلوس الخامس Charles V من العام 1519 والإمبراطور الإسباني باسم كارلوس الأول Charles I من العام 1516 حتى تنازله عن العرش لابنه فيليب الثاني في العام 1556. لكونه الإمبراطور الروماني المقدس وصاحب أكبر إمبراطورية أوروبية ومنتحل صفة حامي المسيحية، كان شارلكان، كما أسماه العثمانيون، ألد أعداء الإمبراطورية العثمانية، سواء على صفحة البحر الأبيض المتوسط بتبعية إسبانيا وإيطاليا له أو في قلب أوروبا بتبعية النمسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة له. وبسبب العداء المشترك لشارلكان، اضطر فرانسوا الأول ملك فرنسا (1494 - 1547) إلى التحالف مع سليمان. لذلك كان من شأن الحديث عن سلام محتمل بين سليمان وكارلوس أن يقلب الموازين ويثير الجدل في أوروبا. [المترجم].

(**) كلمة كاتشاديافولو Cacciadiavolo نعت لصاحب الاسم يعني في اللغة الإيطالية «صائد الشياطين» [Caccia diavolo [Devil-Chaser]. [المترجم].

أوضح التقرير أن السلطان، على رغم قلقه بشأن أمن طريق التوابل، فإن أشد ما أثار سخطه كان الأخبار التي وصلت إليه بأن البرتغاليين هاجموا ساحل شبه الجزيرة العربية بالقرب من جدة، «وأن الأسطول الذي يعده السلطان حاليا مخصص للدفاع عن مكة قبل أي هدف آخر»[67]. من الواضح أن رغبة السلطان في الحفاظ على مكانته باعتباره «حامي الحرمين الشريفين» ورغبته في حماية مصالح التجار قد تلاقتا حاليا وأنتجتا إجماعا قويا بشأن الاتجاه المستقبلي للسياسة العثمانية.

هل كان الأمر كذلك؟ على الرغم من كل الثرثرة في المصادر الأوروبية (حتى العام 1531) حول تواصل العمل في القناة، فإن أعمال الحفر توقفت بعد وقت قصير من انطلاقها لأن التكلفة العالية والصعوبات التقنية البالغة جعلت المشروع يبدو غير عملي. ومن الواضح أن التحضيرات لأسطول السويس استمرت أطول مما خطط لها وأنها اكتملت مع نهاية العام 1531. لكن لأسباب غامضة، أوقفت هذه التحضيرات أيضا، ونقلت تجهيزات الأسطول والذخيرة والمدفعية فجأة من السويس إلى البحر الأبيض المتوسط. ثم أُرسِل سليمان باشا الخادم ورجاله الثلاثة آلاف إلى سورية التي أُمِروا فيها ببدء التحضيرات لعملية مختلفة تماما، كانت حملة برية على الصفويين في العراق[68].

لا تكشف المصادر العثمانية ولا الأوروبية أسبابا صلبة لهذا التغير غير المتوقع في الاتجاه. وبسبب عدم وجود تفسير أفضل، وجد المؤرخون الحديثون إغراء في أن يعتبروا هذا التحرك «تحولا» عن المحيط الهندي، أو بلغة علم الاجتماع أمارة على أن الدولة العثمانية «البرية» كانت بطبيعتها أميل إلى استخدام مواردها في حملة برية متى سنحت الفرصة[69]. لكن هذا التفسير يصعُب توفيقه مع الدور المركزي الذي مارسه إبراهيم باشا على امتداد هذه العملية؛ فهو الذي كان مسؤولا عن القرارين: غزو العراق والحشد البحري العثماني السابق في البحر الأحمر. وبالنظر إلى تاريخ اهتمام الصدر الأعظم بالمحيط الهندي، وجهوده الكثيرة لجمع المعلومات حول المنطقة، واتصالاته المباشرة مع الجماعة التجارية البندقية في إسطنبول، وتأثيره غير المسبوق في السلطان خلال تلك السنوات، يبدو من غير المقبول أن «تحيزا بريا» راسخا كان وراء التغير المفاجئ في رأيه.

لا ينفي ذلك أنه لا يمكن في الظروف العادية أن يشغل تهديد البرتغاليين المُدْرَك إبراهيم (أو أي صدر أعظم عثماني) عن نزاع مع الصفويين، وهم جيران العثمانيين الأقرب والأقوى. لكن في هذه الحالة تحديدا، توحي أدلة كثيرة بأن الأولويات الاستراتيجية وراء الحملة البرية على الصفويين والحملة البحرية على البرتغاليين ليست منفصلة كما قد يبدو. أولا، كان إبراهيم باشا على علم منذ العام 1525 على الأقل بأن البرتغاليين يتواصلون مع الحاكم الصفوي الشاه طهماسب Shah Tahmasp، وأن الطرفين كانا على وشك إقامة تحالف علني معاد للعثمانيين. بعد ذلك بوقت قصير، نُقل المسؤول العثماني الذي حذر إبراهيم باشا لأول مرة من هذه المفاوضات البرتغالية - الصفوية (خسرو باشا الذي كان في ذلك الوقت والي ديار بكر على الحدود الصفوية) إلى مصر ليكون فيها مسؤولا عن الإشراف على التحضيرات لأسطول سليمان الخادم[70].

إن مما لا يخلو من دلالة أن العام 1529 شهد أول تدخل برتغالي في غرب الخليج العربي، إذ أغار أسطول صغير من هرمز على عدة مستوطنات ساحلية وأحرقها عقابا للأمير راشد، حاكم البصرة المستقل، على رفضه تسليم حامية من خمسين مرتزقا عثمانيا كانوا يعملون في خدمته(*)[71]. واستمر تصاعد التوترات هناك خلال السنة التالية عندما نجح عدد من السفن التجارية الإسلامية المسلحة القادمة من كاليكوت في الإفلات من الدوريات البرتغالية الموجودة حول هرمز والوصول إلى البصرة سالمة، ما دفع البرتغاليين إلى الانتقام بشن هجوم على جزيرة البحرين[72]. وبعدها بفترة قصيرة، أرسل البرتغاليون أسطولا آخر إلى فم البحر الأحمر[73].

لذلك جاء العام 1531 وإبراهيم باشا على وعي تام بأن البرتغاليين يشكّلون تهديدا من الخليج العربي ومن البحر الأحمر، ما يعني أن قوتهم البحرية يمكن أن تتحد مع القوة البرية الصفوية لتوجيه ضربة منسّقة للعثمانيين. وصف البايلو البندقي دانيلو دي لودوفيزي Daniello de Ludovisi الموقف في ذلك الوقت بالقول(**): «أصبح السلطان يضع ملك البرتغال في حسبانه... فيما يتعلق

(*) هو الأمير راشد بن مغامس بن مانع، من آل شبيب الذين حكموا البصرة منذ أوائل القرن السادس عشر، وضموا الأحساء والقطيف، وكانت لهم دولة على مساحات مختلفة من النصف الأدنى من العراق عُرفت باسم إمارة المنتفق (1530 - 1918)، دخلت في صراعات مع العثمانيين وكل الدول المجاورة ولم تسقط نهائيا إلا على أيدي الإنجليز في أثناء الحرب العالمية الأولى. [المترجم].

(**) البايلو bailo: هو لقب ممثل البندقية الرسمي في إسطنبول. [المترجم].

بشؤون جزر الهند الشرقية، بسبب العون الذي يمكن أن يقدمه للصفويين من ذلك الطريق، وبسبب الحملة التي يود السلطان أن يشنها لتدمير القوة البحرية البرتغالية في تلك الأنحاء»[74].

توجد - من هذا المنظور - حجج وفيرة تفسر قرار إبراهيم باشا بإعادة توجيه القوات من السويس إلى العراق بأنه ليس «تحولا عن المحيط الهندي»، بل هو بالأحرى محاولة لتوسيع تدخل الإمبراطورية في المنطقة ليشمل الخليج العربي جنبا إلى جنب مع البحر الأحمر. يلقى هذا الرأي دعما قويا من النشاط الديبلوماسي العثماني الذي تلا غزو العراق الذي اكتمل في العام 1534، فخلال ثلاثة أشهر فقط من دخوله الأول لبغداد، أمر السلطان سليمان - إذ كان إبراهيم باشا وسليمان الخادم لا يزالان برفقته في بغداد - أمير البصرة راشد بأن يرسل ابنه إلى بغداد لمقابلة السلطان، وفي المقابلة تعهد ابن الأمير رسميا بالولاء للسلطان ووافق نيابة عن الأمير على الاعتراف بالخضوع للدولة العثمانية من خلال سك العملات والدعاء في خطبة الجمعة باسم سليمان. وفعل أمراء دول الخليج في البحرين والقطيف الشيء نفسه، وبذلك تأكدت الهيمنة العثمانية الاسمية على غرب الخليج العربي كاملا. وبذلك فُتحت تخوم بحرية شمالية جديدة مع البرتغاليين[75].

خاتمة

نهاية الاستطلاع

بالنسبة إلى إبراهيم باشا شخصيا وعصر الاستكشاف العثماني ككل، كان الغزو الخاطف للعراق في العام 1534 نقطة التحول. فالنسبة إلى الباشا، كانت الحملة المظفرة الإنجاز الأعلى في حياته العملية بلا جدال، لكنها أدت بعد سنة واحدة إلى سقوطه المفاجئ والمثير. ففي حمى النصر والاستيلاء على بغداد في نوفمبر 1534، وفي حالة من النشوة الواضحة بالسلطة غير المحدودة، تجرأ الصدر الأعظم على وصف نفسه في رسالة رسمية بأنه «الرجل الذي يمثل السلطنة»، في سقطة أولى بين عدة تجاوزات أعطت أعداءه في البلاط بالتعاون مع أعدائه داخل الحريم السلطاني الوسيلة التي كانوا في حاجة إليها لتقويض ثقة سليمان فيه ببطء لكن بثبات[76].

تراجعت مكانة إبراهيم باطراد خلال الأشهر التالية، على الرغم من نجاحه المتواصل على جبهة الحرب في بلاد فارس بعد انتصاراته في العراق. يذهب البعض إلى أن المسمار الأخير في نعش إبراهيم دقته في العاصمة محبوبة السلطان روكسلانا التي ضاقت بالمكانة التي ظل الباشا يشغلها في قلب سليمان ولم يعد في استطاعتها أن تتحملها أكثر من ذلك[77]. وفي أوائل العام 1536، وبعد أسابيع قليلة من عودته المظفرة إلى إسطنبول بعد أكثر من سنتين على الجبهة الشرقية، دعي إبراهيم لآخر مرة إلى زيارة القصر. وهناك في برد إسطنبول الشتوي القارس في شهر مارس، أمر السلطان بالإعدام الفوري لصديق صباه[78].

هكذا انتهت حياة إبراهيم باشا المهنية الناجحة مبتورة، ولو قُدِّر له أن يعيش أطول فلا ريب أنه كان سيواصل العمل من أجل هجوم بحري عثماني كبير على البرتغاليين، كانت إنجازات الرجل حتى العام 1536 بمنزلة التحضير له. ومع أن هذه الطموحات الكبيرة وأدها تغييب الصدر الأعظم المفاجئ، فإن الباشا قد حقق كثيرا خلال السنوات الثلاث عشرة التي قضاها في المنصب. ففي العام 1523 الذي رقي فيه إبراهيم إلى الصدارة العظمى، لم يكن للعثمانيين أسطول جاهز للعمل في البحر الأحمر، ولم يكن لديهم معلومات موثوقة حول الظروف في المحيط الهندي، حتى إنهم فقدوا السيطرة على مصر فترة. معنى ذلك أنهم كانوا في النواحي كافة في المربع الذي كانوا فيه قبل فتوحات سليم العابس في العام 1517. لكن الحال تبدلت جذريا بحلول العام 1536. فكان الحكم العثماني في مصر يقف على أرض أصلب منها في أي وقت سابق، وكانت إدارتها قد أصلحت لاستيعاب مصالح تجار المحيط الهندي. وأصبحت ترسانة السويس جاهزة للعمل، ونفذ الأسطول العثماني احتلالا ناجحا لليمن، وإن كان مؤقتا. كما احتل العثمانيون العراق، وفتحوا جبهة جديدة مع البرتغاليين في الخليج العربي. وأقيمت روابط ديبلوماسية مع القوى الإسلامية عبر المحيط الهندي (من قراصنة مليبار إلى مضيق هرمز)، وكانت لهم مستعمرة غير رسمية من النازحين العثمانيين في كجرات. وربما كان الأهم من ذلك هو أن العثمانيين تمكنوا من الوصول

إلى أحدث المعلومات حول المحيط الهندي وأمكنهم الاعتماد على خبرة فريق من المستشارين وصناع السياسة (منهم سليمان الخادم والريس بيري و«كاتشاديافولو» كونتاريني وفرنسيسكو جوستنياني)، كانوا جميعا ملمين بالأحوال والتطورات في المنطقة.

وعلى ذلك، يمكن القول إن فترة إبراهيم باشا في الصدارة العظمى كانت عصر استطلاع أكثر منها عصر فتوح. فعندما مات إبراهيم في العام 1536، كان أسطول سليمان الخادم يقف في السويس غير مكتمل الصُنع، وظل اليمن في عناد خارج السيطرة العثمانية، وكانت القوة البرتغالية في البحر لاتزال بلا رادع. لكن إبراهيم باشا نجح بصبر وعزيمة في بناء منصة لإظهار القوة العثمانية فيما وراء البحار. وبعد سنتين من وفاته، أبحر أسطول عثماني ضخم من السويس وأعاد رسم المشهد السياسي لعالم المحيط الهندي على نحو دائم.

3

حـرب سـليمان باشـا الخـادم العالمية 1546 - 1536

«الحروب في البحر شأن التجار، ولا شأن لها بهيبة الملوك»
بهادر، سلطان كجرات

ترك موت إبراهيم باشا الإمبراطورية في حالة واضحة من فراغ السلطة. وبعد نحو عقد من موته لم تستطع شخصية عثمانية أخرى أن تهيمن على شؤون الدولة كما فعل إبراهيم خلال السنوات التي قضاها في المنصب. لكن من بين كل المتنافسين المختلفين على السلطة خلال الفترة من العام 1536 إلى العام 1544 كان أقربهم إلى وصف رجل الدولة البارز الجديد في الإمبراطورية هو نائب إبراهيم سليمان باشا الخادم. يكشف ذلك في ذاته كيف أصبح المحيط الهندي مركزيا في الحياة السياسية العثمانية. فعلى خلاف إبراهيم الذي تكوّن اهتمامه بجزر الهند الشرقية بعد بلوغ

السلطة العليا بفضل رعاية السلطان، تمكن سليمان الخادم من الترقي خلال مراتب هرم السلطة العثماني بالدرجة الأولى بفضل مشاركته في جهود الإمبراطورية لتوطيد الوجود العثماني في البحر الأحمر والخليج العربي. وبعد قيادة حملة إلى الهند نجح خلالها في غزو اليمن، رُقّي سليمان في العام 1541 إلى الصدارة العظمى، وهي الحالة الأولى في التاريخ العثماني التي كان المحيط الهندي فيها منصة الانطلاق لبلوغ أعلى منصب في الإمبراطورية[1].

على أن شيئا من ذلك لم يكن يسهل توقعه إثر إعدام إبراهيم. فسليمان الخادم كان في رأي معظم المراقبين السياسيين أبعد ما يكون عن المجد الذي كان ينتظره. فالرجل البدين الذي أُخصي منذ طفولته وتجاوز عمره الثمانين في العام 1536، كان - كما جاء في التقارير - هرِما وواهنا إلى حد يُعجزه عن الحركة. وإلى جانب هذه السمات البدنية المنفرة، اشتهر سليمان الخادم بوحشية وقسوة قاربتا حد السادية، ما جعله مكروها عموما حتى من أقرب رفاقه. فـ «مع أنه كان العبد الشخصي للسلطان، فإنه على ما يبدو لم يتعلم من سيده شيئا غير إراقة الدماء لأتفه الأسباب»، كما وصفه مؤلف عثماني معاصر[2].

لكن على الرغم من هذه القائمة المرعبة من النواقص، كان سليمان باشا الخادم عند موت إبراهيم قد أظهر تميزا واضحا في خدمته في عدد من المناصب العالية المهمة، من أهمها ولايته لمصر، تلك الخبرة التي جعلته مؤهلا أكثر من غيره لتوجيه دفة السياسة العثمانية في المحيط الهندي. فخلال سنواته في القاهرة، كان الباشا مسؤولا عن تقديم الدعم الإمدادي لحملة الريس سلمان على اليمن، والإشراف على المحاولة الفاشلة لحفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر، وتطوير الترسانة العثمانية في السويس. وفي العام 1531 عُيّن أميرا للأسطول العثماني الجديد في البحر الأحمر حتى اندلاع الحرب مع الصفويين التي أخذته إلى سورية في وقت لاحق من تلك السنة.

أدى سليمان الخادم دورا كبيرا في جهود إبراهيم باشا لجمع المعلومات الاستخبارية حول المحيط الهندي، وعمل مع مستشارين كبار آخرين في الشؤون البرتغالية، منهم «كاتشاديافولو» كونتاريني وفرنسيسكو جوستنياني والريس سلمان. كان الباشا نفسه جامعا نهما ورساما للخرائط، وضع خرائط ملاحية للمحيط الهندي كانت موثوق بها جدا حتى إن المسؤولين العثمانيين ظلوا يستخدمونها حتى العقد

قبل الأخير من القرن السادس عشر[3]. ومما لا يقل أهمية عما سبق أن السنوات التي قضاها سليمان الخادم في مصر جعلته على اتصال وثيق مع جماعة الرومي التجارية المرتبطة بالقرصان الريس سلمان. وعندما فرّ أغلب هؤلاء الروميين إلى الهند بعد موت سلمان في العام 1528 وانضموا لخدمة السلطان بهادر حاكم كجرات، استغل سليمان الخادم هذه الاتصالات لمتابعة الأحداث في كل من اليمن وأنحاء عالم المحيط الهندي الأكبر قاطبة.

أثبتت علاقة سليمان الخادم بأحد أفراد هذه الجماعة أنها ذات أهمية خاصة للصياغة اللاحقة لسياسات المحيط الهندي. كان هذا الرجل المعروف باسم خوجه صفر Hoja Safar عبدا سابقا للريس سلمان، ترجع أصوله إلى المدينة المينائية أوترانتو Otranto بجنوب إيطاليا(*). مثل كثير من رفاقه الروميين يكتنف الغموض الحياة المبكرة لهذا الرجل الفذ، ولا يُعْرَف شيء حول الظروف التي أدخلته في خدمة سلمان واعتناقه الإسلام وإعتاقه في النهاية. وعلى أي حال فإنه في وقت حملة الريس سلمان على اليمن في العام 1526 كان خوجه صفر من أقرب مساعدي سلمان المؤتمنين، ومارس دورا أساسيا في الانتقام لموته بالمشاركة في تعقب قتلته وقتلهم.

بعد ذلك رافق خوجه صفر ابن أخت سلمان، مصطفى بيرم، وحاشيته الرومية إلى وطنهم الجديد في الهند. وفي العام 1534 الذي تخلى فيه مصطفى بيرم عن خدمة سلطان كجرات وانضم إلى المُغال، وقع الاختيار على خوجه صفر ليحل محله رئيسا فخريا جديدا لجماعة الرومي في كجرات. لذلك منحه السلطان بهادر اللقب «خداوند خان» ومنحه حيازة عقارية فسيحة شملت المدينتين الميناثيتين الاستراتيجيتين سورت Surat وديو(**)[4]. وعندما غدر البرتغاليون ببهادر واغتالوه في كمين في البحر (في ظروف توصف بمزيد من التفصيل في موضع لاحق) بعد ثلاث سنوات، كان خوجه صفر لايزال في جانبه، واستبسل في قتال من غدروا بسيده حتى

(*) المدينة الميناثية Port city: كيان سياسي مستقل يتألف من ميناء وامتداده الحضري، وهي بذلك المقابل الساحلي للدولة المدينية، من أمثلتها التاريخية موانئ المشرق الفينيقي مثل بيبلوس وصور وصيدا، ومدن اليمن الساحلية التاريخية مثل عدن والشحر وقشن، ومدن إيطاليا وجزرها المتوسطية التاريخية مثل البندقية وصقلية وسردينيا، ومدن الهند وجنوب شرق آسيا التاريخية مثل كجرات وسورت وديو وآتشيه. [المترجم].

(**) في سلطنة كجرات، يعني اللقب خداوند خان Khudavend Khan «الأمير الكبير». من كتاب «ظفر الواله بمظفر وآله» للمؤلف الحاج الدبير: راجع حوله حاشية لاحقة. [المترجم].

النهاية المريرة التي خرج فيها بعدة إصابات قاتلة. كان خوجه صفر في هذه الحادثة قاب قوسين أو أدنى من أن يلقى مصير سيده، ولم ينجُ بحياته إلا في اللحظة الأخيرة بالقفز من السفينة والسباحة لمسافة طويلة حتى الشاطئ[5].

خلال كل هذه الأحداث المثيرة التي غطت أكثر من عقد من الزمن وامتدت من الشرق الأوسط إلى الهند، ظل خوجه صفر يراسل سليمان باشا الخادم عبر هذه المسافات الطويلة، ما قرّب العالمين السياسيين لشبه القارة الهندية والإمبراطورية العثمانية أكثر من أي وقت سابق. وفي النهاية وفرت هذه العلاقة لسليمان الخادم ذريعة للتدخل المباشر في شؤون كجرات، مما أذكى التنافس المشتعل بين العثمانيين والبرتغاليين ليصبح حريقا عالميا.

بين المُغال على البر والكفار في البحر

عهد بهادر سلطان كجرات

إن فهم الطريقة التي اندلع بها هذا النزاع يستلزم العودة بضع سنوات إلى الوراء لتتبع فترة الحكم القلقة للسلطان بهادر الذي تولى حكم كجرات خلال عقد مضطرب امتد من وفاة أبيه مظفر الثاني في العام 1526 حتى وفاة بهادر في العام 1537. تميز عهد بهادر بأهمية خاصة لأنه أولى - أكثر من أي سلطان كجراتي آخر إبان القرن السادس عشر - اهتماما ثابتا بالشؤون البحرية، وسافر كثيرا عبر البحر واتبع سياسة نشطة تقوم على الإنفاق على بناء السفن لكل من الأغراض العسكرية والتجارية. وعمل بدأب منذ سنوات حكمه الأولى على تطوير ميناء ديو إلى قاعدة بحرية قوية، فضلا عن كونه مركزا تجاريا، وتكلل جهده بالنجاح في مراحله المبكرة حتى إنه استفز البرتغاليين لمهاجمته في العام 1531[6].

لم يتمكن بهادر من صد هذا الهجوم إلا بفضل وصول مصطفى بيرم وأسطوله الرومي مصادفة من اليمن، وهي الخبرة التي دفعته إلى تغيير وجهة سياسته الخارجية تماما إلى مفهوم الشراكة الاستراتيجية مع العثمانيين. لذلك أرسل في العام 1532 سفارة إلى مصر العثمانية بمساعدة حاشيته الرومية الجديدة[7]. وفي العام 1533 استخدم جماعة أخرى من هؤلاء الروميين لإقامة صلات مع قراصنة كاليكوت

المسلمين الذين دأبوا على الهجوم على الشحن البرتغالي واستثمروا بكثافة في مشروع إحياء التجارة البحرية إلى البحر الأحمر[8].

وسط كل هذه الجهود لبناء كجرات لتكون قوة بحرية، أطلق بهادر حملة غير محسوبة العواقب للتوسع برا، وضعته في صدام مع الإمبراطور المُغالي همايون Humayun. تأثر بهادر في هذا القرار بوجود الروميين في معسكره، إذ يبدو أن ثقته بالمدفعية القوية لدى المدفعيين العثمانيين الذين انضموا إلى خدمته أخيرا هي التي جرأته لأول مرة على الدخول في حرب مع المُغال الأقوياء. وأيا كان سبب هذا التحرك فإنه أثبت أنه خطأ مأساوي في التقدير، إذ دُحر بهادر أولا أمام همايون، ثم اشتد ضعفه بتخلي مصطفى بيرم عنه غدرا في ساحة المعركة، وأخيرا هُزم وفرّ أمام الجيش المُغالي في مارس 1535. وبعد أن استُنزف عسكريا وعُزل سياسيا، لم يجد بهادر مفرا من اللجوء إلى ديو، ومن هناك تحول يأسا إلى أعدائه السابقين البرتغاليين طلبا للعون. وفي وقت كان الجيش المُغالي فيه يحكم قبضته، وقّع بهادر في أكتوبر 1535 معاهدة مذلة مع نائب الملك البرتغالي نونو دا كونيا، تنازل بمقتضاها للبرتغاليين عن السيطرة على جمرك ديو، وسمح لهم ببناء قلعة في ميناء ديو، وتعهد بقطع كل علاقات مملكته مع الإمبراطورية العثمانية، في مقابل وعد بالدعم العسكري الفوري[9].

احتفل البرتغاليون بهذه المعاهدة باعتبارها ضربة ديبلوماسية من الطراز الأول، بعد أن قضوا معظم العقد المنصرم في العمل من دون جدوى للسيطرة على ديو. لكن من الواضح أن بهادر، الذي لم يكن ينوي التخلي عن أحلامه بتحويل كجرات إلى قوة بحرية، قد اعتبرها في أحسن الأحوال اتفاقية مؤقتة، وبدأ العمل على إبطالها حتى قبل أن يصدق عليها. وفي صيف العام 1535، ربما بتحريض من خوجه صفر، وضع بهادر خزانته وكل نساء بيته في عهدة المسؤول المؤتمن لديه آصف خان Asaf Khan وأرسلهم إلى الأمان في مكة[10]. وأَمَرَ آصف خان بأن يرسل من هناك مبعوثا إلى إسطنبول ليقنع السلطات العثمانية بالتدخل نيابة عنه لإعادة ديو إلى سلطة بهادر[11].

وصل المبعوث الذي اختير لهذه المهمة، وهو عمدة الملك Umdet al-Mulk، العاصمة العثمانية في خريف العام 1536. وبعد أن قدم إلى السلطان زنارا رائعا من

الجواهر والكثير من الهدايا الفاخرة الأخرى، توسل إليه أن يغيث أهل كجرات مما وصفه بالبلاء التوأم «المُغال من البر والكفار من البحر»[12]. ولتغطية نفقات الحملة عرض عمدة الملك على السلطان تسليم كامل خزينة دولة بهادر التي تقدر بالمبلغ المذهل «مائتين وخمسين صندوقا تحتوي على مليون ومائتين وسبعين ألفا وستمائة مكيال من الذهب»[13]. كانت هذه الثروة المفاجئة، جنبا إلى جنب مع أخبار جاءت في ربيع العام 1537 بأن البرتغاليين قتلوا بهادر غدرا، كفيلة بإقناع السلطان بضرورة التدخل. كان سليمان باشا الخادم في ذلك الوقت يخدم واليا لرومليا، فأعيد فورا إلى مصر ورقي إلى رتبة وزير وكانت الأوامر التي ذهب بها إلى مصر تتمثل في بدء التحضير للغزو البحري للهند[14].

سليمان الخادم يبني تحالفا عالميا

بمجرد أن وصل الباشا إلى مصر، بدأ التخطيط لحملته من خلال مزيج من الديبلوماسية المحنكة والجمع النهم للمعلومات الاستخبارية. تمثلت خطوته الأولى في إرسال رسائل حذرة حول خططه للسلطان بدر حاكم مدينة الشحر المينائية الاستراتيجية الواقعة على الساحل الحضرمي لشبه الجزيرة العربية، الذي رد بالقبض على عدد من التجار البرتغاليين الموجودين في بلاده وإرسالهم هدية رسمية لمصر[15]. استجوب سليمان الخادم شخصيا خمسة وعشرين من هؤلاء السجناء البرتغاليين، وأرسل إلى إسطنبول اثنين منهم رأى أنهما أكثر معرفة وتعاونا من غيرهما. وهناك استطاع مستشاره المؤتمن فرنسيسكو جوستنياني أن يقنع أحدهم، وهو يهودي سابق تحول إلى المسيحية يدعى دييغو مارتنز Diego Martins، باعتناق الإسلام والتعاون مع العثمانيين. وبعد مقابلة قصيرة مع السلطان، رافق جوستنياني مارتنز إلى مصر، وهناك ساعد الاثنان سليمان الخادم في التخطيط بشأن تفاصيل الحملة[16].

في هذه الأثناء في كجرات كان خوجه صفر يحضر نفسه للهجوم العثماني الوشيك. ومن قاعدته في سورت أرسل رسالة إلى سليمان الخادم حث الباشا فيها على جعل قلعة ديو هدفه العسكري الأساس، وتعهد بتقديم أي عون لازم للحملة. ووفق إعادة صياغة برتغالية لرسالته، فإن:

> [خوجه صفر] طلب أن يتوجه الأسطول مباشرة إلى الهند وأن ينزل على جزيرة ديو، وهناك سيكون من السهل الاستيلاء على القلعة [الخاضعة لسيطرة البرتغاليين] لأنه سيقدم كل العون اللازم. وحيث إن [ديو] مركز كل طرق التجارة البحرية للهند، يمكن من هناك شن الحرب على كل المعاقل الرئيسة للبرتغاليين في أي وقت نحدده، ولن يكون أي منها قادرا على المقاومة. وبذلك سيُطرد البرتغاليون من الهند وتعود التجارة حرة كما كانت في السابق ويعود الطريق إلى بيت الله الحرام آمنا من نهبهم[17].

بعد أن ضمِن تعاون خوجه صفر أصبح سليمان الخادم مستعدا لبدء عمل ديبلوماسي أوسع لنيل دعم القوى الإسلامية من كل جهات المحيط الهندي لهجومه. فبدأ بإرسال مساعده صولاق فرهد Solak Ferhad (أو «فرهد الأعسر») في سفارة إلى الموانئ الخاضعة لسيطرة المسلمين في اليمن وحضرموت. لم يحقق فرهد هنا غير نجاح مختلط. ففي زبيد لقي فرهد استقبالا فاترا من ناخدا أحمد Nakhoda Ahmed(*) الرجل المحلي القوي الذي شكك صراحة في حكمة خطط سليمان الخادم. وأسوأ من ذلك هو ما كان في عدن؛ حيث فرَّ حاكمها الأمير ابن داود من المدينة قبل وصول فرهد رفضا لمقابلة الوفد العثماني[18]. أما في الشحر فقد أغرق السلطان بدر الوفد العثماني بالهدايا والإطراء، وأمر بأن يدعى باسم السلطان سليمان في خطبة الجمعة من ذلك الحين فصاعدا، وودَّع فرهد «وهو في غاية الامتنان والثناء على مظاهر الحفاوة والتكريم والتقدير التي أظهرها السلطان بدر نحوه»[19]. وأخيرا قبل العودة إلى البلاد العثمانية عبر وفد فرهد بحر العرب إلى القرن الأفريقي، وهناك تلقى تعبيرات دعم مماثلة من أمير زيلع القوي أحمد غري المجاهد(**)[20].

(*) الناخدا أو الناخذا أو الناخوذة Nakhuda أو Nachoda: لفظة معربة من الكلمة الفارسية «ناوخدا»: ناو + خودا (nàv+khuda) التي تعني ريس السفينة ومالكها أو وكيله عليها، وفي تاج العروس تعني المتصرف في السفينة المتولي أمرها، سواء كان يملكها أو كان أجيرا لإدارتها. اشتُق منها الفعل «تنخذ» مثل «ترأس» بمعنى صار ناخذاها أي رئيس سفينة. [المترجم].

(**) أحمد غري المجاهد Ahmed Gran al-Mujahid: (كلمة Gran بتنويعاتها في اللغات المحلية تعني «الأعسر») هو أحمد بن إبراهيم الغازي (1506 - 1543) إمام وسلطان سلطنة عدل Adal في الصومال الحالية، خاض بجيش من الصوماليين والقليل من الهراري والعرب والأتراك العثمانيين الحرب الحبشية - العدلية (1529 - 1543) التي هزم خلالها الكثير من أباطرة الحبشة واستولى على ثلاثة أرباع إقليمها، لكنه هُزم في النهاية ودمرت عاصمته زيلع Zeyla التي تقع حاليا في شمال غرب الصومال على خليج عدن. [المترجم].

بعد عودة فرهد لمصر تمثلت خطوة سليمان الخادم التالية في إقامة علاقات مع قوى أبعد، منها ممالك لم يكن لها في السابق اتصالات رسمية من أي نوع مع الدولة العثمانية. ففي خطوة مثيرة للإعجاب، نعرف من رواية الرحّال البرتغالي المعاصر فيرنو ميندس بينتو Fernao Mendes Pinto أن الباشا أرسل إلى سلطنة آتشيه البعيدة الواقعة على جزيرة سومطرة بجنوب شرق آسيا وفدا من «الرجال المختارين» من مصر «بقيادة رجل تركي يدعى حمد خان» Hamad Khan[21]. تتضمن رواية بينتو تحذيرا شديدا للبرتغاليين - نقله له في ملقا سفير زائر من أحد منافسي آتشيه المحليين على القوة والنفوذ - حول الشروط التي وافق بمقتضاها سليمان الخادم على إرسال هذه القوة. وفق هذا المبعوث:

> [أرسل العثمانيون هذه القوات لمساعدة سلطان آتشيه] في تحقيق السيادة البحرية على مضيق ملقا ومنعكم [البرتغاليين] - كما يتفاخر شعبه علنا - من كل تجارة التوابل مع جزر باندا Banda وجزر الملوك Molucca وقطع كل طرق تجارتكم إلى الصين وسوندا Sunda وبورنيو Borneo وتيمور Timor واليابان. كانت تلك هي شروط التحالف الذي وقّعه - على حد علمنا - مع عظيم الترك بوساطة ابن أخته [هكذا وصفه] باشا القاهرة الذي أغرقه بوعود تقديم كل أشكال العون[22].

تنطوي هذه الفقرة - لا ريب - على بعض الصعوبات التفسيرية. فبينتو لم يصل ملقا حتى العام 1539، أي بعد سنة كاملة من إكمال سليمان الخادم حملته على الهند. ونتيجة لأن روايته تشير إلى أن حمد خان ورجاله لم يصلوا إلى سومطرة إلا في أوائل العام 1539، فإن بعض المؤرخين أثاروا شكوكا حول ما إذا كانت هذه القوة من الجنود العثمانيين قد أرسلت مباشرة من سليمان باشا الخادم من مصر أم كانت مجرد «حظ مفاجئ» من المرتزقة وصلوا إلى جنوب شرق آسيا من تلقاء أنفسهم بعد انسحاب الباشا من ديو في العام 1538[23]. وحيث إنه لا توجد مصادر مؤيدة، فربما يظل هذا السؤال بلا إجابة مؤكدة. لكن بينتو يذكر صراحة أن القوة العثمانية جاءت مباشرة «من مضيق مكة»(*)[24]. ولو افترضنا أن بينتو كان في ملقا حقا في

(*) مضيق مكة: هو مضيق باب المندب أو البحر الأحمر. [المترجم].

يونيو 1539 كما يقول، فإن تدقيق تواريخ قصته يوحي بأن مرتزقة من حصار ديو ربما وصلوا إلى سومطرة قبله بصعوبة بالغة[25].

يزعم بينتو أيضا أن حمد خان ورجاله وصلوا إلى آتشيه «في السفن الأربع التي أرسلها [سلطان آتشيه] سابقا [للبحر الأحمر] بحمولة من الفلفل»[26]. يوحي ذلك بوجود ارتباط بين الدعم العسكري العثماني للآتشيهيين وقيام علاقة بين سليمان الخادم وقراصنة المابلا الكاليكوتيين(*). وكما ذكرنا في الفصل السابق فإن فتح طريق بحري مباشر بين آتشيه والبحر الأحمر عن طريق جزر المالديف كان ابتكار قراصنة المابلا في العام 1527، وبحلول العقد الرابع من القرن السادس عشر، كانت ثماني سفن على وجه التقريب ترسل سنويا بانتظام إلى جدة عبر هذا الطريق. وخلال هذه السنوات حشد زعيم المابلا باتي ماراكار Pate Marakkar أسطولا هجوميا ضخما من نحو خمسين سفينة فوستة خفيفة وعدة آلاف من الرجال(**) (منهم ألف هركوبي وأربعمائة مدفع)(***)، بدأ القراصنة يستخدمونها في مهاجمة البرتغاليين في بحر سيلان في العام 1537(****)[27].

وعلى الرغم من شح الأدلة المباشرة فمن المرجح أن هجمات المابلا قبالة ساحل جنوب الهند جرت بتنسيق مباشر مع تحضيرات سليمان الخادم في مصر ومع انطلاق العمليات العسكرية المتزامنة تقريبا في آتشيه. من الواضح أن السيناريو الأكثر ترجيحا هو أن سليمان الخادم، بتشجيع من مبعوثين أرسلهم باتي ماراكار والسامري الكاليكوتي في العام 1537، أرسل حمدَ خان إلى آتشيه في الوقت نفسه الذي تحرك فيه الباشا إلى الهند حاملا أوامر بالتحرش بالسفن البرتغالية، وإن أمكن، تقديم العون في هجوم على قلعة ملقا البرتغالية. يدعم هذه الفرضية حصار أسطول آتشيه ملقا بعد وقت قصير من وصول حمد خان إليهم، بعد اغتصاب السلطان علاء الدين رعاية شاه Ala'ad-din Ri'ayat Sjah السلطة عبر انقلاب في القصر على أخيه في صيف العام 1539[28].

(*) المابلا Mappila أو الموبلا Moplah: إحدى الجماعات المسلمة في ولاية كيرالا الهندية تشكلت نتيجة لانتشار التجار العرب وتزاوجهم مع الأهالي. [المترجم].

(**) الفوستة fusta: سفينة ضيقة خفيفة سريعة ذات ساقط صغير تسير بالمجاديف والأشرعة، يمكن اعتبارها قادسا مصغرا. [المترجم].

(***) الهركوبي: هو الجندي المسلح بالهركوبة Harquebus وهي سلاح ناري قديم. [المترجم].

(****) سيلان Ceylon: هو الاسم التاريخي لجزيرة سريلانكا الحالية. [المترجم].

وهكذا، فبحلول ربيع العام 1538، ومع اقتراب الانتهاء من تجهيز أسطول سليمان الخادم في ترسانة السويس، تمكن الباشا من بناء تحالف هائل عبر المحيط يربط إسطنبول بحلفاء عبر المحيط الهندي على اتساعه من الشحر وكجرات إلى كاليكوت وسومطرة، ويمكن القول إنه أوسع تحالف جغرافي تشكل على الإطلاق، وهو تحالف لم يكن متخيلا حتى قبل بضعة عقود. وكحلقة أخيرة في هذا التحالف العابر للقارات، استغل سليمان الخادم التطورات السياسية في البحر الأبيض المتوسط لتوسيع المدى الجغرافي لتخطيطه. فاستخدم إعلان العثمانيين الحرب على البندقية في العام 1537 ذريعة، واحتجز كل السفن التجارية البندقية في مصر، وأجبر أطقمها على الخدمة في أسطوله[29]. ومع إكمال قواته في السويس بمئات من المدفعيين والبحّارة والحرفيين المهرة البنادقة، أصبح الباشا أخيرا مستعدا للإبحار إلى الهند.

الحملة العثمانية في العام 1538

مع أن حملة سليمان الخادم على الهند لم تحظَ باهتمام كاف من الدارسين الحديثين، فإنها كانت بكل المقاييس عملا هائلا في حجمه وأبعاده. كان أسطول سليمان المكون من نحو سبعين سفينة أكبر أسطول يُرى في المحيط الهندي منذ الأساطيل الأسطورية لأمير البحر الصيني جنغ خه قبل أكثر من قرن من الزمن(*)[30]. وكان طاقم الأسطول الذي بلغ أفراده عشرة آلاف قوة ضخمة تتضاءل بجانبها الأساطيل البرتغالية المعاصرة، بل كان عدد أفراده مساويا تقريبا لعدد سكان كل مستعمرات آسيا البرتغالية مجتمعة[31]. وحتى بالمعايير الأضخم للحرب في البحر الأبيض المتوسط، كان أسطول الباشا هائلا، وصُنف في حينه كواحد من أكبر الأساطيل العثمانية التي جُمعت على الإطلاق. أُنجِز ذلك كله على الرغم من افتقار مصر وشبه الجزيرة العربية إلى الغابات تماما، ما يعني أن كل لوح خشبي استُخدم في بناء الأسطول، شُحِن إلى مصر من مكان آخر من الإمبراطورية، ثم نُقل برا إلى الترسانة في السويس عبر أكثر من مائة ميل من الصحراء.

(*) جنغ خه Zheng He (من 1371 إلى 1435/1433): أميرال خصي صيني من أسرة مسلمة خوارزمية من بخارى واسمه العربي حجي محمود شمس، قاد بين العامين 1405 و1433 ست بعثات صينية إلى المحيط الهندي، شملت الواحدة منها أكثر من ثلاثمائة سفينة وأكثر من عشرين ألف بحّار، وصلت إلى جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا وجنوب غرب آسيا وشرق أفريقيا. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

لكن على الرغم من التخطيط المتأني والإنفاق السخي على حملة العام 1538، فإنها في النهاية لم تحقق كل ما أراده سليمان الخادم. تمثلت أشد العقبات إحباطا في أن جهود الباشا للتعاون مع حلفائه واسعي الانتشار لم تثمر النتيجة المرجوة منها، فقبالة ساحل كوروماندل Coromandel دَمَّر البرتغاليون أسطول باتي ماراكار المكون من قراصنة المابلا قبل أشهر من مغادرة سليمان الخادم السويس، وفي جنوب شرق آسيا صد البرتغاليون هجوم الآتشيهيين على ملقا، وفي كجرات مُنيت العمليات العثمانية بسوء التعاون بين سليمان الخادم وحلفائه المحليين مما اضطره في النهاية إلى رفع الحصار عن ديو والتراجع إلى اليمن صفر اليدين.

غير أننا يجب ألا ننسى أنه في ديو على الأقل كان النصر قريبا من العثمانيين. فعندما أعطى سليمان الخادم أخيرا الأمر برفع الحصار في سبتمبر 1538، بعد قتال ملحمي لستة أسابيع للاستيلاء على المدينة، كانت الحامية البرتغالية داخل قلعة ديو تحتضر فعليا، بعد أن نفدت ذخيرتها تماما ولم يبقَ منهم إلا نحو أربعين جنديا ظلوا قادرين على حمل السلاح[32]. كتب المؤرخ البرتغالي ديوغو دو كوتو أنه خلال الأيام الختامية للمعركة: «كان الموقف خطيرا حتى أن أي مراقب خارجي كان يستطيع أن يجزم بأنها ستسقط لا محالة»[33].

لماذا إذن آثر سليمان الخادم الانسحاب المخزي، على رغم أن الاستيلاء على ديو كان قاب قوسين أو أدنى من العثمانيين؟ تجمع معظم الروايات الباقية للحصار على إدانة الباشا، وتفسر القرار بجبنه، إذ تدفع بأن الذعر تملك الباشا بسبب إشاعات قالت إن قوة إغاثة برتغالية كانت في طريقها من غوا. وعلى رغم أن هذا الرأي ينطوي على شيء من الحقيقة، فمن الواضح أن الباشا واجه مقاومة متصاعدة لحصاره حتى من حلفائه المحليين. ولهذا السبب يجب النظر إلى الانسحاب العثماني من ديو - خلافا للهزائم التي تكبدها حلفاء الباشا في سومطرة أو بحر سيلان - على أنه كان قبل كل شيء هزيمة سياسية، لا عسكرية.

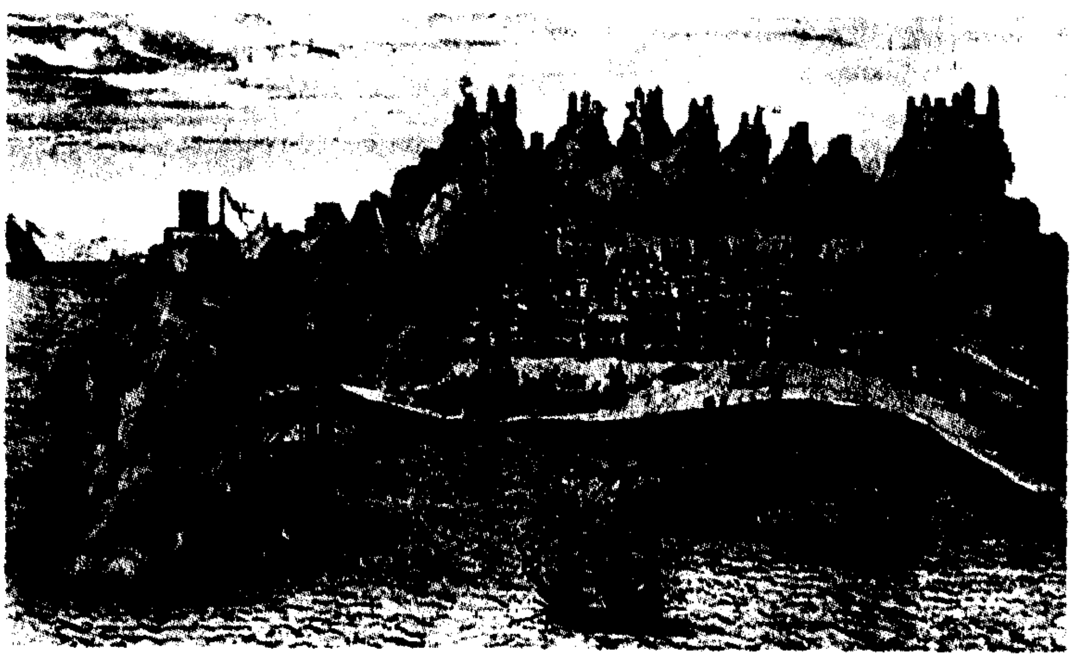
على أن ذلك لا يبرئ ساحة سليمان الخادم من المسؤولية الشخصية عن فشله. فالرجل الذي كان بارعا في بناء تحالفات كبيرة من مسافات شاسعة، أثبت، عندما صار على مقربة خلال أسابيع الحصار، أنه رجل دولة وديبلوماسي أقل اقتدارا بكثير. تصف الروايات الإسلامية والمسيحية عموما سلوكه على امتداد الحملة بأنه متعجرف

ومخادع وتعتريه نوبات من الغضب المفاجئ والعنيف. ولابد أن شيخوخته ومظهره البدني البغيض أسهما في هذه النتيجة، فالخصي الثمانيني البدين إلى حد البشاعة لم يكن يتطابق مع صورة البطل الفاتح القوي الذي كان من شأنه أن يلهم مسلمي الهند لحشد قواهم والالتفاف حوله.

غير أن هذه النقائص في شخصية الباشا أسهمت فقط في إذكاء مجموعة التحديات السياسية السابقة لوصوله التي لم تنشأ عن افتقار الرجل إلى القيادة بقدر ما نشأت عن مقاومة بعض مسلمي المحيط الهندي لفكرة الهيمنة العثمانية على المنطقة، بل إن مشكلة من هذا النوع عرضت لسليمان الخادم حتى قبل أن يبحر من مصر، عندما رفض أمير عدن ابن داود استقبال مبعوثه فرهد في العام 1537. وعلى رغم أن الباشا قلل من شأن هذا الرد في حينه فإنه كان إهانة تنطوي على كل عناصر الأزمة الدبلوماسية الكبرى؛ لأن عدن كانت الميناء الأقوى تحصينا على الساحل اليمني كاملا، وكان لها تاريخ من العداء مع العثمانيين (والصداقة مع البرتغاليين) امتد إلى عقدين على الأقل. وبسبب الأهمية الاستراتيجية لعدن أيقن سليمان الخادم أنه لا يستطيع أن يتجاوز المدينة وهو في طريقه إلى الهند؛ لأنه بذلك كان يترك خطوط إمداده عرضة للخطر طوال وقت الحملة. لكنه كان على يقين من أن نزاعا طويلا مع الأمير يمكن أن يهدد نجاح هجومه المنسق على ديو، وهو بديل لم يكن مقبولا إطلاقا.

ونتيجة لعدم وجود خيارات جيدة أمام الباشا، فقد كان عليه، عند وصوله إلى عدن في طريقه إلى الهند، أن يتصرف بمزيج من الخداع والوحشية. فتظاهر أولا بالصداقة ودعا الأمير إلى سفينته للتوصل إلى تسوية رسمية، وفجأة أمر بتكبيله وشنقه وتعليقه من رقبته على طرف عارضة شراع السفينة، وأرسل فرقة من الانكشاريين إلى البر للاستيلاء على قلعة عدن (الشكل 1-3)[34]. فتمكن سليمان الخادم بذلك من السيطرة على ميناء استراتيجي استعصى من قبله على المماليك والريس سلمان من دون أن يطلق طلقة واحدة. لكن هذا النجاح كلفه الكثير من سمعته؛ إذ انتشر خبر غدره في كل حدب وصوب، وأقنع أكثر من حليف هندي محتمل بأن الباشا شخص لا يؤمن جانبه[35]. وقد اتضح ذلك للباشا بعد بضعة أسابيع عندما وصلت طليعة الأسطول العثماني إلى ساحل الهند وأرسلت سفارة إلى

الحاكم المسلم القوي عادل خان في الدكن(*)، وعرضت مساعدته في انتزاع غوا من البرتغاليين في مقابل دعمه الإمدادي لهم خلال حصار ديو. لكن عادل خان رفض العرض قائلا إنه بالنظر إلى الأحداث الأخيرة في اليمن، «فإنه يفضل أن يكون صديقا للبرتغاليين الذين انتزعوا منه غوا على أن يكون صديقا لعظيم الترك الذي وعد بإعادتها له»[36].



الشكل (1-3): مدينة عدن، بنيت داخل فوهة بركان خامد، وكانت واحدة من أقوى الموانئ تحصينا في آسيا البحرية.

Georg Braun and Franz Hogenburg, Civitates Orbis Terrarum, vol. 1 (Cologne, 1572).

ولم تتحسن الأمور مع الباشا عندما نزلت قواته أخيرا في ديو. وهناك قوبل كما هو متوقع بترحاب من فرقة خوجه صفر الرومية وعدة آلاف أخرى من الجنود أرسلهم محمود ابن بهادر سلطان كجرات الجديد[37]. لكن في أول اجتماع لسليمان الخادم قيل إنه تعامل بازدراء مع أولو خان Ulu Khan، القائد العام لقوات السلطان محمود، إذ شاع أن الباشا ظنه أحد الخدم الشخصيين لخوجه صفر[38]. أنكر سليمان الخادم ذلك وأصر في روايته على أن أولو خان هو من بدأ بالإهانة

(*) عادل خان Adil Khan: لقب سلاطين سلالة عادل شاه Adil Shah الذين حكموا سلطنة بيجابور (1489 - 1686) وحملوا لاحقا اللقب عادل شاه الذي استخدم أيضا اسما لسلطنتهم. أما سلطان بيجابور الذي عاصر حصار ديو في العام 1538، فكان إبراهيم عادل شاه الأول (حكم 1534 - 1558). [المترجم].

عندما رفض أن يحييه حتى بقول «السلام عليكم» بنبرة ودودة[39]. لكن أولو خان على الرغم من ذلك أبلغ السلطان محمود بهذه الإهانة وأثار شكوك سيده، ولذلك فإن مبعوث سليمان الخادم عندما وصل بلاط محمود بعد بضعة أيام ومعه عباءة شرف هدية، رفض محمود الهدية بغضب، ورد برسالة مقتضبة مؤداها أن الخادم الذي يقدم عباءة لسلطان «لا يعرف مكانته»[40]. اغتاظ سليمان الخادم بشدة - كما يذكر مصدر معاصر - لدى سماع ذلك، ودخل في حالة من الغضب الأعمى وتوعد بأنه «عندما يأتي ذلك الوزير لمقابلتي، سوف أسوي الأمور معه بتعليقه من رقبته!»[41]. ومن تلك اللحظة فصاعدا قيل إنه «لا يكن غير الكراهية لذلك السلطان ووزرائه»[42]. ولا ريب أن هذا الشعور كان متبادلا، فبعدها بقليل أمر محمود كل قواته بالانسحاب من ديو والتراجع من جانب واحد إلى الداخل البري[43].

تتفق كل الروايات الباقية لهذا الانهيار في العلاقات العثمانية -الكجراتية على أن هذا الانهيار كان عاملا حاسما في الفشل النهائي لحصار ديو. من هذه المصادر الحاج الدبير، المؤلف المعاصر لكتاب «تاريخ كجرات باللغة العربية»، الذي أوجز عيوب سليمان الخادم بهذه الكلمات: «ولو كان خليقًا، بلغ ما يريد، لكنه جاف مناف، لا يميل ولا يستميل، ولا يستكمل أحدا، ولا يستعمل رشدا»[44](*).

وعلى الرغم من الدور الذي مارسه سلوك سليمان الخادم في إثارة هذه المشاجرة الدبلوماسية، فإنها كانت في أحد جوانبها عَرَضًا لتحول أعمق في السياسة الكجراتية، ما يجعل الباشا مجرد ضحية لسوء الحظ، وإن لم يكن بريئا تماما. وينبغي أن نتذكر أن السلطان بهادر عندما دعا العثمانيين إلى التدخل في شؤون كجرات قبل ثلاث سنوات، فعل ذلك بعد أن تكبد مباشرة هزيمة مذلة في ساحة المعركة أمام المُغال وكان على وشك أن يسلم مدينة ديو طوعا إلى البرتغاليين. وفي لحظة اليأس بدا التحالف مع إسطنبول الفرصة المعقولة الوحيدة لبهادر للحفاظ على عرشه. لكن ثمة تغيرات كبرى وقعت خلال السنوات الثلاث

(*) الحاج الدبير هو عبدالله محمد بن عمر Abdullah Muhammad ibn Omar الشهير بالحاج الدبير الآصفي المكي ألغخاني Haji ad-Dabir al-Asafi Ulugh Khan مؤلف كتاب «ظفر الواله بمظفر وآله» المترجم إلى الإنجليزية بعنوان Arabic History of Gujarat [تاريخ كجرات باللغة العربية]، وهذا الاقتباس هو الجملة العربية نفسها التي استخدمها الحاج الدبير قبل أن تترجم إلى الإنجليزية، ومعناها أن سليمان لو كان دمثا ليِّن الطِباع لنال ما أراد، لكنه كان فظا عنيدا، لا يعرف كيف يستميل أحدا، ولا ينسجم مع أحد، وليس رشيدا في أفعاله. [المَترجم].

الفاصلة؛ إذ قُتل بهادر غدرا على أيدي البرتغاليين، وتراجع المُغال فجأة إلى دلهي، ولم يكن لدى السلطان الجديد محمود بن بهادر الرغبة في دعوة قوة احتلال أجنبية أخرى لبلاده - ولا الدافع إلى ذلك.

يطرح ذلك كله احتمال أن ظهور جيش محمود في ديو في العام 1538 ربما رُتب لمجرد حفظ ماء وجه محمود أمام القائد العثماني(*). فربما ارتاب محمود في أن سليمان الخادم بعد أن استثمر كل هذه الأموال في الحملة سيعيد قلعة ديو ببساطة إلى حاكمها السابق إن نجح في انتزاعها. لذلك يرجح أن السلطان الشاب كان حريصا منذ البداية على إيجاد أي ذريعة مقنعة للخروج من تحالف ورثه عن أبيه ولم يبدِ هو نفسه أي حماس له.

ويمكننا في السياق ذاته أن نفطن إلى إشارات على حدوث شقة متنامية داخل الصفوف العليا لبلاط محمود الذي يبدو أنه انقسم بحدة بين نخبة الرومي الموالية للعثمانيين بقيادة خوجه صفر (التي كانت محل ترحيب ورعاية علنيين إبان عهد بهادر) وأرستقراطية المحاربين الأهليين بقيادة أولو خان. ولكون السلطان محمود حاكما ضعيفا نسبيا لم يتجاوز عقده الثاني من العمر في وقت اعتلائه العرش، فمن الواضح أنه وقع تحت تأثير هذه الجماعة الأخيرة التي استاءت من الروميين لكونهم متطفلين أجانب، ورأت - بعد تخلي مصطفى بيرم عنهم في ساحة المعركة وانضمامه إلى المُغال في العام 1535 - أن ولاءهم للسلطان مشكوك فيه[45]. والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الروميين كانوا عثمانيين وأدوا دورا فعالا في الإتيان بسليمان الخادم إلى ديو في المقام الأول، ولذلك خشي أفراد عصبة أولو خان الأهليون من أن يؤدي الانتصار العثماني على البرتغاليين إلى تعزيز قوة الروميين في كجرات. ومما يوحي بهذه المشاعر المعادية للعثمانيين أن سليمان الخادم اتهم أولو خان لاحقا بالانحياز صراحة إلى البرتغاليين ضد قواته في أثناء الحصار ووصفه بأنه «رجل واقع حتى أخمص قدميه في براثن الكفار لدرجة أنه أصبح لا يعرف لنفسه دينا»[46].

في ساحة المعركة كان من نتيجة هذه الشبكة المعقدة من الخصومات الداخلية أن ظلت القوات الموالية لخوجه صفر وفرقته من الروميين في جانب الباشا وواصلت

(*) يتفق مع ذلك كتاب «ظفر الواله بمظفر وآله» الذي يضيف أن خوجه صفر كان مواليا لسيده السلطان محمود وشاركه هواجسه في سليمان باشا الخادم وأسهم في خداع الباشا بإيهامه بمجيء السفن البرتغالية. [المترجم].

التعاون مع العثمانيين طوال حصار ديو، لكن من دون دعم من السلطان محمود أو من أي قوة إسلامية محلية أخرى. ومع توالي الأسابيع تزايدت الإصابات ونفد مخزون البارود والمؤن، وحتى العلاقة بين سليمان الخادم وخوجه صفر بدأت تسوء[47]. وبناء على ذلك كله فإن قرار الباشا برفع الحصار والانسحاب في اللحظة ذاتها التي بدا النصر فيها قاب قوسين أو أدنى، لا يمكن اعتباره ناتجا- أي القرار- عن جبن الباشا أو سوء تقديره، وإنما كان تحركا اضطر إليه لعدم وجود بدائل واضحة وبسبب موقفه الديبلوماسي المعزول أكثر فأكثر. فبعد أن فقد أغلب حلفائه الهنود، بسبب مزيج من ديبلوماسيته الخرقاء وظروف خارجة عن سيطرته، لم يعد سليمان الخادم متأكدا من قدرته على الحفاظ على ديو في حال تمكن من انتزاعها. وبدلا من المخاطرة ببقية قواته في هذه المغامرة المريبة، قرر الباشا أن الخيار الأفضل هو العودة إلى اليمن وتوطيد موقفه هناك على أقل تقدير[48].

توطيد السلطة العثمانية في اليمن

مهما بلغ الخلاف بشأن قرار سليمان الخادم بالانسحاب من ديو، فإن الفصل اليمني الأخير من حملته كان نجاحا لا لبس فيه. توجه الأسطول أولا إلى ميناء الشحر الحضرمي الذي ظل حاكمه السلطان بدر حليفا مواليا للعثمانيين على امتداد الحملة، فاستخدم الباشا قوة أسطوله لمساعدة بدر في توسيع سيطرته بعيدا أعلى الساحل حتى ظفار، ومنحه اللقب العثماني سنجق بك في مقابل إتاوة سنوية قدرها عشرة آلاف أشرفي تدفع لخزانة مصر(*)[49]. وبعد أن قوى الحامية العثمانية في عدن، أطاح بناخدا أحمد حاكم زبيد المستقل، وفرض السيطرة العثمانية على تعز والمخا[50]. وأخيرا، قبل الإبحار شمالا لأداء فريضة الحج في مكة والعودة إلى إسطنبول، أدخل هيكلا إداريا عثمانيا رسميا لكل اليمن الساحلي وعيّن مصطفى النشار ابن الصدر الأعظم السابق محمد باشا بايكيلي Biyikli Mehmed Pasha مسؤولا عن الولاية[51].

(*) في الإمبراطورية العثمانية، كان البك Beg (باي bey في التركية الحديثة) لقبا ورتبة (من دون رتبة الباشا) تؤهل حاملها لحكم سنجق sancak، وحينها يسمى سنجق بك sancak begi، والسنجق تقسيم إداري من دون الولاية يقابل اللواء أو المحافظة في اللغة العربية. [المترجم].

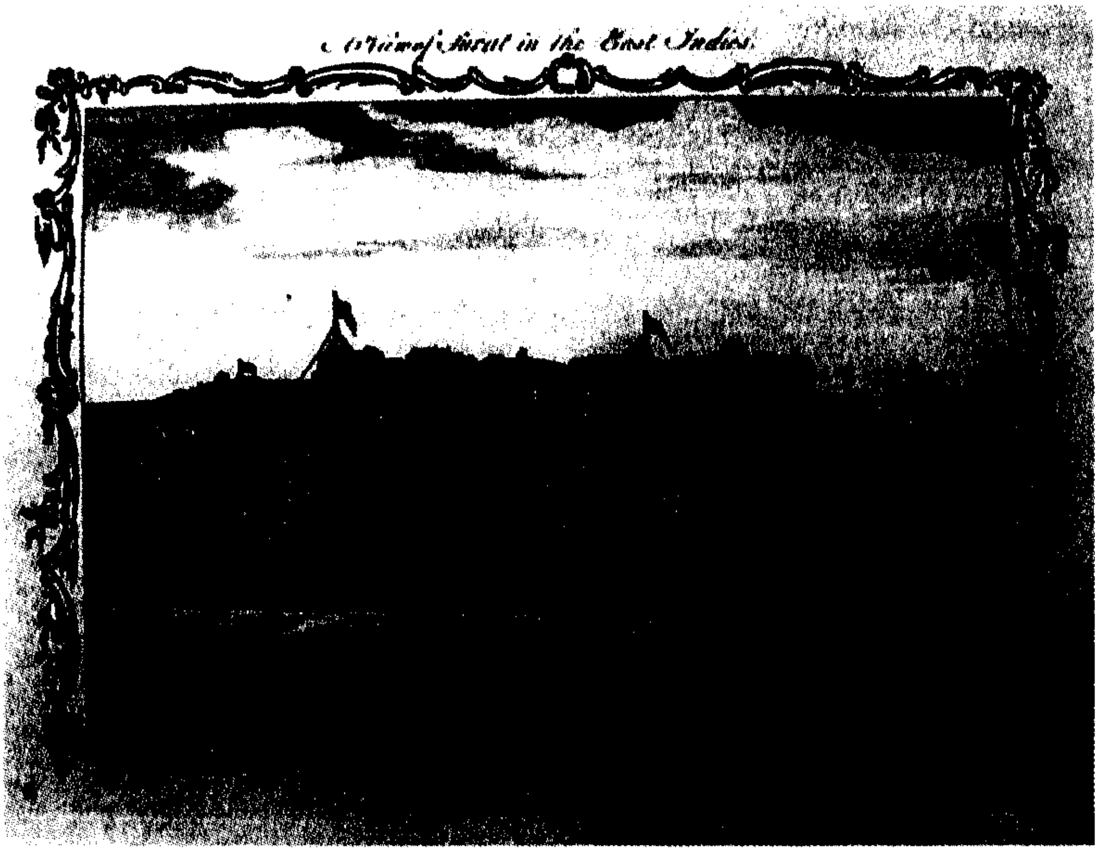
كان هذا التوطيد للسلطة العثمانية في اليمن - بكل المقاييس - تعويضا كافيا للحرج الناتج عن انسحاب سليمان الخادم المتعجل من كجرات. أما ديو التي عُدت في العام 1538 القلعة الأشد تحصينا في دولة الهند، فإن أهميتها الاستراتيجية تراجعت بالنسبة إلى البرتغاليين مقارنة بالسيطرة على البحر الأحمر التي كانت غير ممكنة إلا بتأسيس وجود عسكري في اليمن. قبل نحو عقد من الزمن، في عشية المحاولة البرتغالية الفاشلة الأولى لانتزاع ديو من السلطان بهادر في العام 1531، حذّر تقرير برتغالي مجهول من أن السيطرة على ديو «لا تعني أن الهند لن تكون عرضة لخطر العثمانيين، لأن لديهم كثيرا من موانئ الدخول الأخرى، وما لم تُبنَ قلعة في الميناء الواقع على باب المضيق [في اليمن]، فإن الهند لن تتحرر من الغم... خوفا من الروميين»[52].

وبعد أقل من عقد من الزمن، أصبحت هذه المخاوف واقعا؛ إذ تمكن العثمانيون، بفضل غزو سليمان الخادم لليمن، من بناء قواعد بحرية وجمارك في عدن والمخا، ما أعطاهم موطئ قدم دائما في بحر العرب[53]. كما ضمِن هذا الوجود العثماني في اليمن استمرار تعاون خوجة صفر الذي تمكن، على الرغم من التعثر في ديو، من ترسيخ مكانته في مدينة سورت الميناثية القريبة التي شرع فيها في بناء تحصينات بحرية تابعة له (الشكل 2 - 3)[54]. وسرعان ما أصبحت سورت نقطة العبور الرئيسة للإبحار بين كجرات والبحر الأحمر، ما جعل السيطرة البرتغالية على ديو غير ذات جدوى إلى حد بعيد[55].

لذلك كان المسؤولون البرتغاليون في العام 1540 يرسمون مستقبل إمبراطوريتهم البحرية في أحلك الظروف. من ذلك مثلا أن نائب الملك المستقبلي جواو دي كاسترو Joao de Castro كتب رسالة للملك في تلك السنة تؤكد أن العثمانيين سيطروا تماما على كل موانئ اليمن، وأضاف:

> لا حاجة إلى شرح مدى الضرر الذي سيطالنا من هؤلاء الجيران الجدد؛ لأن مجرد حفاظهم على وضعهم الحالي يمثل تهديدا لنا، وسوف يضطرنا إلى تكبد نفقات هائلة [للدفاع عن أنفسنا]، حتى أن الأمر لن يستغرق طويلا قبل أن نضطر إلى التخلي تماما عن هذه البلاد[56].

لقد تحسن موقف العثمانيين بعد غزو اليمن إلى حد أن بعض البرتغاليين بدأوا يظنون أن اليمن - وليس ديو - كانت الهدف الأساس لسليمان الخادم منذ



الشكل (2 - 3) منظر لقلعة سورت التي بُنيت في منتصف القرن السادس عشر. خضعت سورت بين العامين 1538 و1573 لحكم سلسلة متواصلة من القادة الروميين، وكانت مركزا لكل من التجارة مع الإمبراطورية العثمانية والنشاط السياسي الموالي للعثمانيين. المصدر: **Edward Cavendish, A New Universal Collection of Voyages and Travels, from the Earliest Accounts to the Present Time (London, 1771).**

البداية[57]. وسواء كان ذلك حقيقيا أو لا، فمن الواضح أن السلطان في إسطنبول كان راضيا عن أداء سليمان الخادم. وعلى الرغم من عدة روايات خيالية مخالفة لذلك لمؤلفين من الهند الإسلامية أصروا على أن السلطان وبخ الباشا (أو حتى أعدمه!) عند عودته إلى العاصمة، فإن الحقيقة هي أن سليمان الخادم ترقى بعدها عدة مرات[58]. وفي العام 1541 صار سليمان الخادم الصدر الأعظم، وأثبت أن اليمن لم يكن يحمل مفاتيح الهند فحسب، بل أيضا مفاتيح الإمبراطورية العثمانية.

مفاوضات السلام العثمانية - البرتغالية الأولى

على الرغم من فشل سليمان الخادم في ديو، فإن قائمة الإنجازات التي حققها خلال حملة في العام 1538 كانت كبيرة. فقد أثبت حجم أسطوله القدرة على حشد

الرجال والموارد على نطاق هائل. ونجحت ديبلوماسيته، على الرغم من كل عيوبها، في ضم المسلمين من شرق أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا ضمن تحالف عسكري نشط لأول مرة في التاريخ. وأمّن غزوه اليمن طريقا بحريا من مصر إلى المحيط الهندي ووجودا عسكريا عثمانيا دائما في بحر العرب. ترك ذلك كله البرتغاليين بلا خيار آخر غير تقبل الواقع الجديد للقوة العثمانية. ولذلك فإن العام 1538 لم يشهد بداية الحرب المفتوحة بين العثمانيين والبرتغاليين فحسب، بل شهد أيضا بداية حقبة الديبلوماسية العثمانية - البرتغالية.

انطلقت المفاوضات المباشرة الأولى بين إسطنبول ولشبونة على يد دوارتي كاتانيو Duarte Cataneo، ذلك النموذج الأولي للرجل الدولي الملغز الذي لايزال ولاؤه ودوافعه الحقيقية عصية على الفهم حتى اليوم، تماما كما كانت في زمنه. كان كاتانيو في الأصل من رعية عثمانية من الجماعة الجنوية ذات الحكم الذاتي في جزيرة خيوس Chios، ومن الواضح أنه عمل إبان العقد الرابع من القرن السادس عشر ضمن الجهاز الاستخباري لسليمان باشا الخادم. وعلى رغم أننا لا نعرف كثيرا حول حياته المبكرة، فإننا نعرف أنه وصل هرمز البرتغالية مع جماعة من التجار في أوائل العام 1538، أي قبل أشهر قليلة من تحرك أسطول سليمان الخادم من السويس إلى الهند، ولدى وصوله طلب التحدث مع السلطات البرتغالية عن مسألة عظيمة الأهمية لدولة الهند[59]. وفي حضرة الحاكم المحلي، قال كاتانيو إنه أُرسِل إلى الهند جاسوسا لجمع المعلومات من أجل حملة سليمان الخادم، لكن ضميره باعتباره مسيحيا مخلصا منعه من القيام بهذه المهمة، وأن غايته الحقيقية هي أن يساعد البرتغاليين في التفاوض مع العثمانيين قبل فوات الأوان. وعلى الرغم من التحفظات الواضحة على صدقه، أرسلته السلطات المحلية سريعا إلى غوا. ومن هناك، رتب نائب الملك المقتنع بنوايا كاتانيو الطيبة إبحاره إلى لشبونة للتحدث مباشرة مع الدوم جواو الثالث[60].

وصل كاتانيو البرتغال في منتصف السنة التالية، بعد وقت قصير من وصول التقارير الأولى إلى لشبونة حول حصار سليمان الخادم لديو وغزوه اليمن. وفي وسط حالة الذعر التي خلقتها هذه الأخبار في البلاط البرتغالي، وجد كاتانيو جمهورا متقبلا لزعمه التلطيفي بأن الهدف «الحقيقي» للسلطان لم يكن تدمير القوة البرتغالية

في آسيا، بل تأمين مصدر موثوق للتوابل لسوقه. ومن خلال تأكيد ثقته الكاملة بإمكانية التوصل إلى اتفاقية تضمن إيقاف الاعتداءات المستقبلية بشروط مواتية للبرتغاليين، أقنع كاتانيو الملك بتعيينه ضمن وفد برتغالي رسمي إلى إسطنبول أُعطي سلطة كبيرة لتأمين هدنة والتفاوض على تسوية دائمة مع العثمانيين[61].

بالنظر إلى أن كاتانيو اعترف صراحة بأنه جاسوس عثماني بَدَّل ولاءه، فليس من المفاجئ أن يأتي دوره على امتداد عملية التفاوض اللاحقة ملتبسا. فمن ناحية، لا يمكن تصديق أن كاتانيو أراد التفاوض بنية حسنة وأنه اعتقد صادقا أنه يمكن التوصل إلى اتفاقية بالشروط التي عرضها على البلاط البرتغالي. ومن ناحية أخرى كانت الشروط التي فوّضه الدوم جواو الثالث بنقلها إلى السلطان - ومن ضمنها تلك التنازلات السرية التي كان كاتانيو سيكشفها، وفق تعليماته، كملاذ أخير - أبعد ما يكون عما يمكن أن يعتبره العثمانيون تسوية جدية. لهذا السبب يبدو محتملا - وربما مرجحا - أن كاتانيو أساء تمثيل الموقف العثماني عن قصد ليضمن لنفسه وظيفة مربحة كسفير، مع استمراره في العمل باعتباره عميلا مزدوجا لمصلحة سليمان الخادم[62].

شمل عرض الدوم جواو الشروط التالية: أن يتخلى العثمانيون عن كل الحقوق في الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، والوعد بعدم إرسال أساطيل مسلحة مرة أخرى إلى المنطقة، وحتى الموافقة على ألا تزيد حامية عدن على العدد الأدنى للقوات اللازمة للحماية المدنية. بينما طلب الدوم جواو لنفسه حقوقا مطلقة في الملاحة والتجارة، منها وصول سفنه من دون قيد إلى البحر الأحمر والترخيص للتجار البرتغاليين بحرية التجارة في عدن وجدة بالشروط ذاتها التي يعمل بها التجار المسلمون. وفي مقابل ذلك كله أعلن الدوم جواو استعداده لتخفيف احتكاره المطلق لتجارة الفلفل بمنح السلطان رخصة شراء حتى ثلاثة آلاف قنطار (نحو مائة وثلاثين طنا متريا) من الفلفل الهندي سنويا. وحتى هذا التنازل كان خاضعا لقيود شديدة، منها اشتراط أن ينقل الفلفل مباشرة إلى البصرة في سفن برتغالية، وموافقة السلطان على عدم السماح بمرور كمية من الفلفل أكبر من هذه الكمية المخصصة عبر أي من موانئه، وإعطاء البرتغاليين الحق في مراقبة مضيق هرمز والبحر الأحمر بأنفسهم لمنع أي تجارة غير شرعية. وكان العثمانيون مطالبين أيضا بالمساعدة في القبض على التجار البرتغاليين المستقلين الذين يحاولون بيع التوابل

في الموانئ العثمانية من دون ترخيص صريح من لشبونة. وأخيرا، طلب الدوم جواو ضمان وصول تجاره إلى أسواق الحبوب العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، وأصر على إصدار تراخيص للسفن البرتغالية لشراء الحبوب من مصر وسورية من دون خوف من هجوم القراصنة العثمانيين[63].

مع أن هذا العرض كان أول ما يقدم من نوعه للسلطان العثماني من البرتغاليين، فقد كان في أغلب بنوده متسقا مع الاتفاقيات التي وقّعتها لشبونة مع الإمارات الواقعة في أنحاء المحيط الهندي كافة خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر، ومن ضمنها المعاهدة التي فُرضت على بهادر، سلطان كجرات، في العام 1535. وبوجه عام، تمثلت الاستراتيجية البرتغالية التي ثبتت فاعليتها في إعطاء الحكام البريين المعادين والخطرين الحق في التجارة بكمية محددة من التوابل والسلع الأخرى. وفي مقابل ذلك كان التاج يطلب اعترافا رسميا بسيادته على التجارة والملاحة البحريتين، والتعهد بالتعاون في فرض احتكار التوابل الملكي. من الواضح أن الدوم جواو أراد أن يضم العثمانيين بطريقة أو بأخرى لهذا النظام القائم.

لكن الدوم جواو بذلك أبدى استعداده للتخلي عن واحد على الأقل من أسس الديبلوماسية البرتغالية في المحيط الهندي، هو العداوة الراسخة لأي قوة إسلامية تسيطر على مصر والبحر الأحمر. كان ذلك في حد ذاته تنازلا كبيرا؛ لأن البرتغاليين ظلوا يعتبرون مشروعهم الإمبريالي حملة صليبية، ويصرون على أن الهدف النهائي من عملياتهم في جزر الهند الشرقية كان غزو مصر وتحرير الأرض المقدسة من الحكم الإسلامي. وعلى ذلك، فحتى لو بدت الشروط المحددة في عرض الدوم جواو على العثمانيين متصلبة، فإن العرض في ذاته كان بلا ريب - بالنسبة إلى البرتغاليين على الأقل - قطيعة جذرية مع الماضي. كان التاج البرتغالي بذلك يتواءم، ولو على نحو متردد، مع الواقع الجديد للقوة العثمانية في عالم ما بعد العام 1538. ومن خلال إعطاء السلطان الحق في الوصول إلى الفلفل البرتغالي والاعتراف الواقعي بالسيادة البرية العثمانية على مصر واليمن، أراد الدوم جواو أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من المزاعم البرتغالية بالسيادة على البحر.

في ضوء هذه الخلفية، يستحق العرض العثماني المضاد على الدوم جواو، الذي عاد به كاتانيو إلى لشبونة في صيف العام 1540، انتباها خاصا لأنه أقدم مصدر

تاريخي باقٍ يعلن فيه العثمانيون صراحة طموحاتهم في المحيط الهندي. يتمثل أحد العناصر المفاجئة حقا في هذا العرض في كشفه أن العثمانيين فكروا جديا في بعض جوانب عرض الدوم جواو على الأقل. وافق السلطان مثلا على منح التجار البرتغاليين في المحيط الهندي حق التجارة في الموانئ العثمانية، ووافق أيضا - من حيث المبدأ - على تحديد واردات الفلفل العثمانية من الهند بكمية محددة سلفا، شريطة أن ترفع هذه الحصة من ثلاثة آلاف قنطار إلى رقم أعلى قليلا، وهو أربعة آلاف قنطار سنويا. ومن اللافت للانتباه أن السلطان أصر على ألا ينقل هذا الفلفل في سفن برتغالية من غوا، بل في سفن إسلامية من ميناء كاليكوت المستقل. وبالمثل، على رغم أن السلطان وافق على السماح بمنح البرتغاليين حق الوصول إلى أسواق الحبوب العثمانية في مصر، فقد اشترط أن يحدث ذلك بطريقة غير مباشرة، أي من خلال وسطاء فرنسيين وبنادقة مرخصين، بدلا من السماح للبرتغاليين بشراء الحبوب بأنفسهم ونقلها بسفنهم[64].

يمكننا أن نفطن، وراء كل هذه البنود، إلى إشارات على تبلور استراتيجية عثمانية جديدة لم تركز على احتكار الفلفل البرتغالي تحديدا، بل بالأحرى على المشكلة الأوسع المتمثلة في هيمنة البرتغال على التجارة البحرية في المحيط الهندي. تتكشّف هذه الاستراتيجية الجديدة بوضوح في استعداد السلطان الواضح لقبول القيود التي اشترطها البرتغاليون على واردات الفلفل، في مقابل رفضه المطلق للسماح بأن يكون توريدها مسؤولية السفن البرتغالية. ومما لا يقل عن ذلك كشفا تلك الإشارات إلى أن السلطان عندما يتعامل مع مشكلة الهيمنة التجارية البرتغالية، فإنه لا يفعل ذلك دفاعا عن مصالحه، بل يفعله باعتباره حاميا وراعيا لحقوق التجار المسلمين في كل مكان. فبعد أن أصر مثلا على أن يُنقل فلفله في سفن إسلامية، ذهب السلطان أبعد من ذلك إلى طلب «الحق لمسلمي الهند في حرية التجارة في القماش الأبيض والتوابل وغيرها من سلع تلك البلاد»، وطلب أن يتعهد البرتغاليون صراحة بأن «يظهروا العطف والاحترام لكل المسلمين الذين يريدون التجارة بسلام» في أي منطقة خاضعة للبرتغاليين. في حين رفض السلطان رفضا قاطعا المزاعم البرتغالية بالسيادة البحرية بأن منع تجول دوريات برتغالية حرة قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية. وبدلا من ذلك دعا السلطان إلى رسم خط تقسيم عبر البحر بين شبه الجزيرة العربية وزيلع

على ساحل شرق أفريقيا، وأن يكون هذا الخط حدودا بحرية بين الدولتين، وأن يوافق الطرفان على عدم عبورها بأساطيل مسلحة من أي نوع[65].

لم يكن واردا أن يقبل البرتغاليون هذا العرض المضاد بأي حال من الأحوال؛ لأن منح التجار المسلمين الحق في حرية التجارة يقوّض الأساس الذي قام عليه نظامهم للسيطرة على تجارة آسيا البحرية. ولعل ما أزعج البرتغاليين أكثر من ذلك هو الطلب العثماني برسم خط تقسيم للبحر؛ إذ رأى البرتغاليون، وهم محقون في رأيهم، أن ذلك يشكل تحديا مباشرا لزعمهم بالسيطرة الحصرية على الملاحة المحيطية. وبذلك انتهت الجولة الأولى من المفاوضات بين لشبونة وإسطنبول باعتراف متجهم من الجانبين بصعوبة التوفيق بين الاختلافات بينهما. وعلى الرغم من بعض الإشارات المشجعة إلى أن تسوية للمسألة المحددة المتعلقة بواردات الفلفل كانت ممكنة، فإن الشقة بين العثمانيين والبرتغاليين كانت شاسعة فيما يتعلق بالمسألتين الكبيرتين: حرية التجارة والسيادة البحرية.

في عالم ما بعد العام 1538، شكلت هاتان المسألتان أهمية وجودية لدولة الهند. ومع تلاشي فرصة التوصل إلى تسوية مقبولة، لم يعد أمام البرتغاليين خيار آخر غير استئناف الأعمال العدوانية. وبغرض توجيه ضربة مفاجئة للعثمانيين قبل أن يوطدوا مكاسبهم، قاد نائب الملك البرتغالي إستيفو دا غاما Estevao da Gama في العام 1541 هجوما مضادا مستميتا على المواقع العثمانية في البحر الأحمر.

الحملة البرتغالية على السويس في العام 1541

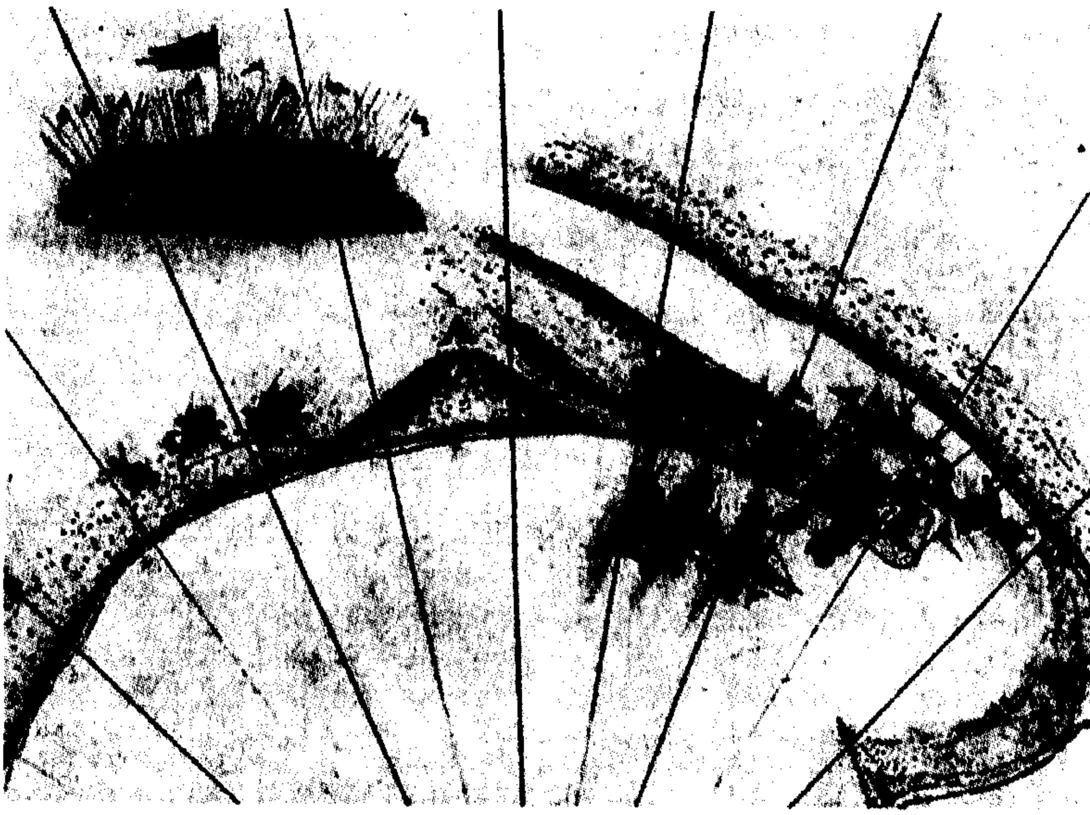
مع أن الأسطول الذي قاده إستيفو دا غاما في العام 1541 لا يضاهي حجم أسطول سليمان باشا الخادم في العام 1538، فإنه يظل أكبر أسطول جمعه البرتغاليون على الإطلاق؛ إذ شمل أكثر من أربعين سفينة كبيرة وصغيرة ونحو ألفين وثلاثمائة رجل. وقد أراد نائب الملك بهذه القوة الكبيرة أن يبحر عبر المحيط الهندي ويتوغل عميقا داخل البحر الأحمر. وكان الهدف النهائي لإستيفو دا غاما، إلى جانب الإغارة على المستوطنات الساحلية على طول الطريق، هو الهجوم على القاعدة البحرية العثمانية الرئيسة في السويس التي أراد أن يحرق الأسطول الإمبراطوري فيها ويدمر الترسانة وحوض بناء السفن نهائيا.

لو نجح إستيفو دا غاما في بلوغ ذلك الهدف، لوجد العثمانيون أنفسهم مرغمين على إعادة تقييم مزاعمهم الجديدة في المحيط الهندي، وربما إعادة النظر في عرض السلام الذي قدمه الدوم جواو قبل عامين[66]. لكن تتفق كل الروايات المعاصرة على أن قائمة التحديات التي واجهت الحملة البرتغالية كانت هائلة، ما جعل نجاحها مستبعدا سلفا: فأولا، لم يتوغل البرتغاليون من قبل بهذا العمق في البحر الأحمر؛ ما جعل هذا البحر غير مألوف لهم بعوائقه الطبيعية الرهيبة للملاحة التي تراوحت من الرياح غير المواتية والأحياد البحرية الغادرة إلى قلة الماء العذب والحرارة الشديدة. كما اعتمد نجاح الحملة البرتغالية على عنصر المفاجأة، وهو مطلب كان يستحيل تحقيقه بالنظر إلى حجم أسطولهم وشبكة الاستخبارات العثمانية في المنطقة. وحتى قبل أن يبحروا، علموا أن خوجة صفر في سورت قد أحيط علما بتحضيراتهم وأنه كان يحاول أن ينقل للعثمانيين تفاصيل خطة هجوم دا غاما[67].

تفاقمت هذه المشكلات بمجرد أن وصلت قوات دا غاما البحر الأحمر في أواخر يناير 1541. فبعد أن توجه أولا إلى ميناء مصوع الإثيوبي التالي لباب المندب مباشرة، أدرك نائب الملك أن أسطوله كان كبيرا وثقيلا على المهمة الموكلة به؛ فقسمه إلى نصفين: إذ ترك السفن الشراعية الأكبر وألفا من رجاله في مصوع تحت إمرة قريب له، هو مانويل دا غاما Manuel da Gama، وواصل إستيفو الإبحار شمالا نحو السويس بالسفن الشراعية الأصغر والكثير من السفن ذات المجاديف. وفي الطريق اضطرت هذه القوة المخفضة إلى أن تتوقف مرة أخرى بسبب قلة المؤن وأن تغير على ميناء سواكن، وهو القرار الذي ندم عليه دا غاما لاحقا لأن هذا الاشتباك أخّر تقدمه وأعطى الحامية العثمانية المحلية فرصة لإرسال تحذير للسلطات في مصر.

ومع تزايد بطء تقدم الأسطول بسبب الرياح المعاكسة خلال الإبحار المنهك إلى الشمال، بدأت معاناة الطاقم تتفاقم بسبب الحرارة وقلة الماء العذب. وبحلول نهاية مارس ازداد الموقف سوءا، ما اضطر دا غاما إلى تقسيم أسطوله ثانية وإعادة معظم قواته المتبقية إلى مصوع والتقدم إلى السويس بست عشرة سفينة فقط من السفن الأخف، وطاقم ناحل يضم أقل من مائتين وخمسين رجلا وصلوا إلى الترسانة ذات الحراسة المشددة في السويس في أواخر أبريل، لكنهم لم يكونوا مستعدين للهجوم إطلاقا؛ إذ وجدوا الميناء محصنا ببطارية قوية من المدافع وما لا يقل عن ألفين من

الفرسان العثمانيين. وعندما استُقبلوا بوابل ثقيل من نيران المدافع، ولأن المدافعين كانوا يفوقونهم عددا بنحو عشرة إلى واحد، لم يجد إستيفو دا غاما بديلا من الدعوة إلى انسحاب سريع حتى من دون أن يحاول الرسو على الشاطئ (الشكل 3 - 3)[68].



الشكل (3 - 3) ثلاثة قوادس برتغالية تتبادل النيران مع العثمانيين أمام أسوار السويس، بينما تنتظر في الخلفية فرقة كبيرة من فرسان السباهية(*). المصدر: Joao de Castro, Roteiro que fez Dom Joao de Castro da viajem que fezeram os Portugueses desde India ate Soez, University of Minnesota James Ford Bell Library, Minneapolis, Ms. 1541 fCa, fol. 81b.

أمضى البرتغاليون شهرا مضنيا آخر للعودة إلى مصوع، واستمرت الخسائر في صفوفهم تحت شمس مايو المحرقة، ولم يكادوا يصلون إلى مصوع حتى وجدوا الحال هناك لا تقل خطرا عما تركوه في السويس، إذ وجدوا أن مناخ الميناء غير الصحي والنقص الحاد في المؤن قد أوقعا خسائر فادحة في من تركوهم خلفهم في مصوع، ودفع احتمال المجاعة أكثر من مائة جندي منهم إلى التمرد. وبعد أن هدد المتمردون بقتل قائدهم الكابتن مانويل دا غاما عندما حاول مقاومتهم، فروا إلى

(*) سباهي Sipahi كلمة من أصل فارسي تعني «جندياً»، أطلقها العثمانيون على سلاح الفرسان، كان منهم نوعان أساسيان: سباهية التيمار TimarlI Sipahi وهم فرسان أقطعهم العثمانيون أراضي زراعية (تيمار) معفاة من الضرائب في الولايات في مقابل الدفاع عنها، وسباهية قابي قولو KapIkulu Sipahi («فرسان الباب» أو «عبيد العتبة العالية»)، وهم فرسان الجيش العثماني الذين كانوا يتقاضون رواتب. [المترجم].

المنطقة الداخلية المهجورة، وهناك أحاطت بهم سريعا جماعة من رجال القبائل المحليين وذبحوهم حتى آخر رجل. وكان المتبقون في مصوع على حافة الموت بسبب قسوة الطبيعة، لولا وصول القليل من المؤن من إمبراطور إثيوبيا.

في هذه الظروف، وتحت ضغط شديد من قسوة الطبيعة وجنوده المتمردين، أمر نائب الملك بالانسحاب العاجل إلى غوا. لكن حتى رحلة العودة لم تجلب الفرج للقوة البرتغالية المحاصَرة؛ إذ تعرض عدد من سفن الأسطول الأصغر لعاصفة وابتلعها البحر بكل من عليها[69]. وبذلك انتهت حملة إستيفو دا غاما بفشل ذريع؛ إذ ماتت أعداد كبيرة من الرجال، وأُهدرت موارد، وصار موقف العثمانيين في المنطقة أكثر أمنا من أي وقت مضى. فخرج عدد من المشاركين في الحملة (منهم نائب الملك المستقبلي جواو دي كاسترو) من تلك التجربة على اقتناع بأن الترسانة العثمانية في السويس كانت «منيعة» ولا يمكن أن تكون هدفا واقعيا لهجمات برتغالية مستقبلية[70].

وحده الملك القابع في لشبونة البعيدة التي لم تكن لدى السلطات فيها معلومات مُحَدَّثة من الجبهة، كان لايزال يعول على نصر برتغالي. وتحسبا لضعف موقف العثمانيين بعد الضربة الناجحة للسويس - كما استبق الملك الأحداث - بعث الملك سفارة ثانية إلى إسطنبول تعيد عرض شروطه لمعاهدة السلام. وفي ضربة سخرية أخيرة لكبرياء دا غاما الجريح، وجد بانتظاره لدى عودته المخزية إلى غوا أمرا سبق أن أصدره الملك بعدم إرسال سفن أخرى إلى جنوب شبه الجزيرة العربية أو القيام بأي أعمال عدوانية ضد العثمانيين حتى يكمل مبعوثو التاج المفاوضات مع السلطان[71].

كان من سوء حظ البرتغاليين أن النتيجة الكارثية لمغامرة البحر الأحمر لم تكن العائق الوحيد لمناخ تفاوض أفضل مع العثمانيين، إذ كان مما أضر قضيتهم بالقدر نفسه أن سليمان باشا الخادم كان قد وصل خلال السنوات الفاصلة إلى ذرى جديدة من النفوذ الشخصي داخل البلاط العثماني. فقد رُقي الرجل لمنصب الوزير الثاني لدى عودته إلى إسطنبول في العام 1539، ثم رُقي لاحقا إلى الصدارة العظمى في مايو 1541، بعد أسابيع من التكشُّف النهائي لهجوم دا غاما الفاشل على السويس[72]، ومن المتوقع أن رده الوحيد على السفارة البرتغالية التي وصلت إلى إسطنبول في

ذلك الصيف كان تكرار الشروط غير المقبولة ذاتها التي عرضت على دوارتي كاتانيو في العام 1540[73].

الحرب تتسع إلى القرن الأفريقي

في حين عاد إستيفو دا غاما وأسطوله المهزوم إلى غوا وهم يلعقون جراحهم، تواصلت الحرب بالوكالة بين أتباع العثمانيين والبرتغاليين في القرن الأفريقي. وهنا بدأ أمير زيلع المقتدر والطموح أحمد غري المجاهد في نحو العام 1527 ببناء تحالف كبير من القوى الإسلامية تحت قيادته واجتياح البلاد التابعة للإمبراطور المسيحي ليبنا دينقل «نجاشي» إثيوبيا[*][74]. وبحلول منتصف العقد الرابع من القرن السادس عشر، كان أحمد غري قد حقق - جزئيا بفضل الإمداد المستمر بالأسلحة النارية والمدفعية من البلاد العثمانية - سلسلة من الانتصارات الرائعة على الإثيوبيين، وصار قاب قوسين أو أدنى من انتزاع مكانة الحاكم الإقليمي الأقوى من ليبنا دينقل[75]. وفي العام 1538 عزز أحمد قوته بإعلان دعمه لسليمان باشا الخادم عندما كان الأسطول العثماني في طريقه إلى الهند، وهو ما كافأه عليه الباشا لدى عودته من الهند بحمولة من الأسلحة النارية وفرقة من مائتي مسكتي عثماني محنك من اليمن[76]، أكسبت الأمير ميزة عسكرية حاسمة على منافسيه الإثيوبيين. وخلال بضعة أشهر قتلت قواته أحد أبناء ليبنا دينقل في المعركة، وأسرت آخر، ونهبت المعقل الملكي في أمبا غيشن الذي كان ملوك إثيوبيا يحتفظون فيه بالثروة المتراكمة من دون مساس منذ قرون[**][77]. واضطر ليبنا دينقل إلى الفرار، ولم تعد معه أي قوة، وأخذت ولاية بعد أخرى من إمبراطوريته تؤول إلى أمير زيلع المظفر.

عند هذه النقطة، اتخذت الأحداث في القرن الأفريقي منعطفا شبيها بما حدث في كجرات قبل بضع سنوات بعد هزيمة السلطان بهادر في ساحة المعركة أمام المُغال

(*) يُعرَف ليبنا دينقل Lebna Dengel (حكم 1508 - 1540) أيضا باسم دوايت الثاني Dawit II وباللقب واناغ سجد Wanag Segad الذي يعني «من تسجد له الأسود». [المترجم].

(**) أمبا غيشن Amba Geshen جبل في شمال إثيوبيا كان يستخدم - إلى جانب جبلين آخرين - كمعقل يسجن فيه ورثة الإمبراطور إلى أن يموت. ولكون هذا الجبل قلعة طبيعية، فإنهم كانوا يحتفظون فيه بالكنوز الإمبراطورية. وفق كتاب «فتوح الحبشة» لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبدالقادر بن سالم بن عثمان، نفذ أحمد غري ثلاث محاولات (في الأعوام 1531، 1533، 1540) للاستيلاء على القلعة، وتمكن من فتحها في المحاولة الثالثة. [المترجم].

في العام 1535. فمثلما اضطر بهادر الذي كان محاصرا بين «المُغال على البر والكفار في البحر» إلى طلب العون الخارجي من العثمانيين للحفاظ على عرشه، قصد ليبنا دينقل البرتغاليين الذين كانوا حينها القوة الوحيدة القادرة على إنقاذه من الجيوش الإسلامية المتقدمة ومن ميزتهم الفائقة في الأسلحة النارية. ومن خلال وساطة رجل الدين البرتغالي جواو بيرموديث Joao Bermudez الذي عمل مستشارا للبلاط الإثيوبي - وهو أيضا تماثل مذهل مع الدور الذي لعبه خوجه صفر في كجرات - أرسل ليبنا دينقل سفارة إلى لشبونة عرضت الاعتراف بالسلطة الإكليروسية للبابا في مقابل العون العسكري ضد أحمد غري[78].

قَبِل البرتغاليون العرض وأسرعوا لاتخاذ خطوات ملموسة لتنفيذ وعدهم بدعم الإمبراطور. وقد كان من الأهداف الثانوية لحملة إستيفو دا غاما على البحر الأحمر في العام 1541 إنزال قوات في مصوع لكي تلتقي مع ليبنا دينقل في الداخل الإثيوبي. لكن في تماثل مذهل آخر مع جهود السلطان بهادر للتحالف مع العثمانيين، مات ليبنا دينقل على سرير المرض في العام 1540 قبل أن تصله أي مساعدة برتغالية. ومع ذلك، أرسل إستيفو دا غاما فرقة من أربعمائة مسكتي برتغالي بإمرة أخيه الأصغر كريستوفو دا غاما Christovao da Gama من مصوع في العام 1541، وصلوا جميعا في نهاية السنة إلى بلاط غلاوديوس Glawdewos ابن ليبنا دينقل وخليفته.

بالنسبة إلى البرتغاليين، كان هذا الانتصار الصغير النتيجة الإيجابية الوحيدة لحملة إستيفو دا غاما في العام 1541 التي كانت نتائجها كارثية في كل ما عدا ذلك. لكن وصول هذه الفرقة من المشاة البرتغاليين للبلاط الإثيوبي أسهم في تصعيد النزاع في المنطقة. فلا ريب أن سليمان الخادم ما كان ليسمح بتقويض المكاسب التي حققها حليفه أحمد غري، وأعلن في مفاوضاته مع البرتغاليين أنه يعتبر أن منطقة القرن الأفريقي تقع ضمن دائرة النفوذ العثمانية. ولم يكن أحمد غري، الذي اعتمد نجاحه المتواصل على الوصول إلى الأسلحة والخبرة العسكرية العثمانيتين، أقل حرصا من الخادم على تعميق علاقته مع إسطنبول بغرض توطيد مكاسبه في المرتفعات الإثيوبية. وبناء على طلب أحمد، أرسل سليمان باشا الخادم - خلال بضعة أسابيع من وصول فرقة المدفعية البرتغالية إلى

إثيوبيا - أسطولا من اثنتي عشرة سفينة عثمانية من السويس أنزلت تسعمائة مسكتي وعشرة خبراء مدفعية في الميناء الأفريقي بيلول Beylul في أغسطس 1541 [79]. وفي المقابل، وافق أحمد غري على الاعتراف بالسيادة العثمانية رسميا ودفْع مائة ألف أوقة(*) من الذهب للسلطان وإرسال إتاوة سنوية قدرها ألفا أوقة ذهبية أخرى إلى حاكم زبيد العثماني مصطفى النشار[80].

بدأ أحمد غري فورا في حصاد ثمار هذا التحالف المقوّى؛ إذ تمكن خلال السنة التالية من تحقيق سلسلة من الانتصارات الكبيرة على القوات الإثيوبية والبرتغالية المشتركة. وفي النهاية، واجهت قواته والقوات المساعدة العثمانية القوة الكاملة لجيش الإمبراطور غلاوديوس الذي أعيد بناؤه وفرقة الأربعمائة مسكتي برتغالي بقيادة كريستوفو دا غاما، في معركة ضارية في وفلة Wofla في الثامن والعشرين من أغسطس 1542 وهي التي انتهت بنصر كاسح لأحمد غري والعثمانيين، وانهيار خطوط الدفاع الإثيوبية، ومقتل مائتي برتغالي، ووقوع كريستوفو دا غاما وعدد من رجاله في الأسر[81].

لكن في لحظة الانتصار ذاتها، وفي تماثل أخير مع الأحداث التي وقعت في كجرات، نشأ نزاع بين أحمد غري والمسكتيين العثمانيين المتحالفين معه على كيفية التعامل مع البرتغاليين الذين أُسروا في المعركة؛ إذ أراد العثمانيون أن يستخدموهم ورقة ضغط في مفاوضاتهم المتواصلة مع لشبونة، وطلبوا تسليمهم بلا أذى لرعاية المسؤولين العثمانيين الإقليميين في اليمن. لكن أحمد غري رفض هذا الطلب، وذبح دا غاما بيده بعد ساعات من أسره. أغضب ذلك القائد العثماني ومعظم قواته الذين تخلوا عن أحمد وعادوا إلى اليمن آخذين معهم رأس دا غاما المقطوع واثني عشر أسيرا برتغاليا كانوا لايزالون على قيد الحياة[82]. حال هذا الرحيل دون أن يستفيد أحمد غري من انتصاره؛ إذ أعطى ذلك الإثيوبيين والمائة وعشرين برتغاليا المتبقين الفرصة لإعادة التجمع. وبعد

(*) الأوقة Okka (تُكتب أيضا بالحروف اللاتينية Oka وOke وUqqa): هي الشكل العثماني للكلمة العربية «أوقية» (تكتب بالحروف اللاتينية Awqiyyah أو Uqiyya)، وهي وحدة وزن تاريخية استخدمت في مصر والشام واليونان وجزر شرق المتوسط، اختلف وزنها من بلد إلى آخر ومن موزون إلى آخر. لاتزال كلمة «أوقية» تستخدم في مصر مع الذهب فقط، ولاتزال تستخدم في تركيا باسم «الأوقة القديمة» eski Okka ويعرفون الكيلوغرام باسم «الأوقية الجديدة» yeni okka، لكن ألغي استخدامها في اليونان وقبرص وبلدان أخرى. [المترجم].

سنة، شنوا هجوما مضادا ناجحا في معركة واينا داغا Wayna Daga قُتل فيه أحمد غري[83].

مع الوقت، أعادت جيوش زيلع التجمع مرة أخرى بزعامة عباس ابن أخي أحمد. لكن في غياب مستوى الدعم من العثمانيين الذي تمتع به عمه، أثبت عباس عجزه عن توسيع سيطرته أبعد من السهول الساحلية المحيطة بزيلع. وبهذه النهاية، انتهى النزاع الدامي في القرن الأفريقي بنصر محدود لغلاوديوس الذي تمكن من الحفاظ على عرشه والحفاظ على الحكم المسيحي في المرتفعات الإثيوبية. لكن على المستوى الدولي، كانت اليد العليا للعثمانيين الذين منعوا البرتغاليين من نيل وجود عسكري دائم في إثيوبيا. فمع مقتل كريستوفو دا غاما وأسر معظم رجاله أو قتلهم، أحجم البرتغاليون منذ ذلك الحين عن التوسع العسكري في المنطقة[84]. صحيح أن تبادلا إكليروسيا وتجاريا محدودا بين إثيوبيا ولشبونة تواصل خلال السنوات التالية، لكن غلاوديوس لم يكن يتوقع أي عون عسكري من البرتغاليين. وبذلك أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية.

المد المتصاعد للنفوذ التجاري العثماني

كان نجاح العثمانيين في وأد المغامرة البرتغالية في إثيوبيا مؤشرا إلى تصاعد حظوظ الإمبراطورية في أنحاء المحيط الهندي كافة؛ إذ كان توطيد القوة العثمانية إيذانا بالبدء في جني عدد من المكاسب الملموسة أبعد من حدود البحر الأحمر. تجلى هذا الاتجاه في أوضح صوره في المجال التجاري؛ إذ شهدت السنوات الأولى من العقد الخامس من القرن السادس عشر زيادة غير مسبوقة في نشاطات التجار العثمانيين عبر شقة واسعة من المحيط الهندي[85]. من ذلك أن المؤرخ البرتغالي غسبار كوريا Gaspar Correia سجل في العام 1542 أن العثمانيين عينوا وكيلا دائما (ممثلا تجاريا) في ميناء مصوع الأفريقي الذي احتله إستيفو دا غاما فترة قصيرة قبل بضعة أشهر[86]. وفي السنة نفسها، شوهدت ثماني سفن عثمانية حول جزر مصيرة الواقعة قبالة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، ولوحظ حضور متزايد للتجار العثمانيين حتى في هرمز الخاضعة للبرتغاليين[87].

وفي نحو الوقت نفسه تقريبا كتب كابتن موزمبيق البرتغالي لبلاده عن تدمير أسطوله سفينة عثمانية ضُبطت تتاجر في مقديشو، وتذمر الكابتن من وجود السفن العثمانية على طول الساحل السواحلي[88]. وفي العام 1545، حذّر نائب الملك البرتغالي الجديد جواو دي كاسترو من أن تجارا من الإمبراطورية العثمانية بدأوا يظهرون حتى في مراكز تجارية بعيدة مثل بيغو والبنغال(*)[89].

أسهمت هذه الأدلة المتزايدة على الهيمنة التجارية العثمانية في تقويض ثقة البرتغاليين إلى حد أن نائب الملك نظم في العام 1545 مجلسا كبيرا غير مسبوق دعا إليه كل كبار المسؤولين في المنطقة لمناقشة إمكانية التخلي من طرف واحد عن حصار البحر الأحمر لمصلحة سياسة التجارة الحرة في أنحاء المحيط الهندي كلها[90]. ومع أن النتيجة النهائية لمداولات هذا المجلس كانت إعادة تأكيد الوضع الراهن، فإن عقد المجلس في ذاته كان - في أعقاب المكاسب العثمانية - مؤشرا على مدى تغير المشهد السياسي والاقتصادي للمحيط الهندي منذ حملة سليمان باشا الخادم على ديو في العام 1538.

لا يقاس مدى هذا التغير بتآكل ثقة البرتغاليين في أنفسهم فقط، بل أيضا بتصاعد مقابل في طموحات العثمانيين التي كشفت عن نفسها جلية في الأسماء الفخمة الجديدة التي بدأ المسؤولون الإمبرياليون في المنطقة باستخدامها. من ذلك مثلا أن سليمان باشا الخادم غيّر اسم الأسطول العثماني المتمركز في السويس من أسطول البحر الأحمر Bahr - i Ahmer Filosu أو أسطول السويس Suveys Filosu، كما كان يعرف منذ العقد الثالث من القرن السادس عشر، إلى الاسم الفخم: أسطول الهند hind Donanmasi[91]. وفي الاتجاه عينه، تحول لقب القائد البحري المسؤول عن هذا الأسطول من قبطان مصر Misir Kapatani إلى قبودان الهند Kapudan - I Hind (أمير بحر جزر الهند الشرقية)[92]. وسرعان ما أفسحت هذه التغيرات الدلالية الطريق لتعبيرات

(*) بيغو Pegu (حاليا Pago) مدينة في بورما (ميانمار حاليا) الدنيا على خليج البنغال، شاركت في تجارة ملقا وخليج البنغال، وكانت عاصمة لمملكة المون Mon التي تأسست في العام 1356، ثم عاصمة لإمبراطورية بورمية قصيرة العمر إلى أن سقطت أمام تحالف بين حاكم تونغنغو وملك أراكان اللذين جاءا على رأس قوة من المرتزقة البرتغاليين نهبوا المدينة وأحرقوها عن بكرة أبيها في العام 1599، ثم استعادتها إمبراطورية بورمية لاحقا، لكن نقلت العاصمة منها إلى مدينة آفا Ava الداخلية. راجع كتاب «القوة والوفرة». [المترجم].

مادية عن تنامي القوة العثمانية، مع أن سليمان باشا الخادم لم يبقَ في المنصب طويلا لكي يشرف عليها.

إبعاد سليمان الخادم عن السلطة والهجوم العثماني في العام 1546

انتهت مدة سليمان باشا الخادم في الصدارة العظمى (ثلاث سنوات) بفضيحة في نوفمبر 1544 ومات بعدها بقليل. كان السبب المباشر لصرفه عن الخدمة بضعة اتهامات أثارها منافسوه السياسيون في البلاط بصنوف من التلاعب المالي خلال ولايته لمصر، شملت مزاعم بأنه أساء استخدام الأموال الحكومية المخصصة للأسطول العثماني في السويس، واستولى على جزء من خزانة السلطان بهادر الضخمة بشكل غير شرعي[93]. وبالنظر إلى الخط المكيافيللي الواضح للباشا، يبدو أن هناك ما يبرر الاعتقاد بأن هذه الاتهامات لم تكن بلا أساس. لكن بغض النظر عن صحة اتهامه بسوء التصرف أو بطلانه، ربما كان استحواذ المحيط الهندي على اهتمام سليمان الخادم في ذاته أحد الأسباب المهمة لسقوطه النهائي. فقد سئم أصحاب النفوذ العثمانيون الآخرون، إلى جانب قواعد إسنادهم في المناطق الأخرى من الإمبراطورية، من الاستثمار الضخم في مسرح المحيط الهندي، وكانوا في العام 1544 جاهزين للإطاحة بالباشا المسن والقاسي، وتوجيه الإمبراطورية إلى اتجاه آخر أكثر مواتاة لمصالحهم.

كان لهذا التغير في القيادة نتائج بالغة الأهمية على الاستكشاف العثماني على مدار السنوات التالية. لكن على المدى الفوري، خفف من تأثير استبعاد سليمان الخادم أن المناصب الإدارية والبحرية والعسكرية العليا في المناطق التخومية في مصر واليمن والحجاز وحتى العراق ظل يشغلها رجال سليمان ومن عيّنهم الرجل في مناصبهم. لذلك شهدت السياسة العثمانية خلال السنوات التالية مباشرة لإبعاد الباشا من الصدارة العظمى استمرارية واضحة لفترة نفوذه الأقوى، تجلت في أن رجاله وحلفاءه كانوا في العام 1546 جاهزين لشن جولة جديدة من الهجمات على البرتغاليين برا وبحرا. وربما استفاد هذا الهجوم الجديد في بعض الجوانب من غياب الباشا؛ إذ مكّن العثمانيين من التنسيق الناجع مع دائرة أوسع من الحلفاء المسلمين الذين نفرتهم في السابق ديبلوماسية سليمان الخادم الخشنة.

ظل خوجه صفر - تماما كما كان في العام 1538 - أهم المتعاونين مع العثمانيين، ولم يزل وقتها حاكما لميناء سورت الكجراتي، ولم تزل لديه الرغبة في فعل كل ما في وسعه لاسترداد ديو من البرتغاليين. ومع وصول أخبار إبعاد سليمان الخادم التي مهدت الطريق لإعادة توجيه السياسة الكجراتية، تمكن صفر من إقناع سيده السلطان محمود الثالث بضرورة استئناف الهجوم على ديو[94]. احتفظ خوجه صفر خلال هذه السنوات باتصال دائم مع العثمانيين من خلال قريبه مصطفى النشار حاكم زبيد اليمنية حتى العام 1545 الذي كان - مثل صفر - أحد المحاربين في حملة العام 1538.

بدأت العمليات عندما وافق مصطفى النشار بإلحاح من خوجه صفر على إرسال حمولة من المدفعية وخمسمائة انكشاري إلى ديو مباشرة من قاعدة المخا العثمانية[95]. وبينما كانت جيوش السلطان محمود وخوجه صفر تطوّق المدينة، نجحت هذه القوة العثمانية في دخول ميناء ديو دخولا مثيرا في الثامن عشر من أبريل 1546 «ملوّحةً بالأعلام التركية ومطلقةً وابلا عظيما من نيران المسكتات وكاشفة عن كل الأبهة الغريبة والمتعجرفة المعهودة في هذه الأمة الهمجية» بتعبير ديوغو دو كوتو[96]. بدأ الحصار في اليوم نفسه، ومع انتشار أخبار اندلاع الأعمال العدوانية، بدأ التجار المسلمون على طول ساحل الهند يرفضون التجارة مع البرتغاليين تحسبا لانتصار سريع لخوجه صفر وحلفائه[97].

لكن هذه الثقة أثبتت أنها في غير محلها؛ إذ تحول الحصار الثاني لديو إلى صراع أطول وأشد دموية من حصارها الأول، واستعر القتال أشهرا وارتفعت الإصابات في الجانبين إلى مستويات شنيعة. وقُتل خوجه صفر في ساحة المعركة في قصف مدفعي، تماما كما حدث مع كثير من كبار الضباط على الجانب البرتغالي، منهم ابن نائب الملك[98]. وقد وصف مؤلف كتاب «تاريخ كجرات باللغة العربية» الموقف بهذه الصراحة: «ثم عملت المدافع في القلعة، وهلك منها أكثر أهلها، واعتل بالعفونة أكثر من بقي»(*)[99]. ومع طول أمد الحصار، تمكن خبراء الألغام المسلمون من خرق

(*) بعد هذا الاقتباس يصف مؤلف كتاب «ظفر الواله بمظفر وآله» استشهاد خوجه صفر على هذا النحو: «وخداوند خان لايزال يبني مترسا حجريا، ويضرب بمدافعه، ويزيل الفرنج عن وجهه من القلعة، ويتقدم ويبني ويضرب ويزيل ويتقدم، إلى أن كاد يبطل عمل مدافع القلعة للقرب منها. وبينما هو يوما جالس في ظل مترس، أحس به أهل البرج، فحرر التوبجي المدفع ورماه، فأصاب حجرا عند المترس، فتطايرت قطعه، ومنها قطعة أصابت رأسه، فبلغ الشهادة مع الإصابة له فإنا لله وإنا إليه راجعون». [المترجم].

أسوار ديو في عدة أماكن، وتمكنت أعداد صغيرة من الرجال من اختراق القلعة وقتا قصيرا. ومع وصول الجانبين إلى حد الإنهاك، لم ينقذ البرتغاليين في النهاية غير وصول أسطول إغاثة من غوا في الدقيقة الأخيرة. وبذلك كان الفشل مآل الحصار الثاني لديو، تماما كما حدث مع حصارها الأول[100].

كانت الهزيمة ضربة ساحقة للنخبة الرومية في كجرات، تضاعف تأثيرها المدمر بخسارة زعيمهم خوجه صفر. وبينما كانت جثة عبد القادس السابق الذي صار حاكما - خوجه صفر - لاتزال ممدة في ساحة المعركة(*)، حل محله ابنه رجب Rajab الذي أعطي لقب خان الرومي Rumi Khan وأصبح الزعيم الجديد لجماعة الرومي الكجراتية خلفا لأبيه[101]. حافظ ذلك على سلامة العصبة الموالية للعثمانيين في كجرات. على أن جماعة أخرى لم تستثمر بالقدر الذي استثمره الروميون خلال الحصار، أو تكبدت ما تكبدوه من خسائر جسيمة. وكانت هزيمتهم الكبرى الثانية خلال ثماني سنوات مريرة وحاسمة، ولذلك لم يبذل الروميون الكجراتيون محاولة أخرى مباشرة لتحدي السيطرة البرتغالية على ديو.

أما من المنظور الإمبريالي العثماني، فإن الموقف لم يكن بهذا السوء؛ لأن الحصار حتى مع فشله أدى خدمة للعثمانيين. فمع أن البرتغاليين دافعوا عن مدينتهم، فإن ذلك تطلب جهدا خارقا وظفوا فيه كل الموارد الاحتياطية المتاحة لدولة الهند البرتغالية. ومع تركيز كل قواتهم في ديو، لم يتمكنوا من مواجهة التقدم على جبهات أخرى. لذلك وجد العثمانيون أنفسهم في حرية نسبية فيما كان بالنسبة إليهم مسرح عمليات لا يقل أهمية عن جزر الهند الشرقية، وهو الخليج العربي.

شنّ العثمانيون هنا هجوما مزدوجا عندما أخذت قوة حلفائهم في ديو تتداعى. وبدأت الأعمال العدوانية في أغسطس 1546 بخروج سرب صغير من أربع سفن

(*) كان من الممارسات الشائعة إبان العصر الحديث المبكر أن تتخذ الدولة من الأسرى والمخطوفين من الدول المعادية مجدفين مُلزمين على سفنها الحربية، كانوا يُكبلون بسلاسل في أماكنهم على المجاديف، عُرِفوا للتاريخ باسم عبيد القوادس galley slaves. ومع صعود الإمبراطورية العثمانية وحربها المتواصلة ضد القوى الأوروبية، ومع تكثّف عمليات «الجهاد البحري» في غرب البحر الأبيض المتوسط - التي تسمى في الكتابات الغربية «قرصنة» - بعد طرد اليهود ثم المسلمين من الأندلس، تصاعدت عمليات سبي العبيد من الجانبين الأوروبي والإسلامي للتجديف على السفن. ويقال إنه حين هُزم الأسطولُ العثماني في ليبانت في العام 1571، حرر الأسطول المسيحي المنتصر ثلاثين ألف مجدف مسيحي كانوا عبيدا على السفن العثمانية. وكانت محاكم التفتيش الإسبانية تحكم على «المُنَصَّرين الجدد» من المسلمين السابقين بالخدمة على القوادس، وهو حكم لم يكن أرحم من الإعدام؛ لأنه كان ينتهي عادة بموت الشخص أو انتحاره، لكن بعد عمل شاق تحت لهيب الشمس والسياط. [المترجم].

حربية مشغلة بالمجاديف من القاعدة البحرية العثمانية في عدن. توجه هذا السرب سريعا إلى ساحل شبه الجزيرة العربية وتوقف أولا في الشحر لمساعدة السلطان بدر الموالي للعثمانيين في الاستيلاء على مدينة قشن الميناثية المجاورة التي تحالفت مع البرتغاليين أخيرا(*). ومن هناك، تقدمت السفن العثمانية إلى قليات وهاجمتها(**)، ثم أبحرت بعيدا حتى المعقل البرتغالي في مسقط، وهناك أخذ العثمانيون الحامية البرتغالية على حين غرة، فاقتحموا المرفأ ونهبوا الميناء واستولوا على سفينة تجارية كانت راسية هناك قبل أن يولوا وجوههم أخيرا عائدين إلى عدن[102].

وعلى مسافة أكثر من ألف ميل إلى الشرق، كانت قوة عثمانية أكبر تبدأ حينذاك في الاحتشاد حول البصرة، ذلك المركز التجاري الدولي الرئيس الواقع في مكان مسيطر على رأس الخليج العربي الذي طالما اشتهاه البرتغاليون ولم ينالوه. كانت البصرة حتى أوائل العقد الخامس من القرن السادس عشر خاضعة للأمير راشد الذي أظهر ولاءه الثابت للإمبراطورية منذ الغزو العثماني لبغداد في العام 1534 بالدعاء في خطبة الجمعة للسلطان سليمان وسك العملة باسمه[103]. لكن بعد موت راشد في العام 1543، انتقلت السيطرة على المدينة إلى الشيخ يحيى، وهو زعيم عشائري طموح لم يكن يميل إلى العثمانيين على الإطلاق(***). وباستخدام البصرة قاعدةً لتوسيع سيطرته تدريجيا أعلى نهري دجلة والفرات، بدأ الشيخ يحيى في تقييد حرية انتقال التجار بين البلاد العثمانية والخليج العربي فضلا عن تقديم عروض الصداقة للبرتغاليين في هرمز[104]. ومع تهديد سيطرتهم المنشودة على الخليج العربي، انتهز العثمانيون الفرصة لانتزاع المدينة قبل أن يتمكن البرتغاليون من التدخل[105].

كان المسؤول العثماني الذي قاد هذه الحملة هو والي بغداد أياس باشا Ayas Pasha الذي شرع في بناء قلعة جديدة في القرنة Corna أعلى البصرة، ثم أرسل رسالة للشيخ يحيى يطلب منه أن يفتح أبواب المدينة لقواته تحضيرا لضربة

(*) هو السلطان بدر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري المسمى بدر أبي طويرق، حكم السلطنة الكثيرية في حضرموت بين نحو العامين 1516 و1565. [المترجم].

(**) أقرب اسم لقليات Qalyat في المنطقة حاليا هو قريات Qaryat وهي ولاية ومدينة عُمانية تقع على الساحل إلى الجنوب من العاصمة مسقط. [المترجم].

(***) وفق إحدى الروايات، بعد أن نجح حاكم الأحساء الشيخ مانع بن راشد من استعادة البصرة، إضطرته معارضة من أمراء المنطقة وأعيانها إلى تقسيم مملكته بالتخلي عن البصرة في العام 1544 لابن عمه يحيى بن محمد الفضلي المتحمس لموالاة البرتغاليين، وبقيت له الأحساء والقطيف. [المترجم].

هجومية على البرتغاليين في هرمز. رفض الشيخ يحيى الطلب، وبدلا من ذلك وجه تلك الرسالة إلى كابتن هرمز لويس فالكاو Luiz Falcao، وعرض تسليم قلعة البصرة للبرتغاليين في مقابل مساعدته في الدفاع عن المدينة ضد العثمانيين[106]. وأرسل حلفاؤه العشائريون في شط العرب رسالة مماثلة إلى فالكاو طلبا للعون، اختتموها بالتحذير التالي:

> «ينوي السلطان أن ينتزع الملاحة في البحر من البرتغاليين... ثقوا بذلك وهبوا إلينا! فلو أخذ العثمانيون البصرة فلن يبقى هناك شيء يمنعهم من التحرك ضدكم وضد مناطقكم؛ لأن الطريق إليها من البصرة أقصر من الطريق إليها من السويس أو جدة»[107].

وافقهم البرتغاليون في هرمز على ذلك الوصف للموقف، ومن ذلك أن مسؤولا برتغاليا حذّر في رسالة لنائب الملك في الهند في الثلاثين من نوفمبر 1546 من أن:

> هؤلاء القوم - سيدي - في غاية الخطورة والحنكة في طرق الحرب وفنونها... وقد سيطروا فعلا على مكة [والبحر الأحمر]، وإذا شيّدوا قلعة في البصرة، فسوف يكون بوسعهم إرسال كل السفن التي لديهم في البحر الآخر إلى هذا الجانب، وهو احتمال يشكل أعظم خطر ممكن لكل الهند[108].

وبعد أسبوع، كتب كابتن هرمز للشيخ يحيى يعده بالعون، ثم أرسل رسالة لنائب الملك يطلب إرسال أسطول من غوا بأسرع ما يمكن[109]. لكن التماسه ذهب أدراج الرياح؛ لأن البرتغاليين في الهند الذين استنزفهم الدفاع عن ديو لم يكونوا في حال تسمح لهم بتقديم العون. تقدم أياس باشا على رأس أكثر من ثلاثة آلاف جندي، ولم يعترض طريقه إلا مقاومة محلية هزيلة، فغزا البصرة بسهولة، وفرَّ الشيخ يحيى. وهكذا استولى العثمانيون من دون أن يطلقوا طلقة واحدة على منفذ استراتيجي آخر على المحيط الهندي.

بلال محمد باشا والجولة الثانية من المفاوضات العثمانية - البرتغالية

كان المنطق الذي هيمن على أنحاء دولة الهند قاطبة بعد غزو البصرة هو أن الغزو العثماني لهرمز كان مسألة وقت. لكن على خلاف ذلك التوقع، فوجئ

البرتغاليون بأن سادة البصرة الجدد أبدوا استعدادا غير مسبوق للتفاوض مع نظرائهم المسيطرين على الطرف المقابل للخليج العربي. فبعد أقل من شهرين من غزو أياس باشا للمدينة، وصلت في فبراير 1547 رسالة إلى هرمز من الوالي العثماني الأول لولاية البصرة بلال محمد باشا Bilal Mehmed Pasha. قدمت الرسالة الموجهة إلى الكابتن البرتغالي لويس فالكاو تبريرا معقولا لاستيلاء العثمانيين على المدينة؛ إذ أوضحت أن الشيخ يحيى، بمحاولاته غير القانونية عرقلةَ العبور الآمن للتجار والسلع بين البلاد العثمانية والخليج العربي، لم يترك للسلطات العثمانية خيارا آخر، وحيث إن الدولة العثمانية وجدت نفسها مضطرة إلى تحمل مسؤولية الدفاع عن مبادئ حرية التجارة، فقد كشف بلال محمد أن من مصلحة الدولة العثمانية أن تقيم علاقة تجارية سلمية مع البرتغاليين. جاء في رسالته:

> لذلك نجد أن من المصلحة إقامة صداقة معكم، وأن نتوصل إلى أي اتفاق لازم للسماح لسفنكم وتجاركم بالتنقل ببضائعهم في حماية سلطاننا القوي العادل من دون أن تكون عرضة لأي نوع من الضرر أو الخسارة. لا ترتابوا في هذه الرسالة أو تظنوا أن بين سطورها أو في قلبي أي شيء يخالف صريح عباراتها. نريد أن نكون أصدقاء لكم ولإخوانكم في الهند، واعلموا أن صداقتنا ستكون موضع حسد الأمم في أركان العالم الأربعة... لذلك أطلب أن توجه رسالتي هذه إلى الهند وإلى كل البلاد [الخاضعة لكم] حتى يصير [التجار من كل تلك البلاد] أحرارا في التنقل والتجارة وجلب سلعكم لبلادنا وسلعنا لبلادكم. افعلوا ذلك، ولن يكون بيننا سبب آخر للخلاف، وإلا فسوف يكون نقيض هذه الحال هو مآل الأمور[110].

تكمن خلف النبرة التصالحية المفاجئة لهذه الرسالة أسس السياسة العثمانية الناضجة في المحيط الهندي، والتي استندت أكثر من أي وقت مضى إلى موقف قوة في مقابل البرتغاليين. وكما حدث في المفاوضات السابقة بين لشبونة والعثمانيين، كرر بلال محمد الزعم بالسيادة العثمانية الشاملة على الشؤون التجارية، وقدم السلطان بصفته حامي المصالح التجارية لكل من يعيشون داخل حدود دولته وفي أنحاء عالم المحيط الهندي الأكبر قاطبة. ومع توطد السيطرة الإمبريالية على البصرة فضلا عن

اليمن، أوضح بلال محمد أيضا أن العثمانيين قادرون على فرض هذا الزعم. كما أكدت رسالة الباشا مرارا وتكرارا على أن السلام الدائم بين سلطانه والبرتغاليين لم يكن ممكنا فقط، بل كان أيضا مفيدا للطرفين. فلو توقف البرتغاليون عن هجماتهم المكلفة والعقيمة في حقيقتها على الشحن الإسلامي - هكذا عرض الباشا المسألة - فإنهم سيجدون تعويضا عن أي فقدان لهيبتهم بعلاقة تجارية جديدة مربحة مع العثمانيين. أما البديل، فكان استمرار الأعمال العدوانية التي أثبتت السنوات القليلة الماضية أنها لم تجلب للبرتغاليين إلا مشاقّ متواصلة ونفقات متزايدة.

دفع هذا العرض الذرائعي البرتغاليين إلى مراجعة أنفسهم جديا، فدعا نائب الملك مجلسا كبيرا آخر لمناقشة الحجج المؤيدة والمعارضة لقبول هذا العرض. وهنا أيضا، كما في العام 1545، قرر القادة البرتغاليون في النهاية أن التخلي عن سياساتهم المتبعة وتبني نظام التجارة الحرة تحت الرعاية العثمانية أمر غير مقبول سياسيا بغض النظر عن النفع الذي قد يعود منه[111]. لكن ظهرت هذه المرة أصوات معارضة داخل صفوف البرتغاليين، كانت تفضل التوصل إلى صفقة بغض النظر عن التكاليف السياسية[112]. رأى هؤلاء تهورا وطيشا في مواصلة الحظر على العثمانيين بالنظر إلى الحقائق الجديدة للقوة العثمانية في الخليج العربي. فعلى خلاف البحر الأحمر الذي كان بعيدا عن مراكز التجارة البرتغالية، والذي كان مغلقا في وجه التجار المسيحيين في كل الأحوال، دفع هؤلاء بأن البصرة كانت قريبة ومن شبه المستحيل منعها من الاتصال بهرمز[113].

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تثبت وجهة النظر المعارضة تبصرها؛ إذ سرعان ما وجد التجار وكبار المسؤولين الحكوميين البرتغاليين أن إغراء التجارة في البصرة يصعُب مقاومته على الرغم من استمرار الحظر الصارم من غوا. وتكشف المحفوظات البرتغالية أن الدوم مانويل دي ليما Dom Manuel de Lima الذي حل محل لويس فالكاو ككابتن لهرمز في ربيع العام 1547 حافظ على مراسلات ودية مع بلال محمد باشا على امتداد فترة قيادته، حتى إنه احتفظ بممثل تجاري شخصي في البصرة بذريعة جمع معلومات استخبارية حول الترسانة العثمانية هناك[114]. وبحلول نهاية مدة دي ليما، أصبحت التجارة بين البصرة وهرمز شائعة – بعد أن كانت محظورة - إلى حد أن دي ليما كان يرسل أسبوعيا وكلاء للتجارة في المدينة[115].

بذل نائب الملك جواو دي كاسترو محاولات مستميتة لوقف هذه التجارة، وهدد

كل الأطراف المذنبة مرارا وتكرارا بالسجن، لكن سرعان ما تجاوز الموقف نقطة اللاعودة[116]. وبحلول العام 1551، كانت هذه التجارة قد اكتسبت طابعا رسميا، ولو على الجانب العثماني على الأقل، ومن ذلك أن قانون الضرائب العثماني لولاية البصرة الذي أُعلن في ذلك العام تضمن فقرة خاصة سمحت لكابتن هرمز بإرسال وكيل تجاري للبصرة وشراء وبيع كمية محددة من السلع معفاة من الضرائب[117]. وتكشف المحفوظات الضريبية العثمانية أن التجارة في البصرة ازدهرت نتيجة لهذه الترتيبات، وأنها كانت مفيدة للدولة بطريقة مباشرة. من ذلك أن الإيرادات من التعريفات الجمركية بلغت في العام 1551، وهي السنة ذاتها التي طبق فيها القانون الضريبي البصري الجديد، ثلثي عائدات الولاية كاملة، وكانت بذلك النسبة الأعلى بين كل الولايات العثمانية في منطقة المحيط الهندي[118]. هكذا كانت أسس الحصار البرتغالي للعثمانيين تتهاوى هنا وهناك[119].

خاتمة

أول حرب عالمية في التاريخ

بحلول النصف الثاني من العقد الخامس من القرن السادس عشر، كانت العلاقات بين العثمانيين والبرتغاليين قد اكتسبت قدرا من الاستقرار، ولو فترة مؤقتة على الأقل. لكن السنوات الثماني السابقة، من العام 1538 إلى العام 1546، كانت فترة حروب مريرة متواصلة بين إسطنبول ولشبونة، دارت رحاها عبر منطقة شاسعة غطت المحيط الهندي كاملا. ففي أعالي البحار تصدى القراصنة العثمانيون وحلفاؤهم المسلمون للأسطول البرتغالي، وشنوا هجمات منسقة في مسارح عمليات امتدت من جنوب الهند إلى ساحل شبه الجزيرة العربية. وفي القرن الأفريقي وجنوب شرق آسيا، دخلت وحدات النخبة من المسكتيين العثمانيين والبرتغاليين - وهم مكافئ القرن السادس عشر لقوات الكوماندوز في عصرنا - في حروب عصابات لإسناد نظم محلية صديقة وإنهاك خصومهم. ومن قاعدتي إمدادهما الرئيستين في السويس وغوا، أطلق الجانبان أساطيل هائلة شملت آلاف الرجال وعشرات السفن ضد المعاقل الأهم للطرف الآخر في مصر والهند. فكانت هذه المواجهات الحربية بكل المقاييس أول نزاع عالمي مسلح شهده العالم على الإطلاق (الخريطة 1-3).



الخريطة (1-3) حرب سليمان باشا الخادم العالمية 1536 - 1546

ما الذي شهدته الفترة من العام 1538 إلى العام 1546 ومكّن اثنتين من قوى البحر الأبيض المتوسط من خوض حرب على هذا النطاق الجغرافي الذي لم يكن متخيلا قبل بضعة عقود؟ شكّلت التقنية - لا ريب - أحد العوامل المهمة؛ إذ تمكن البرتغاليون من توسيع مدى نشاطاتهم في المحيط الهندي على نحو مطرد، بفضل سفنهم الشراعية المتقدمة وأسلحتهم النارية، ما دفع المسلمين في أنحاء المنطقة كلها إلى التقارب مع العثمانيين. ومن العوامل الأخرى رؤية العالم المتبلورة لدى الجانبين؛ إذ تمكن العثمانيون أخيرا، بحلول العقد الرابع من القرن السادس عشر، وبفضل نحو عقدين من الجهد المتواصل، من مراكمة كتلة حرجة من المعلومات القابلة للاستخدام هيأتهم للتفكير بطريقة استراتيجية على نطاق جغرافي مماثل لنطاق منافسيهم البرتغاليين. غير أن العامل الحاسم الأهم وراء عولمة الحرب خلال هذه الفترة يكمن في مكان آخر، هو عالم الأيديولوجيا السياسية؛ إذ بدأ رجال الدولة العثمانيون يربطون مباشرة بين شرعية دولتهم وقدرتها على استخدام القوة البحرية لحماية مصالح تجار المحيط الهندي. فقد أثبت ذلك أنه قوة محفزة هائلة لصياغة سياسات إسطنبول، ولعل الأهم من ذلك أنه وفر أساسا أيديولوجيا للمسلمين في أنحاء المحيط الهندي قاطبة للربط بين مصالحهم وحظوظ الدولة العثمانية

البعيدة. وهكذا امتدت سلطة السلطان للمرة الأولى عبر الممرات البحرية بعد أن كانت محصورة ضمن الأقاليم البرية لممتلكاته الفعلية.

يتعارض هذا التفسير مع معظم الدراسات الحالية للسياسة في العالم الحديث المبكر التي لاتزال تتقيد بفكرة أن «السيادة على البحار» كانت مفهوما غربيا تماما، وكانت بالتالي غريبة على الفكر السياسي في «الدول الإسلامية البرية». لذلك تُصوَّر الإمبراطورية العثمانية وحلفاؤها في المحيط الهندي عادة بأنهم كانوا منهمكين في ضم الأقاليم فقط، وكانوا بالتالي يسترشدون بمنطق سياسي يختلف جذريا عن سياسات البرتغاليين البحرية المسترشدة بالتجارة. ويقال إن بهادر سلطان كجرات أعطى هذا الموقف العام تلك الصياغة البليغة الشهيرة: «الحروب في البحر شأن التجار، ولا شأن لها بهيبة الملوك»[120].

لكننا تأسيسا على السرد التفصيلي للوقائع على الأرض (وفوق صفحة البحر!) خلال السنوات الحاسمة من العام 1538 إلى العام 1546، بات في وسعنا أن نؤكد أن السياسة العثمانية في المحيط الهندي تفاعلت بقوة مع المصالح التجارية البحرية. فعلى خلاف تلك الفكرة المتمترسة، ركزت العمليات العسكرية العثمانية دائما على المراكز الاستراتيجية للتجارة البحرية مثل المخا وعدن والبصرة وديو، وطالب المفاوضون العثمانيون مرارا وتكرارا بحرية التجارة للتجار المسلمين شرطا مسبقا لأي اتفاق سلام مع البرتغاليين، وتؤكد المحفوظات الضريبية أن الإيرادات الجمركية كانت مصدر دخل رئيس لكل الولايات العثمانية الواقعة على المحيط الهندي. باختصار، اعتبر العثمانيون - تماما كما فعل البرتغاليون - التجارة البحرية المورد الأساس لمنطقة المحيط الهندي.

على أنه قد يكون من التبسيط المخل أن يقدم هذا الاهتمام بالشأن البحري على أنه نتيجة حصرية لتنامي العائدات الجمركية أو تنامي قوة أصحاب المصالح التجارية؛ لأن الدين أيضا أدّى دورا مؤثرا في هذه الصياغة الجديدة للأيديولوجيا الرسمية للدولة. فالسلطان العثماني، بتوليه القيادة العليا للعالم الإسلامي تأسيسا على اللقبين التوأمين الخليفة وخادم الحرمين الشريفين، كان مسؤولا دينيا عن حرية طرق الحج إلى مكة والمدينة وأمانها، وهي المسؤولية التي أصبحت مكونا أساسيا لاعتراف المسلمين به حاكما أعلى لهم[121]. وحيث إن طرق الحج كانت أيضا طرقا

بحرية ترتبط على نحو معقد بأنماط التجارة البحرية؛ فقد غدا البحر مسرحا إما لتأكيد المزاعم العثمانية بالشرعية على المستوى الدولي أو تقويضها، فضلا عن أهمية البحر للمصالح التجارية الدنيوية.

يفسر هذا الالتقاء بين الأيديولوجيا الدينية والمصالح التجارية حرص العثمانيين على السيطرة على البحر حتى في مناطق بعيدة تماما عن حدود الإمبراطورية، كما يتضح في الأوامر التي أصدرها السلطان سليمان لسليمان باشا الخادم عند مغادرته الهند في العام 1538. كتب السلطان للباشا:

> إلى والي مصر سليمان باشا، بمجرد أن يصلك أمرنا، اجمع الأسلحة والتجهيزات والمؤن فورا وأعد عدتك للجهاد في السويس. وبعد أن تجهز أسطولا بالعتاد والسلاح وتحشد عددا كافيا من الجند، اعبر إلى الهند واستولِ على موانئها، وحرر تلك البلاد من أذى الكفار البرتغاليين الذين قطعوا الطريق للمدينتين المشرفتين مكة والمدينة، وضع حدا لنهبهم في البحر[122].

إن تأطير السلطان أوامره لسليمان الخادم بلغة الجهاد والعمل أولا وقبل كل شيء على حماية طرق الحج البحرية، يؤكد أن العثمانيين اعتبروا حملة العام 1538 تحديا مباشرا لزعم البرتغال بالسيادة البحرية على المحيط الهندي. ولذلك لا يمكن اعتبار الحرب العالمية التالية التي شنها سليمان باشا الخادم نزاعا على الأقاليم أو الموارد، بل كانت صراعا له دوافع أيديولوجية من أجل السيطرة على البحر ذاته. وبذلك دخل السلاطين العثمانيون وملوك البرتغال بداية من العام 1538 فيما يمكن أن يسمى جدلية السيادة البحرية التي كانت مزاعم كل طرف فيها انعكاسا لمزاعم الطرف الآخر، وأخذ وعي كلا من القوتين يتزايد أكثر فأكثر بأن شرعية الواحدة منهما تستند في النهاية إلى قدرتها على السيطرة على البحر على حساب القوة الأخرى.

لكن على المستوى النظري البحت، حتى لو كان الطرفان يعملان صراحة من أجل السيطرة على البحر، فإن المضامين العملية لإنجاز ذلك الهدف أخذت كل منهما في اتجاه مختلف تماما. فبالنسبة إلى البرتغاليين، كانت «السيطرة» تعني القدرة على منع التجار من الإبحار والتجارة كيفما يشاءون، في حين كانت تعني للعثمانيين النقيض التام لذلك. ومع الوقت، خدم هذا الفارق العملي مصالح

العثمانيين الذين كانت أيديولوجيا الدولة ومتطلبات السوق تتلاقى في حالتهم على نحو مُواتٍ، في حين كان البرتغاليون مضطرين إلى إخضاع قوى السوق لمتطلبات الحصار المدفوع أيديولوجيا. مؤدى ذلك أن سفينة الدولة العثمانية التي كانت دفتها في يد سليمان الخادم صاحب الرؤية - وإن كان متعجرفا - كانت تبحر نحو المحيط الهندي مدفوعة بالرياح الاقتصادية. لكن في إسطنبول التي برز فيها نجم قائد جديد كان يستعد لأخذ الدفة والإبحار بالإمبراطورية في اتجاه مختلف، كانت هناك غيوم عاصفة مشؤومة تتجمع في الأفق.

4

رستم باشا في مواجهة عصبة المحيط الهندي 1561 - 1546

هيمن رستم باشا Rustem Pasha على الحياة السياسية العثمانية على مدار العقود الوسطى من القرن السادس عشر، وهو رجل أشم يعد مثالا لشخصيات البلاط؛ إذ تربى في بيت السلطان وحظي بعطفه منذ عمر مبكر. تذهب إحدى الروايات إلى أنه نال أولى ترقياته وهو لايزال غلاما في البلاط في أوائل عقده الثاني من العمر عندما ألقى بنفسه بشجاعة من نافذة بالطابق الثاني لاسترجاع شيء سقط عرضا من يد السلطان[1]. وتوالت عليه ترقيات أخرى، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ رستم يستفيد من حظوته لدى زوجة السلطان السلطانة خُرَّم، التي تكللت بتزويجه من ابنتها الوحيدة مِحْرِمَة

«من الواضح أن رستم نظر إلى التجارة الدولية بالدرجة الأولى باعتبارها تهديدا، إذ اعتبرها بالوعة تستنزف المعادن النفيسة والموارد الاستراتيجية الأخرى من الإمبراطورية على الدوام»

في أوائل العقد الخامس من القرن السادس عشر(*). كان هذا الزواج إقرارا لحظوظ رستم السياسية ولاشتهار خُرَّم بأنها مركز القوة الأكبر في الإمبراطورية، وأنتج تحالفا دائما بين الاثنين أثبت أنه لا يقهر ولا ينقض. وبعد فترة قصيرة رُشح رستم للصدارة العظمى عندما أُبعد سليمان الخادم في نوفمبر 1544، واستمر في المنصب حتى وفاته بعد سبع عشرة سنة[2].

ترك رستم خلال هذه الفترة الطويلة في المنصب أثرا واضحا في كل جوانب المجتمع العثماني؛ إذ عمل بدأب على إعادة تشكيل الإمبراطورية وفقا لنموذج جديد للحكم لا يمكن أن يوصف إلا بأنه نوع من ضيق الأفق البيروقراطي. فبرعايته جرى تصنيف القوانين العثمانية وأبنية إدارة الدولة وتوحيدها عبر أرجاء الإمبراطورية في عملية أريد بها تحقيق المركزية التامة[3]. وبدأ الفنانون والمعماريون المدعومون من الدولة في ابتكار مفردات بصرية عثمانية مميزة ذات أشكال تكرارية وموضوعات متواترة تختلف جليا عن الأساليب الانتقائية التي ميّزت العقود السابقة[4]. وأخذ المفكرون العثمانيون الذين جربوا في السابق أنماطا تعبيرية متنوعة، منها أنماط مسيحية، يطورون عن وعي مسحة أدبية كلاسيكية عكست وعيا توحيديا دمجيا لكل من ماضي الإمبراطورية وحاضرها[5]. حاول رستم من خلال كل هذه التغييرات الصغيرة أن يؤسس لمجتمع عثماني مكتفٍ ذاتيا ومتمايز عن جيرانه، خلافا للرؤية الانتقائية والحدود المفتوحة التي ورثها عن أسلافه الصدور الأعظمين. وفي أثناء ذلك بدأت سرعة توسع الإمبراطورية تتباطأ، وحدودها المادية تتجمد؛ إذ أراد رستم أن يوجد أساسا جديدا تقوم عليه سلطة الإدارة المركزية العثمانية التي يوجد هو نفسه على رأسها.

(*) السلطانة خُرَّم Hurrem Sultan أو السلطانة خاصكي Haseki Sultan (اسمها بالمولد روكسلانا) (1506 إلى 15 أبريل 1558) زوجة السلطان سليمان القانوني وأم ابنه وخليفته سليم الثاني (أنجبت له أيضا محمد وعبدالله وبايزيد وجهانكير ومِحْرمَة أو مهرماه Mihrmah)، في اللغة التركية يعني اسمها خُرَّم «الباسمة»، ويعني الاسم خاصكي «زوجة السلطان الرئيسة» أو «والدة ولي العهد»، تُعرَف في المصادر العربية باسم خُرَّم وخُرَّم وهُرَّم وكريمة وأم محمد، وسميت «هيام» في المسلسل التركي «القرن العظيم» أو «حريم السلطان»، كانت جارية من أصل أوكراني بيعت للقصر وتزوجها السلطان سليمان القانوني ووقع في غرامها وخضع لتأثيرها، ارتبط اسمها بأحداث ومؤامرات شهيرة من أهمها قتل السلطان سليمان لابنه الأكبر من زوجته الأولى ماه دوران الأمير مصطفى وإعدام السلطان لصدره الأعظم ورفيق صباه إبراهيم باشا. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924». [المترجم].

ما النتائج التي ترتبت على عصر الاستكشاف العثماني عن هذه العقلية العثمانية المنغلقة الجديدة؟ كانت الطريقة الجديدة التي بدأ المفكرون العثمانيون يتخيلون من خلالها المحيط الهندي أحد مجالات التغيير الأوضح؛ لأن رؤية رستم المنغلقة ضيقة الأفق للتخوم البحرية الجنوبية المائعة للإمبراطورية كانت تتناقض تماما مع طموحات أسلافه. وفي هذا الجانب شجع رستم منذ وقت مبكر من صدارته العظمى نوعا مختلفا من الكتابة افترق جذريا في فحواه عن الكتابات الإمبريالية الغزيرة التي ميّزت العقود السابقة، وإن ظل قريبا منها في الانشغال السياسي بالمنطقة.

يتمثل أحد الأمثلة على ذلك في كتاب «أخبار رستم باشا»، وهو تاريخ للإمبراطورية العثمانية نُسب إلى الصدر الأعظم، لكنه على الأرجح من تأليف المؤرخ والجغرافي الشهير نصوح مطرقجي(*). يعد هذا الكتاب - من ناحية - عملا مميزا بين التواريخ الإخبارية العثمانية المعاصرة لتقديمه وصفا تفصيليا لأحدث الأعمال العثمانية في اليمن، ويعد أقدم التواريخ العامة العثمانية التي تشمل هذه المنطقة ضمن سردها[6]. لكن من الغريب - في المقابل - أن الكتاب يتجاهل حملة سليمان الخادم على الهند أو أي ارتباطات بين اليمن وآسيا البحرية ككل؛ إذ أكد أن الولاية جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية أكثر منها منصة انطلاق استراتيجية إلى عالم أوسع. وعلى ذلك فإن أخبار رستم، سواء بوصفها عملا تاريخيا أو تعبيرا عن فهم العثمانيين لأنفسهم، تعكس انحسار الطموحات العالمية الذي ميّز رؤية الصدر الأعظم للشؤون الدولية.

يمكن أن نتوقف أمام مجموعة مماثلة من الأولويات في كتاب «مرآة الممالك» Mir'atul - Memalik، وهو مذكرات كتبها القبطان البحري الريس سيدي علي Seydi Ali Reis وقُدمت لرستم في العام 1560 بعد عودة المؤلف من رحلة ملحمية أربع سنوات خلال الهند وأفغانستان وأوزبكستان وإيران[7]. كان هذا النص الذي يتسم بأصالة جلية عملا رائدا في الكتابة السردية العثمانية، ولايزال يحتفظ بجاذبيته حتى اليوم لكونه أعظم قصص الرحلات العثمانية التي ألفت على الإطلاق. لكن من المفارقات أن مذكرات سيدي علي، من خلال الاستغلال المتأني لمادتها الغريبة من أجل تأكيد «عثمانية» مؤلفها، تعد تعبيرا حادا عن «الشوفينية» العثمانية المنغلقة التي ميّزت صدارة رستم باشا العظمى.

(*) الاسم الأصلي لكتاب «أخبار رستم باشا» Chronicle of Rustem Pasha هو «تواريخ آل عثمان»، وينسب عادة إلى المؤرخ والجغرافي الشهير غزير الإنتاج نصوح مطرقجي (نصوح السلاحي) Matrakchi Nasuh. [المترجم].

أما موضوع العثمانية - الذي يكشف عن نفسه مرارا وتكرارا وبطرق عدة على امتداد النص - فيتجلى بأوضح صوره في خاتمة القصة عندما يعود المؤلف أخيرا إلى البلاد العثمانية، إذ غلبت العاطفة سيدي علي بعد أن قضى سنوات كثيرة خارج حدود الإمبراطورية، فكتب: «في كل العالم لا توجد بلاد تشبه بلاد الروم، ولا يوجد ملك ند لباديشاهِنا، ولا جيش يضاهي جيش العثمانيين المظفر!»(*)(8)، وبعد أن سرد المراحل الأخيرة لرحلة عودته إلى عاصمة الإمبراطورية، يعطي سيدي قُراءه النصيحة التالية:

> إن أردتَ أن تنتفع من هذه القصة، فاعلم أن سر القوة الحقيقية التي لا تفنى لا يكمن في السعي الفارغ وراء العظمة، بل في الرضا وراحة البال. لكن إن ساقتك إرادة الله إلى مغادرة الوطن، واضطررتَ إلى الترحال صوب المجهول، ووقعتَ مصادفة في مياه بحر المحن المتلاطمة، فتذكر دائما أن حب وطنك لا يسبقه إلا حب دينك. فلا ينقطع شوقك إلى اليوم الذي ترى فيه شواطئ بلادك، ولا تدع شيئا يؤثر في ولائك لباديشاهِك. فمن يفعل ذلك فإنه لا يموت غريبا، إذ يحقق الله أمنيته في هذه الدنيا وفي الآخرة، ويسعد بتقدير أبناء وطنه وحبهم(**)(9).

مما يستحق انتباها خاصا أن هذه المشاعر - في سياق السردية الأكبر لسيدي علي - يشوبها إحساس بالمرارة بسبب خبرة الرجل في الخارج، وهو ما ينطبق بوجه خاص على نزوله بالهند التي آثر أغلب رفاق رحلته - في تحد صريح لرغبته - المقام والاستقرار فيها بين الشتات الرومي بدلا من العودة معه إلى إسطنبول. لذلك تشي هذه الفقرة وكتابات سيدي علي عموما - إلى جانب ولائه لسلطانه وحبه لوطنه المحمودين - بعداوة للروميين في الهند وكراهية عامة لفكرة الترحال العالمي والاستقرار بعيدا عن الوطن، وهما عاطفتان شاركه فيهما راعيه رستم كما سيأتي لاحقا.

(*) إلى جانب اللقب العربي «سلطان»، استخدم آل عثمان اللقب التركي «خان» الذي يعني «إمبراطور» واللقبين الفارسيين «باديشاه» Padishah الذي يعني «الملك الأكبر» و«شاهنشاه» Shahinshah الذي يعني «ملك الملوك». [المترجم].

(**) ربما يكون لتنفير سيدي علي من السعي وراء العظمة، وتحبيبه في الرضا وراحة البال علاقة لاشعورية بالسبب وراء ترحاله في المقام الأول؛ إذ اضطر الرجل إلى الترحال - كما يرد في موضع لاحق - بعد هزيمة ساحقة أمام البرتغاليين أفني فيها أسطول عثماني كامل بين الغرق والهجر على شواطئ الهند. فلو رجع الرجل مظفرا ومكللا بغار النصر، لربما كان رأيه في السعي وراء العظمة والخلود إلى راحة البال مختلفا. [المترجم].

على خلاف كتاب سيدي علي، لا تتميز معظم الأعمال الأخرى التي أنتجت خلال صدارة رستم العظمى بما تقوله بقدر ما تتميز بما سكتت عنه. فباستثناء سيدي علي (الذي كتب إلى جانب «مرآة الممالك» دليلا فنيا للملاحة في المحيطات سُمي عن جدارة «كتاب المحيط» Kitab al - Muhit)، ركز الجغرافيون العثمانيون الآخرون من هذه الفترة على وصف البلاد الواقعة داخل الحدود الإمبراطورية حصرا وفهرستها، ولم يعيروا انتباها كبيرا لما يقع وراءها، لاسيما في المحيط الهندي[10]. وفي الخط نفسه، لا تخصص التواريخ والأخبار السلالية التي أُلفت برعاية رستم عادة غير صفحة واحدة أو اثنتين لمآثر الصدر الأعظم على طول تخوم شبه الجزيرة العربية التي يختفي بعدها المحيط الهندي تماما من السردية، كأنما لم يكن للإمبراطورية العثمانية أي اتصال بالمنطقة[11]. ومع تحول الحياة الفكرية العثمانية للانغلاق على الذات إبان عهد رستم، حدث - كما هو متوقع - تحول مماثل في الأولويات السياسية للإمبراطورية، تجلى في أوضح صوره في مجال السياسة التجارية.

سياسات رستم الاقتصادية وظهور عصبة المحيط الهندي

على خلاف سابقه سليمان الخادم الذي عمل بدأب على تعظيم التدفق الحر للتجارة عبر البلاد العثمانية من المحيط الهندي، أظهر رستم ارتيابا عميقا في التجار الأجانب وتفضيلا عاما لسياسة اقتصادية تُخضِع المصالح التجارية لضرورات إمداد الجيش والعاصمة العثمانية باحتياجاتهما[12]. لا يعني ذلك أن رستم لم يكن يكسر هذه القاعدة كلما لاحت له فرصة لملء جيوبه كما لاحظ مراقبون بنادقة معاصرون[13]، لكن بوجه عام، بدلا من أن يرى في تدفق السلع إلى الإمبراطورية العثمانية ومنها مصدرا للثروة وتأكيدا للمكانة العثمانية، من الواضح أن رستم نظر إلى التجارة الدولية بالدرجة الأولى باعتبارها تهديدا؛ إذ اعتبرها بالوعة تستنزف المعادن النفيسة والموارد الاستراتيجية الأخرى من الإمبراطورية على الدوام[14].

ربما يمثل البحر الأسود أوضح مثال نفذ فيه رستم عددا من المبادرات السياسية الملموسة التي استندت إلى رؤيته الأكبر القائمة على الاكتفاء الذاتي؛ إذ تحول هذا البحر بتوجيهاته من منطقة تجارة حرة نسبيا إلى بحيرة عثمانية مُنع التجار الأجانب من العمل فيها[15]. لكن بالمقارنة مع البحر الأسود، لاتزال سياساته في المحيط الهندي

أقل وضوحا، إذ لم يتقَصَّها الدارسون الحديثون جيدا. لكن يبدو إجمالا أن موقف رستم من تجارة هذه المنطقة اكتنفته ريبة شديدة، ومن الواضح أن ميل رستم الطبيعي إلى تقييد التجارة قد أذكاه في هذه المنطقة عامل آخر، هو الحسابات الباردة للثأر الشخصي.

شق رستم طريقه إلى مركز السلطة في أثناء الصدارة العظمى لسلفه القاسي والماكر سليمان الخادم الذي لم تربطه به علاقة حميمة، ولذلك غدا الصدر الأعظم الجديد بالضرورة مع تعاظم قوته هدفا لعداوة رجال سليمان الخادم. كان من ألد خصومه المبكرين رفيق سليمان الخادم المؤتمن داود باشا، والي مصر منذ العام 1538، وغريم رستم على الزواج من زوجة رستم المستقبلية الأميرة مِحْرِمَة[16]. وخلال أوائل العقد الخامس من القرن السادس عشر اشتدت المنافسة بين الغريمين على قلب الأميرة إلى حد أن داود نشر شائعة - قيل إن طبيب البلاط موسى هامون Moses Hamon تعاون معه فيها - تقول إن رستم غير صالح للزواج بسبب مرضه بالزهري. تمكن رستم في النهاية من تفنيد الإشاعات وحظي بمباركة السلطان لزواجه من مِحْرِمَة، لكنه لم ينسَ الإهانة العلنية التي وجهت إليه، وبدأ فورا التخطيط للتخلص من سليمان الخادم راعي داود، وكان رستم المسؤول المباشر عن ترتيب المراجعة المالية التي ألحقت العار بالباشا وأدت إلى سقوطه في العام 1544[17].

ظلت التأثيرات الباقية لهذه المكائد الداخلية المسمومة ترخي بظلالها على مدة خدمة رستم في الصدارة العظمى، ولذلك خطط لضمان عدم تمكن خصومه السياسيين مرة أخرى من تقويض مكانته المميزة في البلاط. رأى رستم أن ولايات الإمبراطورية في المحيط الهندي التي كان تأثير سليمان الخادم أقوى ما يكون فيها تشكل قاعدة طبيعية لأعدائه؛ فعزم على الوقوف في وجه التوسع في المنطقة لمنع خصومه من تعظيم قوتهم. ومن أجل هذه الغاية ذهب رستم إلى حد المعارضة العلنية لغزو أياس باشا للبصرة في العام 1546، ورفض توفير الجنود للحملة ووصف الميناء بأنه «مكان خرب... لا يساوي شيئا على الإطلاق»[18].

اتخذ رستم في السنة التالية موقفا غامضا مماثلا من جهود بلال محمد في البصرة لتوقيع اتفاقية تجارية مع البرتغاليين في هرمز[19]. لكن على الرغم من معارضة رستم القوية لهذه الاتفاقية وغيرها من تدابير التجارة الحرة، لم يكن في مقدوره أن يوقفها.

وكما رأينا في الفصل السابق، فإن بلال محمد باشا رتب توسيعا غير مسبوق في التجارة مع هرمز حتى من دون موافقة رستم، وفي العام 1551 حُفظت ترتيباته مع السلطات البرتغالية المحلية ضمن القانون الضريبي لولاية البصرة. وفي الخط ذاته في مصر، ظل منافس رستم الرئيس داود باشا في السلطة طوال العقد الخامس من القرن السادس عشر، وهنا أيضا ظل داود يتبع سياسة محابية للتجارة تقوم على الارتباط مع المحيط الهندي.

وعلى ذلك بدلا من تجاهل المحيط الهندي تماما كما أراد رستم باشا، كانت سنوات صدارته العظمى صراعا مطولا من الشد والإرخاء بين الصدر الأعظم وائتلاف منبثق من خصومه نشير إليه فيما يلي باسم «عصبة المحيط الهندي». وقد عمل رستم بدأب خلال هذا الصراع على احتواء خصومه بتحويل المناطق الحدودية على البحر الأحمر والخليج العربي إلى جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية، من خلال تقييد الاستقلالية الإدارية المحلية أينما أمكن، والاستعاضة عن الرجال الذين عيّنهم سليمان الخادم برجال من اختياره، وإعادة توجيه النشاط بعيدا عن البحر ونحو المنطقة الداخلية. وكانت أهداف عصبة المحيط الهندي تتعارض مع أهداف رستم، فعملوا من خلال مقاومة تُدخله على الاحتفاظ لأنفسهم بالحكم الذاتي المحلي، وواصلوا بالتالي الارتباط السياسي والاقتصادي مع عالم المحيط الهندي الأكبر.

وبفضل طبيعة معظم المصادر التاريخية العثمانية الباقية التي اتسمت بالتمركز حول الدولة، توجد بين أيدينا معلومات وفيرة حول نشاطات ممثلي رستم الذين أرسلهم من إسطنبول مباشرة. كان من أبرز هؤلاء عويس باشا Uveys Pasha والريس بيري والريس سيدي علي الذين تتابع ثلاثتهم سريعا على تنفيذ سياسات الحكومة المركزية من أواخر العقد الخامس من القرن السادس عشر حتى منتصف العقد السادس من القرن نفسه. وعلى الرغم من الدعم الذي لقيه ثلاثتهم من الحكومة المركزية، فإن الفشل الذريع كان مآل جهودهم جميعا. وتمكن أفراد عصبة المحيط الهندي من الاستفادة من هذا الفشل لتطويق رستم ودفع أهدافهم قدما بعزم لا يلين.

أوزدمير باشا والثورة اليمنية في العام 1547

نتجت المواجهة الرئيسة الأولى بين رستم باشا وعصبة المحيط الهندي عن نزاع حول التعيينات الإدارية في اليمن بسبب أسلوبه البيروقراطي في القيادة. فمنذ غزو سليمان الخادم النهائي لليمن في العام 1538، كان جهاز الدولة المحلي في الولاية تابعا لمصر إداريا، وظل حكرا على ثلة متعاضدة من المحاربين من حملة سليمان الخادم الأصلية. لكن كجزء من إصلاحات رستم الواسعة التي استهدفت تعزيز سلطة الحكومة المركزية؛ فُصلت كل سناجق اليمن عن مصر في العام 1545 وأعيد تنظيمها كولاية مستقلة أو بكلربكلك(*)[20].

من الواضح أن هذا التحرك الذي جاء بعد بضعة أشهر من ترقية رستم للصدارة العظمى أريد به الهجوم على خصمه داود باشا الذي ظل يمارس سلطة كبيرة بوصفه واليا لمصر. ورد داود على التحدي بالاستباق إلى تعيين رجله مصطفى النشار ليكون أول بكلربكي لليمن[21]. لكن هذه المحاولة فشلت؛ فقبل أن تنتهي السنة استبعد مصطفى ليحل محله رجل من اختيار رستم، هو عويس باشا الذي كان عبدا سابقا للسلطان سليم وتمتع بارتباطات وثيقة مع البلاط، لكن كانت تنقصه الخبرة في اليمن[22].

لم يكن مفاجئا على الإطلاق أن يسبب افتقار عويس باشا إلى الخبرة وقوعَه في سلسلة متصلة من الحماقات عرقلت الوضع الراهن الهش والخطر في اليمن. تمثل خطؤه الأول في التقدير في تهديد الإمام الزيدي شرف الدين، وهو الحاكم الشيعي الوراثي الذي واصل حكم مرتفعات اليمن الداخلية بوصفه أميرا مستقلا. فلدى علمه بوجود نزاع عائلي مكتوم بين شرف الدين وابنه المطهر، شن عويس باشا قبيل نهاية العام 1546 هجوما على مدينة تعز الخاضعة للزيديين. وعلى الرغم من نجاح الحملة، فإن عويس بدأ خلالها يتورط في خلافات مع العناصر القديمة ضمن الإدارة العثمانية المحلية الذين استخفوا بحماقة الآتي الجديد واستاءوا من ميوله الاستبدادية. وعندما قرر الباشا خلال الأشهر التالية مواصلة الزحف شمالا

(*) كانت البكلربكلك الوحدة الإدارية الكبرى في السلطنة العثمانية يحكمها بكلربكي (والي) ويتبعه سناجق، ثم استخدمت كلمة إيالة eyalet بدلا منها لبعض الوحدات، وأخيرا حلت كلمة ولاية vilayet محل الاثنتين. راجع حاشية سابقة حول كتابة هذه الكلمات في اللغة التركية العثمانية والحديثة. [المترجم].

وحصار مدينة صنعاء، دبرت له مجموعة صغيرة من هؤلاء الساخطين مؤامرة؛ فبينما كان الجيش العثماني يعسكر أمام أسوار صنعاء في صيف العام 1547، اغتاله رجل شركسي منهم يدعى حسن بهلوان Hasan Pehlivan وهو نائم في خيمته بعد ليلة قضاها في الشرب والملذات[23].

وتلا ذلك انتشار الفوضى عبر اليمن. أما القوة العثمانية الرئيسة التي شُلت بموت قائدها والانقسامات الداخلية التي مزقتها، فقد رفعت الحصار عن صنعاء فورا، وتركت قاتل الباشا يهرب. وسرعان ما تعرضت العاصمة الإدارية العثمانية في زبيد لهجوم من أنصار حسن بهلوان، واستسلمت من دون قتال. شجع ذلك - بدوره - ثلة من الوجهاء الحضريين في عدن على التنصل من ولائهم لإسطنبول وعرض مدينتهم على علي الطوالقي Ali al - Tawalki، وهو زعيم عشائري من المنطقة الداخلية لعدن. والأسوأ من ذلك أن الطوالقي أرسل سفارة لهرمز تعرض على البرتغاليين تسليمهم السيطرة على ميناء عدن وجمركها. وبالفعل أبحرت فورا من هرمز إلى المدينة سفينتان بقيادة الدوم بايو دي نورونيا Dom Paio de Noronha، مع وعد بمجيء مزيد من المدد في الطريق[24].

وفيما كانت السلطة العثمانية على شفا الانهيار الكلي، بات مصير الولاية يتوقف على بك محلي يدعى أوزدمير، تتطابق أصوله وحياته المبكرة مع كثير من أفراد عصبة المحيط الهندي في الإمبراطورية. ولد أوزدمير في مصر المملوكية لعائلة عسكرية لها ارتباطات وثيقة مع النظام القديم ما قبل العثماني، وانضم إلى خدمة العثمانيين لأول مرة خلال ولاية سليمان الخادم الأولى لمصر في أواخر العقد الثالث من القرن السادس عشر، تلك الفترة التي أعيد فيها دمج الكثير من المماليك السابقين وذريتهم ضمن الإدارة الإقليمية الجديدة بوصفهم رعايا موالين للعثمانيين. وقضى أوزدمير العقد التالي بين مسؤولي المستوى الأوسط في ولاية مصر حتى اختاره سليمان الخادم في العام 1538 للمشاركة في الحملة العثمانية على كجرات.

لا يُعْرَف الكثير عن أعمال أوزدمير خلال الحملة الكجراتية، لكن من الواضح أنه خدم بتميز جعل سليمان الخادم يرقيه لقيادة سريته العسكرية الصغيرة لدى عودته من الهند في خريف العام 1538، ثم أمره الباشا باستطلاع المنطقة الداخلية الأفريقية الجافة الواقعة بين البحر الأحمر ووادي النيل. توجه أوزدمير في شتاء

العام 1539 إلى ميناء القصير، ومن هناك عبر مئات الأميال من الصحراء بنجاح وبلغ النيل واستولى على عدد من المدن في مصر العليا التي كانت لاتزال خارج السيطرة العثمانية، وعاد سالما أخيرا إلى القاهرة في مركب نهري. لم تقم قوة عثمانية بحملة من هذا النوع من قبل، ولذلك أكسبه نجاحها اعترافا به قائدا شابا جريئا ومقتدرا. وبعد بضع سنوات أخرى في الخدمة في مصر، رقي أوزدمير إلى رتبة «بك»، ونُقل إلى منصب كبير في اليمن[25].

كان أوزدمير لايزال في اليمن في ربيع العام 1547، وبعد اغتيال عويس باشا أصبح فجأة أكبر ضابط عثماني في الولاية. وفي مواجهة إمكانية التمرد العام، تمكن أوزدمير بطريقة أو بأخرى من استعادة النظام بين القوات التي ظلت معسكرة خارج صنعاء، وعُيّن بالهتاف العلني قائدا مؤقتا محل الباشا المقتول، وسرعان ما سيطر على الأمور بسرعة وكفاءة مذهلتين. وتعهد بالانتقام لاغتيال عويس، وبالفعل نجح خلال أيام معدودات في تعقب حسن بهلوان وقتله، ثم استأنف حصار صنعاء واستولى عليها في أقل من أسبوع، ومن هناك أرسل رسولا يخبر السلطات في مصر بخطورة الموقف في الولاية ويطلب إرسال أسطول من السويس في الحال للمساعدة في استعادة السيطرة العثمانية على المعاقل التي ظلت متمردة في زبيد وعدن[26].

جاءه المدد سريعا، ومما لا يخلو من دلالة أن الرد على استغاثة أوزدمير لم يأت من رستم، بل من داود باشا في مصر الذي تصرف بمجرد أن وصلته رسالة أوزدمير من دون أن يحيل الأمر إلى رئيسه. وبالنظر إلى الدسائس السياسية التي ميزت السنوات السابقة، يبدو أن داود لم يفعل ذلك من باب إلحاح الموقف فقط، بل أيضا لقطع الطريق على رستم لاختيار دخيل آخر، كي يحل محل عويس باشا الراحل، ووقع اختيار داود على صولاق فرهد، وهو رفيق مقرب كانت له أوراق اعتماد دامغة في المحيط الهندي بعد أن خدم بوصفه مبعوثا لسليمان الخادم إلى اليمن وحضرموت في العام 1537، وكبيرا للمفاوضين في الهند في العام 1538، وخدم منذ العام 1542 بوصفه أميرا لأسطول البحر الأحمر. عيّنه داود باشا محل عويس واليا لليمن، وبعثه فورا للمخا التي وصل إليها في نوفمبر 1547[27]. ولمعاونة صولاق، أمر داود ببناء أسطول كبير من نحو ستين سفينة في السويس وضع في إمرته الريس بيري، رسام الخرائط والملاح الشهير[28].

كان الريس بيري - بالنظر إلى تاريخه - اختيارا منطقيا تماما لهذا المنصب. فلأنه قبطان سرب القوادس العثماني في الإسكندرية، كان بيري حينذاك أكبر ضابط بحري في مصر، وكان له سجل طويل في الدفاع عن التوسع العثماني في المحيط الهندي[29]. لكن على خلاف داود باشا وأوزدمير باشا وصولاق فرهد، لم يكن بيري من المحاربين في الحملة الكجراتية، ولم تكن لديه خبرة عملية في المحيط الهندي قبل هذا التعيين، ما يعني أنه وصل إلى السويس دخيلا عليها في خريف العام 1547، علاوة على أن بيري في ذلك الوقت كان في نحو التسعين من عمره بعد أن قضى حياته كاملة في الخدمة في أسطول البحر الأبيض المتوسط العثماني. لذلك ظلت وجهة بيري السياسية هي إسطنبول لا مصر، وأثبت في النهاية أنه منحاز إلى رستم، لا إلى داود وعصبة المحيط الهندي[30].

بيد أن هذه الولاءات المتعارضة لم تتكشف تماما إلا بعد تجاوز أزمة اليمن بنجاح. أبحر بيري من السويس والتقى صولاق فرهد في المخا في بداية ديسمبر 1547، ومن هناك أرسل القائدان تعزيزات برية لأوزدمير الذي استعاد السيطرة على زبيد بسهولة ووضع حدا للتمرد في الداخل. وتوجه فرهد والريس بيري إلى عدن التي وصلها فرهد أولا بقوة متقدمة من خمس سفن في أواخر ديسمبر، ثم انضم إليه الريس بيري وبقية الأسطول في نهاية يناير[31].

بمجرد أن اتخذ أسطولهما المشترك موقعه، بدأ قصفا هائلا لأسوار عدن الدفاعية الحصينة التي تولى الدفاع عنها الكابتن البرتغالي الدوم بايو دي نورونيا وأطقم سفينتيه الآتيتين من هرمز. كان نورونيا حينذاك لايزال ينتظر وصول قوة إغاثة أكبر بقيادة ألفارو دي كاسترو Alvaro de Castro من الهند، لكن بسبب عدة مرات من التأجيل ظل هذا الأسطول راسيا في غوا، ولم يبحر إلا بعد أسبوعين آخرين. وبحلول منتصف فبراير، يئس نورونيا أخيرا من الدفاع عن المدينة وتخلى عنها حين لم تلُح أي علامات على وصول التعزيزات. خرق العثمانيون الأسوار واقتحموا قلعة عدن في الثالث والعشرين من الشهر، أما ألفارو دي كاسترو الذي لم يتمكن من الوصول قبالة ساحل شبه الجزيرة العربية حتى بداية مارس، فقد أُجبر على العودة حتى من دون أن يكحل عينيه برؤية عدن[32].

هكذا انتهت الحملة بإظهار للكفاءة العسكرية العثمانية إظهارا دافعا، لاسيما بالنظر إلى المسافات الشاسعة التي اضطر العثمانيون إلى العمل عبرها. فلم يرسل

أوزدمير استغاثته إلا في نهاية شهر أغسطس، ما يعني أن رسالته لم تصل داود باشا في مصر قبل منتصف شهر سبتمبر. ومع ذلك، فقد كان داود بحلول نهاية شهر أكتوبر قد جهز أسطولا هائلا في السويس، وبحلول نهاية شهر نوفمبر كانت هذه القوة قد وصلت سالمة إلى اليمن، وبحلول شهر يناير كان معظم الولاية قد أُخضع، وبحلول منتصف فبراير استُردت عدن، قبل أسابيع من تمكن القوة البرتغالية الرئيسة من الوصول إلى موقع الأحداث.

لم تفت ملاحظة سرعة الاستجابة العثمانية وقوتها البرتغاليين الذين كانت ثقتهم بقدرتهم على الرد قد اهتزت فعلا بفعل الغزو العثماني الخاطف للبصرة في العام 1546. وفي أعقاب هذا الفشل الرئيس الثاني خلال بضع سنوات، نصح أسقف غوا الملك متألما بأن يتابع الأحداث أولا فأولا، وأن يستشير رجالا محنكين، «لا سيما بعد أن أصبح العثمانيون موجودين في البصرة وعدن، ولأنهم قوم أكثر اجتهادا منا هنا [في هرمز]، وأكثر عناية منا بتجهيز أنفسهم للحرب، وأكثر إلماما منا بالأحوال عموما»[33].

كانت هذه الملحوظة في العام 1547 تنطبق - لا ريب - على السلطات العثمانية في مصر واليمن والخليج العربي، لا على الحكومة المركزية في إسطنبول. فلم تكن سرعة استجابة داود باشا وفعاليتها في أزمة اليمن ممكنتين لولا تجاوز الباشا لتسلسل القيادة المتبع وتصرفه باستقلالية عن رستم، علاوة على أن ما استلزم تدخله في المقام الأول كان تعيين رستم غير الملائم للدخيل عويس باشا على رأس الإدارة المحلية. ومن الواضح أن رستم بدأ يدرك ذلك - على مضض - في أعقاب الأزمة؛ فعلى رغم أنه رفض تعيين مرشح داود (فرهد) واليا جديدا لليمن، فإنه لم يعيّن بدلا منه شخصا آخر من إسطنبول، بل عيّن أوزدمير باشا، وهو اختيار يشي بتقدير جديد لأهمية احترام الحساسيات المحلية والخبرة المحلية عند التعامل مع هذه المنطقة التخومية البعيدة[34].

احتفظ أوزدمير بمنصبه في اليمن خمس سنوات كاملة اشتهر خلالها بأنه إداري مقتدر ومفاوض ماهر ومخطط استراتيجي عسكري نابه. بعد أن استعاد النظام وعاقب آخر المتآمرين على عويس (المهمة التي أتمها في أوائل العام 1548)، زحف أوزدمير شمالا مرة أخرى، ما زاد الضغط تدريجيا على الزيديين في المرتفعات ووسع

السيطرة العثمانية في الداخل، حتى اضطر المطهر ابن الإمام شرف الدين إلى طلب الصلح في العام 1552. فجاءت المعاهدة التالية التي وافق المطهر بمقتضاها على الدخول في خدمة الإدارة الإمبراطورية برتبة «بك» والعمل بوصفه مسؤولا عثمانيا، لتتوسع السيطرة العثمانية أبعد من أي وقت مضى في الداخل اليمني وتقضي على آخر جيوب المقاومة المحلية للحكم العثماني[35]. وعندما أكمل أوزدمير مدته في العام 1554، كانت اليمن ولاية غنية ومستقرة تدر فائضا سنويا كبيرا للخزانة الإمبراطورية في إسطنبول[36].

ومن قبيل المفارقة، جاء معظم ما أنجزه أوزدمير خلال تلك السنوات منسجما مع خطة رستم باشا الأصلية للولاية؛ إذ حوّلت جهود أوزدمير اليمن من مركز حراسة متقدم على شواطئ المحيط الهندي إلى جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية. لذلك يمكن اعتبار إدارة أوزدمير تسوية مبكرة ناجحة بين الصدر الأعظم وعصبة المحيط الهندي، تنازلت الحكومة المركزية بمقتضاها عن شيء من السيطرة المباشرة في مقابل الإذعان المحلي لتنفيذ سياسات رستم.

على أن لحظة الانسجام لم تدم أطول من مدة أوزدمير في ولاية اليمن. وخلال سنة من رحيله عن اليمن، استغل الباشا تغيرا مؤقتا في القيادة في إسطنبول لكي يعيد توجيه التوسع العثماني مرة أخرى نحو البحر وبعيدا عن الداخل البري. في هذا الفاصل، تواصل الصراع بين الصدر الأعظم وعصبة المحيط الهندي في مكان آخر، إذ انتقلت بؤرة الأحداث إلى بحر العرب، وتمحورت حول زميل معاصر لأوزدمير باشا لكنه أقل شهرة منه يدعى الريس سفر(*).

نجم يصعد في الشرق

لا يُعْرَف الوقت أو الظروف التي بدأ فيها الريس سفر Sefer Reis حياته في البحر؛ فأقدم وثيقة أرشيفية عثمانية باقية تذكره ترجع إلى العام 1544، وتشير إلى أنه كان في ذلك الوقت ريسا لسرب صغير من القوادس المتمركزة في السويس. كان سفر في هذا المنصب مسؤولا عن تنفيذ دوريات الحراسة في البحر الأحمر فضلا عن

(*) هكذا يكتب اسم الريس «سفر» بالأبجدية العثمانية، بحرف «س» وليس «ص» كما يرد في موضع لاحق من الكتاب. [المترجم].

إمداد رؤسائه بتقارير استخبارية منتظمة حول منطقة المحيط الهندي الأوسع، ما يكشف أنه كان في هذا التاريخ المبكر يشغل مكانة مهمة ضمن تراتبية أسطول البحر الأحمر العثماني[37]. وحيث إن العام 1544 تضمن الأشهر الأخيرة لصدارة سليمان باشا الخادم العظمى، يمكننا أن نخمن أن سفر جمعه ارتباط وثيق مع عصبة المحيط الهندي قبل ذلك بكثير، ومثل الكثير من أفراد هذه العصبة، ربما شارك سفر في حملة سليمان الخادم على كجرات في العام 1538. وبعد موت الصدر الأعظم، يرجح أن سفر شارك في الأعمال العدائية العثمانية على البرتغاليين في العام 1546، ربما كجزء من حملة الإغارة البحرية الجريئة التي أبحرت أعلى ساحل شبه الجزيرة العربية حتى مسقط قبل أن يغزو أياس باشا البصرة مباشرة. وربما كان سفر ريس هذه الحملة، وإن كنا لا نستطيع أن نستوثق من ذلك لعدم بقاء أي من دفاتر المهمة العثمانية من هذه السنوات(*)[38].

وعلى أي حال، فإن اسم سفر أخذ بحلول العام 1550 يظهر في المصادر البرتغالية التي توضح رواياتها أنه كان في ذلك الوقت يتمتع بصيت ذائع بوصفه بحّارا مقتدرا. من ذلك مثلا أن المؤرخ الإخباري ديوغو دو كوتو سجّل أن سربا كبيرا من السفن البرتغالية بقيادة لويس فيغيرا Luiz Figueira استطلع في خريف ذلك العام قبالة ساحل بلدة جر «أربعة غليوتات كبيرة رائعة البناء... أبحر بها قرصان مسلم عظيم يدعى سفر، جاء من مكة بهدف الإغارة على مسقط ومهاجمة السفن التي تغادر عادة من هرمز إلى غوا والموانئ الأخرى على طول ساحل الهند»(**)[39]. انزعج فيغيرا من وجود السفن العثمانية في عمق المياه البرتغالية، فقرر فورا أن يطاردها.

تستحق هذا المواجهة الموثقة الأولى بين سفر والبرتغاليين التي حظيت بوصف مطول في أخبار كوتو أن نسردها بشيء من التفصيل لأنها أرست نمطا كرره القرصان بنجاح على امتداد بقية حياته العملية. يخبرنا كوتو أن الفريسة التي أرادها سفر كانت السفن التجارية البرتغالية ثقيلة الأحمال وسيئة الحراسة التي كانت تبحر كل

(*) راجع مواضع سابقة حول مجموعة دفاتر المهمة. [المترجم].

(**) الغليوت galliot قادس صغير يسير بالأشرعة والمجاديف كان يسمى في البداية نصف قادس half - galley. [المترجم].

ربما تكون جر Jor حاليا قرية في محافظة سيستان وبلوشستان الإيرانية الواقعة على بحر العرب. [المترجم].

خريف من هرمز إلى الهند مع الرياح الموسمية، وهي ثروة كان الاستيلاء عليها بلا ريب هدفا مثاليا لقرصان. ولا بد أن سفر كان يعلم أنه بالإبحار بعيدا إلى الشمال وعلى هذا القرب من القاعدة البرتغالية في هرمز كان يعرض نفسه لخطر مقابلة دورية برتغالية قوية التسليح، وهو ما حدث فعلا في النهاية. لكن سفر، بدلا من الوقوف في مكانه ومحاربة فيغيرا وجها لوجه، أدار سفنه إلى الوراء، وعاد في الاتجاه الذي جاء منه وأسرع الإبحار أدنى الساحل متجنبا المواجهة في البحر المفتوح. حاول فيغيرا اللحاق به، لكنه أدرك أن سفن سفر الخفيفة كانت سريعة وتمتعت بميزة السبق منذ البداية، فتخلى فيغيرا عن المطاردة العقيمة ولزم مساره ثانية إلى الهند[40].

عندما وصل فيغيرا إلى غوا وأبلغ رؤساءه بما حدث، أمره نائب الملك أفونسو دي نورونيا بأن يسلّح أسطولا أكبر قليلا مكونا من أربع سفن شراعية وسفينة فوستة واحدة بمجاديف، وأن يشن هجوما مضادا تأديبيا على سفر في مياهه الإقليمية بالبحر الأحمر. لكن نظرا إلى أن فيغيرا اضطر إلى انتظار الرياح الموسمية الشتوية، فإنه لم يصل إلى ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية ويدخل باب المندب حتى يناير 1551، وهناك كان سفر الذي توقع وصوله يكمن في موقع مرئي لكنه مختار بعناية. من الواضح أن فيغيرا أساء فهم انسحاب خصمه في السابق على أنه أمارة على الضعف، ولذلك فإن فيغيرا، عندما رأى قوادس القرصان الأربعة، تهور بمهاجمتها بسفينته الوحيدة ذات المجاديف، وسرعان ما وجد نفسه مطوقا، فأسرعت سفنه الشراعية المرافقة إلى نجدته، ليدركوا أن الأوان قد فات لأن ضحالة المياه حالت دون اقترابهم.

وقفت أطقم السفن الشراعية البرتغالية تتفرج على سفن سفر وهي تغرق سفينة كابتنهم، ولم يتمكنوا من فعل شيء غير إطلاق وابل من نيران المدفعية غير المؤثرة من بعيد. وأمام أعينهم، أغرقت السفينة وقُتل فيغيرا ووقع كل رجاله في الأسر، ما أجبر السفن البرتغالية الأربع الباقية على الفرار يلحقها الخزي الذي بلغ بأحد هذه الأطقم حد أنهم لم يعودوا إلى الهند، بل توجهوا بدلا من ذلك إلى الساحل الأفريقي طالبين اللجوء لدى بلاط إمبراطور إثيوبيا. وأبحرت السفن الثلاث الباقية شرقا، وخلال رحلة عودتهم أضافوا إلى خزي الهزيمة نهب سفينة تجارية من ديو كانت تحمل رخصة تجارية برتغالية سارية[41].

على أن هذه المواجهة الصغيرة على ما يبدو بين عدد صغير من السفن ومن دون تدخل مباشر من إسطنبول أو لشبونة، لا تعد الانتصار العثماني الأول ولا الأكبر على حساب البرتغاليين، لكنها الحالة الأولى التي يُهزم فيها البرتغاليون على أرضهم، أي في صراع مباشر على صفحة البحر لا في حصار أو هجوم برمائي على قلعة برية. وربما كان الأكثر إيلاما من المنظور البرتغالي أنه لا يمكن إرجاع انتصار سفر إلى القوة الفائقة - قوة العثمانيين التقليدية - وإنما بالأحرى إلى فهم محنك للظروف الطبيعية لغرب المحيط الهندي ونقاط الضعف الطبيعية في الشبكة البحرية البرتغالية.

نتج نجاح سفر عن ثلاثة أحكام متبصرة أساسية. أولا، أدرك سفر أن هناك فرصا وفيرة للنهب في المياه الواقعة بين هرمز وكجرات، وهو الممر البحري ذو المرور الأعلى كثافة في كل جزر الهند الشرقية البرتغالية. وباستخدام قوة صغيرة من القوادس الخفيفة السريعة، كان في مقدوره أن يطارد السفن التجارية التابعة لدولة الهند فرادى خلال موسم الإبحار الكثيف في أواخر الصيف وأوائل الخريف. ثانيا، على رغم أن سفر كان يعلم أن قوادسه كانت عرضة لمقابلة دوريات مسلحة من السفن الشراعية البرتغالية في البحر المفتوح، فإنه بالنظر إلى أن الرياح الموسمية تهب بانتظام ناحية الشمال الشرقي خلال الصيف والخريف، قَدَّر أنه يستطيع دائما أن يفلت من هذه القوة «بالتجديف» ناحية الجنوب الغربي في عكس اتجاه الرياح أدنى ساحل شبه الجزيرة العربية عائدا إلى قاعدته في المخا، ولا تستطيع السفن الشراعية البرتغالية أن تتعقبه. ثالثا، كان سفر يعلم أنه حتى إذا لم يتمكن من الاستيلاء على أي سفن تجارية وهو في البحر، فإن مجرد ظهور قوادسه حول هرمز كان استفزازا من شأنه في النهاية أن يستحث هجوما مضادا من الأسطول البرتغالي، وحيث إن هذا الهجوم لا يمكن أن يحدث إلا في أشهر الشتاء عندما يجعل تغير اتجاه الرياح الموسمية الإبحار من الهند إلى الغرب ممكنا، فقد كان بإمكانه أن يستعد مسبقا لوصول البرتغاليين، وأن يغريهم بالدخول في مياه توجد فيها رياح متقلبة أو مناطق ضحلة وأحياد مرجانية خطرة، ما كان يعطي قوادسه ميزة قاتلة على البرتغاليين[42].

على مدار العقد التالي، شكّلت هذه الاستراتيجية القالب الأساسي لكل مآثر سفر في البحر التي أصبحت تدريجيا أكثر جرأة وتأثيرا مع كل سنة تمر. لكن في الوقت الحاضر،

احتجب نجاحه المبكر بجوار عجز رؤسائه الذين كانوا مشغولين بوضع الأساس لسلسلة غير مسبوقة من الهزائم العثمانية في البحر لم يلعب سفر أي دور فيها.

الفشل في هرمز

ترجع هذه السلسلة المحرجة من الكوارث البحرية إلى استمرار تدخل رستم في شؤون المحيط الهندي. فعلى رغم أن رستم وعصبة المحيط الهندي توصلا إلى تسوية مرضية - وإن كانت مؤقتة - في اليمن من خلال تعيين أوزدمير باشا واليا للولاية، فإن الصدر الأعظم واصل فرض عدد من الإصلاحات المركزية في الأماكن الأخرى. كان أول هذه الأفعال محاولته تقييد استقلالية أسطول البحر الأبيض المتوسط العثماني، وهو ما أنجزه بترشيح أخيه سنان باشا Sinan Pasha لمنصب «قبودان دريا» kapudan - i derya للأسطول العثماني، أي الأمير الأعلى للبحر. وكما حدث في الكثير من تعيينات رستم، كان سنان من عدة نواح اختيارا غير موفق؛ إذ كان عديم الخبرة في الشؤون البحرية وكان مؤهله الرئيس هو ولاءَه الأخويّ الموثوق. لذلك، وكما حدث مع عويس باشا الذي تورط في خلافات مع العسكريين الأقدم في اليمن، بدأ سنان هو الآخر في إثارة العداء لدى القادة الأكثر حنكة وخبرة في أسطول البحر الأبيض المتوسط. لكنه على رغم ذلك استطاع بدعم رستم أن يحتفظ بمنصبه عدة سنوات أدخل خلالها تغييرات دائمة - لم تكن إيجابية بالضرورة - في البنية الداخلية للأسطول العثماني واستقلاليته[43].

من الواضح أن رستم طبق المنطق المركزي نفسه بين العامين 1550 و1554 على أسطول المحيط الهندي الأصغر بكثير، وإن ظل يتمتع باستقلالية كبيرة. فعلى رغم أنه اضطر إلى إعادة النظر جزئيا في سياساته للتعيين بسبب اغتيال عويس باشا، فإنه ظل يرتاب صراحة في استمرار استقلالية المسؤولين العثمانيين في منطقة المحيط الهندي، لاسيما العلاقة التجارية الدافئة غير الخاضعة للرقابة بين البرتغاليين في هرمز والسلطات العثمانية المحلية في البصرة. ومن الواضح أن رستم انزعج حقا من التدخل البرتغالي في عدن في العام 1547 الذي أثبت أن قاعدتهم في هرمز ظلت تشكل خطرا حقيقيا على الأمن الداخلي لليمن. لذلك نفذ رستم خطة طموحة لطرد البرتغاليين تماما من شبه الجزيرة العربية. أراد

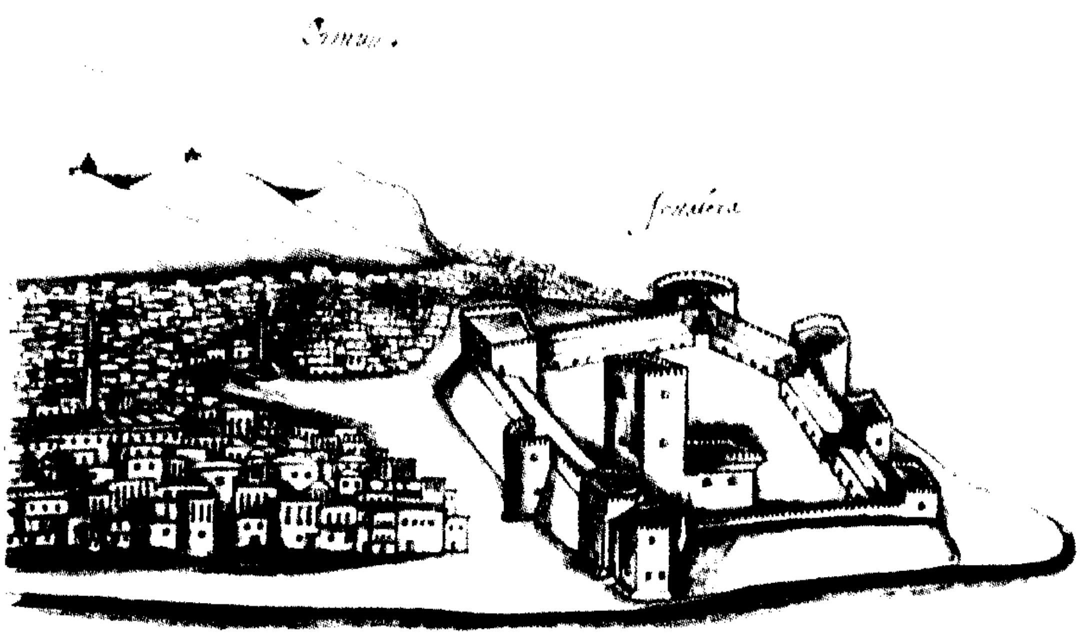
الباشا بذلك أن يجعل الخليج العربي بحيرة عثمانية مثل البحر الأسود وأن يغلقه أمام التأثير الخارجي وأن يخضعه إلى سيطرته.

تمثل حجر الأساس لهذه الخطة في غزو هرمز التي كانت قلعتها الجزيرية الهائلة تمتلك مفاتيح السيطرة على الوصول البحري إلى الخليج العربي والخروج منه. من باب التحضير لهذا العمل، أرسل الباشا في أوائل العام 1550 تعزيزات للحامية العثمانية في البصرة التي استولت بأوامره على ميناء القطيف القريب التابع لهرمز والخاضع بالتالي لحكم برتغالي غير مباشر(44). وأمر الباشا ببناء أسطول جديد من القوادس في السويس وحشد حملة عسكرية كبيرة تضم مدفعية ومشاة وخبراء حصار(45)، ووضع كل هؤلاء الرجال والتجهيزات تحت إمرة تابعه الريس بيري الذي شغل منذ العام 1547 إمارة أسطول المحيط الهندي(46).

بسبب هذه التحضيرات، كانت هرمز في العام 1551 تغص بشائعات حول احتلال وشيك، وبعد انكشاف عدة مؤامرات محلية لخيانة المدينة لمصلحة العثمانيين، وصل القلق بالبرتغاليين حد التخطيط لتوجيه ضربة استباقية إلى البصرة(47)، فأبحر كابتن هرمز ألفارو دي نورونيا في شهر يوليو من تلك السنة بألف ومائة برتغالي وثلاثة آلاف من القوات المساعدة المحلية إلى القطيف التي وجدوا فيها حامية من أربعمائة جندي عثماني، أرغموها بعد عدة أيام من القصف الثقيل على التخلي عن موقعها والفرار، ومع ذلك آثر البرتغاليون تدمير قلعة القطيف الفارغة بدلا من إعادة احتلالها. ثم تحرك نورونيا بحرا نحو البصرة التي أراد أن يفاجئها ويستولي عليها بمساعدة الزعيم العشائري المحلي الشيخ يحيى الذي اضطره العثمانيون إلى الفرار من البصرة في العام 1546(48). كان من سوء حظ البرتغاليين أن البكلربكي المحلي تلقى تحذيرا مسبقا بتحركات نورونيا، واستخدم حيلة متقنة أقنعت البرتغاليين بأن حلفاءهم المحليين خانوهم، فأمر نورونيا أسطوله بالعودة من دون محاولة الهجوم ونجت البصرة، وبعد بضعة أسابيع أعاد العثمانيون احتلال القطيف(49).

كان الريس بيري في هذه الأثناء يكمل التحضيرات النهائية لخروج أسطوله من السويس، وأبحر أخيرا في أبريل 1552 بأربعة وعشرين قادسا وأربع سفن إمداد. وبحلول شهر يوليو، كانت قوة متقدمة يقودها ابنه الريس محمد Mehmed

Reis قد دارت حول شبه الجزيرة العربية ونزلت في معقل مسقط البرتغالي. وهنا بعد حصار ثمانية عشر يوما، استولوا على مسقط ونهبوا قلعتها ودمروها، وأسروا مائة وثمانية وعشرين برتغاليا، بينهم الكابتن المحلي جواو دي ليسبوا Joao de Lisboa[50]. وعقب وصول بيري بعد بضعة أيام، أعاد الأسطول التشكل كقوة قتالية واحدة وأبحر شمالا ووصل إلى هرمز في الأسبوع التالي. وبحلول أوائل شهر أغسطس، كانت أعداد كبيرة من القوات العثمانية قد نزلت على الجزيرة، وكان المدفعيون قد حفروا مواقع حول القلعة. وبذلك بدأ حصار هرمز، تلك الجائزة الكبرى في آسيا البرتغالية قاطبة (الشكل 1-4).



الشكل (1-4): منظر من منتصف القرن السادس عشر لقلعة هرمز البرتغالية. المصدر:
Gaspar Correia, Lendas da India (Lisbon, 1858-1864).

سارت الأحداث حتى هذه النقطة بسلاسة مذهلة بالنسبة إلى الريس بيري وأسطوله. لكن وصوله إلى هرمز كان بداية لسلسلة متواصلة من الكوارث انتهت أخيرا بموته بعد بضعة أشهر على أيد عثمانية. تكشّفت أولى نذر متاعب العثمانيين لدى وصولهم إلى هرمز، عندما علموا أن سفينة حربية برتغالية كبيرة وقوية التسلح وصلت إلى الجزيرة - مصادفة - قبلهم مباشرة. أدت هذه النجدة غير المتوقعة للبرتغاليين إلى زيادة عدد المدافعين داخل القلعة عن عدد قوات الحصار، ونتيجة لأن البرتغاليين كانوا يحتفظون عادة بعدد كبير من المدافع ومخزون جيد من

البارود؛ فإنهم أوقعوا خسائر جسيمة في قوات الحصار العثمانية وفي سفنها الراسية في الميناء. وأثبتت مدافع العثمانيين عجزها أمام أسوار القلعة المحصنة، لاسيما أن سفينة الإمداد التي فقدت خلال الرحلة البحرية من اليمن كانت تحمل جزءا كبيرا من مخزون الذخيرة[51].

وهكذا اتضح أن الهجوم المكلف والمخطط بإتقان كان بلا جدوى، لاسيما بعد أن وصلت إلى العثمانيين أخبار بأن قوة إغاثة برتغالية إضافية كانت في طريقها من الهند. فأمر الريس بيري برفع الحصار، وأرضى نفسه بنهب ضواحي المدينة والاستيلاء على عدة سفن تجارية ثقيلة الأحمال كانت راسية قبالة جزيرة قريبة. وخوفا من مواجهة قوة الإغاثة البرتغالية؛ توجه الريس بيري مباشرة إلى البصرة حتى من دون محاولة الإنزال في البحرين، مع أن أوامر رستم له حددت هذه الجزيرة صراحة هدفا ثانويا للهجوم[52].

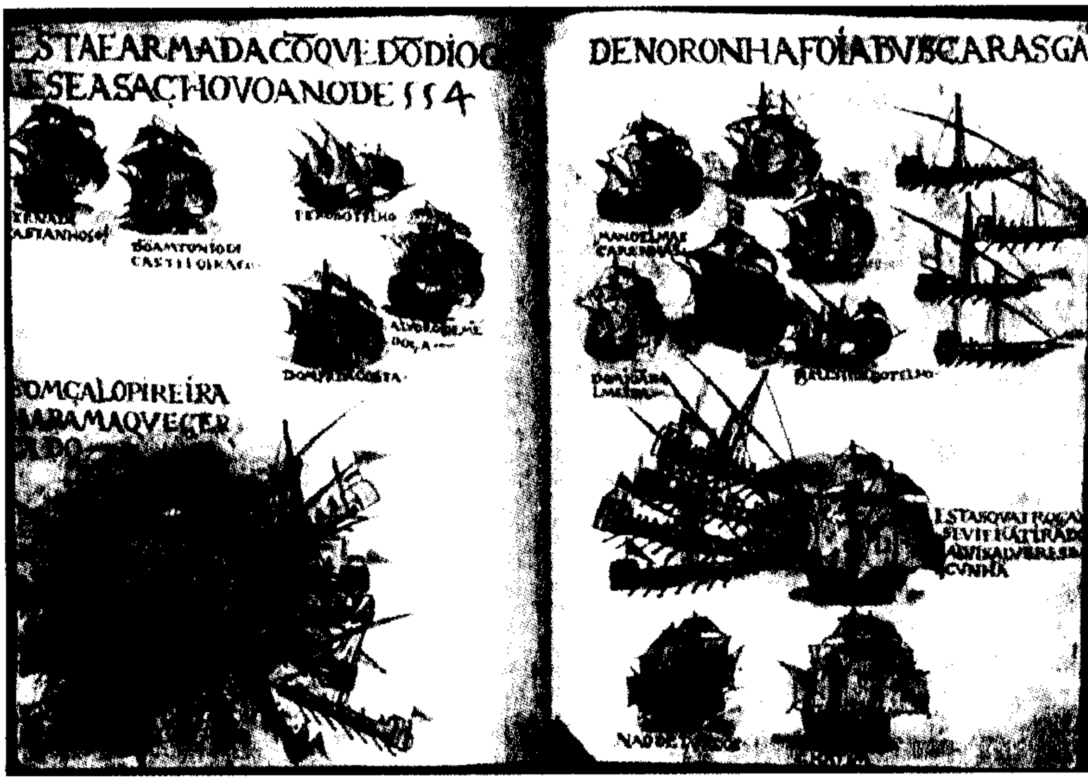
واصل الموقف التدهور بعد وصول الأسطول إلى البصرة، إذ انتابت بيري أزمة ثقة حادة وغير معهودة نتجت عن مزيج من شيخوخته (يعتقد أنه كان في ذلك الوقت في نحو التسعين من العمر) وعدم ألفته بالبيئة المحيطة وإحباطه الشديد من الفشل في الاستيلاء على هرمز. وأيا كانت الأسباب، فإن بيري على رغم أنه تمركز آمنا في البصرة، تملكته على ما يبدو حالة من الذعر من احتمال أن يُقطع طريق عودته إلى السويس. لذلك قرر - في مخالفة صريحة للأوامر التي أعطيت له وفي وجه احتجاجات عنيفة من والي البصرة الجديد قباد باشا Kubad Pasha - أن يحمل الأسرى والغنائم التي ربحها خلال الحملة في سفنه الثلاث الأسرع وأن يتوجه إلى السويس وحده، تاركا بقية أسطوله يواجه مصيره[53]. كان هذا التصرف مخالفة ترقى إلى حد الخيانة، وعلى رغم أن بيري أظهر مهارة عظيمة في الإفلات من سربين برتغاليين منفصلين أرسلا لتعقبه خلال رحلة عودته إلى البحر الأحمر، فإنه لم يستطع أن يفلت من غضب رؤسائه عندما وصل إلى مصر[54]، إذ أمر علي باشا سميز Semiz Ali Pasha، الذي حل محل داود باشا واليا لمصر في العام 1549، بالقبض عليه في السويس وأشرف على إعدامه بعدها بقليل[55].

كوارث أخرى في البحر

بوفاة الريس بيري، ورسو الأسطول العثماني مهجورا وبلا قائد في البصرة، واستمرار سيطرة البرتغاليين على هرمز، وترصد سرب معادٍ بقيادة بيرو دي تيدي إنفيرنو Pero de Taide Inferno قبالة ساحل اليمن، أصبح أمان البحر الأحمر وجدة والسويس نفسه مسألة تثير قلقا مشروعا. لكن في لحظة الأزمة نفسها، وعلى نحو مشابه لما حدث بعد اغتيال عويس باشا قبل خمس سنوات، وجدت عصبة المحيط الهندي مرة أخرى فرصة سانحة لإعادة تأكيد نفوذها، إذ عُيّن مؤقتا خلفا لبيري في قيادة الأسطول الراسي في البصرة مراد بك Murad Beg الذي كان أحد رجال داود باشا وأحد المحاربين الذين شاركوا في حصار عدن وكان يخدم حينذاك بوصفه مديرا لميناء القطيف. وفي يوليو 1553، اختار مراد خمس عشرة من أفضل السفن الباقية في البصرة وحاول إعادتها إلى السويس، إذ أبحر حتى هرمز قبل أن يقطع طريقه أسطول برتغالي كبير بقيادة الدوم ديوغو دي نورونيا.

تعد المعركة التي تلت ذلك أكبر اشتباك مدون في البحر المفتوح بين القوات البحرية العثمانية والبرتغالية، وانتهت بانتصار حاسم لمراد (الشكل 2-4). استغل مراد هبوطا مفاجئا في الرياح أفقد السفن الشراعية البرتغالية فعاليتها مؤقتا، ونجح بمدافعه في إغراق سفينة الكابتن نورونيا، ثم أمر قوادسه الخمسة عشر جميعها بمهاجمة سفينة ثانية انفصلت عن الأسطول الرئيس، بينما وقف البحّارة البرتغاليون الآخرون يتفرجون في عجز عندما بدأ العثمانيون في تدمير أشرعة هذه السفينة أولا ثم صواريها وسطحها الأمامي بنيران مدافعهم ثم تقدموا واعتلوها وأخذوا يقتلون معظم طاقمها أو يأسرونه. وكانت هذه السفينة على وشك الغرق عندما اشتدت الرياح ثانية فجأة، تماما كما هدأت فجأة، ما مكّن السفن البرتغالية الباقية من إعادة التجمع وتنظيم هجوم مضاد. استطاع مراد أن ينقذ كل سفنه باللجوء إلى المياه الضحلة بين الجزر الصغيرة الواقعة قبالة هرمز، لكن أسطوله تكبد خسائر فادحة خلال المناورة ولم يتمكن من مواصلة الإبحار إلى السويس[56].

مكّنت عودة مراد اللاحقة إلى البصرة رستم باشا من أن يتولى مرة أخرى السيطرة المباشرة على الأحداث، إذ عيّن «قبودانَ» جديدا ليحل محل الريس بيري، وكان اختياره للمنصب هذه المرة هو الريس سيدي علي، رئيس الترسانة



الشكل (4-2): سفينتان شراعيتان برتغاليتان أعطبتهما قوادس الريس مراد، بينما كانت بقية الأسطول البرتغالي تتفرج في عجز. يقول التعليق الساخر المصاحب: «هذا هو الأسطول الذي أبحر به الدوم ديوغو دي نورونيا بحثا عن السفن العثمانية ووجدها!» المصدر: Lisuarte de Abreu, Livro de Lisuarte de Abreu . Pierpoint Morgan Library, New York, M. 525.

العثمانية الرئيسة في اسطنبول وسليل عائلة عريقة من الملاحين والبحّارة من البحر الأسود (والمؤلف المستقبلي للسيرة الذاتية «مرآة الممالك»)[57]. كانت لسيدي علي، مثل الريس بيري، خبرة طويلة في أسطول البحر الأبيض المتوسط العثماني، وشارك في غزو رودس في العام 1522، وشارك بعدها في حملات مع خير الدين باشا وسنان باشا وغيرهما من قادة البحر الأبيض المتوسط على مدار سنوات طوال جعلته بتعبيره «يعرف كل ركن وزاوية في البحر الغربي»[*][58]. لكن سيدي علي، مثل الريس بيري أيضا، تسلم منصبه الجديد من دون أن يكون قد خدم إطلاقا في المحيط الهندي، وهو افتقار إلى الخبرة تركه هو الآخر غير مؤهل للمهمة الخطرة التي كانت في انتظاره.

بعد تسلم تكليفه، سافر سيدي علي برا من إسطنبول إلى البصرة في أواخر العام 1553. وبعد أن أشرف على ترميم الأسطول خلال أشهر العطلة في شتاء العام

(*) البحر الغربي Western Sea بالنسبة إلى العثمانيين هو البحر الأبيض المتوسط. [المترجم].

1554 وربيعه، أبحر في منتصف الصيف في محاولة أخرى لإعادة الأسطول العثماني سالما إلى السويس[59]. حقق القبودان تقدما جيدا خلال المرحلة الأولى من رحلته بتجنب البرتغاليين بنجاح في هرمز والدوران حول رأس مسندم بحلول أوائل شهر أغسطس. وعند دخوله بحر العرب، علم البرتغاليون أخيرا بموقعه وأرسلوا أسطولا لمطاردته بقيادة الدوم فيرنو دي منزيس Dom Fernao de Menezes الذي اعترض السفن العثمانية فترة قصيرة خارج رأس مسندم مباشرة، لكن سيدي علي استطاع أن ينسحب بعيدا ويختفي عن الأنظار مرة أخرى بملازمة الساحل والإبحار في عكس اتجاه الرياح. وبعد التجديف خمسة عشر يوما أخرى من دون وجود إشارة أخرى إلى وجود البرتغاليين، اقتنع بأن الرياح المعاكسة قد أجبرتهم على التخلي عن المطاردة والعودة إلى هرمز[60].

أثبت هذا القرار أنه سوء تقدير مأساوي؛ إذ بدلا من العودة، دخل منزيس في البحر المفتوح وأبحر شرقا حتى صار على مسافة من الساحل كافية لتمكينه من العودة مع الرياح والوصول إلى مسقط في مواجهة السفن العثمانية بطيئة الحركة[61]. ثم نصب كمينا، إذ انتظر بكل سفنه الشراعية قبالة الساحل مباشرة، في حين أخفى عددا من سفن التجديف داخل ميناء مسقط. ضَمِن ذلك أن سيدي علي عندما وصل بعد بضعة أيام، وهو لايزال يتجه جنوبا في عكس اتجاه الرياح، لم يكن أمامه مهرب؛ لأن السفن الشراعية البرتغالية في مسقط كانت أمامه في الاتجاه الذي تهب منه الريح ويمكنها اللحاق به إذا حاول العودة، ولأن سفن التجديف البرتغالية التي تحميها المدفعية في مسقط كانت تعترض طريقه، ولم يكن باستطاعته تفادي المواجهة بالتزام المياه الضحلة على الساحل التي يصعُب على السفن الشراعية البرتغالية تعقبه فيها. كان الخيار الوحيد المتبقي له هو أن يشق طريقه إلى الأمام بغير توانٍ وسط خطوط منزيس على أمل اختراقها. لكن في أثناء ذلك، انفصلت عنه سفنه الأثقل التي هاجمها البرتغاليون، وفي النهاية استولوا على ست منها واستعبدوا أطقمها وغنموا نحو خمسين مدفعا برونزيا[62]. واستطاعت قوادس سيدي علي التسعة المتبقية أن تشق طريقها خلال الحصار وأن تهرب، لكن القتال أنهك أطقمها إلى حد أفقدهم القوة على مواصلة التجديف، وسرعان ما انجرفت السفن من تلقاء نفسها إلى البحر المفتوح (الشكل 3 – 4)[63].



الشكل (3 - 4) أسطول الريس سيدي علي بعد أن وقع في كمين برتغالي قبالة ساحل مسقط في أغسطس 1554. تظهر السفن العثمانية على اليسار وفي الخلفية، وتظهر السفن الشراعية البرتغالية في المقدمة وإلى اليمين. المصدر: Lisuarte de Abreu, Livro de Lisuarte de Abreu . Pierpoint Morgan Library, New York, M. 525.

في وسط العواصف، بدأ القبودان يدرك أنه، بوصفه بحّارا متوسطيّا، كان غير مؤهل إطلاقا لمجابهة الظروف القاسية للمحيط الهندي. كتب سيدي علي لاحقا في مذكراته عن هذه الخبرة: «مقارنة بهذه العواصف المروعة، لا يعدو أسوأ طقس في البحار الغربية أن يكون لعب أطفال، وحتى أمواجها العاتية ليست أكثر من قطرات مياه مقارنة بأمواج البحر الهندي»[64]. وبعد عدة أسابيع من الانجراف بلا هدف، وخسارة قادسين آخرين في عواصف عنيفة، تخلى سيدي علي أخيرا عن محاولته الوصول للبحر الأحمر وغيّر وجهته إلى الهند على أمل أن يجد ملاذا آمنا بين الروميين

حلفاء العثمانيين في كجرات[65]. وفي النهاية، وجد ملاذا لدى الخان الرومي ابن خوجه صفر وصهره قرة حسن Kara Hassan، وبمساعدتهما، وبمغامرات أخرى لا تحصى، استطاع أن يرجع إلى إسطنبول بالطريق البري عبر أفغانستان وإيران، تاركا خلفه في ميناء داما‌ن Daman سفنه التي فُككت لاحقا. فلم يبق شيء على الإطلاق من الأسطول الكبير الذي أرسل لغزو هرمز قبل عامين.

سفر منقذا

خلال كل هذه السنوات الحافلة بكوارث غير مسبوقة، استبعدت مكائد رستم الريس سفر تماما من أي مشاركة مباشرة في عمل الأسطول الرئيس للإمبراطورية العثمانية في المحيط الهندي (الذي لم يعد له وجود). فبينما كانت الحرب على أشدها في الخليج العربيّ وعلى طول الساحل العماني، ظل القرصان منهمكا في سلسلة من الغارات الصغيرة على أهداف برتغالية في أماكن أخرى من بحر العرب، كان من بينها أسر سفينتين تجاريتين برتغاليتين قبالة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية في العام 1551، ونهب عدة مستوطنات ساحلية في الهند في العام 1552[66]. غير أن هذه العمليات الصغيرة، على نجاحها، لم تعوض العثمانيين عن الخسائر الفادحة التي تكبدوها في هرمز ومسقط، ولم تلفت انتباه الحكومة المركزية في إسطنبول لسفر، لكنها لفتت انتباه القاهرة ووالي مصر الجديد علي باشا سميز.

خلَف علي سميز («السمين») داود باشا واليا لمصر في العام 1549، بعد الفترة القصيرة التي حكم خلالها مصطفى باشا Mustafa Pasha والتي لم تتجاوز بضعة أشهر. منذ توليه مصر، أخذ سميز باشا من هذا الموقع المميز يراقب تدهور الأوضاع في المحيط الهندي بانزعاج متنام، علما أن علي سميز هو الذي قبض على الريس بيري لدى عودته إلى مصر وأشرف على إعدامه، وهي الخبرة التي تركت لدى الوالي هواجس قوية في سياسات رستم. بدأ علي سميز في ذلك الوقت ينتبه إلى كفاءة الريس سفر اللافتة للنظر، ولذلك أرسل أمرا إلى سفر في صيف العام 1554 - الذي أبحر فيه سيدي علي من البصرة - بملاقاة الأسطول العثماني خلال رحلة عودته من الخليج العربي، وأن يفعل كل ما في وسعه للعودة به سالما إلى السويس. وتذكر رواية معاصرة واحدة على الأقل أن الباشا فعل ذلك لأنه «توقع أن سيدي علي

[سيواجه صعوبات] فأرسل إليه سفر... الذي تمتع بتقدير أصوب للأمور لكي يتولى أمر القوادس وينفذ المهمة التي كُلّف بها الأول»[67].

عندما أبحر سفر من البحر الأحمر لهذه المهمة الخطرة، لم يكن تحت إمرته غير سربه المعتاد المكون من أربعة غليوتات خفيفة (من بينها السفينة البرتغالية التي أسرها من لويس فيغيرا قبل ثلاث سنوات). ومع أنه أبحر بأقصى سرعة لملاقاة سيدي علي بأسرع ما يمكن، فإنه كان لايزال قبالة الساحل العماني إلى الجنوب قليلا من مسقط عندما وصلته أخبار هزيمة القبودان وإبحار البرتغاليين إلى الهند بست سفن عثمانية. كان حريا بسفر، الذي أغمته هذه الأخبار المفجعة ووجد نفسه فجأة في مواجهة أسطول برتغالي يفوقه عددا بدرجة لا توصف، أن يعود إلى المخا وينتظر صدور أوامر أخرى، لكنه بدلا من ذلك أحس أن في الكارثة فرصة عظيمة كما شرح المؤرخ ديوغو دو كوتو لاحقا:

> فلكونه قرصانا بالفطرة، وخبيرا بممرات تلك البحار، فقد عزم على أن يتعقب الأسطول البرتغالي على أمل أن يجد فريسة يستولي عليها. ومضى في طريقه حتى قبل أن يصل شبه جزيرة ديو مباشرة، وهناك توقف ونصب حصارا وكَمَن لأي سفن كانت ستمر خلال تلك المياه[68].

كانت خطة جريئة بكل المقاييس أن يصمم سفر على تعقب أسطول دحر من فوره قوة تعدل أربعة أضعاف القوة التي كانت تحت إمرته، ثم ينصب حصارا للشحن البرتغالي من النوع نفسه الذي اعتاد البرتغاليون على استخدامه ضد السفن الإسلامية المتجهة إلى البحر الأحمر. وعلى الرغم من جرأة هذه الخطة، فإنها أثمرت. وخلال بضعة أسابيع أسر سفر أربع سفن تجارية برتغالية قوية التسلح، واستولى إلى جانب الأسرى والسلع على أكثر من مائة وستين ألف كروزادو ذهبي(*). أراد سفر أن يستولي على سفينة أخرى ذات حمولة أثمن قيل إنها كانت على مقربة منهم، فأمر بتكبيل أطقم السفن المأسورة بالحديد ووضْع فرق صغيرة من رجاله مع كل منهم، وأعطاهم أوامر بالعودة إلى المخا وحدهم، وواصل الطواف في المياه المحيطة بديو.

(*) cruzado عملة برتغالية قديمة، لايزال اسمها يستخدم للعملة في البرازيل. [المترجم].

وصادف أن سفينة فوستة برتغالية مسلحة بقيادة بلتازار لوباتو Balthazar Lobato كانت في دورية روتينية قابلت السفن الأربع المأسورة. وعندما رأى الطاقمُ البرتغالي المكبل بإحدى السفن سفينةَ لوباتو ثاروا ونجحوا بمساعدة لوباتو في استرداد سفينتهم ومعها السفن الثلاث الأخرى وفي أسر آسريهم السابقين والإبحار بهم عائدين إلى الهند. وحدثت مصادفة أيضا أن سفر الذي كان قد يئس من محاولة اصطياد مزيد من السفن أبصر السفن البرتغالية نفسها مرة أخرى، وأدرك ما حدث ونجح في أسرها مرة أخرى، ثم طارد سفينة لوباتو بلتازار الحربية الهاربة التي استسلمت له في النهاية من دون قتال. وبعد أن صارت السفن التسع جميعها في حوزته، أبحر سفر عائدا إلى المخا التي وصلها مظفرا بعد بضعة أسابيع[69].

القرصان يصير رجل دولة

مع امتلاء خزائنه بغنائم الحرب، ومع موت منافسيه على السلطة أو رجوعهم بالخزي أو مقتلهم في المعارك، أخذ نجم سفر يصعد. كان من علامات سعده أن لحظة انتصاره الشخصي العظيم جاءت في وسط تغيير عاصف في إسطنبول وقع فيه رستم باشا ضحية للدسائس السلالية ذاتها التي استفاد هو نفسه منها في السابق. كان سبب السقوط المفاجئ للصدر الأعظم هو استمرار تحالفه مع زوجة السلطان خُرَّم التي استخدمته بذرائع زائفة في العام 1553 لترتيب إعدام الأمير المحبوبُ شاهزاده مصطفى Shehzade Mustafa، وهو آخر الأمراء العثمانيين من غير أبناء خُرَّم. وفي وسط الغضب العام، لاسيما داخل صفوف الجيش الذي أغضبه إعدام مصطفى، طرد السلطان رستم من الخدمة ونفاه لتهدئة الرأي العام.

كان رد سفر الجريء في لحظة الفرصة التي سنحت له هو أن وظّفَ ثروته الجديدة لاسترداد المبادرة له ولعصبة المحيط الهندي. ترجع معرفتنا اليوم بهذه الجهود إلى تقرير تجسس تفصيلي أرسله من مصر إلى البرتغال جواو دي ليسبوا، أسير العثمانيين في القاهرة الذي شغل سابقا منصب الكابتن البرتغالي لمسقط(*). يكشف التقرير أن سفرا أرسل في أوائل العام 1555 رسولا بعشرين ألف كروزادو

(*) كان جواو دي ليسبوا كابتن مسقط الذي أسره ضمن مائة وثمانية وعشرين برتغاليا آخرين الريس محمد ابن الريس بيري وهما في طريقهما لحصار هرمز في العام 1552. [المترجم].

ذهبي من تلك التي غنمها أخيرا من البرتغاليين هديةً للسلطان في إسطنبول، على أمل أن يرقى في مقابل ذلك إلى أمير أسطول المحيط الهندي العثماني، وهو المنصب الذي كان سيدي علي الهارب لايزال يشغله. وأرسل سفر هدية أخرى إلى والي مصر الجديد محمد باشا طالبا الإذن له بإضافة خمسة قوادس خفيفة لأسطوله في المخا. كان ذلك إعلانا منه عن نيته شن غارة ضد البرتغاليين أعلى طموحا من أي غارة سابقة نفذها العثمانيون، وذلك بالإبحار حتى سيلان لنهب السفن التجارية البرتغالية المبحرة غربا من ملقا والبنغال. ومن هناك كان يمكنه الإبحار مع الرياح الموسمية الشتوية إلى شرق أفريقيا ويهاجم الأهداف البرتغالية هناك قبل أن يكمل دورته ويعود إلى البحر الأحمر في الربيع التالي[70].

إن كانت الثقة التي عرض بها سفر هذه الخطة الجريئة على رؤسائه متفردة، فإن تنسيقها الدقيق مع نخبة الرومي الكجراتية لم يكن أقل تفردا. كانت نخبة الرومي لاتزال قوية في كجرات وحريصة على الحفاظ على صلاتها مع الدولة العثمانية على الرغم من سنوات من الإهمال من جانب رستم باشا. يخبرنا تقرير ليسبوا بأنه عندما وصل رسول سفر إلى القاهرة، وصلها من كجرات سفير رومي حاملا عدة رسائل رسمية، منها رسالة من الخان الرومي الذي كان لايزال يحكم ميناء سورت. وفقا لليسبوا الذي نجح في الاجتماع شخصيا مع هذا السفير ومعرفة المحتوى التفصيلي لرسائله، كان الغرض من سفارته أن يحصل على التزام السلطات العثمانية ببناء ما لا يقل عن خمسين قادسا حربيا في الترسانة بالسويس. وتعهد الخان الرومي وعاهل كجرات السلطان أحمد بالتكفل بكل نفقات بناء هذه القوادس وصيانتها وبناء خمسين سفينة أخرى في سورت وإقناع السامري الكاليكوتي بتوفير خمسين سفينة أخرى. وبهذه القوة المشتركة، تعهد الخان الرومي بأن ينتزع ديو من البرتغاليين، ووعد بأنه بعد إتمام هذه الحملة بنجاح سيسلم مدينة سورت للسيطرة العثمانية المباشرة[71].

كان هذا العرض في جوهره إحياء كاملا وعلى نطاق أعلى طموحا للتحالف الذي تشكل سابقا بين سليمان باشا الخادم وخوجه صفر وقراصنة المابلا الكاليكوتيين قبل نحو عشرين عاما. ومع وجود الريس سفر على رأس الأسطول العثماني المجدد، ومسؤولية الخان الرومي ابن خوجه صفر عن العمليات في كجرات، وتعاون أسطول المابلا التابع للسامري الكاليكوتي، كان باستطاعة عصبة

المحيط الهندي أن تستعيد قوتها، وأن تنجح أخيرا في تحقيق طموحها بطرد البرتغاليين نهائيا من ديو.

ذهب جواو دي ليسبوا إلى أبعد من ذلك؛ فذكر أن التحالف المجدد سيكون أقوى تأثيرا من تجسيده السابق لأن الروميين الكجراتيين كُتبت لهم الغلبة أخيرا في صراعهم الطويل مع طبقة ملاك الأراضي الأهليين في سلطنة كجرات. وفي قسم من تقريره يستند إلى محادثة شخصية مع وكيل تجاري كجراتي في القاهرة، قدم ليسبوا تفاصيل عن الصراع الذي نشأ بعد موت محمود سلطان كجرات أخيرا بين مراكز السلطة وخرج منه الروميون منتصرين على خصومهم. لذلك أصبح الرومي يوسف خان Yusif Khan (يعرف في المصادر الهندية باسم عماد الملك Imad ul-Mulk) الوزير الأقوى في بلاط السلطان الجديد أحمد، وقيل حتى إنه ادعى السلطة لنفسه في كجرات بزعمه أنه «سنجق بك تابع للسلطان العثماني»[72].

يشهد استمرار الارتكان لمبدأ السيادة العالمية العثمانية بوصفه عاملا مهما في السياسة الكجراتية، وسهولة استخدامه لإحياء خطط التحالف العابرة للقارات من دون أي تشجيع من الحكومة المركزية العثمانية، على بقاء عصبة المحيط الهندي في الإمبراطورية العثمانية وتماسكها وأيديولوجيتها. لكن قدرة سفر وحلفائه على توجيه السياسة الخارجية ظلت مقيدة بفعل البيئة السياسية العدائية التي تركها رستم باشا وراءه داخل الإمبراطورية العثمانية. وعلى الرغم من نجاحه الأخير، ظل سفر شخصية ثانوية تعمل على حافة نائية من العالم العثماني. وبفضل الدعم الثابت من السلطانة خُرَّم أعيد رستم مع نهاية العام 1555 إلى منصب الصدر الأعظم بعد أن هدأت العاصفة السياسية التي أحاطت بإعدام الأمير مصطفى. لذلك لم يجد العرض السخي من الخان الرومي آذانا مصغية في البلاط، ولم يُلتفت إلى التماس الترقية الذي قدمه الريس سفر. وحتى طلبه البسيط خمسةَ قوادس إضافية في المخا خُفِّض، إذ لم يتلق في النهاية غير غليوتين خفيفين من ترسانة السويس[73].

ملاحقة سفر

إن كان سفر قد ظل يعاني تجاهل رؤسائه في إسطنبول وعدم تقديرهم له، فإنه لم يعد كذلك بالنسبة إلى البرتغاليين الذين أخذوا يعتبرونه التهديد الأخطر لاستمرار ازدهارهم في غرب المحيط الهندي. وبعد غارته الناجحة قبالة ساحل

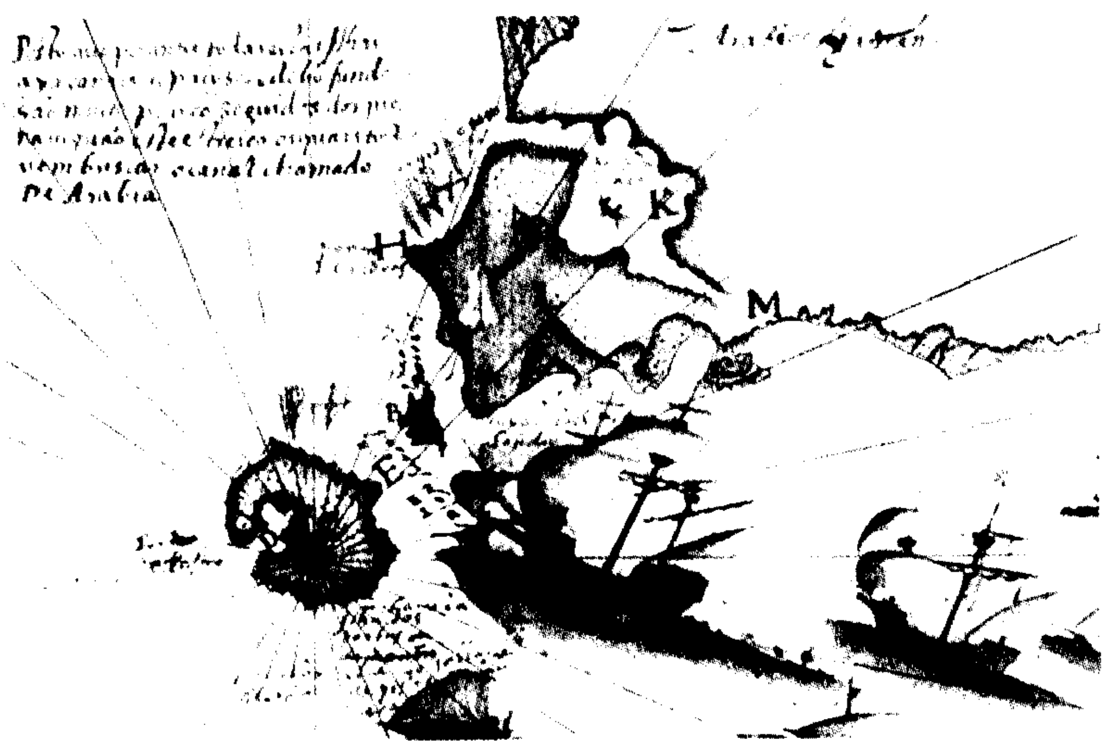
ديو مباشرة، أرسلت غوا الكابتن البرتغالي مانويل دي فاسكونسيلز Manuel de Vasconcelos بأسطول كبير في خريف العام 1554 على أمل اعتراض سفر وهو لايزال محملا بالغنائم التي ربحها من غاراته. وصل فاسكونسيلز ساحل اليمن في يناير 1555، لكنه لم يجد أثرا لغليوتات سفر، وبعد الإبحار في اتجاه الشمال الشرقي والطواف بين هرمز والهند من دون أن يجد لها أثرا عاد فاسكونسيلز أخيرا إلى الهند صفر اليدين[74]. وفي الشتاء التالي أرسلت غوا سربا آخر بقيادة جواو بيشوت Joao Peixoto لاصطياد سفر، وفي هذه المرة وجد البرتغاليون أسطول القرصان راسيا بأمان في قاعدته في المخا، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه[75]. ومما زاد من إذلال البرتغاليين أن سفر - من دون أوامر من رؤسائه - نفذ بعدها غارة أخرى قبالة ساحل الهند استولى خلالها على سفينتين تجاريتين برتغاليتين بالقرب من ميناء شاول في صيف العام 1556[76].

ينقل لنا جواو دي ليسبوا الذي كتب من الأسر في القاهرة، مرارة الإحباط الشديد التي أحسها البرتغاليون بسبب تواصل نجاح سفر. فقد كتب ليسبوا لنائب الملك في العام 1555: «كيف تسمحون باستمرار هذه اللصوصية؟ إن قوته تتعاظم يوما بعد آخر، وتزداد القاهرة ثراء باطراد من الغنائم التي تؤخذ من البرتغاليين. ويتضخم أسطوله كل يوم، وبالنظر إلى ما تمكن من إنجازه عندما لم يكن تحت إمرته غير ثلاث سفن... فما حجم المتاعب الإضافية التي سيسببها للبرتغاليين وما حجم الثروة الإضافية التي سيرسلها إلى القاهرة عندما تكون تحت إمرته ثلاثون سفينة؟»[77]. وأوصى ليسبوا بتوجيه ضربة مباشرة ضد قاعدة سفر في المخا، وذكر أن القرصان حينها لم يكن معه أكثر من أربعمائة رجل في أسطوله، وأن المخا لم تكن لها أسوار ولا قلعة، وأن الدفاع عنها تتولاه بضع مئات من رجال القبائل العرب المحليين.

وبعد أن يئسوا أخيرا من قدرة سفنهم الشراعية على فرض اشتباك مع قوادس سفر ذات المجاديف في البحر المفتوح، لم يعد أمام السلطات البرتغالية في غوا بديل عن تبني هذه الاستراتيجية الخطرة في العام 1557. فأخذوا على أنفسهم أن يردوا على النار بالنار، وسلّحوا قوة ضخمة من عشرين سفينة تعمل بالمجاديف لتكون أقدر من السفن الشراعية على القتال في المياه الضحلة، ورتبوا لتنفيذ هجوم مباشر

على قاعدته في المخا وأخذه على حين غرة وإحراق سفنه قبل أن يتمكن من الفرار. ومع ورود معلومات بأن القرصان يخطط لقضاء الشتاء بأسطوله في المخا، وضعت هذه السفن تحت إمرة ألفارو دا سيلفيرا Alvaro da Sylveira وخرجت في أواخر خريف العام 1557[78].

تقدم أسطول سيلفيرا ببطء، ولم تصل طليعته البحر الأحمر إلا في فبراير 1558. وهناك علم البرتغاليون أن سفر لايزال في المخا، لكنه يستعد للخروج بين يوم وآخر في حملة نهب أخرى، وهذه المرة سيخرج إلى الساحل السواحلي لأفريقيا جنوبا. ونتيجة لأن رياحا عاتية فرقت قوات سيلفيرا خلال إبحارها من الهند، نصحه بعض مستشاريه بالانتظار والتجمع قبل شن الهجوم. لكن الخروج المرتقب لسفن سفر أقنع سيلفيرا بأن الوقت لن ينتظرهم؛ ولذلك هاجم مرفأ المخا الضيق من دون أن يكون أسطوله في كامل قوته (الشكل 4 - 4).



الشكل (4 - 4) ميناء المخا في نحو العام 1541. مع أن الصورة تسبق أقدم ذكر للريس سفر في المصادر التاريخية، فمن الوارد أن سرب الغليوتات المصور هنا (في أعلى اليسار) كان تحت إمرة سفر. أما السفن الأكبر في أسفل يمين الصورة (لم ترسم بأبعاد دقيقة)، فهي من نوع مشابه لتلك التي استخدمها ألفارو دا سيلفيرا في العام 1558. المصدر: Joao de Castro, Roteiro que fez Dom Joao da Castro da viajem que fezeram os Portugueses desde India atee Soez. University of Minnesota James Ford Bell Library, Minneapolis, Ms. 1541 fCa, fol. 81b.

وجد سيلفيرا - كما كان متوقعا - أن قوات سفر سبق أن تلقت تحذيرات باقترابه، وبمجرد أن صار على مرمى البصر من العدو، وجد سيلفيرا نفسه تحت سيل من قصف المدفعية من كل من البر والبحر. كانت النيران كثيفة إلى درجة أنها خلال الدقائق القليلة الأولى أعطبت العديد من سفنه وقتلت أكثر من عشرة من بحّارته؛ ما أجبر البرتغاليين على الانسحاب المتسرع والمخزي. تلكأ أسطول سيلفيرا عدة أسابيع قبالة الساحل على أمل أن يأسر بعض السفن التجارية المتجهة إلى جدة على الأقل، لكن بعد أن خاب في ذلك أيضا عاد إلى مسقط وليس معه إلا خسائر تفضح هزيمته[79]. وهكذا صد سفر هجوما مباشرا من الأسطول البرتغالي الرئيس وخرج منه سالما.

أوزدمير باشا والغزو العثماني لإريتريا

خلال تلك السنوات، أُكمِلت مناورات سفر الرائعة ضد البرتغاليين في البحر بحملة غزو بري للمنطقة الوحيدة في البحر الأحمر التي ظلت خارج السيطرة العثمانية المباشرة، وهي إريتريا. ومما لا يخلو من دلالة أن العقل المدبر لهذه المغامرة هو أوزدمير باشا الذي كان - بوصفه واليا لليمن - المسؤول المباشر عن إمداد الريس سفر وقوادسه خلال سنوات القرصان الأولى في العمل. ومما لا يخلو من دلالة أيضا أن ولاية أوزدمير انتهت في أبريل 1554، قبل بضعة أشهر من تدمير أسطول سيدي علي في مسقط. ولا بد أن أوزدمير كان من ثم على علم بتحضيرات سفر لحملة نجدة سيدي علي، وربما أيضا بطموحات سفر الأكبر لشن غارات على السفن البرتغالية قبالة الساحل الكجراتي. ومن الكاشف أن ذهاب أوزدمير لإسطنبول - بعد إكمال خدمته بوصفه واليا لليمن - بغرض تأمين الدعم لحملة مستقبلية في إريتريا، كان في الوقت نفسه الذي نصب فيه سفر حصاره البحري الأول بين ديو وهرمز.

تزامن وصول أوزدمير للعاصمة الإمبراطورية مع الإبعاد القصير لرستم باشا عن السلطة. ومن حسن الطالع أن الصدر الأعظم الذي حل مؤقتا محل رستم، وهو قرة أحمد باشا Kara Ahmed Pasha، أثبت أنه مؤيد متحمس لعصبة المحيط الهندي. وبفضل تدخل قرة أحمد نيابة عن أوزدمير، أتيحت للأخير فرصة غير عادية

للقاء السلطان وجها لوجه في الحدائق الخاصة لسراي توبكابي، وهناك قدم أوزدمير خطة للاستفادة من المكاسب الأخيرة في اليمن بتوسيع النفوذ العثماني على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر. وجد السلطان أن خطة أوزدمير مقنعة، وقبل أن تنتهي السنة كان الباشا في طريقه إلى مصر بتفويض لحشد حملة عسكرية من عدة آلاف من الرجال[80].

بعد غزوات متفرقة أعلى النيل لإخضاع عدة مناطق في النوبة الدنيا كانت لاتزال خارج السيادة العثمانية، توجه أوزدمير إلى البحر الأحمر عن طريق السويس، ومن هناك أبحر برجاله إلى بلدة سواكن السودانية الساحلية التي كانت مركزا تجاريا مهما خاضعا فعلا للسيطرة العثمانية، فأعاد أوزدمير تنظيمها سريعا لتكون العاصمة الإدارية لولاية الحبش Habesh الجديدة أو إريتريا العثمانية[81]. ثم بدأ هجوما عسكريا سريعا إلى الجنوب، فاستولى على ميناء مصوع الإريتري الرئيس في خريف العام 1556، ثم بلدة حرقيقو Arkiko وجزيرة دهلك Dahlak القريبة. وبعد إخضاع الساحل الإريتري كاملا لسيطرته، كان أوزدمير مع نهاية العام 1557 مستعدا للتوجه صوب الامتدادات الشاسعة في الداخل القاري[82]. أنتج ذلك، بعد سنة أخرى من القتال المتواصل في المرتفعات، غزو كامل إقليم تغري، ومن ضمنه بلدة دباروا الجبلية الاستراتيجية المحصنة(*).

تذكرنا هذه الانتصارات بمآثر الباشا قبل نحو عشرين عاما عندما شق وهو مغامر شاب عائد من الهند طريقا - لم يسبقه إليه أحد - عبر الصحراء وغزو مصر العليا بتكليف من راعيه سليمان الخادم. لكن سرعان ما اكتشف أوزدمير أن الحبشة ليست مصر، فلما توغل أكثر في الداخل الحبشي، بدأ المرض يحصد أرواحا كثيرة من قواته. وفي النهاية عندما ارتفعت أعداد الموتى والمحتضرين إلى مستوى غير محتمل، وبعد أن راح أوزدمير نفسه ضحية لمناخ المنطقة العدواني، استسلمت الحملة أخيرا في نوفمبر 1560. حُمِل جثمان الباشا مكرما إلى سواكن التي دفن فيها، وحل محله

(*) تغري Tigre إقليم في غرب دولة إريتريا الحالية تسكنه جماعة بالاسم نفسه تتحدث اللغة التغرية Tigre، من ضمنه بلدة دباروا Debarva (حاليا Debarwa) التي كانت في زمن الغزو العثماني عاصمة مملكة تسمى مدري بحري Medri Bahri (تعني بلاد البحر) كان يحكمها ملوك يُلقب واحدهم بنجاشي البحر Bahr Negus (تعني ملك البحر). يختلف هذا الإقليم عن منطقة تغراي Tigray الواقعة في أقصى شمال إثيوبيا التي تسكنها جماعة التغراي أو التغرينيين Tigrayans وتتحدث اللغة التغرينية Tigrinya. [المترجم].

فورا في ولاية إريتريا ابنه الوحيد الصدر الأعظم المستقبلي عثمان أوزدمير أوغلو Ozdemiroglu Osman (التي تعني «ابن أوزدمير»).

أوزدمير باشا والريس سفر

على رغم أن موت أوزدمير أجبر العثمانيين على الانسحاب من الداخل الحبشي، فإن المكاسب العثمانية على الساحل أثبتت بقاءها، وشكلت على المدى البعيد الميراث الأهم لحياة الباشا العملية الحافلة. قبل غزو أوزدمير هذه المناطق، لاسيما البلدتين الساحليتين الاستراتيجيتين مصوع وحرقيقو، احتفظ البرتغاليون بوجود عرضي، وإن ظل واضحا؛ ولذلك لم يتمتع العثمانيون قبلها بسيطرة وحرية كاملتين في البحر الأحمر. وحتى ربيع العام 1556 استخدم أسطول صغير بقيادة جواو بيشوت (كان في ذلك الوقت يبحث عن الريس سفر) مصوع قاعدة لشن الغارات على العثمانيين حتى سواكن شمالا[83]. وبعد أربع سنوات صار العثمانيون قادرين للمرة الأولى على حراسة البحر الأحمر من موقع مسيطر على جانبي باب المندب.

كان لذلك - بطبيعة الحال - تأثير فوري في أمن البحر الأحمر وفي تكتيكات الريس سفر الهجومية على البرتغاليين. اتضح ذلك في أوائل العام 1560، عندما أحرز القرصان نصرا جديدا في البحر بفضل خدعة متقنة نفذت بمهارة بمساعدة السلطات العثمانية الجديدة في إريتريا. في هذه المواجهة كان المغفل سيئ الحظ الذي استغله سفر هو كريستوفو بيريرا أومي Christovao Pereira Homem الذي أرسِل من الهند بسرب صغير من ثلاث سفن شراعية وسفينة فوستة واحدة تعمل بالمجاديف لحراسة مبشر يسوعي إلى أن يصل إلى موقع آمن على الساحل الحبشي ليتوجه منه المبشر إلى إثيوبيا. دخل بيريرا البحر الأحمر سالما وأبحر حتى مصوع التي أراد أن ينسل إليها من دون أن يلحظ أحدهم وجوده. لكنه فوجئ وهو مبحر أمام مصوع بظهور مركب صغير أرسله القائد العثماني المحلي الذي رحب ببيريرا وطمأنه إلى «أنه صديق للبرتغاليين وسيكون سعيدا بإمدادهم بالماء والمؤن وأي شيء آخر يحتاجون إليه»[84]. بعد التشاور فيما بينهم، رفض بيريرا العرض بحكمة وأبحر سريعا صوب الشرق إلى جزيرة كمران، لكن بعد أن فات الأوان؛ إذ أعطى تأخيره

السلطات في مصوع الفرصة لإبلاغ سفر بتحركات بيريرا، وعندما وصل البرتغاليون إلى الساحل المقابل، كان القرصان قد نصب فخه.

عند وصولهم قبالة كمران أبصر البرتغاليون سفينة وحيدة ضخمة تحمل كل علامات سفن التوابل الثمينة الآتية من آتشيه، فتملكتهم فرحة الاستيلاء على هذه الفريسة الثمينة غير المسلحة. وبلا تردد، أمر بيريرا سفينته بالهجوم بأقصى سرعة نحو السفينة التجارية، لكنه أدرك متأخرا أنها لا يمكن أن تكون سفينة توابل وأنها ليست إلا واحدة من قوادس سفر الحربية تنكرت بأشرعة وصوار وهمية لاصطياد البرتغاليين في كمين[85]. وعندئذ ظهرت قوادس سفر الثلاثة الخفيفة الأخرى من أماكن اختبائها وراء جزيرة قريبة، وبدأت السفن الأربع في الإطباق على سفينة بيريرا بسرعة مقلقة. وبدأت مطاردة مسعورة دامت بقية اليوم وامتدت طوال الليل.

وفي الصباح التالي، كانت السفن الشراعية الثلاث المرافقة لبيريرا قد وصلت إلى الساحل الأفريقي خارج باب المندب مباشرة ووقفت في خوف تنتظر سفينة بيريرا ذات المجاديف التي لاحت في الأفق أخيرا بعد الفجر مباشرة، وظنوا أنهم في مأمن من الخطر، فأبحروا لمقابلته، لتفاجأ السفن الأربع برؤية قوادس سفر التي تكهنت بموقع البرتغاليين وجدفت في صمت خلال الليل لمباغتتهم. وعندما أطبق سفر على سفينة بيريرا ذات المجاديف بحملها الثقيل، حاول طاقمها اليائس أن يفرغ بعض الحمولة من الرجال والأسلحة في أخف سفينة شراعية برتغالية، لكن هذه المناورة التي خُطِّط لها بشكل سيئ ونُفِّذت بشكل أسوأ لم تنجح إلا في أنها كادت تقلب سفينة بيريرا. وفي أثناء الاختلاط التالي، أطلق سفر النيران، فقتل أو أسر كل من كانوا على متن السفينتين، بينما فرت السفينتان الشراعيتان الأخريان بحياة طاقميهما، لكنهما عادتا إلى الهند بالخزي[86].

ترقية متأخرة

بعد هذا النصر، بذل رستم باشا المسن في صيف العام 1560 محاولة أخيرة لحرمان الريس سفر من التقدير الذي يستحقه، من خلال محاولة إعادة تعيين رجله الموالي سيدي علي الذي عاد من الهند في العام 1557 لمنصبه السابق أميرا للبحر، وهو المنصب الذي ظل شاغرا منذ تدمير أسطول سيدي علي في العام 1555. لكن هذه

المرة، وقف والي مصر الجديد صوفي علي باشا Sufi Ali Pasha في طريق تعيين سيدي علي، وبدلا منه رُقي الريس سفر أخيرا لإمارة أسطول المحيط الهندي العثماني(87).

ترافقت ترقية سفر الجديدة مع نشاط متزايد في ترسانة السويس التي قيل إن عدة سفن حربية جديدة كانت قيد الإنشاء فيها في العام 1560(88). غير أن ذلك لم يؤثر في استراتيجية سفر في المدى القريب؛ إذ واصل العمل انطلاقا من المخا لا من السويس، وعلى الرغم من ارتفاع مكانته أميرا للبحر، واصل تنفيذ النمط المعتاد من الغارات محدودة النطاق ضد السفن البرتغالية. لكن لا شك أن القرصان كان يضمر طموحات أكبر للمستقبل، وأن إعادة نظر جذرية في تكتيكاته واستراتيجيته كانت في الطريق. يعطي رد فعل السفير البرتغالي في روما لورنزو بيريس دي تافورا Lourenco Pires de Tavora على خبر ترقية سفر مؤشرا إلى عين الشؤم التي أخذت لشبونة تنظر بها إلى المستقبل. كتب السفير:

> بالنظر إلى خبرة ذلك القبطان بكامل الساحل السواحلي حتى موزمبيق جنوبا وفي الاتجاه الآخر من عدن إلى هرمز، فلا ريب أن [العثمانيين] سيشرعون في عمل كبير على أحد هذين الساحلين وأنهم يعلقون آمالا كبيرة على الخطة التي وضعها [القبطان الجديد] ووعدهم بنجاحها. يجب على نائب الملك في الهند أن يظل على أهبة الاستعداد لكل الاحتمالات(89).

سرعان ما أحدثت الهواجس من هذا النوع أثرها؛ إذ ردت غوا على غارات سفر المتواصلة بعدد من الهجمات المضادة التي تصاعدت باستمرار، وإن ظلت دوما غير مؤثرة. من ذلك أنه في خريف العام 1561 على سبيل المثال، تلقى كابتن هرمز معلومات استخبارية بأن سفر كان يخطط لنصب حصار آخر بين هرمز وديو، فأرسل أسطولا غير مسبوق في حجمه لملاقاته: ثلاثا وعشرين سفينة ذات مجاديف وغليونين و«ستمائة وخمسين من خيرة جنود الهند، بينهم كثير من المسكتيين والفرسان والسادة أصحاب الشرف» بقيادة نائب الملك السابق الدوم فرنسيسكو ماسكارنياس Dom Francisco Mascarenhas(*)(90). أبحر هذا الأسطول من غوا في نوفمبر 1561، وسرعان ما التقى بسرب سفر الصغير المكون من ثلاثة

(*) الغليون galleon: سفينة شراعية ضخمة حربية وتجارية، كانت لها الغلبة على الأساطيل الحربية خلال عصر الشراع. [المترجم].

قوادس خفيفة قبالة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، لكن بحّارة من العرب المحليين كانوا قد حذروا القرصان الذي نجح في النهاية في تفادي البرتغاليين، فأبحر ماسكارنياس إلى هرمز، ثم عاد صفر اليدين إلى غوا في يناير 1562، في حين أسر سفر سفينة تجارية برتغالية وعاد سالما غانما إلى البحر الأحمر[91].

بعد بضعة أشهر أرسل البرتغاليون الذين ظلوا يخافون من عودة سفر مع الرياح الموسمية في الربيع، أسطولا آخر من ثلاثة غليونات وعدة سفن تعمل بالمجاديف، يقوده جورج دي مورا Jorge de Moura، بأوامر بالبحث عن القرصان وعن السفن التجارية الإسلامية المتجهة من آتشيه ومليبار وكمباي إلى البحر الأحمر(*)[92]. وخلال هذه العملية اشتبكت إحدى سفن مورا مع سفينة مسلحة ضخمة آتية من آتشيه، وبعد يومين من المعارك، احترقت السفينتان البرتغالية والإسلامية وغرقتا[93]. وأخذت بقية أسطول مورا تطوف حول ساحل شبه الجزيرة العربية على امتداده لأكثر من شهر من دون أن تنجح في الاستيلاء على أي سفن أخرى أو تتلقى أي أخبار عن سفر، وأخيرا انسحبت إلى هرمز خائبة مرة أخرى. وبغض النظر عن نطاق الجهود البرتغالية لمواجهة سفر أو توقيتها أو طرقها، فإن شيئا لم يوقف الرجل.

الريس سفر مجدد الاستراتيجية البحرية العثمانية

بالنظر إلى فداحة الهزيمتين البحريتين العثمانيتين في هرمز في العام 1552 وفي مسقط في العام 1554، وهما الحدثان الوحيدان اللذان ناقشهما المؤرخون العثمانيون المعاصرون تفصيليا، يسهل التغاضي عن أن السنوات التي تلتهما كانت فترة صعود عثماني غير مسبوق في المحيط الهندي. وبينما كان سفر ورجاله يحرزون نجاحا تلو الآخر ضد الشحن البرتغالي، كان التجار العثمانيون يطورون شبكة واسعة من العلاقات التجارية امتدت من الساحل السواحلي إلى سيلان وسيام(**)، كانت في أغلبها يحرسها قراصنة عثمانيون منطلقون من كجرات

(*) كانت كمباي Cambay: إمارة مستقلة على الساحل الكجراتي للهند، تسمى حاليا كمبات Khambhat. [المترجم].

(**) سيام Siam: هو الاسم التاريخي لمملكة تايلند الحالية. [المترجم].

وساحل مليبار الهندي[94]. لذلك ارتفعت تجارة الفلفل وسلع الترف خلال البحر الأحمر والخليج العربي إلى ذرى جديدة متجاوزة المقادير التي أنجزت خلال أوج الاحتكار المملوكي إبان القرن الخامس عشر ومتجاوزة أيضا في النهاية التجارة البرتغالية المنافسة حول رأس الرجاء الصالح[95].

أظهر الدارسون الذين بحثوا عن تفسير لهذا الإحياء التجاري الملحوظ إحجاما غامضا عن أخذ سياسات العثمانيين ونشاطاتهم في عين الاعتبار. فتجدهم مثلا ينظرون إلى عمليات أوزدمير باشا في إريتريا بمعزل عن ذلك على أنها «حملة برية» استهدفت «تأمين التخوم الجنوبية للإمبراطورية»[96]، وتجدهم يستبعدون النظر إلى أعمال الريس سفر - إن ذكرت أصلا - باعتبارها أعمال قرصنة فقط[97]. وفي المقابل يرجعون تآكل الحصار البرتغالي للبحر الأحمر والنمو المقابل في التجارة خلال الطرق «التقليدية» الخاضعة لسيطرة العثمانيين إلى مزيج من العوامل الخارجية متفاوتة الأهمية: الفساد داخل الإدارة البرتغالية، والتغيرات في السياسات التجارية لدولة الهند، والتقلبات في الطلب العالمي على التوابل، وإغراء «قوى السوق» الذي لا يقاوم[98].

بيد أن أعمال الريس سفر تبيّن أن العثمانيين مارسوا بتروٍّ دورا مهما في تغيير أنماط التجارة في المحيط الهندي. وحيث إن سفر كان رائدا في استخدام هجمات القرصنة اللصوصية الموجهة تحديدا إلى الشحن البرتغالي، فإنه كان أول مخطط استراتيجي بحري عثماني يدرك أن السيطرة التي مارسها البرتغاليون على البحار كانت مختلفة تماما عن أي شيء في البحر الأبيض المتوسط. فعلى خلاف الحال في المحيط الهندي، كانت معظم العمليات البحرية في البحر الأبيض المتوسط هجمات برمائية يراد بها الاستيلاء على معاقل أو، على أقل تقدير، السيطرة على مراكز إمداد برية في كل الحالات[99]. وقد اتبعت الحملات العثمانية السابقة (مثل حصار الريس بيري لهرمز وحملة سليمان الخادم على ديو) هذا النمط المميز للبحر الأبيض المتوسط، ويمكن إرجاع تواضع نجاح هذه الأعمال في أغلبه إلى محاولة تطبيق مفهوم للحرب البحرية على المحيط الهندي لم يكن ملائما إطلاقا لبيئته.

كان الريس سفر مختلفا. ففي افتراق صريح عن أسلافه، لم يحاول سفر أن يقتحم قلعة أو ينقل قوات أو يُنزِل عتاد حصار إلى البر. فقد تعلم الريس من

سنوات الخبرة الصعبة أن القوة البرتغالية تكمن في البحر، وأن فيه أيضا يكمن ضعفها. لذلك لم تكن المعاقل البرتغالية أهداف حملاته، بل السفن البرتغالية، ولم تكن انتصاراته تقاس بمساحة الهكتارات المحتلة على البر، بل بعدد السفن المأسورة والزيادة في عائدات الجمارك في المخا وجدة والسويس.

أما على الجانب البرتغالي، فإن التكلفة الحقيقية لعمليات النهب التي نفذها سفر بحق دولة الهند كانت أكبر من العدد الفعلي للسفن التي أسرها أو دمرها؛ إذ كانت هجماته بمنزلة بالوعة سحيقة من حيث الرد العسكري البرتغالي المكلف الذي تطلبته. فسنة بعد أخرى اضطرت السلطات في غوا إلى إرسال أساطيل أكبر وأكثر تكلفة في محاولات عقيمة لاصطياد سفر مادام يمارس أعماله. وفي أثناء ذلك تآكلت قدرة البرتغاليين على السيطرة على الشحن الإسلامي المستقل، جزئيا بسبب استراتيجية سفر، وبسبب سيطرة العثمانيين على جانبي مدخل البحر الأحمر بعد غزو أوزدمير لإريتريا. يذكر المؤرخ البرتغالي ديوغو دو كوتو هذه النقطة صراحة في معرض تفسيره للدورية الفاشلة في بحر العرب التي نفذها جورج دي مورا في العام 1562، إذ كتب:

> عندما مكث [البرتغاليون] هناك [خارج باب المندب] أكثر من شهر، شاهدوا أكثر من ستين سفينة [إسلامية] مختلفة من دون أن يتمكنوا حتى من الوصول إلى أي منها؛ وذلك لأن [السفن البرتغالية] كانت قريبة من الشاطئ، بينما كانت [السفن التجارية] آتية من البحر وكانت الرياح في ظهرها تماما. لذلك كان من المستحيل إمساكها أو متابعتها داخل [فم البحر الأحمر]؛ لأن [البرتغاليين] لم يكونوا يجرؤون على دخول المضيق خوفا من خطر خسارة سفنهم ذاتها[100].

معنى ذلك أن السبب الرئيس لفشل الحصار الذي نصبَه دي مورا هو أن البرتغاليين خافوا من ملاحقة السفن الإسلامية داخل البحر الأحمر مثلما كانوا يفعلون خلال العقود السابقة حين كانوا في منعة، وقد جنوا من ذلك أرباحا هائلة. لكن ها هم صاروا يحجمون عن دخول البحر الأحمر، لسبب واحد فقط، هو الخوف من الريس سفر.

الريس سفر وتوطيد الحكم العثماني في المحيط الهندي

من كان الريس سفر؟ لا يُعْرَف شيء إطلاقا عن أصوله وخلفيته العائلية، إلا إشارتين مثيرتين: غموض اسمه غير الشائع (يكتب في الوثائق العثمانية بالحرف «س» وليس الحرف «ص» الأكثر شيوعا) وبضع فقرات في مجموعة من المصادر البرتغالية المبكرة تشير إلى قرصان عثماني آخر يعرف للبرتغاليين باسم سنان اليهودي Sinan the Jew (بالبرتغالية Sinao o Judeo)، وهو أحد أسلاف سفر، تمركز في جدة في أواخر العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من القرن السادس عشر وكان بلا ريب القرصان الشهير بالاسم نفسه الذي خدم سابقا مع الأخوين بارباروسا في شمال أفريقيا(*)[101]. قيل إن سنان مرض ومات في العام 1546، قبل أيام قليلة من خروج مخطط لحملة إغارة على ساحل الهند. وتذكر مصادر برتغالية تأسيسا على تقارير شفهية من تجار عادوا أخيرا من البحر الأحمر أن ابنه خلفه ريسًا بحريا متمركزا في مصر، وقد ثبته السلطان بنفسه في منصبه الجديد[102].

(*) الأخوان بارباروسا هما عروج Aruj (نحو 1474 إلى 1518) وخير الدين Hayreddin (نحو 1478 إلى 4 يوليو 1546) ريسان عثمانيان ولدا (لهما أخوان آخران عملا أيضا بالبحر والتجارة والحرب) على جزيرة لسبوس العثمانية لأب انكشاري ألباني وأم أندلسية، عرفا للأوروبيين باسم بارباروسا Barbarossa الذي يعني بالإيطالية «ذو اللحية الحمراء»، وهي صفة مشتركة لدى الأخوين، ويقال إن هذا الاسم تحريف للاسم الذي أطلقه الموريسكيون على عروج «بابا عروج» Baba Oruç تقديرا لجهوده في إنقاذ الآلاف منهم، إذ يقال إنه استطاع بين العامين 1504 و1510 أن ينقذ سبعين ألف أندلسي من الفارين من إسبانيا بنقلهم إلى مدينة الجزائر. شغل عروج منصب بك (باي) الجزائر وبكلربكي غرب المتوسط إلى أن قُتل في معركة مع الإسبان في تلمسان الجزائرية، وخلفه أخوه خير الدين واليا للجزائر و«قبودانا» باشا لأسطول البحر الأبيض المتوسط العثماني وتوفي في إسطنبول، بعد أن ضما الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية وأسهمت انتصاراتهما البحرية في تأمين السيطرة العثمانية على البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن السادس عشر. راجع للمترجم كتاب «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس». [المترجم].

ويعرف سنان اليهودي في التاريخ العثماني باسم الريس سنان Sinan Reis، وهو واحد من قراصنة كثر من اليهود السفارديم الذين طُردوا من شبه الجزيرة الأيبيرية في أواخر القرن الخامس عشر ونشطوا ضمن المجاهدين البحريين في شمال أفريقيا تحت قيادة عروج وخير الدين بارباروسا ضد السفن والبلدات الساحلية الإسبانية انتقاما لتشريد جماعتهم. مارس سنان دورا بارزا في معركة بروزة Preveza البحرية الكبرى التي انتصر فيها الأسطول العثماني في 28 سبتمبر 1538 بقيادة خير الدين على ائتلاف مسيحي جمعه البابا بولس الثالث من ضمنه أسطول كارلوس الخامس بقيادة أندريا دوريا Andrea Dorea. في العام 1540 أبحر ابن غير معلوم الاسم لسنان - ربما كان سفر - لملاقاة أبيه بعد أحد انتصاراته، فوقع في أسر قوات تابعة لكارلوس التي سلمته للورد إلبة Lord Elba الذي عمّده وضمه لبلاطه. وبعد أن نُقل سنان إلى السويس، بذل خير الدين بارباروسا عدة محاولات لافتداء ابن سنان باءت جميعها بالفشل بسبب تعلل اللورد بأنه لا يستطيع دينيا أن يسلم مسيحيا معمدا للكفار، فما كان من خير الدين إلا أن نزل بقوات في بلدة بيومبينو Piombino الإيطالية ونهبها وقصف قلعتها حتى وافق حاكمها على تسليمه «الغلام الأسير لديه». وصلت هذه الأخبار إلى سنان وهو يشيد أسطولا عثمانيا في السويس لطرد البرتغاليين من الهند. [المترجم].

هل ثمة ارتباط بين سنان وسفر؟ لا توجد أدلة قاطعة بسبب الافتقار إلى الوثائق الأرشيفية العثمانية لهذه السنوات. لكن التاريخ 1546 له دلالة؛ لأنه في هذه السنة أبحر أسطول من أربعة قوادس عثمانية لأول مرة من المخا في غارة على الشحن البرتغالي في بحر العرب. ولا بد أن البحّارَين سنان وسفر لم يكونا غير أب وابنه، أي عائلة تتوارث القرصنة لحساب العثمانيين.

ثمة شيء لافت للانتباه في هذه الصلة المحتملة بين سنان وسفر بالنظر إلى ما نعرفه عن عمل النظام الضريبي العثماني على طول طريق التوابل بالبحر الأحمر خلال هذه الفترة، لاسيما بالنظر إلى احتمال أن سنان كان يهوديا اعتنق الإسلام، إذ تثبت المصادر الغربية والعثمانية على حد سواء أن جماعة من الملتزمين الضريبيين اليهود ذوي الروابط مع العالم الأيبيري سيطروا دائما على الجمارك الإمبراطورية في السويس والإسكندرية خلال منتصف القرن السادس عشر(*)(103). توحي هذه الحقيقة، جنبا إلى جنب مع احتمال انتماء أبرز القراصنة العثمانيين في المنطقة إلى عائلة من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، بأن أفراد الشتات اليهودي الأيبيري قد تمكنوا من إثبات أنفسهم وكلاء للدولة العثمانية في البحر الأحمر والمحيط الهندي في العديد من المواقع المختلفة، من بينها العمل ضباطا في الأسطول الإمبراطوري(**). ومن الواضح أن ذلك بدوره قد يسر قيام روابط غير رسمية بين الإدارة العثمانية في مصر والتجار اليهود الأهليين في المحيط الهندي والأعداد المتزايدة من «المسيحيين الجدد» البرتغاليين في دولة الهند(104)(***).

(*) في نظام الالتزام الضريبي، كان يعقد مزاد علني لبيع جمارك أو ضرائب منطقة بعينها، يسمى من يكسب المزاد ملتزما لأنه يلتزم بدفع الضرائب مقدما للدولة ثم يجبيها من الأهالي بعد ذلك باستخدام سلطة الدولة. [المترجم].

(**) بعد استكمال استرداد إسبانيا بالاستيلاء على مملكة غرناطة في العام 1492، شرع الملكان الكاثوليكيان فرناندو الأراغوني وإيزابيلا القشتالية في طرد اليهود من كل شبه جزيرة أيبيريا، بما في ذلك البرتغال، حتى من سبق أن أكره منهم على التنصر وعرفوا باسم «المارانو». توجه كثيرون منهم إلى بلاد الدولة العثمانية التي قيل إن حاكمها السلطان بايزيد أبدى دهشته من «الملوك الإسبان الذين طردوا شعبا في ذكاء اليهود». راجع كتاب «الدين والدم». [المترجم].

(***) المسيحيون الجدد New Christians: هم المسلمون واليهود الأيبيريون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية الرومانية وأحفادهم. نُصّر اليهود بالقوة إبان العقد التالي للعام 1492 في إسبانيا وأيضا في البرتغال التي خيروا فيها بين التنصر والنفي، ونُصّر الأندلسيون المسلمون الذين عُرِفوا باسم «الموريسكيين» في إسبانيا على مدار القرن السادس عشر عبر عدة مراسيم وترتيبات وقمع لثورات وإطلاق محكمة التفتيش عليهم، إلى أن طردوا نهائيا من إسبانيا خلال العقدين الأول والثاني من القرن السابع عشر. راجع كتاب «الدين والدم». [المترجم].

إلى جانب المسيحيين الجدد من أصل يهودي، كان لليهود وجود بين أهالي إمارة كوتشن Cochin: على ساحل مليبار. [المترجم].

وبالنظر إلى الوزن النسبي لعائدات جمارك البحر الأحمر لمالية ولاية مصر، يمكن لتأثير هذه الجماعات، جنبا إلى جنب مع تجمعات أقدم من التجار وصائدي الثروات المسلمين، أن يساعد في تفسير حرص ولاة مصر الشديد على دعم مصالح التجار في المحيط الهندي على امتداد منتصف القرن السادس عشر بغض النظر عن تقلبات الحكومة المركزية في إسطنبول. فقد شكّل هؤلاء التجار والملتزمون الضريبيون حلقة وصل واحدة ضمن سلسلة أكبر ضمت مسؤولين وتجارا عثمانيين جمعتهم مصلحة شخصية في تقويض السيطرة البرتغالية على التجارة وتبني سياسة التوسع البحري العثماني المتواصل على حساب البرتغاليين.

قبل رستم باشا، كان هذا الائتلاف من أصحاب المصالح يلقى رعاية الدولة صراحة، حتى إنه مع نهاية فترة سليمان الخادم في الصدارة العظمى في العام 1544، كاد أبرز الممثلين الحكوميين لهذه الجماعة (منهم داود باشا وصولاق فرهد باشا وبلال محمد باشا ومصطفى النشار وأوزدمير باشا) يحتكرون تماما إدارة الولايات في مصر واليمن والخليج العربي. حاول رستم أن يغير هذا الوضع بالاستعاضة عن هؤلاء المسؤولين متى أمكن بمسؤولين من اختياره، وبتنفيذ رؤيته لدولة عثمانية مركزية تقوم على الاكتفاء الذاتي ولا تترك متسعا لمراكز السلطة المستقلة. لكن في النهاية كان الفشل مآل مناورة رستم؛ إذ اغتيل عويس باشا على أيدي رجاله، وأُعدِم الريس بيري، وهُزِم سيدي علي في البحر وأُجبِر على الفرار إلى بلاد أجنبية، وحتى رستم طُرد فترة من منصبه.

أعطى طرد رستم فرصة لأفراد عصبة المحيط الهندي لإعادة تأكيد مواقعهم، وعندما عاد رستم إلى الصدارة العظمى في العام 1555، كان المد قد تحول ضده على نحو غير قابل للنقض. فبدأ أوزدمير حملته لغزو إريتريا في العام 1556 على الرغم من عودة رستم إلى السلطة، وفي العام 1557 حاول والي البصرة - على ما يبدو من دون إذن رستم - أن يعيد التفاوض على اتفاقية التجارة مع البرتغاليين في هرمز[105]، وفي العام 1559 شن حاكم القطيف - أيضا بلا إذن من الصدر الأعظم - حملة مرتجلة على جزيرة البحرين[106]. وعندما حاول رستم إعادة تنصيب الريس سيدي علي أميرا للبحر في السويس في العام 1560 غُلب على أمره وعُيّن الريس سفر بدلا من سيدي علي. وعندما مات رستم بالوهن في السنة التالية، كان انتصار عصبة المحيط الهندي نهائيا.

خاتمة

صدر أعظم جديد لحقبة جديدة

حل علي باشا سميز محل رستم صدرا أعظم، وهو تغيير في اللاعبين أعطى عصبة المحيط الهندي أملا في مستقبل أفضل مما شهدته على مدى جيل. وعلى رغم أن علي «السمين» لم يكن بالضرورة واحدا من تلك العصبة، فقد أثبت على أقل تقدير أنه متعاطف مع قضيتها خلال السنوات الخمس التي قضاها واليا لمصر بين العامين 1549 و1555. وخدم فيما بعد بامتياز وزيرا ثانيا، ونال إعجاب زملائه والديبلوماسيين الأجانب على حد سواء بسبب فطنته وكياسته وانفتاحه الدائم على الأفكار الجديدة[107]. حتى المبعوث النمساوي أوجيه دي بوزبك Ogier de Busbecq، الناقد القاسي للمؤسسة العثمانية على امتداد السنوات الكثيرة التي قضاها في إسطنبول، قال في سميز إنه «الرجل المتحضر الوحيد الذي قابلته على الإطلاق بين أولئك الأتراك الهمج»[108].

بما يتفق مع التوقعات، بدأ علي سميز صدارته العظمى بإظهار إشارات واضحة إلى اتجاه جديد في سياسة الإمبراطورية في المحيط الهندي. ففي العام 1562 عين الرجل المحسوب عليه درويش علي باشا Dervish Ali Pasha واليا جديدا للبصرة، وكلفه بتقديم تقرير حول الطريقة المثلى للتعامل مع استمرار الوجود البرتغالي في هرمز، وعاد درويش علي الذي وصفته إحدى الروايات البرتغالية بأنه «رجل متعقل وحصيف» بتوصيات لا لبس فيها: ينبغي أن يفعل الصدر الأعظم كل ما في استطاعته لوضع حد للأعمال العدائية ولإقامة علاقة تجارية دائمة مفيدة للطرفين مع البرتغاليين «خدمةً للسلطان وعائداته». ومن أجل هذه الغاية، بُعثت رسالة من البصرة لهرمز دعت البرتغاليين إلى إرسال سفارة رسمية للعاصمة العثمانية لبدء المفاوضات[109].

عندما وصل المفاوض البرتغالي أنطونيو تيشيرا Antonio Texeira إلى إسطنبول استجابة لهذه الدعوة في أوائل السنة التالية، عُرضت عليه اتفاقية تجارية شاملة في نطاقها ومدققة في تفاصيلها[110]. أُعطي البرتغاليون، بموجب هذه الاتفاقية، الحق في إقامة وكالات تجارية في البصرة والقاهرة والإسكندرية، وحرية التجارة في كل الموانئ الخاضعة للسيطرة العثمانية في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر، ومُنح التجار

العثمانيون - في المقابل - حريات مماثلة في أنحاء المحيط الهندي كافة، من ضمنها الحق في إقامة وكالات تجارية «في السند وكمباي ودابول وكاليكوت وأي موانئ أخرى يريدونها»(*)(111).

لم يُقدم للبرتغاليين من قبل عرض سلام مع العثمانيين بهذا الشمول. ومع ارتفاع نفقات دولة الهند إلى مستويات غير محتملة، وتحلل الحصار التجاري على البحر الأحمر والخليج العربي، والهجمات القاسية على سفنها من قبيل أعمال الريس سفر، وجدت دولة الهند إغراء غير مسبوق لقبول شروط العثمانيين. وحتى قبل أن يقدم علي سميز عرضه، كان السفير البرتغالي في روما لورنزو بيريس دي تافورا قد نصح الملك بأن يأخذ زمام المبادرة بطلب التوصل إلى اتفاقية مع العثمانيين:

> تستحق هذه الإمكانية تفكيرا جديا؛ لأن حجم التوابل الذي يمر من خلال البحر الأحمر إلى القاهرة ومن هرمز إلى البصرة هائل، وهناك ما يبرر اعتقاد أنه سيواصل النمو قبل أن يستقر أخيرا. [علاوة على أن] نفقات جلالتكم في الهند ضخمة للغاية وستواصل الارتفاع، إن لم يُتَوَصل إلى تسوية ما. لهذه الأسباب تحديدا ستكون أي اتفاقية مع الأتراك مربحة لأقصى حد، ولا يمكن لرجل عاقل أن ينكر ذلك(112).

غير أن هناك من لم يشاركوا السفير هذه الرؤية الواثقة المتفائلة. وعلى الرغم من كثير من الأصوات المعارضة، رفضت السلطات البرتغالية عرض علي سميز في النهاية، معيدة تأكيد قناعتها القديمة والباقية بأن قبول أي عرض عثماني قائم على مبدأ حرية التجارة يمثل تهديدا خطيرا. يمكن فهم منطق هذا القرار من حجج قدمها فيدالغو برتغالي مجهول حُفظت في أخبار ديوغو دو كوتو، تستحق أن نوردها هنا على طولها(**):

> فيما يتعلق بهذه [الاتفاقية]، أقول إنه إذا أُعطي الأتراك حرية الإبحار إلى الهند وتأسيس الوكالات والتجارة في البضائع أينما شاءوا،

(*) كانت دابول Dabul (حاليا Dabhol) مركزا تجاريا في غرب الهند نشط فيه التجار المسلمون في عهد السلطنة البهمنية وسلطنة عادل شاه (بيجابور)، اشتهرت بمعركة حملت اسمها وقعت في 29 ديسمبر 1508، اقتحم فيها البرتغاليون المدينة وقتلوا كل من فيها ثم أشعلوا النيران في البيوت لقتل من اختبأ من الموت، ثم غادروا المدينة إلى ديو لملاقاة الأسطول المملوكي المصري. [المترجم].

(**) الفيدالغو fidalgo: لقب برتغالي كان يُمنح لأبناء النبلاء، يعني حرفيا «ابن عائلة مهمة». [المترجم].

> فإن أرباح جلالتكم لن تُنتقص بشدة فقط، بل إننا جميعا سنخرج صفر اليدين تماما؛ لأن كل التجارة [التي يقوم بها البرتغاليون] ستنتقل فورا إلى الأتراك، وسيجلبون إلى الهند من خلال البحر الأحمر والخليج العربي كل المنتجات الأساسية التي نجلبها نحن من هذه المملكة [البرتغال]؛ لأنها يمكن الحصول عليها في المشرق والأجزاء الأخرى [من إمبراطوريتهم] بأسعار أرخص منها في البرتغال. علاوة على أن مدة رحلاتهم وتكاليف نقلهم والأخطار التي سيواجهونها والتلف الذي سيتكبدونه في سفنهم وبضائعهم ستكون كلها أقل من نصف ما نتكبده بسفننا.
>
> أما بالنسبة إلى [احتكار الدولة] للفلفل وغيره من التوابل المحتكرة، فإنه سيكون مهددا لو سمحنا للأتراك بإقامة وكالات في الهند. وحتى في اللحظة الراهنة التي لا يسمح لهم فيها بمنافسة البرتغاليين علنا، فإنه من المعروف أنهم يتاجرون سرا ويحملون التوابل إلى هرمز والبصرة والبنغال وبيغو والصين وغيرها من البلاد، ولاسيما إلى أسواقهم، على الرغم من الأخطار الكبيرة التي ينطوي عليها ذلك. وعلى ذلك [لو سمح لهم بحرية التجارة، فإن روابطهم مع] المسلمين المحليين، ستجعلهم أفضل إلماما وتنظيما، ما سيمكّنهم من إرسال كميات [الفلفل] التي يريدونها [عبر البحر الأحمر والخليج العربي] ويأخذون نصيب الأسد من التجارة في التوابل[113].

من اللافت للانتباه أن ديوغو دو كوتو، الذي لم يسجل هذه الفقرات في أخباره إلا في منتصف العقد الأخير من القرن السادس عشر، يعقد في الفقرات ذاتها مقارنة مباشرة بين التهديد الذي شكّله العثمانيون للتجارة البرتغالية إبان العقد السابع من القرن السادس عشر والتهديد الذي شكّله لهم الهولنديون في نهاية القرن. تبرز مقارنة كوتو أن الميزة التنافسية للعثمانيين - على عكس الهولنديين - لم تستند إلى قدرتهم التقنية على شراء السلع ونقلها بسعر أرخص فقط، بل أيضا إلى التعاون الواسع الذي تمتعوا به من الجماعات التجارية الأهلية في جميع أنحاء المحيط الهندي.

إن كان هذا التعاون قد شكّل دعامة للنجاح التجاري العثماني إبان العقد السابع من القرن السادس عشر، فإن ذلك نتج بالدرجة الأولى من جهود عصبة المحيط الهندي. فعلى الرغم من محاولات رستم باشا المستميتة لإغلاق حدود الإمبراطورية

وعزلها عن التأثيرات الخارجية، تمكن الريس سفر وأوزدمير باشا وآخرون كثر من رجال التخوم من الحفاظ على الروابط التي تجمع الإمبراطورية مع العالم التجاري للمحيط الهندي وتعميقها وتوسيعها. وبعد العام 1561 حظيت نشاطاتهم بإقرار رسمي برعاية علي باشا سميز الذي أعاد السياسات العثمانية - كما كانت قبل رستم - إلى دعم توسيع النطاق الاقتصادي للإمبراطورية بدلا من خنقه. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يخلف علي سميز وريث أعلى طموحا وسّع هذه السياسات لبناء نموذج جديد تماما للسيادة الإمبريالية العثمانية عبر آسيا البحرية.

5

محمد باشا صوكولو وأوج الإمبراطورية 1579 - 1561

«إن الاعتراف بسلطة السلالة العثمانية بوصفهم خلفاء للأمة الإسلامية العالمية نال رواجا لم يبلغه قبل صوكولو أو بعده»

كانت مدة خدمة علي باشا سميز في الصدارة العظمى قصيرة نسبيا؛ إذ بدأت في العام 1561 وانتهت بوفاته لأسباب طبيعية بعد أربع سنوات فقط في العام 1565. وعلى الرغم من هذا الوقت القصير في المنصب، يمكن أن يعزى إلى الباشا تحول حاسم في العلاقات الاقتصادية العثمانية مع المحيط الهندي، بعد أن أحل مقاربة واعية تقوم على الحدود المفتوحة، واستهدفت زيادة النشاط التجاري البحري عبر كل من البحر الأحمر والخليج العربي محل سياسات رستم المناقضة. لكن من المنظور السياسي لا الاقتصادي، ترك علي باشا ميراثا

أشد غموضا. فنتيجة لحماسه للمفاوضات مع البرتغاليين، تبنى الباشا سياسة خارجية خجولة، تركته في النهاية، على الرغم من كل نواياه الطيبة، على خلاف مع معظم أفراد عصبة المحيط الهندي.

يمكن القول إن استراتيجية علي سميز لإغراء البرتغاليين لقبول اتفاقية تجارية قامت على إقناعهم، من خلال عدد من إجراءات بناء الثقة، بأن الإمبراطورية العثمانية قوة خيّرة لن تشكل تهديدا عسكريا فيما بعد. لذلك قام خلال سنته الأولى في المنصب باستدعاء الريس سفر من المخا وأوقف هجماته اللصوصية في بحر العرب إلى أجل غير محدد، وأرجأ التحضيرات لأسطول سفر الجديد في السويس[1]. وعندما دخل في مفاوضات مباشرة مع ممثلين برتغاليين، ذهب علي سميز إلى حد اقتراح الخفض الدائم لحجم الأسطول العثماني في البصرة[2]. وكمبادرة إضافية على حسن النية، سمح الصدر الأعظم في العام 1563 لكابتن هرمز المتقاعد بيدرو دي سوزا Pedro de Sousa بالسفر برا خلال العراق وسورية مع حراسة مرافقة مكونة من عشرة رجال لزيارة الأماكن المقدسة في القدس في طريق عودتهم إلى لشبونة[3].

لكن شيئا من هذه الإجراءات لم ينجح في انتزاع شيء ملموس من البرتغاليين في المقابل. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن اقتناع علي سميز بأن اتفاقية دائمة مع البرتغاليين كانت ممكنة ومفيدة، بدا نشازا وسط التيارات السياسية التي أخذت تعم العالم التجاري الأوسع لآسيا البحرية؛ إذ تميز العقد السابع من القرن السادس عشر - أكثر من أي فترة سابقة - بتصاعد السخط على البرتغاليين في أنحاء المحيط الهندي كافة، وبتوق ملموس جديد بين جماعاته المسلمة المتباينة إلى تجاوز خلافاتهم وبناء تحالف إسلامي كبير[4]. قابل هذه المشاعر العدوانية بين المسلمين تصاعد في التعصب والانغلاق على الجانب البرتغالي، تجلى في أوضح صوره في الحماس الجديد لمحاكم التفتيش بعد وصول المُهيّج اليسوعي الدوم غونسالو دا سيلفيرا Dom Goncalo da Silveira إلى غوا في العام 1559؛ إذ رفعت نشاطاتُه حدةَ التمييز الظالم بحق المسلمين في الموانئ البرتغالية أكثر من قبل، وأُجبِرت أعداد أكبر من المسيحيين الجدد واليهود الأيبيريين المؤثرين

على هجر الهند البرتغالية والارتماء في أحضان الصفوف المتزايدة من المسلمين العازمين على تنظيم أنفسهم ضد البرتغاليين(*)[5].

أصبحت الإمبراطورية العثمانية أكثر من أي وقت مضى محطّ أنظار هذه القوى المتباينة المعادية للبرتغاليين ومنقذها المنتظر، وبدأت هذه القوى في مناشدة السلطان مرارا وتكرارا للتدخل نيابة عنهم. من ذلك مثلا أن يهوديا مصريا يدعى إسحاق القاهري Issac of Cairo نقل إلى السلطان في العام 1561 عرضا لتحالف ثنائي من نظام الملك Nizam al - Mulk حاكم أحمد ناغار في الدكن(**)، وهو تطور لم يكن قليل الأهمية بحال من الأحوال؛ لأن نظام الملك كان خلال العقود السابقة من بين حكام الهند المسلمين الذين أظهروا ارتيابا دائما في العثمانيين ونواياهم[6]. وها هو يعرض صراحة عملية مشتركة لطرد البرتغاليين من ميناء شاول الذي وعد بأن العثمانيين سيجدون فيه كلا من الخشب الوفير والدعم الإمدادي المحلي الكافي لبناء أسطول قادر على إخضاع كل الهند البرتغالية[7]. وفي السنة التالية، وصلت سفارة أخرى، هذه المرة من علي علاء الدين رعاية شاه Ali Ala'ad - din Ri'ayat Syah سلطان آتشيه الواقعة في سومطرة البعيدة. وكما فعل نظام الملك، طلب علي علاء الدين سفنا ومدفعية وخبراء عسكريين عثمانيين لاستخدامهم في الهجوم على البرتغاليين في ملقا[8].

لقي هذان الالتماسان في إسطنبول آذانا صماء؛ لأن علي سميز الذي ظل ملتزما بمفاوضات السلام مع البرتغاليين كان ضد أي شيء من شأنه أن يهدد نجاحها. تعلل الصدر الأعظم بطول المسافة بين إسطنبول وسومطرة واحتمال اعتراض البرتغاليين

(*) رفض كثير من البرتغاليين إلحاق بلادهم بإسبانيا، منها جزر الأزور التي انحازت إلى الدوم أنطونيو Dom Antonio المُطالب بالعرش، والذي حظي أيضا بدعم الحكام الأوروبيين الذين وجدوا تهديدا في توسع الإمبراطورية الهابسبورغية، ورأوا في جزر الأزور غنيمة استراتيجية يمكن أن يغيروا منها على قوافل المعادن النفيسة الإسبانية العابرة للأطلسي. فقرر الفرنسيون في العام 1582 أن يدعموا طموحات الدوم أنطونيو ضد فيليب الثاني الإسباني بحملة من نحو ستين سفينة بقيادة فيليب إستروتزي Philippe Strozzi، واجهها أسطول إسباني بقيادة مركيز سانتا كروز Marquis of Santa Cryz قبالة جزيرة ساو ميغيل Sao Miguel، وتمكن من تحطيم القوة الفرنسية ومعها التهديد الأزوري لحكم إسبانيا للبرتغال. ربما كانت هذه الأحداث في حسبان المسؤولين البرتغاليين في غوا عندما حاول خوجه سنان تأليبهم على الحكم الإسباني، فضلا على العقلية الصليبية الجهادية التي سيطرت على البرتغاليين وكانت حَرِيّة بصفهم مع الإسبان ضد العثمانيين أعدائهم الدينيين. [المترجم].

(**) أحمد ناغار Ahmadnagar حاليا مقاطعة ضمن ولاية ماهاراشترا الهندية، سُميت على اسم مؤسسها أحمد نظام شاه الأول الذي شيّدها في العام 1494 في مكان معركة انتصر فيها على السلطنة البهمنية الدكنية واتخذها عاصمة لسلطنته التي حملت الاسم نفسه. [المترجم].

تلك الأسلحة والعتاد وهي في الطريق، ولم يمنح مبعوثي آتشيه إلا عشرة خبراء في صب المدافع ووعدا مبهما بمزيد من العون في المستقبل، ولم يتلقَ إسحاق القاهري، مبعوث نظام الملك، أي شيء على الإطلاق[9].

كان هذا الخذلان، في تلك اللحظة الديبلوماسية الحبلى، جرعة من المرار لمسلمي المحيط الهندي، وكان مصدر إحباط متنام بين أفراد عصبة المحيط الهندي العثمانيين. في بادئ الأمر، أبدى أفراد العصبة، الذين اعتبروا صدارة علي باشا سميز تتويجا لجهودهم لنقض سياسات رستم، دعمهم لجهود الباشا لإبرام اتفاقية تجارية مع البرتغاليين. لكن مع توالي الأشهر وفشل المفاوضات مع لشبونة في إعطاء نتائج ملموسة، أخذ الحماس لسياسة علي سميز الاسترضائية يتلاشى على نحو ملحوظ. وبحلول نهاية العام 1563، ومع ورود تقارير من البصرة والسويس بأن البرتغاليين جددوا حصارهم للعثمانيين مرة أخرى، نفد الصبر. وكان الريس سفر، الذي ظل محتجزا في السويس بانتظار الإذن بالإبحار بأسطوله الجديد، يتحرق شوقا إلى العمل[10].

وأخيرا يدخل إلى المشهد محمد باشا صوكولو، رجل الدولة الذي يعد أحد أعظم الشخصيات خلال القرن السادس عشر كاملا، والعقل المدبر للدّفعة الكبرى الأخيرة للإمبراطورية العثمانية في المحيط الهندي(*). مثل سلفيه المقتدرين إبراهيم ورستم، كان محمد صوكولو من رجال البلاط وعضوا بالديوان الهمايوني منذ العام 1554، وشخصية قريبة من سليم، ابن السلطان، والذي تزوج الباشا محمد ابنته في العام 1562. وعند موت زميله المسن علي سميز بعد ثلاث سنوات، رقي صوكولو إلى الصدارة العظمى وهيمن بعدها على الحياة السياسية في الإمبراطورية على نحو ربما لم يبلغه صدر أعظم آخر قبله على الإطلاق. امتدت

(*) يعرب البعض اسم صوكولو Sokollu إلى الصقلبي، والصقالبة في التاريخ العربي الإسلامي اسم عام أطلق على الرقيق الأبيض الذين اتخذوا جندا ورجال دولة في الممالك الإسلامية المختلفة بالتزامن مع الأتراك وقبل ظهور المماليك (وهم في أغلبيتهم من الشركس المجلوبين من الشواطئ الشمالية الشرقية للبحر الأسود). أطلق عليهم في الأندلس اسم «الموالي»، وكلمة «صقلبي» تحريف للكلمة اليونانية التي تشير إلى السلاف Slavs أو السكلاف Sclav وهم شعوب تقطن أوروبا الوسطى والشرقية ومنطقة البلقان وشمال آسيا ووسطها، وتشكل نحو 50 في المائة من شعوب أوروبا. لم تحظر الكنيسة استرقاقهم وبيعهم للمسلمين إلا بعد دخولهم في المسيحية خلال القرون من التاسع حتى الخامس عشر. وعلى اعتبار أن الصرب الذين ينتمي إليهم محمد صوكولو من السلاف، فإنه بذلك يكون صقلبيا، لكن الأرجح أن الاسم صوكولو هو اسم البلد التي ولد فيها محمد، وهي بلدة صوكولوفيتشي Sokolovici (تكتب أيضا Sokol) الواقعة بالقرب من بلدة رودو Rudo في صربسكا الحالية (جمهورية صرب البوسنة) ضمن دولة البوسنة والهرسك. [المترجم].

خدمته المتواصلة في المنصب خمسة عشر عاما وغطت عهود ثلاثة سلاطين متعاقبين قبل أن يموت الباشا في العام 1579[11].

كان محمد باشا، بفضل خبرته المهنية وارتباطاته الشخصية والعائلية، الشخص المثالي لقيادة عصبة المحيط الهندي. وأول منصب إداري كبير شغله الباشا هو إمارة الأسطول العثماني خلال أواخر العقد الخامس من القرن السادس عشر، وقد تميز فيه بإتقان عمليات الإمداد والتموين والتخطيط، ووسع الترسانة الكائنة في غَلَطَه Galata، واستقدم بناة سفن بنادقة لتحسين معايير بناء القوادس العثمانية[12]. وتولى لاحقا، بوصفه واليا لديار بكر، المسؤولية عن المحاولة الجدية الأولى لتطوير الترسانة العثمانية في البصرة؛ إذ أشرف على تحضير الخشب في غابات مرعش وتنظيم سفن الإمداد لحمل الذخيرة ومواد بناء السفن بالنهر من الأناضول إلى الخليج العربي(*)[13].

كما أن زواج صوكولو من الأميرة أسمهان، ابنة السلطان المستقبلي سليم الثاني، وسليلة - من ناحية أمها - واحدة من أهم عائلات النبلاء في البندقية(**)، وضعه في مركز شبكة واسعة من المصالح المالية والتجارية امتدت عبر البحر الأبيض المتوسط[14]. كان من بين الأعضاء الآخرين ضمن هذه الدائرة ميخائيل كانتاكوزينوس Michael Cantacuzenos الوريث الثري للأرستقراطية البيزنطية، وآرون دي سيغورا Aron de Segura وجوزيف هامون Joseph Hamon اللذان كانا من أقوى رجال الحاشية اليهود نفوذا في الإمبراطورية، والبايلو البندقي مارك أنطونيو باربارو Marc Antonio Barbaro الذي جمعته بصوكولو صداقة عمر لم يقطعها حتى اندلاع الحرب بين البندقية والعثمانيين في أوائل العقد الثامن من القرن السادس عشر[15].

(*) الاسم الحالي لمرعش Marash هو قهرمان مرعش Kahramanmaraş الذي يعني «مرعش الباسلة» بسبب شجاعتها في مقاومة الاحتلال الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى. [المترجم].

(**) والدة أسمهان Ismihan هي السلطانة نوربانو Nurbanu Sultan (السلطانة عفيفة نوربانو Afife Nurbanu Sultan) التي يعتقد أنها بندقية تدعى سيسيليا فينيه بافو Cecilia Venier Baffo، أسرها العثمانيون من جزيرة باروس Paros في بحر إيجة في العام 1527 في أثناء حربهم مع البندقية. لكنها على الأرجح كانت نبيلة يونانية ثرية تدعى كالي كاستانوس Kale Kastanos أسرها العثمانيون من جزيرة كورفو Corfu خلال الحرب نفسها، وربما روَّجت هي نفسها الإشاعات حول أصلها البندقي لانتزاع هدايا أعلى قيمة من الحكومة البندقية. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924». [المترجم].

على أن شيئا من هذه الاتصالات الشخصية أو المهنية لم يكن في أهمية أبرز سمتين تمتع بهما محمد صوكولو، وهما الفطنة الحادة والفضول النهم نحو العالم. فقد أثبت صوكولو على امتداد حياته المهنية أنه راعٍ سخي للعلم والفن والتعليم، وغطت أذواقه الكونية واهتماماته المتنوعة العالم بأرجائه قاطبة. من ذلك أنه كلّف رسامين فيرونيين برسم لوحات(*)، واستورد أشغال زجاج رفيعة من حرفيي البندقية[16]، ودافع عن فتح المرصد الشهير للفلكي تقي الدين أفندي Takiyuddin Efendi في إسطنبول[17]، ورعى ترجمة تاريخ العالم الذي ألفه مصلح الدين اللاري Musliheddin el - Lary المعلم الشخصي للإمبراطور المُغالي همايون[18]. ولعل الأهم من ذلك بالنسبة إلى موضوع الكتاب أنه عمل من قرب مع أبرز الجغرافيين والمؤرخين العثمانيين في زمنه وموّلهم بسخاء. كان من بين هؤلاء أحمد بك فريدون Feridun Ahmed Beg الذي عمل سكرتيرا شخصيا لصوكولو وأمين محفوظات ومؤلفا غزير الإنتاج، ومحمد سباهي زاده Sipahizade Mehmed الذي أكمل النسخة التركية المختصرة من كتابه «أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك» - Evzạhụ'l - Mesālik fı Ma'rifeti'l Buldān ve'l - Memālik بتكليف من الصدر الأعظم في العام 1573، وقطب الدين مكي Kutbeddin Mekki الذي وسّع تاريخه للفتوحات العثمانية في المحيط الهندي بتكليف من صوكولو في العام 1579[19].

يكشف ذلك كله عن أن محمد صوكولو تمتع بفهم للأحداث العالمية أعمق وأثرى من أي رجل دولة عثماني آخر خلال القرن السادس عشر، ما جعله يتكئ على مخزون من المعرفة المتراكمة حول الكرة الأرضية، مكّنه من أن يضع - بإحكام غير مسبوق - استراتيجية كبرى للتوسع الإمبريالي. تمثلت عبقرية صوكولو في الجمع بين تقدير الإمكانية الخطابية الواسعة للمزاعم العثمانية بالسيادة العالمية وفهم المتطلبات التقنية لبناء شبكة عالمية من الاتصالات لتكون الوسيلة الأساسية للتعبير عن هذه المزاعم. ومن خلال تقويض الصلات البحرية الهزيلة بين البرتغال ومستعمراتها المتفرقة في الشرق، جنبا إلى جنب مع تيسير الإبحار بين البلاد العثمانية والجماعات المسلمة الواقعة فيما وراء البحار، أراد الباشا أن

(*) فيروني نسبة إلى مدينة فيرونا Verona الإيطالية التي ينسب إليها الرسام الشهير باولو فرونزه Paolo Veronese. [المترجم].

يحول المد المتصاعد للعاطفة الإسلامية إلى تجلٍّ ملموس للسيادة العثمانية في أنحاء آسيا البحرية قاطبة.

مصدر معلومات صوكولو

الريس سيدي علي

عندما شرع صوكولو باشا في وضع هذه الاستراتيجية الإمبريالية الكبرى، كان من بين مصادر إلهامه المبكرة كتاب الريس سيدي علي «مرآة الممالك» الذي كُتب، كما جاء في موضع سابق، بتكليف من سلف صوكولو رستم باشا، وتكشّف في جوهره عن رؤية للعالم ضيقة الأفق ومتمركزة حول العثمانيين، حاول رستم أن ينشرها من خلال هذه الرعاية الفكرية. كان هذا العمل قصة رحلات من رأي العين من النوع الذي إذا وضع في الأيدي الملائمة صار مصدر معلومات عظيم الفائدة حول المناخ السياسي في المحيط الهندي المعاصر. وحيث إن تقديم كتاب «مرآة الممالك» للسلطان في العام 1557 تزامن مع ظهور محمد صوكولو بوصفه شخصية مهمة في البلاط، فمن المرجح أنه كان - على الرغم من نية مؤلفه وراعيه - بمنزلة الشرارة الأولى لصوغ أفكار محمد صوكولو المختلفة حول المحيط الهندي.

من الواضح أن الدرس الأقوى الذي خرج به صوكولو من مذكرات سيدي علي هو أن مكانة العثمانيين - على الرغم من الكارثة التي ألمّت بمهمة سيدي علي - كانت في أعلى مستوياتها في أنحاء المنطقة كافة، وهو موضوع يتأكد مرارا وتكرارا على امتداد سرد المؤلف لرحلاته، كما يتكشّف في تعبيراته الرنانة «الانقياد والطاعة» للسلالة العثمانية في موانئ التوقف الإسلامية المختلفة من حضرموت إلى بلوشستان إلى كجرات. ففي بداية قصته على سبيل المثال، لدى لجوئه بأسطوله المهزوم إلى ميناء دامان الكجراتي، ذكر سيدي علي لقاءه ببعض «الجنكات» التابعة للسامري الكاليكوتي التي طمأنه بحّارتها إلى أن حاكمهم كان «يقاتل الكفار ليل نهار انقيادا وطاعة لصاحب الجلالة الإمبراطورية»(*)[20]. وبعدها بوقت قصير، دعاه إلى ميناء سورت القريب الخان الرومي ابن خوجه صفر ووريثه الذي استقبله بالعبارات التالية:

(*) الجنك (أو الينك) junk سفينة شراعية صغيرة تستخدم في البحار المفتوحة. [المترجم].

> إننا في غاية السرور بمجيئك لكجرات في أثناء هذه الهَبَّة الكبرى.
> فمن عهد نوح، لم يشهد البحر مثل هذه العاصفة... وأملنا أن تنضم
> بلاد كجرات قريبا - بإذن الله تعالى - إلى بلاد الإمبراطورية العثمانية
> المحروسة، حينها ستكون موانئ الهند آمنة من أيدي الكفار الملاعين[21].

إن المشاعر التي تفصح عنها هذه الفقرة الموجزة مذهلة؛ إذ تكشف بلغة لا لبس فيها أن مسلمي سورت، إلى جانب طلب العون العسكري من السلطان، يريدون ضم مدينتهم إلى العثمانيين. يقدم كلام الخان الرومي، عندما يوضع جنبا إلى جنب مع التقرير الجاسوسي الذي رفعه جواو دي ليسبوا الذي نوقش في الفصل السابق، تأكيدا آخر على أن النخبة الرومية التي استعادت نفوذها قد بلغت خلال السنوات العاصفة التالية لوفاة محمود سلطان كجرات في العام 1553 قوة غير مسبوقة في بلاط ابنه السلطان أحمد، ما جعل الأحلام بكجرات العثمانية إمكانية واقعية. وعندما انضم إلى سيدي علي إلى المشهد، كانت الجماعة الرومية المتمكنة تشمل، إلى جانب الخان الرومي، أميري الحرب القويين جنكيز خان Chingiz Khan وقرة حسن Kara Hasan المحاربين القديمين من حملات حصار ديو السابقة اللذين كانت تحت إمرتهما أعداد كبيرة من ضباط الصف والجنود الروميين. كان الأبرز بين جميع الروميين هو عماد الملك، والد جنكيز خان والمعلم الشخصي للسلطان الشاب الذي رقي في أواخر العقد السادس من القرن السادس عشر لرتبة وزير في بلاط أحمد[22].

تكشّف التأثير الجمعي لهذه الجماعة بجلاء لعيني القبودان العثماني سيدي علي لدى وصوله إلى العاصمة الكجراتية أحمد آباد التي استقبله فيها السلطان أحمد وعماد الملك بحفاوة ومراسم عامة. وعندما وصل لاحقا مبعوث برتغالي من ديو يطلب تسليم سيدي علي، أعلن عماد الملك رفضه القاطع قائلا: «إننا في حاجة إلى السلطان العثماني. فلو لم تتمكن سفننا من الوصول إلى موانئ إمبراطوريته، فإن أرزاقنا ستتأثر. والأهم من ذلك أنه باديشاه الإسلام. فهل من المعقول أن تطلب منا أن نسلمك قبودانه»[23].

لا ريب أن عماد الملك بوصفه واحدا من الروميين كانت لديه أسبابه النفعية لإعلان أن السلطان العثماني هو «باديشاه الإسلام» وإعلان ولائه له تحت راية

الوحدة الإسلامية. فعندما وصل سيدي علي، كان عماد الملك متورطا في مواجهة سياسية ضارية مع اعتماد خان Itimad Khan منافسه الرئيس على النفوذ في بلاط أحمد آباد، الذي كان يمثل مصالح الزمرة «المعادية للروميين» في كجرات. وبحلول العام 1559، كانت ضراوة المواجهة بين هاتين الجماعتين قد دفعت اعتماد خان، بعد أن خسر الصراع إلى التأثير في السلطان الشاب لمصلحة الروميين، لأن يرتب لاغتيال عماد الملك، وفي السنة التالية لاغتيال السلطان نفسه[24].

بالنظر إلى هذه الخلفية المحلية المضطربة، كانت للروميين الكجراتيين أسباب ملموسة واضحة لتأكيد السلطة العليا للسلطان العثماني وإعلان التزامهم نحوه. على أن هذه المشاعر كانت منتشرة على نطاق واسع أبعد من الدوائر السياسية في كجرات البحرية، ومن ذلك أن سيدي علي قوبل لاحقا بتعبيرات دعم مماثلة حتى في بلاط الإمبراطور المُغالي همايون في دلهي التي استقبل فيها بأبهة وبهرجة باهرتين؛ إذ خرجت لاستقباله على أبواب العاصمة المُغالية حاشية من نحو أربعمائة فيل وكل قضاة وحكام المنطقة. وخلال مقامه اللاحق في بلاط همايون، دُعي إلى حضرة الإمبراطور في عدة مناسبات، وتتكشّف في رواية سيدي علي لهذه المحادثات مع الإمبراطور المُغالي أقوى الأدلة على الأبعاد العالمية للمكانة العثمانية. ففي أحد الأيام، عندما بدأ همايون يسأله حول النطاق الجغرافي للإمبراطورية العثمانية مقارنة بنطاق ملكه في الهند، رد القبودان بأن «المناطق السبع التي سيطر عليها الإسكندر الأكبر تتطابق مع الإمبراطورية الحالية لباديشاه الروم». ثم سرد القصة التالية لتأكيد قوله:

> في ميناء سورت الكجراتي، أخبرني المسلمان [الروميان] خوجه بخشي Hoja Bakhshi وقرة حسن - والله وحده يعلم إن كانت روايتهما صحيحة أم لا - أن الناس عندما يحتفلون بالعيد في بلاد الصين، ترغب كل أمة من أمم المسلمين الكثيرة هناك أن يدعى في خطبة الجمعة باسم ملكها. لكن المسلمين الروميين ناشدوا خان الصين الأكبر بالقول: «إن إمبراطورنا هو باديشاه مكة والمدينة والقِبلة». ومع أن الخان الأكبر كافر، فإنه تفهم [عدالة مطلبهم] وأصدر أمره: «لن يدعى في خطبة الجمعة إلا باسم باديشاه مكة والمدينة والقِبلة».

> ثم أمر بأن يُكسى الوعاظ الروميون بعباءات الشرف وأن يطاف بهم خلال المدينة على ظهور الفيلة، ومنذ ذلك الحين يذكر اسم السلطان العثماني عند إحياء أي عيد ديني في بلاد الصين. هل حظي أي حاكم بكل هذا المجد من قبل؟[25]

معنى ذلك أن الروميين (خوجه بخشي وقرة حسن) ذهبا إلى أن السلطان العثماني، بحكم سيطرته على المدينتين المشرفتين مكة والمدينة، يحظى فعليا بالاعتراف بأنه صاحب السيادة واقعيا على المسلمين حتى في أماكن بعيدة كالصين، وهي المكانة التي أقرها الخان الأكبر[26]. وسواء كان ذلك حقيقيا أم لا، فإن همايون - كما قيل - تأثر بشدة بهذا الكلام واستدار إلى نبلائه وقال: «لا مراء في أن رجلا على وجه الأرض لا يستحق لقب «الباديشاه» غير صاحب الجلالة الإمبراطورية [السلطان العثماني]!»[27]. ثم أمر بكتابة رسالة يحملها سيدي علي معه لإسطنبول خاطب فيها السلطان سليمان بلقب «خليفة العالم»[28].

من الواضح أن هذه الحكاية (وتأكيدها الواضح في رسالة همايون للسلطان) تركت في محمد صوكولو أثرا أشد من أي جزء آخر من كتاب سيدي علي «مرآة الممالك». وكما كشفت الأحداث اللاحقة، فإن الباشا أخذ على كاهله فكرة تعزيز السلطة العثمانية في المحيط الهندي بتشجيع نوع الاندماج الطوعي (الانقياد والطاعة) بين التجار والحكام المسلمين المحليين والدولة العثمانية، الذي كشف كتاب سيدي علي أنه بدأ يتبلور تلقائيا.

لذلك جاءت رؤية صوكولو مختلفة جوهريا عن رؤية علي باشا سميز الذي تابع صوكولو - بصبر نافد – إحجامه، على امتداد أوائل العقد السابع من القرن السادس عشر، عن العمل بقوة مع حكام مسلمين مثل نظام الملك سلطان أحمد ناغار وعلي علاء الدين رعاية شاه سلطان آتشيه. ولذلك شرع صوكولو بعد موت علي باشا سميز في العام 1565 في إحداث تغيير جذري في السياسة العثمانية. وحتى قبل وصوله إلى الصدارة العظمى، تمكن صوكولو من استخدام وسائل غير مباشرة لوضع الأساس لحقبة جديدة من التعاون بين العثمانيين ومسلمي المحيط الهندي.

تتجلى الإشارات المبكرة لتأثير صوكولو في أوضح صورها في الموقف من سفارة من آتشيه التي طلبت في العام 1562 سفنا ومدفعية عثمانية لاستخدامها في الهجوم

على البرتغاليين في ملقا. وبسبب حرص علي باشا سميز على التوصل إلى تسوية مع البرتغاليين، كان رده الأولي الرفض التام لطلب الآتشيهيين وإعادة المبعوثين لجنوب شرق آسيا بخفي حنين[29]. لكن في النهاية تم التوصل إلى حل وسط؛ إذ وافق علي سميز أخيرا على إرسال عشرة من خبراء المدفعية إلى سومطرة ليساعدوا الآتشيهيين في صب المدافع في بلادهم من المواد المحلية. وقد كان هذا التنازل خطوة أولى حاسمة في إقامة علاقات عثمانية دائمة مع سلطنة آتشيه البعيدة، وهو ما نتج يقينا عن ضغط محمد صوكولو، وما يعد دليلا ملموسا مبكرا على الاستراتيجية المستقبلية الجديدة للصدر الأعظم في المحيط الهندي[30].

مما لا يقل أهمية عن ذلك أن الاتفاق على إرسال سباكي المدافع العثمانيين لآتشيه أعطى محمد صوكولو الفرصة لإرسال مبعوث غامض لا نعرف عنه غير أنه «لطفي خادم صاحب الجلالة» مع رحلة العودة الطويلة والخطرة إلى سومطرة. كانت مهمة لطفي الأساسية هي أن يرافق فريق خبراء المدفعية إلى آتشيه، وأن يجمع خلال رحلته مزيدا من المعلومات الدقيقة حول المنطقة لتأكيد المعلومات الواردة في كتاب سيدي علي «مرآة الممالك»، وأن يجري اتصالات مع المسلمين المحليين في أنحاء المحيط الهندي كلها، وأن يفعل كل ما في وسعه لحثهم على الثورة المسلحة ضد البرتغاليين.

من الصعب تخيل شخصية أكثر مراوغة من لطفي الذي يتمثل العمل الوحيد الباقي له في رسالة كتبها باسم سلطان آتشيه علي علاء الدين رعاية شاه وقدمها إلى الديوان الهمايوني لدى عودته إلى إسطنبول في العام 1566، فضلا عن كونه فردا من الوجاق الخاص من قباطنة البحر المسمى وجاق المتفرقة mteferrika re'isleri التابع للسلطان(*)[31]. ومع ذلك فإن المعلومات القليلة المعروفة عن نشاطات لطفي توحي بأنه كان شخصية بالغة الأهمية وأنه أدى دورا محوريا في التحضير للثورة الإسلامية التي اندلعت عبر المحيط الهندي بداية من العام 1564. ومما لا يخلو من دلالة أن بؤرة هذه الثورة كانت آتشيه التي يبدو أن لطفي، بمجرد وصوله إليها في منتصف تلك السنة، مارس تحريضا شديدا بين أهلها.

(*) المتفرقة muteferrik وجاق مؤلف من نخبة الحرس السلطاني والرفاق المكرمين في القصر يوصفون بأنهم «رجال من كل الأمم وكل الأديان». [المترجم].

عميل محرض في آتشيه

«لطفي خادم صاحب الجلالة»

مع أن سلطنة آتشيه كانت مركزا للمعارضة الإسلامية لدولة الهند منذ العقد الثالث من القرن السادس عشر على أقل تقدير، فإن السفارة الآتشيهية التي أرسلت إلى إسطنبول في العام 1562 كانت بمنزلة تحول حاسم في سياسة آتشيه الخارجية. وعلى الرغم من التاريخ الطويل من العلاقات التجارية الودية مع الإمبراطورية العثمانية، والذي تخللته حالات متفرقة من التعاون العسكري الصريح في وقت سابق من القرن، لا يوجد توثيق لأي اتصال ديبلوماسي مباشر بين الآتشيهيين والعثمانيين في أي وقت خلال العقد السابق. وعلى مدار هذه السنوات، ظلت آتشيه، على الرغم من اشتهارها بالثورة والتمرد، تابعا مواليا للبرتغاليين، ومن ذلك أن السفن البرتغالية كانت معتادةً زيارةَ آتشيه من حين إلى آخر للتجارة أو لشراء المؤن حتى العام 1563. وعلى الرغم من عدوانية آتشيه المتنامية نحو جيرانها في جنوب شرق آسيا، والتي أطرها الآتشيهيون غالبا بلغة المسؤولية عن حمل راية «الجهاد»، فإن السياسة الخارجية لآتشيه حتى ذلك الوقت كانت تسترشد بالدرجة الأولى بهدف غزو سلطنتي آرو Aru وجوهر Johor المنافستين المحليتين اللتين كان يحكمهما إخوة مسلمون[32].

لكن في اللحظة ذاتها التي وصل فيها لطفي سومطرة لأول مرة في العام 1564، تحدثت أطقم السفن البرتغالية التي زارت آتشيه عن تغير مفاجئ في سلوك الآتشيهيين الذين بدأوا يفتشون سفن البرتغاليين ويصادرون سلعهم من دون أي مبرر واضح. وأخذت التوترات تتزايد باطراد حتى وقعت حادثة احتج فيها طاقم سفينة برتغالية على هذه المعاملة و«أهان سفيرا من عظيم الترك كان هناك [في آتشيه] في ذلك الوقت»[33]. ما أغضب هذا السفير - الذي لم يكن أحدا غير لطفي - الذي طلب ثأرا لكرامته بأن يجبر الطاقم البرتغالي كاملا على إعلان إسلامه أو أن يُعمل السيف فيهم، ووافق السلطان الآتشيهي على تلك العقوبة، ولأن الطاقم كله - إلا رجلين - آثر الاستشهاد على الارتداد؛ فقد جرى تعذيبهم ثم إعدامهم علنا بطريقة مروعة[34].

لا تتوافر تفاصيل أخرى حول هذه الحادثة، لكن إذا أريد بها أن تكون محرضا مروعا لاستقطاب المشاعر المعادية للبرتغاليين، فقد أحدثت تأثيرها يقينا. ففي

أعقاب تلك الحادثة، بدأ وجود لطفي في آتشيه يلفت انتباه عدد كبير من مراكز القوة الإقليمية داخل سومطرة وخارجها، وفي أثناء مقامه هناك، عُرف أنه استقبل مبعوثين من مسلمي كاليكوت وسيلان وكجرات وحتى جزر المالديف[35]. وخلال بضعة أسابيع من إعدام الطاقم البرتغالي، أرسل سلطان آتشيه رسالة إلى كابتن ملقا البرتغالي ذكّره فيها بالعلاقات الودية التي سادت بين الطرفين في الماضي، لكنه اشتكى من «توبيخ العثمانيين المتكرر له» على فشله «المخزي» في القتال دفاعا عن مصالح المسلمين[36]. واختتم السلطان رسالته بالتحذير من أنه لو لم تصدر بادرة صداقة لا لبس فيها من ملقا، فلن يكون أمامه إلا إعلان الحرب.

وعلى مسافة نصف الطريق حول العالم، وعندما كان محمد صوكولو يستعد لتولي زمام السلطة في إسطنبول من علي سميز الذي كان يهرم سريعا، أرسلت رسالة بنبرة مماثلة من سليمان القانوني للملك البرتغالي الدوم سبستيان Dom Sebastiao في لشبونة، حذر فيها السلطان باقتضاب من أن صبره على المفاوضات قد نفد أخيرا:

> بلغني أنكم تعرضتم بالأذى والإساءة للحجيج والتجار المسلمين الآتين من الهند عبر البحر، وخرقتم بذلك اتفاقية السلام المنشودة بيننا... فإن كنتم راغبين حقا في إحلال السلام والأمن في تلك البلاد، فليس أمامكم عندما يصلكم هذا الفرمان السلطاني إلا أن توقفوا كل أعمالكم العدوانية ضد التجار والحجيج في البحر، وأن ترسلوا [إلينا] رسالة ومبعوثا مؤتمنا حتى يمكن إبرام اتفاقية ترتب شؤون تلك المنطقة على أساس متين. أما إذا تماديتم في غيكم، فإننا بعون الله تعالى سنفعل كل ما يلزم لإعادة النظام إلى تلك البلاد، وحينها لن يكون هناك مجال [أمامكم للاحتجاج] بالقول: «لكننا كنا نريد السلام!» لا شيء آخر يمكن أن يقال[37].

بتسطير هذه الرسالة، تسارعت الأحداث عبر المحيط الهندي؛ إذ انفجر العداء المكبوت للبرتغاليين لدى الجماعات المسلمة المختلفة في المنطقة في حرب مفتوحة عبر عدد هائل من المسارح العسكرية. ففي هضبة الدكن بالهند، تمكن المتنافسان التقليديان على السيطرة على المنطقة: نظام الملك سلطان أحمد ناغار، وعادل شاه Adil Shah سلطان بيجابور Bijapur، لأول مرة من توحيد قواهما وإسقاط مملكة فيجاياناغار Vijayanagar الهندوسية المجاورة التي ظلت حتى ذلك الحين حليفا

موثوقا للبرتغاليين[38]. وبعيدا إلى الجنوب، حاصر زعيم المابلا علي راجا Ali Raja القلعة البرتغالية التي تحرس ميناء كانور، وفي الوقت نفسه نظم ابن عمه قوطي موسى Kutti Musa أسطولا لمهاجمة سرب ميلو دا سيلفا Melo da Silva قبالة ساحل مليبار[39]. وفي السويس أُعطي الإذن للريس سفر للقيام بحملة غير محددة حتى حينه ضد البرتغاليين في بحر العرب.

حملة سفر الأخيرة

كان الغرض من هذه الحملة، التي ثبت أنها الأخيرة في حياة سفر الفريدة، محل تخمين بين الجواسيس والديبلوماسيين البرتغاليين منذ العام 1559 على الأقل، عندما بدأت تتسرب من مصر التقارير الأولى حول بناء أسطول جديد ضخم في السويس. ومع ذلك ظلت نيات سفر سرا عندما أبحر من السويس قبيل نهاية العام 1564 وتقدم حتى المخا قبل أن يتوقف في انتظار أوامر أخرى. بقي سفر هناك طوال الربيع والصيف التالين حتى أزال موت علي باشا سميز العقبة الأخيرة دون انطلاقه. وفي أواخر الخريف، ومع توافر الدعم الكامل من الصدر الأعظم الجديد محمد صوكولو، أبحرت قوادس سفر العشرة جميعها إلى الجنوب فيما أريد لها أن تكون أجرأ وأعظم حملة قام بها سفر على الإطلاق[40].

وفقا لتقرير أرسله الجاسوس البرتغالي في القاهرة ماتياس بيكودو فورتادو Mattias Bicudo Furtado في يناير 1566، فإن العثمانيين خططوا لاستخدام القوادس العشرة في هجوم مبتكر من نوعه؛ إذ أبحر سفر «بهدف نهب الساحل السواحلي كاملا والتقدم حتى موزمبيق التي علق الريس آمالا كبيرة على أن يصطاد فيها سفنا من الأسطول الملكي [الذي يرسل سنويا من لشبونة حول رأس الرجاء الصالح]»[41]. كان من شأن هذا الهجوم أن يأتي بغنيمة غير مسبوقة من السلع والعبيد المأسورين، وقبل ذلك أن يعزل دولة الهند فعليا عن عاصمتها بقطع الطريق البحري الضعيف الوحيد الذي يربط الهند والبرتغال. كانت هذه الخطة الفريدة في نطاقها والابتكارية في هدفها المحدد تنسجم مع استراتيجية سفر القتالية المجربة؛ إذ كانت في حقيقتها تكرارا على نطاق أكبر للحصار الذي نصبَه الريس بين هرمز وديو في العام 1554.

وإن كانت جرأة سفر ودقته الميزتان أساسيتين لهذه الخطة، فإن الخطة حملت أيضا بصمة محمد صوكولو الذي كان - من بين معاصري سفر - رجل الدولة العثماني الأفضل إعدادا لفهم المضامين العالمية لهذه الاستراتيجية ودعمها. وبالنظر إلى ما نعرفه عن الدبلوماسية النشطة للصدر الأعظم خلال هذه الفترة، فليس من المستبعد أن يكون صوكولو قد خطط مع سفر للهجوم، وربما حتى أنه حدد توقيت الحملة بحيث تتزامن مع هجوم قرصنة فرنسي على القاعدة البرتغالية في جزر ماديرا Madeira التي كانت محطة أطلسية مهمة على طريق قافلة السفن المرسلة سنويا من لشبونة إلى الهند. ثمة إشارة إلى ذلك في رسالة بندقية من مدريد تسرد الهجوم الفرنسي الذي حدث في منتصف العام 1566، إذ ذكرت بلغة ملغزة: «يُعْتَقد أن هؤلاء [القراصنة الفرنسيين] توجهوا نحو رأس الرجاء الصالح للتعاون مع حاكم في تلك الأنحاء في حالة حرب دائمة مع ملك البرتغال»[42].

وعلى الرغم من وجود هذه الخطط الضخمة، فقد قوّضها - لسوء الحظ - موت سفر المفاجئ وغير المتوقع الذي نقله للبرتغاليين الجاسوس القاهري نفسه ماتياس بيكودو فورتادو في الثامن عشر من يناير 1566. ذكر فورتادو أن سفر أبحر من السويس في أواخر الشهر السابق، وبعد يوم ونصف يوم من مغادرته المخا متوجها إلى جزيرة سقطرى مرض الريس من دون سابق إنذار مرضا مميتا، وأجبره الوهن على تغيير طريقه إلى مدينة عدن، وهناك مات بعد ثلاثة أيام فقط من وصوله[43]. أضاف تقرير فورتادو من باب الرثاء: «كان لصا جريئا وكان أكثرهم حنكة في [القتال] في تلك المناطق، وكان يعرف جيدا كيف يضرب ضربته ومتى. لا يوجد في كل بلاد الشرق رجل آخر يخيفنا كما أخافنا هذا الرجل»[44].

عودة لطفي

كان موت الفجأة الذي أخذ سفر وتوقيته ضربة قاصمة للثورة الإسلامية بقيادة العثمانيين ضد البرتغاليين. وسرعان ما استُدعي معظم أسطول سفر إلى السويس، لكن المهمة لم تكن كلها خسائر؛ إذ جُهِّز عدد من أطقم سفر على ما يبدو بقوادس جديدة في اليمن وغيروا خط سيرهم من موزمبيق إلى آتشيه[45]، من الواضح أن مهمتهم الجديدة كانت توفير الحراسة المسلحة لأسطول سفن التوابل

الذي كان يرسل سنويا من سومطرة إلى البحر الأحمر، وهي أول حالة مسجلة تقدم فيها حراسة من القوادس العثمانية لقافلة من التجار الآتشيهيين[46]. كان من ضمن مهام هذه القوادس أيضا أن تضمن عودة سالمة للطفي الذي حاول أن يعود من سومطرة في السنة السابقة لكنه أُجبر على التراجع بعد كمين في البحر أعدته دورية برتغالية[47].

علم البرتغاليون في أوائل العام 1566 أن «هناك في آتشيه خمسة غليونات محملة بالفلفل والتوابل وسلع أخرى كانت تستعد للمغادرة إلى مكة، وأن تسعة قوادس كانت في طريقها [من البلاد العثمانية] لحراستها خلال رحلتها»[48]. رد البرتغاليون على ذلك بإرسال خمسة غليونات وستة قوادس لجزر المالديف على أمل اعتراض هذه السفن وهي في الطريق إلى البحر الأحمر، وعندما وصلوا إلى الجزر علم الكابتن البرتغالي ديوغو بريرا Diogo Pereyra أن غليونات التوابل الآتشيهية وحراستها العثمانية وصلت وتنتظر في قناة قريبة، ولذلك أمر أسطوله بأن ينقسم إلى نصفين ويمشط المنطقة لتحديد مكان الأعداء.

أثبتت هذه الحملة أنها أصعب مما تخيل بريرا، كما يتضح من عويل المؤرخ ديوغو دو كوتو الذي ذكر في وصفه لهذه المواجهة أن «الأتراك رجال جسورون ومحنكون في الحرب لا يتركون شيئا للمصادفة كما نفعل نحن»[49]. ثم يسرد كوتو أن قادة القوادس العثمانية بمجرد أن علموا بوصول بريرا إلى المنطقة أعدوا حيلة لإلهائه؛ إذ أطلقت القوادس عددا من القذائف في اتجاهات مختلفة، وبذلك أقنعوا كل دورية برتغالية بأن صاحبتها عثرت على أسطول العدو. وهكذا قضت كلٌ من الدوريتين معظم النهار والليل في البحث عن الأخرى، وعندما التقتا أخيرا وأدركتا خطأهما، كانت القوادس العثمانية وغليونات التوابل الآتشيهية قد هربت.

أبحر بريرا إلى سقطرى في محاولة أخيرة للحاق بالعثمانيين هناك، لكن من دون جدوى. وأخيرا بعد أن نهب ميناء تابعا لشيخ محلي يُعْتَقد أنه يؤوي سفنا عثمانية، عاد أسطول بريرا إلى الهند بعد أن تعرض إلى عاصفة عنيفة أفقدته عدة سفن بكامل أطقمها[50]. ووصلت السفن القادمة من آتشيه المخا سالمة بحمولة توابل تساوي ثروة ومعها لطفي وحسين، والأخير هو السفير الآتشيهي نفسه الذي زار إسطنبول في العام 1562[51].

تقرير لطفي

عندما وصل لطفي وحسين إلى إسطنبول قبيل نهاية العام 1566، وجدا مناخا سياسيا أكثر تقبلا لأهدافهما من ذلك الذي تركاه وراء ظهريهما قبل ثلاث سنوات. فإلى جانب وجود محمد صوكولو في الصدارة العظمى، صار موقعه على قمة الحياة السياسية العثمانية أكثر أمنا بكثير من أي وقت مضى، بعد أن ساعد في ضمان العرش لِحَميه سليم الثاني عقب وفاة السلطان سليمان القانوني أخيرا. في هذه المرة تمكن السفير الآتشيهي من المثول أمام الديوان برفقة لطفي الذي كان مستعدا لإمداد رؤسائه بوصف من رأي العين للظروف في جنوب شرق آسيا في شكل رسالة كتبها باسم سلطان آتشيه.

كانت رسالة لطفي الأوسع تغطية بين الوثائق التي أنتجها أفراد عصبة المحيط الهندي خلال هذه السنوات، وجاءت محتوياتها مؤيدة لكل شيء ذُكر سابقا في مذكرات سيدي علي حول الحالة السياسية في المحيط الهندي، وذهبت أبعد منه فيما يتعلق بانقياد المسلمين هناك للسلطان العثماني. وفي ادعاء مذهل، ذهبت رسالة لطفي إلى أن السلطان علي علاء الدين رعاية شاه في آتشيه قد تجاوز طلب شراء الأسلحة والعتاد من العثمانيين، وتجاوز حتى المبادرة بالدخول في تحالف استراتيجي مؤقت مع إسطنبول، إلى إعلان رغبته في ضم بلاده رسميا إلى الدولة العثمانية في مقابل العون ضد البرتغاليين في ملقا، وهي الرغبة التي تذكرنا بالإعلان السابق للخان الرومي الذي ورد في كتاب «مرآة الممالك»، وجاء في الرسالة:

> ألتمس بصدق منكم يا صاحب الجلالة الإمبراطورية [السلطان العثماني] ألا تعتبرني أنا - خادمكم في هذه البلاد - حاكما مستقلا، وأن تقبلني عبدا فقيرا طيعا ذليلا يعيش بفضل إحسان صاحب الجلالة الإمبراطورية ملاذ الكون وظل الله [على الأرض](*)، لا أختلف في شيء عن ولاة مصر واليمن أو بكات جدة وعدن(**)... وأشهد الله

(*) كان من ألقاب سلاطين آل عثمان وعاصمتهم القسطنطينية «مأوى العالم» و«ملاذ الكون»، إذ أرادوها ملاذا وملجأ للمضطهدين في العالم من الملوك والرعايا، كما تكشّف في فتح بلادهم للمطرودين اليهود والمسلمين من أيبيريا ومن القرم وغيرهما، وللأمراء والملوك الذين لاذوا ببلاطها من القرم والمجر والمغرب وبلاد فارس والسويد وغيرها. راجع كتاب «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924». [المترجم].

(**) «بكات»: جمع «بك» التي تقابل الكلمة التركية الحديثة «باي» وجمعها «بايات». [المترجم].

على أن [مدينة] آتشيه واحدة من بلاد جلالتكم وأنني أيضا واحد من خدمكم. ويمكن أن يشهد مسؤولكم لطفي شخصيا على حالنا ومآثرنا والأعمال الكبرى التي قمنا بها في سبيل الجهاد، وعلى رغبتنا الثابتة والمخلصة في الدخول في خدمة صاحب الجلالة الإمبراطورية[52].

انتقلت رسالة لطفي بعد ذلك إلى وصف مستوى مماثل من الحماس لحكم السلالة العثمانية في مناطق أخرى من المحيط الهندي. فذكر أن واحدا على الأقل من الوزراء الروميين في كجرات، هو عبدالرحمن قرمنلي أوغلو Karamanlioglu Abdurrahman، شارك سلطان آتشيه الرغبة في الاعتراف به سنجق بك عثمانيا، وأضاف أنه أثبت ولاءه بنقل لطفي بإحدى سفنه في رحلته من جدة إلى آتشيه[53]. ولعل اللافت للنظر بدرجة أكبر من ذلك أن لطفي أصر على أنه إلى جانب أفراد النخبة الرومية الكجراتية، أخذ عموم المسلمين في البلاد المختلفة في أنحاء المحيط الهندي كافة يعترفون بالسلطان العثماني سيدا أعلى وحاميا لهم. ففي أرخبيل المالديف على سبيل المثال ذكر أن «الناس... شيّدوا مساجد على كل الجزر ويدعون في خطبة الجمعة باسم صاحب الجلالة الإمبراطورية المجيد والمبارك»[54]. وفي سيلان وكاليكوت، على رغم أن حكامهما كانوا وثنيين، بنى أهالي المملكتين عشرات المساجد، وهناك أيضا «يدعون في خطبة الجمعة باسم ملاذ الكون صاحب الجلالة الإمبراطورية المجيد والمبارك، ويدعون الله بدوام دولته وازدهارها»[55]. وذهب تقرير لطفي أيضا - بشيء من المبالغة - إلى أن جهوده أقنعت حكام هاتين المملكتين بالاعتراف بالسيادة العثمانية واعتناق الإسلام في مقابل العون العسكري من إسطنبول. ذكر التقرير في ذلك:

عندما علم حكام سيلان وكاليكوت أن لطفي خادم صاحب الجلالة وصل إلى هنا [آتشيه]، أرسلوا إلينا سفراء أعلنوا: «نحن [أيضا] خدم صاحب الجلالة الإمبراطورية ملاذ الكون وظل الله [على الأرض]»، وأقسموا على أن أسطول صاحب الجلالة الإمبراطورية لو أبحر إلى هذه البلاد، فإنهم سيدخلون في الدين ويعلنون إسلامهم، وأن رعاياهم الكفار جميعا سيتخلون عن أديانهم الزائفة ويدخلون في

الصراط المستقيم لدين الله الحق. وبإذن الله وعون صاحب الجلالة الإمبراطورية سيمحى كل أثر للكفار في الشرق والغرب ويدخل الناس أخيرا في دين الإسلام[56].

تمكن لطفي بهذا التقرير من تأكيد الشيء الأهم الذي كان محمد صوكولو بانتظاره، وهو أن مسلمي آسيا البحرية كانوا على أهبة الاستعداد للتبني الفوري لمفهوم السلطنة العثمانية العالمية بوصفه أيديولوجيا سياسية جامعة للمسلمين. لذلك شعر الصدر الأعظم بأن فرصة تاريخية قد سنحت لتوسيع النفوذ العثماني بلا جهد عبر أنحاء المحيط الهندي كافة، وما كان منه إلا أن كرّس كل طاقته الكبيرة وحماسه وفطنته التنظيمية لهذا الهدف.

جاءت استراتيجية صوكولو لإنجاز ذلك الهدف، تماما مثل شخصية الرجل، معقدة ومتعددة الأبعاد؛ إذ شملت مزيجا من المبادرات السياسية والمناورات الديبلوماسية والحملات العسكرية وإصلاح السوق والدعوة إلى الدين. وفي النهاية لم يحالفه النجاح في مساعيه، لاسيما فيما يتعلق بأعلى خططه طموحا التي فشلت في بلوغ أهدافها (بموت سفر المشؤوم في العام 1565). لم يكن صلب استراتيجيته يكمن في أي عمل محدد لغزو البلدان أو هزيمة البرتغاليين في البحر، بل تمثل طموحه الأكبر في إقناع مسلمي المحيط الهندي بأن فكرة الخلافة العالمية التي يوجد السلطان العثماني على رأسها كانت مفيدة وتستحق الدعم في ذاتها. وفي هذا الجانب نجد أن أشد حالات فشله وضوحا ساعدت في خدمة أهدافه الكبرى، وذلك من خلال تعزيز فكرة أن السلطنة العثمانية كانت مؤهلة للتحدث والعمل باسم المسلمين في كل مكان.

التحضيرات لحملة عثمانية إلى سومطرة

لبلوغ ذلك الهدف تمثلت المهمة الأولى والأوضح أمام الصدر الأعظم في إعادة لطفي إلى آتشيه، وهذه المرة بصحبة حملة عسكرية كبيرة. لذلك أمر فورا ببناء أسطول في ترسانة السويس، واعتمد على خبرته الطويلة في الشؤون البحرية لضمان أن تكون سفن الأسطول الجديد كاملة التجهيز. تكشف المحفوظات الباقية أن صوكولو أرسل بين شهري سبتمبر وديسمبر 1567 عشرات المراسيم المتعلقة

بالحملة، تابع من خلالها التحضيرات بأدق التفاصيل. شملت التوجيهات المرسلة من إسطنبول خلال هذه الأشهر أمرا لوالي مصر بتحديد قباطنة بحريين مناسبين للأسطول، وطلبا لرئيس سباكي المدافع في ترسانة غَلَطَه لاختيار أفضل أسلحة الحصار للحملة، ورسالة إلى بياله باشا Piyale Pasha أمير أمراء الأسطول العثماني بخصوص بعض لفات الحبال التي تحتاجها القوادس[57]. ووقع اختيار صوكولو لقيادة الحملة على كوردوغلو خضر Kurdoğlu Hizir الذي كان حينئذ قبطان الإسكندرية، وتولى الريس محمود Mahmud Reis، الذي حل محل سفر أميرا للبحر في السويس، المسؤولية المباشرة عن القوادس[58].

ومع اقتراب العام 1567 من نهايته كانت هذه الحملة العسكرية مجهزة بالكامل ومستعدة للإبحار. تألفت الحملة من خمسة عشر قادسا حربيا كاملة التسلح ورافقها غليونا نقل محملان بـ «المدفعية والمسكتات وغيرها من عتاد الحرب»، من ضمنها ثلاثون من مدافع الحصار الضخمة[59]. ضم الأسطول سبعة خبراء مدفعية، وخبير سباكة مدافع من هيئة المدفعية الإمبراطورية، وعددا كبيرا من المجدفين، و«عددا كافيا من الجنود من جيوشنا المظفرة» وعددا أكبر من المعتاد من الحرفيين، منهم نشّارون ونجارون وحدادون وصفّارون وجلفاطون(*)، وحتى ثلاثة من صاغة الذهب، حصلوا جميعا على راتب سنة مقدما قبل مغادرتهم[60]. واستجابة لطلب من سلطان آتشيه نُقل في رسالة لطفي؛ أُعطيت لكل المشاركين في الحملة من كل الرتب أوامر بإطاعة السلطان علي علاء الدين رعاية شاه في كل أوامره وعدم معارضته بأي حال، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه لعقوبة شديدة[61]. ومن أجل ضمان الالتزام بهذه الأوامر، رافق الأسطول كل من لطفي والسفير الآتشيهي حسين وشخص يدعى مصطفى جاووش Mustafa Chavush (من وجاق الرسل السُلطانيين)(**) كان مكلفا بمرافقة القوة حتى

(*) النشّار: هو الحرفي الذي ينشر الخشب، والصفّار هو الحرفي الذي يصب النحاس، والجلفاط هو الحرفي الذي يسد الحزوز بين ألواح السفينة بالقار. [المترجم].

(**) الجاووش Çavuş (معناها في اللغة التركية رسول أو ساع): لقب عثماني يستخدم لفئتين عسكريتين من السعاة أو الرسل على مستويين متباينين من المكانة. فكان حامله دون رتبة الأغا والكتخدا في وحدات مثل الانكشارية والسباهية، وكانوا أيضا وجاقا مستقلين باسم الجاووشية çavuşiyye تألف من فرسان ومشاة خدموا الديوان الهمايوني (كما في ولاية مصر). كان قائدهم يدعى جاووشباشي çavuşbaşı أو باش جاووش başçavuş الذي كان نائبا للصدر الأعظم مختصا بالأمور الأمنية ومرافقة السفراء الذين يزورون الصدر الأعظم. [المترجم].

سومطرة والعودة إلى البلاد العثمانية بخبر وصولها بسلام. كان مصطفى جاووش مكلفا أيضا بتسليم مرسوم همايوني إلى سلطان آتشيه يُقر قسم سلطان آتشيه بالولاء للدولة العثمانية ويحثه على بذل كل طاقته للاستفادة من العون المرسل إليه. جاء في هذا المرسوم:

> عليك [يا سلطان آتشيه] أن تبذل قصارى جهدك لأداء مسؤولياتك أمام الدين وأمام دولتنا العلية. وعليك أن تفعل كل ما في وسعك، سواء بغزو معاقل الكفار البؤساء، أو تحرير المسلمين من شرهم وظلمهم، وأن تعمل - بعون الله القدير - على تطهير تلك البلاد من دنس الكفار حتى يعيش المسلمون في تلك البلاد - في ظل حكمنا السلطاني العادل - في طمأنينة وراحة بال ولا يشغلهم شيء عن تحصيل أرزاقهم[62].

واختتم السلطان رسالته أخيرا بوعد بأن هذه الحمولة الأولى من الرجال والأسلحة كانت البداية لعلاقة جديدة دائمة بين إسطنبول وآتشيه يجب حمايتها وتعهدها بضمان أن تظل خطوط الاتصال بين العالمين البعيدين مفتوحة وآمنة:

> بمشيئة المولى تعالى لن يتوقف إرسال المدد من جيوشنا الباسلة من الآن فصاعدا لمنع الأذى الذي ينشره أعداء دين الله وشريعة رب العالمين، الذين اجتاحوا بلاد المسلمين. ونرجو أن تنتظم في موافاة بلاطنا السلطاني بتفاصيل الأحوال والتطورات في بلادك وألا تقصر في ذلك[63].

العصيان في اليمن

مع استعداد أسطول كوردوغلو خضر للإبحار، بدت الساحة مهيأة لتدخل عسكري عثماني غير مسبوق في جنوب شرق آسيا. لكن في ضربة مفجعة لخطط صوكولو، تقوّضت الحملة الكبيرة المعدة لآتشيه (مثل كثير من مشاريع الصدر الأعظم الطموحة الأخرى) في الدقيقة الأخيرة بفعل تطورات سياسية غير متوقعة في مكان آخر من الإمبراطورية. نشأت المتاعب في هذه الحالة في المرتفعات اليمنية التي قامت فيها ثورة بقيادة الإمام الزيدي المطهر التي كانت الأولى من نوعها

خلال عشرين عاما، والتي أدخلت اليمن في حالة من الاضطراب، ما جعل أي خطط لاستخدام اليمن قاعدة متقدمة لحملة آتشيه مستحيلة عمليا.

بيد أن الثورة لم تكن مفاجئة؛ إذ بدأت التقارير الأولى بشأنها تصل إلى إسطنبول في صيف العام 1567، وهو وقت لم تزل فيه حملة آتشيه في مراحلها التخطيطية. في بادئ الأمر قلل محمد صوكولو من شأن الوضع وخطورته وحاول أن يمضي في تحضيراته البحرية على الرغم من الاضطراب. لكن خلال الأشهر التالية اتخذت الأوضاع في اليمن منعطفا خطيرا؛ إذ سقطت المدن الرئيسة: تعز وصنعاء وعدن، جميعها أمام قوات المطهر، وفرّ سرب القوادس العثماني المتمركز في المخا إلى جدة، وحتى ولاء السلطان بدر في الشحر صار محل شك[64]. وبنهاية العام 1567 كانت الحامية العثمانية الصغيرة في زبيد هي الوحيدة التي ظلت صامدة أمام الثوار، واضطر الصدر الأعظم إلى أن ينظم حملة إغاثة سريعة على مضض. وكُلّف خوجه سنان باشا Koja Sinan Pasha، والي مصر الجديد، بإعادة غزو اليمن، وأعيد توجيه كوردوغلو خضر وقوادسه الخمسة عشر لهذا الغرض؛ ما أرجأ مغادرتهم إلى سومطرة لأجل غير معلوم[65].

لا ريب في أن قرار إلغاء حملة آتشيه الذي جاء بعد سنتين فقط من موت الريس سفر المفاجئ كان خيبة أمل شديدة لمحمد صوكولو. لكن على خلاف المصادفة القاسية المتمثلة في مرض سفر وموته المفاجئ في بداية حملته، لا يمكن اعتبار التوقيت غير المناسب لثورة المطهر مجرد حالة من حالات القوة القاهرة، بل على العكس من ذلك؛ كان السخط الواسع في اليمن الذي أشعل ثورة المطهر نتيجة مباشرة لجهود الباشا لزيادة التدخل العثماني هناك من باب التحضير لخططه للتوسع في المحيط الهندي.

ترجع المظالم الكثيرة التي أثارها المطهر وأتباعه تحديدا للإدارة المتهورة لمحمود باشا Mahmud Pasha الذي اشترك مع محمد صوكولو في أصوله البوسنية وعمل واليا لليمن العثمانية من العام 1560 إلى العام 1565. كان محمود، إضافة إلى ارتباطاته بالصدر الأعظم، عضوا بليدا ضمن عصبة المحيط الهندي، إذ ترَقّى خلال المراتب البيروقراطية المصرية في ظل ولاية داود باشا إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر[66]. وبسبب هذه الخبرة أثبت

محمود خلال فترة ولايته اللاحقة لليمن أنه - ظاهريا على الأقل - إداري ناجح، وإن كان مجردا من الضمير. فقد شهدت سنواته الخمس في الولاية زيادة كبيرة في عائداتها، ما جعل اليمن تولد فائضا كبيرا للخزانة الإمبراطورية، وتقدم إلى جانب ذلك إعانات مالية لولاية إريتريا المجاورة عبر حمولات الجنود والنقود[67]. وبسبب دأبه - مثل محمد صوكولو - على تحويل اليمن إلى منصة انطلاق لمزيد من التوسع، لاقت جهود محمود استحسان الصدر الأعظم ودعمه، ولذلك فبعد أن أنهى الباشا مدته في اليمن وعاد إلى إسطنبول في العام 1565، رقاه صوكولو لولاية مصر. وحينها فقط، عندما اندلعت الثورة في اليمن، بات واضحا أن المكاسب التي حققها محمود باشا كانت من النوع الحرام[68].

كانت إساءات محمود باشا في أثناء ولايته ضخمة حقا، حتى بمعايير القرن السادس عشر المتساهلة. فقد بدأ الباشا عهده بإعدام موظفي دار سك العملة بالولاية بناء على اتهامات لا أساس لها بغش العملة لأجل أن يصادر ثرواتهم الشخصية لمصلحة الخزانة. ثم وضع رجاله في دار السك، وقام هو نفسه بلا خجل بغش العملة إلى حد أن جنوده حلّت بهم الفاقة وأُجبروا على بيع أملاكهم أو الهرب من الخدمة أو - الأسوأ من ذلك - الانضمام إلى صفوف الزيديين[69]. وبدافع النهم لزيادة خزانته أيضا، أثار الباشا مواجهة مع حاكم تعز الغني النزاري al-Nazari الذي منحه الولاة العثمانيون السابقون حكما ذاتيا. وعندما فرّ النزاري خوفا إلى معقله الجبلي حب Habb، استطاع محمود أن يغريه للخروج من حصنه بعروض العفو، وبمجرد أن أمسك به أعدمه في الحال واستولى على ممتلكاته وفرض زيادات ضريبية باهظة على المنطقة كلها عقابا على عصيان النزاري. ولاحقا، أعدم اثنين من أتباعه عندما احتجا على سياساته. وأخيرا، لدى عودته إلى إسطنبول، استخدم الثروة الهائلة التي جمعها من هذه المغامرات الشنيعة وأمثالها لإغداق الهدايا على محمد صوكولو والسلطان وضمان تعيينه مستقبلا واليا لمصر[70]. وعندما انهارت السلطة العامة في اليمن تماما، وهو ما حدث بعد سنة من عودته، وبعدما كشف فحص دفاتر محمود المحاسبية مدى فساده، جرى التخلص منه بهدوء في أحد الشوارع الخلفية في القاهرة[71].

الموجة الثانية للثورة الإسلامية

حل خوجه سنان محل محمود باشا واليا لمصر، وهو أيضا أحد كبار المسؤولين المحسوبين على محمد صوكولو، وكُلِّفَ أيضا بمسؤولية تنظيم حملة الإغاثة لليمن. لن نفصل القول في القصة الطويلة والمعقدة لإعادة الغزو اللاحقة للولاية، ويكفي أن نقول إن إخماد الثورة استغرق نحو ثلاث سنوات، وامتص كل الموارد المالية والعسكرية المتوافرة للمنطقة[72]. وقبل أن ينتهي النزاع كان خوجه سنان قد طلب كل السفن الاحتياطية المتمركزة في السويس وكل الاحتياطي العسكري لكل من مصر وإريتريا، إضافة إلى قوادس كوردوغلو خضر الخمسة عشر التي كانت مخصصة لآتشيه.

بيد أن أزمة بهذا الحجم لم تمنع العثمانيين من إرسال بعض القوات - على الأقل - إلى سومطرة. ففي منتصف العام 1568 ذكرت مصادر برتغالية وصول نحو «خمسمائة تركي وكثير من القذائف الكبيرة ووفرة من الذخيرة وكثير من المهندسين وبعض خبراء المدفعية» إلى آتشيه[73]. وعلى الرغم من عدم وجود معلومات تفصيلية حول هذه العملية، يفترض أن هذه القوات والعتاد أبحرت في غليونين (من نوع البرجا[*]) كانا مخصصين للإبحار مع قوادس كوردوغلو خضر الخمسة عشر في خريف العام 1567. كانت مهمة هاتين السفينتين منذ البداية مختلفة عن مهمة بقية الأسطول العثماني؛ إذ بدلا من البقاء في آتشيه مع كوردوغلو خضر ورجاله، كانت التعليمات لهما أن تُحمَّلا بحمولة توابل مخصصة للخزانة العثمانية وتعودا إلى اليمن مع الرسول السلطاني مصطفى جاووش[74]. وبسبب هذه الأوامر المنفصلة يبدو أنه قد سُمِح للسفينتين بالإبحار إلى آتشيه من دون بقية قوات خضر وأخذتا معهما إلى جانب مصطفى وفرقة الخمسمائة مرتزق عثماني، السفير الآتشيهي حسين الذي توجه بعدها بوقت قصير إلى ملقا في بعثة ديبلوماسية أخرى[75].

عندما وصلت هذه القوات إلى سومطرة نفذ سلطان آتشيه الالتزام الذي قطعه على نفسه مع محمد صوكولو باستخدام القوات المساعدة العثمانية الجديدة

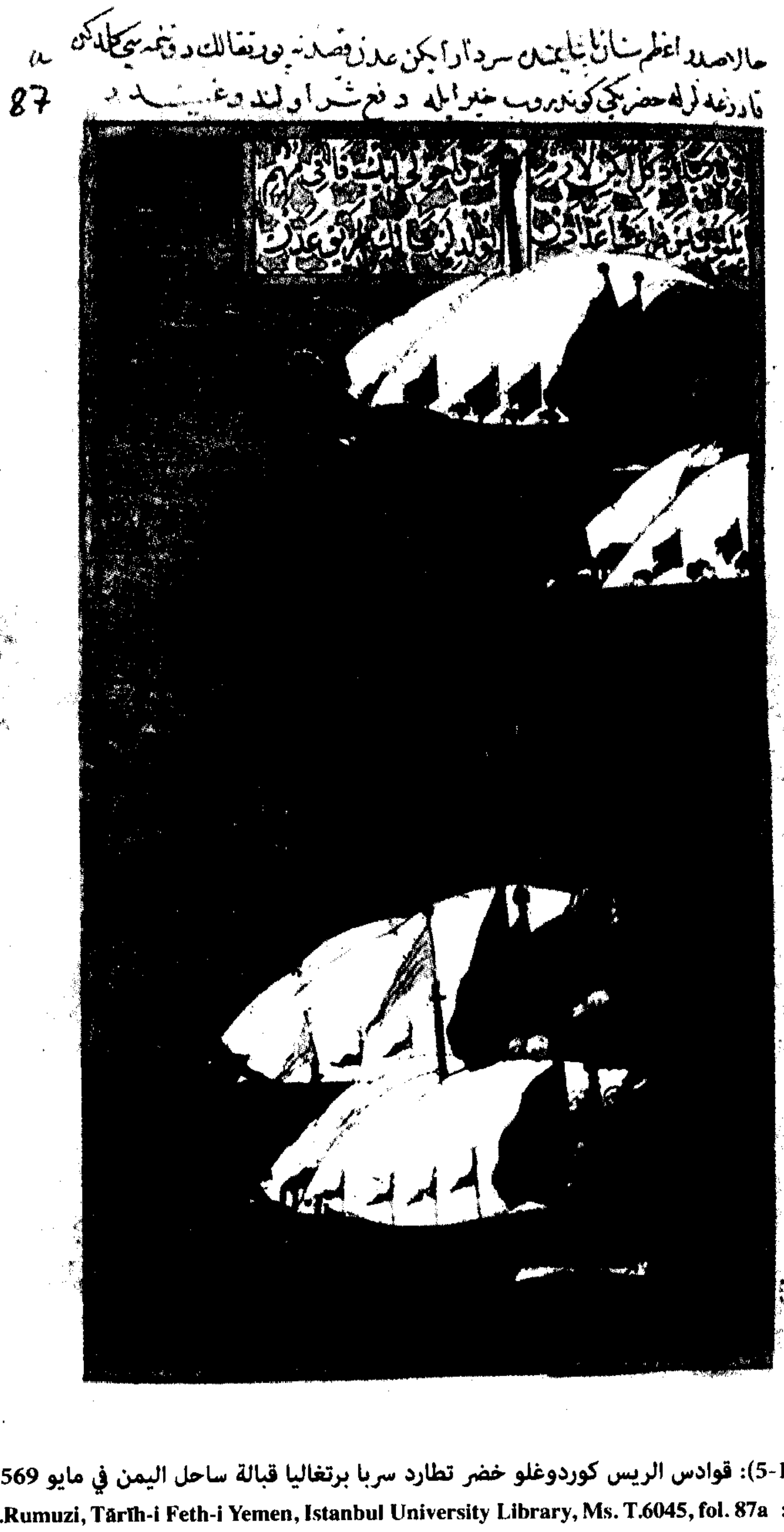
(*) البرجا barça أو البرك barc: سفينة شراعية بثلاث سوارٍ وأشرعة مستعرضة وطولية. [المترجم].

لحصار الحصن البرتغالي في ملقا[76]. وعلى رغم أن هذا الهجوم لم ينجح في النهاية، فقد صاحبه اندلاع موجة جديدة من الأعمال العدوانية في كل أنحاء المحيط الهندي. ففي جزر المالديف استطاع القرصان الكاليكوتي قوطي موسى أن يطرد الملك المسيحي الذي نصّبَه البرتغاليون وسيطر على الأرخبيل لحساب نفسه في العام 1569[77]. وفي السنة التالية، على شبه القارة الهندية، تحالف سلطان أحمد ناغار نظام الملك وسلطان بيجابور عادل شاه مرة أخرى، وهاجم الأول قلعة شاول البرتغالية، وزحف الثاني على غوا مباشرة[78]. باءت المحاولتان بالفشل، وفشل هجوم آتشيهي آخر على ملقا في العام 1570[79]. لكن بمساعدة علي راجا، قريب القرصان قوطي موسى، حاصر السامري الكاليكوتي قلعة شاليام Chaliyam البرتغالية وغزاها وهدمها تماما في العام 1571[80].

بالتزامن مع ذلك، أدت محاولات القوات الزيدية بقيادة المطهر للتصدي لإعادة الغزو العثماني المتواصلة في اليمن إلى تكرار سلسلة الأحداث التي وقعت في وقت سابق من القرن. فعندما كانت جيوش خوجه سنان تتجمع خارج أسوار عدن في خريف العام 1568 أرسل القائد الزيدي المسؤول عن الدفاع عن المدينة التماسا مستميتا إلى البرتغاليين في هرمز وعدهم فيه بتسليم القلعة لهم وعائدات جمارك الميناء في مقابل المساعدة في الدفاع عن القلعة ضد الهجوم العثماني. فأرسل البرتغاليون فورا سربا صغيرا من هرمز وأرسلوا إلى غوا طلبا لمزيد من التعزيزات. لكن هذا الأسطول الأكبر، الذي بلغ وفقا لبعض الروايات نحو عشرين سفينة، لم يصل إلى موقع الأحداث إلا بعد فوات الأوان على إنقاذ المدينة، وطاردته قوادس كوردوغلو خضر بعيدا (الشكل 1-5). ثم اجتمعت القوات العثمانية على عدن من البر والبحر واستردتها في التاسع عشر من مايو 1569.

مشروعا قناة السويس وقناة الفولغا - الدون

على رغم أن عدم الاستقرار في اليمن اضطر محمد صوكولو إلى إرجاء خططه للعمليات العسكرية الكبرى في المحيط الهندي، فإن الصدر الأعظم الذي لا يقهر تمكن من استخدام الثورة الزيدية ذريعة لترويج مشروع آخر من المشروعات الأثيرة إلى قلبه، هو محاولة جديدة لحفر قناة من البحر



الشكل (1-5): قوادس الريس كوردوغلو خضر تطارد سربا برتغاليا قبالة ساحل اليمن في مايو 1569.

المصدر: Rumuzi, Tārīh-i Feth-i Yemen, Istanbul University Library, Ms. T.6045, fol. 87a.

الأبيض المتوسط إلى السويس. وفي أثناء التحضيرات لحملة الإغاثة لليمن أرسل محمد صوكولو في أوائل العام 1568 الأمر التالي لوالي مصر، طلب فيه دراسة جدوى لمشروع القناة:

> بلغنا أن البرتغاليين الملاعين سيطروا على بلاد الهند، ما أدى إلى قطع طرق المسلمين الآتين لزيارة المدينتين المشرفتين من تلك الأنحاء. وليس من المقبول أن يُجبَر المسلمون على العيش في هذه الحال تحت حكم الكفار الملاعين. لذلك فإننا بعون الله تعالى وبركة نبيه محمد (عليه السلام)، ننوي التوجه إلى تلك المناطق على أمل تحرير بلاد الهند من الكفار الملاعين، ولأنه بالقرب من المدينتين المشرفتين توجد وحوش ضالة انفصلت عن القطيع ويلزم التعامل معها [أي الثوار الزيديون]، يستعد الأسطول الإمبراطوري في الوقت الحاضر للتعامل مع هذه المسألة، ولكي يعبر إلى ميناء السويس، فقد يكون من الملائم حفر قناة. لذلك آمرك بما يلي:
>
> بمجرد أن تصلك رسالتي اجمع أمهر المعماريين والمهندسين في هذه الولاية، وأرسل معهم مساعدين حتى يعاينوا الأرض بين البحر الأبيض المتوسط وميناء السويس. وبمجرد أن يقرروا إمكانية حفر قناة من عدمها، والمدة اللازمة لحفرها، وعدد السفن التي يمكن أن تعبرها، أبلغنا بذلك كله، حتى تُجرى التحضيرات اللازمة ويبدأ الحفر. بإذن الله سنكمل هذه القناة، وبعونه تعالى سيكون النصر حليفنا في جهادنا في سبيله في تلك البلاد، بالقضاء على الوحوش الضالة التي انفصلت عن القطيع بالقرب من المدينتين المشرفتين وغزو الكفار البرتغاليين في بلاد الهند وقهرهم[81].

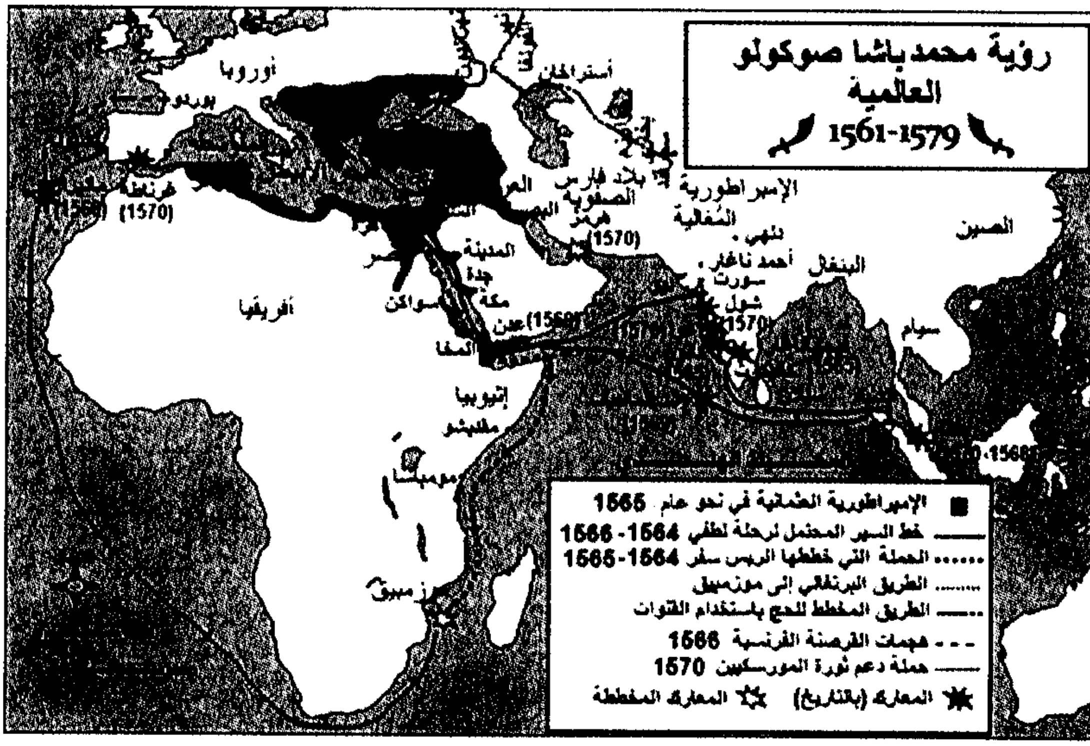
وعندما بدأ العمل في هذه القناة، حوّل محمد صوكولو انتباهه آلاف الأميال ناحية الشمال الشرقي، وهناك أخذ يتبع سياسة مع مسلمي آسيا الوسطى مشابهة تماما لتلك التي وضعها أولا للمحيط الهندي. وهنا أيضا أخذ الحجيج والتجار من سمرقند وبخارى وخوارزم بداية من العام 1566 يتذمرون من إعاقة طريقهم إلى المدينتين المشرفتين بسبب الصفويين في إيران وتوسع إيفان الرابع الروسي إلى

منطقتي قازان وأستراخان(*)[82]. ردا على ذلك اتخذ صوكولو ترتيبات لتيسير النقل عبر البحر الأسود من القرم إلى الموانئ الأناضولية: سينوب Sinop وسامسون Samsun وإسطنبول[83]. ثم بدأ الباشا في العام 1569 مغامرة أعلى طموحا لحفر قناة بين نهري الدون والفولغا بعيدا إلى الشمال[84].

هنا يبرز المدى العالمي لطموحات صوكولو الإمبريالية. تمثل الهدف من مشروعيه للقناتين التوأمين في إيجاد حلقة وصل بحرية مباشرة بين آسيا الوسطى ومكة، ما يمكّن المسافرين من السفر بالسفن على طول الطريق من أستراخان أعلى نهر الفولغا، ثم خلال القناة إلى نهر الدون ومنه إلى البحر الأسود ثم البسفور فالدردنيل فبحر إيجة فالبحر الأبيض المتوسط قبل أن يعبروا أخيرا إلى السويس والبحر الأحمر. وعندما يصلون إلى هناك لن يتاح لهؤلاء المسافرين الوصول إلى المدينتين المشرفتين مكة والمدينة فقط، بل أيضا لجماعات المسلمين واسعة الانتشار والآتية من المحيط الهندي بالبحر الأحمر من الاتجاه المعاكس. أراد محمد صوكولو - باختصار - أن يجعل الأمة الإسلامية المتخيلة واقعا على الأرض بإيجاد شبكة نقل عالمية متمركزة حول الإمبراطورية العثمانية تمتد إلى أبعد أنحاء العالم الإسلامي (الخريطة 5-1).

وفي النهاية لم يكتمل مشروعا القناتين؛ ففي السويس جزم المساحون بأن القناة غير ممكنة حتى قبل أن يبدأوا الحفر، وعلى جانب نهر الدون توقف العمل بعد بضعة أسابيع من الحفر. لكن جهود صوكولو أسهمت - على أقل تقدير - في إقناع

(*) إيفان الرابع فاسيليفيتش Ivan IV Vasilyevich (من 25 أغسطس 1530 إلى 28 مارس 1584) هو الأمير الأكبر لدوقية موسكو Grand Prince of Moscow (الكيان السياسي الذي تلا إمارة نوفغورود Novgorod ثم إمارة كييف الكبرى Grand Kiev وتلته إمبراطورية روسيا)، عُرف في اللغات الأوروبية باسم إيفان الرهيب Ivan The Terrible أو إيفان المرعب Ivan the Fearsome (بالروسية إيفان غروزني Ivan Grozny) بسبب بطشه وحكمه المطلق ونوبات الاضطراب النفسي والغضب الجنوني التي كانت تنتابه، وفي إحداها قتل ابنه وولي عهده إيفان إيفانوفيتش Ivan Ivanovich، في عهده ضمت روسيا الخانيات (الخانية هو اسم الدولة في اللغات المغولية والتركية، وحاكمها يدعى «خان») المسلمة قازان وأستراخان وسيبير Sibir، وتحولت بذلك من دوقية إلى إمبراطورية. [المترجم].
قازان Kazan حاليا عاصمة جمهورية تتارستان الروسية، كانت خانية دخلت حروبا مريرة ضد روسيا إلى أن غزاها إيفان الرهيب في العام 1552. [المترجم].
أستراخان Astrakhan حاليا مدينة تقع في جنوب روسيا على ضفتي نهر الفولغا بالقرب من مصبه في بحر قزوين، كانت خانية مستقلة إلى أن ضمها القيصر الروسي إيفان الرهيب في العام 1556. [المترجم].



الخريطة (1 - 5) رؤية محمد باشا صوكولو العالمية 1561 - 1579

إيفان الرابع الروسي بإعادة تقييم سياساته العدوانية، ووقّع في النهاية عهدا باحترام طرق حج المسلمين خلال قازان وأستراخان. وعلى ذلك فإن قناتي صوكولو خدمتا هدفه المتمثل في تيسير الاتصالات بين آسيا الوسطى والإمبراطورية العثمانية حتى من دون أن تُحفرا.

تجدد خطط التوسع وكارثة ليبانت

بعد استعادة السلطة العثمانية في اليمن، تمكن محمد صوكولو في العام 1569 من استئناف العمل مع شبكة حلفائه ومصادر معلوماته في المحيط الهندي للتحضير لهجوم جديد، فاستقبل في منتصف تلك السنة زيارة من سفير آخر من آتشيه أطلعه على نتيجة حصار السلطان علي علاء الدين رعاية شاه لملقا ونيات آتشيه بتجديد الأعمال العدوانية في الصيف التالي[85]. وعرف الباشا من جاكومو دوليفاريس Jacomo d'Olivares، المسيحي الجديد الذي فرّ من الهند البرتغالية هربا من اعتقال محكمة التفتيش له، أخبار التحالف المعادي للبرتغاليين الذي أقيم بين قوطي موسى وعلي راجا ونظام الملك وعادل شاه في جزر المالديف وكاليكوت والدكن[86]. وفي البحر الأبيض المتوسط حرص الباشا على

متابعة التطورات في إسبانيا التي قام فيها المسلمون المحليون المعروفون باسم «الموريسكيين» أخيرا بثورة عنيفة(*)[87].

اتخذ صوكولو في أوائل العام 1570 تدابير ملموسة لتقديم العون المادي لكل هذه الجماعات. فأرسل في أبريل من تلك السنة مرسوما إلى والي الجزائر لتقديم كل سبل الدعم والعون للثوار الموريسكيين في إسبانيا، وفي الصيف نزل ستمائة مسكتي عثماني - على الأقل - في أندلوسيا(**)[88]. وأرسل الصدر الأعظم في نحو الوقت نفسه رسالة أخرى إلى آتشيه أطلع فيها أتباعه هناك على أن الثورة في اليمن أُخمدت أخيرا وأن العون الذي طال انتظاره من إسطنبول سيصلهم قريبا[89]. وفي الخليج العربي الذي علم فيه المسؤولون المحليون بمحاولة مسلمي هرمز التخلص من حاكمهم البرتغالي، أمر الصدر الأعظم ببناء قوادس جديدة في ترسانة البصرة بغرض التدخل في هرمز[90]. ومع نهاية الصيف تسربت تقارير برتغالية منزعجة من جبهة جديدة وغير متوقعة تماما، هي الساحل السواحلي لأفريقيا الذي قيل إن عملاء يشتبه في أنهم عثمانيون من أمثال لطفي كانوا يحرضون أهاليه ضد البرتغاليين. وقيل أيضا إن قوادس عثمانية شوهدت بعيدا في الجنوب حتى جزر القمر القريبة - إلى حد مخيف - من القاعدة البرتغالية الرئيسة في موزمبيق[91].

أندلوسيا، سومطرة، هرمز، موزمبيق، هكذا كانت أبعاد رقعة الشطرنج التي لعب عليها محمد صوكولو لعبة سياسة القوة العالمية. لكن كما حدث كثيرا في الماضي، لم تتحقق خطط صوكولو المتقنة كاملة على أرض الواقع بسبب ظروف خارجة عن سيطرته. كان المسببان للفشل هذه المرة هما غريميه في البلاط لالا مصطفى باشا Lala Mustafa Pasha ويوسف ناسي

(*) الموريسكيون Morisco (كلمة إسبانية معناها «المغربي الصغير» أو «نصف المغربي») هو الاسم الذي أطلقه الإسبان على المسلمين الذين نُصّروا قسرا هناك بعد سقوط ممالك المسلمين في الأندلس. قام الموريسكيون بثورات كثيرة رفضا للتنصير واضطهاد محكمة التفتيش بعد أن أصبحوا «مسيحيين جددا»، كان أقواها وأكثرها تنظيما حرب البشرات (1568 - 1570) التي توجوا فيها ملكا وشكلوا تهديدا حقيقيا لوجود الدولة الإسبانية، لكنهم في النهاية هُزموا وشتت الباقون منهم على التراب الإسباني، وأخيرا طردوا نهائيا (نحو خمسمائة ألف شخص) من كامل التراب الإسباني في أوائل القرن التالي. راجع كتاب «الدين والدم». [المترجم].

(**) أندلوسيا Andalusia منطقة في جنوب إسبانيا اسمها مشتق من الاسم العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية: الأندلس. [المترجم].

Joseph Naxi اللذين نجحا، على الرغم من اعتراضات الصدر الأعظم القوية، في إقناع السلطان سليم الثاني بإلغاء الحملة على هرمز، وحرضاه بدلا من ذلك على جزيرة قبرص التابعة للبندقية، وهو القرار الذي أثار حربا مع البندقية وأدى - كما حذر صوكولو - إلى تشكيل «تحالف مسيحي» (من ضمنه إسبانيا والباباوية)، ألحق بالعثمانيين في السنة التالية في ليبانت Lepanto أقسى هزيمة بحرية في تاريخهم[92]. عمل صوكولو على إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد هذه المعركة، معتمدا على خبرته السابقة أميرا للترسانة العثمانية لتنظيم بناء مائة وخمسين قادسا جديدا في موسم واحد[93]. وفي السنة التالية استطاع أن يفكك التحالف المقدس باستخدام صداقته للبايلو البندقي مارك أنطونيو باربارو لتوقيع معاهدة سلام منفصلة مع البندقية[94]. بيد أن هذه الهزيمة كانت كارثة لصوكولو؛ إذ مزقت شبكة اتصالاته ومنعته من متابعة أي من مبادراته لنحو أربع سنوات. ومما زاد الأمور تعقيدا أن البرتغاليين في هرمز عادوا إلى الهجوم في العام 1573، إذ أغاروا على البحرين ودمروا عدة سفن في البصرة وأسروا مبعوثا من لارستان(*)[95].

وفّر الهجومُ البرتغالي المبرر لمحاولة صوكولو الأخيرة بناء تحالف كبير عابر للقارات ضد القوتين الأيبيريتين؛ إذ جدد ارتباطاته مع مصادر معلوماته وأنصاره المحليين في هرمز، وأرسل رسالتين متماثلتين إلى آتشيه وإلى الموريسكيين في إسبانيا تعدان بأن العون من إسطنبول في الطريق وأن الحرب في قبرص قد انتهت[96]. ولما علم الصدر الأعظم بالقلاقل المتواصلة التي كانت تواجه فيليب الثاني ملك إسبانيا بسبب ثورة البروتستانت في البلاد الواطئة(**)، بعث عميلا سريا إلى بلاد الفلاندر(***) حاملا

(*) لارستان Laristan حاليا إحدى مقاطعات محافظة فارس الإيرانية، حكمتها سلالة ميلادي Miladi بوصفها سلطنة مستقلة إلى أن غزاها الصفويون في أوائل القرن السابع عشر. [المترجم].

(**) البلاد الواطئة Low Countries مصطلح تاريخي للمنطقة الساحلية المنخفضة في غرب أوروبا المطلة على بحر الشمال حول دلتا أنهار الراين والسخليده والميز، تضم حاليا دول هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمال فرنسا وغرب ألمانيا، وكان الاسم يستخدم تاريخيا في المقام الأول للمقاطعات الهولندية. [المترجم].

(***) بلاد الفلاندر Flanders منطقة تاريخية كانت تقع على أجزاء من بلجيكا وفرنسا وهولندا الحالية، تتطابق مع المنطقة التي يقطنها الفلمنكيون، تأسست في العام 862 بوصفها كونتية في غرب فرنسا، وتتابع عليها الغالبون الأجانب، حتى انتقلت تبعيتها في العام 1384 إلى دوقية بيرغندي، ثم في العام 1477 إلى آل هابسبورغ، وفي العام 1556 إلى ملوك إسبانيا، قام أهلها بثورات كثيرة ضد الحكم الإسباني، قُمِعَت بوحشية، وكان من أشهر قاهريهم الدوق ألبة «مطرقة ثوار الفلاندر». [المترجم].

رسالة «صداقة وشفقة وعطف» إلى «اللوثريين»(*) في تلك البلاد متعهدا بتقديم العون لهم في صراعهم ضد «البابويين» الذين يتفق اللوثريون والمسلمون على رفض ممارساتهم الدينية. وحثت الرسالة التي حملها ذلك العميل البروتستانت على إرسال ممثلين لهم إلى إسطنبول بأسرع ما يمكن وعلى تنسيق جهودهم مع الثوار الموريسكيين في إسبانيا[97].

بدأ صوكولو في ذلك الوقت التحضير لغزو البحرين الذي أراد به أن يحمي البصرة من تكرار الهجمات البرتغالية[98]. تحركت القوات من البصرة إلى القطيف في أواخر العام 1574، وفي العام التالي أرسل أوامره ببناء ثمانية قوادس أخرى في ترسانة البصرة، ما رفع العدد الإجمالي للسفن المتاحة هناك إلى اثنتين وعشرين[99]. وفي ربيع العام 1576 كان الولاة العثمانيون في الأحساء والبصرة وبغداد وديار بكر يشاركون جميعا في إمداد هذه الحملة بالرجال والأسلحة والذخيرة، وكانت الدلائل جميعها تشير إلى أن الحملة ستبحر في خريف تلك السنة[100].

غير أن الحظوظ السياسية للصدر الأعظم كانت تتآكل باطراد في ذلك الوقت. أصبح صوكولو بداية من العام 1575 هدفا لسلسلة من مكائد البلاط أضعفت نفوذه وأبعدت كثيرا من رجاله عن المناصب الأساسية في كل من البلاط والولايات[101]. وفي العام 1577 أقنع منافسوه السياسيون السلطان الجديد مراد الثالث بإعلان الغزو الشامل لإيران الصفوية، وأطلقوا بذلك حربا استنفدت جل طاقة الإمبراطورية في المستقبل المنظور، ما أوجب وضع خطط صوكولو للمحيط الهندي جانبا إلى الأبد. ومع ذلك بذل الصدر الأعظم محاولة أخيرة جريئة لإثبات أهمية الاحتفاظ بأسطول للمحيط الهندي بتنظيم قوة من خمسة عشر قادسا في ترسانة السويس للإبحار حول شبه الجزيرة العربية وتقديم الدعم البحري للعمليات العثمانية قبالة ساحل بلاد فارس[102]. لكن بعد مواجهة عدد من العقبات التقنية، وُضعت هذه الخطة جانبا هي الأخرى، ما ترك الحرب ضد إيران حملة برية كليا[103].

(*) اللوثرية Lutheranism مذهب ضمن البروتستانتية ينسب إلى المصلح الديني مارتن لوثر Martin Luther (10 نوفمبر 1483 إلى 18 فبراير 1546)، دخلت في صراع عرف باسم الحروب الدينية مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي يشار إلى أتباعها ازدراء باسم «البابويين» Papists نظرا إلى تبعيتهم للبابا. [المترجم].

التحول إلى الديبلوماسية

بعد إحباط طموحاته العسكرية تحول الصدر الأعظم مرة أخرى خلال السنوات الأخيرة من حياته إلى الديبلوماسية لبلوغ أهدافه. وبين العامين 1578 و1579 وقّع أول اتفاقية تجارية للإمبراطورية مع إليزابيث ملكة إنجلترا، وبدأ مفاوضات مع الهابسبورغيين في إسبانيا للتوصل إلى معاهدة سلام في البحر الأبيض المتوسط(*)، وبدأ محادثات مع إمبراطور إثيوبيا سرسا دينقل Sarsa Dengel من أجل هدنة في المرتفعات الحبشية[104]. كما تواصل مع الجماعات الساحلية في القرن الأفريقي بشأن إمكانية الحصول على الخشب لترسانة المخا، واستقبل سفارة من إدريس ألوما Idris Alavama حاكم مملكة برنو الإسلامية البعيدة الواقعة في أفريقيا الوسطى جنوب الصحراء الكبرى[105].

تتشابه زيارة مبعوث إدريس ألوما في جوانب عدة مع السفارات السابقة التي استقبلها صوكولو من آتشيه وسمرقند. ولا ريب في أنها بهذه الصفة كانت مُرْضية للصدر الأعظم؛ إذ أظهرت بوضوح العوائد المتراكمة لجهوده لتعهد الترابط الإسلامي العالمي من خلال تيسير السفر والتجارة على طول طرق الحج التقليدية. تذكر المصادر المتاحة أن إدريس تواصل مع العثمانيين أول مرة عندما سافر للحج من برنو عبر فزان ومصر إبان السنوات الأولى لصدارة محمد صوكولو العظمى. وأنشأ إدريس لدى عودته أول مسجد بالطابوق في مملكته وأوقف نُزلا في مكة لإيواء الحجيج من أفريقيا الوسطى خلال مقامهم في المدينتين المشرفتين. كانت السفارة التي أرسلها إلى إسطنبول بعد ذلك تتعلق بهذا الشأن؛ إذ طلبت من السلطان ضمانات بأن يسمح للحجيج والتجار من مملكته بحرية التنقل خلال البلاد العثمانية. فأصدر صوكولو مراسيم بهذا الشأن لولاة مصر وفزان، ما أدى إلى قيام حلقة ربط مباشرة

(*) آل هابسبورغ House of Habsburg أو آل النمسا House of Austria واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام 1538 إلى العام 1740 وحكام الإمبراطورية النمساوية والإسبانية وبلاد أخرى كثيرة امتدت إلى العالم الجديد. استمدت العائلة اسمها من قلعة هابسبورغ Habsburg Castle التي بناها الكونت رادبوت الكليتغوي Count Radbot of Klettgau بين العامين 1020 و1030 في سويسرا الحالية، وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة «الهابسبورغي» إلى لقبه. انقرض الفرع الإسباني للعائلة بموت آخر ذكوره (كارلوس الثاني) في العام 1700 الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية، وانقرض فرعها النمساوي في العام 1780 بموت الإمبراطورة ماريا تريزا التي خلفت أباها الإمبراطور كارل السادس في العام 1740 الذي أطلقت وفاته بلا وريث ذكر حرب الخلافة النمساوية. [المترجم].

بالقوافل بين الإمبراطورية العثمانية وبرنو. وفي النهاية أدت هذه الروابط، إلى جانب إطلاق تجارة مربحة عبر الصحراء الكبرى، إلى إدخال الأسلحة النارية إلى أفريقيا الوسطى من البلاد العثمانية وإلى صعود برنو قوة إقليمية مهيمنة في وقت لاحق من القرن[106].

محمد صوكولو وتنظيم تجارة التوابل العثمانية

على مدى سنوات عمله الطويلة، لم تحقق مساعي صوكولو السياسية والعسكرية إلا نجاحا مختلطا؛ إذ أخذ الموت الريس سفر فجأة، وأخرجت الثورة في اليمن حملة آتشيه عن مسارها، وتُخُلِّي عن مشروعي القناتين في مصر وأستراخان. لكن الإنجازات الأهم والأبقى للصدر الأعظم - كما تبيّن أحداث برنو - لم تكن في الميدان العسكري، بل في العوالم الدنيوية للتجارة والمال والديبلوماسية. ففي هذه العوالم أثمرت جهوده اهتماما ثابتا بأشغال البنية التحتية الإمبريالية، لاسيما في المحيط الهندي. شملت التحسينات الأساسية الكثيرة في المرافق العثمانية في البحر الأحمر والخليج العربي التي نفذت بتوجيه صوكولو: توسيع ترسانات المخا وسواكن والأحساء بما يمكّن من البناء المحلي للقوادس الحربية، وإقامة مسبك مدافع في البصرة، وترميم القلاع للدفاع عن ميناءي مصوع وسواكن[107]. كما أنشئت مرافق لتصنيع البارود في البصرة واليمن، وأرسل مفتش للأحساء لبحث إمكانية استخراج الملح الصخري(*)[108]. أمر صوكولو والي إريتريا بإعادة مقره العسكري من المرتفعات المحيطة ببلدة دباروا إلى سواكن لتعزيز الدفاع عن الساحل، ونظم في البحر الأحمر دوريات بحرية منتظمة لتأمين الممرات البحرية[109]، وأنشأ في الخليج العربي إمارة بحر منفصلة للأحساء لأغراض مماثلة[110].

ارتبط ذلك كله بالإنجاز الأكبر على الإطلاق لمحمد صوكولو، وهو الإصلاح الشامل لتجارة التوابل العثمانية وإعادة تنظيمها وترشيدها. صحيح أن فترة صوكولو في الصدارة العظمى لم تشهد جديدا فيما يتعلق بتدخل الدولة في هذه التجارة؛ فقد كان العثمانيون يجمعون ضرائب على طرق التوابل منذ غزو مصر

(*) كان الملح الصخري أو ملح البارود (نترات البوتاسيوم) يستخدم بالدرجة الأولى في صنع البارود، وقد أطلق عليه العرب اسم «ثلج الصين» وأسماه الإيرانيون «الملح الصيني». [المترجم].

في العام 1517، لكن في النصف الثاني من القرن السادس عشر شاركت الدولة العثمانية برعاية محمد صوكولو في سوق التوابل الدولي بطريقة جديدة تماما، إذ أخذت تتربح من التوابل، وليس فقط من الجمع السلبي لعائدات الجمارك، وأصبحت فاعلا نشطا في التجارة.

إن قصة اهتمام محمد صوكولو شخصيا بالتوابل تسبق صدارته العظمى بمدة طويلة؛ إذ بدأت بفقرة وحيدة في أحد دفاتر المهمة من العام 1554 التي سجلت الصفقة التالية التي رتبها أوزدمير باشا الذي كان في ذلك الوقت والي اليمن المنتهية ولايته:

> كان [أوزدمير باشا قبل أن يغادر اليمن] قد أرسل أربعين [أربعة وأربعين] كيسًا kiselik من التوابل من العائدات السنوية لتلك الولاية إلى مصر مع [مساعده] مصطفى. وهناك [في مصر] باع التوابل المذكورة، ومن هذه الأربعة والأربعين كيسًا من التوابل أرسل ثمانمائة قطعة ذهبية لمحمد باشا [صوكولو] بالبلاط السلطاني، وأعطى البقية [راتبا] لقائد المسكتيين في اليمن[111].

تتفرد هذه الوثيقة بأنها أقدم دليل أرشيفي صريح يؤكد مشاركة الدولة العثمانية النشطة في تجارة التوابل التي يبدو أنها كانت عند هذه النقطة مقصورة على صفقة منعزلة لم تكن نظاما دائما لاستغلال العائدات. وعلى ذلك فإن إشارة النص الصريحة إلى محمد صوكولو ذات دلالة؛ إذ توضح أنه أدى دورا أساسيا منذ البداية في صياغة هذه السياسة التجارية التجريبية الجديدة[112]. يتزامن تاريخ هذه الحمولة الموثّقة الأولى من التوابل المملوكة للدولة مع ترقية صوكولو إلى مرتبة الوزير الثالث في العام 1554(*)؛ ما جعله للمرة الأولى عضوا بحكم المنصب في الديوان الهمايوني[113]. ينبئ ذلك بأن ترقية صوكولو كان لها دور في إعطائه السلطة للبدء باستخدام أموال الدولة للتدخل في السوق بطريقة المضاربة، ما زاد الإيرادات الضريبية لليمن من خلال تحويل الجمارك المحلية التي تُجمع في شكل سلع من حمولات التوابل الواصلة إلى نقد بأسعار السوق المصرية العليا[114].

(*) راجع حاشية سابقة حول الديوان الهمايوني ووزرائه الأربعة. [المترجم].

ثمة غموض غير مريح يكتنف المعنى الدقيق لكلمة «kiselik» الواردة في هذه الوثيقة، والتي تعني حرفيا «ما قيمته كيس نقود واحد»، لكنها لا تتطابق مع أي وحدة قياس معيارية يعرف أنها كانت تستخدم مع التوابل. وحيث إن الكيسة kise (تكتب عادة kese) كانت تستخدم أيضا وحدة نقدية(*)، فربما تشير الكلمة هنا إلى القيمة السوقية الفعلية للتوابل لا كميتها. بيد أن الكيسة كوحدة نقدية ترتبط للأسف بمجموعة محيرة من القيم المحتملة، ما يصعّب مهمة التوصل إلى استنتاجات صلبة بشأن الحجم الفعلي للصفقة المذكورة في هذه الوثيقة؛ إذ تُذكر الكلمة مثلا على أنها تساوي عشرين ألف أقجة فضية في مصدر عثماني يرجع إلى العام 1537، وعلى أنها تساوي عشرة آلاف قطعة ذهبية في مصدر آخر يرجع إلى وقت لاحق من القرن، والرقم الأخير يبلغ نحو ثلاثين ضعف قيمة الرقم الأول بأسعار الصرف إبان العقد السادس من القرن السادس عشر[115]. ومما يزيد الأمر تعقيدا أن دفاتر المهمة التي تصف حمولات توابل مماثلة خلال العقود اللاحقة لا تقدم أرقاما البتة (لا بالكيسة ولا بغيرها)، ما يتركنا في حالة من الغموض بشأن هامش الربح الفعلي الذي أمكن للدولة أن تحققه بهذه الطريقة[116].

وعلى أي حال فإن الوثيقة تتسم بالوضوح بشأن حقيقة واحدة على الأقل، وهي أن محمد صوكولو ربح كثيرا من الصفقة (ثمانمائة قطعة ذهبية)، وكذلك قائد المسكتيين في اليمن. وعلى رغم أنه لا يوجد مزيد من الأدلة من النصف الثاني من العقد السادس من القرن السادس عشر بسبب الحفظ المجزأ لسجلات دفاتر المهمة المعاصرة، يبدو أن هذه التجربة كانت ناجحة إلى الحد الذي جعلهم يسرعون في توسيعها وتنظيمها. ففي العام 1560، الذي أصبح فيه صديق صوكولو وحليفه محمود باشا واليا لليمن، لم يرسل كامل الفائض السنوي لهذه الولاية (الذي قدر بثلاثة ملايين أقجة، أي نحو خمسين ألف قطعة ذهبية) إلى مصر نقدا، بل في شكل حمولة من «الفلفل الكاليكوتي»[117]. كما أعطي كل بكات اليمن حصصا أصغر من

(*) في الإمبراطورية العثمانية، كانت كلمة «كيسة» kese تطلق على كيس جلدي يوضع فيه قدر من العملة الذهبية أو الفضية، ثم أطلق الاسم لاحقا على وحدة نقدية تغيرت قيمتها على مر الزمن، ثم تغير الاسم في عهد سليمان القانوني إلى «الكيسة الديوانية» Divan - i kese. وكانت الكلمة تستخدم عموما بمعنى المال، كما في عبارة «الكيسة المصري» kese - i Misri (الخراج المصري) و«الكيسة الرومي» kese - i Rumi (الخراج الرومي). [المترجم].

التوابل كجزء من رواتبهم السنوية، إلى جانب تراخيص تمكّنهم من شحن هذه الحصص بلا ضرائب من اليمن وبيعها بربح في مصر[118].

كان نظام التراخيص مفيدا لسببين: أنه مكّن الدولة - أولا - من استخدام آليات السوق لزيادة الرواتب الحقيقية لمسؤوليها في اليمن بأقل تكلفة للخزانة، وأنه أفاد - ثانيا - في كبح الفساد؛ لأن تراخيص الإعفاء من الضرائب المصدرة للمسؤولين الإقليميين لم تكن لها قيمة إلا إذا كانت الضرائب على تجارة التوابل تفرض بتعقل. لهذين السببين أصبح نظام التراخيص سريعا جزءا مهما من مالية اليمن، ومن ذلك أن الوالي الجديد رضوان باشا Ridwan Pasha أُعطي في العام 1565 توابل وترخيص تجارة بدلا من أن يحصل على راتبه نقدا من الخزانة[119].

احتكار التوابل العثماني

على الرغم من هذه البدايات الواعدة، توقف نظام التراخيص الذي طُبق إبان العقد السابع من القرن السادس عشر مع اندلاع الثورة اليمنية الكارثية في العام 1567. فبغرض كبح جماح التجاوزات الجائرة التي لوثت ولاية محمود باشا لليمن، آثر صوكولو فيما بعد سياسة تقوم على مزيد من السيطرة المركزية على التجارة. كان هذا النظام الجديد صارما، حتى إن مراقبا خارجيا مثل الرحّال الفيروني فيليبو بيغافيتا Filippo Pigafetta، الذي زار البحر الأحمر في أوائل العقد الثامن من القرن السادس عشر، رأى فيه كل الخصائص الأصيلة للاحتكار التجاري:

> [إلى جانب القوادس الحربية] تُستخدم الترسانةُ [في السويس] أيضا لبناء سفن تجارية لمصلحة السلطان الذي يمارس الاحتكار، إذ يحظر على أي شخص في ذلك البحر أن يمتلك سفنا خاصة أو يؤجرها. فكل شيء يملكه السلطان أو يدفع رسوما للسلطان، ما جعل البحر الأحمر مربحا لصاحب الجلالة بسبب عائدات الجمارك والسفن، إذ يدر البحر وحده عائدات أكثر من نفقات اليمن[120].

غير أن زعم بيغافيتا بوجود احتكار تجاري إمبراطوري صريح ليس أكثر من مبالغة؛ لأننا نعرف أن عمل السفن التجارية الخاصة لم يُمنع قط. ومع ذلك فلو أراد هؤلاء التجار أن يعملوا في تجارة التوابل من المحيط الهندي إلى مصر، فإنهم كانوا

ملزمين باتباع خط سير محدد، وكانوا مطالبين بالتوقف في المخا وجدة والسويس، وأن يدفعوا رسوم عبور كبيرة في كل ميناء[121]. وإلى جانب ذلك كانت قافلة منتظمة من السفن المملوكة للدولة تسافر سنويا من المخا إلى السويس مباشرة بحمولة من التوابل لمصلحة الخزانة الإمبراطورية معفاة من كل أنواع الضرائب[122]. كانت هذه الحمولة تباع في مصر بربحية في بادئ الأمر، وكانت إيرادات البيع ترسل إلى إسطنبول نقدا. لكن مع الوقت عمّ الفساد النظام بسبب مقدار المال الضخم المتضمن في العمل وتقلبات السوق غير المتوقعة، في المقام الأول بسبب الملتزمين الضريبيين (الذين حاولوا مرارا وتكرارا - بالمخالفة للقانون - أن يأخذوا ضرائب على الحمولات المملوكة للدولة) والمسؤولين الحكوميين (الذين حرصوا على أخذ عمولات غير قانونية ببيع التوابل بأسعار أقل من أسعار السوق)[123]. لذلك أمر صوكولو بعد منتصف العقد الثامن من القرن السادس عشر بأن تشحن حمولة التوابل الحكومية كاملة إلى إسطنبول مباشرة، وهناك كان في مقدوره أن يسيطر على وصولها سالمة وبيعها بطريقة مباشرة[124]. أما المسؤولون الإقليميون الذين شجعتهم الدولة في السابق على التجارة في التوابل بوصفها طريقة لزيادة دخلهم، فقد حظر عليهم صراحة العمل في أي نوع من التجارة[125].

لكن على الرغم من هذه التغييرات الكبيرة في النظم المتعلقة ببيع التوابل الحكومية (ميري البحر)(*)، فإن عمل القوادس المملوكة للدولة التي كانت تحملها ظل ثابتا على مر الوقت؛ إذ ظلت على مدار العقد الثامن من القرن السادس عشر ولعدة سنوات لاحقة تحمل التوابل من المخا إلى السويس سنويا بلا انقطاع، بغض النظر عما إذا كانت ميزانية ولاية اليمن تشهد فائضا أو عجزا. معنى ذلك أن قوادس التوابل لم تكن مجرد طريقة لنقل أموال فائضة من اليمن إلى الخزانة المصرية في حال وجود فائض في اليمن، بل كانت عملا تجاريا مستقلا يسترشد بمنطق السوق.

كان من النتائج المهمة لاستقلالية عمل قوادس التوابل عن مالية ولاية مصر واليمن أن الميزانيات الباقية من الولايتين لا تحتوي تفاصيل عن شراء وبيع التوابل التي كانت هذه القوادس تحملها، ما يفرض صعوبة شديدة على التوصل إلى

(*) ميري البحر miri bahar بمعنى ملكية الدولة المنقولة بحرا أو المتحققة عن طريق البحر، إذ تعني الكلمة العثمانية «ميري» ملكية الدولة لهذا الأصل الاقتصادي أو ذاك. [المترجم].

استنتاجات صلبة حول حجم هذه الصفقات أو هوامش أرباحها. لكنه يوحي أيضا بأن اليمن ظلت مصدرا رئيسا للدخل الموثوق للخزانة العثمانية على رغم أن ميزانيتها الإقليمية شهدت عجزا دائما خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر[126]. يتأكد ذلك من قول بيغافيتا الصريح إن «احتكار التوابل» هو الذي برر نفقات اليمن.

التنسيق بين البحر الأحمر والخليج العربي

مقارنة بالبحر الأحمر بنظامه التجاري الخاضع لسيطرة محكمة وإشراف دقيق، تميز الخليج العربي خلال العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر ببيئة تجارية أكثر ارتخاء بكثير، وهي الحال التي ظلت سارية حتى خلال أشد فترات التوتر السياسي مع البرتغاليين. من ذلك مثلا أن الصدر الأعظم صوكولو عندما كان متورطا في العام 1565 في سلسلة غير مسبوقة من الأعمال العدائية ضد البرتغاليين عبر المحيط الهندي (منها بعثة لطفي إلى سومطرة وحملة الريس سفر المخططة إلى موزمبيق)، واصل المفاوضات التجارية مع البرتغاليين في الخليج العربي. وبعد سنتين، وبينما كان صوكولو مشغولا بالتحضير لحملته العسكرية إلى آتشيه، جدد في أكتوبر 1567 الامتيازات التجارية التي انقضت لكابتن هرمز في البصرة، إذ سمح له بإقامة وكالة تجارية في المدينة للشراء والبيع مع الإعفاء من الضرائب في مقابل السماح بإرسال وكيل عثماني إلى هرمز بإعفاءات مماثلة[127].

في هذه الأثناء كانت التجارة على طول الجزء البري من هذا الطريق التجاري - من المشرق إلى الخليج العربي عبر حلب وبغداد والبصرة - قد فتحت أمام التجار من أي دولة في حالة سلام مع الإمبراطورية، ومن ضمنها دول أوروبا الغربية[128]. وبغرض تيسير هذا العبور جرى إصلاح الطرق ومرافق الموانئ والخانات على طول الطريق وتوسيعها، ما جعل الرحلة سريعة وآمنة ومريحة[129].

ولاحقا عندما بدأ عدم الاستقرار السياسي المتجدد حول البحرين في أوائل العقد الثامن من القرن السادس عشر يعرقل هذه التجارة، خفّض صوكولو نسبة الضريبة التي تُجمع في البصرة على البضائع العابرة للمساعدة في إعادة المرور عبر الميناء إلى مستوياته السابقة[130]. وبفضل هذه الإجراءات، أصبح العبور البري من البصرة إلى حلب شائعا

بين التجار، وبدأ المسؤولون البرتغاليون يفضلونه لمراسلاتهم المستعجلة مع لشبونة. وفي العام 1581، كان العبور خلال هذا الطريق قد أصبح كثيفا جدا إلى حد أن شركة ألتانو Altano التجارية البندقية أسست خدمة بريدية منتظمة على طول الطريق. تكفلت الشركة لعملائها بتوصيل الرسائل من البندقية إلى هرمز خلال ثلاثة أشهر أو أقل، وتوقعت أن يسافر وكلاؤها من حلب إلى هرمز في أربعين يوما فقط، بتكلفة مائتين وستين دوقة للرحلة وخصم دوقة واحدة عن كل يوم تأخير(*)[131].

إجمالا، تشير هذه الاستراتيجية المزدوجة القائمة على دعم حرية التجارة في الخليج العربي جنبا إلى جنب مع النظام التجاري الخاضع لسيطرة أشد إحكاما في البحر الأحمر، إلى ترشيد شامل لسياسة الدولة العثمانية المتعلقة بتجارة العبور في التوابل وسلع الترف. كانت هذه السياسة التي هندسها محمد صوكولو بنفسه مقاربة تقوم على فهم متبصر لكل من ظروف السوق والموقف الاستراتيجي للعثمانيين، والاثنان كانا مختلفين بشدة في هاتين المنطقتين التجاريتين. ففي البحر الأحمر تمتعت الإمبراطورية بميزتين كبيرتين كانتا يانعتين لجني الثمار، هما سيطرتها على كامل الطريق من اليمن إلى الإسكندرية؛ ما أعطاها استقلالية كبيرة لوضع السياسات التجارية، و«سيطرتها الحصرية» على مرور الحجيج إلى مكة ومنها؛ ما جعل البحر الأحمر أقل حساسية للضرائب من الطرق الأخرى المنافسة. لذلك كانت تجارة العبور خلال البحر الأحمر مقصورة على المسلمين، وكان التجار يخضعون لرقابة صارمة، وظلت المعدلات الضريبية عالية جدا. لكن في الخليج العربي الذي كان هذا النظام مستحيلا فيه بسبب الوجود البرتغالي في هرمز، كان الحل الذي تبناه صوكولو مختلفا، وهنا قدم العديد من الحوافز لكل من التجار والسلطات البرتغالية في هرمز لضمان أن تظل الممرات البحرية مفتوحة لكل القادمين بما يزيد العائدات بزيادة حجم التجارة بدلا من زيادة معدل الضريبة[132].

عندما كان صوكولو يعمل على استيعاب الظروف التجارية المختلفة تماما في البحر الأحمر والخليج العربي، حرص على أن يظل كل من هذين الطريقين منفصلا

(*) الدوقة ducat (أو الدوقية أو الدوكاتية): عملة ذهبية وفضية بندقية شاع استخدامها كعملة تجارية في أوروبا وحوض البحر المتوسط بداية من العصور الوسطى المتأخرة، وحظيت بمكانة وتقدير كبيرين في مصر والشام التي عرفت فيهما باسم الدينار الإفرنجي. [المترجم].

نسبيا عن الآخر. فحُظِر على الحجيج الذين يدخلون البلاد العثمانية من الخليج العربي أن يأخذوا الطريق المباشر عبر صحراء شبه الجزيرة العربية، إذ ألزمهم بدلا من ذلك بالسفر أولا إلى دمشق، ومن هناك ينضمون إلى القافلة السنوية التي تديرها الدولة إلى المدينتين المشرفتين[133]. تمكن صوكولو بهذه الطريقة من الحفاظ على البحر الأحمر منطقة خاصة للتجارة التي تشرف عليها الدولة، وذلك من خلال حصر الوصول على نقاط دخول وخروج محددة (خاضعة لضرائب عالية). وفر ذلك بدوره بيئة مثالية لعمل قوادس التوابل الحكومية التي ضَمِنت للدولة العثمانية دورا نشطا في تجارة العبور في التوابل والمنافسة المباشرة لأسطول الهند الذي كان احتكارا كاملا للتاج البرتغالي(*).

كان لدقة هذا النظام نتائج مهمة على فهمنا لأسطول الهند الذي نال نشاطُه خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر اهتماما كبيرا من الدارسين أخيرا. أوضحت هذه الدراسات أنه على الرغم من الزيادات الضخمة في حجم التوابل العابرة من البحر الأحمر والخليج العربي خلال العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر، ظل الطريق التجاري المنافس الخاضع لسيطرة البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح أكثر تنافسية مما كان يُعتقد سابقا[134]. على أننا يجب ألا نأخذ هذه النتيجة دليلا على أن الرحلة البحرية حول أفريقيا كانت أرخص أو أكثر أمانا للوصول من المحيط الهندي إلى أوروبا؛ لأن المصادر البرتغالية المعاصرة تكاد تُجمع على أن الطرق الأقصر خلال البلاد العثمانية كانت أفضل دائما في هذا الجانب. وعوضا عن ذلك، فإن الطريق البرتغالي الأكثر كلفة إذا ظل مربحا بدرجة هامشية، فإن ذلك لا يمكن أن يُفسَّر إلا بأن المعدلات الضريبية عبر الطرق البرية الخاضعة لسيطرة العثمانيين كانت عالية إلى حد جعل الرحلة الأطول حول أفريقيا تظل مربحة واقتصادية[135].

لكن هذه الضرائب لم تكن تُفرض إلا على التوابل التي كان التجار ينقلونها عبر البحر الأحمر والخليج العربي، في حين كانت الحمولات المملوكة للدولة في قوادس التوابل العثمانية تنقل من المخا إلى الإسكندرية معفاة من أي نوع من

(*) أسطول الهند Carreira da India: أسطول من السفن تابع لملك البرتغال، كان يرسل سنويا من البرتغال إلى الهند، غوا بالدرجة الأولى، لجلب التوابل للبرتغال التي كانت توزع منها على أوروبا الغربية. [المترجم].

الضرائب. جعل ذلك الدولة العثمانية في موقف لا نظير له بوصفها تاجرا؛ إذ من بين كل المتنافسين المختلفين على تجارة العبور في التوابل، ومن ضمنهم التاج البرتغالي، تمتعت الدولة العثمانية وحدها بكل من القدرة على استخدام الطريق الأقصر والأرخص خلال البحر الأحمر وتجنب دفع الضرائب عند أي نقطة على طول الطريق. وتكشف الأدلة المتاحة أن الإمبراطورية لم تبدأ في استغلال هذه الميزة التنافسية لأول مرة إلا في فترة صدارة محمد صوكولو. ومع أن قوافل التوابل الحكومية التي كانت تعبر بانتظام بين المخا والسويس كانت التجلي الأوضح لهذا النشاط، فإن تأثيره امتد فيما وراء حدود البحر الأحمر إلى المناطق الأبعد بالمحيط الهندي.

تجارة التوابل محركا للسياسة الخارجية العثمانية

ارتبطت كل المبادرات السياسية الرئيسة لمحمد صوكولو في مسرح الأحداث الشرقي بدرجات متفاوتة بتجارة التوابل. يتجلى هذا الارتباط في أوضح صوره في علاقة الدولة العثمانية بآتشيه التي انطبعت دائما بالكسب المادي، كما تكشَّف مع أول مبعوث آتشيهي يصل إلى إسطنبول في العام 1562، إذ على الرغم من استخدامه خطاب الوحدة الإسلامية الفخم في عرضه على السلطان، كانت لديه نية واضحة لدفع ثمن المساعدة العسكرية التي طلبها[136]. وعندما أُرسل لطفي لآتشيه مع هذه السفارة، لم تكن مهمته ديبلوماسية فقط، بل اقتصادية أيضا؛ إذ جاء في تقريره أنه قبل أن يغادر آتشيه حصل على «ستة عشر قنطارا من الفلفل والحرير والقرفة والقرنفل والكافور وحصى البان ومنتجات أخرى من البلاد الواقعة تحت الرياح وحمَّلها على سفينة كبيرة وشهيرة اسمها صمدي «Samadi(*)[137]».

وعندما مَثُل لطفي أمام السلطان بعد عودته إلى إسطنبول، أكد أن آتشيه فيها «وفرة تفوق الوصف في الجواهر والذهب والفضة، لكنها تذهب منذ وقت طويل

(*) لا يُعرَف دلالة الكلمة اللاتينية hisalbend التي ترجمت إلى «حصى البان». وبالرجوع إلى المؤلف، ذكر أنه لم يجد لها أثرا إلا في بضعة معاجم فارسية تعرِّفها بأنها rosemary أي حصى البان (إكليل الجبل)، وهي عشبة عطرية لها استخدامات طبية. من الواضح إذن أن الكلمة اللاتينية عبارة عن نقل صوتي للكلمة العثمانية، بمعنى أن الكلمة العثمانية كتبت بالحروف اللاتينية كما تنطق في اللغة العثمانية، ومن قبلها في اللغة العربية. [المترجم].

إلى الكفار التعساء. وبمشيئته تعالى، سيأتي يوم يؤول فيه نصيب عادل [من هذه الثروات] إلى المجاهدين في جيش صاحب الجلالة الإمبراطورية»(138). ولذلك فإن محمد صوكولو عندما شرع في تجهيز حملته إلى سومطرة في العام 1567، شملت أوامره لريس الحملة كوردوغلو تعليمات بأن «تحمِّل سفينتي الشحن اللتين معك بالتوابل المتوافرة في تلك المناطق وترسلهما إلينا»(139). ومع أن القوادس الخمسة عشر التي خُصِّصَت لحملة آتشيه لم تصل إلى وجهتها قط، فإن غليوني الشحن أبحرا إلى آتشيه وبادلا حمولة المدفعية والذخيرة وخبراء المدفعية والخمسمائة مرتزق تركي بحمولة من الفلفل والتوابل الأخرى(140).

وفي النهاية، كان هذا النوع من التعامل التجاري، وليس أي شكل متعالٍ من التعاون السياسي أو العسكري، هو ما طبع العلاقات بين آتشيه والإمبراطورية العثمانية على المدى الطويل. ففي حين لم تتواصل المراسلات الديبلوماسية الرسمية المنتظمة بين البلدين إلا نحو عشر سنوات وتلاشت أخيرا بعد العام 1575، أثبتت العلاقات التجارية في المقابل أنها أطول بقاء، حتى إن وكيلا إمبراطوريا يعمل في بيع السلع وشرائها لمصلحة الخزانة العثمانية ظل عنصرا دائما في آتشيه حتى نهاية القرن على أقل تقدير، كما جاء في تقارير هولندية من العقد الأخير من القرن السادس عشر وكما ذكر فرنسيون زاروا آتشيه في العام 1602(141). تجد هذه الملاحظات تأكيدا آخر لها في تفاصيل ميزانية ولاية اليمن العثمانية للعام 1599 التي تتضمن تحت بند «البيع والشراء» الرقم ثلاثة وعشرين ألفا وثمانمائة وثمانين بارة «مصروفات متفرقة» لريس البحر [الناخدا] الذي يسافر للهند ويعود إلى ميناء المخا ويبذل قصارى جهده في سبيل ازدهار الإمبراطور(*)(142). وهذا الريس هو بالتأكيد «الناخدا القادم من مكة» Nachoda from Mecca الذي ذكر زائر هولندي لآتشيه في أوائل القرن السابع عشر أنه «يعرض على سلطان آتشيه المساعدة العسكرية من بلاده كجزء من التمهيد للتجارة»(**)(143).

ثمة نص ألفه أسقف ملقا خلال منتصف العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر يعطينا معلومات أخرى حول تفاصيل هذه التجارة. يذكر هذا النص أن آتشيه

(*) كانت البارة para جزءا من الليرة العثمانية بداية من العام 1844، لكن يبدو أن استخدام هذا الاسم للعملة العثمانية أقدم من ذلك التاريخ. [المترجم].

(**) تشير كلمة «مكة» إلى البحر الأحمر لكونها أشهر مكان عليه. [المترجم].

كان يزورها سنويا أربع سفن أو خمس من مكة كانت تجلب حمولات من العملات الذهبية والفضية والعبيد ومزيج من المنتجات العثمانية مثل ماء الورد وأشغال الزجاج والأقمشة الحريرية المطرزة والأقمشة الصوفية، والأهم من ذلك كميات كبيرة من العتاد العسكري الثمين:

> يمتلك الحاكم المذكور [سلطان آتشيه] أكثر من مائة مدفع برونزي ضخم، وعددا أكبر من المدافع الحديدية، وأكثر من مائتي مدفع متوسط الحجم، وأكثر من أربعمائة مدفع صغير، وعددا كبيرا من المسكتات، تأتي كلها سنويا في السفن الآتية من مكة، كما ذكرتُ في موضع سابق، ويمتلك أيضا إمدادات وفيرة من البارود عالي الجودة وقذائف مدفعية من كل الأنواع[144].

تبرز هذه الفقرة جانبا مهما من التجارة بين آتشيه والسوق العثماني كثيرا ما يُغْفَل، وهو أن جزءا من ثمن حمولات التوابل وغيرها من منتجات جنوب شرق آسيا التي كان التجار العثمانيون يحملونها كان يدفع في شكل مدافع وذخيرة، ما يعني أن العثمانيين كانوا يصدرون التقنية، وهو وسيط تبادل أهم من السلع التجارية أو حتى العملة الصعبة، مع العلم أن المدفعية كانت منتَج القرن السادس عشر المتقدم تقنيا وكثيف العمالة بامتياز، وانطوت على قيمة مضافة أضعاف المواد الأولية التي دخلت فيها، وكان عليها طلب لا حدود له فيما وراء البحار. تمكن العثمانيون من خلال تصدير المدفعية من كبح تدفق المعادن النفيسة من سوقهم الداخلي إلى المحيط الهندي، فضلا عن تحقيق النتائج السياسية المبتغاة. وعلى ذلك فإن التجارة مع آتشيه لم تكن عملا ربحيا فقط، بل أيضا وسيلة لتقديم الدعم العسكري لواحد من أقرب الشركاء التجاريين للعثمانيين.

لكن هل كانت شراكة العثمانيين مع آتشيه استثناء، أم كانت مؤشرا إلى نمط أكبر من الروابط التجارية التي أقيمت عبر المحيط الهندي؟ ينطوي هذا السؤال على صعوبة كبيرة؛ لأننا في حالة آتشيه لا نمتلك توثيقا للعلاقات التجارية غير الإشارات العرضية الواردة في تقرير لطفي وبضع مراسلات ديبلوماسية أخرى. ولم تُكتَشف بعد وثائق تتعامل تحديدا مع آليات التجارة أو الإنفاق على الوكالات

الإمبراطورية فيما وراء البحار أو تفاصيل حول طرق تمويل الصفقات، ومن غير المرجح أن تُكتَشف على الإطلاق.

لكن ثمة إشارات توحي بأن النشاط التجاري العثماني المدعوم من الدولة في المحيط الهندي كان أوسع مما تذكره الدراسات. فلا جدال مثلا في أن والي البصرة احتفظ على نحو متقطع بوكالة إمبراطورية في هرمز منذ العقد الخامس من القرن السادس عشر على أقل تقدير وأن هذه الممارسة استمرت - أو استؤنفت - إبان عهد محمد صوكولو[145]. وفي مفاوضات السلام مع البرتغاليين في أوائل العقد السابع من القرن السادس عشر، طلب العثمانيون صراحة الحق في إقامة وكالات تجارية «في السند وكمباي ودابول وكاليكوت وأي موانئ أخرى يريدونها»[146]. وعلى رغم أن البرتغاليين رفضوا هذه الطلبات، فمن الوارد أن يكون صوكولو قد أسس وكالات تجارية في هذه الموانئ بطريقة أو بأخرى من دون الموافقة البرتغالية، تماما كما فعل في آتشيه؟ على رغم أننا لا نعلم ذلك علم اليقين، فإن الإجابة المرجحة لهذا السؤال هي نعم.

الدعاية الدينية العثمانية والخلافة العالمية

حتى في الأماكن التي لم توجد فيها غير شبكة علاقات غير رسمية ربطت تجارا مستقلين بالإمبراطورية العثمانية، اتخذ محمد صوكولو خطوات لضمان ولاء هؤلاء التجار للسلطان العثماني. أنجز الباشا ذلك من خلال إيجاد بنية تحتية أيديولوجية ودينية جديدة تقوم على مفهوم الخلافة، وقد ساعدته في تلك المهمة جهود معاصره أبي السعود Ebu's-Suud الذي شغل أعلى منصب ديني في الإمبراطورية العثمانية منذ أواخر العقد الرابع من القرن السادس عشر(*). ومع أن لقب «الخليفة» قديم قِدم الإسلام نفسه واستدعاه سلاطين عثمانيون قبل زمن صوكولو، فإن أبا السعود كان أول فقيه عثماني يستخدمه بانتظام وسيلة لدعم شرعية الإمبراطورية في صراعاتها المتواصلة مع الهابسبورغيين والصفويين، وذلك من خلال وضع مذهب تفصيلي لسلطة الخليفة وبناء أساس فقهي لسلطة السلطان[147].

(*) هو محمد أبو السعود أفندي بن محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى عماد الدين العمادي الإسكليبي الحنفي (30 ديسمبر 1490 إلى نحو 23 أغسطس 1574) فقيه عثماني تولى منصب قاضي البصرة وروملي وقاضي عسكر ومفتي إسطنبول، ونال بالمنصب الأخير لقب شيخ الإسلام. [المترجم].

انتشر تأثير مذهب الخلافة مع الوقت أبعد من حدود الإمبراطورية. وقد تزامن ذلك في المحيط الهندي مع أول تطبيق واسع للشريعة في دول جنوب شرق آسيا الإسلامية ومع زيادة ملحوظة في انتشار الإسلام والتبني السريع للجهاد بوصفه مفهوما سياسيا في جميع أنحاء المنطقة(148). كانت هذه الاتجاهات في جزء منها استجابة طبيعية من جانب الأهالي لوجود البرتغاليين الواسع والعدواني، وكانت أيضا نتيجة طبيعية لتزايد السفر على طرق الحج إلى مكة(149). لكن لا شك أن النبرة السياسية المتصاعدة للخطاب الديني في المحيط الهندي تعهدتها أيضا نشاطات دعوية لجماعة بارزة من رجال الدين المسلمين المتجولين الذين كان كثيرون منهم إما عثمانيين أو تعلموا في مؤسسات دينية عثمانية(*). من ذلك أن المراقبين البرتغاليين والإسبان المعاصرين تذمروا مرارا وتكرارا من تأثير هؤلاء «الأنبياء الكذبة» الذين حمّلوهم دائما مسؤولية النمو المطرد للقوة الدولية للإسلام(**). كان من بين هؤلاء الدعاة في آتشيه وحدها فقيه مكي يدعى أبو الخير Abu'l Khayr وآخر يمني اسمه الشيخ محمد Shaykh Muhammed وثالث فقيه شافعي من مصر يدعى محمد الأزهري Muhammad Azhari(150).

هل كانت نشاطات هؤلاء الدعاة تنظمها سلطة مركزية في مكان ما من الإمبراطورية العثمانية أم كانوا يعملون بمبادرات شخصية؟ هنا أيضا تتسم المصادر بغموض محبط، باستثناء الإشارة الواضحة التالية في دفاتر المهمة للعام 1576:

فرمان لوالي مصر:

> كنا في السابق نرسل مائة قطعة ذهبية [في السنة] إلى المساجد السبعة والعشرين الواقعة في ميناء كاليكوت الهندي من أجل خطبة الجمعة. وقد بلغنا أنه لم يرسل إليهم خلال السنوات القليلة الماضية غير خمسين قطعة ذهبية، وأحيانا أقل من هذا العدد... انتبه لهذا الأمر جيدا، وتنفيذا لمقتضيات أمرنا، احرص على إرسال مائة فلورين

(*) «عثمانيون» بمعنى من رعايا الدولة العثمانية على اتساعها، ومن ضمنها الولايات العربية، وليسوا أتراكا فقط. [المترجم].

(**) تُحذّر المسيحية كثيرا من «مدعي النبوة» الذين تطلق عليهم وصف «الأنبياء الكذبة» كما في «العظة على الجبل» - ربما أحد جبال الجليل بالقرب من كفر ناحوم التي جاء فيها وفق إنجيل متى: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة!» (متى: 7:15). [المترجم].

> سنويا بلا تأخير وعلى الدوام من ميناء جدة للمساجد المذكورة(*). وفيما يتعلق بالمتأخرات عن السنوات السابقة، فإنها يجب أن تدفع كاملة من عائدات جدة[151].

تقدم هذه الوثيقة لمحة ثمينة، وإن كانت خاطفة، حول البنية التحتية البيروقراطية التي قامت عليها دعاوى السلالة العثمانية في المحيط الهندي، فتبيّن بوضوح أن الخطباء في كاليكوت لم يكونوا يدعون في خطبة الجمعة باسم السلطان العثماني بلا مقابل، إذ كانوا يحصلون في مقابل ذلك على ذهب كان يرسل إليهم بانتظام من الخزانة العثمانية. لكن لسوء الحظ يصعُب القطع بمدى انتشار هذه الممارسة، إذ لا توجد إشارات أخرى في دفاتر المهمة تلمح إلى عمليات مماثلة، حتى إن وجود هذه الوثيقة ذاته يرجع إلى الانتقاص غير القانوني من الأموال المخصصة لكاليكوت أو حجبها. ولا تخلو إشارة النص إلى «المساجد السبعة والعشرين» من دلالة؛ لأن هذا العدد قريب من العدد الوارد في تقرير لطفي (قبل أكثر من عقد من الزمن) الذي وُصِفَت كاليكوت فيه بأنها مدينة شيّد المسلمون فيها «أربعة وعشرين مسجدا يدعى فيها في خطبة الجمعة باسم صاحب الجلالة الإمبراطورية المجيد والمبارك». يمكننا أن نستنتج من ذلك أن صوكولو بدأ تمويل خطباء كاليكوت في منتصف العقد السابع من القرن السادس عشر بناء على توصية محددة من لطفي. وحيث إن لطفي يذكر في التقرير ذاته الرقم الدقيق «أربعة عشر مسجدا» في سيلان، إلى جانب المساجد الموجودة في كل جزر المالديف، فمن المرجح أن هذا العمل كان جزءا صغيرا من نظام واسع للدعم المالي الإمبراطوري للمساجد «العثمانية» فيما وراء البحار.

خاتمة

الإمبراطورية العالمية «الناعمة» التي تعهدها محمد باشا صوكولو

تغص كتابات المؤلفين البرتغاليين من العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر بتحذيرات مريعة ومنذرة بالشؤم من تنامي قوة الإمبراطورية العثمانية في جميع أنحاء آسيا البحرية. رأى المؤرخون لاحقا أن هذه التحذيرات انطوت على مبالغات

(*) الفلورين florin عملة ذهبية إيطالية قديمة، انتشرت لاحقا اسما وقطعا إلى دول أخرى. [المترجم].

شديدة بالنظر إلى النطاق الفعلي للنجاحات العسكرية العثمانية في المنطقة، ما حدا بعضهم على افتراض أن البرتغاليين ربما تلبستهم حالة جماعية من جنون الاضطهاد بشأن التهديد العثماني الذي لم يكن له وجود على أرض الواقع[152]. لكن بدلا من الاستبعاد التام لأحكام المراقبين البرتغاليين المعاصرين، يبدو من المعقول أن نتساءل عما إذا كان الدارسون الحديثون هم الذين فشلوا في فهم الطبيعة الحقيقية لهذا التهديد العثماني. فحتى لو كان الفشل هو مآل مغامرات محمد صوكولو الكبرى، إما لأن الموارد التقنية والمادية للإمبراطورية لم تكن في مستوى طموحاته وإما لأن خططه قوّضتها خصومات سياسية وكوارث غير متوقعة، فإن هذه المغامرات كانت جزءا صغيرا - مجرد الزبدة التي تعلو الكعكة - من محاولة أكبر لخلق ما يمكن أن نسميه «الإمبراطورية الناعمة» في المحيط الهندي (الخريطة 2 - 5).



الخريطة (2 - 5): إمبراطورية محمد باشا صوكولو الناعمة 1565 - 1579

لا شك في أن مصطلح «الإمبراطورية الناعمة» له اليوم دلالات دقيقة ترجع جذورها إلى اهتمامات السياسة العالمية المعاصرة[153]. لكن إذا كان مفهوم القوة الناعمة قد أثبت جدواه لدارسي الإمبراطوريات الأحدث كطريقة لتوسيع تحليل القوة الإمبريالية إلى أبعد من البؤرة التقليدية للقوة القسرية وضم المستعمرات،

فإن المفهوم بذلك يفيد في تناول الإمبراطورية العثمانية إبان القرن السادس عشر. مؤدى ذلك أن السيادة الإمبريالية العثمانية في المحيط الهندي إبان عهد محمد صوكولو كانت إمبراطورية ناعمة لأنها لم تقم على التوسع الإقليمي، بل على بنية تحتية من التجارة والاتصال والأيديولوجيا الدينية.

وإذا لم يدرك المؤرخون الحديثون حتى الآن أهمية هذه القوة الناعمة، أو حتى وجودها، فإن اللوم يقع جزئيا - على الأقل - على تقليد علمي متمترس يعرّف الإمبراطورية العثمانية بأنها دولة انشغلت بالتوسع البري والعائدات الزراعية على حساب كل ما عداهما. لكن هذه الرؤية لا يشاركهم فيها البرتغاليون المعاصرون للأحداث، والذين أدركوا بوضوح فهم صوكولو المتبصر لقوى السوق ومهاراته الهائلة بوصفه ديبلوماسيا ومقدرته الفائقة على استخدام الأيديولوجيا الدينية أداةً لقوة الدولة. من ذلك مثلا أن مراقبا برتغاليا من منتصف العقد السابع من القرن السادس عشر قدم الخلاصة التامة التالية لبساطة إمبراطورية صوكولو الناعمة واقتصادها ووجودها على أرض الواقع:

> لا ينوي العثمانيون أن يسيطروا على تجارة التوابل فقط، بل أن يصبحوا سادة كل ممالك الهند على المدى البعيد... ويحرضونهم على الثورة ضد معاقلنا... وفي أثناء ذلك ستؤول إليهم كل التجارة في التوابل عبر المضيقين [البحر الأحمر والخليج العربي] اللذين نحاصرهما. سيكون عظيم الترك بذلك سيد الجميع من دون أن يتكلف نفقة أسطول أو يكون في حاجة إلى الإنفاق على قلاع أو يكون عرضة لخطر [الثورة] من الأهالي... ومن خلال سيطرة العثمانيين على التجارة، سينحاز إليهم كل جيرانهم، وبذلك سيكون حلفاء العثمانيين وحدهم قادرين على طردنا وجعل العثمانيين سادة الهند، من دون أن يهدر الأخيرون مواردهم[154].

كانت استراتيجية محمد صوكولو الإمبريالية ناجحة بلا شك، إذا جرى تقييمها بهذه المعايير، ولذلك شكّلت مدة خدمته في الصدارة العظمى أوج النفوذ العثماني في المحيط الهندي؛ إذ ازدهرت التجارة، ومارست الدولة دورا أساسيا فيها، وكانت خطوط الاتصال مع جنوب شرق آسيا في أقوى حالاتها، ونشط معها مبعوثون ووكلاء تجاريون وعملاء سريون عثمانيون في أنحاء آسيا البحرية كافة. والأهم من ذلك أن

الاعتراف بسلطة السلالة العثمانية بوصفهم خلفاء للأمة الإسلامية العالمية نال رواجا لم يبلغه قبل صوكولو أو بعده، ونالت هذه السلطة تعبيرا رسميا عنها في خطبة الجمعة في دور العبادة الإسلامية من القرن الأفريقي إلى إندونيسيا.

وأخيرا ينبغي التأكيد أن مشروع صوكولو الإمبريالي كان عملا عالميا بكل معنى الكلمة، فعلى رغم أن انتباهه تركز عادة على المحيط الهندي، فإنه لم يقتصر عليه بحال من الأحوال. فخلال صدارته العظمى، امتدت العمليات العسكرية العثمانية من المغرب إلى سومطرة ومن مدغشقر إلى أستراخان. وامتدت العلاقات الديبلوماسية من إنجلترا ودوقية موسكو إلى سيلان وسمرقند. ويتأكد المدى العالمي لنشاطات صوكولو حتى بالمعايير العالية لمنافستيه البرتغال وإسبانيا. فمع أن هاتين القوتين نشطتا في العالم الجديد، وهي منطقة كانت تقع دائما خارج أفق الطموحات العثمانية، فإن صوكولو أقام اتصالات مع أماكن مثل بلاد ما وراء النهر وأفريقيا الوسطى التي كانت بالقدر نفسه خارج طموحات أي قوة أوروبية معاصرة(*). لذلك كان محمد صوكولو وإمبراطوريته الناعمة أبطالا من الطراز الأول في تاريخ التوسع العالمي إبان القرن السادس عشر. لكن العالم حديث الترابط الذي ساعد صوكولو في إيجاده كان على وشك أن يفرض مجموعة كاملة من التحديات الجديدة والخطرة على الإمبراطورية.

(*) بلاد ما وراء النهر Transoxiana (أو Transoxania) هو الاسم القديم للجزء من آسيا الوسطى الممتد بين نهر جيحون (أوكسوس Oxus باللاتينية وآمودريا Amu Darya حاليا) إلى الشرق ونهر سيحون (سردريا Syr Darya حاليا) إلى الغرب، الذي يتطابق تقريبا مع الدول الحديثة أوزبكستان وطاجيكستان وجنوب قرغيزستان وجنوب غرب كازاخستان. [المترجم].

6

رجل وخطة وقناة
حملتا مير علي بك
على الساحل السواحلي
1579 - 1589

«في ظروف مختلفة بعض الشيء، كان يمكن لحملة مير علي على الساحل السواحلي أن تكتب كلمة النهاية لآسيا البرتغالية، وتكون فاتحة حقبة جديدة تماما من السيادة العثمانية في شرق أفريقيا»

شهد العام 1579 سلسلة كارثية شبه متزامنة من العواصف السياسية العالمية زعزعت أسس الإمبراطورية الناعمة العثمانية في المحيط الهندي. جاءت الضربة الأولى فجأة في مرتفعات الحبشة التي جرت على أرضها معركة آدي قارو التي تلقت فيها القوات العثمانية هزيمة مفاجئة وساحقة أمام جيوش إمبراطور إثيوبيا؛ إذ قُتل الوالي العثماني، وسقط حصن دباروا الجبلي، وصارت السيطرة العثمانية على البحر الأحمر مهددة لأول مرة خلال أكثر من عقدين(*)[1]. وفي الوقت نفسه في آتشيه

(*) أقرب اسم مكان لاسم Addi Qarro [آدي قارو] حاليا هو Adi Quala [آدي كوالا]، وهي بلدة بجنوب إريتريا. [المترجم].

البعيدة مات السلطان المسن علاء الدين رعاية شاه، ما أطلق فترة ممتدة من الاضطراب السياسي والاجتماعي في سومطرة، حرمت العثمانيين من أوفى حليف لهم في جنوب شرق آسيا[2]. وربما كان الحادث الأشد تدميرا هو موت المهندس الأكبر للتوسع العثماني فيما وراء البحار محمد باشا صوكولو في أكتوبر 1579 بطعنة قاتلة وهو يستقبل أصحاب الحاجات في قصره في إسطنبول[*][3].

تفاقم ثقل هذا الاجتماع الكارثي للأحداث بفعل التطورات في شمال أفريقيا التي شهدت في العام السابق نعي السلالة الحاكمة البرتغالية الذي أعلن نفسه عبر المغامرة الصليبية المتهورة التي نفذها الملك البرتغالي الدوم سبستيان. ففي الرابع من أغسطس 1578 ذُبِح الملك الشاب سبستيان وزهرة طبقة النبلاء البرتغالية في ساحة معركة القصر الكبير في المغرب، ما ترك البرتغال بلا وريث وفي حالة من الفوضى السياسية[**]. وفي المعركة أيضا قُتِل عبدالملك حاكم المغرب الموالي للعثمانيين وحل محله أخوه وغريمه أحمد المنصور المعادي لإسطنبول والحريص على تثبيت الاستقلال الدائم لمملكته[***][4]. والأسوأ من ذلك أنه بسبب قرابة ملك إسبانيا فيليب الثاني من السلالة الملكية البرتغالية من ناحية الأم، أخذ احتمال ضم إسبانيا

(*) في الحادي عشر من أكتوبر 1579، وفي أثناء استقبال محمد باشا صوكولو لأصحاب الحاجات في قصره، طلب درويش أن يدخل عليه، وفي أثناء المقابلة أخرج الدرويش سكينا وطعن الباشا ثلاث طعنات قاتلة أودت بحياته بعد ثلاث ساعات، ربما بسبب ما شاع بين الدراويش والمتعصبين الدينيين في إسطنبول من تكفير لكبار رجال الدولة من خريجي مؤسسة الدوشيرمة (Devshirme، ضريبة الدم أو إتاوة الدم التي جُمع بمقتضاها صبية مسيحيون من قرى البلقان والأناضول لتعليمهم وضمهم إلى صفوف الانكشارية والإدارة العثمانية) بسبب كونهم من أصول مسيحية حديثة، أو بسبب الرفض الشائع بين الدراويش للحرب على إيران، على رغم أن الرجل كان معارضا لهذه الحرب كما يؤكد الكتاب الحالي. [المترجم].

(**) في معركة القصر الكبير Alcazarquivir أو وادي المخازن، حشد الملك البرتغالي سبستيان دعم إيطاليا والباباوية وألمانيا فضلا على خاله ملك إسبانيا، وتحالف معه فيها السلطان المتوكل الذي خلعه عبدالملك من عرش المغرب بمساعدة العثمانيين، وفيها أفنى الجيشُ المغربي الجيشَ البرتغالي كاملا، وقُتل سبستيان وكل قادة جيشه ونبلائه، وغرق المتوكل في نهر وادي المخازن في أثناء فراره، ووجدت جثته فسلخت وحشيت تبنا وطِيف بها في أرجاء المغرب، وتوفي عبدالملك في نهاية المعركة، ولذلك سُميت أيضا معركة الملوك الثلاثة. بعد هذه المعركة انهارت البرتغال وضمتها إسبانيا. [المترجم].

(***) عبدالملك المعتصم بالله السعدي الملقب بأبي مروان والغازي، سلطان المغرب من العام 1576 حتى وفاته في أثناء معركة وادي المخازن في العام 1578، اغتيل أبوه محمد الشيخ السعدي في العام 1557، وتلا ذلك صراع على السلطة اضطره إلى الفرار من المغرب في ذلك العام مع أخيه أحمد من أخيهما السلطان عبدالله الغالب بالله، ثم عادا في العام 1576 على رأس جيش عثماني هزم ابن أخيهما وغريمهما أبا عبدالله محمد المتوكل الذي طلب العون من إسبانيا، ولما رفضت ذهب إلى طنجة البرتغالية ملتمسا معونة سبستيان في مقابل تنازله له عن جميع شواطئ المغرب في حال إعادته إلى العرش، واستجابت البرتغال للعرض وكانت نتيجة ذلك معركة وادي المخازن التي آل حكم المغرب بعدها إلى أحمد المنصور الذهبي. [المترجم].

الهابسبورغية للبرتغال يحوم مثل صقر في سماء لشبونة. وعندما اكتمل هذا النقل التاريخي للسلطة في العام 1580، صار خصم العثمانيين الأشد خطورة في البحر الأبيض المتوسط يسيطر أيضا على دولة الهند وأصبح مهيأ لتهديد الإمبراطورية من الشرق فضلا على الغرب[5].

في وسط كل هذه التطورات المنذرة بالشر، بدأ تهديد أشد شؤما يتجسد على الأرض في الهند المُغالية التي كان الإمبراطور الشاب أكبر Akbar يستعد فيها للمرة الأولى لتحدي السلالة العثمانية علنا. لاحت أمارات ذلك التهديد مبكرا في العام 1573، عندما أعطاه غزو سورت - المدينة التي ظلت حتى ذلك الحين ضمن دائرة النفوذ العثماني - سيطرة على أول منفذ رئيس له على المحيط الهندي. وفي العام 1576 بدأ أكبر باستخدام ذلك الميناء للتدخل في تنظيم الحج وتمويله، إذ عيّن مسؤولا دائما للحج، وخصص أموالا لتحمل نفقات السفر للحجاج الراغبين من الهند، ورتب لإبحار سفينة ملكية خاصة من سورت إلى جدة سنويا لهذا الغرض. وعن طريق هذه السفينة وزع أكبر كميات هائلة من العملات الذهبية والفضية على فقراء مكة والمدينة، وقدم هدايا فخمة من المنسوجات ومنتجات الترف الأخرى للوجهاء وكبار المشايخ في المدينتين المشرفتين. بلغت عطاياه في السنة الأولى وحدها مبلغا ضخما: ستمائة ألف روبية فضية واثني عشر ألف عباءة شرف. وفي السنة التالية زاد على هذا المبلغ مائة ألف روبية هدية شخصية لشريف مكة[6]. وإلى جانب هذا السخاء العلني أرسل أكبر حاشية من أبرز سيدات بيته، منهن عمته وزوجته، في حجة ممتدة للمدينتين المشرفتين، إذ وصلن مع أول قافلة سفن في العام 1576 وبقين عدة سنوات، وأدين الحج أربع مرات، وفي كل موسم كن يوزعن الصدقات في كل حدب وصوب باسم الإمبراطور أكبر[7].

لم يكن هذا الورع الديني يشكل في ذاته تهديدا للعثمانيين. وفي ظروف مختلفة كان يمكن تفسير هذا السخاء باعتباره علامة على الصداقة، أو على أقل تقدير على أنه جانب طبيعي ومحمود من الالتزامات الدينية لحاكم في مكانة أكبر. لكن أكبر، على خلاف أبيه همايون، لم يبدِ يوما ودا نحو إسطنبول. بل على العكس من ذلك كانت الرغبة في الحد من النفوذ العثماني أحد الدوافع الرئيسة لغزوه كجرات الذي حدث بالدرجة الأولى من خلال تواطؤ اعتماد خان،

زعيم العصبة المعادية للروميين في السلطنة. ففي العام 1568 رتب اعتماد خان لاغتيال الزعيم الرومي جنكيز خان بعد أن سيطر الأخير على العاصمة أحمد آباد وكان على وشك أن يعلن نفسه سلطانا جديدا لكجرات. وفي خضم الاضطرابات التي تلت الاغتيال لم يجد اعتماد خان بديلا من اللجوء للمُغال باعتباره الطريقة الوحيدة لكبح الروميين والاحتفاظ بسلطته[8].

في هذه الظروف رأى العثمانيون - عن حق - شيئا من الانتهازية السياسية في الاهتمام المفاجئ من الإمبراطور المُغالي الشاب بالحج بعد غزوه سورت في العام 1573، ثم تأكدت شكوكهم في شهر سبتمبر 1579 الذي أعلن فيه أكبر «مرسوم المعصومية» الشهير الذي كان البداية لتحديه العلني الأول لمزاعم السلالة العثمانية بالمكانة الأعلى في العالم الإسلامي كونهم خلفاء المسلمين وحماة الحرمين الشريفين(*). وخلال الأشهر التالية لهذا الإعلان بدأت حاشية أكبر بتشجيع منه في بلورة رؤية للإسلام تمركزت حول أكبر وتميزت بصبغة توفيقية ومسيحية واضحة عُرِفت باسم الدين الإلهي(**)[9]. استنادا إلى هذه الرؤية الجديدة التي أوجدها بنفسه، بدأ أكبر يلقب نفسه علنا «باديشاه الإسلام» و«الإمام العادل» وحتى «القيصر»، وهي ألقاب كانت ترتبط كلها بالسلالة العثمانية[10]. وفي رسالة إلى حاكم الأوزبك عبدالله خان Abdullah Khan، عبّر عن رغبته في أن يأتي يوم يدعى فيه باسمه، وليس باسم سلاطين إسطنبول، في خطبة الجمعة في مكة والمدينة، ذلك الرمز الأعلى لاعتبار العثمانيين حماة الحرمين الشريفين[11]. ثم بدأ هذا التفاخر الخطابي، جنبا إلى جنب

(*) باقتراح من الشيخ مبارك أعلن أكبر أنه «مجتهد»، ثم كتب الشيخ مبارك بخط يده وثيقة وقعها مخدوم المُلك والشيخ عبدالنبي والشيخ مبارك وآخرون، تجعل أكبر السلطة العليا في الأمور الدينية والدنيوية، إذ وصفته الوثيقة بأنه «الإمام العادل» أو المفسر الأول والأخير للشريعة الإسلامية، وبأنه «سلطان المسلمين وأمير المؤمنين وظل الله في الأرض أبوالفتح جلال الدين محمد أكبر باديشاه غازي»، وهي كلها ألقاب استخدمها سلاطين آل عثمان منذ محمد الفاتح وفتح القسطنطينية في العام 1453. أما اسم «مرسوم المعصومية» Infallibility decree فقد أطلقه على الوثيقة متخصص الهنديات ومؤرخ الفن فينسنت آرثر سميث Vincent Arthur Smith. [المترجم].

(**) الدين الإلهي Dīn - i Ilāhī (أو التوحيد الإلهي Tawhid - i Ilahi) ديانة توفيقية روج لها الإمبراطور المُغالي أكبر في العام 1582، بهدف دمج أفضل العناصر من أديان إمبراطوريته - لاسيما الإسلام والهندوسية وبدرجة أقل المسيحية واليانية والسيخية والزرادشتية - ومن ثم تذويب الخلافات التي تفصل بين رعاياه. بعد مناظرات عقدت بحضور أكبر في «دار العبادة» Ibadat Khana في مدينة فتح بور سيكري FatehPur Sikri، خرج الإمبراطور بأن دينا واحدا لا يحتكر الحقيقة، ومن هنا جاءت فكرة «الدين الإلهي». وقبل ذلك في العام 1568 أسقط أكبر الجزية عن غير المسلمين. بيد أن هناك إجماعا على أن أكبر لم يرد بفكرته أن ينشر دينا جديدا، بل أراد بها أن تكون سياسة للسلام العالمي sulh - i - Kul [صلح الكل]. [المترجم].

مع سخاء أكبر الفياض ومحاولاته اغتصاب السيطرة الإدارية على طريق الحج، يتخذ شكل استراتيجية شاملة لانتزاع مكانة الإمبراطورية العثمانية باعتبارها الدولة القيادية للعالم الإسلامي.

كيف كان يمكن لإسطنبول أن ترد على هذه النيران الأيديولوجية غير المسبوقة التي أطلقت عليها في وسط كثير من الأحداث الأخرى العاصفة والمدوّخة؟ تمثل رد الفعل العثماني الأول - كإجراء مؤقت - في منع توزيع الهبات باسم أكبر في مكة (استمرت سرا لعدة سنوات أخرى) وتوجيه أمر لسيدات بلاطه بالعودة إلى الهند مع موسم الإبحار التالي[12]. لكن خلف الكواليس اتضح لكل المهتمين أن إعادة توجيه أساسية للسياسة الإمبريالية كانت في الطريق، إذ أدرك صناع القرار العثمانيون، لاسيما أصحاب المصالح في المحيط الهندي، أن نظام صوكولو اللين القائم على فكرة الإمبراطورية الناعمة لم يعد مجديا، بالنظر إلى التحديات الكثيرة لحكمهم التي انبثقت في نحو العام 1579. وبدلا من ذلك بدأ بديل متصلب وصارم يفرض نفسه: إما تحويل هذه الإمبراطورية الناعمة إلى نظام تقليدي من الحكم الإمبريالي المباشر في آسيا البحرية، وإما الوقوف موقف العاجز والمتفرج على النفوذ العثماني في المنطقة وهو يتآكل تدريجيا أو يختفي نهائيا.

من صوكولو إلى خوجه سنان
إعادة تشكيل عصبة المحيط الهندي

خلال الأشهر الأخيرة من حياته تصدر محمد صوكولو رجال الدولة العثمانية المؤيدين لسياسة استباقية للحفاظ على النفوذ العثماني عندما تجمعت غيوم العاصفة الدولية. لكن لسوء الحظ أعيقت جهوده لحشد الدعم اللازم لمبادرة جديدة بسبب حروب الإمبراطورية المتواصلة مع إيران، وهو النزاع الذي اندلع على غير رغبة الباشا في العام 1578. فنتيجة لأن أزمة سلالية فوضوية ألمت بإيران بعد موت الشاه طهماسب في العام 1576، قدم منافسو صوكولو غزو الأراضي الصفوية باعتباره فرصة لتوسيع الأراضي العثمانية سريعا وبسهولة وبمقاومة ضعيفة نسبيا. لكن الصدر الأعظم رأى بعيني عقله أن الحملة ستتدهور إلى حرب استنزاف دامية يمكن أن تستنفد كل احتياطيات الإمبراطورية من الرجال والمال والموارد المادية في المستقبل المنظور[13].

كان صوكولو متشائما تماما من إمكانية الحسم السريع للنزاع مع إيران، ولذلك بدأ في نهاية العام 1578 مفاوضات مع فيليب الثاني، ملك إسبانيا، بهدف تأمين هدنة شاملة دائمة في البحر الأبيض المتوسط. كان الغرض الظاهر من هذه الهدنة هو تمكين العثمانيين من تركيز كل مواردهم المتاحة للجبهة الصفوية، لكن سرعان ما اتضح خلال اجتماعاته اللاحقة مع جيوفاني مارغلياني Giovanni Margliani، المفاوض عن الملك فيليب، أن شؤون المحيط الهندي ظلت مكونا مركزيا من التفكير الاستراتيجي للصدر الأعظم. ذكر مارغلياني الذي اجتمع بمحمد صوكولو شخصيا عدة مرات في العام 1579 أن رفض صوكولو القاطع تضمين البرتغال وممتلكاتها فيما وراء البحار في بنود أي معاهدة كان إحدى نقاط الخلاف الثابتة على امتداد المفاوضات، حتى بعد أن اتضح أن إلحاق البرتغال بإسبانيا كان أمرا محتوما. وعندما ضغط على صوكولو لتفسير موقفه، أصر الباشا على أنه لا ينوي في أي حال من الأحوال أن يرسل أسطولا خلال مضيق جبل طارق أو أن يهدد البرتغال على أرضها، لكنه لم يقدم هذا الضمان في المحيط الهندي، وأعلن متوعدا: «الله وحده يعلم ما سيحدث هناك»[14]. ومما لا يقل عن ذلك توعدا للبرتغال أن هذا التهديد الصريح تزامن مع ورود تقارير من الهند البرتغالية بأن صوكولو شرع في الاتصال مع جماعات من الأهالي في شرق أفريقيا، على ما يبدو بهدف تأمين إمدادات الخشب لبناء أسطول جديد في اليمن[15]. فعلى الرغم من اشتعال الحرب في إيران، فإن من الواضح أن الصدر الأعظم الذي لا ينال منه التعب ظل حتى آخر لحظة من حياته المهنية يضمر خططا لمبادرة جديدة كبرى في المحيط الهندي.

أجهضت هذه الجهود باغتيال صوكولو. ونتيجة لعدم وجود قادة يتحلون بشيء من مهابة الصدر الأعظم الراحل ومكانته، تُركت الإمبراطورية في أيدي حفنة من المتنافسين لا تجمعهم إلا الريبة المتبادلة والانقسام الحاد، دخلوا في حلقة مفرغة من النميمة والاتهامات المتبادلة والفضائح. وفي السنة التالية لرحيل محمد صوكولو تولى ثلاثة متنافسين مختلفين منصب الصدر الأعظم فترات قصيرة، وخلال العقد التالي خَلَفهم عدد أكبر في تتابع سريع. رافقت هذا المناخ السياسي النكد مجموعة كبيرة من المشكلات الأخرى، كانت جميعها أعراضا لأزمة بنيوية أوسع وأعمق اكتنفت الإمبراطورية. وعلى مدار العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر، أثار

الفساد والتضخم المنفلت وعدم التقدم في الحرب على إيران ومجموعة واسعة من الضغوط الأخرى الداخلية والخارجية سخطا مزمنا واضطرابات متزايدة وفي بعض الحالات ثورة علنية[16].

لكن في أثناء مخاض هذه الأزمة العامة التي ألمت بالإمبراطورية جلها، ظلت هناك جماعة يسهل تمييزها من أنصار محمد صوكولو ورجاله استطاعوا الاحتفاظ بمواقع عظيمة التأثير، وسرعان ما شكلوا قاعدة لعصبة مجددّة للمحيط الهندي. شمل هذا الفريق المتنوع من الشخصيات: قليج علي باشا Kilich Ali Pasha أمير أمراء الأسطول الإمبراطوري منذ تعيين صوكولو له في العام 1571، وسنان الخازندار Hazinedar Sinan أمين الخزانة المصرية إبان عهد صوكولو ووالي مصر المستقبلي، وحسن باشا Hasan Pasha والي اليمن على امتداد العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر، وخضر بك Hizir Beg ريس السويس ووالي إريتريا المستقبلي، والقرصان مير علي بك Mir Ali Beg الجدير بخلافة الريس سفر في قيادة السرب البحري العثماني المتمركز في المخا. وعلى مدار العقد التالي أدى هؤلاء الأفراد، من خلال التنسيق الدقيق لنشاطاتهم، دورا حاسما في إعادة صياغة السياسة العثمانية في المحيط الهندي.

لكن في المدى القريب كان العضو الأقوى تأثيرا في هذه العصبة وحامل لواء المشروع الإمبريالي لمحمد صوكولو هو بلا شك خوجه سنان باشا Koja Sinan Pasha، الرفيق المقرب من الصدر الأعظم الراحل، والشخصية السامقة في سماء السياسة العثمانية. شغل خوجه سنان خلال العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر، جزئيا بفضل رعاية صوكولو وجزئيا بفضل تمكنه الإداري، مناصب بارزة متنوعة في منطقة المحيط الهندي، منها فترتان واليا لمصر (1567 - 1568 و1571 - 1573) وفترة واليا لليمن (1569 - 1570). كما أثبت نفسه قائدا عسكريا متمكنا عندما قاد استرداد اليمن من المطهر والمتمردين الزيديين في أواخر العقد السابع من القرن السادس عشر، وعندما قاد استرداد تونس من إسبانيا في العام 1574. تكونت لدى خوجه سنان خلال سنوات خدمته الطويلة مصالح تجارية واسعة، وجمع في أثناء عمله ثروة شخصية ضخمة. وعلى رغم أننا لا نعرف كثيرا عن تفاصيل هذه النشاطات التجارية، فإن الأدلة توحي بأن خوجه سنان كان يدخل

بانتظام في شراكات مع التجار، لاسيما التجار العاملين في المحيط الهندي، وربما كان له أسطول خاص من السفن في البحر الأحمر عندما كان واليا لمصر[17].

ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن خوجه سنان كان متمكنا من استخدام مزيجه المتفرد من الخبرة المهنية والثروة الخاصة وسيلةً للترقي في المناصب. وقد سار خوجه سنان على خطى محمد صوكولو، وذهب أبعد منه في بناء صورة لنفسه باعتباره الراعي القوي لتجار المحيط الهندي، فاستثمر مبالغ ضخمة (من ماله الخاص ومن خزينة الدولة) في بناء المخازن والخانات وغيرها من المرافق التجارية على طول الطريق التجاري من مصر إلى اليمن، وعلى طرق الحج من حلب ودمشق إلى المدينتين المشرفتين[18]. من ذلك مثلا أن واحدا من أبرز ما بقي من ولايته لمصر تمثل في خان فخم للتجار في السويس شمل متنزها معرشا بجانب البحر واستراحات مظللة على طول ممشى خشبي، وصفه الرحّال فيليبو بيغافيتا بأنه «زينة السويس حقا»[19]. كما شارك خوجه سنان الراحل صوكولو ولعه بالقنوات، وشارك في محاولة صوكولو الفاشلة لشق مجرى مائي من البحر الأبيض المتوسط إلى السويس في العام 1569[20]. وبعد أكثر من عقد كان من أوائل أعماله الرئيسة خلال فترته الأولى في الصدارة العظمى المصادقة على مشروع باهر آخر لشق قناة - وإن كانت بعيدة عن البحر الأحمر - كان الهدف منها فتح طريق بحري بديل من البحر الأسود إلى إسطنبول بحفر قناة إلى خليج إزميد Izmit عن طريق بحيرة صبنجة Sapanca[21].

كان خوجه سنان - أخيرا - راعيا سخيا للمفكرين العثمانيين، لاسيما الجغرافيين والمؤرخين وغيرهم من الدارسين ذوي الدراية بالأمور المتعلقة بالمحيط الهندي. وكما في حالة أعماله الخيرية الداعمة للأشغال العامة، من الواضح أن رعايته للعلم لم يقف وراءها فضول فكري نهم فقط، بل أيضا فهم حاد لإمكانية استخدام الأعمال العلمية لرفع ذكره ودفع مسيرته السياسية قدما[22]. من ذلك مثلا أنه في أعقاب حملته المظفرة على اليمن كلّف بتأليف النسخة الأولى من كتاب قطب الدين مكي «البرق اليماني في الفتح العثماني» Al - Bark al - Yemānī fīl - Fetḥil - 'Os̱mānī، وهو تاريخ للتوسع العثماني في شبه الجزيرة العربية أعطى مآثر سنان دورا بارزا في سرديته[23]. أما كتاب «تاريخ فتح اليمن» فهو عمل أكثر تملقا بكثير من نوع النثر

المقفى كلّف سنان الشاعر الرموزي بتأليفه تمجيدا لانتصاراته على كل من الزيديين والبرتغاليين خلال حملة العام 1568(*)[24].

باختصار، لم يكن خوجه سنان نسخة متطابقة من محمد صوكولو بقدر ما كان ابن عصره المأزوم والمشبع بالفساد. لكن من بين كل المتنافسين على السلطة في الإمبراطورية العثمانية بعد العام 1579 كان سنان الأقدر على إعادة إنتاج رؤية صوكولو الإمبريالية الكبرى وتولي قيادة عصبة المحيط الهندي. وبفضل ثروته وفطنته السياسية أظهر مقدرة على البقاء السياسي لم يضاهه فيها إلا قلة من منافسيه، فخدم خمس فترات منفصلة صدرا أعظم، وهو رقم قياسي لم يسبقه إليه أي رجل دولة عثماني. وكانت فترته الأولى في المنصب، تلك الفترة شديدة الاضطراب من العام 1580 إلى العام 1582، الأقوى والأبقى أثرا في عصر الاستكشاف العثماني[25].

خوجه سنان باشا يستعرض قوته

مع وجود كثير من التحديات المتزامنة في مواجهة الدولة العثمانية، كانت الأولوية الأكثر إلحاحا بالنسبة إلى خوجه سنان هي إعادة النظام لولاية إريتريا المحاصرة التي كانت الإدارة العثمانية المحلية فيها لاتزال تترنح من هزيمتها الساحقة في معركة آدي قارو. وللتعامل مع هذه الأزمة، عيّن سنان رفيقه القوي والشجاع من عصبة المحيط الهندي خضر بك واليا جديدا لإريتريا، بعد أن كان ريسا للسويس. أسرع خضر بك، بالتعاون مع ريس المخا المكلف حديثا بيرم بك Bayram Beg، بحشد قوة إغاثة في اليمن وقطع تلك الرحلة القصيرة إلى إريتريا في ربيع العام 1581[26].

(*) وفقا لرواية المؤرخ العثماني مصطفى علي، فإن لالا مصطفى باشا هو الذي عُيّن أولا لقيادة حملة استرداد اليمن، وكان على غريمه سنان باشا بوصفه واليا لمصر أن يزوده بالإمدادات، لكن سنان وشى للسلطان كذبا بأن لالا دس السم له - لسنان لا للسلطان - وكان يحاول أن يعيد مصر إلى حكم المماليك، لذلك عيّنه السلطان بدلا من لالا في قيادة الحملة، لكنه قبل أن يصل إلى اليمن كان عثمان أوزدمير أوغلو المحسوب على مصطفى لالا قد نجح فعلا في القضاء على الثورة في معظم أرجاء البلاد وإخضاعها، وخوفا من أن يقتله سنان، سافر عثمان إلى مكة ومنها إلى إسطنبول. وخشية أن ينقل عثمان للسلطان دوره في إخضاع اليمن، اتهمه سنان باشا لدى السلطان بأنه فر من الحرب، وأغرى مصطفى بك الرموزي Rumuzi Mustafa beg (أحد البكات الذين شاركوا في حملته) بمنصب دفتر دار اليمن في مقابل تأليف كتاب «تاريخ فتح اليمن» Tārīḫ - i Feth - i Yemen الذي نسب فيه دور عثمان إلى سنان وصوّره فاتح اليمن. [المترجم].

على مدار السنة التالية استرد خضر بك وبيرم بك مواقع رئيسة على البحر الأحمر من تلك التي سقطت أخيرا أمام الإثيوبيين، منها البلدتان الميناتيتان الاستراتيجيتان حرقيقو وبيلول. ومن هناك تقدم خضر في العام 1582 إلى الداخل بقوة كبيرة من سبعة آلاف جندي، وأخيرا استرد مدينة دباروا بعد عدد من الانتصارات الكبرى في المرتفعات. ومن أجل ضمان استقرار المنطقة مستقبلا أمر خوجه سنان بعدها بإرسال تجهيزات من مصر لبناء سلسلة من سبع قلاع جديدة على طول الساحل من سواكن إلى مصوع[27]. ومع اكتمال هذه المهمة في نهاية العام 1582 حل محل خضر واليا للولاية نائبه مصطفى باشا Mustafa Pasha الذي جاءت سنواته السبع في الولاية فترة من السلام وحتى التعاون بين السلطات الإقليمية والمسيحيين في الداخل[28].

رافق هذه الحملة البرية في القرن الأفريقي أول ظهور لأعمال القرصنة للريس البحري مير علي بك، ذلك الرجل المتهور الذي يتشابه صعوده المفاجئ من الغموض إلى الشهرة على نحو مذهل مع تجربة الريس سفر السابقة. فمثل سلفه، كان مير علي متمركزا في ميناء المخا اليمني، وأعطي في صيف العام 1581 إشارة لشن غارة جريئة على مسقط الخاضعة لسيطرة البرتغاليين. ومثل سفر أيضا، لم يكن تحت إمرة القرصان في هذه الحملة غير ثلاثة غليوتات خفيفة التسلح. لكن من خلال مزيج من الخلسة وتكتيكات صرف الانتباه الذكية والتعاون من جانب مسلمين محليين مؤيدين، استطاع مير علي أن يأخذ مسقط على حين غرة وأن يستولي على المدينة وينهبها لستة أيام كاملة قبل أن يعود إلى المخا في النهاية بثلاث سفن مأسورة وفدية ملك من العملات الصعبة والبضاعة المسروقة[29]. وصف أحد المؤرخين الأيبيريين الغارة بالقول: «في لمحة عين دخل البلدة فقيرا وخرج منها ثريا»[30]. وسرعان ما انتشرت أخبار هذا النجاح المذهل في أنحاء غرب المحيط الهندي كافة، ما كان بمنزلة أوراق اعتماد قرصنية لمير علي وتمهيد لحملاته المستقبلية على الساحل السواحلي.

•

هجمة خوجه سنان الديبلوماسية

اتباعا لنهج سلفه محمد صوكولو المستقر منذ سنوات جمع خوجه سنان إلى هذه العمليات العسكرية في شرق أفريقيا ومسقط مبادرة ديبلوماسية أوسع نطاقا، نفذها وفد سري من اليهود البرتغاليين المرتدين أرسلهم خوجه سنان في العام 1581

لزيارة البرتغاليين في غوا والبلاط المُغالي في أغرة(*). كانت مهمتهم المحددة في غوا هي أن يبحثوا عن مسؤولين برتغاليين بأعينهم أشيع أنهم مستاؤون من إلحاق بلادهم أخيرا بإسبانيا، وأن يقنعوهم بالتحالف مع خوجه سنان باعتبار ذلك وسيلة للحفاظ على استقلالهم. سجل السفير الفرنسي في إسطنبول في ذلك الوقت جيرمني Germigny أن هؤلاء المبعوثين حملوا دعوة مفتوحة للبرتغاليين في آسيا البحرية «للمجيء من جزر الهند الشرقية ومن مملكة هرمز ومن جزر وموانئ الشرق التابعة لمملكة البرتغال إلى الموانئ والمحطات التجارية التابعة لصاحب الجلالة [السلطان] في مصر وسورية والتجارة فيها»، مع وعد بـ«ضمان المعاملة الجيدة وكل سبل الراحة والأمان»[31].

يظل من غير المعلوم ما إذا كان خوجه سنان قد توقع من هؤلاء البرتغاليين أن يبحثوا عرضه بجدية أم أنه أراد به أن يُعقِّد الانتقال المؤلم فعلا إلى الحكم الإسباني في الهند البرتغالية فقط. وعلى أي حال فإنه على الرغم من معاداة السلطات البرتغالية في غوا للإسبان، والهواجس الحقيقية بشأن ولاء بعض الرعايا البرتغاليين على الأقل، آثرت هذه السلطات، كما هو متوقع، أن تظل على ولائها لنائب الملك الجديد الذي عيّنه الهابسبورغيون، الدوم فرنسيسكو ماسكارنياس Dom Francisco Mascarenhas، بدلا من اتخاذ تلك الخطوة المتطرفة بالارتماء في أحضان العثمانيين. وفي استعراض لسلطته الجديدة رد ماسكارنياس بعدها بقليل على استفزاز خوجه سنان بإرسال سرب برتغالي صغير إلى بحر العرب للإغارة على السفن التجارية الإسلامية المتجهة إلى جدة، وهي الغارة الأولى من نوعها خلال نحو عقد من الزمن[32].

بعد خيبة هذه المهمة، توجه الوفد العثماني بلا تردد إلى البلاط المُغالي في أغرة، وهناك حثوا أكبر على التخلي عن سياساته المعادية للعثمانيين والانضمام للسلطان في الجهاد ضد الهابسبورغيين. كان أكبر قد توصل إلى تسوية مع النظام

(*) يهود مرتدون، أي تخلوا عن دينهم واعتنقوا الإسلام أو المسيحية. [المترجم].

أغرة Agra، مدينة على ضفاف نهر يمونا في شمال ولاية أوتر برديش الهندية، كانت إحدى عواصم الإمبراطورية المُغالية، وتضم حاليا أشهر آثارها: تاج محل وقلعة أغرة ومدينة فتح بورسيكري التي أنشأها أكبر لتكون عاصمة لإمبراطوريته. [المترجم].

الجديد في غوا بعد أن حصل أخيرا على تراخيص تجارية من ماسكارنياس تمنحه الحق في إرسال سفينتي حجاج سنويا إلى البحر الأحمر[33]. رفض الإمبراطور المُغالي العرض العثماني بغضب شديد، وذهب بعيدا إلى حد انتهاك الأعراف الديبلوماسية بأن أمر بتكبيل الوفد بالأغلال وإيداعهم السجن في لاهور. ووفقا لشهادة كاهن يسوعي كان مقيما حينئذ في بلاط أكبر، فإن هذا الرد المتطرف نتج من «غطرسة السفراء والحاكم الذي أرسلهم وكذلك المسعى الذي جاءوا فيه لإقناعه بشن حرب على ملك إسبانيا والبرتغال»[34].

وبالنظر إلى درجة التوتر العالية التي نشأت سابقا بين أكبر والعثمانيين، لم تكن عداوة الإمبراطور للعرض العثماني مفاجئة بحال من الأحوال. وعلى ذلك، فربما كان الغرض الحقيقي من هذه السفارة، كما في حالة غوا، هو إقناع الرافضين للنظام المُغالي، لاسيما في كجرات، بالتخلي عن أكبر وإعلان دعمهم للتدخل العثماني. من ذلك مثلا أن محمد قليج خان Muhammad Kilij Khan، الذي كان الحاكم المُغالي لسورت وأحد الحضور الدائمين في بلاط أكبر، تجاوب علنا مع الدعوة العثمانية للتحالف، وعندما وصل الترخيصان التجاريان البحريان، أي «القرطاسان» cartazes، الممنوحان لأكبر من البرتغاليين في غوا، أعلن محمد قليج خان عزمه الأكيد على إرسال سفينة من عنده إلى البحر الأحمر، لكنه على خلاف أكبر، أصر على أن قرطاسه سيكون «مقبض الخنجر المثبت في حزامه»[35]. لذلك أمر ببناء سفينة ضخمة في سورت، ما اضطر البرتغاليين إلى محاصرة ميناء سورت معظم الشتاء لمنع مغادرتها[36].

كان التحدي الرمزي الذي أعلنه محمد قليج خان، جنبا إلى جنب مع النشاطات المتزامنة لمير علي بك في البحر وخضر بك في القرن الأفريقي، حافزا لسلسلة مماثلة وتلقائية - على ما يبدو - من ردود الأفعال المعادية للبرتغاليين في موانئ التوقف في أنحاء المحيط الهندي كافة. وفي الصيف التالي أخذت المقاومة تتشكل من جديد ضد البرتغاليين، حتى في آتشيه البعيدة التي هاجم أسطول تابع لها بقوة مائة وستين سفينة (منها سبعة غليونات وأحد عشر قادسا وفرقة كبيرة من المرتزقة العثمانيين) القلعة البرتغالية في ملقا[37].

بتشجيع من هذه التطورات وتوقع مزيد من النجاح الملموس في المستقبل، بدأ خوجه سنان في خريف العام 1582 محادثات تجارية مع دوق برابانت

لإقامة مركز تجاري ضخم في أنتويرب للسلع الآتية من الهند بعد أن تكون قوة لشبونة والهابسبورغيين قد كسفت إلى الأبد(*)(38). وفي تحرك أخير توج الصدر الأعظم هذه السلسلة من المناورات الديبلوماسية بمبادرة محلية تكشف عن روح محمد صوكولو، تمثلت في محاولة جديدة لحفر قناة السويس. كان خوجه سنان - لا ريب - على علم بأن هذه الفكرة سبق أن جُربت ولم تفلح. لكن الباشا من وحي خبرته كان على يقين بأن المشروع كان ممكنا وضروريا ولم يكتمل في المرات السابقة بسبب غياب الإرادة السياسية. ومن أجل تحسين فرص الضغط في اتجاه حفر القناة عزم خوجه سنان على مناشدة السلطان مراد الثالث مباشرة بكياسة وحماسة.

بيان عصبة المحيط الهندي
«تاريخ الهند الغربي»

تمثلت الوسيلة الفريدة التي وقع عليها اختيار خوجه سنان لهذا الغرض في كتاب «تاريخ الهند الغربي» Tārīḫ - i Hind - iĠarbī (انظر الشكل 1 - 6) الذي كُتب بين العامين 1580 و1582 وأهدي إلى السلطان مراد شخصيا(**)(39). يعتبر الدارسون هذا الكتاب حاليا أول عمل كبير باللغة التركية العثمانية عن الاستكشاف والغزو الإسبانيين للعالم الجديد، وهو موضوع غني بالدلالات حول نيات خوجه سنان الإمبريالية. أما الجزء الأكثر صلة بمسألة قناة السويس من الكتاب، فهو القسم الافتتاحي الذي لا يتناول العالم الجديد، بل المحيط الهندي المعاصر.

(*) برابانت Brabant، دوقية ضمن البلاد الواطئة، صارت بعد العام 1482 جزءا من المقاطعات الهابسبورغية، شاركت في الثورة الهولندية (1568 - 1648) على الملك الإسباني فيليب الثاني. [المترجم].
كانت أنتويرب Antwerp جزءا من دوقية برابانت والمركز التجاري لذلك الجزء من أوروبا قبل أن تخربها الأعمال العدائية وحصار الهولنديين المطول لنهر السخليده في أثناء الثورة، ما جعل أمستردام تحل محلها مركزا تجاريا وثقافيا. [المترجم].

(**) الهند الغربي Hind - iĠarbī، هو الاسم العثماني لكامل أراضي الأمريكتين وجزرها. على غرار الاسم «جزر الهند الشرقية» الذي استخدم للإشارة إلى الهند وجنوب شرق آسيا برمتها، استخدم الاسم «جزر الهند الغربية» West Indies بدايةً في الدوائر الغربية ولاحقا في الدوائر غير الغربية بهذه الدلالة الواسعة، ونشأ عن أن كولومبس عندما وصل جزر الكاريبي ظن أنه دار حول الكرة الأرضية ووصل الهند (ومن هنا جاءت تسميتهم للأمريكيين الأصليين باسم الهنود الحمر)، ولذلك يستخدم الاسم تحديدا أيضا لأرخبيلات الأنتيل الكبرى والصغرى ولوكايان بحوض الكاريبي. [المترجم].



الشكل (6-1): صورة مصغرة من الكتاب مجهول المؤلف «تاريخ الهند الغربي» تبيّن المستكشفين الإسبان في مشهد طبيعي غريب من العالم الجديد. المصدر:

.Tārīh-i Hind-iGarbī or İklīm-i Cedīd, Istanbul, Beyazıt Devlet Kütüphanesi, Ms. 4969, fol. 70v

في هذا القسم الافتتاحي يقدم المؤلف المجهول (الذي ربما كان أحد الرجال المحسوبين على خوجه سنان) دفوعا واضحة ومقنعة لحفر قناة السويس كجزء من استراتيجية عثمانية شاملة جديدة في المحيط الهندي[40]. بعد مناقشة موجزة لأحدث أوجه التقدم في مجال المعرفة الجغرافية بفضل رحلات الاستكشاف الأوروبية، يصف النص اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح ونشاطاتهم في المحيط الهندي، ويلي ذلك تحذير من الخطر الذي مازالوا يشكلونه على الشحن الإسلامي وعلى الأمان بعيد المدى لمكة والمدينة. ومن باب الدعوة إلى العمل الفوري لمعالجة الموقف، وباستخدام رؤى سبق أن عبّر عنها محمد صوكولو حول عدم إمكانية شن هجوم مباشر على البرتغال ذاتها، يدعو النص إلى ضرورة إرسال أسطول ضخم لمهاجمة الممتلكات البرتغالية في المحيط الهندي «للاستيلاء على المعاقل وفتح البلاد وطرد الكفار واستئصال شأفتهم»[41]. ولهذا السبب كانت قناة السويس ضرورية حتى يمكن أن تعبر السفن والعتاد بسهولة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر، وبما يمكّن الأسطول العثماني المتفوق في العدد والموارد من سحق خصومه مرة واحدة ونهائية.

في سبيل دعم هذه القضية، يذهب مؤلف «تاريخ الهند الغربي» بعيدا إلى حد الاستباق إلى ذكر الحجج المضادة لخطته وتفنيدها. ومن اللافت للانتباه أن طريقته في ذلك توحي بأنه توقع أن تنشأ أشد الاعتراضات عن أسباب أيديولوجية ودينية لا عملية. قد يبدو ذلك مفاجئا بالنظر إلى الفشل الواضح للمحاولات السابقة لحفر القناة لأسباب فنية تماما. لكن في سياق تنافس مراكز القوى المتواصل في إسطنبول خلال أوائل العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر، يمكن فهم هذا الدفاع الأيديولوجي باعتباره النتيجة المباشرة للمضامين السياسية الواضحة لمشروع القناة ومركزيته لخطة خوجه سنان باشا لتوطيد سيطرته على السلطة.

على وجه التحديد، كان أنصار القناة يعرفون مقدما أن مشروعهم لن ينال موافقة الفقيه المحافظ قاضي زاده أحمد شمس الدين أفندي Kadizade Ahmed Shemseddin Efendi الذي كان خصما عنيدا لمحمد صوكولو خلال العقد السابق، وصار خلال السنوات التالية لموت صوكولو ممثلا أيديولوجيا بارزا للمهتمين بالقضاء على إرث الباشا. وبعد فترة قصيرة من اغتيال صوكولو في العام

1579، ضغط قاضي زاده أحمد بنجاح لإغلاق مرصد الفلكي تقي الدين أفندي الذي كان أحد الأعمال الأثيرة لدى الصدر الأعظم الراحل، بذريعة أن علم الفلك السحري كان خرقا لعقائد الإسلام الأساسية بسبب علاقته المتينة بعلم التنجيم[42]. وحيث إن الأدلة توحي بأن المؤلف المجهول لكتاب «تاريخ الهند الغربي» كان موظفا سابقا في هذا المرصد، فلا بد أنه قد تخوف من أن تستخدم حجج مماثلة ضد مشروعه[43]. ولا بد أن أيا من هذه الاعتراضات كانت له مضامين سياسية أوسع على خوجه سنان وحلفائه الذين كانوا جميعا من المقربين من محمد صوكولو وبالتالي خصوما طبيعيين لقاضي زاده أحمد وأتباعه.

لذلك يحرص كتاب «تاريخ الهند الغربي» على طمأنة قرائه - لاسيما السلطان - بأن أي هواجس دينية محتملة بشأن القناة هي بلا أساس. ويذكر المؤلف أن قناة بين النيل والبحر الأحمر حفرت فعلا إبان عهد فراعنة مصر القديمة، وأنه قيل لاحقا إن الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد داعبته فكرة إعادة حفر هذه القناة ولم يرده عنها إلا المخاوف من أن تستخدمها الأساطيل المسيحية للعبور إلى البحر الأحمر وتهديد المدينتين المشرفتين(*). أما وقد وصل البرتغاليون إلى المحيط الهندي بواسطة طريق مختلف، فقد آن الأوان أخيرا لتعهد المشروع من دون إرجاء:

> لكن سلطان السعد والسلطة المهيبة والقوة والأبهة والفخامة [العثماني] بفضل الله تعالى أقوى من كل الملوك السابقين، ولديه في حاشيته الكثير من القادة الحكماء... الذين يطيعون أوامره في كل شيء. ويعبّر أمراء المغرب وملوك اليمن وربما كل ملوك العصر عن بالغ سعادتهم بخدمته ويجدون البهجة في الامتثال لأمره العالي. ولذلك فلو أُنفِقت قطرة واحدة من بحر قوة السلطان، فإنها كفيلة بإيصال البحرين [الأبيض المتوسط والأحمر] في أقصر وقت... سيكون

(*) جاء في مصادر عربية كثيرة منها المقريزي أن أول ولاة مصر المسلمين عمرو بن العاص لما اشتد القحط بالحجاز في عام الرمادة (17-18 هـ/ 638-639م)، أمره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - أو بادر هو من تلقاء نفسه وفق الرواية - بحفر قناة من النيل إلى القلزم لتسهيل نقل المؤن من مصر إلى الحجاز سميت «خليج أمير المؤمنين»، سارت في نفس مجرى القناة الفرعونية القديمة. معنى ذلك أن صاحب كتاب «تاريخ الهند الغربي» كان في غنى عن تبرير مشروع القناة دينيا. ألم يعلم العثمانيون بأمر إعادة حفر القناة الفرعونية في عهد الخليفة عمر؟ على رغم أنهم عرفوا بتفكير هارون الرشيد العباسي في إعادة شقها بعد أن طمست. [المترجم].

> بالاستطاعة بعدها تجهيز السفن وأطقمها وإرسالها من القسطنطينية المحروسة دار السعادة ومقر عرش السلاطين إلى البحر الأحمر، وسيكون في مقدورها حماية شواطئ بلاد الحرمين، وسيكون بوسعها خلال فترة وجيزة - بخطة ممتازة - أن تستولي على أغلب الموانئ البحرية في السند والهند وتخضعها وتستأصل شأفة الكفار من المنطقة، وسيُفتح الطريق لوصول سلع السند والهند الباهرة ونوادر إثيوبيا والسودان وسلع الحجاز واليمن العادية ولآلئ البحرين وعدن إلى العاصمة من دون جهد أو نصب[44].

يتكشّف في هذه الفقرة البرنامج السياسي لخوجه سنان باشا وعصبة المحيط الهندي المجددة. متسلحين أيديولوجيا بهذا البيان القوي، صار خوجه سنان وأنصاره جاهزين لمواجهة كل المشككين واستخدام حفر قناة السويس للقفز إلى مرحلة جديدة وغير مسبوقة من التوسع العثماني في المحيط الهندي.

لكن لسوء الحظ كان المناخ السياسي العثماني العاصف إبان أوائل العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر كفيلا بإعاقة تنفيذ أي خطة من هذا النوع، وسرعان ما اتضح أن مثابرة خوجه سنان غير كافية للمهمة. وفي نهاية العام 1582 أدت الخصومات الشخصية ودسائس البلاط والنكسات العسكرية على الجبهة الإيرانية إلى إزاحة خوجه سنان من المنصب، ما ترك بقية أفراد العصبة بلا قيادة واضطرهم إلى إعادة النظر في استراتيجيتهم.

حسن باشا يراقب الساحل السواحلي من كثب

مع خروج خوجه سنان من السلطة، انتقلت المبادرة في عصبة المحيط الهندي من العاصمة إلى محيط الإمبراطورية، والتأمت حول حسن باشا والي اليمن منذ العام 1580. كان حسن في هذا الموقع المسؤول الإقليمي الأوثق اتصالا بالتطورات في المحيط الهندي، ومن ضمنها العمليات العسكرية الأخيرة في إريتريا، وحملة مير علي بك البحرية على مسقط، وإدارة المناورات الديبلوماسية العثمانية في الهند. كانت المسافة الشاسعة التي تفصله عن إسطنبول بشكل من الأشكال حائلا يعيقه عن التأثير على قرارات البلاط بدرجة تأثير خوجه سنان، لكن هذه المسافة عينها أعطته

فسحة واسعة للعمل المستقل، وهي الميزة التي مكّنته، من خلال الاستغلال الأمثل للموارد المحدودة المتاحة له، من وضع الأساس لهجوم عثماني جديد كان نجاحه مذهلا، وإن لم يحظَ بالانتباه الكافي.

ظلت أهداف حسن باشا الكبرى منسجمة مع برنامج خوجه سنان كما تكشّف في كتاب «تاريخ الهند الغربي»، وهو تحديدا حفر قناة السويس والانتقال إلى غزو عسكري شامل للهند البرتغالية. لكن في المدى القريب، كان الهدف المحدد لنشاطات حسن هو البلاد الخاضعة للسيادة البرتغالية الاسمية على الساحل السواحلي لأفريقيا، وهو اختيار موفق لعدد من الأسباب، أولها أن الساحل السواحلي كان منطقة مألوفة نسبيا للعثمانيين الذين أبحرت سفنهم على امتداده منذ العقد الخامس من القرن السادس عشر، وأخذت تتاجر بانتظام مع التجار المحليين هناك منذ ذلك الوقت. علاوة على أن دفاعات البرتغاليين في هذه المنطقة كانت ضعيفة، إذ لم تكن لهم قواعد دائمة شمال موزمبيق، ولم يكونوا يحتفظون هناك إلا بعدد صغير من السفن خفيفة التسلح كانت تقوم بمهمة خفر السواحل المحلي. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن البرتغاليين القلة المتمركزين هناك كانوا يواجهون عداوة شرسة من أهالي المنطقة المسلمين، ما اضطرهم إلى إسناد سيطرتهم لا إلى قوتهم، بل إلى استغلال العداوة الشديدة التي كانت تفرق دائما بين الدول المدينية المحلية المختلفة في المنطقة. أنجز البرتغاليون ذلك بالدرجة الأولى من خلال التحالف الاستراتيجي مع ماليندي Malindi، تلك القوة المبتدئة التي استخدمت صداقتها مع غوا لإرهاب جيرانها - لاسيما منافسها الرئيس مومباسا - من خلال التهديد بالتدخل البرتغالي(*)[45].

معنى ذلك أن حسن باشا كان بوسعه أن يتوقع دعما محليا كبيرا من أعداء ماليندي إذا ما قرر التدخل نيابة عنهم، وهو توقع كانت له نتائج بالغة على أي صراع طويل المدى مع البرتغاليين للسيطرة على منطقة المحيط الهندي الأوسع. كان الباشا يعرف جيدا أن الساحل السواحلي يمكّن من الوصول إلى وفرة

(*) يرجع هذا الموقف المتباين من البرتغاليين من جانب ماليندي ومومباسا إلى رحلة فاسكو دا غاما الأولى إلى الهند في العام 1498 التي استقبله خلالها شيخ ماليندي بالترحاب وزوده بالمؤن وبالبحّار الذي أخذه إلى الهند (ربما العُماني الشهير أحمد بن ماجد أو بحّار كجراتي)، في حين واجه دا غاما موقفا عدائيا من حكام مومباسا، مع أن النخبة الحاكمة في البلدتين كانت من أصول واحدة: العرب والمستعربين الأفارقة. [المترجم].

من العاج والذهب والعبيد من الداخل القاري، فضلا عن إمدادات الخشب اللازم لبناء السفن، وهو مورد مهم للغاية اتسم بندرة مزمنة في منطقة البحر الأحمر[46]. كانت هذه المنطقة أيضا على مرمى حجر من موزمبيق، تلك القاعدة البحرية التي أوضح الريس سفر أن كامل نظام الاتصال بين الهند البرتغالية وأوروبا كان يعتمد عليها[47].

كان الساحل السواحلي – بإيجاز - مكانا مثاليا للبدء في تحويل إمبراطورية محمد باشا صوكولو الناعمة إلى سيادة عثمانية ملموسة في المحيط الهندي. أما المشكلة التي واجهها حسن باشا فهي أن زوال دعم خوجه سنان في العاصمة أعجز حسن عن تأمين الموارد اللازمة لاستغلال هذه الفرصة. وكان الحل الذي استقر عليه هو أن يستخدم الميزتين الناتجتين عن بعده الشديد عن إسطنبول، وهما استقلاليته ووصوله المميز إلى المعلومات المحلية بوصفهما مصدرين للتأثير السياسي.

لاحت ثغرة لإنجاز ذلك في العام 1583، عندما قدّم القبضُ العرضي على جاسوسين إسبانيين في البحر الأحمر لحسن باشا ذريعة مثالية للبدء بمطالبة السلطان بالعمل. وفي التقارير اللاحقة الواردة إلى إسطنبول حول اعتقال الجاسوسين، أرسل حسن باشا من اليمن ومصطفى باشا من إريتريا - إلى جانب المعلومات حول نشاطات هذين الجاسوسين - تحذيرات منذرة من عدم جاهزية الدفاعات العثمانية في ظل سيطرة إسبانيا على دولة الهند. جاء في أحد هذه التقارير: «لا يكاد يستولي الإسبان الملاعين على معاقل بلاد الهند ويرسلوا أسطولهم إلى المحيط [الهندي]، حتى يصبح بمقدورهم النيل [منا]، لأن القلاع في كل موانئنا من إريتريا إلى اليمن والحجاز على طول الطريق إلى السويس ليست قوية [بما يكفي لمقاومتهم] »[48].

يتعذر القطع بما إذا كان حسن باشا قد ظن فعلا أن الإسبان شكلوا تهديدا بهذا الحجم (كشفت أحداث لاحقة أنهم لم يكونوا كذلك). لكن السلطان مراد الثالث أمر في حينه بإرسال غليوتين مسلحين من السويس إلى اليمن وألا يستخدمهما حسن باشا - كما وعد - لأي أغراض تتعلق بالدفاع المحلي[49]. وبدلا من ذلك، وضعهما الباشا تحت إمرة مير علي بك وأرسله في حملة جريئة على الساحل السواحلي، على ما يبدو من دون إخطار أحد في إسطنبول بنياته[50].

حملة مير علي بك الأولى على شرق أفريقيا

كانت مهمة مير علي - ظاهريا على الأقل - مهمة استطلاعية بسيطة، جنبا إلى جنب مع شيء من القرصنة من نوع الضربة التي وجهها إلى البرتغاليين في مسقط في العام 1581[51]. لكن إلى جانب أعمال الإغارة البسيطة، كان القرصان مكلفا بمهمة أشد تعقيدا تضمنت إقامة اتصالات مع الأهالي المسلمين في شرق أفريقيا وتوسيعها. كان مقررا أن يختار البك بمساعدتهم موقعا لمعقل بحري محصن يكون مناسبا بوصفه قاعدة متقدمة لمزيد من الهجمات. وكان مخططا أن تكون هذه القاعدة في النهاية منصة انطلاق لحملة غزو كبرى «لطرد البرتغاليين من الساحل كاملا حتى موزمبيق ومناجم كواما»(*)[52].

لم يكن تحت إمرة مير علي عندما أبحر من المخا في نهاية العام 1585 لإنجاز ذلك كله غير غليوتين وصلا أخيرا من السويس وفرقة لا تزيد على 150 مقاتلا. وخلال رحلة الذهاب أُنقصت هذه القوة الضئيلة إلى النصف عندما غمر الماء إحدى السفينتين واضطرت إلى العودة. وهكذا فعندما وصل القرصان إلى ساحل شرق أفريقيا أخيرا، كان «أسطوله» يتألف من سفينة حربية واحدة ونحو ثمانين رجلا.

وعلى الرغم من النقص الشديد في الأفراد والعتاد، فإن مير علي صنع من هذه الحملة مكانته وشهرته. فعندما أبحر في يناير 1586 إلى مقديشو، وهي أول مرفأ توقف في طريقه، استقبله أهالي المدينة استقبال الأبطال. وعندما علم وجهاء المدينة بأسباب زيارة مير علي، أقسموا بالولاء للسلطان، وقدموا المال طوعا للنفقات المستقبلية للحملة وعشرين مركبا مسلحا من نوع البانغايو(**)، وهي قوارب ساحلية خفيفة، لمرافقة غليوت مير علي خلال إبحاره جنوبا.

بعد أن عزز القرصان قوته، أصبح جاهزا للتوجه إلى الساحل السواحلي، وهناك تكرر على مدى الأسابيع الكثيرة اللاحقة ما حدث معه في مقديشو بتمامه في بلدات

(*) كواما Cuama (أحيانا قواما Quama أو زواما Zuama): هو الاسم الذي أطلقه أهالي الساحل السواحلي على نهر الزمبيزي ومنطقته الداخلية وأخذه البرتغاليون عنهم وذكروه بهذا الاسم في خرائطهم للمنطقة. [المترجم].

(**) البانغايو pangaio أو البانغايا Pangaia: هو الاسم الذي أطلقه البرتغاليون على المراكب الشراعية التي كان الأهالي يستخدمونها في شرق أفريقيا (استخدمت أيضا في عُمان)، ويبدو أن أصول الاسم أسترونيزية بسبب الاتصال بين شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا. [المترجم].

براوة ويوغو وبيت(*)؛ إذ بمجرد وصول مير علي أعلن حكام كل هذه الموانئ الجزيرية واحدا تلو الآخر دعمهم للعثمانيين، وأقسموا بالولاء له شخصيا، وقدموا له المال والمؤن والتعهدات السخية بمزيد من ذلك في المستقبل. تعجب مؤرخ إسباني لاحقا من نجاح مير علي بهذه الكلمات الإطرائية: «هائلٌ ذلك الذي أنجزه رجل واحد، سواء كان بالحظ أو بالعزم! بلغت شهرة مير علي الآفاق، ولا ريب أنه كان مرحا وساحرا وجريئا... ما جعله ينجز ذلك كله من خلال وعد بما يمكن أن يجلبه في المستقبل، وليس من خلال قوة السلاح الذي كان بحوزته!»[53].

يوحي هذا التعليق بأن التجاوب المحلي الكاسح لوصول مير علي كان مفاجئا للبرتغاليين في المنطقة. وفي تجلٍّ للجبن آثر المسؤول البرتغالي الوحيد المكلف بالدفاع عن الساحل السواحلي الكابتن روي لوبيس سالغادو Ruy Lopes Salgado أن يتحصن في ميناء ماليندي الموالي بدلا من مواجهة القرصان، ما ترك السفن الأخرى في المنطقة فريسة سهلة بلا حماية لمير علي. لذلك وجد طاقم السفينة التجارية البرتغالية المملوكة لكابتن ديو المكون من اثني عشر فردا نفسه وجها لوجه مع السرب العثماني وكان أول ضحايا مير علي، واستسلموا له من دون قتال بعد مواجهة قصيرة. نصب مير علي بعدها فخا لفريسة أكبر، هي السفينة الحربية التابعة لكابتن ماليندي السابق الكابتن ميجور روك دي بريتو Roque de Brito التي سلمها أهالي جزيرة لامو للعثمانيين (بكابتنها وحراستها المكونة من خمسة عشر جنديا برتغاليا(**). أودع مير علي هؤلاء الأسرى السجن في قادسه واستولى على سفينتهم الحربية وأعاد تجهيزها بطاقم من المتطوعين المسلمين المحليين وبعض من بحارته، ثم استخدمها في اصطياد سفينة برتغالية أخرى كانت مملوكة لكابتن شاول، استسلمت بعد تبادل قصير لنيران المدافع.

وفي نهاية شهر مارس، أي بعد أكثر قليلا من شهرين من وصوله إلى مقديشو أول مرة، استطاع مير علي أن يبني من لا شيء أسطولا هائلا من أربع وعشرين سفينة، شملت، إلى جانب الغليوت الذي أبحر به ابتداء، عشرين سفينة بانغايو مساعِدة

(*) حاليا تقع بلدة براوة Brava الميناثية على المحيط الهندي في جنوب دولة الصومال، وتقع جزيرة بيت Pate في المحيط الهندي وتتبع دولة كينيا، ولا يعرف الاسم الحديث لبلدة يوغو Jugo أو موقعها، وقد ورد ذكر البلدات الثلاث في كتاب ديوغو دو كوتو «آسيا» المذكور في متن الكتاب الحالي. [المترجم].

(**) لامو Lamu: أرخبيل من الجزر في المحيط الهندي يتبع دولة كينيا حاليا. [المترجم].

وسفينة ديو التجارية الصغيرة وسفينة شاول وسفينة روك دي بريتو الحربية. بهذا الأسطول، قضى مير علي شهر أبريل وهو يبحر على امتداد الساحل السواحلي كاملا و«يملأ سفنه حتى حافاتها بإتاوات من الذهب والعنبر والعاج والعبيد»، ويؤمِّن ولاء كل البلدات المينائية الرئيسة في المنطقة، باستثناء ماليندي التي ظلت حليفا وفيا للبرتغاليين[54]. وأخيرا عاد القرصان مظفرا إلى قاعدته في المخا مع الرياح الموسمية الصيفية، محملا بغنيمة تقدر بأكثر من مائة وخمسين ألف كروزادو ذهبي ونحو ستين أسيرا برتغاليا مغلولين معا بالحبال. وعاد معه سفراء من مومباسا وبيت وكيليفي جاءوا للتشاور مع حسن باشا في اليمن حول خططه لشن حملة ثانية أكبر لاحتلال المنطقة بشكل دائم(*).

التطورات في الهند

تزامنت حملة مير علي على الساحل السواحلي مع عدة تطورات رئيسة أخرى، إذ بدأ النبض السياسي يتسارع على نحو ملحوظ على جانبي غرب المحيط الهندي(**). فعندما كان القرصان لايزال في المراحل التخطيطية الأولى لمغادرته إلى شرق أفريقيا، جدد حسن باشا في أوائل العام 1585 اتصالاته مع محمد قليج خان في سورت، وهو الذي نفذ محاولة أخرى للإفلات من الدوريات البرتغالية في خليج كمباي وإرسال سفينة إلى البحر الأحمر من دون قرطاس. رد البرتغاليون على ذلك بفرض حصار بحري جديد على سورت، لكن محمد قليج أقنعهم بإعادة فتح الميناء من خلال وعد بالتفاوض، ثم أرسل سفينته فورا قبل التوصل إلى أي اتفاق. وصلت السفينة إلى المخا بعد بضعة أسابيع، وأبحرت عائدة بحمولة كاملة من المدفعية والذخيرة ومائتي مرتزق عثماني مختارين، على رغم أن رحلة عودتها لم تمر بلا متاعب. فالسفينة العائدة إلى سورت في أواخر الصيف في وسط عاصفة قوية، وجدت في انتظارها عدة سفن برتغالية في كمين. شقت السفينة طريقها خلال الحصار، بينما كانت المدفعية العثمانية التي رُكِّبت للسفينة أخيرا تطلق النار من

(*) كيليفي Kilifi: حاليا مدينة تتبع دولة كينيا على ساحل المحيط الهندي. [المترجم].

(**) يقع الرأس الجنوبي لشبه القارة الهندية في منتصف الطريق تقريبا بين شرق المحيط الهندي وغربه، لذلك يعد الساحل الغربي للهند - ومنه كجرات وسورت - جزءا من غرب المحيط الهندي. [المترجم].

فتحات النيران الجانبية، ثم ضلت السفينة عن مدخل الميناء وجرفتها رياح قوية وأحاط بها البرتغاليون وأخذوا يقصفونها عدة أيام. ولم تكد السفينة المتضررة تنجو من حصار النيران حتى وجدت نفسها في عاصفة أخرى دمرتها، وإن تمكن طاقمها ومعظم حمولتها الحربية من الوصول إلى سورت بسلام[55].

من باب الانتقام لهذا التحدي المنسق أرسل البرتغاليون أسطولا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية في خريف العام 1585 بأوامر بمهاجمة السفن الإسلامية ومنع عبور التجار عبر باب المندب. من اللافت للنظر أن هذه الحملة التي ترأسها روي غونسالفيس دا كامارا Ruy Gonsalves da Camara كانت أول محاولة برتغالية جدية لتقييد الوصول إلى البحر الأحمر خلال أكثر من عقد من الزمن، وبأسطول ضم نحو ست وعشرين سفينة وعُدَّ إجمالا من كبرى الحملات البحرية التي أرسلها البرتغاليون إلى المنطقة على الإطلاق.

كان الإخفاق التام مآل حملة روي غونسالفيس دا كامارا على الرغم من قوتها العددية؛ إذ فشلت في اصطياد أي سفينة إسلامية خلال أربعة أشهر من مسح البحار، وفقدوا إحدى سفنهم في كمين ساحلي عثماني قرب عدن، وكادوا يستسلمون جماعيا إلى العطش وغيره من أشكال النقص خلال رحلة عودتهم قبل أن يصلوا إلى مسقط أخيرا في أبريل 1586. وعلى امتداد هذه الأشهر الكثيرة في البحر فشل دا كامارا في جمع أي معلومات مفيدة حول مير علي، إذ ظل جاهلا تماما بحملة القرصان على رغم أن مغادرة الأخير الساحل السواحلي لم تسبق وصول البرتغاليين إلى المخا إلا ببضعة أسابيع[56].

فلم يعلم دا كامارا بالحملة إلا في خريف العام 1586 بعد عودته إلى غوا التي كانت السلطات البرتغالية فيها قد وصلت إليها أخبار مآثر مير علي بوسائل أخرى، إذ استقبلته هناك لدى وصوله «رايات سوداء وعلامات حداد كأن هناك مأتما»[57]. بيد أن فشل حملة دا كامارا لم يكن مفاجئا للقيادات في غوا الذين قيل إن أحدهم أعلن: «تماما كما لا يستطيع الأتراك أن يرسلوا أسطولا إلى الهند من دون أن يتكبدوا خسائر، لا تستطيع سفننا أن تبحر إلى مضيق مكة من دون أن تتكبد المصير عينه»[58]. وسمع دا كامارا حُكما مماثلا في ميناء غوا من بحّار حبشي كان يعمل على إحدى السفن المُغالية التجارية المرخصة، إذ قال

له موبخا إن «الشيء الوحيد الذي أنجزته بهذه الحملة هو أنك أيقظت الكلب النائم كما يقول المثل!»[59].

أثبت هذا الرأي أنه ينطوي على بصيرة ثاقبة، إذ ترتبت عواقب وخيمة على فشل دا كامارا. فعلى رغم أن حملته لم تنجز شيئا من أهدافها الأصلية، فإن مجرد ظهور أسطول برتغالي كبير في البحر الأحمر أعطى حسن باشا في اليمن فرصة مثالية لإعادة تشغيل ماكينة الدعاية الفعالة، إذ اغتنم الباشا الفرصة، ومن الواضح أنه تبنى خلال الأشهر التالية حيلة متقنة لدعم قضية التوسع البحري العثماني بطريقة ماكرة غير مسبوقة، فبدأ خلال عدد من الرسائل المنتظمة للعاصمة حملة تضليل محسوبة، تعمد فيها هو وحلفاؤه في عصبة المحيط الهندي تضخيم التهديد الذي شكّله البرتغاليون في البحر، على أمل الحصول من إسطنبول على الموارد والتمويل لخططه الإمبريالية في المحيط الهندي.

الحيلة تنجح وعصبة المحيط الهندي تُبعث من جديد

تجلت الدلائل الأولى لهذه الهجمة الدعائية في شكل إشاعات بلا أساس حول حملة روي غونسالفيس دا كامارا، بدأت تتسرب من البحر الأحمر خلال الأشهر الأولى من العام 1586. وقد بالغت هذه الإشاعات جميعها في تقدير خطورة الهجوم البرتغالي إلى حد أنه بحلول شهر يونيو من تلك السنة كان سفير فرنسا في البندقية يرسل تقارير بأن البرتغاليين لم يدخلوا البحر الأحمر فقط، بل نهبوا الساحل كاملا حتى بحر الطور شمالا، وذهب أبعد من ذلك إلى أنهم خططوا للعودة في السنة التالية لإنزال قوات وبناء قلعة بالقرب من عدن[60]. تلت ذلك حالة من الذعر في البلاط في اسطنبول، وفي وسط الهلع المدفوع بالإشاعات، عيّن السلطان سنان الخازندار حليف حسن باشا واليا جديدا لمصر للتعامل مع «الأزمة» بدلا من الوالي السابق إبراهيم باشا الذي حاول أن يفند هذه الإشاعات[61]. ومما يثير الريبة بدرجة أكبر أن سنان الخازندار في رسالته الرسمية الأولى التي تلت ترقيته، أكد أسوأ مخاوف إسطنبول، إذ كتب أن البرتغاليين قطعوا فعلا كل التجارة إلى البحر الأحمر وأنهم كانوا يبنون قاعدة دائمة على جزيرة سقطرى، وكانوا في المراحل الأخيرة من تنظيم هجوم بحري مباشر على جدة والمدينتين المشرفتين[62].

بالنظر إلى أن سنان الخازندار خدم في مصر أمينا لخزانة الولاية فترة طويلة قبل تعيينه واليا(*)، فمن الصعب - إن لم يكن المستحيل - أن نتخيل أنه لم يكن يعرف أن هذه المعلومات كانت غير صحيحة إطلاقا. وعلى ذلك فإن تأكيده المكتوب لهذه التقارير الكاذبة يبيّن أنه لم يكن أحد المستفيدين المباشرين من حملة حسن باشا التضليلية فقط، بل كان أيضا شريكا نشطا فيها، حتى إنه يبدو أن الباشاوين اتفقا على كتمان الأخبار حول حملة مير علي إلى الساحل السواحلي خلال هذه الأشهر الحاسمة بغرض دعم قضيتهما، إذ لا تظهر أي معلومات حول إنجازات مير علي في أفريقيا في أي رسائل باقية من مصر أو اليمن(**). فربما خشي حسن باشا وسنان الخازندار أن يقوّض النجاح السهل لحملة مير علي مزاعمهما بشأن التهديد البرتغالي المتصاعد، ويبدو أنهما قدما السفن والرجال الذين أسرهم القرصان من الساحل السواحلي (وأُرسِلوا وفق القواعد إلى سنان الخازندار في مصر) على أنهم عتاد وأسرى من أسطول دا كامارا في البحر الأحمر، ما أعطى أدلة مادية على مواجهة عسكرية لم تقع مطلقا![63].

أثبتت هذه الحيلة القائمة على التضليل التي أريد بها تغيير الرأي في البلاط لمصلحة الباشاوين فعاليتها، إذ فور تلقي تقرير سنان الخازندار، أُرسِل فرمان في منتصف يوليو 1586 من إسطنبول إلى مصر يأمر ببناء عشرين قادسا حربيا جديدا في ترسانة السويس[64]. وفي نهاية الشهر نفسه كتب المبعوث البندقي لورنزو برناردو Lorenzo Bernardo من إسطنبول عن تنامي السخط على السلطان مراد بسبب «انشغاله بالحرب الفارسية عن إسبانيا مما أوصلها إلى هذا المستوى من القوة»[65]. كرر برناردو المعلومات الواردة في تقرير سنان الخازندار، ووصف حالة الذعر التي أثارها بين النخبة الحاكمة الإمبراطورية، وناقش الرد العثماني المتنامي على هذا التحدي الذي ذهب إلى حد التفكير مجددا في حفر قناة السويس التي اقترحها خوجه سنان باشا. جاء في الرسالة:

(*) من هذه الوظيفة، استمد سنان لقبه: الخازندار. [المترجم].

(**) لذلك لا تتوافر معلومات في الوثائق العثمانية حول مير علي بك ولا حول حملته الأولى المظفرة على الساحل السواحلي ولا حول حملته الثانية الفاشلة التي أسر فيها وأخذ إلى البرتغال سجينا حتى الموت. وكل ما يعرف حول هذه التفاصيل مأخوذ من مصادر برتغالية. [المترجم].

لقد تحصّن الإسبان بجزيرة كمران المقابلة لمملكة عدن... وذلك يزعج الأتراك لأن السيطرة على تلك الجزيرة تمكّن الإسبان من منع عبور التوابل من جزر الهند الشرقية إلى القاهرة، ما يعني خسارة نصف مليون قطعة ذهبية سنويا تأتي من عائدات الجمارك. ومن الآن فصاعدا ستكون السيطرة على خليج السويس للأسطول الإسباني الموجود في البحر الأحمر، ولن يكون طريق الحج إلى مكة آمنا بعد اليوم. ويذكر الأتراك أنهم أصبحوا مضطرين إلى التعامل مع ملك قوي فوق صفحة البحر، وأنه على الرغم من انشغاله بالحرب مع إنجلترا ومع بلاد الفلاندر(*)، استطاع أن يضرب هذه الضربة التي يستنتجون منها أنه لو أرسل قوات كبيرة إلى تلك المياه فإنه سيسيطر عليها من دون أي صعوبة. لذلك يرون أنهم يجب أن يحتفظوا بقوات ضخمة في تلك الأنحاء، وأنهم من أجل تلك الغاية يناقشون فكرة حفر القناة القديمة التي حفرها ملوك مصر القديمة، والتي امتدت مائة وخمسين ميلا من ميناء دمياط الواقع على بحرنا إلى ميناء السويس الواقع على البحر الأحمر(**)[66].

ذكر برناردو في ملحوظة أخيرة أن السلطان كان في الوقت الحاضر في مجلس تشاوري مع ديوانه حول أفضل الطرق للبدء في حفر القناة، وأن من كان السلطان يشاوره لم يكن أحد آخر غير حسن باشا الذي وصل إلى إسطنبول من اليمن أخيرا من أجل هذا الغرض تحديدا[67].

وخلال بضعة أسابيع كان أمير أمراء البحر قليج علي باشا، وهو شريك آخر في هذه الخدعة وله تاريخ شخصي طويل في التلاعب بالمعلومات الاستخبارية

(*) الأسطول الإسباني، ويُعرف أيضا بالأرمادا الإسبانية Spanish Armada: أسطول أرسله الإمبراطور الإسباني فيليب الثاني في أغسطس 1588 لإسناد جيش إسباني آتٍ من بلاد الفلاندر لخلع الملكة إليزابيث الأولى وإنهاء الحكم البروتستانتي لإنجلترا بسبب تدخلها في الصراع الجاري في بلاد الفلاندر الإسبانية لمصلحة الثوار الهولنديين البروتستانت في ثورتهم ضد الحكم الإسباني الكاثوليكي. واجهت الأرمادا مقاومة على الساحل البريطاني ولم تستطع أن ترسو على الشاطئ، ثم طاردها الأسطول البريطاني شمالا وشتتها في البحر، ثم أعادت التجمع للعودة إلى إسبانيا، لكن العواصف دمرتها، فعادت إلى بلادها بعد أن فقدت ثلث قوتها، سبقت التحضيرات لهذا الأسطول ومعاداة الإنجليز شهر أغسطس الذي أبحر فيه الأسطول الإسباني إلى الجزر البريطانية. [المترجم].

(**) يصف لورنزو برناردو البحر الأبيض المتوسط باسم «بحرنا» على اعتبار أنهم ورثة الإمبراطورية الرومانية بوصفهم بنادقة، فتلك الإمبراطورية هي التي أطلقت عليه ذلك الاسم. [المترجم].

لأغراض سياسية، يسرب تفاصيل الخطة إلى السفير الفرنسي المقيم في إسطنبول سافاري دي لانزكوم Savary de Lanscome[68] الذي ذكر أن أمير أمراء البحر تباهى بأن السلطان مراد في ضوء الاستفزازات الأخيرة قد عزم على حفر قناة إلى السويس وإرسال أسطول للقضاء على التهديد الهابسبورغي نهائيا، وأنه خصص لذلك المشروع خمسة وعشرين قادسا ومائة ألف رجل وأربعين ألف بغل واثني عشر ألف بعير وكامل خراج مصر في سنة البالغ ستمائة ألف دوقة. وأضاف لانزكوم في حاشية رسالته:

> زادت هذه الخطة الكبيرة غطرستهم المعتادة وألهبت طمعهم وطموحهم إلى حد أنهم يتخيلون أن كل كنوز الهند ونفائسها قد صارت في أيديهم وأن بلاد فارس قد آلت إليهم هي الأخرى. ويرون أن الإسبان لا وزن لهم على الإطلاق لأنهم لا يملكون [في الهند بأكملها] غير أربعة آلاف رجل. وإذا أردنا الحقيقة، فإنهم إن حققوا طموحاتهم بحفر هذه القناة وأرسلوا مائتي قادس مسلح [إلى الهند] كما يقولون، فإنهم بفضل سيادتهم حاليا على شبه الجزيرة العربية، سيحققون تقدما سريعا ولن يكون هناك من يوقفهم، وسيغلقون الباب [إلى الهند] على لشبونة وإسبانيا[69].

إن التشابه اللافت للنظر بين النوايا الواردة في هذا التقرير والنوايا التي أوردناها سابقا من كتاب «تاريخ الهند الغربي» لا يمكن أن يكون عرضيا بحال من الأحوال، ويثبت كيف تمكن الباقون من أفراد عصبة المحيط الهندي، بعد مرور أربع سنوات كاملة على الإطاحة بزعيمهم خوجه سنان باشا، من الاحتفاظ بتأثيرهم ودفع أهدافهم ومصالحهم قدما. وعلى رغم ذلك، ظل حفر قناة السويس، حتى في أفضل الظروف، تحديا حافلا بالصعوبات الفنية. وإلى جانب هذه العقبات العملية، كان حفر القناة مشروعا باهظ التكلفة لدولة أجهدت الحرب مع إيران مواردها. ولذلك مع تصاعد الشكوك حول جدوى القناة وتَكشُّف التفاصيل حول المدى الحقيقي للعمليات البرتغالية في البحر الأحمر، أو بالأحرى انعدامها، أخذ حماس إسطنبول الجارف للقناة يتبدد سريعا. وبحلول نهاية الصيف كان أمير أمراء البحر قليج علي قد سحب دعمه للقناة، مستشهدا بصعوبات الحفر في رمال

الصحراء ورياحها، إلى جانب مخاوف من أن يتسبب الحفر في أن يغمر الماء المالح من البحر الأحمر وادي النيل[70]. وسرعان ما فقد السلطان مراد حماسه ووضع حدا للمرة الثالثة والأخيرة التي حاول فيها العثمانيون حفر قناة من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر[71].

الحيلة تزداد تعقيدا

على الرغم من إحباط جهود حسن باشا وسنان الخازندار، فإن همتهما لم تفتر تماما، لكنهما باتا مضطرين إلى اللعب بآخر بطاقة تآمرية لديهما في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أحلامهما الإمبريالية في المحيط الهندي. وعلى رغم أن الباشاوين حُرما من القناة، فقد أمكنهما أن يواسيا أنفسهما بأسطول صغير من خمسة غليوتات أرسلت من السويس إلى اليمن في خريف العام 1586 لـ «الدفاع عن السواحل»[72]. وجد حسن باشا تشجيعا في هذا النجاح الملموس، وإن ظل محدودا، فردّ بإرسال بيان آخر إلى إسطنبول أثار فيه مجددا شبح هجوم وشيك من غوا. دفع الباشا بأن خمسة غليوتات لا تكفي للدفاع عن موانئ اليمن في حال حدوث هذا الهجوم، وتجرأ على طلب «عشرين أو ثلاثين قادسا» أخرى بغرض «استئصال شأفة الكفار من البحر»[73].

لتأكيد مدى إلحاح هذا المطلب أرسل حسن باشا وسنان الخازندار «تقرير جاسوسية» متزامنا زعما أنه وصل أخيرا من عملاء عائدين من الهند. ضم التقرير معلومات كان لها تأثير القنبلة الديبلوماسية، وهي تحديدا أن الإمبراطور أكبر قد أبرم تحالفا رسميا مع إسبانيا وأن القوتين كانتا تعدان أسطولا من أجل غزو مشترك لليمن[74]. كان هذا الاحتمال أشد ما تتخوف منه إسطنبول، وكان السيناريو الوحيد الذي بدا أخطر على الإمبراطورية من حربها المتواصلة مع إيران. ومن منظور الرجلين، لم يكن مهما إن كان التقرير صحيحا أم لا، مادام مفيدا لأغراضهما السياسية.

أما على أرض الواقع، فلم يكن هناك أي مبرر للاعتقاد بأن عملية مُغالية - برتغالية من هذا النوع يمكن أخذها مأخذ الجد. فمع أن المُغال أسسوا سفارة دائمة في غوا في العام 1584، لا يوجد ذكر في أي مصدر مُغالي أو برتغالي لمناقشة أي عرض من هذا النوع[75]، بل إن أكبر قطع بعد العام 1582 إعاناته المالية السنوية

لشريف مكة ودعمه السخي للحجيج المسافرين للمدينتين المشرفتين[76]. ومع أنه ظل يحتفظ بعلاقات طيبة ظاهريا مع البرتغاليين، فقد بدأ يتحدث صراحة في مراسلاته مع القادة المسلمين الآخرين عن نيته بشأن انتزاع المعقلين البرتغاليين المهمين ديو وشاول، وحتى غوا ذاتها[77].

وعلى ذلك فإن التقرير الجاسوسي الذي أرسله حسن باشا وسنان باشا الخازندار لم يكن سوى محاولة أخرى مقصودة للتضليل والمناورة. لكن على المدى القريب على الأقل كانت مناورتهما ناجعة. فبحلول شهر يناير 1588، أمر السلطان ببناء خمسة عشر قادسا إضافيا في السويس وخمسة أخرى في البصرة لكي تستخدم جميعها في حملة بحرية مستقبلية[78]. لم يترك السلطان في أوامره المصاحبة لحسن باشا شكا في تقديره لخطورة الموقف، إذ كتب: «تصرف كذئب وامنع الكفار الأخساء من تمزيق بلادي المحروسة... لا تستخف بذلك الأمر! ولا تترك شيئا للمصادفة! ولا تدخر جهدا لإجهاض الخطر»[79].

إسبانيا والبرتغال في موقف الدفاع

لم يكن هناك خطر حقيقي يمكن إجهاضه، لا من أكبر ولا من دولة الهند، بل على عكس ذلك تماما أرسل الملك الإسباني فيليب الثاني، في الشهر ذاته الذي أصدر فيه السلطان هذا الفرمان في إسطنبول، التوجيه التالي لنائب الملك في غوا:

> حيث إنه توجد في تلك الأنحاء [أي أوروبا] أمور كثيرة تستحق الانتباه، عليك من الآن فصاعدا أن تحافظ على المكاسب التي تحققت بدلا من أن تبحث عن مغامرات جديدة. تذكر أن الحروب الهجومية تنطوي على الكثير من الأخطار، كما تَكشّف في حالة الأسطول الذي أرسلتموه بقيادة روي غونسالفيس دا كامارا إلى البحر الأحمر ولم يحقق أيا من النجاحات المأمولة، ولم يسهم إلا في إثارة الأتراك، وما ترتب على ذلك من نفقات ضخمة وغير ضرورية... وخزي بيّن للدولة[80].

من الواضح أن «الأمور الكثيرة التي تستحق الانتباه» التي أشار إليها فيليب كانت تحضيراته للأسطول الإسباني التي تحولت في العام 1588 إلى مشروع استحوذ على الإمبراطورية الإسبانية[81]. جاء أمر فيليب الجديد باتباع استراتيجية دفاعية في

المحيط الهندي بعد سنة من دأب دولة الهند على ترتيب بيتها في أعقاب الجلبة التي أطلقتها حملة مير علي الخاطفة على الساحل السواحلي. فبعد عودة مير علي إلى المخا في ربيع العام 1586، أرسل ملك ماليندي إلى حلفائه البرتغاليين رسالة مذعورة تصف تفصيليا أعمال النهب التي نفذها القرصان وتقول إن الأسوأ كان لايزال في الطريق. ذهب الملك إلى أن العثمانيين لو عادوا بأسطول أكبر - كما توعد مير علي - وسُمِح لهم ببناء قلعة في مومباسا - كما عرض عليهم ملك مومباسا - «فإنه [مير علي] يستطيع أن يدمر الهند كلها... لأنهم [العثمانيين] من هناك يستطيعون أن يستولوا بسهولة على سفالة ومناجم كواما وحتى على قلعة موزمبيق(*)، ومن هناك يمكنهم أن يتربصوا للأسطول الملكي الآتي من أوروبا ويأسروه»[82].

في مواجهة هذا التهديد، تصرف نائب الملك الدوم دوارتي دي مينيزيس Dom Duarte de Meneses بسرعة وحسم بأن أرسل في يناير 1587 أسطولا كبيرا إلى الساحل السواحلي[83]. عندما وصل الأسطول أنزل قائده مارتيم أفونسو دي ميلو Martim Afonso de Melo العقاب بأهالي جزيرة بيت الذين اتُّهموا بأنهم عذبوا أسيرا برتغاليا لدى مير علي حتى الموت خلال السنة الفائتة[84]. من باب الثأر والعقاب على هذا الفعل، شن دي ميلو هجوما وحشيا على المستوطنة، سوى فيه بيوتها بالأرض، وقتل ملكها، وذبح أهلها واستعبدهم، ودمر بساتين النخيل لمنع أهلها من إعادة استيطان المنطقة مستقبلا[85]. ثم توجه دي ميلو إلى مومباسا التي فرّ أهلها المذعورون وهجروا بيوتهم وممتلكاتهم، ما مكّن دي ميلو من نهب بلدتهم.

غير أن مارتيم أفونسو دي ميلو لم يتمكن في النهاية باستخدام هذا الاستعراض الفج للقوة من إعادة توطيد السلطة البرتغالية للمدى البعيد. وتبيّن المحفوظات الباقية بدلا من ذلك أن أوامر فيليب الثاني الصارمة كانت تقضي بألا يقيم دي ميلو حامية دائمة في مومباسا وأن يتجنب «اضطهاد الأهالي أو مضايقتهم بلا داع»، إذ رأى فيليب في ذلك الترياق «الأمثل والأنجع» ضد تصاعد المشاعر الموالية للعثمانيين[86]. ومما زاد الأمور تعقيدا أن دي ميلو علم بتجدد النشاط في الترسانة العثمانية في البصرة، ما أوحى له بأن عمليات مير علي الأخيرة في شرق أفريقيا ربما كانت مجرد

(*) سفالة Sofala: مدينة مندثرة كانت الميناء الرئيس لمملكة موتابا Mutapa، تقع أطلالها اليوم في دولة موزمبيق. [المترجم].

إلهاء وأن هدف العثمانيين الحقيقي كان قاعدة هرمز البرتغالية الأهم كثيرا. اضطر دي ميلو بسبب هذه الظروف إلى التزام التهدئة واللين مع الدول المدينية الباقية على الساحل السواحلي، إذ اكتفى بتعهد زعمائها بالولاء للبرتغاليين ودفع إتاوات رمزية. ثم أبحر سريعا إلى هرمز مع الرياح الموسمية الربيعية على أمل أن يشن هجوما مفاجئا على البصرة قبل أن يكتمل تشييد القوادس العثمانية التي كانت قيد الإنشاء هناك[87].

من الواضح أن الإجهاد الناتج عن تنفيذ حملتين في سنة واحدة كان مشقة زائدة على دي ميلو الذي مات بعد أسابيع قليلة، بعد أن وصل إلى الخليج العربي مباشرة[88]. على أن إظهاره المتأخر للين على الساحل السواحلي لم ينفع في تحقيق النتيجة المنشودة منه، فمن الواضح أن تعامله القاسي مع بيت ومومباسا ثم مغادرته المتعجلة قد تركا انطباعا أعمق وأبقى من لينه مع بقية مسلمي المنطقة. وحتى قبل موته، كانت مجموعة الدول المدينية التي أقسمت بالولاء أخيرا لملك إسبانيا قد أرسلت سفارة أخرى إلى اليمن معها «رسائل وأموال وهدايا» للسلطات العثمانية المحلية. أطلع هؤلاء المبعوثون حسن باشا على تفاصيل هجوم دي ميلو وتوسلوا إليه أن ينفذ وعد مير علي السابق بالعودة بأسطول «والانتقام من البرتغاليين على الإهانات وأعمال النهب والقتل التي اقترفوها بطردهم نهائيا من هذه البلاد»[89].

كان حسن باشا من جانبه ينوي بصدق أن ينفذ هذا الطلب. لكن من المفارقات أن الباشا عندما فكر في تحركه التالي، وجد نفسه أمام القيود ذاتها التي كبلت منافسيه في الهند البرتغالية. فمثلما أدى انشغال فيليب الثاني بالأسطول الإسباني إلى إثنائه عن أي هجمات جديدة على العثمانيين في المحيط الهندي، شكّلت حرب العثمانيين المتواصلة مع إيران التي كان وطيسها يحمى حينذاك، عائقا مماثلا لحسن باشا. ومما زاد الأمور سوءا أن ائتلاف الأنصار الذي دأب حسن على تشكيله بدأ يتفكك عند هذه النقطة المفصلية الحرجة بموت قليج علي باشا في العام 1587 وانتهاء ولاية سنان باشا الخازندار لمصر في أوائل العام 1588.

كان والي مصر الجديد قرة عويس معاديا صراحة وعلنا لحسن باشا وكان يرتاب في صدق مزاعمه(*). وعلى مدار السنة التالية عمل قرة عويس عامدا - على ما يبدو

(*) يعرف قرة عويس Kara Uveys أكثر بوصفه واليا لمصر باسم عويس باشا. [المترجم].

- على تأخير بناء سفن حسن باشا الإضافية في ترسانة السويس، وكان في الوقت نفسه يرسل إلى إسطنبول رسائل تنكر أن تكون اليمن أو البحر الأحمر في خطر فوري[90]. وبحلول أواخر خريف العام 1588، ومع اقتراب موسم الإبحار وعدم وصول التعزيزات التي وُعِد بها من السويس، تُرك حسن باشا المعزول بلا خيار آخر غير أن يتولى الأمر بنفسه ويعمل باستقلالية عن إسطنبول. جمع حسن باشا غليوت مير علي الأصلي والسفينة الحربية البرتغالية التي أُسرت من روك دي بريتو في العام 1586 وثلاثة من القوادس الخمسة التي أرسلها سنان الخازندار من السويس، وسلّح أسطولا متواضعا ووضعه تحت إمرة مير علي الذي أبحر ثانية إلى شرق أفريقيا في ديسمبر 1588. كانت الأوامر هذه المرة أن يحتل مير علي جزيرة مومباسا احتلالا دائما، بما يساعد حسن باشا في تقديم حقائق على الأرض تستعيد مصداقيته المتآكلة في البلاط[91].

حملة مير علي بك الثانية على الساحل السواحلي

بدأت عودة مير علي إلى الساحل السواحلي مبشرة مثل زيارته الأولى قبل ثلاث سنوات[92]. وكما فعل في حملته السابقة، توجه مير علي أولا إلى ميناء مقديشو الذي تلقى فيه أموالا وتجهيزات واستقبال الأبطال من الأهالي. ومن هناك، واصل الإبحار جنوبا وحصل مجددا على وعود متحمسة بالدعم من «كل مدن المور ومحطاتهم على ذلك الساحل»[93] (*). وتمثل الاستثناء الوحيد - كما كان متوقعا - في ماليندي التي وجدها في حراسة حامية يقودها الكابتن البرتغالي ماتيوس مينديس دي فاسكونسيلز Mateus Mendes de Vasconcelos. وبعد أن توقف مير علي هناك لقصف متقطع لأسوار بلدة ماليندي، توجه إلى مقصده النهائي: مومباسا.

كانت مومباسا - وفق المصادر البرتغالية الباقية - الهدف الأساس لزيارة مير علي الأولى للمنطقة في العام 1586. وقد تميزت مومباسا بين كل الدول المدينية الجزيرية

(*) المور Moor: اسم أطلقه الأوروبيون على المغاربة والأندلسيين ومسلمي جنوب إيطاليا (صقلية)، أخذوه عن كلمة موري Mauri اللاتينية التي كانت تُستخدم للإشارة إلى البربر سكان إقليم موريتانيا الروماني الذي غطى شمال المغرب وغرب الجزائر الحاليتين، وعمّموه أحيانا على العرب والمسلمين جميعا (تماما كما عُمِّمت كلمة «عربي» أولا ثم «تركي» لاحقا لتعني مسلما)، ومن ذلك أن الإسبان أطلقوه على المسلمين الذين وجدوهم في الفلبين: المورو Moro، وها هم أطلقوه أيضا على مسلمي شرق أفريقيا. وفي تاريخ مومباسا، يشير المور البيض والسود تحديدا إلى العرب الخلّص والمُوَلَّدين الذين تجري فيهم دماء عربية، تمييزا لهم عن أغلبية السكان الذين كانوا من العبيد الأفارقة. [المترجم].

على الساحل السواحلي بالموقع المركزي والأسهل في الدفاع عنه، وكان سكانها يكنون عداوة راسخة لكل من ماليندي والبرتغاليين، كما تمتعت بإمكانية جيدة للوصول إلى الخشب وغيره من الموارد المحلية. ومع أن القوة العسكرية الإجمالية التي كانت تحت إمرة مير علي كانت أصغر مما توقع - مجرد خمس سفن خفيفة في مقابل «العشرين أو الثلاثين» قادسا حربيا التي طلبها حسن باشا - فإن القرصان اتبع استراتيجية واضحة لتحويل مومباسا إلى قاعدة متقدمة دائمة للعمليات المستقبلية.

كانت المدفعية واسطة العقد في هذه الاستراتيجية. وبالنظر إلى مجيئه من ميناء المخا العثماني، فلا بد أن مير علي كان على علم بأن سلفه الريس سفر تمكن ببضعة غليوتات تعمل بالمجاديف ودعم من نيران المدفعية الثقيلة من الدفاع عن المخا بثبات ضد هجمات مباشرة من أساطيل برتغالية ضخمة. ومن الواضح أن خطة مير علي تمثلت في تصدير هذا التكتيك المثبت من اليمن إلى شرق أفريقيا. ومن أجل هذه الغاية، جلب معه إضافة إلى سفنه الخمس وأطقمها التي بلغت نحو ثلاثمائة مقاتل، عددا كبيرا من المدافع عالية النوعية، منها عدد من مدافع الحصار القوية لاستخدامها على البر. أراد مير علي بهذه المدفعية الثقيلة والدعم الإمدادي من الأهالي المتعاونين أن يشيّد معقلا حصينا وأن يجبر البرتغاليين على المجيء إليه.

لم ينتظر القرصان طويلا لبلوغ هذه النتيجة، إذ كانت السلطات في غوا قد تلقت تحذيرا مبكرا بتحركاته من جواسيسها في اليمن. وبمجرد أن وصل مير علي إلى شرق أفريقيا، كان الكابتن ميجور تومي دي سوزا كونتينيو Tome de Sousa Coutinho قد أبحر فعلا من الهند بأسطول من إحدى عشرة سفينة حربية تعمل بالمجاديف وستة غليونات وأكثر من تسعمائة مقاتل، وهي قوة كانت أكثر من ثلاثة أضعاف قوة مير علي، أضيفت إليها لاحقا سفينتان أخريان وعدد كبير من القوات المساعدة قدمها حلفاء البرتغاليين في ماليندي. ومع ذلك شرع مير علي بسرعة مذهلة بفضل التعاون المتحمس من أهالي مومباسا في اتخاذ التحضيرات لموقف دفاعي، حتى إن رجاله تمكنوا بنهاية شهر فبراير من إتمام قلعة محصنة تسيطر على مدخل ميناء مومباسا. وداخل القلعة، وضع مير علي مدافع الحصار الأثقل لديه لتأمين الميناء من الهجوم من البحر، وكخط دفاع ثان وضع غليوتاته الخمسة على طول الشاطئ أمام المدينة ومدافعها موجهة صوب البحر للتصدي لأي هجوم

برمائي. كان ذلك هو التشكيل الدفاعي عينه الذي استخدمه الريس سفر عادة بنجاح فائق ضد البرتغاليين في المخا، وكان مشابها للتكتيك الذي استخدمه الريس سلمان في دفاعه البطولي عن جدة ضد أسطول لوبو سوراس Lopo Soarez في العام 1517. وعلى ذلك، فإن وجود التاريخ والخبرة في صف مير علي جعله يدخل المعركة التالية بثقة كبيرة على الرغم من تفوق خصمه عدديا[94].

لكن ثمة احتمالا لم يحسب القرصان حسابه تمثل في ظهور قوة ساحقة من اتجاه مختلف تماما وغير متوقع إطلاقا، وهم حشود نهّابة غامضة من محاربي الزيمبا خرجوا من الداخل الأفريقي عندما كان العثمانيون يضعون اللمسات الأخيرة على مواقعهم الدفاعية(*). وفق الرواية النابضة بالحياة - والإشكالية - لجواو دوس سانتوس الذي يعد كتابه «إثيوبيا الشرقية» المصدر البرتغالي الرئيس الباقي للأحداث اللاحقة، شكّل الزيمبا الأشداء جيشا قويا لا يقل عن عشرين ألف مقاتل، اقترفوا - من بين أعمال وحشية أخرى - أكل لحم البشر جماعيا[95]. وأيا كان عددهم الصحيح وهويتهم الحقيقية، وبغض النظر عما إذا كان اشتهارهم بأكل لحم البشر حقيقيا أم شحطة خيال برتغالية، فإن ظهورهم المفاجئ في مومباسا قبل أيام قليلة من وصول الأسطول البرتغالي كان كارثة لمير علي. فالقرصان الذي توقع الهجوم من البحر، أهمل الدفاع عن المصب النهري الضيق الذي يفصل مومباسا عن البر الرئيس والذي كان ضحلا بما يكفي لخوضه في أثناء جزر البحر. وبسبب وصول الزيمبا المفاجئ، لم يجد مير علي مفرا من نقل أفضل مدافعه واثنين من قوادسه الحربية ومعظم رجاله إلى الجانب الآخر للجزيرة لمنعهم من العبور، ولم يترك للدفاع عن المدينة غير طاقم هزيل في القلعة المحصنة وفي السفن الثلاث الباقية التي ظلت تحرس الميناء.

(*) في كتابه «إثيوبيا الشرقية» Etiopia Oriental، يصف القس البرتغالي جواو دوس سانتوس Joao dos Santos الزيمبا Zimba بأنهم «جماعة محاربة، لم يكونوا يأكلون البشر الذين يقتلونهم في المعارك فقط، بل كانوا أيضا يأكلون أسراهم عندما يتقدم بهم العمر ويعجزون عن العمل، ويبيعون فائض اللحم في الأسواق»، وأنهم هزموا البرتغاليين وذبحوهم عن بكرة أبيهم في عدة مواقع. فبأسلحة من العصر الحجري، أراق الزيمبا أنهارا من الدماء، ومن ذلك أنهم نهبوا مدينة كيلوا Kilwa (تتبع تنزانيا حاليا) ولم يتركوا فيها حيا. وفق الموسوعة البريطانية، يطلق اسم الزيمبا على أي جماعة نهّابة، وتذكر الموسوعة أن توطد السيطرة البرتغالية على مملكة موتابا في موزمبيق الحالية ارتبط بظهور الزيمبا في حوض الزمبيزي، وأنهم جاءوا من مملكة مارافي Maravi التي كانت تمتد عبر حدود الدول الحالية مالاوي وموزمبيق وزامبيا، إذ ارتحلوا من إقليم لوبا Luba الواقع على الطرف الجنوبي لبحيرة نياسا Nyasa (مالاوي) خلال القرن الرابع عشر، وعاثوا في الأرض فسادا، ما اضطر الممالك المحلية ومنها موتابا إلى طلب العون من البرتغاليين أو التغاضي عن الوجود البرتغالي. [المترجم].

هكذا كانت الحال في مومباسا عندما وصل إليها في الخامس من مارس 1589 الكابتن البرتغالي تومي دي سوزا كونتينيو على رأس أسطوله البرتغالي القوي. وعندما اقتحم كونتينيو المرفأ، أطلق مير علي ورجاله وابلا من نيران المدافع على أمل إغراق بعض سفن العدو على الأقل في أثناء مرورها. لكن تمكنت كل السفن البرتغالية من تفادي الضربات المباشرة، وتمكنت مدفعيتها بطلقة محظوظة من إسكات المدفع العثماني الرئيس في برج القلعة. ومع زوال الخوف من النيران الدفاعية العثمانية، تمكن البرتغاليون من الهجوم على القوادس الثلاثة الراسية على الشاطئ والتغلب عليها بسهولة، ما اضطر أطقمها إلى الفرار ووقوع بعضهم في الأسر.

بعد أن أنجز دي سوزا كونتينيو ذلك، أرسل فرقة من السفن إلى مصب النهر الذي يفصل الجزيرة عن البر الرئيس، وهناك وجد رجاله بقية القوات العثمانية مشتبكة مع الزيمبا وتحاول منعهم من العبور إلى مومباسا. فتمكن البرتغاليون مرة أخرى من اجتياح المواقع العثمانية بسهولة، وبعد قتال التحامي عنيف، لم يجد الكثير من أفراد الأطقم العثمانية بدا من القفز من السفن والسباحة للبر، ليجدوا الزيمبا في انتظارهم ليفتكوا بهم حتى آخر رجل، ما أجبر بقية المدافعين العثمانيين على الاستسلام جماعيا للكابتن البرتغالي. إجمالا، قُتل نحو مائة من العثمانيين في أثناء القتال أو فتك بهم الزيمبا، ووقع سبعون آخرون في أسر البرتغاليين ومعهم ثلاثة وعشرون مدفعا برونزيا رائعا وستة مدافع حديدية كبيرة وصف دوس سانتوس أحدها بأنه «بالغ الضخامة»[96].

بعد أن فقد مير علي قوادسه ومدافعه، لجأ ببقية رجاله مع المومباساويين إلى داخل الجزيرة. ولأن البرتغاليين لم يشاءوا أن يتركوا سفنهم ويواجهوا القرصان على اليابسة، فقد تلا ذلك بضعة أيام من المفاوضات غير الحاسمة. وأخيرا جاء مبعوث من زعيم الزيمبا لتومي دي سوزا كونتينيو أعلن تضامنه مع البرتغاليين وطلب الإذن بالعبور للجزيرة ومواجهة العثمانيين والمومباساويين وجها لوجه. رأى الكابتن البرتغالي عديم الرحمة في ذلك فرصة للتخلص من مير علي من دون المخاطرة برجاله، ولذلك وافق فورا، لكنه أمر بإرسال زوارق من أسطوله إلى الشاطئ لالتقاط العثمانيين وحلفائهم المومباساويين عندما يضطرهم الزيمبا إلى الخروج.

إذا صدقنا نسخة جواو دوس سانتوس للأحداث، فإن بحّارة الزوارق البرتغالية الذين اتخذوا مواقعهم على طول الشاطئ سرعان ما وجدوا أنفسهم أمام مشهد لا يوصف، إذ أخذت حشود من أهالي الجزيرة المذعورين يندفعون جريا من داخل الجزيرة إلى الشاطئ طالبين النجدة باستماتة والزيمبا في أعقابهم. عمَّ الهلع الزوارق الصغيرة بعد أن امتلأت سريعا فوق سعتها وبدأت تنسحب بعيدا عن الشاطئ لتفادي الانقلاب والغرق بسبب كثرة طلاب النجاة. وعندما كان آخر هذه الزوارق على وشك المغادرة، ظهر مير علي فوق حصان والزيمبا في إثره وحوله وابل من سهامهم. دفع القرصان حصانه بأقصى سرعته واندفع بتهور في البحر ورمى نفسه نحو الزورق البرتغالي الذي انتشله في اللحظة الأخيرة. أنقذت الزوارق ثلاثين من رفاقه ونحو مائتين من المومباساويين، بينما تُرك عدد كبير للزيمبا. ومن أمان زوارقهم، شاهد المجدفون البرتغاليون العشرات من النساء والأطفال يقذفون بأنفسهم للموج يأسا - بتعبير دوس سانتوس - «مفضلين الغرق على مواجهة حديد البرابرة الذي لا يرحم»[97].

عندما أُخذ مير علي إلى سفينة الكابتن البرتغالي وهدأ روعه، هنأ نظيره البرتغالي قائلا: «لا ألوم حظي السيئ، لأنها طبيعة الحرب، وخير لي أن أكون أسيرا للمسيحيين، كما كنت من قبل في إسبانيا، على أن أكون طعاما لبرابرة الزيمبا المتوحشين»[98]. فعل الكابتن البرتغالي ما بوسعه لطمأنة مير علي بقول إنه اتخذ الاختيار الصحيح وإنه لم يعد هناك ما يثير قلقه. لكن من الواضح أن الأسوأ كان لايزال بانتظار مير علي وأغلب رفاقه، إذ حُكم على رجاله بالعمل عبيدا على قوادس دولة الهند، وظل كثيرون منهم في العبودية بقية حياتهم. أما الزعماء المحليون الذين ناصروا مير علي، ومنهم ملك لامو وعدد من وجهاء بيت وكيليفي البارزين، فقد جمعوا وأعدموا في مكان عام. ونهبت جزيرة ماندرا عقابا على تأييدها للقرصان(*)، وسُلّمت مومباسا بعد انسحاب الزيمبا إلى البر لعدوها اللدود - ماليندي - جائزة على ولائها للتاج البرتغالي.

أما مير علي، فقد أُخِذ مع الرياح الموسمية التالية إلى غوا، وهناك استقبله سيده الجديد - نائب الملك - الذي تحدث معه بلطف وحثه على «أن يطمئن ويثق بالله.

(*) أقرب اسم لجزيرة ماندرا Mandra حاليا هو ماندا Manda التي تشكل جزءا من أرخبيل لامو التابع حاليا لدولة كينيا. [المترجم].

فأنا أيضا كنت أسيرا ولـ[قراصنة] مليبار؛ وهم سادة أقسى من سيدك، وها أنت تراني بأم عينيك اليوم في موقعي هذا، وقد يحدث الشيء نفسه معك»[99]. رد القرصان بتودد: «سيدي، صحيح أنني صرت أسيرا، لكن لكوني أسير سعادتكم أعتبر نفسي سيدا عظيما»[100]. وبحسب دوس سانتوس، أُخذ مير علي إلى البرتغال، وهناك اعتنق المسيحية، «وبهذا الفعل شفى روحه من كل ما جناه جسده»[101].

على أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة إن كان اعتناقه المسيحية صادقا أم مجرد حيلة طلبا للرفق في المعاملة. لكن أيا كانت الحال، من الواضح أن ذلك لم يكسبه شفقة آسريه البرتغاليين، إذ تشير محفوظات أرشيفية من العام 1608 إلى أن مير علي الذي صار يعرف باسمه المسيحي فرنسيسكو جولياو Francisco Juliao ظل في الأسر حتى هذا التاريخ المتأخر(*)، إذ تُرِك الأسير يهزل في زنزانة برتغالية في قلعة سانت جولياو دا بارا S. Juliao da Barra[102].

الرسو العاثر للإمبراطورية الناعمة

يمكن قراءة حياة مير علي بك، من جوانب عدة، باعتبارها تاريخا مصغرا لعصر الاستكشاف العثماني. فمثل الإمبراطورية العثمانية ككل، كانت جاذبية مير علي عالية وشهرته واسعة في غرب المحيط الهندي، وبراعته الفنية بوصفه قائدا بحريا لا تضارع، وسجله العسكري ضد البرتغاليين طويل ومميز، وتخطيطه الاستراتيجي سليم، وقدرته على حث الولاء من الجماعات المسلمة واسعة الانتشار لا تقل تميزا.

مع تمتعه بهذه المزايا كلها، ما الذي كان يمكن أن يحدث لو كتب لمير علي وحلفائه الغلبة في مومباسا في العام 1589؟ لو نجحت الخطة العثمانية وكانت الهزيمة من نصيب تومي دي سوزا كونتينيو والأسطول البرتغالي، لنجح مير علي، على أقل تقدير، في

(*) كان من الممارسات الشائعة على جانبي خط الفصل الديني والحضاري في شمال البحر الأبيض المتوسط وغربه المسيحيين وجنوبه وشرقه الإسلاميين أن يُعطى الشخص الذي يترك دينه - طوعا أو كرها - اسما يتماشى مع دينه الجديد، سواء حدث ذلك عبر ممارسات التعميد المسيحية أو إشهار الإسلام. مُورس ذلك على نطاق واسع بحق المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط ممالكها المسلمة التي كان احتفاظ المسلمين المُنَصَّرين فيها (الذين عرفوا باسم الموريسكيين) بأسمائهم العربية الإسلامية دليلا على ممارستهم الإسلام سرا في نظر محكمة التفتيش، ومورس في المقابل بحق العبيد الأوروبيين - إلى جانب ختان الرجال منهم أيا كانت أعمارهم - في حظائر العبيد baño في الجزائر في أثناء فورة عمليات الجهاد البحري [القرصنة] العثمانية ضد السفن والبلدات الساحلية الأوروبية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر. راجع كتاب «الدين والدم». [المترجم].

فرض الاستسلام على ماليندي، وهي الحليف المحلي الأخير للبرتغال، وأخضع من هناك كامل الساحل السواحلي. كان من شأن ذلك - بدوره - أن يمكّن حسن باشا من أن يقدم للسلطان مراد الثالث أدلة دامغة على مزايا استمرار التوسع في المحيط الهندي، وأن يسكت الأصوات المعارضة، وأن يؤمّن - أخيرا - تدفق الدعم المادي لمواصلة الحملات في الجنوب. ومع الوقت، ربما كان يمكن للعثمانيين أن يمدوا سلطتهم حتى نهر الزمبيزي (أو «مناجم كواما» بلغة المصادر البرتغالية)، ويسيطروا على التجارة المربحة في الذهب والعاج والعبيد من الداخل الأفريقي، ويحرموا البرتغاليين من هذا المصدر المهم للدخل. وبعد أن أُضْعِف البرتغاليون إلى هذا الحد - جدلا - يبقى السؤال مفتوحا عما إذا كان سيظل في مقدورهم أن يحتفظوا بالسيطرة على موزمبيق، ويبقى من غير المؤكد بدرجة أكبر إن كانوا سيتمكنون من مواجهة التحدي التالي من الهولنديين خلال القرن التالي. باختصار، في ظروف مختلفة بعض الشيء، كان يمكن لحملة مير علي على الساحل السواحلي أن تكتب كلمة النهاية لآسيا البرتغالية وتكون فاتحة حقبة جديدة تماما من السيادة العثمانية في شرق أفريقيا.

إن كان شيء من ذلك لم يحدث، فإنه لا يرجع فقط إلى تدخل الزيمبا الضاري الذي جاء في وقت قاتل، بل يرجع أيضا إلى عيوب بنيوية بعينها اشتركت فيها حملة مير علي مع الإمبراطورية العثمانية برمتها. أولا وقبل كل شيء، شكّلت الجغرافيا الطبيعية قيدا هائلا على القرصان، هو الافتقار شبه الكامل إلى الخشب والموارد الاستراتيجية الأخرى في ولايات المحيط الهندي العثمانية القاحلة، ما تركهم في عوز مزمن للسفن والرجال والمؤن. نظريا، كان لهذه المشكلة حل واضح، هو قناة تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، كان من شأنها أن تمكّن العثمانيين من حشد القوة الكاملة لأسطول البحر الأبيض المتوسط. لكن حتى لو كانت هذه القناة ممكنة من الناحية التقنية الصرفة، فإنها كانت مشروعا أبعد من قدرات القيادة العثمانية المنقسمة دائما التي لم تكرِّس نفسها بالكامل قط للمحيط الهندي بسبب مجموعة من الإلهاءات المحلية والاضطرابات الدولية المتواصلة.

لذلك كان مير علي مضطرا إلى العمل في ظروف لم تترك له هامشا للخطأ. ولذلك كانت الخاتمة الدرامية لوقفته الأخيرة في مومباسا التي أخذته إلى هزيمته النهائية والحاسمة، نتيجة مباشرة للقيود البنيوية التي فرضتها عليه الجغرافيا والتقنية

والثقافة السياسية لرؤسائه. لا ريب أن الزيمبا أسهموا في سقوطه، لكن كسبب مباشر فقط. فكما كانت الحال مع الثورة الزيدية في العام 1567، أو موت الريس سفر المفاجئ في العام 1565، أو اغتيال الريس سلمان في العام 1528، أثبت تدخل الزيمبا أنه حاسم لأن العثمانيين كانوا يعملون بأقصى طاقاتهم المادية والطبيعية والبشرية.

ومع أن مقامرة مير علي فشلت، فإنها لم تكن بحال من الأحوال سوء تقدير(*). فبعد هزيمته وأسره، أظهر البرتغاليون تقديرهم الكامل له من خلال تبني استراتيجيته: الاعتراف بأن مومباسا وليس ماليندي الموقع الأهم استراتيجيا على الساحل، وبناء قلعة مهيبة في الموقع نفسه الذي بنى فيه مير علي برجه المحصن، وهو البناء الذي لايزال حتى اليوم واحدا من أكثر معالم مومباسا المميزة[103]. وبمجرد أن اكتمل بناء هذه القلعة التي سميت فورت جيزوس Fort Jesus في العام 1596 الشكل (2-6)، أصبحت المقر الجديد لإدارة استعمارية مجددة حكمت المنطقة معظم القرن التالي[104].



الشكل (2 - 6): منظر من أوائل القرن السابع عشر لجزيرة مومباسا يهيمن عليها حصن فورت جيزوس.
المصدر: Antonio Bocarro, Livro das plantas de todas as fortalezas, cidades e povoacoens do Estado da India Oriental, Evora, Biblioteca Publica, Codice CXV/2 - 1.

(*) لا شك في أن قرار بناء قاعدة متقدمة في مومباسا بهذه القوة الضئيلة كان سوء تقدير بيّن وقع فيه حسن باشا ومير علي بك في المقام الأول بسبب النجاح السهل لحملة مير علي الأولى. فإن كان مير علي قد حقق هذا النجاح ونال ذلك الدعم من أهالي المنطقة المسلمين ولم يواجه معارضة برتغالية تذكر خلال حملته الأولى التي خرجت أصلا بسفينة واحدة وثمانين رجلا، فإنه بخمس سفن وثلاثمائة رجل - هكذا ظنا - كان باستطاعته إنجاز ذلك الهدف الاستراتيجي. ولا شك أيضا في أن مناشدات مسلمي المنطقة لمير علي وسفارتهم لحسن باشا في اليمن قد عجلت بهذه الحملة. [المترجم].

وخارج شرق أفريقيا، كانت معركة مومباسا في العام 1589 كلمة النهاية لسياسة القوة البرتغالية في غرب المحيط الهندي، إذ أثبتت الأحداث اللاحقة أن البرتغاليين، بعد أن خضعوا للحكم الإسباني، فقدوا الشهية لأي مواجهة أخرى مع العثمانيين، على الرغم من انتصارهم على مير علي. فكانت حملة روي غونسالفيس دا كامارا على البحر الأحمر في العام 1586 الأخيرة من نوعها، ما أثبت قطعا عبثية مقولة «إيقاظ الكلب العثماني النائم»(*). ومنذ ذلك الحين فصاعدا، تبنت دولة الهند نظاما عمليا لفرض الضرائب على التجارة، كانت الدولة بمقتضاه تصدر قراطيس رسمية لأي شخص مستعد لدفع ثمن الامتياز، بغض النظر عن انتمائه الديني أو السياسي[105]. فمن منظور غوا، فقدت التجارة في المحيط الهندي مغزاها الأيديولوجي بوصفه سلاحا في الصراع بين المسيحية والإسلام. وفي معركة مومباسا، وصلت حملة البرتغال للسيطرة على التجارة خلال البحر الأحمر، والتي دامت قرنا، إلى نهايتها أخيرا(**).

(*) بمعنى أن حملة دا كامارا لم تكن محرضا لصراع طويل أو متاعب متطاولة كما في المثل الإنجليزي let sleeping dogs lie الذي يعني حرفيا «دع الكلاب النائمة ترقد بسلام» (أو «دع الفتنة نائمة») ويشير مجازا إلى تسبب المرء في إطلاق سلسلة أحداث لا يستطيع إيقافها أو إعادة الموقف إلى ما كان عليه قبل تدخله. فعلى خلاف ذلك المثل الذي قرّع به بحّار حبشي الكابتن دا كامارا بعد حملته الفاشلة، لم يرد العثمانيون على الحملة بالقوة الواجبة ولم يستثمر البرتغاليون انتصارهم على مير علي بك، إذ من الواضح أن الطرفين كانا قد فقدا الرغبة في مواصلة الصراع. [المترجم].

(**) بالاستفادة من ميزة إدراك الأحداث بعد انقضائها، يمكن القول إنه لو كرس العثمانيون للساحل السواحلي نصف ما كرسوه للاستيلاء على ديو أو هرمز أو لدعم كجرات وآتشيه، لتمكنوا بسهولة من تأسيس وجود دائم لهم هناك، ولقطعوا طريق البرتغال إلى مستعمراتها. وبعد أن تداركوا هذا الخطأ الاستراتيجي الفادح وأدركوا أنهم كانوا يحاربون في المكان الخطأ، كانت الدولة العثمانية - داخليا وخارجيا - في وضع لا يمكنها من تخصيص الموارد التي سبق أن خصصتها للمنطقة في زمن إبراهيم باشا البرغي ورستم باشا وعلي باشا سميز ومحمد باشا صوكولو، فضلا عن افتقارها إلى هذا النوع من رجال الدولة ذوي العزيمة والرؤية. ومما يؤكد فكرة الكتاب أيضا، فإن وصول العثمانيين إلى المحيط الهندي لو كان يستهدف ضم الأقاليم فقط في حسبانهم «دولة برية»، لكان شرق أفريقيا والساحل السواحلي أسهل لهم. لكن أعينهم كانت على طريق التجارة من جزر الهند إلى البحر الأحمر وعلى كسر الهيمنة البرتغالية على البحر. [المترجم].

7

موت السياسة

كانت فترة أوائل القرن السابع عشر سنوات ثراء وازدهار وقوة غير مسبوقة لسلطنة آتشيه الجزيرية التي تمتعت لأجيال بصلات مع إسطنبول أوثق من أي دولة أخرى في آسيا البحرية. خلال العقود السابقة ظل حكام آتشيه الواقعة في مكان استراتيجي - وإن كان محفوفا بالمخاطر - على طريق التجارة الرئيس بين جنوب شرق آسيا وبحر العرب، حلفاء موالين للعثمانيين، لكنهم كانوا متواضعين إلى حد طلب إلحاق بلادهم طوعا بالسلطان العثماني في عنفوان إمبراطورية محمد صوكولو الناعمة. لكن بعد أن فاضت خزانة الدولة بفضل الوفرة التي أحدثتها التجارة عبر المحيط، تحولت آتشيه ذاتها إلى قوة إمبريالية.

«إن نهاية عصر الاستكشاف العثماني كانت - تماما مثل بدايته - قصة تدحض التفسيرات القياسية للتاريخ العثماني»

فبفضل العزيمة الصلبة لسلطانها المتوج حديثا إسكندر مودا Iskandar Muda (حكم 1607 - 1636)، حشدت آتشيه بداية من العام 1607 أسطولا هائلا من مئات السفن وجيشا قويا ضم وحدة فيلة ذائعة الصيت وترسانة من الأسلحة النارية تباهت في أوجها بأكثر من ألفي مدفع. باستخدام هذه الماكينة العسكرية القوية، وسع إسكندر حكمه بانتظام إلى معظم سومطرة والكثير من الجزر المجاورة، وحتى إلى مراكز متقدمة على البر الماليزي. ومع تعاظم هيبته، وبغرض إضفاء وجه عام لائق على مكانته الصاعدة بوصفه باني إمبراطورية، أحاط السلطان الشاب نفسه وبيته بطقوس رفيعة من طقوس الدولة، وكان هذا في الأغلب من خلال تبني ممارسات وإيماءات رمزية للسلطة مأخوذة عن البلاط العثماني[1].

على أن حاكم آتشيه الجديد، وإن ظل ينظر إلى إسطنبول باعتبارها نموذج الهيبة والمكانة والقوة الإمبراطورية، فإنه بحلول أوائل القرن السابع عشر لم يعد هناك ما يجعله يعتبر دولته جزءا من عالم سياسي أكبر يهيمن عليه العثمانيون. وعلى خلاف ذلك تماما كانت ذرائع إسكندر مودا لنيل المكانة الإمبراطورية في معظمها استجابة مباشرة للتراجع السريع للوجود السياسي العثماني في جنوب شرق آسيا.

يتجلى ذلك صراحة في «حكاية آتشيه» Hikajat Atjeh، وهو كتاب من نوع السيرة كُتب باللغة الملايوية تمجيدا لإسكندر مودا بالقرب من نهاية حكمه في العام 1636. من بين الحكايات الكثيرة عن حياة السلطان المبكرة المذكورة في الكتاب، توجد حادثة تكشف صراحة عن تغير علاقة إسطنبول مع هذا الركن البعيد من المحيط الهندي. تذكر الحكاية أن سفارة برتغالية وصلت آتشيه في أوائل العقد الأخير من القرن السادس عشر عندما كان إسكندر لايزال صبيا. كان الغرض من الزيارة هو مطالبة جد إسكندر الذي كان السلطان الحاكم لآتشيه وقتذاك بأن يتخلى عن صداقته المعتادة للعثمانيين وأن يسلم البرتغاليين المعاقل البحرية التي تحكم وصول مدينته للبحر. وكبادرة لهذا التحالف الجديد قدم المبعوثون للسلطان فرس سباق ممتازة زعموا أنها الأسرع في البرتغال على الإطلاق، وتحدوه أن يسبقها بأي حصان في إسطبلاته «من مكة أو إسطنبول».

استخفافا بعرض المبعوثين وهديتهم، أخرج السلطان في الحال حصانا ممتازا أرسله له أخيرا «أخوه سلطان إسطنبول» تسابق به عدة مرات مع الفَرَس البرتغالية، وجاء السباق دائما في مصلحة الحصان البرتغالي. غضب أحد أتباع السلطان وطلب أن يركب الحصان البرتغالي، فقال المبعوثون إن البرتغاليين وحدهم يتحلون بالرجولة الكافية لركوب ذلك الحصان. وعندما أصر الرجل وركب الفرس، أوقعته على الأرض في الحال وفقد وعيه.

غضب السلطان من هذا المنظر المخزي، واستدعى حفيده لإنقاذ كرامته، وعلى الفور وافق إسكندر الصغير الذي كان في عمر العاشرة، لكنه طلب أولا إزالة السرج عن ظهر الفرس، «لأنه بهذا السرج يستطيع الرضيع نفسه أن يركب الحصان». ثم ركب إسكندر الحصان وركض به بسهولة حول المضمار، ما أحرج البرتغاليين ودفعهم إلى أن يحاولوا أن يفعلوا مثلما فعل. لكن بمجرد أن كان أحدهم يعتلي الفرس، كان ينكشف عجزه عن السيطرة عليها بلا سرج ويقع فورا على الأرض. ونتيجة لهذا الخزي العلني غادرت السفارة البرتغالية آتشيه فورا من دون أن تتجرأ على إعلان المزيد من المطالب[2].

مع أن هذه القصة مشكوك في صحتها، فإنها تكشف حقيقة تاريخية عميقة حول سنوات أفول عصر الاستكشاف العثماني. فجد إسكندر مودا اعتمد، مثل كل الحكام الآتشيهيين إبان أواخر القرن السادس عشر، على شراكة استراتيجية مع العثمانيين للحفاظ على سلطته وكبح التهديد البرتغالي. لكن بحلول أوائل القرن السابع عشر لم تعد هذه الاستراتيجية مجدية ولا مستحبة. فإذا أراد إسكندر الصغير بعدما بلغ سن النضج أن «يركب الحصان البرتغالي»، فقد كان لزاما عليه أن يفعل ذلك اعتمادا على موارده الذاتية ومن دون أن ينتظر مساعدة من إسطنبول البعيدة.

العالم الذي أوجدته التجارة

في جميع أنحاء آسيا البحرية كان اختفاء الحضور السياسي المرئي للإمبراطورية العثمانية جليا لا ينكر خلال العقود التالية للعام 1589. لكن كما يبيّن مثال آتشيه، كانت هذه العقود فترة ازدهار تجاري ورخاء غير مسبوق للكثير من الجماعات

المسلمة في جميع أنحاء المنطقة[3]. وبالمثل تمتع أفراد عصبة المحيط الهندي داخل الإمبراطورية العثمانية بـ «ثمار سلام» وفيرة خلال هذا العصر ما بعد الأيديولوجي(*)، مع أن وجودهم انتهى بوصفه جماعة سياسية متماسكة.

قام هذا التحول من العمل الحكومي إلى العمل الفردي الحر على توافر شرطين: خارجيا، زوال التهديد البرتغالي للمرور البحري خلال البحر الأحمر والخليج العربي، وداخليا، تحلل النظام الذي شيّده محمد باشا صوكولو بعناية للسيطرة على تجارة التوابل. أُنجز الشرط الأول - للمفارقة - بسبب فشل حملة مير علي في العام 1589، بينما تحقق الشرط الثاني تدريجيا بداية من العقد الثامن من القرن السادس عشر على الأقل. وللمفارقة أيضا، لعب أنصار صوكولو من عصبة المحيط الهندي الدور الأكبر في إنهاء النظام التجاري الذي وضعه الباشا.

كان خوجه سنان باشا المحسوب على صوكولو أحد الأبطال البارزين في هذه العملية، بعد أن أرسى سابقة الجمع بين العمل التجاري الخاص والواجبات الرسمية في أثناء مدة خدمته بوصفه واليا على مصر في أوائل العقد الثامن من القرن السادس عشر[4]. وبعد أشهر قليلة من إكمال خوجه سنان مدة ولايته الثانية لمصر، أصدر صوكولو في العام 1574 تعميما غاضبا يجدد حظر العمل التجاري على ممثلي الدولة في الولايات. شجب التعميم على وجه التحديد «الجور على حقوق طائفة التجار»؛ لأن «الوالي وأمين الخزانة والقضاة وغيرهم من المسؤولين الحكوميين يعملون بالتجارة»، ما يوحي بأن خوجه سنان عندما كان واليا على مصر لم يلوِ النظام لمصلحته فقط، بل غض الطرف أيضا عن اشتغال مرؤوسيه بالتجارة[5].

وبالنظر إلى الدور القيادي الذي قُدّر لخوجه سنان أن يمارسه في سياسة المحيط الهندي بعد موت محمد صوكولو، فإن تجاوزاته الجلية عندما كان راعيه لايزال في المنصب لم تكن تبشر بالخير لمستقبل احتكار التوابل العثماني. وبمجرد أن بدأ خوجه سنان باشا مدته الأولى في الصدارة العظمى في العام 1580، كان من أوائل أعماله السماح لحسن باشا والي اليمن ببيع جزء من التوابل الحكومية محليا بدلا من

(*) ثمار السلام peace dividend: شعار سياسي تبناه الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب ورئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر في أوائل العقد الأخير من القرن العشرين لوصف النفع الاقتصادي الناتج من تراجع الإنفاق العسكري. [المترجم].

إرسالها بسفينة التوابل السنوية إلى مصر. قُدم ذلك في حينه بوصفه إجراء طارئا، وبُرِّر بالحاجة إلى الدعم المالي للعمليات العثمانية في إريتريا[6]. وبعد سنتين أرخى خوجه سنان في العام 1582 قبضة السيطرة المركزية على تجارة التوابل بالسماح ببيع الحمولات المملوكة للدولة الواصلة إلى مصر للتجار الأوروبيين هناك مباشرة بدلا من الإصرار على إرسالها للبيع في إسطنبول[7].

أُبْعِد خوجه سنان عن المنصب بعد ذلك بقليل، لكن التآكل المطرد للنظام التجاري الذي وضعه صوكولو تواصل بلا هوادة ومن دون اعتبار على ما يبدو للعصبة الممسكة بزمام السلطة في إسطنبول. ففي العام 1584 على سبيل المثال وصلت الصدر الأعظم الجديد سياوش باشا Siyavush Pasha، الذي لم يكن مرتبطا بعصبة المحيط الهندي، شكاوى من أن التجار في البحر الأحمر بدأوا يتجاوزون جدة التي كانت محطة توقف إلزامية في ظل نظام محمد صوكولو، وأنهم صاروا يبحرون من المخا إلى السويس مباشرة. ومع أن سياوش باشا حظر هذه الممارسة فإنها استمرت، على ما يبدو، بتواطؤ علني من حسن باشا في اليمن[8]. وعندما طلب شريف مكة لاحقا، من باب التعويض عن الدخل المفقود من هذا العبور غير القانوني، أن يُسْمَح للسفن الآتية من الهند بأن تتجاوز اليمن وتبحر مباشرة إلى جدة، لم يجد سياوش باشا مفرا من تلبية طلبه[9].

فخلال سنوات قليلة من موت محمد صوكولو كانت عناصر رئيسة عدة من نظامه التجاري قد أهدرت. وعلى الرغم من وجود الكثير من العوامل المسببة لذلك، فإن الأول بينها كان الحماس الذي استثمر به كبار أفراد عصبة المحيط الهندي شخصيا في تجارة التوابل، وإغفالهم الملحوظ للفصل بين هذه الأعمال وأدوارهم بوصفهم مسؤولين في الدولة. كانت هذه الممارسات تحدث فعلا في العام 1589 الذي تعرض فيه مير علي بك للهزيمة والأسر في مومباسا. لكن عندما اتضح خلال السنوات التالية أن البرتغاليين لم يعودوا يشكلون تهديدا يذكر للتجارة خلال البحر الأحمر والخليج العربي، تلاشت الدعوات المتبقية للحفاظ على عناصر إمبراطورية صوكولو الناعمة. ومع اتساع النشاطات التجارية لأفراد عصبة المحيط الهندي وزيادة ربحيتها لاحقا لم تعد الدولة مهمة بوصفها ضامنا لهذه التجارة.

تقدم الحياة المهنية اللاحقة لبعض أبرز أفراد عصبة المحيط الهندي برهانا واضحا على هذه العملية. فخوجه سنان الذي لم يعد إلى منطقة المحيط الهندي بعد العام 1589 تمكن على الرغم من ذلك من زيادة ثروته الشخصية الضخمة التي نتجت في معظمها من تواصل أعماله التجارية في مصر والبحر الأحمر، ما جعل حياته السياسية أطول من حياة منافسيه السياسيين وجعله يستعيد الصدارة العظمى أربع مرات أخرى خلال العقد الأخير من القرن السادس عشر. وبالمثل، يرجع البقاء الطويل لحسن باشا في السلطة، الذي ظل واليا لليمن خمس عشرة سنة بعد أحداث العام 1589، إلى تجارته الخاصة المربحة في التوابل التي نفذها مع شبكة واسعة من الشركاء التجاريين المتنفذين، منهم القنصل الفرنسي في القاهرة[10]. كان نجاح حسن نموذجا لولاة اليمن اللاحقين وغيرهم من المسؤولين في مصر وإريتريا وجدة الذين استغلوا مناصبهم عادة لإغواء التجار وجمع رأس المال والشراء الآجل، ما أعطاهم ميزة شخصية كبيرة[11]. وأخذوا شيئا فشيئا يوسعون أعمالهم التجارية إلى سوق القهوة الناشئ، تلك السلعة الجديدة التي كان عليها طلب دولي مزدهر ولم تكن تزرع إلا في اليمن والقرن الأفريقي[12]. كتب مراقبون هولنديون إبان العقد الثاني من القرن السابع عشر أن الباشاوات كانوا يأتون اليمن من إسطنبول فقراء ويرجعون دائما أثرياء[13]. على أن شيئا من هذا النشاط لم يترجم إلى مبادرات سياسية أو عسكرية جديدة أبعد من حدود البحر الأحمر. فبازدهار أفراد عصبة المحيط الهندي، لم تعد هناك حاجة إلى العصبة ذاتها.

شهدت هذه السنوات توطد عائلات تجارية قوية وسّعت تجارتها في عصر تميز بالازدهار التجاري. كانت من أوسع هذه العائلات صيتا اثنتان أقامتا في القاهرة، هما آل أبي طاقية وآل يغمور اللتان بدأ أفرادهما يبرزون بقوة في سجلات المحاكم الشرعية المصرية المتبقية بداية من العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر، وتوسعت أعمالهم خلال العقود التالية(*). وبحلول نهاية القرن كانت لهم

(*) من بين آل أبي طاقية Abu Taqiyya، شغل إسماعيل منصب شاهبندر تجار القاهرة، الذي اتخذت نللي حنا Nelly Hanna منه نموذجا لازدهار اقتصاد مصر في أثناء الحكم العثماني، تحديدا في فترة أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وإثبات أن مصر شهدت خلال هذه الفترة رأسمالية أسبق على ظهور الرأسمالية الغربية. عرضت المؤلفة أيضا نماذج أخرى لعائلات تجارية قاهرية ثرية، منهم آل يغمور Yagmur وآل الشجاعي وآل الذهبي وآل العاصي وآل البرديني وغيرهم (نللي حنا، «تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبي طاقية شاهبندر التجار»، ترجمة رؤوف عباس، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997). [المترجم].

مكانة مهيمنة في الكثير من جوانب تجارة الهند، وكانوا عادة يدخلون في شراكات كبرى مع أفراد عصبة المحيط الهندي. ومما لا يخلو من دلالة أنهم عندما أخذوا يتعاملون بكميات ضخمة من التوابل والقهوة وغيرهما من السلع، بدأوا يتولون نيابة عن الدولة الدور الرئيس المتمثل في صيانة البنية التحتية للتجارة في مصر والبحر الأحمر من خلال التبرع للخانات والمستودعات وغيرهما من المرافق التجارية ذات النفع العام[14].

لذلك تبرز العقود الأخيرة من القرن السادس عشر ضمن التاريخ الأكبر لعصر الاستكشاف العثماني بوصفها فترة تنطوي على مفارقة. فبداية من العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر أحدث نجاح سياسات محمد صوكولو تآكلا مطردا للقوة البرتغالية في البحر وصعودا مقابلا للتجارة خلال الموانئ العثمانية. وتأتي المفارقة من أنه نتيجة للنجاح الجلي لهذه الاستراتيجية، أخذت التجارة تنمو إلى حد تعذر معه الحفاظ على نظام صوكولو للسيطرة عليها وجعل هذا النظام غير ضروري. أدى ذلك - بدوره - إلى تحلل احتكار التوابل الذي فرضه صوكولو باشا وإلى النهاية القطعية لرؤيته للإمبراطورية الناعمة في المحيط الهندي.

معنى ذلك أن علاقة الإمبراطورية بالمنطقة أصبحت أغنى وأعمق وأقوى من أي وقت مضى. فإبان العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر تواصل نمو عبور التجار والحجاج المتجهين إلى البحر الأحمر، واتسعت العلاقات التجارية العثمانية تدريجيا إلى مناطق أبعد في المحيط الهندي، لاسيما خليج البنغال الذي تأسست فيه أولى الصلات البحرية المنتظمة بين الموانئ العثمانية ومركزي التجارة المهمين بيغو وماسوليباتنام(*)[15]. وفي غرب المحيط الهندي الذي بلغ فيه عدد السفن التجارية وحجمها ذرى أعلى، انتشرت السفن الخاصة القادرة على حمل أكثر من ألف مسافر، وكانت ست على الأقل من هذه السفن تسافر سنويا بانتظام بين الهند وموانئ البحر الأحمر خلال العقد الأخير من القرن السادس عشر[16]. وزار وفد من التجار من مصر في العام 1602 بلاط الإمبراطور المُغالي أكبر الذي كان معاديا بشدة

(*) ماسوليباتنام Masulipatnam: مدينة على الساحل الجنوبي الشرقي للهند تعرف حاليا باسم ماتشيليباتنام Machilipatnam، كانت تعرف أيضا باسم ماسولا Masula وبندر Bandar، والاسم الأخير (يعني ميناء أو مرفأ في اللغة الفارسية) يعكس التأثير الإسلامي. [المترجم].

في السابق، وطلبوا عددا من الامتيازات التجارية للتجار العثمانيين في الموانئ التابعة للإمبراطور. من الواضح أن المخاوف السابقة من التهديد الذي شكّله أكبر لشرعية السلالة العثمانية كانت قد نسيت عند هذه النقطة[17].

على أن عددا من المراقبين العثمانيين المعاصرين لم يستسيغوا هذه التطورات ونتائجها، منهم المفكر المتزمت مصطفى علي Mustafa Ali الذي ألّف في العام 1581 نصا يرثي فيه المجتمع العثماني لما آل إليه في عصره من تردٍ وانحطاط، كان من أشد أعراضه ترويعا في الداخل العثماني أولئك «التجار الأغنياء الذين يقضون الليل كله حتى الصباح في إحصاء أموالهم التي لا تحصى مثل نجوم السماء... الذين يسافر شركاؤهم إلى الهند وما بعدها ويعودون بنفائس مختلفة يزيدون بها رأسمالهم باستمرار»(*)[18]. وأضاف مصطفى علي أن «من يخيل إليك أنهم يعيشون في فقر وعوز» في مدن مثل القاهرة وحلب ودمشق «يعملون بالتجارة مع بلدان في بُعد الهند»[19].

كان من هؤلاء التجار رجل دمشقي يدعى ابن الكركي Ibn Kereki، مر بحلب في طريق عودته إلى دمشق من رحلة إلى الهند دامت عشر سنوات. كان مصطفى علي مقيما في حلب عندما مر بها ابن الكركي الذي يبدو أنه ترك انطباعا عميقا في المؤلف الذي كتب أن ابن الكركي في أثناء رحلته «اشترى برأسماله سلعا كثيرة وحقق أرباحا لا تحصى» ولدى عودته إلى مدينته الأم كان «معه خمسمائة بعير، جميعها محملة بالسلع، وبلغ عدد الحمّالين وسائقي البعير وحدهم ثلاثمائة رجل»، وكانت حاشيته وقافلة أمتعته ضخمة إلى حد أنه استأجر خانا كاملا لإيوائهم، وهي معلومة شك فيها المؤلف لغرابتها لدى سماعها، ما دفعه إلى التحقق منها بعينيه[20].

لم يكن مصطفى علي بوصفه مؤيدا عنيدا للدولة يَكِنّ غير الاحتقار لأمثال ابن الكركي، إذ اتهم هذه الطبقة الجديدة من التجار بالتهرب من مسؤوليتهم تجاه الخزانة العثمانية، وتذمر من أن «الفقراء يتكبدون مشاق الفقر والعوز في حين يرفل هؤلاء البلهاء الأغنياء في الأبهة والنعيم»[21]. على أن كتابات مصطفى علي بتعبيرها عن هذه الهواجس لا تؤكد إلا الانطباع بأن تجارة العثمانيين سريعة النمو

(*) مصطفى علي هو صاحب الأبيات التي صُدّر بها الكتاب التي يعيب فيها على المجتمع العثماني في عصره تعاظم شأن صغار الناس ونمو ثرائهم بسبب التجارة. [المترجم].

مع آسيا البحرية تجاوزت خلال العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر قدرة الدولة على السيطرة عليها، وغدت في أثناء ذلك محركا لتحولات اجتماعية اقتصادية جلية داخل الإمبراطورية.

الاستكشاف العثماني بعد موت السياسة

في عصر بالوصف الذي قدمه مصطفى علي، غدت فيه كفة التجار أرجح من الوزراء، وتراجعت فيه مؤسسات الدولة أمام طوفان التجارة، ما النتائج التي طالت المكون الفكري لعصر الاستكشاف العثماني؟ كما في العقود السابقة من القرن السادس عشر ظلت الرعاية السياسية من جانب أفراد عصبة المحيط الهندي تشكل حافزا مهما لجمع المعلومات حول عالم آسيا البحرية وتحليلها ونشرها. لكن بداية من العقد السابع من القرن السادس عشر أدى التزايد المطرد في حجم التجارة مع جزر الهند الشرقية إلى إيجاد دائرة جديدة من الجماعات الاجتماعية العثمانية كانت لها مصالح مباشرة في اقتصاد المحيط الهندي وجغرافيته وتاريخه، وهي العملية التي تسارعت على امتداد بقية القرن. لذلك بدأ أدب الاستكشاف العثماني خلال هذه السنوات يتميز بالحيوية والدفع الذاتي إلى حد لا تسعه أوسع التحليلات السياسية تفصيلا.

على أنه في زمان ومكان لم توجد فيهما صناعة طباعة، ولا مكتبات خاصة بقيت مجموعاتها لعصرنا، ولا إحصاءات صلبة عن انتشار القراءة والكتابة وسوق الكتب، يصعُب التحقق من الارتباط الدقيق بين هذا الاتجاه الفكري وطلب السوق بين جمهور القراء العثماني الأوسع بكل أطيافه. لكن هناك أدلة كافية في السجل التاريخي الباقي تؤكد حدوث زيادة كبيرة في إنتاج أدب الاستكشاف العثماني خلال العقود الأخيرة من القرن السادس عشر، من حيث تنوع النصوص المنتجة وأعدادها. كما توجد إشارات كافية، بعضها تقدمه هذه النصوص عينها، توحي بأن ذلك كان النتيجة المباشرة لتنامي الشهية الشعبية للجغرافيا ورسم الخرائط بين الدوائر المتعلمة العثمانية.

تعد الإتاحة المتزايدة للأعمال الجغرافية التي أُنتِجت في الأصل خلال فترات أسبق بفضل الرعاية الإمبراطورية، أحد المؤشرات القابلة للقياس على هذا الطلب

الناشئ. من ذلك مثلا أن «كتاب البحرية» الذي أهداه الريس بيري للسلطان سليمان في العام 1526 ظل مخطوطة وحيدة حتى العام 1550، ولا توجد أدلة قبل ذلك التاريخ على أنه غادر البلاط أو رجع إليه أي شخص خارج دائرة المستشارين الأقرب للسلطان. لكن بين العام 1560 ونهاية القرن نُسِخ هذا العمل وانتشر بأعداد كبيرة، وبقيت منه إلى يومنا خمس عشرة نسخة على الأقل تؤرخ لهذه الفترة[22]. يشكل هذا العدد - بلا شك - نسبة صغيرة من عدد النسخ الإجمالي الذي انتشر في ذلك الوقت، وهو عدد لا يمكننا إلا تخمين أنه ربما بلغ المئات[23]. بلغ الإنتاج من هذا النوع حجما لا يمكن تفسيره إلا بنمو الطلب على الكتب بين الشريحة المتعلمة من السكان، لاسيما بالنظر إلى التكلفة الهائلة للنسخ اليدوي لعمل يحوي عشرات الخرائط المزودة بصور متعددة الألوان. لكن على الرغم من هذه التكلفة التعجيزية، نجحت رائعة الريس بيري في أن تكون أحد الكتب الأكثر رواجا بمعايير المخطوطات العثمانية المعاصرة. ومما لا يخلو من دلالة أن الكتاب لم يبلغ هذا الرواج خلال حياة مؤلفه، بل خلال سنوات ازدهار التجارة إبان أواخر القرن السادس عشر.

يمكن التوصل إلى استنتاجات مماثلة من مؤشر تقريبي آخر لرواج النصوص الجغرافية بين مستهلكي الكتب العثمانيين، هو معدل ترجمة الأعمال التي أُلِّفت في الأصل باللغة العربية إلى اللغة التركية، ما جعلها بالتالي متاحة لشريحة من القراء أكبر وأكثر تنوعا. ومما يدعو إلى الدهشة أنه لم تظهر ترجمات باللغة التركية للأعمال الجغرافية العربية قبل العقد السادس من القرن السادس عشر[24]. لكن فيما بعد بدأت تظهر نسخ تركية لعدة نصوص جغرافية عربية رئيسة، منها أعمال معيارية مثل كتاب الإصطرخي «مسالك الممالك» وكتاب ابن زنبل «قانون الدنيا» Ḳānūnu'd-Dunyā. وكما هي الحال مع «كتاب البحرية»، توجد من هذين الكتابين نسخ كثيرة ترجع إلى هذه الفترة، ما يكشف عن انتشارهما انتشارا واسعا نسبيا[25].

ومما لا يقل أهمية عما سبق أن هذه العقود شهدت تأليف الأعمال التجميعية الأولى لمؤلفين عثمانيين كانوا ملمين جيدا بعلم الجغرافيين العرب، لكنهم أرادوا إعادة تقديم هذه المعلومات بطريقة أكثر صلة وأسهل فهما لجمهور القراء العثماني المعاصر. يعد «كتاب المحيط» Kitabul-Muhit الذي أكمله الريس سيدي علي في العام 1562 مثالا مبكرا لهذا النوع من الكتابة. كما هي الحال مع كتابه الأشهر «مرآة

الممالك»، استلهم سيدي علي «كتاب المحيط» من رحلاته في الهند، لكن على خلاف العمل السابق كان الكتاب الأخير خاليا من أي مضامين سياسية صريحة، إذ أريد به بدلا من ذلك أن يكون دليلا فنيا للملاحة في المحيط الهندي تأسيسا على مزيج من خبرات سيدي علي الشخصية في البحر ومحادثاته مع بحّارة محليين في أثناء رحلته وعلى عدة نصوص عربية لم تكن معروفة في السابق للجمهور العثماني حول الإبحار في البحار الموسمية. أريد بهذا الكتاب، كما يوحي عنوانه، أن يكون نصا متمما لنص الريس بيري «كتاب البحرية» الذي كانت له قيمة عملية مماثلة للبحّارة في البحر الأبيض المتوسط. كان هذا الكتاب أيضا محاولة واضحة للتفوق العلمي ملائمة لعصر اتسعت فيه الآفاق العثمانية أبعد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط[26].

بعد تأليف «كتاب المحيط»، بدأ عدد كبير من الأعمال الأخرى في الظهور، اشتركت مع هذا الكتاب في الهدف الأساس المتمثل في نقل المعرفة الجغرافية العربية للقراء الناطقين باللغة التركية، لكنها جاءت مختلفة في النبرة والمحتوى والأسلوب بما يلائم تنوع الأذواق والاهتمامات. على أحد طرفي هذا الطيف يوجد كتاب محمود الخطيب الرومي Mahmud al-Hatib al-Rumi «نوادر الغريب وموارد العجيب» Nevādirul-Ġarāib ve Mevāridul-'Acāib الذي أكمل في العام 1563، وكان شيقا إلى حد جذب إليه جمهورا واسعا (توجد منه اليوم أكثر من اثنتي عشرة نسخة من أواخر القرن السادس عشر)[27]. وعلى الطرف الآخر للطيف يوجد كتاب محمد عاشق Mehmed Ashik «مناظير العوالم» Menāzirul-Avalim وهو مجلد ضخم يزيد على ألف صفحة يقدم لقرائه الناطقين باللغة التركية نقلا دقيقا ومميزا للعلم الجغرافي العربي. لذلك ظل هذا الكتاب الذي أكمل في العام 1597 مرجعا قياسيا طوال القرن السابع عشر[28].

يأتي بين الأمثلة الرائعة لهذه الكتابة الجغرافية الآخذة في التطور كتاب «أوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك» الذي يضم قائمة مراجع رائعة من المؤلفين العرب الكلاسيكيين، لكنه افترق عن هذه النماذج الكلاسيكية في عدة نواحٍ. وشملت التجديدات الكثيرة في هذا الكتاب أقساما موسعة عن مناطق الدولة العثمانية ذاتها، ومعلومات مُحَدَّثة حول المحيط الهندي، وفصلا موجزا عن اكتشاف العالم الجديد. كما يقدم الكتاب خرائط تخطيطية كثيرة للمدن والأنهار والجزر وسلاسل

الجبال بطريقة لم ترد في أي من المصادر التي رجع إليها المؤلف، فضلا على خريطة أصلية للعالم تصوِّر نصفي الكرة الأرضية الشرقي والغربي[29].

إن مما لا يخلو من دلالة هو أن محمد سباهي زاده كتب نسختين منفصلتين من كتابه «أوضح المسالك»، كُتبت الأولى باللغة العربية إبان العقد السادس من القرن السادس عشر للقراء المتبحرين، وأُكملت الثانية في العام 1573 بوصفها ترجمة تركية مختصرة ومنقحة للنسخة الأولى. جاءت النسخة التركية من الكتاب في قطع صغير في حجم الجيب تقريبا، وكُتبت بأسلوب ميسور الفهم، وشملت هوامش ووفرت فراغا يسمح للقراء بتدوين ملاحظاتهم وإضافاتهم للمادة. بهذه النسخة الميسرة أصبح كتاب «أوضح المسالك» عملا عمليا وميسورا للقراء وللسوق، أريد به بالدرجة الأولى أن يكون سهلا وقابلا للحمل وحديثا[30].

ثمة مؤلفون آخرون شاركوا سباهي زاده الرغبة في الكتابة لجمهور أوسع من المثقفين، لكنهم لم يشاركوه اهتمامه المعرفي المتبحر بالأسلاف العرب. كان من بين هؤلاء الجغرافي صيفي جلبي Seyfi Chelebi الذي أكمل في العام 1582 الجغرافيا التاريخية لآسيا تحت العنوان التفصيلي والكاشف «تاريخ ملوك بلاد الهند والسند وكاثاي وكشمير وإيران وكاشغر وخلموك والصين والكثير من الممالك الأخرى، منهم أحفاد جنكيز خان الأكبر وإمبراطور الصين وحكام هندوستان في زمن السلطان مراد بن السلطان سليم»(*)[31]. يحوي هذا الكتاب،

(*) كاثاي: كما ورد في حاشية سابقة اسم سابق للصين مستمد من اسم شعب الخيتاي الذي حكمها فترة، وبما أن مؤلف الكتاب صيفي جلبي قد جمع في عنوانه بين كاثاي والصين، فلا بد أنه يقصد بكاثاي شعب الخيتاي الذي عاش في شمال شرق منغوليا. يتأكد ذلك من العنوان العثماني للكتاب الذي ذكر Ḫitāy (خيتاي) جنبا إلى جنب مع Çin (الصين).

كاشغر Kashgar إحدى أشهر مدن تركستان الشرقية التي تسمى حاليا شينجيانغ أويغور أو سنجان (الصين)، شكلت مع سمرقند وطشقند وفرغانة وياركند فرعا لطريق الحرير القديم. [المترجم].

كانت خلموك Khalmuk (تعرف أكثر باسم كلميك Kalmyk) خانية مغولية غطت المنطقة التي تسمى كلميكيا Kalmykia، عاش فيها شعب بالاسم ذاته يشكل جزءا من الجماعات المغولية الغربية التي استوطنت منطقة ألتاي Altai بغرب منغوليا وتعرف باسم الأويرات Oirat. أغارت هذه الخانية لفترة على الحدود الجنوبية لروسيا، ثم اصطفت مع روسيا في الإغارة على الجماعات والممالك المسلمة في آسيا الوسطى وشمال القوقاز والقرم وعلى الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس، ضمتها روسيا في العام 1771، وتشكل اليوم جمهورية ضمن روسيا الاتحادية. [المترجم].

استخدم العرب والفرس اسم هندوستان Hindustan للإشارة إلى شمال الهند الذي يتطابق مع إقليم السند، والكلمة تعني بلاد السند، إذ إن المقطع الأول منها Hindu تحريف فارسي لاسم نهر السند Indus، ومن هذا التحريف أيضا جاءت كلمة «هندوسي» hindus. [المترجم].

المكتوب بلغة بسيطة والمنظم جغرافيا، عدة فصول تتعامل تحديدا مع التاريخ السياسي الأخير للهند وتقدم وصفا موجزا لأهم الحكام المعاصرين في شبه القارة الهندية وفي جزيرتي سيلان وسومطرة، إلى جانب أقسام منفصلة حول إيران والصين وآسيا الوسطى.

يشكل كتاب صيفي جلبي أهمية خاصة لأنه، على الرغم من أسلوبه العامي وغير العلمي، يخلو تماما من المحتوى الإثاري المميِّز لعلم الكون الذي طبع أدب «عجائب الخلق» إبان القرون الوسطى، إذ ركز بثبات على شؤون آسيا البحرية المعاصرة. يكشف هذا الكتاب بذلك عن نهم عام ناشئ للمعلومات الحديثة والقابلة للتحقق علميا حول العالم، وهي سمة شاركه فيها عمل رائج آخر هو كتاب مصطفى بن علي المواقيت «إعلام العباد في أعلام البلاد» I'lāmu'l-'Ibād fi A'lāmi'l-Bilād(*). يقدم هذا الكتاب الصغير المثير، الذي كُتب أصلا إبان عهد سليمان القانوني لكنه لم ينتشر على نطاق واسع إلا خلال العقود الأخيرة من القرن، قائمة بمائة مدينة مهمة بين المغرب والصين وإحداثياتها الجغرافية والمسافات التي تفصل كلا منها عن إسطنبول. يقدم المؤلف في مقدمة الكتاب وصفا ممتازا - وإن كان قصصيا - للمناخ الثقافي العام الذي انتشر فيه هذا العمل وأشباهه. جاء في هذه المقدمة:

> أصبح عدد الأيام والأشهر التي يستغرقها السفر بين إسطنبول ومدن العالم المختلفة محل جدل شائع بين عامة الناس، وحتى إن كان بعض ما قيل في هذا الموضوع صحيحا، فإن أغلبه غير صحيح؛ لأن بعض الناس يبالغون عن عمد في تقدير هذه المسافات، بينما يختزلها غيرهم[32].

وعلى ذلك فإن المؤلف - كما يقول - يستهدف وضع الأمور في نصابها في هذا الموضوع المهم للتناول العام المعاصر.

(*) مصطفى بن علي المواقيت Mustafa b. Ali al-Muvakkit: هو مصلح الدين مصطفى بن علي القسطنطيني الرومي الحنفي المواقيت، لُقب بالمواقيت لاشتغاله بعلم الميقات والفلك وتوليه التوقيت في جامع السلطان سليم ورئاسته للفلكيين. [المترجم].

الخرائط والسوق

تطور خرائط البورتولان العثمانية

من بين جميع المنتجات الفكرية الباقية من هذه المرحلة الأخيرة لعصر الاستكشاف العثماني، تقدم خرائط البورتولان بعض أخصب الأدلة لتقصي العلاقة بين التجارة والإنتاج الثقافي؛ وذلك لأن خرائط البورتولان التي استخدمت في الإمبراطورية العثمانية منذ منتصف القرن الخامس عشر، كانت ترسم كأدوات عملية للملاحة، ما يعني أن من كانوا ينتجونها ويستخدمونها كانوا أفرادا يشاركون بطريقة مباشرة في الممارسة اليومية للتجارة البحرية.

كان من نتائج هذه الوظيفة العملية لخرائط البورتولان أنها كانت مطالبة بأن تلتزم بعدد من الأعراف الفنية الصارمة، منها شبكة خطوط متقاطعة تسمى خطوط البوصلة(*) (ما يمكّن الملاحين من استخدام البوصلة ومسطرة لتخطيط مسارهم) وأماكن مسماة بدقة على فواصل صغيرة (ما يمكّن الملاحين من تحديد موقعهم بدقة لدى الوصول إلى أي يابسة). لذلك كانت خرائط البورتولان القياسية بالضرورة معيبة جغرافيا بشدة لأن خطوط البوصلة المستقيمة التي اعتمد عليها النظام الملاحي لم تكن مهيأة لتقوس الكرة الأرضية على خرائط المقياس الأكبر، وهو ما يفسر لماذا كانت خرائط البورتولان التقليدية - كقاعدة - لا تصور منطقة خارج البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والساحل الأطلسي لأوروبا إلا نادرا (انظر مثلا الشكل 2 - 1)[33].

كيف تعامل الرسامون العثمانيون الذين تدربوا على هذا الفن المعقد - وإن ظل محافظا - لصنع الخرائط مع تحدي توفيق فنهم مع المتطلبات الجديدة لعصر الاستكشاف؟ تتكشّف إحدى الإجابات المبكرة في خريطة الحاج أبي الحسن El Hajj Ebu'l - Hasan التي رسمت إبان العقد السادس من القرن السادس عشر وتحفظ اليوم في مكتبة سراي توبكابي (الشكل 1 - 7)[34]. بالمعاينة العادية يبدو هذا العمل خريطة بحرية تقليدية مكتوبة بالحروف العربية تظهر فيها كل الخصائص

(*) خطوط البوصلة ruhmb line (تسمى أيضا الخطوط الحلزونية) خطوط افتراضية على سطح الكرة الأرضية يقطع الواحد منها جميع دوائر الطول بزاوية ثابتة لا تتغير، تظهر على شكل خطوط حلزونية تتجه نحو القطبين ومقعرة في اتجاه القطب القريبة منه. [المترجم].

الأساسية لخرائط البورتولان القياسية، لكن الفحص الدقيق يكشف عن عدد من الافتراقات المفاجئة عن خرائط البورتولان التي ميّزت العقود السابقة. فمع أن البؤرة الرئيسة للخريطة هي حوض البحر الأبيض المتوسط، فإنها تضم في هامشها السفلي امتدادا أخرق للساحل الأفريقي حتى رأس الرجاء الصالح، وتشير بذلك إلى فتح طريق بحري إلى المحيط الهندي. وعلى نحو ملغز بعض الشيء، يحتفظ هذا الجزء الجنوبي من الخريطة بعدد من الأماكن المسماة التي تميز خرائط البورتولان، مع أن أغلب هذه الأسماء غير قابلة للتمييز وخيالية تماما. تجعل هذه التعديلات الخريطة عديمة القيمة بوصفها دليلا ملاحيًا، مع أن الملاحة كانت الوظيفة الأساسية لخرائط البورتولان القياسية. من الواضح - إذن - أن الغرض من افتراقات الحاج أبي الحسن التجديدية كان تعليميا لا عمليا، وهو أن تبيّن الخريطة بصريا انفتاح عالم البحر الأبيض المتوسط ووجود معرفة جغرافية جديدة (في هذه الحالة حول إمكانية الدوران حول أفريقيا) لا يمكن التعبير عنها على نحو كاف من خلال تقاليد خرائط البورتولان.

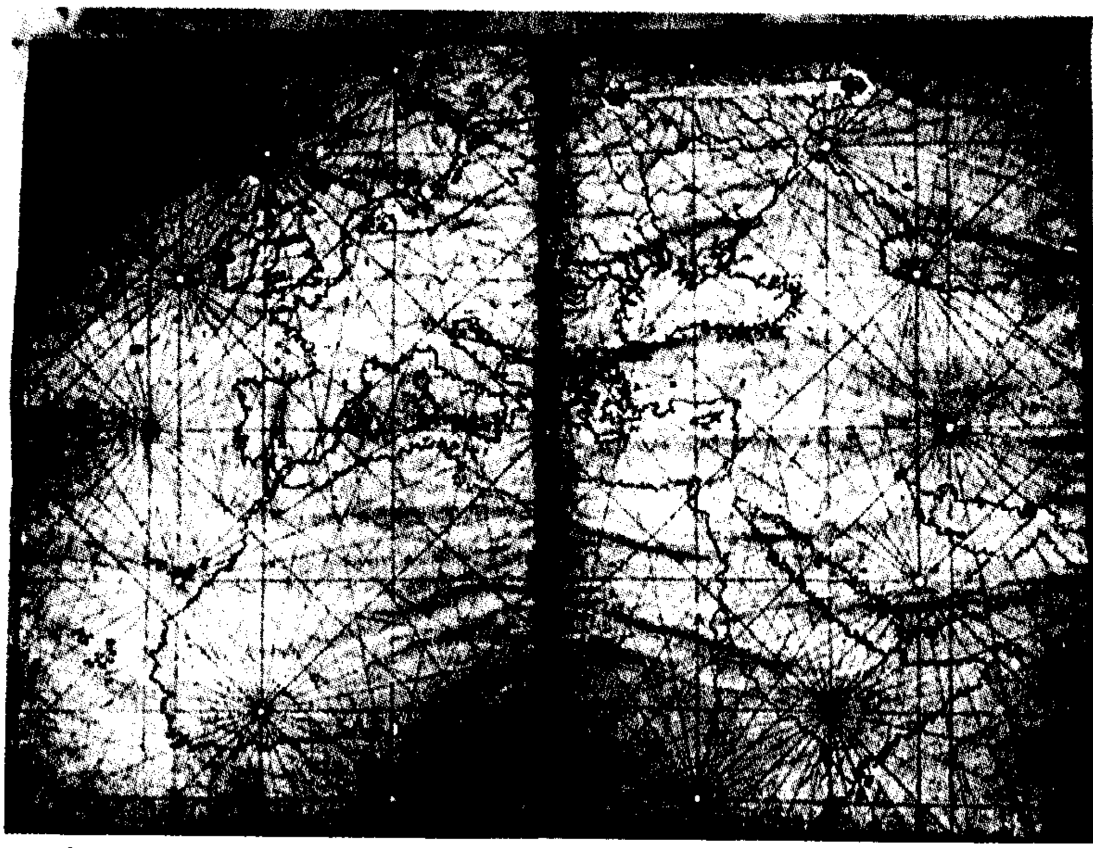
تعامل صنّاع الخرائط العثمانيون بلهفة خلال العقود اللاحقة مع التحدي الذي تَكشّف بوضوح في خريطة الحاج أبي الحسن بإيجاد طرق جديدة ومرنة شيئا فشيئا لاستخدام الخرائط لتمثيل العالم المعاصر. وبين العام 1560 ونهاية القرن أُنتِج عدد من الخرائط باللغة التركية أكبر مما أُنتِج خلال أي فترة سابقة من تاريخ الإمبراطورية، كان من بينها نوع جديد من الأطالس (أدخلت الكلمة إلى اللغة التركية العثمانية لأول مرة خلال هذه السنوات) بقيت منه عدة نماذج. تشترك هذه الأطالس بوصفها مجموعة في عدد مذهل من السمات؛ إذ من الواضح أنها جميعا صممت للملاحين وتحوي أشرطة ساحلية مرسومة بعناية لكن بلا معالم برية أو بالقليل منها، وتحوي جميعها مجموعة الخرائط نفسها للبحر الأسود ومناطق مختلفة من البحر الأبيض المتوسط والساحل الأطلسي لأوروبا، كل خريطة منها على صفحتين، وتفصح جميعها عن حرفية تتجلى في الجودة الفنية والجمالية المتماثلة[35]. تكشف هذه الخصائص المشتركة عن درجة كبيرة من التوحيد القياسي، ما يوحي بأن هذه المجلدات تعد النماذج القليلة الباقية لنوع شائع من الأطالس ربما كان ينتج بكميات كبيرة وفقا لقوالب قياسية.



الشكل (1 - 7) خريطة البورتولان للحاج أبي الحسن. المصدر:
Palace Museum Library, Istanbul, Hazine Ms. 1822

إلى جانب الخصائص المشتركة، يتفرد كل أطلس من هذه الأطالس بسمات تميزه عن غيره، تشير إلى التجريب المتواصل لفنيات صنع الخرائط، إذ يحوي كل أطلس خريطة أصلية واحدة أو اثنتين على الأقل، إلى جانب المجموعة المشتركة من خرائط البحر الأبيض المتوسط والأطلسي. من بين هذه الخرائط تمتلك خريطة من الأطلس الهمايوني Aṭlās - i Humāyūn (الشكل 2 - 7) الذي اكتُشِف أخيرا أهمية

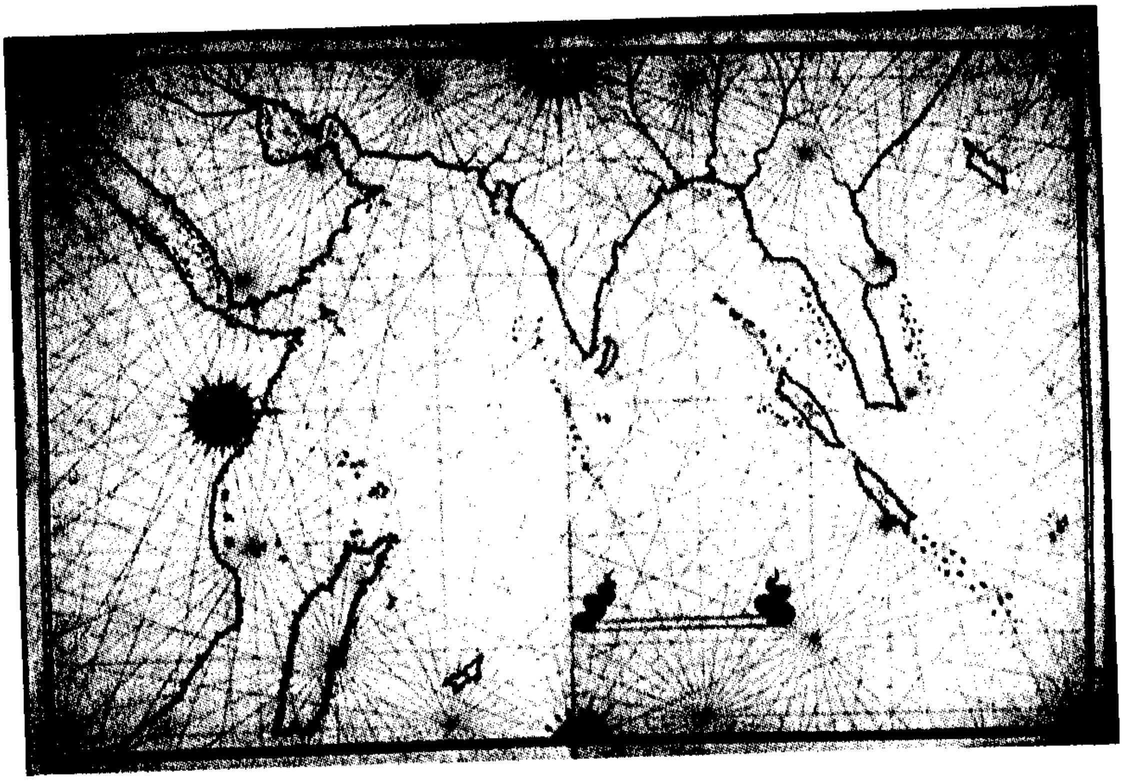
خاصة؛ لأنها تبيّن المنطقة الجغرافية نفسها التي تصورها خريطة البورتولان السابقة للحاج أبي الحسن[36]. لكن على خلاف خريطة أبي الحسن، لا تتقيد خريطة الأطلس الهمايوني - ولو ظاهريا - بتقاليد صنع خرائط البورتولان؛ إذ تخلت تماما عن كل من نظام تسمية الأماكن المرهق وخطوط البوصلة المقيِّدة التي تميز خرائط البورتولان، ما جعل هذه الخريطة تقدم صورة أشمل لما وراء عالم البحر الأبيض المتوسط، وتتجنب التشوهات المعقدة التي اضطر إليها الحاج أبو الحسن.



الشكل (2 - 7): خريطة من الأطلس الهمايوني. مع أن هذه الخريطة غير مؤرخة، يرجح أنها رُسمت خلال العقد الثامن من القرن السادس عشر. المصدر: Istanbul Archaeology Museum, Ms. 1621, fols. 9b-10a. Photograph by Başak Tolun

تشكل الأناقة البسيطة التي تتجلى في هذه الصورة سمة لكل الخرائط في هذا النوع من الأطالس، وقد نُسخت بدرجة أعلى من الحرفية في مجلد متأخر بعض الشيء هو «أطلس البحار» Deniz Aṭlāsı (الشكل 3 - 7)[37]. كما هي الحال في «الأطلس الهمايوني»، يضم «أطلس البحار» صورة واحدة على الأقل لا يُعْرَف نظير لها في الأطالس المعاصرة الأخرى، وهي خريطة على صفحة كاملة لحوض المحيط الهندي، لا البحر الأبيض المتوسط. تعد هذه الخريطة أقدم مثال عثماني معروف

يصور المحيط الهندي حصرا، لا جزءا من خريطة أكبر للعالم. يكشف وجود هذه الخريطة في أطلس مخصص للبحر الأبيض المتوسط وأوروبا عن الأهمية الخاصة التي بدأ هذا الجزء من العالم يمثلها في عقول قطاع من المستهلكين، وعن المرونة التي صار منتجو هذه الخرائط يستوعبون اهتماماتهم من خلالها.



الشكل (3 - 7): خريطة للمحيط الهندي من «أطلس البحار». مع أن هذا العمل غير مؤرخ، يرجح أنه أنتج في نحو العام 1580. المصدر: Walters Art Museum, Baltimore, W.660, fols. 2v-3r

التبادل مع الغرب

السوق العثماني للخرائط الأوروبية

إلى أي مدى تُرجمت هذه الاتجاهات إلى تزايد في الطلب على الخرائط الأوروبية، جنبا إلى جنب مع نمو الرغبة في منتجات عثمانية أصيلة؟ منذ وقت مبكر، تحديدا في العام 1481 الذي أعد فيه الإنساني الفلورنسي فرنسيسكو بيرلينغيري لمحمد الفاتح نسخة من كتابه الجغرافيا البطليموسية الذي نشره أخيرا، كان من الشائع نسبيا أن يحصل السلاطين وكبار رجال الدولة العثمانيون على خرائط غربية، إما بوصفها هدايا وإما بالشراء، وفي بعض الحالات بالسرقة[38]. على أن الإشارات على الطلب العثماني على الخرائط الأوروبية، الذي يستند إلى جذور اجتماعية اقتصادية

أوسع، لم تظهر إلا خلال العقود الأخيرة من القرن السادس عشر، ما يكشف عن اتساع الاهتمام بالإنتاج الأصيل للجغرافيا ورسم الخرائط.

يتجسد أحد الأدلة على هذا الاتجاه في الأطالس العثمانية التي نوقشت من فورها. ففي حالات كثيرة تتطابق خرائط الأطالس العثمانية مع النماذج المعاصرة المنتجة في إيطاليا، حتى إن دارسا حديثا واحدا على الأقل دفع بأنها ربما كانت من إنتاج ورش إيطالية ولم يضف إليها الرسامون العثمانيون لاحقا إلا أسماء الأماكن[39]. في حين يرى معظم المتخصصين أن هذه الأطالس أعمال أصيلة لرسامي خرائط عثمانيين محليين، وهي وجهة نظر يدعمها مؤلف القرن السابع عشر العثماني أوليا جلبي Euliya Chelebi الذي قدم وصفا تفصيليا لورش صنّاع الخرائط التي زارها في حي بيرا بإسطنبول(*)[40]. لكن ثمة تشابهات بين النوعين تكفي لتأكيد أن صنّاع الخرائط العثمانيين كانوا ملمين بأعمال معاصريهم في إيطاليا، ما يشي بأن الحصول على الخرائط الغربية أصبح ميسورا في السوق العثماني بحلول العقدين السابع والثامن من القرن السادس عشر.

ثمة تجلٍّ آخر ملموس لهذا التبادل عبر البحر الأبيض المتوسط يتمثل فيما يسمى ماباموندي حاجي أحمد التونسي Mappamundi of Tunuslu Hajji Ahmed، وهي خريطة للعالم على هيئة قلب أُنتجت في ورشة بندقية غير معلومة في العام 1559، وأول خريطة تطبع باللغة التركية. يكشف هذا العمل عن أعلى المعايير الفنية في عصره، وقد نُفذ أصلا كنقش خشبي على ستة ألواح من خشب التفاح من خريطة لرسام الخرائط أورونس فينيه (أستاذ الرياضيات في كلية كوليدج رويال دي فرانس Collège Royal de France حتى العام 1554)، ويحوي معلومات من أحدث طبعة من الكتاب المرجعي «الملاحة والإبحار» للجغرافي البندقي جيوفاني باتيستا راموزيو(**)[41]. على أن السمة الفريدة لهذه الخريطة تتمثل في النص الموسع المرافق لها باللغة التركية العثمانية الذي يقدم تاريخا موجزا لرحلات الاستكشاف الأوروبية، ولمحة عامة متعمقة سياسيا للعالم المعاصر، وملخصا لأحدث

(*) بيرا Pera (بمعنى «عبْر» أو «ما وراء») هو الاسم اليوناني السابق لمنطقة غَلَطة بالعاصمة العثمانية إسطنبول، كانت حي الأجانب والسفارات. [المترجم].

(**) جيوفاني باتيستا راموزيو Giovanni Batista Ramusio (20 يوليو 1485 إلى 10 يوليو 1557) ناشر وجغرافي وكاتب رحلات إيطالي، من أشهر أعماله كتاب «الملاحة والإبحار» Navigationi et Viaggi. [المترجم].

فتوحات الإمبراطورية العثمانية ومنافسيها الإمبرياليين[42]. كانت هذه الخريطة التي أعدت للنشر والبيع في السوق العثماني محاولة رائدة للإنتاج الجماهيري لأحدث المعارف الجغرافية الغربية في شكل يفيد الجمهور العثماني المتعلم، كوسيلة لتيسير التبادل الدولي للأفكار وتحقيق الربح، وفي ذلك يقول النص التقديمي للخريطة إنها «ليست عملا فنيا فقط، بل أداة مرجعية لفهم العالم بأكمله... وإلى أن تُعْرَف الظروف الحقيقية لكل بلاد الأرض، سيظل العلماء والفلاسفة في حاجة إلى أن يرجع بعضهم إلى بعض وستظل هناك حاجة إلى استثمار موارد لا تحصى!»(*)[43].

طُبعت من هذه الخريطة مائة وخمسون نسخة، ما يعطي فكرة عن مستوى الطلب الذي توقعه صناعها في الإمبراطورية العثمانية. لكن نتيجة لأن إكمال الخريطة تزامن مع دخول محكمة التفتيش إلى البندقية، فإن توزيعها قد أعاقه الحظر الذي طبق على الطباعة بغير الحروف اللاتينية، وهو الإجراء الذي أُريد به الحد من نشر الكتب باللغة العبرية. تبيّن السجلات الباقية أن الإذن بتوزيع الخريطة وبيعها من مجلس العشرة البندقي لم يُمنح حتى العام 1568، ويظل عدد النسخ التي بيعت في النهاية في السوق العثماني غير معلوم(**)[44].

بسبب هذه الصعوبات، لا نعرف خرائط أخرى باللغة التركية نُشرت في أوروبا خلال العقود الباقية من القرن السادس عشر (على الرغم من صدور طبعات لاحقة لأعمال الجغرافيا العربية بلغتها الأصلية، أُنتِج معظمها في إيطاليا)[45]. لكن من الواضح مع ذلك أن عددا كبيرا من الأعمال الغربية المنشورة غير المترجمة كان متداولا في السوق العثماني بحلول العقدين الثامن والتاسع من القرن السادس

(*) في النص التقديمي للخريطة، يعرِّف حاجي أحمد نفسه بأنه تونسي درس في جامعة مسجد الطرابيشي في مراكش، وأنه أُسِر لاحقا في أوروبا، على الأرجح في البندقية، وفي أثناء الأسر طلب منه سيده القيام بعدة أعمال علمية في مقابل إطلاق سراحه، منها ترجمة أعمال عربية إلى اللغات «الإفرنجية»، ومنها هذه الخريطة التي يذهب البعض إلى أنها مجرد ترجمة لخريطة غربية (تنسب عادة إلى عالم الرياضيات ورسام الخرائط الفرنسي أورونس فينيه Oronce Fine) إلى اللغة العثمانية «لأن هذه اللغة» - بتعبير أحمد - «لها سلطة عظيمة في العالم». (برنارد لويس، «اكتشاف المسلمين لأوروبا»، ترجمة ماهر عبدالقادر محمد، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1998). كأن آسره قد أمره برسم الخريطة أو ترجمتها لكي يتكسب من ورائها من خلال نشرها وبيعها في البلاد العثمانية. [المترجم].

(**) مجلس العشرة Council of Ten أو العشرة The Ten إحدى الهيئات الحاكمة في جمهورية البندقية، كان أقرب في عمله إلى أجهزة أمن الدولة الحديثة، إذ أنشئ في العام 1310 للتصدي للانقلاب على السلطة ومحاربة الفساد وكانت أعماله سرية، ومع أنه أنشئ لشهرين فقط بعد ثورة على الدوج (لقب حاكم البندقية)، فإنه استمر حتى العام 1797 الذي أبطل فيه بعد أن تكاثرت الشكاوى من استبداده وفساده. [المترجم].

عشر، وأنها كانت تصل جمهور القراء العثمانيين بسرعة مذهلة بعد ظهورها لأول مرة في أوروبا. من ذلك مثلا أن مترجما في البلاط العثماني طلب في العام 1573 شراء نسختين من الكتاب الشهير «مسرح العالم» لأبراهام أورتيليوس(*)، وهو مجموعة من الخرائط نشرت لأول مرة في البلاد الواطئة في العام 1570، أي قبل ثلاث سنوات فقط من وصوله إلى أيدي العثمانيين[46].

ربما لا توجد أقوى الأدلة المحفوظة على استخدام العثمانيين أدوات الخرائط الغربية في أي مجموعات باقية من الخرائط أو السجلات الأرشيفية بقدر ما توجد في لوحة عثمانية صغيرة حُفظت في كتاب سيد لقمان Seyyid Lockman «شاهنشاه نامه» Şehinşāhnāme [كتاب ملك الملوك]، وهو مخطوطة مصورة أعدت للسلطان مراد الثالث في العام 1581. تصوِّر اللوحة مشهدا من مرصد تقي الدين أفندي وتحوي في مقدمتها صورة لطلاب فلك يراجعون مجسما للكرة الأرضية من النوع الأوروبي (الشكل 4 - 7)[47].

تنشأ أهمية هذه الصورة من جانبين. فهي على المستوى الأساس تقدم دليلا ملموسا للقيمة العملية لمجسمات الكرة الأرضية بالنسبة إلى الفلكيين العثمانيين. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن الصورة تكشف عن تمكن عثماني من الجوانب الفنية للخرائط الأوروبية، كما يتجلى في هيمنة مجسم الكرة الأرضية على مقدمة اللوحة وفي دقة التفاصيل البادية في رسم الكرة الأرضية. فمع أن الكرة الأرضية رُسمت بحجم صغير جدا - لا يتجاوز عرضها في الصورة الأصلية سنتيمترين اثنين - فإن الخطوط الرئيسة للقارات والمحيطات، وكذلك الأنهار، وحتى المعالم البرية الصغيرة، تظهر فيها بوضوح (الشكل 5 - 7). وبالنظر إلى أن صورة مجسم الكرة الأرضية مجرد عنصر زخرفي في مخطوطة مصورة، فلا يوجد سبب واضح لهذه العناية والدقة في رسم سطح الكرة الأرضية إلا إظهار أن تذوقا لدقائق صنع الخرائط الأوروبي كان قد تشكل بحلول العقد قبل الأخير من القرن السادس عشر، حتى لدى الدوائر التقليدية حسنة التمييز من طائفة حرفيي الزخرفة في إسطنبول.

(*) أبراهام أورتيليوس (14 أبريل 1527 إلى 28 يونيو 1598) Abraham Ortelius رسام خرائط وجغرافي فلمنكي يعد مؤسس مدرسة رسم الخرائط الهولندية وصانع أول أطلس حديث، هو أطلس «مسرح العالم» Teatrum Orbis Terrarum. [المترجم].



الشكل (4 - 7): منظر لمرصد تقي الدين أفندي يظهر فيه مجسم للكرة الأرضية من النوع الأوروبي في مقدمة الصورة. المصدر: Seyyid Lokman's Şehinşāhnāme, circa 1581, Istanbul University Library, Ms. F 1404, fol. 57a



الشكل (5 - 7): صورة مقربة لمجسم الكرة الأرضية من لوحة لمرصد تقي الدين أفندي وردت في كتاب سيد لقمان «شاهنشاه نامه».

الاستكشاف العثماني من منظور مقارن

على أن هذا التقدير العثماني المتنامي والمتغير للخرائط الغربية لا يشكل إلا جانبا واحدا من جوانب كثيرة تؤكد أن عصر الاستكشاف العثماني قد تطور خلال أعلى أطوار نضجه بالترادف مع العالم الفكري للغرب المعاصر. ففي أوروبا، كما في الإمبراطورية العثمانية، أثبت النصف الثاني من القرن السادس عشر أنه مختلف نوعا عن أي فترة سابقة فيما يتعلق بإنتاج الخرائط والجغرافيا وانتشارهما. كانت النماذج الأوسع انتشارا لأدبيات الاستكشاف الأوروبية خلال العقود السابقة عبارة عن كتيبات صغيرة وتقارير موجزة ورسائل طبعت لنقل نتائج أحدث رحلات الاستكشاف. ولم يبدأ الدارسون إلا لاحقا في التعامل مع مشكلة تصنيف هذا الكم الضخم من المعلومات الجديدة وتنظيمها وتبويبها في شكل متماسك قابل للاستخدام. أما محصلة أعمالهم ككل، التي يعد كتاب

راموزيو «الملاحة والإبحار» و«أطلس» مركاتور من أوائل أمثلتها(*)، فلم تظهر إلا إبان العقدين السادس والسابع من القرن السادس عشر، وهو الوقت نفسه الذي بدأ فيه الدارسون العثمانيون يظهرون تجاوبا بازغا مع الأفكار الجديدة المتعلقة بصنع الخرائط والجغرافيا[48].

كما أن الحماس الذي تعامل به المفكرون العثمانيون مع أعمال مجموعة الجغرافيا العربية الكلاسيكية وترجمتهم لها لا يعدم النظير في حالة أوروبا. فمثلما فعل العثمانيون، أبدى الإنسانيون الغربيون اهتماما كبيرا بجغرافيا العالم المعاصر من خلال إعادة اكتشاف متحمسة لكتابات عصر سابق (كان في حالتهم المجموعة الجغرافية لليونان وروما الكلاسيكيتين)(**)[49]. لكن إلى جانب هذه النصوص الكلاسيكية، استمد المفكرون الغربيون إلهاما مباشرا من النماذج العربية عينها التي اعتمد عليها نظراؤهم العثمانيون، إذ كان النصف الثاني من القرن السادس عشر أول فترة تنتشر فيها أعداد كبيرة من أعمال الجغرافيا العربية وتُعرَف على نطاق واسع في أوروبا. ومن ذلك أن الناشر البندقي جيوفاني باتسيتا راموزيو تبنى صراحة منهج فهرسة المعلومات لدى الجغرافيين العرب الذي وصفه في تقديم كتابه الشهير «الملاحة والإبحار» بأنه «نظام رائع حقا»[50]. ومما لا يقل أهمية عن ذلك أن الكثير من النصوص العربية التي توافرت لراموزيو ولغيره من الدارسين الغربيين خلال هذه السنوات وصلت إليهم عن طريق وسطاء عثمانيين[51].

وكذلك أسهمت الخبرات المباشرة للعثمانيين في تطوير المعرفة الجغرافية الغربية. من ذلك مثلا أن المبعوث النمساوي أوجيه جيسلان دي بوزبك سجل خلال مقامه الطويل في إسطنبول إبان العقد السابع من القرن السادس عشر حوارا مع «رحّال تركي ارتحل خلال الشرق كله تقريبا وقال إنه تعرف خلال ترحاله على رحّالة برتغاليين، ثم انضم إلى جماعة من التجار كانوا في طريقهم إلى مدينة كاثاي ومملكتها رغبة منه

(*) غيراردوس مركاتور Gerardus Mercator (5 مارس 1512 إلى 2 ديسمبر 1594): جغرافي ورسام خرائط وعالم كونيات من البلاد الواطئة الهابسبورغية، مؤلف الأطلس Atlas، اشتهر بخريطته للعالم التي أنتجها في العام 1569 بإسقاط جديد صوّر مسارات الملاحة باتجاه ثابت (خطوط البوصلة) كخطوط مستقيمة. [المترجم].

(**) بمعنى أن المجموعة الجغرافية العربية شكّلت للعثمانيين عصرا كلاسيكيا، تماما مثلما كانت كتابات العصر القديم الكلاسيكي بالنسبة إلى الأوروبيين. راجع حاشيتين سابقتين حول الحركة الإنسانية والعصر القديم الكلاسيكي. [المترجم].

في زيارتها»[52]. وبالنظر إلى أن الصين كانت منطقة لا يعرف الأوروبيون المعاصرون حولها إلا القليل من المعلومات المستمدة من الخبرة المباشرة، فقد خصص بوزبك عدة صفحات لوصف الجزء المتعلق بالصين من هذه الرحلة الجريئة[53].

ومع أن المفكرين العثمانيين والغربيين اجتهدوا من أجل أن يتعلم بعضهم من بعض، فإنهم بالطبع واجهوا عقبات هائلة أمام التبادل الحر للأفكار، كانت العقبات المتعلقة بالطباعة بالحروف العربية أوضحها وأشدها أثرا، إذ كانت محظورة في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كافة وكانت محدودة بشدة في الكثير من مناطق أوروبا المتوسطية. ولايزال المؤرخون - لسوء الحظ - بعيدين عن بلوغ الفهم الكامل لتأثير حظر الطباعة في تطور الثقافة العلمية العثمانية[54]. وخلال السنوات الأخيرة غدت الصورة أكثر ضبابية من المنظور المقارن؛ إذ بدأ دارسو التاريخ الأوروبي يتناولون بالنقد الكثير من الفرضيات التي صمدت طويلا حول الطابع «الثوري» لثقافة الطباعة في الغرب[55].

لا شك في أن غياب الطباعة كانت له عواقب وخيمة على عصر الاستكشاف العثماني. ومن دون أن نبخس الإنجازات الحقيقية لدارسي أواخر القرن السادس عشر العثمانيين، لا جدال في أن النسخ اليدوي لكل نص جديد كان عائقا لا يرتفع، جعل عملية التبادل العلمي تأخذ من الوقت والكلفة أكثر مما أخذته في الغرب. ومع الوقت كان لذلك تأثير ضار في استمرارية الاستكشاف العثماني؛ إذ أوجد الافتقار إلى نصوص قياسية قابلة للنسخ بسهولة - لاسيما إبان القرون اللاحقة - حالة من الاختلاط بشأن نوع المعلومات القابلة للإثبات[56].

لكن مع ذلك ينبغي ألا نضخم الحدود التي فصلت بين العالمين الفكريين للإمبراطورية العثمانية وأوروبا الغربية بسبب حظر الطباعة. فحتى في غياب صناعة الطباعة المحلية، كانت هناك طرق عدة أثرت من خلالها الأعمال المنشورة الآتية من الغرب في الإمبراطورية العثمانية، ومن المعلوم أن بعض دور الطباعة الغربية كانت - على الرغم من العقبات والصعاب - تنشر الكتب للسوق العثماني تحديدا[57]. من ذلك مثلا أن مطبعة مديتشي Medici Press نشرت في العام 1585 طبعة باللغة الأصلية من كتاب عربي معاصر في الجغرافيا، هو كتاب أحمد بن خليل الصالحي «البستان في عجائب الأرض والبلدان»[58]. وفي استجابة مباشرة على ما يبدو لتزايد

الطلب المحلي على المزيد من الأعمال من هذا النوع، أصدر السلطان مراد الثالث بعد ثلاث سنوات مرسوما سلطانيا يجيز للتجار الإيطاليين أن يستوردوا ويبيعوا بلا إعاقة «بعض الأعمال المطبوعة باللغات العربية والتركية والفارسية»[59].

وفي تماثل مع الحالة العثمانية، تبيّن الخبرة المعاصرة للبرتغال بوضوح أن «الطباعة» و«الاستكشاف» لم يكونا مترادفين حتى في السياق الأوروبي. فعلى امتداد القرن السادس عشر، ظلت البرتغال في المقدمة بشأن الاكتشافات، وأطلقت رحلات استكشاف أكثر من أي أمة غربية أخرى. ومع ذلك، بقيت الأغلبية الساحقة من أدب الرحلات والجغرافيا والخرائط التي أنتجها البرتغاليون مخطوطات غير منشورة، تماما مثل نظيراتها العثمانية. وعندما ظهرت هذه الأعمال في شكل مطبوع، فإن ذلك حدث في معظم الحالات في دور نشر توجد في إيطاليا أو البلاد الواطئة لا في البرتغال، وظهرت مترجمة ضمن مجموعات أكبر أُعِدّت لجمهور أوسع غير البرتغاليين[60]. وفي بعض الحالات، طُبعت هذه النصوص في دور النشر ذاتها التي أنتجت مجلدات باللغتين التركية العثمانية والعربية.

وعلى ذلك فربما تتمثل أفضل طريقة لفهم تطور أدب الاستكشاف العثماني خلال العقود الأخيرة من القرن السادس عشر في اعتباره جزءا من تقسيم عمل فكري أكبر عبر البحر الأبيض المتوسط. وعلى تخوم هذه المنطقة الفكرية، سافر رعايا الدول الشابة النهمة للتوسع، منها الإمبراطورية العثمانية والبرتغال وإسبانيا، جسديا إلى أركان العالم البعيدة وجمعوا معلومات حول الأماكن التي زاروها. ولدى عودتهم، تُرِكت مهمة تبويب هذه المعلومات وتنظيمها ونشرها لمراكز الطباعة الأكثر تقدما في إيطاليا والبلاد الواطئة.

نهاية الاستكشاف

مع نهاية القرن السادس عشر، كانت حقبة التوسع الدولي المتواصل للإمبراطورية العثمانية قد وصلت إلى نهايتها. لكن بفضل مزيج معقد من الرعاية السياسية وحوافز السوق والإخصاب الفكري المتبادل خلال العقود السابقة، امتلك العثمانيون كتلة حرجة من الأدوات العلمية ساعدتهم في فهم الأبعاد المادية والبشرية للعالم إلى حد غير مسبوق من التمكن، وكوّنوا خلال ذلك وعيا جديدا بالدور العالمي

لإمبراطوريتهم، ما مكّنهم من تناول الماضي ومن ضمنه الخطط الإمبريالية الكبرى لإبراهيم باشا وسليمان الخادم ومحمد صوكولو بنوع من التجرد التاريخي الواعي. ومما لا يخلو من دلالة أن نوعا جديدا من الكتابة التاريخية بدأ يتشكل خلال السنوات الأخيرة من القرن، سعى إلى إعادة كتابة تاريخ الدولة العثمانية من منظور دولي ووصف تطور علاقاتها مع القوى الأخرى، لاسيما الإمبراطوريتين الإسلاميتين المنافستين في إيران الصفوية والهند المُغالية[61].

وعندما أخذ العثمانيون ينظرون إلى المستقبل الملتبس، بدأت هذه الكتابات حول الماضي تتلون بحنين واضح إلى عالم لم يعد عالمهم. من ذلك مثلا أن المؤرخ تعليقي زاده وضع في العام 1603 قائمة بالسمات العشرين المميزة للحكم العثماني(*)، يذكّرنا الكثير منها بالعصر الذهبي لإمبراطورية محمد صوكولو الناعمة. جاء على رأس هذه السمات دور السلطان حاميا للحرمين الشريفين الذي أعطاه سلطة عليا على كل مسلمي العالم، والدعاء باسم السلطان في خطبة الجمعة «في أقاليم المعمورة السبعة جميعها»(**)[62]. ومما لا يقل أهمية عن ذلك في رأي تعليقي زاده أن الإمبراطورية العثمانية كانت متفردة في سيادتها على «كل من البر والبحر»:

> لم يحدث منذ عهد آدم أن تمكن سلاطين البحر من السيطرة على البر، ولا سلاطين البر من السيطرة على البحر. فلم يقيّض الله هذا الحظ السعيد الفريد إلا للملوك العظماء [الإمبراطورية العثمانية]، وهو المجد الذي حققه صاحب الجلالة سليمان [القانوني]، ولذلك أمر - بتوفيق الله

(*) يُكتب لقب هذا المؤلف باللغة التركية الحديثة Talikizâde بينما ينطق في التركية العثمانية Ta'līqīzāde، لذلك عرّبه المترجم إلى «تعليقي زاده»، وهو محمد بن محمد الفناري Mehmed b. Mehmed el - Fenari (نحو 1540 إلى نحو 1600)، كاتب ومؤرخ رسمي بالديوان الهمايوني، من مؤلفاته «كتاب الملوك» Şehnāme - I humāyūn، وربما نال لقبه من اشتغاله بالكتابة. أما نسبه «الفناري»، فهو إلى حي الفنار بإسطنبول الذي كان الحي الرئيس لليونانيين ومقر بطريركيتهم. [المترجم].

(**) قسم القدماء - بداية من أرسطو - سطح الأرض إلى خمس مناطق متوازية مع دائرة الاستواء: ثلاث غير معمورة هي المنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية والمنطقة الحارة المحيطة بدائرة الاستواء، ومنطقتان معمورتان هما الاعتدالان الشمالي والجنوبي المحصوران بين القطبين والمنطقة الحارة. وبغرض معرفة أطوال النهار في مناطق المعمورة، قسم الجغرافي اليوناني كلوديوس بطليموس، ومن بعده الجغرافيون العرب والفرس والأتراك، المعمورة إلى أحد عشر إقليما clime (من الكلمة اليونانية klima)، ثم اختصروها إلى سبعة أقاليم متوازية مع دائرة الاستواء، يزداد فيها طول النهار على فواصل مع الابتعاد عن دائرة الاستواء. [المترجم].

تعالى - بأن ينقش ختمه السلطاني بهذه الكلمات: «إمبراطور المجد على الصراط المستقيم، سلطان البر والبحر سليمان بن سليم»[63].

إن مما لا يخلو من دلالة أن تعليقي زاده كان وهو يكتب هذا النص يتذكر أيام شبابه التي كان فيها أحد المحاسيب الشخصيين على محمد صوكولو إبان العقد الثامن من القرن السادس عشر. ولا ريب أنه كان يشعر بالمرارة وهو يكتب هذا النص في العام 1603؛ لأن هذه المزاعم الجارفة بالسيادة العثمانية العالمية كانت قد فقدت بريقها منذ وقت طويل. استعاض عثمانيو أوائل القرن السابع عشر جماعيا عن مزاعمهم بالإمبراطورية العالمية بحياة أكثر دعة تقوم على التجارة. كانت الفوائد ملموسة في المدى القريب، لكن بأي ثمن؟

جاء يوم الحساب في المحيط الهندي أسرع مما تخيل أحدهم، إذ تركت الدولة المنحسرة والإحساس بتآكل التماسك السياسي العثمانيين غير مستعدين إطلاقا للتعامل مع تحديات عالم سريع التغير. وليس غريبا أن تتكشّف الدراما المركزية في قصة الانهيار العثماني في اليمن، تلك الولاية التي وصفها الريس سلمان قبل قرن بأنها «سيدة بلاد الهند»، وفيها أطلق الإمام الزيدي القاسم منصور بداية من العام 1626 ثورة قوية تمكنت خلال عشر سنوات من القضاء المبرم على الحكم الإمبريالي في اليمن(*). وعندما أخلت آخر حامية عثمانية ميناء المخا في العام 1636، كانت أوضاع العثمانيين قد تدهورت إلى حد أن قائد الحامية اضطر إلى استجداء سفينة تجارية هندية زائرة حتى تنقله إلى الأراضي العثمانية بعد أن تُرِك بلا سفينة واحدة تحت إمرته[64].

وفي كل الأماكن الأخرى في آسيا البحرية، ظهرت إشارات أسبق إلى أن عصر الاستكشاف العثماني كان في حالة أفول. ففي العام 1622، نجح هجوم منسق بين الشاه عباس حاكم إيران وسرب بحري من شركة الهند الشرقية البريطانية المبتدئة في انتزاع السيطرة على هرمز من البرتغاليين وقطع اتصال البصرة مع الهند عن طريق الخليج العربي[65]. وفي السنة التالية، صارت البصرة أشد عزلة بعد الاحتلال الصفوي لبغداد، وبعد أن قُطعت خطوط اتصال البصرة، باعت الحكومة المركزية العثمانية

(*) انطلقت الثورة اليمنية في عهد الإمام المنصور القاسم أو المنصور بالله القاسم (13 نوفمبر 1559 إلى 19 فبراير 1620)، ولم يكتمل تحرير اليمن إلا في عهد ابنه وخليفته المؤيد محمد (1585 إلى سبتمبر 1644). [المترجم].

الولاية كاملة بوصفها إيجارا وراثيا لزعيم محلي[66]. وعلى الطرف المقابل للمحيط الهندي، دمر البرتغاليون للأبد القوة البحرية لآتشيه في العام 1629، قبل اثنتي عشرة سنة فقط من انتزاع الهولنديين ملقا من البرتغاليين[67]. هكذا تغير المشهد السياسي لكامل منطقة المحيط الهندي تماما، إذ تلاشى العثمانيون وشبكة حلفائهم - وأعدائهم - القديمة من المشهد، ولم يعودوا إليه مطلقا، ودخل لاعبون جدد هم الهولنديون والإنجليز والصفويون والمُغال.

سرعان ما أخذت الحظوظ التجارية العثمانية المنحنى الهابط نفسه، إذ على الرغم من انفصال التجارة عن السياسة خلال العقود السابقة، فقد كان من المستحيل ألا يتكبد التجار العثمانيون عواقب هذا الاجتماع المؤلم للتمزق السياسي والهزائم العسكرية[68]. وفي العام 1625، كانت الأحوال قد تدهورت إلى حد جعل المؤلف العثماني عمر طالب Omer Talib يقدم التقييم المتجهم التالي لمستقبل إمبراطوريته في عصر تراجع التجارة مع الشرق:

> جمع الأوروبيون حتى الآن معرفة بالعالم أجمع، وهم يرسلون سفنهم في كل حدب وصوب، ويستولون على أهم الموانئ... ولا يصل إلى إسطنبول وغيرها من البلدان الإسلامية إلا ما يفيض على استهلاكهم ويباع فيها بخمسة أضعاف سعره الأصلي. ويجمعون أرباحا هائلة من هذه التجارة، وهذا هو السبب الرئيس وراء ندرة الذهب والفضة في بلاد المسلمين اليوم... وإذا لم نفعل شيئا، فلن يمر وقت طويل قبل أن يصبح الأوروبيون سادة بلاد المسلمين ذاتها![69].

على أن وجهات النظر من هذا النوع يجب أن توضع في سياقها، إذ كان العقدان الثالث والرابع من القرن السابع عشر فترة توعك عام في البلاد العثمانية، شهدت عددا من المشكلات - إفلاس مالي واضطراب اجتماعي مزمن وأزمة سلالية وحروب على جبهات عدة - كانت من الشدة إلى حد أنها هددت وجود الإمبراطورية ذاته[70]. في ضوء هذه الخلفية، قد يكون من المغري النظر إلى تراجع حظوظ العثمانيين على تخومهم الجنوبية البعيدة باعتباره مجرد عرَض لهذه الأزمة واسعة النطاق، والنظر إلى تشاؤم عمر طالب بوصفه تعبيرا عن «وعي التراجع» الذي تخلل الكثير من أنواع الكتابة العثمانية خلال تلك الفترة[71].

لكن مما يستحق التأكيد أيضا أن العثمانيين تمكنوا في أماكن أخرى من الإمبراطورية من النجاة من هذه الأزمة إلى حد أنهم بدأوا فترة جديدة من التوسع الإمبريالي المتواضع خلال القرن السابع عشر. فلم يخسر العثمانيون أقاليم لم يتمكنوا من استردادها إلى الأبد إلا على طول تخوم المحيط الهندي: في البحر الأحمر والخليج العربي والقرن الأفريقي. وعلى ذلك فإن نهاية عصر الاستكشاف العثماني كانت - تماما مثل بدايته - قصة تدحض التفسيرات القياسية للتاريخ العثماني، ما يدعونا إلى إعادة النظر في بعض الفرضيات الأساسية حول ماضي الإمبراطورية ومكانتها في تاريخ العالم الحديث المبكر.

خاتمة

إمبراطورية تُفقد وتُسترد

تظهر الإمبراطورية العثمانية عادة في الخرائط الحديثة للمحيط الهندي إبان القرن السادس عشر كتلة من لون متصل في الركن العلوي الأيسر للصفحة، امتدت سيطرتها من دون انقطاع على كل الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. وعلى النقيض من ذلك، تصور دولة الهند البرتغالية عادة على هيئة نقاط قليلة مبعثرة يتموضع كل منها استراتيجيا في بقعة على طول سواحل المحيط الهندي يرتبط بعضها ببعض عبر أهم ممرات التجارة المحيطية بالمنطقة. ولذلك فقد يبدو للعين غير الخبيرة، للوهلة الأولى على الأقل، أن هذه الخرائط تعطي الإمبراطورية العثمانية ميزة نسبية كبيرة على البرتغاليين الذين تتضاءل مجموعة مستوطناتهم الساحلية التافهة بجوار الثقل الإقليمي للإمبراطورية العثمانية. لكن الانطباع الذي تتركه هذه الخرائط على المستوى الأعمق هو انطباع القناعة العثمانية لا القوة العثمانية، أي حالة دولة قانعة بالعيش على العائدات من ممتلكاتها البرية الشاسعة، ومن ثمة فهي غير راغبة ولا قادرة على المشاركة في الاقتصاد السياسي المحموم للعالم خارج حدودها.

لكن ماذا لو رسمت خريطة بديلة لولايات المحيط الهندي التابعة للإمبراطورية العثمانية تستند إلى فهم مختلف للقوة العثمانية في البيئة الطبيعية القاسية للبحر الأحمر والخليج العربي؟ لو أوكل رسم هذه الخريطة لصانع خرائط موهوب، فإنها

يمكن أن تنقل حالة ندرة الموارد المحلية، واعتماد الاقتصاد المحلي على أنماط التجارة المحيطية، وغياب أي ارتباط بحري مباشر مع البحر الأبيض المتوسط العثماني. كما يمكن تصوير وجود الإمبراطورية في المنطقة لا بوصفها امتدادات متصلة من الأقاليم الخاضعة لسيادتها، بل بوصفها سلسلة من جزر السلطة الصغيرة - والاستراتيجية - المعزول بعضها عن بعض إلا عن طريق البحر، تتناثر على الساحل محاطة في معظم الحالات بمئات الأميال من أشد الصحاري قسوة على وجه الأرض.

إن هذه الخريطة بتقديمها صورة طبيعية أكثر تفصيلا لولايات المحيط الهندي العثمانية تكشف عن دولة عثمانية من نوع مختلف تماما. ففي بيئة وعرة ومقفرة إلى هذا الحد، لم يكن الحفاظ على الوجود الإمبريالي ممكنا إلا بالتزام سياسي عنيد ومنسق، اعتمد على حشد الموارد البشرية والطبيعية من خارج البحر الأحمر والخليج العربي ووقف وراءه شيء أشد تعقيدا من مجرد الرغبة في ضم الأقاليم.

في عالم القرن السادس عشر، شكّلت هذه التحديات المادية الهائلة الخلفية لكل جوانب سعي العثمانيين العنيد وراء الإمبريالية في المحيط الهندي. يفسر ذلك دأبهم على جمع المعلومات الاستخبارية حول المنطقة، والعزيمة المتواصلة التي بنوا بها التحالفات فيما وراء البحار، وذكاء استراتيجيتهم المخططة بعناية لدعم التجارة. وفيما يتعلق بقوة عزيمتهم، فليس في أعمالهم في المجالات الأخرى ما هو أروع من أعمالهم في المجال البحري، فبسبب الافتقار شبه الكامل إلى الخشب محليا وغياب قناة السويس، كانت كل سفينة يشغلها العثمانيون في مسرح المحيط الهندي على امتداد القرن السادس عشر تُطلَب من إسطنبول وتُشيّد بخشب من غابات الأناضول كان يشحن لألف ميل إلى المكان النهائي للتشييد، إذ كان ينقل غالبا بالبحر إلى مصر وفيها ينقل عن طريق حيوانات الحمل لمائة ميل أخرى عبر الصحراء إلى السويس[72].

لم يكن لهذا الجهد الإمدادي غير المحتمل من حيث التعقيد والتكلفة نظير في مناطق الإمبراطورية الأخرى التي كان يرتبط بعضها ببعض وبالمركز الإمبراطوري بشبكة أقوى من الطرق والممرات البحرية وطرق القوافل. يفسر ذلك وحده سوء أداء الحكم العثماني في ولايات المحيط الهندي خلال الأزمة العامة إبان أوائل القرن السابع عشر. ففي مناطق الإمبراطورية الأخرى، أحدثت هذه الأزمة إعادة تفاوض

مؤلمة - وإن لم تكن كارثية بحال من الأحوال - لتوازن القوة بين المركز والولاية، أنتجت مستوى أعلى من الحكم الذاتي المحلي، قدم في حالات كثيرة فوائد اقتصادية ومالية ملموسة للإمبراطورية ككل[73]. أما على طول التخوم الجنوبية للإمبراطورية التي اعتمد وجود السلطة المحلية فيها كليا على الدعم النشط من الحكومة المركزية، فلم يتمكن الحكم الإمبريالي من النجاة من فترة الأزمة المطولة في غياب الضغط السياسي المنسق من جانب عصبة المحيط الهندي. ولم يبقَ للعثمانيين بعد العقد الرابع من القرن السابع عشر إلا سلطة واهنة على المناطق المحيطة بمكة والمدينة التي ظلت بسبب استمرار أهميتها الدينية مربوطة ببقية الإمبراطورية من خلال البنية التحتية للحج[74].

وعلى أي حال، فإن كانت نهاية عصر الاستكشاف العثماني ترجع إلى قصور الإرادة السياسية، فإن بدايته أيضا ترجع إلى رؤية سياسية متبصرة. ففي العام 1517 الذي كان لحظة اتصالهم الأولى بعالم المحيط الهندي، وجد العثمانيون أنفسهم أمام منطقة كان اقتصادها التجاري في الأساس تحت القبضة الخانقة للحصار البحري البرتغالي، ما يعني أن مواصلة الاستثمار في المنطقة لم تكن ممكنة لولا التقدير بعيد النظر لإمكاناتها المستقبلية. وعلى الرغم من هذه البداية غير المبشرة لعصر الاستكشاف العثماني، فإن تاريخه خلال العقود التالية كان قصة دولة وظفت مقدراتها أكثر فأكثر لبلوغ هذه الإمكانات، من ضمنها تخصيص موارد عسكرية هائلة (أحيانا من دون أن تكون هناك فرص واضحة لأي مكاسب إقليمية)، والتدخل الحكومي الواسع في السوق (ما ألحق الضرر بالتجار أحيانا)، والدعم النشط لحلفاء بعيدين لهم مراكز قوة مؤيدة داخل الإمبراطورية. أثبتت هذه الجهود الجماعية بحلول العقد الثامن من القرن السادس عشر أنها ناجحة تماما، إذ قضت على الحصار البرتغالي، ومكّنت العثمانيين من السيطرة على نصيب من تجارة التوابل بالمحيط الهندي أكبر كثيرا مما آل إلى التاج البرتغالي في أي وقت.

لكن ذلك أُنجِز - للمفارقة - بسبب البرتغاليين، لا على الرغم منهم؛ لأن البرتغاليين كانوا أول من أدخل نوعا جديدا من السياسة العالمية إلى عالم المحيط الهندي، ما أوجد الظروف التي مكّنت العثمانيين من صوغ استجابتهم السياسية العالمية. فلولا التهديد الذي فرضه البرتغاليون على تجارة المسلمين وطرق حجهم، لما

كان هناك أي مجال للصياغة الأصلية للمزاعم العثمانية في آسيا البحرية ولا للتفاني الذي دافع به أفراد عصبة المحيط الهندي لاحقا عن هذه المزاعم. وبمجرد أن زال هذا التهديد البرتغالي، أصبح المشروع الإمبريالي الكبير للعثمانيين غير قابل للاستمرار.

وهنا يكمن الدرس الأعمق الذي يمكن أن نخرج به من عصر الاستكشاف العثماني، وهو أن تاريخه يستبعد نهائيا فكرة أن الإمبراطورية كانت بطريقة أو بأخرى ضحية للحقبة الأولى للتوسع الأوروبي فيما وراء البحار، بل على العكس من ذلك تماما كان العثمانيون من المستفيدين المباشرين من هذا التوسع، وفي النهاية لم يكونوا ضحية إلا لنجاحهم.

الهوامش

هوامش المقدمة

(1) انظر على سبيل المثال: Deno John Geanakoplos, Constantinople and the West: Essays on the Late Byzantine (Palaeologan) and Italian Renaissances and the Byzantine and Roman Churches (Madison, 1989).

(2) يتمثل الاستثناء الأبرز لهذا الاتجاه في العمل الرائد لصالح أوزبران Salih ozbaran الذي يشكل استخدامه الرائد للمصادر البرتغالية جنبا إلى جنب مع كنوز الأرشيفات العثمانية نموذجا أساسيا احتذت به الدراسة الحالية. أما عمله الذي يمثل أهمية خاصة فهو المقالة الطويلة "Osmanlı İmparatorluğu ve Hindistan Yolu: zerinde Türk-Portekiz Rekabet ve Onaltıncı Yüzyılda Ticaret Yolları İlişkileri," Tarih Dergisi 31 (March 1977): 66–146 فضلا على مجموعة منتقاة من مقالات أوزبران نشرت باللغة الإنجليزية The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean and Ottoman Administration in the Arab Lands during the Sixteenth Century (Istanbul, 1994). توجد مختارات مُحَدَّثة أخيرا من مقالات أوزبران باللغة التركية في الكتاب Yemen'den Basra'ya Sınırdaki Osmanlı (Istanbul, 2004) الذي يشمل قائمة مراجع شاملة للإسهامات العلمية الأخرى في موضوع العثمانيين في المحيط الهندي. ثمة إعادة صياغة أحدث لآراء أوزبران باللغة الإنجليزية بعنوان Ottoman Expansion towards the Indian Ocean in the 16th Century (Istanbul, 2009) لكنها لسوء الحظ نشرت في وقت متأخر حال دون إدماجها في هذا الكتاب. وإلى جانب أوزبران، تستحق أعمال أندرو هس Andrew Hess (تناقش لاحقا) الذكر هنا، فضلا على الأعمال السردية الثلاثة السابقة باللغة التركية: Cengiz Orhonlu's Osmanlı İmparatorluğu'nun Guney Siyaseti: HabeŞ Eyaleti (Istanbul: 1974); Yakub Mughul, Kanuni Devri Osmanlılar'ın Hint Okyanusu Politikası ve Osmanlı-Hint Muslumanları Munasebetleri 1517–1538 (Istanbul, 1974); and Herbert Melziğ, Buyuk Turk Hindistan Kapılarında: Kanuni Sultan Suleyman Devrinde Amiral Hadım Suleyman PaŞa'nın Hind Seferi (Istanbul, 1943).

(3) حول العالم التجاري للمحيط الهندي، انظر George Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, 2nd ed. (Princeton, 1995); and Patricia Risso, Merchants and Faith: Muslim Commerce and Culture in the Indian Ocean (Boulder, 1995). حول رحلات الاستكشاف الصينية خلال القرن الخامس عشر، انظر Louise Levathes, When China Ruled the Seas: The Treasure Fleet of the Dragon Throne, 1405–1433 (New York, 1994).

(4) حول العالم الفكري لكولومبس، انظر Valerie Flint, The Imaginative Landscape of Christopher Columbus (Princeton, 1992)، وانظر عموما Donald Lach, Asia in the Making of Europe, vol. 1: The Century of Discovery (Chicago, 1965).

(5) Anthony Pagden, Lords of All the World: Ideologies of Empire in Spain,

Britain and France 1500-1800 (New Haven, 1995), 29-62. وحول المزاعم البرتغالية المبكرة بشأن إمبراطورية ما وراء البحار، انظر Luis Filipe Thomaz, "L'idée imperiale manueline," in La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du colloque, Paris, les 26, 27 et 28 Mai 1988 (Paris, 1990), 41.

(6) راجع تجميع حديث للأدبيات في: Jan Glete, Warfare at Sea 1500-1650: Maritime Conflicts and the Transformation of Europe (London, 2000)؛ وانظر أيضاً Carlo Cipolla's classic Guns, Sails and Empires: Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion 1400-1700 (New York, 1965); and Geoff rey Parker, The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West, 1500-1800, 2nd ed. (Cambridge, 1996) لا سيما الفصل الثالث بعنوان "Victory at Sea," 82-115؛ وحول البارود، انظر Bert Hall, Weapons and Warfare in Renaissance Europe: Gunpowder, Technology and Tactics (Baltimore, 1997).

(7) انظر مقدمة عامة لهذا الموضوع الواسع في Donald Lach, Asia in the Making of Europe, vol. 2: A Century of Wonder (Chicago, 1965); also Alfred Crosby, The Measure of Reality: Quantification and Western Society 1250-1600 (Cambridge, 1997); and Anthony Pagden, The Fall of Natural Man: The American Indian and the Origin of Comparative Ethnology (Cambridge, 1982).

(8) تقدم أعمال أندرو هس الكثيرة التي تناقش لاحقا بمزيد من التفصيل، الصياغة الأكثر تماسكا لهذا الرأي. راجع مناقشة تاريخية مهمة لمشكلة اعتبار العثمانيين عائقا وليس مشاركا في الاكتشافات في Palmira Brummett, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery (Albany, 1994).

(9) حول استخدام العثمانيين لهذه المصطلحات إبان عهد سليمان القانوني، انظر Colin Imber, "Suleyman as Caliph of the Muslims: Ebu's-Su'ud's Formulation of Ottoman Dynastic Ideology," in Giles Veinstein, ed., Soliman le Magnifique et son temps (Paris, 1992), 179-84. حتى الآن يتم تجاهل أهمية مزاعم الخلافة العثمانية بالنسبة إلى التاريخ السياسي فيما وراء حدود الإمبراطورية خلال العصر الحديث المبكر.

(10) ظهرت أخيرا عدة أعمال مهمة حول التاريخ العسكري العثماني، لكن معظمها لا يقول الكثير حول مسرح المحيط الهندي. انظر: Gabor Agoston, Guns for the Sultan: Military Power and the Weapons Industry in the Ottoman Empire (Cambridge, 2005); and Rhoads Murphey, Ottoman Warfare, 1500-1700 (New Brunswick, N.J., 1999)؛ وحول دور العثمانيين في انتشار الأسلحة النارية، انظر Halil Inalcik, "The Socio-Political Effects of the Diffusion of Firearms in the Middle East," in Halil Inalcik, ed., The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy (London, 1978), 195-217; also Ozbaran, Ottoman Response, 61-66.

(11) حول هذه المسألة، انظر العملين الحديثين: İdris Bostan, Osmanlılar ve Deniz: Deniz Politikaları, Teşkilat, Gemiler (Istanbul, 2007), and Osmanlı

توجد مجموعة رائعة من الصور المعاصرة للسفن Denizciliği (Istanbul, 2006)؛ العثمانية الشراعية وذات المجاديف في أحدث عمل للمؤلف ذاته Kurekli ve Yelkenli Osmanlı Gemileri (Istanbul, 2003)، وانظر أيضا Colin Imber, "The Navy of Suleyman the Magnificent," Archivum Ottomanicum 6 (1980): 211-82.

(12) ثمة نقص واضح في الدراسات التي تتناول علاقة العثمانيين الاقتصادية مع المحيط الهندي. يوجد ملخص للدراسات المحدودة المتوافرة في Halil Inalcik, An Economic and Social History of the Ottoman Empire (Cambridge, 1994), 1: 315-64؛ وتوجد مقاربة للاقتصاد الهندي في Nelly Hanna, Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'il Abu Taqiyya, Egyptian Merchant (Syracuse, 1998).

(13) يقف تفسيري هنا على طرف النقيض مع معظم الدراسات الحالية التي تنطلق من أن «رؤية العالم الإسلامية» كانت ساكنة بالأساس على امتداد العصر الحديث المبكر. لايزال العمل القياسي هو Bernard Lewis, The Muslim Discovery of Europe (New York, 1982)؛ حول منظور يركز على العثمانيين خلال العصر الحديث المبكر، انظر الأقسام ذات الصلة من الكتاب Nicolas Vatin, Les Ottomans et l'Occident, XV-XVI siecles (Istanbul, 2001)؛ انظر نقد حديث لبرنارد لويس في Nabil Matar, In the Lands of the Christians: Arab Travel Writing in the Seventeenth Century (New York, 2003)؛ وانظر إعادة تقييم عامة لمفهوم الفضول في السياق الغربي في Barbara Benedict, Curiosity: A Cultural History of Early Modern Inquiry (Chicago, 2001).

(14) انظر على سبيل المثال Stephen Greenblatt, Marvelous Possessions: The Wonder of the New World (Chicago, 1991); Anthony Grafton, New Worlds, Ancient Texts: The Power of Tradition and the Shock of Discovery (Cambridge, 1992); and Anthony Pagden, European Encounters with the New World from Renaissance to Romanticism (New Haven, 1993).

(15) انظر عرضا موجزا لعدد الأعمال الكبير ضمن هذه الفئة التي أنتجت خلال العقد الماضي (إلى جانب الأعمال الذي رُجع إليها في المتن) في Stuart Schwartz, ed., Implicit Understandings: Observing, Reporting and Reflecting on the Encounters between Europeans and Other Peoples in the Early Modern Era (Cambridge, 1994); Joan-Pau Rubiés, Travel and Ethnology in the Renaissance: South India through European Eyes, 1250-1625 (Cambridge, 2000); Andrew Fitzmaurice, Humanism and America: An Intellectual History of English Colonization (Cambridge, 2003); and Michael Gaudio, Engraving the Savage: The New World and Techniques of Civilization (Minneapolis, 2008). انظر أعمالا ركزت تحديدا على تأثير لقاء أوروبا في العالم العثماني في Deborah Howard, Venice and the East: The Impact of the Islamic World on Venetian Architecture 1100-1500 (New Haven, 2000); Rosamund Mack, Bazaar to Piazza: Islamic Trade

and Italian Art (Berkeley, 2001); Barbara Fuchs, Mimesis and Empire: The New World, Islam and European Identities (Cambridge, 2001); Nancy Bisaha, Creating East and West: Renaissance Humanists and the Ottoman Turks (Philadelphia 2004); and Stefano Carboni, ed., Venice and the Islamic World (New Haven, 2007).

(16) تراجع هذا الانحياز لأوروبا خلال السنوات الأخيرة بفضل الاهتمام المتنامي بالنماذج غير الغربية لأدب الرحلات ورسم الخرائط والإثنوغرافيا من العصر الحديث المبكر. انظر على سبيل المثال Laura Hostetler, The Art of Ethnography: A Chinese Miao Album (Seattle, 2007); Muzaffar Alam and Sanjay Subrahmanyam, Indo-Persian Travels in the Age of the Discoveries (Cambridge, 2007); and Nabil Matar, Europe through Arab Eyes: 1578-1727 (New York, 2009).انظر بوجه عام:Jerry Brotton and Lisa Jardine, Global Interests: Renaissance Art between East and West (Ithaca, 2000). شهد الاهتمام بحملات الأدميرال المينغي تشنغ خه خلال القرن الخامس عشر زخما أخيرا بفضل الكتاب المثير Gavin Menzies, 1421: The Year China Discovered America (New York, 2004)؛ دجوتو رؤية نقدية في Robert Finlay, "How Not to (Re) Write World History: Gavin Menzies and the Chinese Discovery of America," Journal of World History 15/2 (2004): 229-42.

(17) انظر عرضا غير شامل للإسهامات الأخيرة في هذا النوع من الكتابة في Victor Lieberman, Strange Parallels, vol. 1: Integration on the Mainland: Southeast Asia in Global Context, c. 800-1830 (Cambridge, 2003); Kenneth Pomeranz, The Great Divergence: China, Europe and the Making of the Modern World Economy (Princeton, 2000); Jared Diamond, Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies (New York, 1999); Patrick Manning, Migrations in World History (London, 2005); and John R. McNeill and William McNeill, The Human Web: A Bird's-Eye View of World History (New York, 2003).

(18) يقترح مفهوم التواريخ المترابطة connected histories عند سنجاي سوبرامانيام Sanjay Subrahmanyam طريقة للتعامل مع هذه المشكلة في تاريخ العالم، أثبتت جدواها للدراسة الحالية. انظر Subrahmanyam, "Connected Histories: Notes towards a Reconfiguration of Early Modern Eurasia," Modern Asian Studies 31/3 (1997): 735-762.

(19) كشفت الدراسات الأخيرة حول استخدام رسم الخرائط والإثنوغرافيا عن عملية مماثلة في مناطق أخرى من العالم غير الغربي خلال العصر الحديث المبكر، انظر مثالا لها في Laura Hostetler, Qing Colonial Enterprise: Ethnography and Cartography in Early Modern China (Chicago, 2001).

(20) انظر على سبيل المثال Svat Soucek, "Piri Reis and the Ottoman Discovery of the Great Discoveries," Studia Islamica 79 (1994): 121-42.

(21) بعيدا عن سؤال الدافعية، كانت هناك عوائق مادية هائلة للملاحة العثمانية في الأطلسي: مزيج من الرياح السائدة المعاكسة (من الشمال الغربي) وتيار سطحي قوي

لكنه غير مواتٍ (يتدفق من الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط)، ما يعني أنه باستثناء بضع فترات قصيرة في السنة، كان يستحيل فعليا على أسطول القوادس أن يبحر من البحر الأبيض المتوسط إلى الأطلسي خلال مضيق جبل طارق، لا سيما أسطول بعيد عن قواعد إمداده الرئيسة في شرق البحر الأبيض المتوسط كما كانت حال الأسطول العثماني. انظر John Pryor, Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649–1571 (Cambridge, 1988), 12–24.

(22) انظر دراسة تفصيلية لأفونسو دي ألبوكيركي في Geneviève Bouchon, Albuquerque, le lion des mers d'Asie (Paris, 1992).

الفصل الأول

(1) انظر على سبيل المثال Ivana Elbl, "Man of His Time (and Peers): A New Look at Henry the Navigator," Luso-Brazilian Review 28/2 (1991): 73–89; P. R. Russell, Prince Henry the Navigator: The Rise and Fall of a Cultural Hero (New York, 1984); also Malyn Newitt, "Prince Henry and the Origins of European Expansion," in Anthony Disney, ed., Historiography of Europeans in Africa and Asia, 1450–1800 (Brookfield, 1995), 85–111.

(2) B. W. Diffie and G. D. Winius, Foundations of the Portuguese Empire: 1415–1580 (Minneapolis, 1977), 113–22.

(3) David Woodward, "Medieval Mappaemundi," in J. B. Harley and David Woodward, eds., The History of Cartography, vol. 1: Cartography in Prehistoric, Ancient and Medieval Europe and the Mediterranean (Chicago, 1987), 286–370.

(4) Jacques Le Goff, "The Medieval West and the Indian Ocean: An Oneiric Horizon," in Anthony Pagden, ed., Facing Each Other: The World's Perception of Europe and Europe's Perception of the World (Burlington, 2000), 2.

(5) Anthony Pagden, European Encounters, 12.

(6) Robert Finlay, "Crisis and Crusade in the Mediterranean: Venice, Portugal and the Cape Route to India (1498–1509)," Studi Veneziani 28 (1994): 45–90.

(7) Gerald R. Tibbetts, "The Role of Charts in Islamic Navigation in the Indian Ocean," in Harley and Woodward, History of Cartography, 2: 256–62.

(8) انظر على سبيل المثال Marshall Hodgson, Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History (Cambridge, 1993), 203.

(9) انظر دراسة تمهيدية لنسخ أواخر القرن الخامس عشر العثمانية من كتاب الإصطرخي المهم «كتاب المسالك والممالك» في Karen Pinto, "3 Ways of Seeing: Scenarios of the World in the Medieval Cartographic Imagination" (PhD

.dissertation, Columbia University, 2002), 56–118

(10) ثمة تصنيفان رئيسان للأعمال الجغرافية العثمانية (كل منهما إشكالي في عدة نواح): Cevdet Türkay, İstanbul Kutuphanelerinde Osmanlılar Devrine Ait Turkce-Arapca-Farsca Yazma ve Basma Coğrafya Eserleri Bibliyografyası (Istanbul, 1958); and Ekmeleddin İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu Tarihi (Istanbul, 2000). ولا يوجد حصر مماثل لمجموعات الخرائط العثمانية. انظر مقدمة عامة في Ahmet Karamustafa, "Military, Administrative and Scholarly Maps and Plans of the Ottomans," in Harley and Woodward, The History of Cartography, 1: 209.

(11) توجد في المكتبة السليمانية نسخة قديمة من مجموعة بزرغ بن شهريار Bozorg b. Shahriyar في علم البحّارة، لكن لا تتوافر معلومات حول الطريقة التي وصلت بها هذه المخطوطة لإسطنبول أو توقيت وصولها. Bozorg b. Shahriyar, Livre des merveilles de l'Inde, trans. Marcel L. Devic (Leiden, 1883)؛ وفي المكتبة السليمانية أيضا، توجد النسخة المعروفة الوحيدة في إسطنبول من كتاب البيروني «الهند» Süleymaniye Library, Koprülü Ms. no. 1001.

(12) انظر Türkay, Coğrafya Eserleri ؛ أما كل المخطوطات الموجودة لهذا النص في المجموعات التركية، فلا يرجع أي منها إلى ما قبل القرن السادس عشر.

(13) من الواضح أن أول دارس عثماني وصلته هذه الخرائط هو الريس بيري كما سيرد لاحقا. انظر Tibbetts, "Role of Charts," 256–62.

(14) Adnan Adıvar, Osmanlı Turklerinde İlim, 9th ed. (Istanbul, 2000), 70.

(15) قُدم هذا العمل أول مرة لجمهور عثماني في العام 1554 مع اكتمال «كتاب المحيط» للريس سيدي علي. انظر Ahmad b. Majid al-Najdi, Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese, Being a Translation of the Kitāb al-Fawā'id f ī Usūl al Bahr wa'l-Qawā'id of Ahmad b. Mājīd al-Najdī, ed. and trans. G. R. Tibbetts (London, 1971).

(16) İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 1–13.

(17) كانت دراسة الجغرافيا محدودة حتى في بيئة المدرسة madrasa، إذ لم تكن أحد مجالات المنهج الإسلامي التقليدي، ما يفسر ضعف انتشار الأعمال الجغرافية عن الأعمال في مجالات أخرى مثل النحو والفقه وحتى الفلك والرياضيات خلال القرون الأولى للتاريخ العثماني. حول الحياة الفكرية في الإمبراطورية العثمانية خلال أواخر القرن الخامس عشر، انظر Franz Babinger, Mehmed the Conqueror and His Time, trans. Ralph Manheim (Princeton, 1978), 483–93.

(18) انظر Tony Campbell, "Portulan Charts from the Late Th irteenth Century to 1500," in Harley and Woodward, History of Cartography, 1: 371–447; also David Woodward, "Maps and the Rationalization of Geographic Space," in Jay Levenson, ed., Circa 1492: Art in the Age of Exploration (New Haven, 1991), 83–88.

(19) T.S.M.K. G.I.27.

(20) T.S.M.K. H.1823.

(21) Istanbul, Deniz Müzesi Kütüphanesi, no. 882.

(22) G. R. Crone, Maps and The ir Makers: An Introduction to the History of Cartography, 2nd ed. (London, 1964), 39–46; Fuat Sezgin, The Contribution of the Arabic-Islamic Geographers to the Formation of the World Map (Frankfurt, 1987), 40–45.

(23) M. Destombes, "Fragments of Two Medieval World Maps at the Topkapı Saray Library," Imago Mundi 18 (1964): 240–44.

(24) توجد أمثلة في Sebastiano Gentile, Firenze e la scoperta dell'America: Umanesimo e geografia nel'400 fiorentino (Florence, 1992).

(25) Crone, Maps, 68–75.

(26) Sezgin, Contribution of the Arab-Islamic Geographers, 46؛ حول التاريخ المبكر لنشر الخرائط، انظر Tony Campbell, The Earliest Printed Maps (London, 1987), 122–38.

(27) انظر مناقشة لرسم الخرائط العثماني إبان عهد محمد الفاتح وعلاقته بتطور رسم الخرائط في الغرب في Jerry Brotton, Trading Territories: Mapping the Early Modern World (London, 1987), 98–114.

(28) Coğrāfyā-yı Baṭlamyūs, Istanbul, Süleymaniye Library, Ayasofya Ms. no. 2610؛ انظر أيضا Adıvar, Osmanlı Turklerinde İlim, 34-37. يعد تكليف محمد الفاتح بترجمة هذا العمل الذي ترجم للعربية عدة مرات خلال القرون ما قبل العثمانية دليلا آخر على انعزال العثمانيين عن التقاليد الجغرافية الإسلامية الأقدم.

(29) T.S.M.K. G.İ. 84.

(30) أعاد بيرلينغيري لاحقا إهداء الكتاب لابن محمد الفاتح السلطان الجديد بايزيد الثاني. انظر James Hankins, "Renaissance Crusaders: Humanist Crusade Literature in the Age of Mehmed II," Dumbarton Oaks Papers 49 (1995): 127؛ انظر أيضا Sean Roberts, "Cartography between Cultures: Francesco Berlinghieri's Geographia of 1482" (PhD dissertation, University of Michigan, 2006).

(31) تكشف المحفوظات في الأرشيفات الإيطالية على سبيل المثال أن بير محمد Pir Mehmed الصدر الأعظم للسلطان سليم رتب لشراء خريطة بندقية في العام 1519. انظر Antonio Fabris, "The Ottoman Mappa Mundi of Hajji Ahmed of Tunis," Arab Historical Review for Ottoman Studies 7–8 (1993): 31–37.

(32) كُتب هذا العمل أصلا باللغة الفارسية وتُرجم للغة التركية في وقت لاحق من القرن. Yih-Min Liu, "A Comparative and Critical Study of Ali Akbar's Khitaynama with References to Chinese Sources," Central Asiatic Journal 27 2–1/(1983): 58–78؛ انظر Mevhibe Pınar Emiralioğlu, "Cognizance of the Ottoman World: Visual and Textual Representations in the Sixteenth-Century Ottoman Empire 1514–1596" (PhD dissertation, University of Chicago, 2006), 186–90.

(33) Paul Kahle, "China as Described by Turkish Geographers from Iranian Sources," in Paul Kahle, Opera Minora I (Leiden, 1956), 312–25.

(34) Nicolas Vatin, Sultan Djem: Un prince ottoman dans l'Europe du XVe siecle d'apres deux sources contemporaines: Vakiat-ı Sultan Cem, Oeuvres de Guillaume Caoursin (Ankara, 1997).

(35) حول الارتباط بين السلطان سليم والريس بيري، انظر Andrew Hess, "Piri Reis and the Ottoman Response to the Voyages of Discovery," Terrae Incognitae 6 (1974): 19–37. وانظر أيضا Svat Soucek, Piri Reis and Turkish Mapmaking after Columbus (Oxford, 1996).

(36) انظر صورة طبق الأصل لخريطة الريس بيري وترجمة لها في Piri Reis, Piri Reis Haritası Hakkında İzahname, ed. Yusuf Akçura (Istanbul, 1935).

(37) انظر Erich von Daniken's Chariots of the Gods (New York, 1970) كمثال للنظريات الضعيفة عمليا.

(38) يضم «كتاب البحرية» الذي أكمله الريس بيري في العام 1525 (يناقش لاحقا بمزيد من التفصيل) قسما تمهيديا طويلا يمثل نسخة نصية من خريطته السابقة للعالم.

(39) Piri Reis, Kitāb-ı Baḫrīye (Ankara, 1988), 1: 43.

(40) J. L. Bacqué-Grammont and Mohammad Mokri, "Une lettre di Qâsim Širvânî à Muzaff er Sâh du Gujarat: Les premieres relations des Ottomans avec l'Inde," in Rudolf Vesely and Eduard Gambar, eds., Zafername Memorial Volume of Felix Tauer (Prague, 1996).

(41) Adıvar, Osmanlı Turklerinde İlim, 74–79.

(42) Piri Reis, Kitāb-ı Baḫrīye, 1: 43.

(43) انظر على سبيل المثال Soucek, "Ottoman Discovery," 121–42.

(44) راجع دراسات تفند الدافع الاقتصادي لغزو السلطان سليم لمصر في Jean-Louis Bacqué-Grammont and Anne Kroell, Mamlouks, Ottomans et Portugais en Mer Rouge: L'affaire de Djedda en 1517 (Cairo, 1988), 20; Jean Aubin, "La politique orientale de Selim I," in Raoul Curiel and Rika Gyselen, eds., Itineraires d'Orient: Hommages a Claude Cahen (Bures-sur-Yvette, 1994), 197–215; and Soucek, "Ottoman Discovery," 128؛ انظر وجهة النظر المقابلة المسترشدة بالتجارة في Brummett, Ottoman Seapower, 2; Michael Mazzaoui, "Global Policies of Sultan Selim, 1512–1520," in Donald P. Little, ed., Essays on Islamic Civilization Presented to Niyazi Berkes (Leiden, 1976), 224–43; and Vitorino Magalhaes Godinho, "Le tournant mondial de 1517–1524 et l'empire portugais," Studia 1 (Jan. 1958): 188. انظر أيضا Salih ozbaran, "The Ottomans in Confrontation with the Portuguese in the Red Sea after the Conquest of Egypt in 1517," Studies in Turkish-Arab Relations (1986): 209.

(45) حول أصول مالك عياذ، انظر Jean Aubin, "Albuquerque et les négotiations de Cambaye," Mare Luso-Indicum 1 (1971): 5.

(46) تشمل الأدلة القصصية مصدرا معاصرا من حضرموت يذهب إلى أن مالك عياذ كان عبدا اشتري من تاجر عثماني. انظر R. B. Serjeant, The Portuguese off the South Arabian Coast: Hadrami Chronicles with Yemeni and European

Accounts of Dutch Pirates off Mocha in the Seventeenth Century
.(Oxford, 1963), 43

(47) حول استخدام مصطلح «الرومي»، انظر Salih ozbaran, "Ottomans as 'Rumes'
in Portuguese Sources in the Sixteenth Century," Portuguese Studies 17
Giancarlo Casale, "The Ethnic Composition of انظر أيضا :(2002): 64-74
Ottoman Ship Crews and the 'Rumi Challenge' to Portuguese Identity,"
حول عادات مالك عياذ الغذائية، :Medieval Encounters 13 (2007): 124-27
E. C. Bayley, The Local Muhammadan Dynasties: Gujarat (London, انظر
.1886), 234

(48) M. N. Pearson, Merchants and Rulers in Gujarat: The Response to the Portuguese in the Sixteenth Century (Berkeley, 1976), 103.

(49) حول مناورات مالك عياذ الديبلوماسية، انظر Aubin, "Négotiations de
.Cambaye," 5-15

(50) يصف كتب الأخبار الحضرمية وصول حسين في العام 1515 بأنه «بداية مجيء الرومين وأصل كل المتاعب»، 49.

(51) حول هذه الأحداث، انظر Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, Istanbul,
Süleymaniye Library, Hamidiye Ms. no. 886, fols. 4-8; also Zeinu'd-Din,
Tohfut ul-Mujahideen, trans. M. J. Rowlandson (London, 1833), 96-97;
and Muhammad Hajji ad-Dabir, An Arabic History of Gujarat, trans.
.M. F. Lokhandwala (Baroda, 1970), 1: 34-44

(52) من ذلك أن مصدرا يمنيا معاصرا يذهب إلى أن السلطان سليم كان يؤيد العمليات ضد البرتغاليين، لكنه «لم يكن يعلم الطموحات السرية لوالي مصر وأمير بحره حسين المتعلقة بغزو اليمن». L. O. Schuman, Political History of the Yemen at
the Beginning of the 16th Century According to Contemporary Arabic
.Sources (Amsterdam, 1961), 20

(53) لا توجد أدلة على أن سليم تراسل مباشرة مع مالك عياذ قبل وصول سليم مصر، لكن معروف أن مالك عياذ تراسل مع الريس سلمان، وهو قائد فرقة من البحّارة العثمانيين المتطوعين الذين خدموا ضمن القوة المملوكية التي كانت متمركزة حينئذ في اليمن. انظر Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, fol. 7b; also Bacqué-
.Grammont and Mokri, "Lettre de Qâsim Širvânî," 40

(54) Ibn Iyas, Journal d'un bourgeois du Caire: Chronique d'Ibn Iyās, Gaston Wiet, trans. (Paris, 1945), 2: 78 [excerpt is from the French translation].

(55) Ibn Iyas, Journal d'un bourgeois, 2: 107 [excerpt from French translation].

(56) Bacqué-Grammont and Mokri, "Lettre de Qâsim Širvânî," 35.

(57) Bacqué-Grammont and Mokri, "Lettre de Qâsim Širvânî," 44 [excerpt from French translation].

(58) Feridun Beg, Mecmū'a-yı Munşe'āt-ı Selāṭīn (Istanbul, a.h. 1264-75/
a.d. 1848-1858), 1: 447. تؤرخ الرسالة إلى الثالث والعشرين من نوفمبر 1518،

انظر أيضا Nizamuddin Maghrebi, "The Ottoman-Gujarat Relations (1517–1556): Political and Diplomatic," in P. M. Joshi, ed., Studies in the Foreign Relations of India from the Earliest Times to 1947 (Hyderabad, 1975), 187; and Naimur Rahman Farooqi, Mughal-Ottoman Relations: A Study of Political and Diplomatic Relations between Mughal India and the Ottoman Empire 1556–1748 (Delhi, 1989), 12. وفي الوقت نفسه تقريبا، أرسل سيد مالك عياذ سلطان كجرات مظفر شاه ردا متحمسا للبلاط العثماني. انظر Feridun Beg, Munşe'āt-ı Selāṭīn, 1: 446.

(59) "Com a nova dos Rumes achey a muy revolta. Ora vede senhor que serya terem nos por vezinhos afora ho credito que tem nestes partes." Gavetas, 15, 14–38.

(60) "Tem Dio com os bracos apertos esperando pullos Rumes... esta Cambaya tem agora todo ho trato de Meca nam fazem nas naos senam ir e vir." Gavetas, 15, 9–11.

(61) Nicolas Mirkovich, "Ragusa and the Portuguese Spice Trade," Slavonic and East European Review 21/56, part 1 (March 1943): 180.

(62) "Il Gran Turco desiderava l'amicitia de' Venetiani e che nel principio del nuovo imperio procurava d'accrescere i traffichi in quella provincia per particolare utilita e commodita di quei sudditi e per interesse dell'entrate publiche." Quoted in A. H. Lybyer, "The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade," English Historical Review 30 (1915): 582.

(63) Marin Sanuto, I diarii di Marino Sanuto (Venetia, 1879–1903), 25: 464.

(64) Thomaz, "L'idée imperiale," 41.

(65) انظر Cemal Kafadar, Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State (Berkley, 1995)؛ انظر وجهة نظر بديلة في: Heath Lowry, The Nature of the Early Ottoman State (Albany, 2003).

(66) Antonio Vasconcelos de Saldanha, "Conceitos de espaço e poder e seus reflexos na titulaçao régia portuguesa da época da expansao," in La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du colloque, Paris, les 26, 27 et 28 Mai 1988 (Paris, 1990), 105–30.

(67) Thomaz,. "L'idée imperiale," 40.

(68) Saldanha, "Titulaçao régia," 123.

(69) Saldanha, "Titulaçao régia," 126 [my translation from Portuguese].

(70) حول مزاعم سليم الإمبريالية، انظر Mazzaoui, "Global Policies". وانظر أيضا حجج كورنل فليتشر الذي يتناول استخدام سليم - في الوثائق الرسمية - لقبي «صاحب قِران» ṣāhib-kırān و«ظل الله» zill Allah بعد غزو مصر مباشرة. انظر Cornell Fleischer, "The Lawgiver as Messiah: The Making of the Imperial Image in the Reign of Suleyman," in Veinstein, Soliman le Magnifique, 162–63.

(71) Bacqué-Grammont and Mokri. "Lettre de Qâsim Širvanī," 38.

(72) انظر Sa'deddin, Tācu't-Tevārīḫ (Istanbul, A.H. 1279/a.d. 1863), 2:

371-72؛ انظر أيضا Faroqhi, Pilgrims and Sultans: The Hajj under the Ottomans 1517-1683 (New York, 1994), 147-48.

(73) Ibn Iyas, Journal d'un bourgeois, 2: 246.

(74) Feridun Beg, Munşe 'āt-ı Selāṭīn, 1: 397. كان الاعتراف بالخليفة المقيم في مصر باعتباره الرئيس الشرفي للسلطان الحاكم تقليدا متبعا في كجرات قبل الغزو العثماني. انظر Sanjay Subrahmanyam, "The Trading World of the Western Indian Ocean, 1546-1565: A Political Interpretation," in A. T. de Matos and L. F. Thomaz, A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII seminario internacional de historia indo-portuguesa (Angra do Heroismo, 1998), 215.

(75) عُيِّن حسين الرومي حاكما لجدة في العام 1519 محل قاسم شرواني، ونظم حملة على اليمن في العام 1520، لكنه عاد عندما وصله خبر موت سليم. Lutfi asha, Tevārīḫ-i Āl-i 'Os̱mān (Istanbul, A.H. 1341/a.d. 1922-23), 304-5; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 10b. من الواضح أن هذا الاستعراض للقوة أثنى دورية برتغالية عن محاولة الهجوم على جدة، إذ «تمكن الخوف والجبن» من البرتغاليين عندما علموا بوجود حسين بالقرب منهم. انظر Serjeant, Hadrami Chronicles, 51.

(76) انظر Edward Said, Orientalism (New York, 1978).

(77) يستخدم أغلب هذه المصادر المصطلحين المبهمين «تركي» و«رومي» للإشارة للعثمانيين والمماليك. حول المشكلات المرتبطة بالمصطلحين في كتابة التاريخ العثماني، انظر Salih ozbaran, Bir Osmanlı Kimliği: 14.-17. yuzyıllarda Rūm/Rūmī Aidiyet ve İmgeleri (Istanbul, 2004).

(78) حتى في عالم الديبلوماسية، لم يكن ثمة اتصال عثماني بالمحيط الهندي قبل القرن السادس عشر. ومن الواضح أن سلاطين الدكن البهمنيين كانوا وحدهم الذين تبادلوا خلال القرن الخامس عشر بضع سفارات متقطعة مع العثمانيين لا تختلف عن الظهور العرضي لسفارات من إثيوبيا في بلاطات أوروبا المتوسطية. Maghrebi, "Ottoman-Gujarat Relations," 185; Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 12. حول التجارة العثمانية مع المحيط الهندي قبل القرن السادس عشر، انظر Halil Inalcik, "Bursa and the Commerce of the Levant," Journal of the Economic and Social History of the Orient 3/2 (1960): 131-47.

(79) تعرف خليل إينالجك على تقرير يؤرخ لعهد بايزيد الثاني من ريس بحر عثماني أُرسل للخدمة في البحر الأحمر، على أن الصفة التي خدموا بها هناك غير واضحة. لكن لا توجد أدلة على هذا الترتيب من عهد سليم. انظر Inalcik, "Review: David Ayalon, Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom," Belleten 21/81-84 (1957), 500-12. أمد السلطان بايزيد المماليك بالنحاس لصب المدافع لحملة المحيط الهندي، مع أن المصادر توضح أن هذا النحاس أعطي للمماليك بيعا وليس معونة عسكرية. ثم بدأ بايزيد بعد ذلك في إمدادهم بالأسلحة والتجهيزات مجانا من باب العون الديني لقضية الجهاد ضد الكفار، لكن ربما كان ذلك في حقيقته ثمنا لتسليمه ابنه كركود Korkud (كوركوت) الذي كان لاجئا في البلاط المملوكي في العام 1509. انظر Brummett, Ottoman Seapower, 114-15؛ انظر أمثلة أخرى لأعمال الخير التي نفذها بايزيد في مكة والمدينة في Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 76-77.

(80) دفعت دراسة حديثة بأن بايزيد لم يكن المسؤول بالدرجة الأولى عن الدعم البحري العثماني للمماليك خلال هذه السنوات، بل الأمير العثماني كركود أخي سليم ومنافسه على العرش الذي تمركز في ولاية مانيسا الساحلية الأناضولية وكانت له صلات قوية مع «الغزاة البحريين» الإيجيين. وحيث إن سليم عندما اعتلى العرش أعدم كركود، فإن ذلك يفسر انقطاع الدعم الإمدادي العثماني للمماليك. انظر Nabil al-Tikriti, "Şehzāde Korkud (c. 1468–1513) and the Articulation of Early 16th-Century Religious Identity" (PhD dissertation, University of Chicago, 2004), 134–36.

(81) Ibn Iyas, Journal d'un bourgeois, 1: 230. حدث هذا الاعتقال مع أن الريس سلمان ورجاله تحملوا وحدهم وطأة الدفاع البطولي عن جدة ضد الهجوم البرتغالي في العام 1517. انظر John Guilmartin, Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the 16th Century (New York, 1980), 7–13.

(82) انظر على سبيل المثال Hess, "Piri Reis," 31–33.

(83) حتى برودل Braudel في دراسته الكلاسيكية للبحر الأبيض المتوسط يدفع بأن الغزو العثماني لمصر لم يحدث إلا بعد أن فقد الغرب اهتمامه بمصر بفضل الاكتشافات. Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, trans. Sian Reynolds (New York, 1972), 2: 666–67. انظر مناقشة عامة لهذه المسألة في Russell R. Menard, "Transport Costs and Long-Range Trade, 1300–1800: Was There a European Transport Revolution?" in James Tracy, ed., The Political Economy of Merchant Empires (Cambridge, 1991), 228–75.

(84) حتى ألبوكيركي حلم بحفر قناة السويس بعد إتمام غزو مصر. Thomaz, "L'idée imperiale," 54؛ وكانت أهداف كولومبس من البحث عن طريق غربي إلى جزر الهند الشرقية مماثلة تماما. انظر Abbas Hamdani, "Columbus and the Recovery of Jerusalem," Journal of the American Oriental Society 101 (1981): 323–30.

الفصل الثاني

(1) حول هذه التغيرات إبان عهد سليمان، انظر Gilles Veinstein, ed., Soliman le Magnifique et son temps (Paris, 1992); and Halil Inalcik and Cemal Kafadar, eds., Suleyman the Second and His Time (Istanbul, 1993)؛ حول الأهمية المتنامية للحريم السلطاني، انظر Leslie Peirce, The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire (New York, 1993), 57–90.

(2) حول حياة روكسلانا، انظر S. A. Skilliter, "Hürrem," EI2, 66; and Peirce, Imperial Harem, 57–70. حول حياة إبراهيم باشا المبكرة، انظر Ebru Turan, "The Sultan's Favorite: Ibrahim Paşa and the Making of the Ottoman Universal Sovereignty in the Reign of Sultan Süleyman, 1516–1526" (Ph.D. Dissertation, University of Chicago, 2007). استفادت الرواية المقدمة

هنا من عمل طوران، مع أن بؤرة اهتمامي تختلف عن كتابها في عدة نواح.

(3) الاقتباس من البايلو بيترو براغادين Pietro Bragadin في Eugenio Álberi, ed., Le relazioni degli ambasciatori veneti al senato (Firenze, 1840-), 9: 103-4. انظر بوجه عام Turan, "The Sultan's Favorite," 138-44.

(4) انظر Turan, "The Sultan's Favorite," 179-222. أوضحت طوران أن عروس إبراهيم كانت في حقيقة الأمر امرأة من بيت مالكه السابق، وليست أخت السلطان كما ذكرت دراسات سابقة.

(5) قدمت طوران أدلة توحي بأن أحمد باشا وإبراهيم ربما كانا حليفين في البداية وأن أحمد باشا لم يتمرد إلا بعد أن علم بأن السلطان قد أمر بإعدامه. على أنه لا يوجد إجماع بين الروايات الباقية حول هذا الموضوع. انظر Turan, "The Sultan's Favorite," 188-202.

(6) كان تمرد أحمد باشا قد أخمد فعلا في معظمه قبل وصول إبراهيم باشا لمصر. انظر Süheyli, Tārīḫ-i Mıṣır al-Cedīd (Ḳosṭanṭiniyye, H.1142), fols. 54a-b; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, 19b-20b; Hasan b. Tulun, Tārīḫ-i Mıṣır. British Museum, M.S. Add. 1846, fols. 348-50.

(7) فيما بعد أمّر سليم الريس بيري (الذي كان حتى ذلك الوقت يخدم تحت إمرة الأخوين بارباروسا في تونس والجزائر) على القوة البحرية الإمبراطورية المشكلة حديثا في الإسكندرية Orhonlu, "Piri Reis," 35-45.

(8) حول هذا اللقاء الذي وصفه بيري في «كتاب البحرية»، انظر Hess, "Piri Reis," 19.

(9) Piri Reis, Kitāb-ı Bahrīye, 47.

(10) انظر Svat Soucek, Piri Reis and Turkish Mapmaking after Columbus (Oxford, 1996).

(11) Marcel Destombes, "L'hemisphère austral en 1524: une carte de Pedro Reinel à Istanbul," Comptes rendus du congres international de geographie, Amsterdam 2 (1938)؛ انظر للمؤلف ذاته "The Chart of Magellan," Imago Mundi 12 (1955): 65-88.

(12) Destombes, "Chart of Magellan," 68.

(13) حول اهتمام إبراهيم بالجغرافيا، انظر Nicolas Vatin, "Sur quelques propos géographiques d'Ibrahim Pacha, grand vezir de Soliman le Magnifique (1533)," in Jean-Louis Bacqué-Grammont and Emeri Van Donzel, eds., Comite International d'Etudes Pre-Ottomanes et Ottomanes, VIth symposium, Cambridge 1st-4th of July 1984 (Istanbul, 1987), 141-50. انظر أيضا في المجلد ذاته Jean-Louis Bacqué-Grammont, "Une lettre d'Ibrahim Paşa à Charles Quint," 65-88.

(14) كان إبراهيم معروفا مثلا بصداقته لألفيس غريتي Alvise Gritti الابن غير الشرعي للدوج البندقي أندريا غريتي Andrea Gritti الذي عمل وسيطا لمشتريات البلاط العثماني من كل أنواع المنتجات المتاحة في البندقية. انظر Gülru Necipoğlu, "Süleyman the Magnificent and the Representation of Power in the Context of Ottoman-Hapsburg-Papal Rivalry," Art Bulletin 71/3 (Sept. 1989): 401-27. انظر أيضا Turan, "The Sultan's Favorite," 280-315.

(15) Destombes, "Chart of Magellan," 88.

(16) حول مغامرات سلمان في اليمن، انظر Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, fols. 17a-19b.

(17) Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, fol. 21b.

(18) Salih Ozbaran, "A Turkish Report on the Red Sea and the Portuguese in the Indian Ocean (1525)," Arabian Studies 4 (1978): 81-88. يوجد تدوين صوتي للنص التركي الأصلي في Fevzi Kurtoğlu, "Amiral Selman Reis Lāyıhası," Deniz Mecmuası 47/335 (1935): 67-73. توجد الوثيقة الأصلية في أرشيفات سراي توبكابي Topkapı Palace Archives, T.S.M.A. E. 6455؛ حول استقبال إبراهيم باشا للتقرير، انظر Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, fol. 22b.

(19) Ozbaran. "Turkish Report," 86.

(20) Kutbeddin Mekki, Ahbār al-Yemānī, fols. 20b-21a.

(21) راجع النص في Omer LutfiBarkan, XV ve XVI'ıncı Asırlarda Osmanlı İmparatorluğunda Zirai Ekonominin Hukuki ve Mali Esasları, Birinci Cilt: Kanunlar (Istanbul, 1943), 355-87

(22) حول السياسات المملوكية السابقة على الغزو العثماني، انظر John Meloy, "Imperial Strategy and Political Exigency: The Red Sea Spice Trade and the Mamluk Sultanate in the Fifteenth Century," Journal of the American Oriental Society 123/1 (2003): 1-19; Walter Fischel, "The Spice Trade in Mamluk Egypt," Journal of the Economic and Social History of the Orient 1 (1958): 157-74؛ انظر بوجه عام Carl Petry, The Reigns of the Mamlūk Sultans al-Ashraf Qāytbāy and Qanṣūh al-Ghawrī in Egypt (Seattle, 1993)

(23) وفقا لرواية برتغالية معاصرة، كان لزاما إبان عهد قنصوه الغوري أن يكون ثلث كل الحمولة بين كاليكوت وجدة فلفلا، كان يباع لوكلاء مملوكيين بأسعار كاليكوت. وإذا وصل التاجر جدة بلا فلفل، كان لزاما أن يباع ثلث حمولته هناك وتستخدم الإيرادات لشراء الفلفل (بأسعار جدة المرتفعة)، ثم يعاد بيعه لوكلاء الدولة بأسعار كاليكوت الأرخص. Castanheda, Historia do descobrimento e conquista da India pelos Portugueses (Lisbon, 1833), 2: 75.

(24) يذكر ابن إياس أنه خلال السنوات السابقة على الغزو العثماني، انخفض العبور التجاري في جدة والإسكندرية ودمياط بشدة «بسبب انتشار الضرائب التعسفية». Ibn Iyas, Journal d'un bourgeois, 2: 87؛ ويحكي الريس سلمان أن التجار القادمين من الهند كانوا يفضلون التجارة في سواكن بدلا من جدة بسبب «الجور المفرط في ميناء جدة». Ozbaran, "Turkish Report," 85. حول الفساد المملوكي، انظر أيضا John Meloy, "The Privatization of Protection: Extortion and the State in the Circassian Mamluk Period," Journal of the Economic and Social History of the Orient 47/2 (2004): 195-212.

(25) حول تعليقات سلمان على هذه المسألة، انظر Ozbaran, "Turkish Report," 85.

(26) Omer LütfiBarkan, "H.933-34 (M.1527-28) Mali Yılına Ait Bir Bütçe orneği," İktisat Fakultesi Mecmuası 15/1-4 (Istanbul, 1954), 251-93.

(27) Luis Filipe Thomaz, "A questao da pimenta em meados do século XVI," in de Matos and Thomaz, Carreira da India, 88–89.

(28) انظر إحصاءات حول حجم التوابل المبيعة في الإسكندرية من نهاية القرن حتى العام 1532 في Vitorino Magalhaes Godinho, Os descobrimentos e a economia mundial, 2nd ed. (Lisbon, 1981), 3: 84–85.

(29) Ozbaran, "Turkish Report," 82.

(30) Ozbaran, "Turkish Report," 82.

(31) Ozbaran, "Turkish Report," 85.

(32) Frédérique Soudan, Le Yemen Ottoman d'apres la chronique d'al-Mawza'ī: al-iḥsān fī duh_ūl mamlakat al-Yaman taḥt ẓill 'adālat Āl 'Uthmān (Cairo, 1999), 54 [my translation from the French].

(33) كان أغلب أمراء الحرب، لاسيما في تعز وزبيد، يعترفون بولاء اسمي على الأقل للسلطان العثماني. انظر J. R. Blackburn, "Two Documents on the Division of Ottoman Yemen into Two Beglerbegiliks (973–1565)," Turcica 27 (1995): 223. انظر رواية تفصيلية معاصرة للنزاع السياسي في اليمن في Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fols. 13b–19b.

(34) إلى جانب المصادر التي تأتي لاحقا، تُذكر هذه الحملة بإيجاز في رواية القرن السابع عشر لكاتب جلبي «تحفة الكبار في أسفار البحار» Tuḥfetu'l-Kibār fī Esfāri'l-Biḥār , ed. Orhan Şaik Gokay (Istanbul, 1973), 37–38.

(35) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fol. 22b; M. Yakub Mughul, "The Beginning of the Ottoman Domination in the Red Sea: The Way to India." Sind University Research Journal Arts Series: Humanities and Social Sciences 9 (1970): 68.

(36) Ibn Tulun, Tārīḫ-i Mıșır , fol. 350b.

(37) Süheyli, Tārīḫ-i Mıșır al-Cedīd , fol. 54b; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fol. 21a.

(38) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fols. 21b–23b.

(39) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fols. 25a–26b.

(40) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fols. 26b–27a.

(41) Serjeant, Hadrami Chronicles, 34.

(42) انظر رسالة كريستوفو دي ميندونسا Cristovao de Mendonça من هرمز للملك في الحادي عشر من يوليو 1528 Gavetas , 15, 17–22.

(43) Ozbaran, "Turkish Report," 84.

(44) Gavetas , 15, 17–19.

(45) Dejanirah Couto, "Trois documents sur une demande de secours ormouzi à la Porte Ottomane," Anais de historia de alem-mar 3 (2002): 469–98.

(46) Dejanirah Couto, "No rasto de Hādim Seleimao Pacha: alguns aspectos do comércio do mar vermelho nos anos de 1538–40," in de Matos and Thomaz, Carreira da India , 494.

(47) انظر Geneviève Bouchon, "L'évolution de la piraterie sur la côte malabare au cours du XVIe siècle," in Course et piraterie: Etudes presentees a la commission internationale d'histoire maritime a l'occasion de son XVe colloque internationale (San Francisco, 1975), 749. انظر أيضا Jorge Manuel dos Santos Alves, O dominio do norte de Sumatra (Lisbon, 1999), 160.

(48) DA , dec. IV, bk. 3, chap. 2.

(49) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fols. 17a–19b.

(50) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fols.27a–28a; Ḥajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat , 1: 188.

(51) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī , fol. 27b; Gavetas , 20, 2–21; Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat , 1: 188; for Mustafa's career, see M. Y. Mughul, "Türk Amirali Emir Ibn Behram Bey'in Hindistan Seferi (1531)," İstanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi 4–5 (August 1973–74), 247–62.

(52) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 91.

(53) انظر المزيد من التفاصيل حول حملة إيتور دا سيلفيرا في DA , dec. IV, bk. 6, chap. 10.

(54) Serjeant, Hadrami Chronicles, 56.

(55) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 25a.

(56) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 1: 188.

(57) Serjeant, Hadrami Chronicles, 56; DA, dec. IV, bk. 3, chap. 6.

(58) حول هذه الأحداث، انظر Mughul, "Türk Amirali," 250–58; Zeinu'd-Din, Tohfut'ul-Mujahideen, 133, 189; DA, dec. IV, bk. 8, chap. 3.

(59) Serjeant, Hadrami Chronicles, 59–60.

(60) Bayley, Local Muhammadan Dynasties 347; DA, dec. IV, bk. 8, chap. 3; Serjeant, Hadrami Chronicles, 60.

(61) حول خدمة مصطفى بيرم اللاحقة لهمايون، انظر Bayley, Local Muhammadan Dynasties, 377–95.

(62) انظر مناقشة لهذه النخبة الرومية في Sanjay Subrahmanyam, "The Trading World of the Western Indian Ocean," in de Matos and Thomaz, Carreira da India, 217; also Farooqi, Mughal- Ottoman Relations, 11.

(63) accio le caravelle cariche di specie potessero venire dall'India de longo in… "Alessandria, et de li in Costantinopoli." Luigi Roncinotto, Viaggi da Venezia alla Tana (Venice, 1545), quoted in Agostino Gambara, "Il Canale di Suez e la Repubblica di Venezia," Archivio Veneto 2 (1871): 181.

(64) Sao Lourenco, 1: 199–200.

(65) Gavetas, 20, 7–15; يبيّن دفتر حسابات عثماني مؤرخ في العام 937 هجرية (1531-1530) مليوني أقجة مخصصة لبناء قوادس في السويس، Istanbul,

Salih Ozbaran, انظر أيضا .Başbakanlık ArŞivi, Kamil Kepeci no. 5638 "The Ottomans in Confrontation with the Portuguese in the Red Sea after the Conquest of Egypt in 1517," Studies in Turkish-Arab Relations .(1986): 210

(66) Dizem que mete em cabeca todalas cousas necessarias ao Turquo pera a sua armada que va ao Mar Roxo contra Portugueses e que ele sabe muy bem a pratica daquele reino de Portugall e ho que el rey pode fazer e tudo isto muidamente de maniera que dizem que ho Turquo manda fazer mais enforco do que pensava de fazer." Gavetas, 20, 7-15.

(67) "...o que elle agora faz e mays segundo dizem por a meca que por nihuma outra cousa." Gavetas, 20, 7-15. 68.

(68) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 98.

(69) انظر على سبيل المثال Hess, "Piri Reis," 25; also Ozbaran, Ottoman .Response, 84

(70) انظر نص تقرير خسرو باشا في T.S.M.A. E. 8964.

(71) Salih Ozbaran, "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf 1534-1581," Journal of Asian History 6/1 (Spring 1972): 48-49; also Willem Floor, The Persian Gulf: A Political and Economic History of Five Port Cities 1500-1730 (Washington, 2006), 154.

(72) Zeinu'd-Din, Tohfut ul-Mujahideen, 127; Ozbaran, "Ottoman Turks," 50.

(73) Gavetas, 20, 7-15.

(74) "Il re di Portogallo viene in considerazione del Signor Turco... per [le cose] dell'Indie, si per l'aiuto che ditto re potesse fare dare al Sof i per quella via, come per l'impresa che potesse il Signor Turco fare a distruzione della navigazione di Portogallo in quelle parti." Alberi, Relazioni, 3: 22.

(75) Ozbaran, "Ottoman Turks," 55; Floor, Persian Gulf, 156.

(76) مع أن هذا التفسير لفقدان إبراهيم لعطف السلطان هو الأكثر شيوعا في الروايات التاريخية العثمانية، فإن الدراسات الأخيرة تذهب إلى أنه يجب النظر إلى سقوط إبراهيم في سياق أيديولوجيا الحكم الناشئة التي تبناها سليمان. انظر على سبيل المثال .Fleischer, "Lawgiver as Messiah," 166-67

(77) Skilliter, "Hürrem," EI 2, 5: 66a-b.

(78) Gokbilgin, "Ibrāhīm Pasha," EI 2, 3: 998a.

الفصل الثالث

(1) حول حياة سليمان الخادم المهنية، انظر Cengiz Orhonlu, "Khādım Süleymān .Pasha," EI 2, 4: 901a

(2) de Sacy, "Foudre du Yémen," 442.

(3) حول اشتغال سليمان الخادم بصنع الخرائط، انظر Giancarlo Casale, "An

Ottoman Intelligence Report from the Mid Sixteenth-Century Indian
.187 :(2007) 1/Ocean," Journal of Turkish Studies 31

(4) انظر سيرة موجزة لخوجه صفر في Subrahmanyam, "Trading World," 217؛ كما توجد رواية تاريخية ممتعة وغنية بالمعلومات حول خوجه صفر، لكنها لسوء الحظ لا تتوافر إلا باللغة التركية، في M. Turhan Tan, Hint Denizlerinde Turkler .(Istanbul, 1939)

(5) حول وفاة بهادر ودور خوجه صفر في الدفاع عنه، انظر Bayley, Local Muhammadan Dynasties, 397–98; and Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 215–.23

(6) Pearson, Merchants and Rulers, 75.

(7) Dejanirah Couto, "Hādim Seleimao," 494.

(8) Zeinu'd-Din, Tohfut ul-Mujahideen, 135.

(9) حول هذه الأحداث، انظر DA, dec. IV, bk. 9, chap. 7; also Hajji ad-Dabir, .Arabic History of Gujarat, 214

(10) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 219.

(11) DA, dec. IV, bk. 9, chap. 8; Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 207; M. Y. Mughul, "The Expedition of Suleyman Pasha Al-Khadim to India (1538)," Journal of the Regional Cultural Institute (Iran, Pakistan, Turkey) 2/3 (Summer 1969): 146.

(12) LütfiPaşa, Tevārīḫ-i Āl-i 'Osmān, 357.

(13) لاتزال الرسالة الأصلية التي أرسلها آصف خان بتاريخ السابع عشر من ذي الحجة 942/السابع من يونيو 1536 محفوظة في أرشيفات سراي توبكابي Topkapı Palace archives, T.S.M.A. E.1351؛ أما المصدر العثماني الوحيد الذي يذكر بالاسم المبعوث الذي جلب هذه الرسالة إلى إسطنبول، فهو كتاب «قانون نامه السلطان سليمان خان» Ḳānūnnāme-i Sulṭān Suleymān Ḫān, Istanbul, Süleymaniye Library, Veliyüddin Efendi Ms. no. 1970, fol. 14a؛ انظر وصفا من رأي العين لزيارة هذه السفارة من تأليف عضو بالديوان الهمايوني في ذلك الوقت في Lütfi Paşa, Tevārīḫ-i Āl-i 'Osmān, 357–58؛ تقدم الروايات البرتغالية نسخة لهذه الأحداث مختلفة بعض الشيء عن النسخة المقدمة هنا، انظر .DA, dec. V, bk. 2, chap. 6

(14) Mughul, "Expedition of Suleyman Pasha," 148–48.

(15) Serjeant, Hadrami Chronicles, 73–74.

(16) انظر تقرير بيدرو دي سوسا دي تافورا من روما بتاريخ التاسع عشر من يوليو 1537 في .Pedro de Sousa de Tavora from Rome, July 19 1537 in CDP, III, 396–97

(17) "lhe pedio... que mandasse sua armada a India contra os portugueses e que viesse demander aquella ilha de Dio, onde lhe seria muito fasil tomar aquella fortz.a para o que lhe daria elle toda ajuda necessaria. E que f icava dali a ballravento de toda a India para onde a todo o tempo que quisesse poderia partir a fazer guerra as mais fortalezas dos portugueses que lhe nao poderiao resistir. E assy os lanssariao fora da India e tornaria a f icar o comerssio antigo em sua liberdade como dantes e a

romagem da casa de Mafamade desempedida aos romeiros della." DA, dec. V, bk. 2, chap. 8.

(18) Serjeant, Hadrami Chonicles, 78.

(19) Serjeant, Hadrami Chonicles, 76-77.

(20) حـــول العـــلاقـــات العثـــمانية مـــع زيـــلـــع، انظر Orhonlu, Habeş Eyaleti (Istanbul, 1974), 1-17.

(21) انظر Pinto, The Travels of Mendes Pinto, ed. and trans. Rebecca D. Catz (Chicago, 1989), 28؛ انظر أيضا: Anthony Reid, "Sixteenth-Century Turkish Influence in Western Indonesia," Journal of South East Asian History 10/3 (December 1969), 402.

(22) Pinto, Travels, 38.

(23) انظر على سبيل المثال Reid, "Turkish Influence," 402; Alves, Dominio do norte, 142.

(24) Pinto, Travels, 21.

(25) يخبرنا بينتو أنه أبحر من غوا قاصدا ملقا في الثالث عشر من أبريل 1539 مع أول الرياح الموسمية بعد الانسحاب العثماني من ديو، ويصر على أن العثمانيين في وقت وصوله كانوا يشنون حملة في سومطرة منذ أشهر على الأقل. وحيث إن أي قوة آتية من كجرات كان لزاما عليها أن تنتظر الرياح الموسمية نفسها التي انتظرها بينتو قبل أن يبدأ رحلته إلى آتشيه، فلا بد أن هؤلاء العثمانيين وصلوا مع الرياح الموسمية في السنة السابقة بالإبحار من البحر الأحمر مباشرة إلى جنوب شرق آسيا.

(26) Pinto, Travels, 21.

(27) حول العلاقات مع باتي ماراكار، انظر Jorge Manuel Costa da Silva Flores, Os Portugueses e o mar de Ceilao 1498-1543: Trato, diplomacia e guerra (Lisbon, 1998).

(28) انظر Denys Lombard, Le Sultanat d'Atjeh au temps d'Iskandar Muda 1607-1636 (Paris 1967), 37. انظر أيضا Alves, Dominio do norte, 162-66.

(29) DA, dec. V, bk. 2, chap. 6. أُلّفَ شخص مجهول من أحد هذه الأطقم البندقية سردية تشكل مصدرا تاريخيا رئيسا للحملة. انظر ترجمة إنجليزية لهذه السردية في "Particular Relation of the Expedition of Solyman Pacha from Suez to India against the Portuguese at Diu," in Robert Kerr, ed., General History and Collection of Voyages and Travels (Edinburgh, 1824), 7: 257-87.

(30) انظر إعادة تقييم لحجم هذا الأسطول المبكر في Christopher Wake, "The Myth of Zheng He's Great Treasure Ships," International Journal of Maritime History, 14/1 (June 2004): 59-75.

(31) حول أعداد السكان في آسيا البرتغالية، انظر Sanjay Subrahmanyam, The Portuguese Empire in Asia, 1500-1700: A Political and Economic History (Longon, 1993), 216-24.

(32) إلى جانب المصادر المذكورة هنا، انظر رواية برتغالية رئيسة للحصار في Lopes de Sousa Coutinho's Historia do cerco de Dio (Lisbon, 1890)؛ انظر أيضا

مجموعتين من الوثائق Luciano Ribeiro, "O primeiro cerco de Dio," Studia 1 (Jan. 1958): 201–95; and "Emtorno do primeiro cerco de Diu," Studia 13–14 (Jan.–July 1964): 41–100؛ انظر أيضا Herbert Melziğ, Buyuk Turk Hindistan Kapılarında (Istanbul, 1943). باستثناء أخبار قطب الدين مكي، لا توجد روايات عثمانية للحصار، بالاستثناء الجزئي لكتاب كاتب جلبي «تحفة الكبار» Katib Celebi's Tuḫfetu'l-Kibār, 83–84. وتغيب رواية سليمان الخادم عن مجموعة رسائله. انظر Fevzi Kurtoğlu, "Hadım Süleyman Paşa'nın Mektupları ve Belgrad'ın muhasara planı," Belleten 9 (1940): 63–73؛ انظر رسالة من سليمان الخادم إلى الوزير الكجراتي أولو خان محفوظة اليوم بترجمة برتغالية في Torre do Tombo Archives. See A.N.T.T., Corpo Cronologico, parte 3a, maço 14, doc. 44.

(33) DA, dec. V, bk. 5, chap. 3.

(34) انظر Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 38b; Serjeant, Hadrami Chronicles, 44; Soudan, Chronique d'al-Mawzaʿī, 55–56; Katib Celebi, Tuḫf etu'l-Kibār, 83؛ انظر حول رواية سليمان الخادم، Kurtoğlu, "Hadım Süleyman," 63–66.

(35) انظر آراء قطب الدين مكي بشأن هذه المسألة في Aḫbār al-Yemānī, fol. 38b؛ انظر أيضا Katib elebi, Tuḫfetu'l-Kibār, 83.

(36) Pinto, Travels, 13.

(37) DA, dec. V, bk. 3, chap. 6.

(38) Serjeant, Hadrami Chronicles, 97; DA, dec. V, bk. 3, chap. 7; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 39b.

(39) انظر نسخة سليمان الخادم للأحداث في A.N.T.T. Corpo Cronologico, parte 3a, maço 14, doc. 44.

(40) "mikdār ve ḥaddın bilmez." Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 40a.

(41) "vezīr-i aʿẓamı geldukde eger ṣalb eylemiş olaydım tamām murād uzere meṣāliḥ itmām olmış idi." Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 40a.

(42) انظر Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 40a. انظر أيضا Serjeant, Hadrami Chonicles, 97.

(43) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 227; Katib Celebi, Tuḫf etu'l-Kibār, 83.

(44) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 227.

(45) حذر خوجه صفر سليمان الخادم من أن «السلطان طفل وأن كل شيء في يد الوزير ["El Rey era moco e o gozil gouvernava tudo "], A.N.T.T. Corpo Cronologico, parte 3a, maço 14, doc. 44. fol. 1b.

(46) "Era tam nas maos dos ymfeis que nam conheceu a sua ley." A.N.T.T. Corpo Cronologico, parte 3a, maço 14, doc. 44, fol. 1a.

(47) تذهب بعض المصادر إلى أن قرار سليمان الخادم بالانسحاب جاء بعد رسالة زيفها

خوجه صفر لإقناعه بأن قوة إغاثة برتغالية كبرى كانت في الطريق. انظر المصدر المجهول "Particular Relation," 275؛ والمصدر Serjeant, Hadrami Chronicles, 97؛ والمصدر Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 227.

(48) انظر نسخة للأحداث تدعم هذا التفسير في Serjeant, Hadrami Chronicles, 85.

(49) انظر الرسالة الأصلية من السلطان بدر التي تؤكد هذه الاتفاقية بتاريخ شعبان 945/ يونيو 1539 في T.S.M.A. N.E.6704؛ انظر أيضا Serjeant, Hadrami Chronicles, 85–86.

(50) انظر رواية سليمان الخادم لهذه الأحداث في Kurtoğlu, "Hadım Süleyman," 69–73؛ انظر أيضا Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fols. 41b–43a; Anonymous, "Particular Relation," 279; DA, dec. V, bk. 5, chap. 4; Soudan, Chronique d'al-Mawza'ī, 55–56; Katib Celebi, Tuḥf etu'l-Kibār, 84.

(51) J. R. Blackburn, "Two Documents on the Division of Ottoman Yemen into Two Beglerbegiliks (973–1565)," Turcica 27 (1995): 244; Orhonlu, "Kızıldeniz Sahilleri'nde Osmanlılar," Tarih Dergisi 16 (July 1961): 16; Katib Celebi, Tuḥf etu'l-Kibār, 84.

(52) PM, 6: 295.

(53) حول التحصينات في عدن، انظر رسالة جواو دي كاسترو في التاسع والعشرين من أكتوبر 1539 في João de Castro, Oct. 29, 1539, in Cartas, 38. وحول المخا، انظر Anonymous, "Particular Relation," 240.

(54) حول صعود سورت، انظر Sanjay Subrahmanyam, "A Note on the Rise of Surat in the Sixteenth Century," Journal of the Social and Economic History of the Orient 43/1 (2000): 23–33.

(55) Subrahmanyam, "Trading World," 213.

(56) "quam danosa e pergudisiall nos seja esta vizimhamca a meu ver a pouco que detriminar, porque somente com estarem quedas nos farao tamta guerra e porao em tamto gasto que nao sera muito de nos porem em termos de deixar a terra." Cartas, 51.

(57) انظر على سبيل المثال DA, dec. V, bk. 7, chap. 1؛ انظر أيضا Elaine Sanceau, "Uma narrativa da expediçao portuguesa de 1541 ao Mar Roxo," Studia 9 (Jan 1962): 226؛ انظر صياغة حديثة لهذا الرأي في Dejanirah Couto, "Rasto de Hādim Seleimao," 498.

(58) حول الاختلاط في المصادر المحلية حول مصير سليمان الخادم، انظر Soudan, Chronique d'al- Mawzaʿī, 57; Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 309.

(59) حول الحياة المهنية لهذه الشخصية المثيرة وسقوطها، انظر Antonio da Silva Rego, "Duarte Catanho, Espiao e Embaixador (1538–1542)," Anais serie 2, 4 (Lisbon, 1953): 123–140; and Dejanirah Couto, "L'itinéraire d'un marginal: la deuxième vie de Diogo de Mesquita," Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian 39 (2000): 9–35. يصحح كوتو بعض الأخطاء

المهمة في عمل ريغو الذي يذكر خطأً أن كاتانيو كان بندقيا وأنه أُعدم لاحقا بتهمة التجسس في لشبونة (اتُّهم فعلا بالتجسس لكنه بُرِّئ).

(60) وافق نائب الملك على إرسال كاتانيو إلى لشبونة في الحال، لكن نتيجة لأنه اضطر إلى أن ينتظر الرياح الموسمية التالية، فإنه لم يغادر إلا بعد انسحاب سليمان الخادم من ديو. .Rego, "Duarte Catanho," 124

(61) Rego, "Duarte Catanho," 127.

(62) بعد ثلاث سنوات، قُبض على كاتانيو بعد سفره إلى إسطنبول والهند والعودة إلى لشبونة وبحوزته وثائق تثير الشبهة واتُّهم بالتجسس. Rego, "Duarte Catanho," .139

(63) Rego, "Duarte Catanho," 130–31.

(64) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 106؛ انظر الوثيقة الأصلية في A.N.T.T. Doc. Orient. maço 1 doc. 22. وكذلك حُفظت الترجمة البرتغالية الأصلية. انظر A.N.T.T. Corpo Chronologico 1, 3-4؛ توجد نسخة منشورة في Rego, "Duarte Catanho," 131–34.

(65) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 106.

(66) حول هذه الحملة، انظر Timothy Coates, "D. Joao de Castro's 1541 Red Sea Voyage in the Greater Context of the Sixteenth-Century Portuguese-Ottoman Red Sea Rivalry," in Caesar Farah, ed., Decision Making and Change in the Ottoman Empire (Kirksville, 1993), 263–85.

(67) انظر رسالة جواو دي كاسترو إلى الملك بتاريخ أكتوبر 1541 في Cartas.

(68) تتمثل المصادر البرتغالية الرئيسة لهذه الحملة في الروايات التي ذكرت سابقا لجواو دي كاسترو ودي مانويل دي ليما؛ انظر رواية عربية محلية في Serjeant, Hadrami Chronicles, 98–100.

(69) انظر روايتين من رأي العين لتفاصيل الأحداث في مصوع في R. S. Whiteway, ed. and trans., The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541–1543 related by Castanhoso and Bermudas (London, 1902), 138–47, 271–77.

(70) انظر Joao de Castro, Roteiro de Goa a Suez (Lisbon, 1940), 178–80.

(71) DA, dec. V, bk. 10, chap. 8.

(72) انظر Orhonlu, "Khădım Süleymăn," 902.

(73) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 107؛ انظر Couto, "L'itinéraire d'un marginal" الذي يحوي دراسة تفصيلية للمفاوضات التي جمعت السلطات العثمانية وكاتانيو وزميله وغريمه ديوغو دي ميسكيتا Diogo de Mesquita في إسطنبول بين العامين 1541 و1544. انظر النص الكامل للرسالة الأخيرة التي أرسلها السلطان إلى لشبونة في أكتوبر 1544 في Ottoman Response, 111–14.

(74) حتى في وقت أسبق، تحديدا العام 1525، لاحظ الريس سلمان القوة المتزايدة لأمير زيلع. انظر Ozbaran, "Turkish Report," 85.

(75) انظر مصدرا معاصرا تفصيليا يعرض صعود أحمد غري خلال هذه السنوات في Arab' Faqīh, The Conquest of Abyssinia: Futuḥ Al-Ḥabaša, trans. Paul Lester (Stenhouse (Hollywood, 2005).

(76) انظر تعليقات جواو دي كاسترو حول أهمية الأسلحة النارية العثمانية لأحمد غري في

Roteiros de Joao de Castro, 2 vols., ed. A. Fontoura da Costa (Lisbon, 1940), 2: 60؛ انظر أيضا Whiteway, Portuguese Expedition, xxxvi.

(77) انظر موجزا لعهد ليبنا دينقل في E. A. Wallace Budge, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia (London, 1928), 1: 332-36؛ انظر أيضا Whiteway, Portuguese Expedition, xxxvi.

(78) بلغت المفاوضات المتعلقة بالاتحاد بين كنيستي إثيوبيا وروما المتواصلة منذ أوائل القرن أوجها في أواخر العقد الرابع من القرن السادس عشر بسبب تقدم قوات أحمد غري. انظر Budge, History of Ethiopia, 1: 335-36; Whiteway, Portuguese Expedition, 130-33; Orhonlu, "Kızıldeniz Sahilleri'nde Osmanlılar," 20.

(79) Serjeant, Hadrami Chronicles, 100.

(80) حفظ القسم التمهيدي من هذه المعاهدة في المصدر مجهول المؤلف Ḳānūnnāme-i Sulṭān Suleymān Ḫān, fl. 39a؛ انظر أيضا Orhonlu, Habeş Eyaleti, 26–27.

(81) Whiteway, Portuguese Expedition, 65–68.

(82) Whiteway, Portuguese Expedition, 69; Orhonlu, "Kızıldeniz Sahilleri'nde Osmanlılar," 21–22.

(83) Whiteway, Portuguese Expedition, 80–88; Orhonlu, Habeş Eyaleti, 29.

(84) حدث الاستثناء الوحيد في العام 1544 عندما أرسلت من غوا قوة إغاثة صغيرة من خمس سفن إلى مصوع. لكن هذا الأسطول اعترضه سرب من تسعة قوادس عثمانية بالقرب من عدن ولم يصل إلى الساحل الحبشي. انظر Serjeant, Hadrami Chronicles, 104; Orhonlu, HabeŞ Eyaleti, 29.

(85) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 110; Lus de Albuquerque, "O domnio português do ndico e a resposta turca," Vertice 36 (1976): 12.

(86) Gaspar Correia, Lendas da India, ed. M. Lopes de Almeida (Porto, 1975), 4: 343–44.

(87) حول القوادس العثمانية قبالة جزر مصيرة، انظر Correia, Lendas, 4: 423؛ حول التجار العثمانيين في هرمز، انظر Sanceau, "Narrativa da expediçao," 209.

(88) PM, 7: 132؛ انظر أيضا Correia, Lendas, 4: 525.

(89) حول القوادس العثمانية في سيام، انظر Pinto, Travels, 35؛ حول تقرير كاسترو، انظر A.N.T.T. Corpo Cronologico 1, 7-19؛ انظر أيضا Ozbaran, "Hindistan Yolu," 111.

(90) انظر دراسة معمقة لهذا الجدل في Luis Filipe Thomaz, "Questao da pimenta," 37-206.

(91) Orhonlu, "Piri Reis," 235.

(92) كان أول «قبودان لجزر الهند الشرقية» هو فرهد بك مساعد سليمان الخادم الذي عُيِّن في المنصب في العام 1543. Orhonlu, "Piri Reis," 236.

(93) انظر وصف برناردو نافاغيرو في Bernardo Navagero in Alberi, Relazioni, 3: 99; also Orhonlu, "Khādım Süleymān," 902.

(94) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 232–34.

(95) اعترض البرتغاليون وأسروا واحدة من السفن الكثيرة التي أرسلها خوجه صفر إلى البحر الأحمر تحضيرا للأعمال العدوانية، كانت متجهة إلى ديو تحت إمرة قريب

عثماني لخوجه صفر ومملوءة بجنود عثمانيين. انظر Cartas, 225-28؛ وحول حمولة مصطفى النشار من الرجال والعتاد التي دفع خوجه صفر ثمنها ذهبا، انظر .DA, dec .V, bk. 11, chap. 8

(96) "foi hum gramde esquadrao de Turcos com suas bandeiras e dando uma grande salva de arcabuzaria e com outras bizarrias e soberbas que aquela barbara nacao usa." DA, dec. VI, bk. 1, chap. 7.

(97) Sao Lourenco, 3: 367.

(98) حول وفاة خوجه صفر، انظر .DA, dec. VI, bk. 2, chap. 3

(99) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 233.

(100) انظر الوثائق المتعلقة بالحصار في Antonio Baiao, ed., Historia quinhentista (inedita) do segundo cerco de Dio, ilustrada com a correspondencia original, tambem inedita, de D. Joao de Castro, D. Joao de Mascarenhas, .(e outros (Coimbra, 1925

(101) Hajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 234.

(102) Correia, Lendas, 4: 525; also Luis Falcao's letter to D. J. Castro from Hormuz, 4 Nov. 1546, Sao Lourenco, 2: 123.

(103) Ozbaran, "XVI. Yüzyılda Basra Korfezi Sahillerinde Osmanlılar: Basra Beylerbeyliği'nin Kuruluşu," Tarih Dergisi 25 (Mar. 1971): 54; also Robert Mantran, "Règlements fiscaux ottomans: La province de Bassora (le moitié du XVIe s.)," Journal of the Economic and Social History of the Orient 10 (1967): 224.

(104) Ozbaran, "XVI. Yüzyılda Basra," 55.

(105) منذ وقت مبكر، تحديدا في العام 1542، حذر دوارتي كاتانيو من أن الهجوم البرتغالي على السويس لن يؤدي إلا إلى تسريع عودة سليمان الخادم إلى المحيط الهندي، هذه المرة لبناء قلعة في البصرة. انظر Luis de Albuquerque, "Alguns aspectos de ameaça turca sobre a India por meados do século XVI," Agrupamentos .de Estudos de Cartographia Antiga, 51 (1977), 137

(106) Albuquerque, "Ameaça turca," 18.

(107) "A sua temcao he defemder aos Portugueses a navegacao do mar... credeme e vimde loguo, per que se tomarem Bacora nam se poderaa fazer nada e hyrem sobre vos e vossas terras e este caminho para eles he mui mais perto do que he o de Suez nem o de Juda." Albuquèrque, "Ameaça turca," 17.

(108) "Senhor, estes omens sao maos e muytos muyto usados na guerra e providos de muytos artefficios dela; vemse cheguando a cabeca deste estreito e senhoreao o de Mequa... e se eles fizeram ff ortaleza em Bacora passerem os navios que tem no outro estreyto a este, o que socedendo asy, sera muy grando perda e dano pera toda a Imdja." Albuquerque, "Ameaça turca," 15.

(109) Albuquerque, "Ameaça turca," 19–20.

(110) "E por esta razam achamos que nos vem muito bem sermos com vosco amigos e asemtarmos as cousas pera que venham vosos navios e vosos mercadores com vosas ff azemdas, e irao e virao sob guardia e grandeza e verdade do meu Rey, sem receberam dano nam perda duum grao; e nao vos pareca que destas palavras aos coracoes ha deferemca alguma, e nam aja em vos descomfianca nenhuma, per que desta maneira seremos amigos, asy vos como os da Imdia, perque em mim nao se acharaa outra cousa e os de todas as quatro partidas do mundo averam emveja a nosa amizidade... e pecovos muito que esta carta mandeis a Imdia e per todas as terras, pera que seguramente tratem e vam e venham e vos levem minhas emcomendas e me tragem as vosas, per que semdo asy nam ha hy mais que dizer, e nam semdo seraa o comtrayro." Albuquerque, "Ameaça turca," 21.

(111) Dejanirah Potach, "The Commercial Relations between Basra and Goa in the Sixteenth Century," Studia 48 (1989): 155.

(112) Potach, "Commercial Relations," 155.

(113) انظر مثالا لهذه الآراء المعارضة في Ozbaran, Ottoman Response, 172-74.

(114) انظر Albuquerque, "Ameaça turca," 23-26؛ وللمؤلف نفسه انظر "Resposta turca," 17.

(115) توجد أدلة على أن البرتغاليين مُنحوا منذ الوقت المبكر في العام 1548 «تصريحا» viajens de Baçora للإبحار مباشرة من البصرة إلى غوا. انظر Potach, "Commercial Relations," 156-57؛ انظر أيضا PM, 7: 274.

(116) Gavetas, 15, 16-25.

(117) Robert Mantran, "Règlements fiscaux," 242.

(118) بلغت العائدات من التجارة البحرية في البصرة في العام 1551 مليونا وتسعمائة واثنين وأربعين ألفا وثماني وستين بارة من إجمالي مليونين وتسعمائة وخمس وثلاثين ألفا وخمسمائة وإحدى وخمسين بارة، أي ما يعادل ستة وستين بالمائة من إجمالي الإيرادات. انظر Mantran, "Règlements fiscaux," 246؛ انظر أرقام مقارنة للتجارة في مصر في Barkan, "Bir Bütçe orneği," 251-93; and for Yemen, Ozbaran, Sınırdaki Osmanlı, 214.

(119) حول وصف لهذه العملية، انظر الشكوى التي قدمها وزير كانور إلى نائب الملك في الخامس عشر من سبتمبر 1547 في Sao Lourenco, 3: 382.

(120) فيما يتعلق بالإمبراطورية العثمانية تحديدا، ظهرت هذه الآراء بقوة في عدة مقالات لأندرو هس نشرها في أوائل العقد الثامن من القرن العشرين. انظر Hess, "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453-1525," American Historical Review 75/7 (Dec. 1970): 1892-1919; "The Ottoman Conquest of Egypt and the Beginning of the Sixteenth-Century World War," International Journal of Middle East Studies 4/1 (Jan. 1973): 55-76; and "Piri Reis," 19-37؛ انظر أيضا Economic and Social History, 44-54؛ قدم مايكل حجج إينالجك ذات الصلة في

بيرسون حججا مماثلة فيما يتعلق بسلطنة كجرات ولاحقا بالمُغال في هند القرن السادس عشر. بالنسبة إلى الاقتباس من بهادر المذكور هنا، انظر Pearson, Merchants and Rulers, 118. خلال العقود التي تلت ظهور هذه الأعمال المبكرة، ذهب عدد من الدارسين (منهم بيرسون نفسه) إلى وضع المزيد من الحجج النظرية حول عدم وجود ارتباطات بين الحاكم والتاجر باعتباره إحدى الخصائص الأساسية لكل «الدول البرية الإسلامية». انظر Pearson, "Merchants and States" in James Tracy, ed., The Political Economy of Merchant Empires: State Power and World Trade 1350–1750 (Cambridge, 1991), 41–116; K. N. Chaudhuri, Trade and Civilization in the Indian Ocean (Cambridge, 1985), 68; and Andre Wink, "Al-Hind: India and Indonesia in the Islamic World Economy, c. 700–1800 AD," Itinerario 12 (1988): 57–58؛ انظر نقدا لهذا الرأي في Sanjay Subrahmanyam, "Of Imarat and Tijarat : Asian Merchants and State Power in the Western Indian Ocean, 1400 to 1750," Comparative Studies in Society and History 37/4 (October 1995); 750–80; as well as Brummett, Ottoman Seapower, 175–183؛ انظر بوجه عام Huri Islamoğlu-Inan, "Oriental Despotism in World-System Perspective," in Islamoğlu-Inan, ed., The Ottoman Empire and the World Economy (Cambridge, 1987), 1–20.

(121) لاحقا، كتب لطفي باشا الذي عمل صدرا أعظم لوقت قصير خلال هذه الفترة، بحثا حول الشرعية الفقهية للخلافة العثمانية. انظر H. A. R. Gibb, "LutfiPaşa on the Ottoman Caliphate," Oriens 15 (1962): 287–95؛ انظر النص الأصلي في Lutfi Pasha, Khalās al-umma f ī ma'rifat al-a'immah, ed. Majidah Makhluf (Cairo, 2001)؛ انظر مراجعة للكتابة التاريخية الحديثة حول الخلافة العثمانية في Abderrahmane el-Moudden, "Sharifs and Padishahs: Moroccan-Ottoman Relations from the Sixteenth through the Eighteenth Centuries" (PhD dissertation, Princeton, 1992), 25–32؛ وحول أهمية الحج للعلاقات الخارجية العثمانية، انظر Suraiya Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 127–46.

(122) "Senki Mışır Beglerbegisi Suleymān Paşasın ḥukm-i şerīfum sana vāṣıl olduġı demden yāt ve yarāḳ ve bār ve bunyāh ḥāżır idup ve ol Suveys'de cihād f ī sebīli'llah ve ġazāvetine ḥāżır olup ve muheyyā olan gemilere zād ve zevāde ḳoyup kifāyet idecek ḳadar 'asker alup varup Hind'e gicup ve ol Hind'un benderlerin alup ve żabṭ idup Mekke'nun ve Medīne'nun şerefehumā Allahu te'ālā yolın kesup ve tarīḳin ḳaṭ' idup Portuḳāl kāfirun żararın eylerden def ' idup ve elemin deryādan ref 'idesun " [Italics in translation are my emphasis]. Hasan b. Tulun, Tārīḫ-i Mışır, fol. 353b.

الفصل الرابع

(1) زعم برناردو نافاغيرو أنه سمع هذه القصة من رستم. انظر Alberi, Relazioni, 3: 98.

(2) حول الأهمية المتنامية لمنزلة الدماد damad أو صهر السلطان خلال حياة السلطانة

خُرَّم، انظر Peirce, Imperial Harem, 65-79.

(3) Imber, "Suleyman as Caliph," 179–84.

(4) Gülru Necipoğlu, "A Kanun for the State, a Canon for the Arts: Conceptualizing the Classical Synthesis of Ottoman Art and Architecture," in Veinstein, Soliman le Magnifique, 195–216; and more generally, Necipoğlu, The Age of Sinan: Architectural Culture in the Ottoman Empire (London, 2005), 314–31.

(5) Fleischer, "Lawgiver as Messiah," 171.

(6) Rüstem Paşa, Tevārīḫ-i Āl-i 'Os̱mān. Cambridge University Library, Turkish OR. Ms. Gg 6.33, fols. 220–380. يوجد القسم المتعلق باليمن في الملفات 346-80. حول احتمال تأليف نصوح مطرقجي للكتاب، انظر H. Yurdaydın, "Matrakçı Nasuh'un Hayatı ve Eserleri ile İlgili Yeni Bilgiler," Belleten 29 (1965): 354.

(7) انظر Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, ed. Mehmet Kiremit (Ankara, 1999)؛ انظر مناقشتين علميتين حديثتين لهذا العمل في Alam and Subrahmanyam, Indo-Persian Travels, 94–131; and Suraiya Faroqhi, The Ottoman Empire and the World around It (London, 2004), 183–85.

(8) "rūy-i zemīnde ne Vilāyet-i Rūm'a mu'ādil bir vilāyet ve ne pādişāh-ı 'alem-penāh ḥażretlerine 'adīl olur bir pādişāh vardur... ve leşker-i Rūm'a muḳābil olur leşker olmaḳ cihān icinde bir daḫī mutaṣavver degildur." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 162–63.

(9) الترجمة الإنجليزية مأخوذة من Sidi Ali Reis, The Travels and Adventures of Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the Years 1553–1556, trans., A. Vambery (London, 1899), 107؛ انظر النص الأصلي في Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 168–69.

(10) يعد العمل Matrakçı Nasuh's Beyān-ı Menāzil-i Sefer-i'Irāḳeyn-i Sulṭān-ı Suleymān Ḫān, ed. Hüseyin Yurdaydın (Ankara, 1976) مثالا جيدا لهذا النوع من الكتابة؛ انظر مناقشة علمية حديثة لهذا العمل باعتباره محاولة لتعريف الفضاء السياسي العثماني في Kathryn Ebel, "City Views, Imperial Visions: Cartography and the Visual Culture of Urban Space in the Ottoman Empire, 1453–1603," (PhD dissertation, University of Texas-Austin, 2002).

(11) يعد كتاب جلال زاده مصطفى جلبي «طبقة الممالك في دراسة المسالك» Celalzade Mustafa Celebi's Tabaḳāt al-Memālik f ī Derecāt al-Mesālik, Istanbul, Süleymaniye Library, Hüsrev Paşa Ms. no. 427–28 مثالا نموذجيا لذلك الاتجاه. حول ندرة المعلومات حول المحيط الهندي في المحفوظات العثمانية، انظر Ozbaran, Ottoman Response, 79.

(12) ربما تكون سياسات رستم الاقتصادية أقرب حالة إلى ما أسماه بعض الدارسين العثمانيين «السياسة التموينية» provisionism. انظر Mehmet Genç, Osmanlı İmparatorluğunda Devlet ve Ekonomi (Istanbul, 2000)؛ انظر أيضا Inalcik,

."Ottoman Economic Mind," 218; Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 161

(13) Alberi, Relazioni, 3: 84–85.

(14) راجع مناقشة أكثر تفصيلا لسياسات رستم الاقتصادية في المحيط الهندي في Giancarlo Casale, "The Ottoman Administration of the Spice Trade in the Sixteenth-Century Red Sea and Persian Gulf," Journal of the Economic and Social History of the Orient 49/2 (May 2006): 175–76.

(15) حول سياسة رستم في البحر الأسود وبرنامجه الاقتصادي عموما، انظر M. Tayyib Gokbilgin, "Rüstem PaŞa Hakkındaki İthamlar," Tarih Dergisi 11–12 .(July 1955): 11–50

(16) خدم داود باشا أيضا أمينا لخزانة مصر خلال ولاية سليمان الخادم لها. انظر Süheyli, .Tārīḫ-i Mıṣır al-Cedīd, fol. 55a

(17) Alberi, Relazioni, 3: 98–9.

(18) حول معارضة رستم لأياس باشا، انظر رسالة من العام 1547 من الدوم مانويل دي ليما من هرمز في Dom Manuel de Lima from Hormuz in Özbaran, Ottoman Response, 143؛ حول رفض رستم توفير الجنود للحملة، انظر Halil Sahillioğlu, ed., Topkapı Sarayı ArŞivi H.951–952 Tarihli ve E-12321 Numaralı .Muhimme Defteri (Istanbul, 2002), doc. 213

(19) Ozbaran, Ottoman Response, 143.

(20) Soudan, Chronique d'al-Mawza'ī, 60.

(21) خدم مصطفى في السابق كاشفا في مصر وأميرا للحج. Kutbeddin Mekki, Aḫbār .al-Yemānī, fol. 45a

(22) Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 45b; Soudan, Chronique d'al-Mawza'ī, 60.

(23) تتمثل المصادر العثمانية الرئيسة لهذه الفترة من تاريخ اليمن في Kutbeddin Mekki, fols. 45–55; Rustem Pasha's Tevārīḫ, fols. 346–80; Seyyid Lokman's Mucmelu't-Tūmār, British Museum, Turkish Ms. Or. 1135, fols. 72–76; and Soudan, Chronique d'al-Mawza'ī, 60–64. وُضعت رواية الكتاب الحالي من هذه المصادر. انظر مراجعة للمصادر العثمانية والعربية من هذه الفترة في J. R. Blackburn, "Arabic and Turkish Source Materials for the Early History of Ottoman Yemen 945/1538–976/1568," in Abd al-Rahman b. al-Ansary, ed., Sources for the History of the Arabs (Riyadh, 1982), .2: 197–210

(24) انظر DA, dec. VI, bk. 6, chaps. 1– 3، انظر أيضا Katib Celebi, Tuḫf etu'l-Kibār, 89.

(25) انظر رواية حديثة لحياة أوزدمير باشا المهنية المبكرة في Orhonlu, HabeŞ Eyaleti, .33–35

(26) انظر نص هذه الرسالة في J. R. Blackburn, "The Ottoman Penetration of Yemen: An Annotated Translation of ozdemir Bey's Fethnāme for the Conquest of San'a in Rajab 954/Aug. 1547," Archivum Ottomanicum 5 .(1980): 70–89

(27) حول المكيدة التي استخدمت لتعيين فرهد، انظر Blackburn, "Ottoman Penetration," 77.

(28) Katib Celebi, Tuḫf etu'l-Kibār, 89.

(29) حول خدمة الريس بيري ريسًا للإسكندرية، انظر Alberi, Relazioni, 3: 59.

(30) يذكر مصدر برتغالي معاصر صراحة أن الريس بيري أصبح من المحاسيب الشخصيين على رستم بعد موت راعيه المسن خير الدين باربروسا باشا في العام 1546. انظر A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 89, doc. 9.

(31) حول هذه الأحداث وما تلاها، انظر إلى جانب المصادر العثمانية التي ذكرت سابقا: DA, dec. VI, bk. 6, chaps. 1 – 6; Serjeant, Hadrami Chronicles, 108–9; Ibrahim Peçevi, Tārīḫ-i Pecevī, 1: 351; and for a modern account, 134/Cengiz Orhonlu, "Hint Kaptanlığı ve Piri Reis," Belleten 34 (1967), 235–38.

(32) انتشرت فضيحة قرار نورونيا إلى حد أنه بعد سنوات من الحدث - بحسب ديوغو دو كوتو- كان رجل من غوا يمشي في شارعه ورأى فتاة تبكي لأن أبناء نورونيا سرقوا دجاجتها، فقال لها الرجل: «صه يا فتاة، لا داعي للبكاء. فلو كانت عدن لسلموها لك عن طيب خاطر، لكنهم ليس معهم دجاج ليعطوه لك!» ["cala-te filha, nao te mates, se fora Adem largaram-ta; mas galinha nao ta hao de dar."] DA, dec. VI, bk. 6, chap. 6.

(33) "...maiormente neste tempo de aguora que temos os Rumes em Bacora e em Adem, e sao eles mais imdustrios e tem mais cuidado aparelhar-se pera fazer cousas de guerra e ordenadamente tem seus conselhos milhor que nos qua." DP, vol. iv, doc. 24.

(34) انظر Soudan, Chronique d'al-Mawza'ī, 62.

(35) Blackburn, "Arabic and Turkish," 198; Kutbeddin Mekki, "Aḫbār al-Yemānī," fols. 51–52.

(36) انظر أقدم ميزانية باقية من اليمن العثمانية تؤرخ للعام 1561 وتكشف عن فائض كبير في Ozbaran, "A Note on the Ottoman Administration in Arabia in the 16th Century," International Journal of Turkish Studies 3/1 (Winter 1984–85), 97.

(37) انظر Sahillioğlu, E-12321 Numaralı Muhimme Defteri, doc. 119؛ انظر مناقشة لهذه الوثيقة في سياقها في Casale, "Ottoman Intelligence Report," 187–88.

(38) انظر Correia, Lendas, 4: 525؛ انظر أيضا رسالة ديوغو لويس Diogo Luys من مسقط في Sao Lourenco, 1: 125–27. وفق تقرير من كابتن هرمز، تعلم العثمانيون خلال هذه الغارة أن عشرة قوادس تكفي لأسر كل السفن في ميناء هرمز. وبالنظر إلى أن غارات سفر اللاحقة كانت موجهة تحديدا ضد السفن التجارية البرتغالية القادمة من هرمز، فإن ذلك يعزز الانطباع بأن سفر شارك في هذا الهجوم المبكر على مسقط. انظر Sao Lourenco, 2: 125.

(39) "Quatro galeotas grandes e formosas... andava nellas hum Mouro grande cossario, chamado Cafar, que tinha sahido de Meca com tencao

de saquear Mascate, e saquear as naos que em Outubro haviam de partir de Ormuz pera Goa, e pera outros portos da costa da India." DA, dec. VI, bk. 8, chap. 12.

(40) DA, dec. VI, bk. 8, chap. 12.

(41) انظر DA, dec. VI, bk. 9, chap. 11; and Ozbaran "Hindistan Yolu," 125.

(42) خلال سنة من أول هجوم عثماني على مسقط في العام 1546، حذر الدوم مانويل دي ليما من فعالية هذه الاستراتيجية، إذ تنبأ - وأصاب في تنبؤه - بأنها كانت مسألة وقت قبل أن يبدأ العثمانيون في مهاجمة شمال بحر العرب سنويا. انظر Albuquerque, "Resposta turca," 17.

(43) حول سنان باشا، انظر Alberi, Relazioni, 3: 70.

(44) Ozbaran, "XVI. Yüzyılda Basra," 57–59.

(45) DA, dec. VI, bk. 8, chap. 5.

(46) حول علاقة بيري برستم، راجع الهامش 30.

(47) حول هذه المؤامرات، انظر P. Gaspar Barzaeus's letter from Hormuz, October 24, 1550, in Documenta Indica, 2: 69؛ انظر أيضا رسالة نائب الملك Viceroy D. أفونسو دي نورونيا للملكة بتاريخ السابع والعشرين من يناير 1552 Afonso de Noronha's letter to the queen, January 27, 1552, PM, 7: 254.

(48) DA, dec. VI, bk. 9, chap. 4؛ انظر أيضا: A.N.T.T., Corpo Cronologico I, mç. 89, doc. 7, fol. 2.

(49) DA, dec. VI, bk. 9, chap. 16.

(50) حول رواية أحد اليسوعيين حول الاستيلاء على مسقط، انظر رسالة لودوفيكو فرويس من غوا في الأول من ديسمبر 1552 في Ludovico Frois's letter from Goa, December 1, 1552, in Documenta Indica, 2: 487؛ انظر أيضا Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 73.

(51) حول حصار هرمز، انظر ثلاث روايات لشهود عيان برتغاليين في A.N.T.T., Corpo Cronologico 1, mç. 89, doc. 9; also DA, dec. VI, bk. 10, chaps. 2–5؛ وحول وجهة نظر مقابلة للأحداث، انظر رواية الدوم ألفارو دي نورونيا التي يصر فيها على أنه «إذا واصل [العثمانيون] القصف، فإنهم كانوا بلا شك سيهدمون سور القلعة كاملا» Ozbaran, Ottoman Response, 162؛ وانظر نسخة عثمانية للأحداث في Katib Celebi, Tuhf etu'l-Kibār, 89–90.

(52) انظر الوثائق ذات الصلة في Orhonlu, "Piri Reis," 250–54.

(53) وفقا لسيدي علي، فإن الريس بيري بلغ منه التوتر مبلغا جعله يتخلى عن أسطوله بسبب تحذير الأسرى البرتغاليين من أن أسطولا من الهند كان في طريقه بحثا عنه (Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l- Memālik, 73)؛ وقف بعض البرتغاليين وراء هذه المحاولة، ودفع أحدهم بأن «إحراق عشر سفن تركية في البصرة يخدم مصالح مليكنا أكثر من الاستيلاء على القسطنطينية». انظر A.N.T.T., Corpo Cronologico 1, mç. 89, doc. 9, fol. 2.

(54) انظر تفاصيل رحلة عودة بيري في DA, dec. VI, bk. 10, chap. 10; also Orhonlu, "Piri Reis," 244.

(55) Orhonlu, "Piri Reis," 245؛ انظر أيضا: Katib Celebi, Tuhf etu'l-Kibār, 90.

(56) انظر وصفا لهذه المواجهة في FS, vol. 2: 246–47; DA, dec. VI, bk. 10, chap. 3; Documenta Indica, vol. 3, 25–26; Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 74–75; هذه المعركة أول معركة بين البرتغاليين والعثمانيين تُصوَّر بصريا. Katib Celebi, Tuḥf etu'l-Kibār, 90–91 Lisuarte de Abreu, Livro de Lisuarte de Abreu (Lisbon, 1992), fol. 83.

(57) Katib Celebi, Tuḥf etu'l-Kibār, 91.

(58) "kulliyen deryā-yı maġr ibun eṭrāf ve eknāf geşt olınup...." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 74.

(59) Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 75.

(60) مع أن رواية سيدي علي في «مرآة الممالك» تعد مصدرا رئيسا لهذه المواجهة، فإن مصداقية الرجل محل شك من نواح عدة. فهو يسجل مثلا أن معركة عنيفة مع البرتغاليين وقعت وهو يمر قبالة هرمز، ويزعم أنه أغرق سفينة برتغالية وأجبر بقية سفنهم على الانسحاب. انظر Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 79–81؛ وتذكر المصادر البرتغالية أن الأسطولين لم يقتربا بما يكفي لتبادل إطلاق النيران. انظر Ozbaran, "Turks in the Persian Gulf," 64.

(61) كان سيدي علي مقتنعا تماما بأنه أفلت من منزيس إلى حد أنه لم يدرك أنه وقع في الفخ وظن أن القوة التي كانت تنتظره في مسقط كانت أسطولا مختلفا. Seydi Ali, Mir'ātu'l-Memālik, 81.

(62) هنا أيضا تصوِّر نسخة سيدي علي للأحداث المواجهة باعتبارها قتالا عنيفا وقعت فيه خسائر متساوية من الجانبين. في حين لا تذكر المصادر البرتغالية أي خسائر كبيرة في جانبهم وتوضح أن القوادس العثمانية الستة لم تغرق (كما زعم سيدي علي)، وإنما أسرت. انظر DA, dec. VII, bk. 1, chap. 4؛ وانظر التصوير التخطيطي للمعركة في Livro de Lisuarte de Abreu, fol. 85.

(63) انظر Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 82–83; Katib Celebi, Tuḥf etu'l-Kibār, 93–94.

(64) "Deryā-yı Maġrib'de vāḳi' olan furtūnalar anun yanında bir z–errece ve ḳilel-i cibāl gibi emvācı bununḳatında bir ḳaṭrece gelmeyup." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 84.

(65) انجرف سيدي علي بعيدا حتى بلوشستان في الشمال والشحر في الجنوب قبل أن يصل إلى كجرات أخيرا. انظر Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 83–88.

(66) انظر A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 1b; DP, 5: 271.

(67) "A que aguardava a Ale Chelubij, parece que esteve antevendo o Turco, porque logo enviou atras o Zafar... (mais ajuizado em seu conceito) para receber dele as galeras e fazer com elas o que primeiro tinha pensado do outro." FS, 3: 259.

(68) "E como era cossario, e muito pratico nas cousas daquelle mar, determinou de se ir na esteira da armada, porque sempre lhe ficaria por ella cousa que preasse. E seguindo a sua derrota, antes que chegasse a ponta de Dio, desemmasteou e deixou-se ficar ao mar pera esperar pelas naos

que haviam ir demandar aquella paragem." DA, dec. VII, bk. 1, chap. 5.

(69) تعتمد هذه الرواية على FS, 3: 259 and DA, dec. VII, bk. 1, chap. 5; انظر أيضا التقرير المعاصر لجواو دي ليسبوا الذي يزعم أن سفر لم يأسر غير ثلاث سفن. A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 1b.

(70) A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 1b.

(71) A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 3a؛ انظر تقريرا برتغاليا مؤيدا من شول في A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 100, doc. 28, fol. 2b.

(72) A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 6a؛ يصف الريس سيدي علي موقفا مماثلا Mir'ātu'l-Memālik, 90-92.

(73) A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 1a.

(74) DA, dec. VII, bk. 1, chap. 7.

(75) DA, dec. VII, bk. 3, chap. 3.

(76) A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 100, doc. 28, fol. 2b.

(77) "para que era deixar aquella ladroeira tanto tempo em Moqua... que cada dia ya em crecimento, e aquele Cairo se faz cada dia com has presas dos Portugueses mais rico e cada dia ha de acrecetar armada quando avia tres fustas somente... quanto mais trabalho lhe avria de dar aquele Cairo com trinta armadas ?" A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 1b. حول توصية مماثلة من شول في العام التالي، انظر: A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 100, doc. 28, fol. 2b.

(78) DA, dec. VII, bk. 6, chap. 7.

(79) DA, dec. VII, bk. 7, chap. 6.

(80) Orhonlu, Habeş Eyaleti, 34-36؛ انظر أيضا A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 86, doc. 120, fol. 4a-5a.

(81) Orhonlu, Habeş Eyaleti, 37-39؛ انظر أيضا A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 102, doc. 47, fol. 2a..

(82) Orhonlu, Habeş Eyaleti, 43–44.

(83) DA, dec. VII, bk. 3, chap. 3.

(84) "que elle era amigo dos Portuguezes; que se queria agua, ou mantimentos, que tudo lhe mandaria dar, e de muito boa vontade e assim tudo o mais de que tivesse necessidade." DA, dec. VI, bk. 8, chap. 8.

(85) "por nao ser conhecida a sua gale lhe tinha alevantadas grandes arrombadas de esteiras e sobre o masto feito huma gavea pera parecer nao, e as outras tres gales tinha mandado aff astar de si." DA, dec. VII, bk. 8, chap. 8.

(86) DA, dec. VII, bk. 8, chap. 8; FS, 3: 300–1.

(87) حول تعيين سفر، انظر MD 4, doc. 540, 51.

(88) CDP, 5: 396؛ يوجد مصدر عثماني مؤيد في MD 3, doc. 550, 195.

(89) "Pella pratica e experiencia que aquelle capitao tem de toda a costa de

Melinde ate Mocambique e assi da outra de Adem ate Ormuz quererao por alguma daquelles tantar ardis e effectuar sperancas que elle deveter imaginadas e por ellas offerecido grandes e proveitosos successos. A tudo se deve prevenir e de tudo deve estar advertido o Visorrei da India." CDP, 9: 111.

(90) "seicentos e sincoenta soldados dos melhores da India, em que entravam muitos fidalgos e cavalleiros muihonrados." DA, dec. VII, bk. 10, chap. 2.

(91) هذه المواجهة مسجلة في كتاب «تاريخ الشحر» Tarih-i Shihr مع أن النص يخلط بين سفر والريس بيري الذي كان قد مات منذ وقت طويل. انظر R.B. Serjeant, Hadrami Chronicles, 110; also DA, dec. VII, bk. 10, chap. 2.

(92) DA, dec. VII, bk. 10, chap. 2.

(93) Serjeant, Hadrami Chronicles, 110; DA, dec. VII, bk. 10, chap. 3.

(94) حول نشاطات هؤلاء القراصنة المستقلين، انظر DA, dec. VI, bk. 10, chap. 1 and dec. VII, bk. 7, chap. 2؛ انظر دلائل النفوذ العثماني في سيام في Documenta Indica, 3: 152.

(95) حول هذه المسألة، انظر الدراسة الكلاسيكية Frederick C. Lane, "The Mediterranean Spice Trade: Further Evidence for Its Revival in the 16th Century," in Brian Pullman, ed., Crisis and Change in the Venetian Economy in the Sixteenth Century (London, 1968), 47-58؛ انظر وصفا برتغاليا معاصرا لهذا الاتجاه في CDP, 9: 136; and A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 105, doc. 139.

(96) Hess, "Piri Reis," 30؛ انظر أيضا Subrahmanyam, "Trading World," 218.

(97) Ozbaran, "Hindistan Yolu," 127.

(98) انظر مناقشة أوفى لهذه المسألة في Casale, "Ottoman Administration," 171-72.

(99) انظر تحليلا فنيا لحرب القوادس المتوسطية إبان القرن السادس عشر في Guilmartin, Gunpowder and Galleys, 16-41.

(100) "Em quanto ali estiveram, que foi mais de um mez, houveram vista de mais de sincoenta naos por vezes, sem lhes poderem chegar, porque como elles estavam a terra, e ellas vinham de mar em for a enfundadas, nao for possivel chegaram-lhes nem seguirem-nas pera dentro, por se nao metterem com ellas no Estreito a risco de se perderem." DA, dec. VII, bk. 10, chap. 3.

(101) انظر Salvatore Bono, Schiavi musulmani nell'Italia moderna (Napoli, 1999), 297.

(102) توجد ثلاث رسائل لمانويل دي فاسكونسيلز من كانور حول هذا الموضوع. Sao Lourenco, 3: 341, 353, and 373.

(103) تشمل دفاتر المهمة حول يهود الجمارك في السويس MD 33, doc. 323, 169; and MD 33, doc. 633, 306؛ انظر أيضا Couto, "Rasto de Hadim Suleimao," 493؛ وتشمل بوجه عام Benjamin Arbel, Trading Nations: Jews and Venetians in

.the Early Modern Eastern Mediterranean (Leiden, 1995)

(104) حول علاقات المسيحيين الجدد ويهود إمارة كوتشن بالإمبراطورية العثمانية، انظر José Alberto Rodriguez da Silva Tavim, "Outras gentes em outras rotas: judeus e cristaosnovos de Cochin—entre Santa Cruz de Cochin e Mattancherry, entre o Império Português e o Médio Oriente" in Matos and Thomaz, Carreira da India, 309-42؛ انظر أيضا للمؤلف نفسه Os Judeus e a expansao portuguesa na India durante o século XVI." O exemplo de Isaac do Cairo: Espiao, 'lingua,' e judeu de Cochim de Cima," Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian 33 (1994): 137-266؛ انظر عموما Daviken Studnicki-Gizbert, A Nation upon the Ocean Sea: Portugal's Atlantic Diaspora and the Crisis of the Spanish .Empire, 1492-1640 (New York, 2007)

(105) Maria do Rosario de Sampaio Themudo Barata de Azevedo Cruz, "A 'Questao de Baçora' na menoridade de D. Sebastiao (1557-1568): A perspectiva das informaçes colhidas na India e as iniciativas do governo," Revista da Falcudade de Letras, 5th series, 6 (1986): 50.

(106) Ozbaran, "Turks in the Persian Gulf," 67؛ انظر أيضا : Safvet Bey, Tārīḫ-i 'Oṣmānī Encumeni Mecmū'ası, 14-18 (h.1329/ c.e. 1910), 1139-44.

(107) ذكر علي سميز بين أصدقائه الشخصيين دانيل بارباريغو Daniele Barbarigo البايلو البندقي بين العامين 1561 و1563 الذي تعرف عليه عندما كان علي واليا لمصر (التي عمل بارباريغو قنصلا فيها). انظر A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 105, doc. 139. انظر سيرة ذاتية موجزة لعلي سميز ومناقشة لرعايته المعمارية في .Necipoğlu, Age of Sinan, 384-89

(108) E. S. Forster, ed. and trans., The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq (Oxford, 1968), 321.

(109) انظر رواية تفصيلية معاصرة لصفقات درويش علي باشا مع البرتغاليين في Maria Augusta Lima Cruz, ed., Diogo do Couto e a decada 8a da Asia, (Lisbon, .1994), 1: 126-27

(110) مما لا يخلو من دلالة أن وصول تيشيرا إلى إسطنبول سبب شيئا من الحرج الأولي لعلي باشا الذي بدأ التفاوض مع البرتغاليين على ما يبدو من دون إذن من السلطان. انظر Couto (Cruz edition of 8th decade), 127؛ ربما يكون ذلك دليلا على أن أفراد زمرة رستم باشا المعادين لفتح الخليج العربي أمام التجارة مع البرتغاليين ظلوا مؤثرين في البلاط بعد موت رستم.

(111) Couto (Cruz edition of 8th decade), 201؛ انظر ترجمة إنجليزية للنص الفعلي للرسالة التي أرسلت من السلطان سليمان إلى البرتغال في Ozbaran, "Turks in the .Persian Gulf," 82-84

(112) "O negocio he grave e de muita consideracao e em ser muita a somma da speciaria que vem pello mar Roxo ao Cayro e pollo de Ormuz a Bacora e bem se podem creer segundo as cousas procedem que antes este trato hira em crescimento que em diminuicao. As despesas de

Vossa Alteza no negocio da India sao mui grandes e nao se achando a ella algum remedio, sempre serao mayores. Em as pazes com o Turco para isto [sic] serem proveitosas, e nao avera quem com justa rezao o contradigua." CDP, 9: 136.

(113) "Preposto isto digo que se os Turcos podessem ir livremente a India, e ter feitorias e tratarem nas mercadurias ditas por onde quisessem, que alem de V.A. perder os grandes proveitos que recebe dellas na India ficariamos nos nao tendo laa que fazer porque todas as fazendas que disse aviao logo os Turcos de negociar por suas maos, e por via dos Estreitos de Meca e Persia levariao a India todas as principais mercadorias que os nossos levao nas naos deste Reyno, as quais em Levante e em outras partes onde as comprassem sao muito mais baratas que em Portugal, e alem disso o tempo das viagens, fretes, riscos, danificamentos dellas e das naos em que as levassem seriao mais da metade dos Mouros do que custao aos nossos... e quanto a pimenta e outras drogas defesas tambem pera isto seria mor dano e perjuizo terem os Turcos na India feitoras porque se aos mesmos Portugueses se nao pode de todo tolher o trato dellas pois se sabe que escondidamente e a risco de lhe tomarem as fazendas as levao a Ormuz, a Bacora, e a Bengala, Pegu, China e outras partes quanto mais aos Turcos, que por isso, com os mouros da terra, teriam mores intelligencias e melhor aparelho pera por via de ambos os Estreitos ficariam assi senhores de milhor e mayor parte das especiarias." Couto (Cruz edition of 8th decade), 205-7.

الفصل الخامس

(1) ذكر لورنزو بيريس دي تافورا أن بناء هذا الأسطول توقف في مايو 1561. CDP, 9: 251-52.

(2) Cruz, "Questao de Baçora," 58؛ ترجع أول رسالة رسمية أرسلها السلطان إلى ملك البرتغال إلى العام 1564، مع أن تبادل السفارات بدأ قبل عدة سنوات. انظر Ozbaran, "Turks in the Persian Gulf," 82-84.

(3) MD 6#757, 354; DA, dec. VII, bk. 2, chap. 8; and John E. Mandaville, "The Ottoman Province of al-Hasā in the Sixteenth and Seventeenth Centuries," Journal of the American Oriental Society 90 (1970): 489.

(4) انظر Luis Filipe Thomaz, "A crise de 1565-1575 na historia do Estado da India," Mare Liberum 9 (July 1995): 486.

(5) Tavim, "Judeus e expansao," 166.

(6) DA, dec. VIII, bk. 5, chap. 4.

(7) Joseph Wicki, "Duas cartas oficiais de Vice-Reis da India, escritas em 1561 e 1564," Studia 3 (Jan. 1959): 54; Cruz, "Questao de Baçora," 58.

(8) ورد ذكر وصول السفارة لدى البايلو البندقي في يونيو 1562؛ أرسل نيكولو بيترو كوتشينو

أول تقرير برتغالي في التاسع والعشرين من أكتوبر 1563؛ Nicolo Pietro Cochino
انظر المزيد من التفاصيل حول هذه السفارة في Ottoman Envoy to Sumatra
Based on an Account of His Travels from the Topkapı Palace Archives,"
.Turcica 37 (2005): 43–81; also Reid, "Turkish Influence," 395–414

(9) انظر النص الأصلي للرد العثماني على طلب علي علاء الدين رعاية شاه في Mekātib-i Hulefā ve Selātīn, T.S.M.K. R. 1959, fol. 817a–18a؛ انظر ترجمة صوتية ونصية للنص في Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 50; for a corroborative .Venetian report, see Gavetas, 20,14–17

(10) حول التحضيرات لأسطول سفر، انظر MD 6 #256, 122 MD 6 and#257, 122; also .Imber, "Navy of Suleyman," 272

(11) توجد مقدمة لحياة هذا النموذج للسياسة العثمانية في كتاب التاريخ الرائج Radovan Samardjitch, Mehmed Sokolovitch: le destin d'un grand vizir, trans. Mauricette Begitch (Lausanne, 1994).

(12) Imber, "Navy of Suleyman," 253; also Veinstein, "Sokollu Mehmed," 706–11.

(13) Imber, "Navy of Suleyman," 254.

(14) قيل إن نوربانو Nurbanu والدة إسمهان كانت ابنة البندقي فينيه بافو Venier Baffo. انظر Maria Pia Pedani, "Safiye's Household and Venetian Diplomacy," Turcica 32 (2000), 9–32؛ توجد وجهة نظر بديلة في B. Arbel, "Nur Banu (c. 1530–1580)—A Venetian Sultana?" Turcica 24 (1992), 241–59. انظر مناقشة معمقة لرعاية محمد صوكولو والأميرة إسمهان للفنون والعمارة في Necipoğlu, Age of Sinan, 331–68; also Tülay Artan, "The Kadırga .Palace Shrouded by the Mists of Time," Turcica 26 (1994): 56–124

(15) M. Lesure, "Notes et documents sur les relations vénéto-ottomanes 1570–73," Turcica 4 (1972): 134–64.

(16) حول لوحات الأشخاص العثمانيين التي كلّف صوكولو برسمها، انظر N. Atasoy, "Nakkaş Osman'ın Padişah Portreleri Albümü," Turkiyemiz 6 (1972): 2–12؛ حول استيراد صوكولو لأشغال الزجاج البندقية التي ساعد في إتمامها، انظر Stefano Carboni, "Oggetti decorati a smalto di influsso islamico nella vertraria muranese: tecnica e forma," in Ernst Grube, ed., Venezia e l'oriente vicino: Arte veneziana e arte islamica: Atti del primo simposio .internazionale sull'arte veneziana e l'arte islamica (Venice, 1989), 147–66

(17) A. Sayılı, "Uçüncü Murad'ın İstanbul Rasathanesindeki Mücessem Yer Küresi ve Avrupa ile Kültürel Temaslar," Belleten 25/99 (1961): 410–11.

(18) Franz Babinger, Osmanlı Tarih Yazarları, 105.

(19) نتناول كل هؤلاء المؤلفين، وتلك الأعمال بمزيد من التفصيل في الفصل السابع. انظر دراسة حديثة لرعاية صوكولو للفنون والعلوم في Emine Fetvacı, "Viziers to Eunuchs: Transitions in Ottoman Patronage, 1566–1617" (PhD .dissertation, Harvard University, 2005), 83–139

(20) "Ḳalkut Pādişāhı Sāmiri'nun sa'ādetlu pādişāh ḥażretlerine inḳıyād ve iṭā'atın 'arż idup rūz ve şeb Portuḳāl kāfiri ile cenk uzere olduġın." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 89.

(21) "Vilāyet-i Gucerāt'un iḫtilāli zamānında gelup mu'īn oldınuz egerci Nūḥ zamānından beru deryāda bu maḳūle ṭufān olmamışdur... mercū-dur ki inşā'allah 'an-ḳarībi'z-zamān Vilāyet-i Gucerāt Memālik-i 'Os̱māniyye'ye ilḥāḳ olınup Benādir-i Hind kuff ār-ı ḫāksārun elinden ḫalāṣ olmaġa bā'is̱ olına." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 90.

(22) انظر أيضا: Ḥajji ad-Dabir, Arabic History of Gujarat, 1: 312–20 ;Subrah-manyam, "Trading World," 217.

(23) "Biz Pādişāh-ı Rūm'a muḥtācuz gemilerimuz anlarun benderlerine varmasa bizum ḥālimuz dīgergūn olur. Ḫuṣūṣā İslām pādişāhıdur. Anun ḳapudānın bizden istemek munāsib midur?" Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 96.

(24) يقدم الكتاب Claude Guillot and Ludvik Kalus, "Inscriptions islamiques sur des canons d'Insulinde du XVIe siècle," Archipel 72 (2006): 69–94 مناقشة ممتعة لهذا التنافس وعلاقته بالتطورات الأكبر في جنوب شرق آسيا والإمبراطورية العثمانية مدعما بأدلة مادية من النقوش المنحوتة على المدفعية الأتشيهية الباقية.

(25) "Ḥaḳ 'ālīmdur ki Vilāyet-i Gucerāt'da Surret nām benderde Ḫvāce Bahşi ve Ḳara Ḥasan nām sevdāgerlerden mesmū'umdur ki Vilāyet-i Cīn'de bayram olup sevdā-gerler bayram namāzın ḳılmaḳ murād idi-nup her ṭāyife kendu pādişāhları adına ḫuṭbe oḳıtmak murād idinup Rūmī sevdā-gerleri Ḫāḳān-I Cīn'e varup bizum Pādişāhımuz Mekke ve Medīne ve ḳıble pādişāhıdur diyu 'arż itdukde kāfir iken inṣāf idup Mekke ve Medīne Pādişāhı adına ḫuṭbe oḳun diyu ḥukm idup Rūmī sevdā-gerler ḫaṭībe ḫil 'at giydurup ve f īle bindurup şehri gezdurup ba'dehu bayram namāzın ḳılup Vilāyet-i Cin'de Pādişāh-ı Rūm adına ḫuṭbe oḳınup bu maḳūle aḥvāl kimun haḳḳında olmışdur." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 116.

(26) توجد سابقة تاريخية ساحرة لهذا النوع من شبكة الطاعة القائمة على التجارة في المحيط الهندي خلال القرون الوسطى، تشمل إشارة مماثلة للصين، في Elizabeth Lambourn, "India from Aden: Khutba and Muslim Urban Networks in Late Th irteenth-Century India," in K. Hall, ed., Secondary Cities and Urban Networking in the Indian Ocean Realm, c. 1000– 1800 (Lanham, 2008), 55–97.

(27) "Ḥaḳ budur ki rū-yi zemīnde pādişāhlıḳ nāmı devletlu ḫūndigārun ḥaḳḳıdur ozgenin deguldur." Seydi Ali Reis, Mir'ātu'l-Memālik, 116.

(28) انظر İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Hind Hükümdarı Hümayun Şah'ın Kanuni'ye Gonderdiği bir Mektup," Yedigun 8/202 (1937): 5–27.

(29) حول هذه المسألة، انظر رسالة غسبار وجواو ريبيرو Gaspar and Joao Ribeiro التي كتبت من البندقية في السابع والعشرين من أغسطس 1564. A.N.T.T. Corpo Cronologico, part 1, maço 107, doc. 9.

(30) حول هذه النقطة، انظر Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 57–59.

(31) انظر الوثيقة الأصلية في T.S.M.A. E. 8009؛ انظر تحليلا تفصيليا وترجمة صوتية ونصية إنجليزية كاملة في Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 43- 81؛ انظر أيضا Razaulhak Şah, "Açi Padişahı Sultan Alāeddin'in Kanuni Sultan Süleyman'a Mektubu," Tarih Araştırmaları Dergisi 5 (1967) 9–8: 373-409؛ يرد ذكر لطفي أيضا في عدة وثائق من دفاتر المهمة: MD 7 #233, 86; #234, 87; and #236, 86.

(32) انظر Alves, Dominio do norte, 166.

(33) "fizerao uma descortezia a hum embaixador do Turco que ali estava." Documenta Indica 7: 89.

(34) حول هذه الأحداث، انظر رسالتين من لورنزو بيريس في Documenta Indica 7: 34 and 89.

(35) توجد إشارات إلى هذه الاتصالات في التقرير الذي كتبه لطفي ولم يحمل اسمه ونوقش في موضع سابق من الكتاب. انظر Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 64–67.

(36) بحسب تلخيص ديوغو كوتو للرسالة: "por esta amisade fui muytas vezes reprehendido dos Turcos, porque nao fazia guerra aos Portugueses, tendo-me tantas vezes escandalizado." DA, dec. VIII, bk. 3, chap. 6.

(37) "Ḥālā murād olunan ṣulḥa muġāyir diyār-ı Hind'den deryā ṭarafı ile gelen ḥuccāc-ı muslimīne ve tuccāra daḫl ve tecāvuz olınduġı istimā' olınur... f ī'l- ḥaḳīḳa ol ṭaraflarun ṣulḥ ve ṣalāḥı murādınuz ise deryā ṭaraflarından ḥuccāc ve tuccāra tecāvuzden el cekup mektūbınuzla i'timād olınur ādemlerinuz gonderile ki ol diyārun aḥvāl-i intiẓāmına muteferri' olan umūr ne ise muḳarrer ola ve eger ol cānibun iḫtilāline sālik olursan bi-ınāyeti'llāhi te'ālā bu cānibden muḳteżī olan umūr ne ise tedāruk olınur. Soñra ṣulḥ murād olınmışdı dimek muf īd olmaz. Ziyāde ne dimek lāzımdur." MD 6 #355, 166.

(38) Anthony Reid, "Islamization and Christianization in Southeast Asia: The Critical Phase 1550–1650," in Anthony Reid, ed., Southeast Asia in the Early Modern Era: Trade, Power and Belief (Ithaca, 1993), 165.

(39) G. Bouchon, "Sixteenth-Century Malabar and the Indian Ocean," in Ashin das Gupta and Michael Pearson, eds., India and the Indian Ocean 1500–1800 (Calcutta, 1987), 162–184.

(40) MD 6#256, 122; also MD 6#257, 122; MD 6#270, 128; and Imber, "Navy of Suleyman," 224.

(41) "Affirmao me levava em proposito meter a sacco toda a costa de Melinde e cheguar ainda a Mocambique com sperancas muito grandes d'encontrar alguma nao do Regno." PM, 8: 154.

(42) "Si crede da alcuni che essi siano andati verso il Capo de Buona Speranza per accordarsi forse con un Re in quei paesi, il quale ha guerra continua con il Re di Portogallo." Antonio Tiepolo to the Venetian Senate, Dec. 1, 1566, in Julieta Teixeira Marques de Oliveira, ed., Fontes documentais de Veneza referents a Portugal (Lisbon, 1996), 21–22.

(43) PM, 8: 152؛ انظر أيضا Serjeant, Hadrami Chronicles, 110-11.

(44) "Era o ladrao ouzado e pratico naquellas partes sabia bem como e quando avia de armar suas redas. Nao ha homem destes que naquellas nossas partes possamos temer." PM, 8: 152.

(45) انظر تقرير فورتادو في PM, 8: 152؛ من الواضح أن محمود باشا والي اليمن هو الذي قدم لهم القوادس التسعة التي تناقش لاحقا في الكتاب، فكما في العام 1565 كانت هناك ستة قوادس على الأقل تتمركز في المخا. انظر MD 5 #272, MD 118 and #382, 177.

(46) وفقا لكتاب الأخبار الحضرمية، كانت مقابلة «أسطول جدة التجاري الآتي من جزيرة آتشيه» في حقيقة الأمر جزءا من مهمة سفر الأصلية. Serjeant, Hadrami Chronicles, 110–11.

(47) Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 65–66.

(48) "No Achem ficavao sinco galeoes carregando de pimenta, drogas e outras fazendas pera partirem pera Meca e que se aprestavao nove gales pera irem em sua guarda." DA, dec. VIII, bk. 2, chap. 8؛ انظر أيضا تقرير لورنزو بيريس من ملقا في Documenta Indica, 7: 34.

(49) "Os turcos... como sao homens de guerra e ardilosos, nao deixao cousa alguma as occasioes do tempo como nos." DA, dec. VIII, bk. 2, chap. 8.

(50) DA, dec. VIII, bk. 2, chap. 8.

(51) Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 51–53.

(52) "Ol Dergāh-ı mu'allāya ricā-yı vāsıḳumuz olur ki bu bendelerini sāyir pādişāhlar a'dādından saymayup kendu ḳullarından diyār-ı Mışır beglerbegisi ve yāḫūd Yemen beglerbegisi veya Cidde ve 'Aden begleri kulları a'dādından Pādişāh-ı 'ālem-penāh-ı ẓıll Allāh ḥażretlerinun eṭrāf-ı vilāyetlerinde ṣadaḳa yiyen ġarīb ve miskīn ve ḥazīn ḳulları a'dādından ma'dūd buyuralar... v'allahi'l-'aẓīm işbu Acī daḫī Pādişāh-ı 'ālem-penāh ḥażretlerinun koylerinden bir koydur bu bendeleri daḫī ḫizmetkārlarından ḫizmetkārım... Lutfiḳulları cemī'-i aḥvālimuze ve ef 'ālimuze ve ġazā uğr una cedd u cehdumuze Pādişāh-ı 'ālem-penāh ḥażretlerinun ḫizemāt-ı şerīflerine i'tiḳādumuza ve iḫlāṣumuza şāhid ve vāḳıfdur." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 76.

(53) Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 79.

(54) "ol cezāyirun ahālisi... her cezīrelerinde cāmi'ler binā idup Pādişāh-ı 'ālem-penāh zıll Allāh ḥażretlerinun mubārek ve 'ālī ism-i şerīflerine ḫuṭbe oḳuyup." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 73.

(55) "Pādişāh-ı' ālem-penāh ḥażretlerinun mubārek ve 'ālī ism-i şerīflerine ḫuṭbe oḳuyup izdiyād-ı 'omr ve devletleri icun Fātiḥa oḳurlar." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 75.

(56) "Luṭfī ḳulları bu cānibe vuṣūl bulduḳlarında Seylān ve Ḳālīḳūt pādişāhlarına ḫaber olunduḳda anlar bu cānibe elciler gonderup 'arż eylediler ki biz Pādişāh-ı 'ālem-penāh-ı ẓıll Allāh ḥażretlerinun ḫizmet-kārlarından olup 'ahd ve mīsāḳları olundı kim inşallāhu'l-'aliyyi'l- 'alā Pādişāh-ı'ālem-penāh ḥażretlerinun mubārek donānma-yı humāyūnları bu diyārlara ubūr bulduḳlarında kenduleri imāna gelup şehādet geturel-er ve kendu vilāyetlerinde olan kuff ār re'āyāları daḫī cemi'ā imāna geturup dīn-i bāṭıldan dīn-i ḥaḳḳā ṭoġrı yola giderler. Inşallāhu'l 'aliyyi Pādişāh-ı'ālem-penāḥ ḥażretlerinun 'ulyā himmetleri ile maşraḳdan maġribe degin cumle-i kuff ar āsārları maḥv olup İslām dīnine gireler." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 75–76.

(57) MD 7#474, 146; #481, 179; #571, 208; #597, 218; #610, 219.

(58) MD 7#236, 88, #586, 213.

(59) MD 7 #234, 87.

(60) MD 7 #887, 311.

(61) MD 7 #234, 87.

(62) Siz daḫī dīn bābında ve devlet-i humāyūnumuza mute'alliḳ olan" umūrda bezl-i maḳdūr eyleyup kuff ār-ı ḫāḳsārun eger ḳal 'aların fetḫ itmekde eger ehl-i İslām uzerlerinden şerr u şūrların def ' itmekde sa'y ve iḳdām eyleyup 'ināyet-i ḥaḳḳ celle ve ā'lā ile ol diyārı televvusāt-ı kufurden taṭhīr ve pāk eyleyesiz ki eyyām-ı sa'ādet-encām-ı ḫusrevānemuzde ol diyārun ehl-i İslāmı daḫī āsūde-ḥāl olup ferāġ-ı bāl ile kār ve kisblerine meşġūl olalar." MD 7 #244, 93 :توجد نسخة مختصرة من هذه الرسالة في MD 7 #233, 86.

(63) "Inşā'allāhu'l-'assu'l-ekrem ol cāniblerde daḫī memālik-i İslāmi-yye'ye daḫī mustevlī olan a'dā-yı dīn-I mubīn ve duşmenān-ı āyīn-i seyyidu'l-murselīnun 'aleyhi'ṣ-ṣalātu's-selām def '-ı maẓarrāt u delāletleri icun 'asākir-i cerrār-ı nuṣret-şi'ārımuzdan dāyimā ol cānibe irsāl olunur. Her zamānda ḳā'ide-I mustemirrenuz uzerine me'mūldur ki ol diyārun aḥvāl ve mācerāsı mufaṣṣal ve meşrūḥ 'atebe-i 'ālem-penāhımuz cānibine inbā olunmaḳdan ḫālī olunmaya." MD 7 #244, 93.

(64) انظر Richard Blackburn, "The Collapse of Ottoman Authority in Yemen 968/1560–976/1568," Die Welt des Islams, n.s. 19 1-4 (1980): 120–27.
انظر رسالة تشكو من أن بدر سلطان الشحر كان يتعاون مع البرتغاليين في MD 5 #1699, 612.

(65) انظر فرمانا صادرا لحسين سفير آتشيه يشرح هذا القرار في MD 7 708, 255؛ انظر أيضا الأوامر الصادرة لولاة مصر واليمن وكوردوغلو خضر في MD 7611, 220; #614,

Caesar Farah, "Organizing for the 2nd انظر عموما :224; and #616, 224
Conquest of Yemen," X. Turk Tarih Kongresi, Ankara 22-26 Eylul, 1986
.(Ankara, 1993), 6: 1150-59

(66) Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority," 123; also Blackburn, "Two Documents," 229.

(67) انظر ميزانيات ولاية اليمن لهذه السنوات في Ozbaran, "Note on Ottoman
Arabia," 95-98؛ انظر أيضا Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority,"
.124-27

(68) حول ترقية محمود واليا لمصر، انظر Selānikī Mustafa Efendi, Tārīḫ-i Selānikī
(Istanbul, 1989), 1: 13; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fols.
.59a-61a

(69) Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority," 124-26; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fols. 61a-62a.

(70) Selānikī, Tārīḫ-i Selānikī, 1: 13; Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fols. 62a-66b.

(71) Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority," 123; Farah, "Organizing for the 2nd Conquest," 1159; Kutbeddin Mekki, Aḫbār al-Yemānī, fol. 67.

(72) انظر وصفا تفصيليا لهذه الأحداث في Blackburn, "Collapse of Ottoman
Authority," and Farah, "Organizing for the 2nd Conquest"؛ يتناول قطب
الدين مكي هذه الحملة تفصيليا في كتابه «أخبار اليمن» Kuttbeddin Mekki in
Aḫbār al-Yemānī، وتشكل الحملة ذاتها موضوعا لأكثر من عمل كلّف بها سنان
باشا لتمجيد دوره في إعادة احتلال الولاية، من أبرز هذه الأعمال Rumuzi's Tārīḫ-i
Feth-i Yemen. انظر Hulusi Yavuz, ed., Yemen'de Osmanlı İdaresi ve
.Rumuzi Tarihi (Ankara, 2002)

(73) DA, dec. VIII, bk. 3, chap. 6; Reid, "Turkish Influence," 406; C. R. Boxer, "A Note on Portuguese Reactions to the Revival of the Red Sea Spice Trade and the Rise of Atjeh 1540-1600," Journal of South East Asian History 10/3 (Dec. 1969): 421.

(74) كان من ضمن مهام مصطفى أيضا أن يستعيد المدفعية التي تركها الريس سيدي علي
وراءه في كجرات في العام 1554. انظر MD 7 616, 224.

(75) انظر وصفا لهذه الاتفاقية بين العثمانيين وسلطان آتشيه في رسالة جوان باتيستا دي
ريبيرا من ماكاو Joan Baptista de Ribera في Macau Joán Baptista de Ribera
from Macau in October 1568, in Documenta Indica 7: 514، انظر أيضا DA,
dec. VIII, bk. 3, chap. 6؛ حول الحياة المهنية اللاحقة لحسين سفير آتشيه، انظر
.DA, dec. VIII, bk. 3, chap. 7

(76) انظر رسالة لورنزو بيريس من ملقا في الثالث من ديسمبر 1568 في Lourenço Peres
from Malacca, Dec. 3, 1568, in Documenta Indica 7: 519؛ انظر أيضا
P-Y. Manguin, "Of Fortresses and Galleys: The 1568 Acehnese Siege of
Melaka, after a Contemporary Bird's-eye View," Modern Asian Studies
.22 (1988): 607-28

(77) Bouchon, "Sixteenth-Century Malabar," 179.

(78) Documenta Indica, 7: 156-57؛ حول المرتزقة العثمانيين الذين خدموا مع قوات نظام الملك في هذا الحصار، انظر FS, 4: 98.

(79) Reid, "Turkish Influence," 406.

(80) Bouchon, "Sixteenth-Century Malabar," 179.

(81) MD 7 #721, 258.

(82) MD 7 #667, 240؛ انظر أيضا Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 139-42.

(83) MD 7 #667, 240; MD 7 #671, 241; MD 7 #2228, 812; MD 7 #2723, 985.

(84) انظر Halil Inalcik, "The Origins of the Ottoman-Russian Rivalry and the Don-Volga Canal 1569," Les Annales de l'Universite d'Ankara 1 (1946-47): 47-106; and A. Kurat, "The Turkish Expedition to Astrakhan and the Problem of the Don-Volga Canal," Slavonic and East European Review 40 (Dec. 1961): 7-23.

(85) انظر الرسالة المرسلة إلى دي فرنسيسكو دا كوستا D. Francisco da Costa من كوتشن في العاشر من يناير 1569 في Alves, Dominio do norte, 273؛ انظر أيضا تقريرا معاصرا من رئيس أساقفة غوا في Joseph Wicki, "Duas relaçoes sobra a situaçao da India Portuguesa nos anos 1568 e 1569," Studia 8 (July 1961): 208-9.

(86) حول سفارة جاكومو دوليفاريس، انظر Tavim, "Outras gentes," 325-26.

(87) Hess, The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth-Century Ibero-African Frontier (Chicago, 1978), 87-89.

(88) A. Temimi, "Le gouvernement ottoman face au problème morisque," Revue d'Histoire Maghrebine 23-24 (1989): 258-62; Hess, Forgotten Frontier, 89.

(89) نص هذه الرسالة محفوظ في Mekātib-i Ḫulefā ve Şelāṭīn, T.S.M.K. R.1959, fols. 820b-821b.

(90) Ozbaran, "Basra Korfezi," 63.

(91) Francisco de Monclaro, from Moçambique, Aug. 1, 1570, in Documenta Indica 8: 294.

(92) انظر تحليلا فنيا لهذه المعركة في Guilmartin, Gunpowder and Galleys, 236-64.

(93) Veinstein, "Sokollu Mehmed," 709.

(94) Lesure, "Notes et documents," 138-50.

(95) MD 22 #631, 317; #636, 320; #638, 322; MD 23 #426, 201; and Ozbaran, "Basra Korfezi," 63.

(96) حول هرمز، انظر MD 22 #631, 317-18; #636, 320-21; #639, 322. الرسائل إلى إسبانيا وآتشيه محفوظة في Mekātib-i Hulefā ve Selāṭīn, T.S.M.K. R.1959. إسبانيا في fols. 824a-825b وآتشيه في fols. 881a-883b.

(97) Andrew Hess, "The Moriscos, an Ottoman Fifth Column in Six-

teenth-Century Spain," American Historical Review 74/1 (1968): 20.

(98) أرسلت الأوامر لمصر أيضا بأن يُبعَث قادسان للمخا التي اعتبر أنها تتعرض لتهديد برتغالي بعد الهجوم الناجح على البحرين. انظر MD 23 34, 46.

(99) MD 27 #433, 190؛ MD 24 #913, 397؛ انظر أيضا DA, dec. VIII, bk. 5, chap. 4.

(100) Ozbaran, "Basra Korfezi," 63؛ انظر دراسة معمقة لإدارة ولاية الأحساء العثمانية المجاورة للبحرين في Mandaville's "Ottoman Province of Al-Hasâ," 486–513.

(101) Veinstein, "Sokollu Mehmed," 710.

(102) MD 32 #151, 72; #155, 75; #156, 75.

(103) MD 34 #454, 216.

(104) حول العلاقات مع إنجلترا الإليزابيثية، انظر İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Türk-İngiliz Münasebetlerine Dair Vesikalar," Belleten 14 (1950): 27–40؛ حول المفاوضات مع الهابسبورغيين، انظر Chantal de la Veronne, "Giovanni Margliani et la trève de 1580 entre l'Espagne et la Turquie," Arab Historical Review for Ottoman Studies 3–4 (Dec. 1991): 70–75؛ حول المفاوضات مع إثيوبيا، انظر رسالة غوميس فاس من غوا في العشرين من أكتوبر 1579 في Gomez Vaz from Goa, Oct. 20, 1579, in Documenta Indica, 11: 282.

(105) حول معاملات صوكولو مع القرن الأفريقي، انظر رسالة روي فيسينت من غوا في الثالث عشر من نوفمبر 1579 في Ruy Vicente from Goa, Nov. 13, 1579, in Documenta Indica, 11: 704.

(106) حول العلاقات بين برنو والعثمانيين، انظر Cengiz Orhonlu, "Osmanlı-Borno Münasebetine Ait Belgeler," Tarih Dergisi 23 (March 1969): 111–31.

(107) حول المخا، انظر MD 10 #437, 437؛ وحول سواكن MD 33 #83, 39؛ وحول الأحساء MD 31 #708, 319; and MD 16 #599, 318–19؛ وحول مسبك المدافع في البصرة MD 21 #611, 254; and MD 27 #206, 510.

(108) حول البصرة، انظر MD 26 #144, 55؛ وحول الأحساء MD 16 #207, 105–6.

(109) MD 33 #85, 24; also Orhonlu, Habeş Eyaleti, 50–61.

(110) MD 27 #190, 75؛ انظر أيضا Mandaville, "Ottoman Province of Al-Hasâ," 490؛ كانت أعمال صوكولو الخيرية ضخمة على طول طريق الحج، لا سيما في حلب والمدينتين المشرفتين مكة والمدينة. انظر Necipoğlu, Age of Sinan, 345–48.

(111) "Muşārun-ileyh mektūb gonderup bu bendeleri Yemen'de iken vilāyet-i mezbūre maḥṣūlinden Muṣṭafā ile Mısır'a ḳırḳ [dort] kīselik bahār irsāl olunup mezkūr ẕikr olunan bahārı satup ḳırḳ dort kīselik bahārdan Meḥmed Paşa icun sekiz yuz altun alup Āsitāneye irsāl idup bāḳīsi uzerinde iken Vilāyet-i Yemen'de tufengciler ağalıḳ ṣadaḳa olunup." MD 2 #1243, 124.

(112) من اللافت للانتباه أن قيدا متأخرا قليلا في أحد دفاتر المهمة من منتصف العقد السابع من القرن السادس عشر يسجل مثالا آخر لاستخدام صوكولو المبدع للسوق جنبا إلى جنب مع شركاته التجارية، في هذه الحالة لتمويل أحد أعماله الخيرية الكثيرة في مكة (شملت حماما عاما ومستشفى وملجأ للمرضى العقليين)، وفيها أمر ببيع

إحدى سفنه الخاصة ثم حصل على وعد من السلطان بأن تقرضه خزانة ولاية مصر بما يكفي لتوفير الفرق في الأموال اللازمة، وهي عشرة آلاف قطعة ذهبية. انظر Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 106-7.

(113) Veinstein, "Sokollu Mehmed," 707.

(114) انظر مناقشة أكثر تفصيلا لهذه الآلية من آليات السوق التي تقدم تفسيرا يختلف بعض الشيء عن الحجة المقدمة هنا، في Casale, "Ottoman Administration of the Spice Trade," 170-98.

(115) حول هذه الأرقام، انظر İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinde Merkez ve Bahriye Teşkilatı (Ankara, 1948), 354, note 2؛ بحلول القرن السابع عشر، كانت هناك أيضا «الكيسه المصري» kīse-i Mısrī التي كانت تساوي (بالفضة) نصف «الكيسه الأناضولي» [الكيسه الرومي]. حول هذه المقاييس، وحول أسعار التحويل بين الفضة والذهب خلال القرن السادس عشر ومناقشة عامة لمشكلات العمل بالعملات في مصر العثمانية، انظر Şevket Pamuk, A Monetary History of the Ottoman Empire (Cambridge, 2000), 95-99.

(116) إن كانت كلمة كيس kīselik تشير هنا فعلا إلى وحدة نقدية وليس كمية من التوابل، فربما يشير التناقض بين الرقمين الواردين في الوثيقة (أربعين كيسا في الحالة الأولى وأربعة وأربعين في الثانية) إلى الفرق بين القيمة الأصلية للتوابل في اليمن وسعرها السوقي في نقطة البيع النهائي في مصر (وليس مجرد خطأ من الناسخ كما ذهبتُ في ترجمتي). يشير ذلك إلى أن فرق السعر بين اليمن ومصر كان عشرة في المائة فقط، وهو فارق يبدو منخفضا بالنظر إلى الأسباب التي تناقش لاحقا في هذا الفصل. لكننا إذا أخذنا الرقم 20000 أقجة لكل كيسه وتعاملنا مع الأعداد، فإن ربح أربعة أكياس أي 80000 أقجة فضية يبلغ نحو 1300 قطعة ذهبية، وهو ما يتفق على ما يبدو مع عبارة «800 قطعة ذهبية» لمحمد باشا والكمية غير المحددة لقائد المسكتيين المذكورة في وثيقتنا.

(117) وفقا لميزانية ولاية اليمن في العام 1561، كانت إرسالية Irsaliye اليمن أي فائض الولاية في تلك السنة مليونين وثمانية وعشرين ألف بارة من إجمالي أربعة وعشرين مليونا وتسعمائة وخمسة وخمسين ألفا ومائة وأربع وستين بارة (البارة الواحدة تساوي أقجة واحدة ونصف أقجة). Ozbaran, Ottoman Response, 36. تؤكد وثيقة غير مكتملة من دفاتر المهمة من هذه الفترة أن محمود باشا هو الذي بدأ ممارسة إرسال فائض الولاية للعاصمة في شكل توابل. MD 5 #1702, 613؛ انظر أيضا Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority," 132.

(118) جاء وصف لهذا النظام في دفاتر المهمة بعد أن حاول شريف مكة أن يجمع بشكل غير قانوني رسوم عبور من التوابل المخصصة للمسؤولين العثمانيين. انظر MD 3 #1493, 502; 1499, 502.

(119) MD 6 #707, 336; #710, 337; and Blackburn, "Collapse of Ottoman Authority," 133.

(120) "Nell'arsenale si fabbricano anche le navi mercantili per conto del sultano, che ne ha il monopolio. In quel mare infatti non e permesso ad alcuno aver navi proprie o noleggiarle da privati, ma tutte le navi sono del sultano, o pagano gran parte del nolo del sultano, sicche il mar ros-

so per le navi e le gabelle rende assai al Gran Signore; anzi da qualche tempo se ne recava gia tanto da supplire alle spese che si fanno per l'Jemen." Alberto Magnaghi, ed., "Il Golfo di Suez e il Mar Rosso in una relazione inedita de Filippo Pigafetta (1567–77)," Bolletino della societa geografica italiana 11, part 1, and 47, part 1 (1910): 303–4.

(121) MD 27 #75, 26.

(122) MD 33 #633, 306; #437, 214.

(123) MD 26 #780, 272; MD 27 #75, 26; MD 31 #131, 51; MD 33 #338, 169; MD 35 # 750, 296; MD 39 109, 47; #110, 47; #506, 259.

(124) MD 33 #755, 369; MD 35 # 197, 81; MD 36 #691, 323؛ ينبغي ألا نخلط هذه الممارسة مع كمية التوابل الصغيرة التي كانت ترسل سنويا من مصر (مع المواد الغذائية الأخرى) للمطابخ السلطانية التي كانت تُفصَل دائما عن التوابل الحكومية المبيعة بغرض الربح. انظر Casale, "Ottoman Administration of the Spice Trade," 184.

(125) MD 27 #164, 263.

(126) حول عجز الميزانية في اليمن، انظر Ozbaran, Sınırdaki Osmanlı, 212–15, 236–37.

(127) انظر وصفا تفصيليا لهذا الترتيب في MD 7 #370, 144; also Gavetas, 15, 2–5.

(128) حول روايات معاصرة للسفر على هذا الطريق التجاري، انظر رسالة فرنسيسكو باسيو Francisco Pasio Francisco Pasio in Documenta Indica, 11؛ وأيضا الرواية Ralph Fitch in Richard Hakluyt, Voyages (London, 1907), 3: 281–300.

(129) انظر Cengiz Orhonlu, Osmanlı İmparatorluğunda Şehircilik ve UlaŞım Uzerine AraŞtırmalar (Izmir, 1984), 121–23.

(130) خُفِّضت الضرائب على التوابل في البصرة وفقا لذلك من عشرة ونصف في المائة إلى أعلى قليلا من سبعة في المائة، وخُفِّضت الضرائب على سلع الترف من أقل قليلا من سبعة في المائة إلى خمسة بالمائة. انظر Mantran, "Règlements fiscaux ottomans," 227.

(131) Anthony Disney, "The Gulf Route from India to Portugal in the Sixteenth and Seventeenth Centuries: Couriers, Traders and Image Makers," in Thomaz and Matos, Carreira da India, 535–37.

(132) Casale, "Ottoman Administration of the Spice Trade," 185–90.

(133) MD 27 271, 115؛ انظر مناقشة أوسع لهذا الإلزام في Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 135–37.

(134) انظر على سبيل المثال حجج سوبرامانيام Subrahmanyam في "Trading World" التي اعتمدت جزئيا على البحث C. H. H. Wake, "The Changing Pattern of Europe's Pepper and Spice Imports ca. 1400–1700," Journal of European Economic and Social History, 8/2 (1979): 362–63.

(135) مع أنه لا توجد أرقام دقيقة، فلا بد أن الضرائب والرسوم الإجمالية على طول طريق البحر الأحمر تجاوزت خمسين في المائة وربما بلغت حتى مائة في المائة. Casale, "Ottoman Administration of the Spice Trade," 188. وعلى طول طريق الخليج العربي من البصرة إلى حلب (فضلا عن الرسوم البرتغالية الكبيرة في هرمز)،

بلغت الضرائب الإجمالية على التوابل أعلى قليلا من اثنين وأربعين في المائة قبل 1575 ثم ثمانية وثلاثين في المائة بعد العام 1575. انظر Potach, "Commercial Relations," 151.

(136) انظر رسالة نيكولو بيترو كوتشينو من روما في التاسع والعشرين من أكتوبر 1563 في Nicolo Pietro Cochino from Rome, Oct. 29, 1563, in Gavetas, 20, 14–17.

(137) "Şamadī demekle ma'rūf meşhūr ve 'azīm ve buyuk gemi bu diyārdan on altı ḳanṭar fulful ve ibrişīm ve dārcīn ve ḳaranf īl ve ḥişālben ve sāyir Taḥta'r-rīh metā'larından yuklenup." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 74.

(138) "Nice cevāhir ve altun ve gumuş ve ma'ādenleri bi-ḥesāb bulunur. Bunca zamāndan beru kuff ār-I ḥāksārlara naşīb olunur. İnşā'al-lahu'l-ḳadīr anlar Pādişāh-ı 'alem-penāh ḥażretlerinun 'asākir-I mucāhidīn ve ġuzzāt-ı muvāḥḥidīn ḳullarına naşīb ve ḳısmet olacaḳ-dur." Casale, "His Majesty's Servant Lutfi," 76.

(139) "ve barcalar, ol cevānibde bahār vardur anı taḥmīl idup getureler." MD 7 #234, 87.

(140) DA, dec. VIII, bk. 3, chap. 6؛ انظر أيضا رسالة كريستوفو دا كوستا Cristovao da Costa من ملقا في السادس من ديسمبر 1568 في Documenta Indica 7: 530.

(141) Lombard, Sultanat d'Atjeh, 118؛ انظر أيضا Inalcik, Economic and Social History, 347.

(142) "bahā-yi ḥilāṭhā berāy-i naḥūda ki 'an cānib-i Hind āmedend ve ilā bender-i Muḥa ezān sebeb ki 'an māl-ı pādişāhī sa'y-i belīġ kerdend." Halil Sahillioğlu, "Yemen'in 1599–1600 Yılı Bütçesi," in Yusuf Hikmet Bayur'a Armağan (Ankara, 1985), 318.

(143) Anthony Reid, "Islamization and Christianization," 156.

(144) "E tera o dito rei mais de cem pecas grossas de artelharia de metal e assi tem mais algumas grossas de ferro, e de artelharia mea tera duzentas pessas, e de meuda tera perto de quatrocentas, e tem grande numero de espingardas, porque todos os anos lhe vem de Mequa como acima fica dito e tem muita polvera feita, e boa, e grande soma de pelouros de toda a sorte." Joao Ribeiro Gaio, Roteiro das cousas do Achem: um olhar portugues sobre o norte de Sumatra em finais do seculo XVI, ed. Jorge Manuel dos Santos and Pierre-Yves Manguin (Lisbon, 1997), 97.

(145) MD 7 #370, 144.

(146) Couto (Cruz edition of eighth decade), 201؛ انظر ترجمة إنجليزية للخطاب المرسل من السلطان سليمان للبرتغال في Ozbaran, "Turks in the Persian Gulf," 82–84.

(147) انظر Imber, "Suleyman as Caliph," 179–84؛ وانظر عموما Imber's Ebu's-Su'ud: The Islamic Legal Tradition (Palo Alto, 1997), 74.

(148) انظر Reid, "Islamization and Christianization," 155–76; and Pearson,

Pilgrimage to Mecca, 62-74. يعد كتاب زين الدين Zeinu'd-din «تحفة المجاهدين» Tohfut ul-Mujahideen من أواخر القرن السادس عشر الذي يمجد في الجهاد البحري ضد الكفار البرتغاليين، مثالا لدراسة أيديولوجية إسلامية كتبت في هذه البيئة.

(149) انظر دراسة أنثروبولوجية حديثة لهذه العملية في Engseng Ho, The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean (Berkeley, 2006).

(150) Reid, "Islamization and Christianization," 162; also Alves, Dominio do norte, 223.

(151) "Mısır Beglerbegisine ḥukm ki Vilāyet-i Hind'e tābi' Bender-i Ḳālīḳūt'da yigirmi yedi şehirde vāḳi' cevāmi'de olan ḥutbeye ḳadīmden yuz altun irsāl olunduḳdan sonra Cidde'den elli altun gonderilup gelup ba'żı yıllarda ol daḫī irsāl olunmaduğı i'lām olunmağın... bu ḫuṣūṣa muḳayyed olup emrum mūcebince her seneye mustemirr[an] yuz filūrī Bender-i Cidde'den ẕikr olunan ḫutebāya bi-ḳuṣūr irsāl itdurup şimdiye degin ḳalmış vaẓifeleri daḫī var ise bi't-tamām Cidde maḥṣūlātından gonderesin." MD 28 #331, 139.

(152) انظر على سبيل المثال حجج سوبرامانيام في "Trading World" and "Matter of Alignment"؛ وانظر أيضا Alves, Dominio do norte, 166-68.

(153) سك هذا المصطلح العالم السياسي جوزيف ناي Joseph Nye في كتابه Bound to Lead: The Changing Nature of American Power (New York, 1990) وهو عمل خُصص لتحليل القوة الأمريكية في أواخر القرن العشرين.

(154) "O intento dos Turcos nao he so este das drogas; mais adiante passa que he pretenderem faserem-se senhores de todos os estados da India... e incita-los a se levantarem contra todas as fortalezas... e entao lhe fi caria a elles a negoceacao de todas as drogas pera ambos os estreitos que lhe nos temos defesos. E assi ficaria o Turco senhor de tudo sem despezas de armadas, sem gastos de fortalezas... de maniera que ainda que os turcos nao mettessem mais cabedal elles sos bastariam pera nos deitarem fora e se fazerem senhores da India." Couto (Cruz edition of eighth decade), 209-11.

الفصل السادس

(1) Orhonlu, HabeŞ Eyaleti, 61.

(2) خلال العقد التالي لوفاة علاء الدين رعاية شاه، توالى ستة سلاطين مختلفين على عرش آتشيه. Alves, Dominio do norte, 176.

(3) Veinstein, "Sokollu Mehmed," 711.

(4) حول العلاقات العثمانية - المغربية في أواخر القرن السادس عشر، انظر El Moudden, "Sharifs and Padishahs," 58-156؛ انظر أيضا Richard Smith, Ahmad al-Mansur: Islamic Visionary (New York, 2005).

(5) انظر Geoff rey Parker, The Grand Strategy of Philip II (New Haven, 1998), 167-69.

(6) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 114-16.

(7) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 18-21.

(8) انظر لمحة عامة لهذه الأحداث في Guillot and Kalus, "Inscriptions Islamiques," 85-87.

(9) عن الدين إبان عهد أكبر، انظر John F. Richards, The New Cambridge History of India: The Mughal Empire (New York, 1993), 34-40.

(10) Subrahmanyam, "Matter of Alignment," 467.

(11) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 190-92.

(12) انظر Naimur Rahman Farooqi, "Six Ottoman Documents on Mughal-Ottoman Relations during the Reign of Akbar," Journal of Islamic Studies 7 1/(1996): 32-48.

(13) عن الأحداث المتعلقة بهذا النزاع المطول، انظر Bekir Kütükoğlu, Osmanlı-İran Siyasi Munasebetleri (Istanbul, 1962).

(14) "il detto signor Maometto Pascia rispuose et promisse che non mandrianno l'armata del Gran Signore a danni del detto re di Portogallo per il mare biancho ne per la parte del estreto de Gibilterra, ma per la parte del mare rosso, che Iddio sa quello sara." Quoted in Chantal de la Veronne, "Giovanni Margliani et la trève de 1580 entre l'Espagne et la Turquie," Arab Historical Review for Ottoman Studies 3-4 (Dec. 1991): 72-73.

(15) انظر رسالة روي فيسينت من غوا بتاريخ الثالث عشر من نوفمبر 1579 في Ruy Vicente from Goa, Nov. 13, 1579, in Documenta Indica, 11: 704.

(16) انظر لمحة عامة لهذه الفترة المأزومة في Suraiya Faroqhi's "Crisis and Change 1590-1699," in Inalcik and Quataert, Economic and Social History, 2: 411-623.

(17) Hanna, Making Big Money, 107.

(18) انظر Jean Sauvaget, "Les caravansérails syriens du hadjdj de Constantinople," Ars Islamica 4 (1937): 98-121; Hanna, Making Big Money, 34.

(19) Pigafetta, Relazione, 304.

(20) Pigafetta, Relazione, 299.

(21) Safvet Bey, "Ḳara Deniz-İzmit Korfezi Ḳānāli," Tārīḫ-i 'Os̱mānī Encumeni Mecmū'ası, 13-8 (A.H.1328/a.d.1909), 948-56.

(22) انظر مناقشة عامة لرعاية خوجه سنان للفنون بدوافع سياسية في Emine Fetvacı, "Viziers to Eunuchs," 140-202.

(23) هذا هو عنوان النسخة العربية الأصلية من النص الذي ترجم لاحقا إلى التركية العثمانية بعنوان «أخبار اليمن في الفتح العثماني» Aḫbār al-Yemānī fi'l-Fetḥi'l-'Os̱mānī (أحد المصادر الأساسية للكتاب الحالي). انظر ترجمة إنجليزية للقسم المتعلق بحملة

خوجه سنان على اليمن في Clive Smith, Lightning over Yemen: A History of the Ottoman Campaign of 1569–71 (London, 2002).

(24) توجد المخطوطة الأصلية لكتاب الرموزي «تاريخ فتح اليمن» Tārīḫ-i Fetḫ-i Yemen في Istanbul University, T.Y. 6045.

(25) حول الأهمية المتنامية لعائلات بعينها في السياسة العثمانية، انظر Metin Kunt, The Sultan's Servants: Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650 (New York, 1983).

(26) Orhonlu, Habeş Eyaleti, 61–63.

(27) أُرسِل من مصر لهذا الغرض أربعون ألف قطعة ذهبية وألف ومائة جندي. MD 43 #339, 186.

(28) Orhonlu, Habeş Eyaleti, 63.

(29) انظر روايات حول هذه الغارة في DA, dec. X, bk. 1, chap. 11; FS, 4: 204; and Serjeant, Hadrami Chronicles, 111؛ تشير وثيقة في الأرشيفات العثمانية أيضا إلى هذه الحادثة MD 35 743, 293.

(30) "Quasi num abrir e fechar de olhos entrou arrebetado e saiu rico." FS, 4: 204.

(31) "des Indes orientales, du Royaume d'Ormuz, isles et ports du levant despendans du Royaume de Portugal, a venir trafiquer aux ports et echelles de sa Hautesse, en Egypte et Sorie, leur off rant tout bon traitement et accueil ou il consentiraient," dispatch of Sept. 30, 1581, quoted in F. Charles-Roux, "L'isthme de Suez et les rivalités européennes au XVIe siècle," Revue de l'histoire des colonies francaises (1924): 173.

(32) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 21.

(33) Father Monserrate, The Commentary of Father Monserrate on His Journey to the Court of Akbar, trans. J. S. Hoyland and S. N. Banerjee (Calcutta, 1922), 205.

(34) فشل الأسطول في أسر أي سفن وعاد إلى هرمز صفر اليدين. DA, dec. X, bk. 2, chap. 10.

(35) Pearson, Merchants and Rulers, 57.

(36) Pearson, Merchants and Rulers, 57–58.

(37) تمثل الإسهام الرئيس لهؤلاء المرتزقة العثمانيين في هذا الحصار في بناء نوع من اللغم العائم من بالات من القطن المحشوة بالبارود لدفعها نحو الغيلونات البرتغالية وإشعالها. ولم ينقذ السفن البرتغالية من كارثة محققة إلا أعمال بطولية في الدقيقة الأخيرة من جندي يدعى بارثولوميو فرنانديس Bartholomeu Fernandes. انظر DA, dec. X, bk. 3, chap. 3.

(38) Charles-Roux, "Isthme de Suez," 172.

(39) انظر ترجمة حديثة وتحليلا نقديا لهذا النص في Thomas Goodrich, The Ottoman Turks and the New World: A Study of Tarih-i Hind-i Garbi and Sixteenth-Century Ottoman Americana (Wiesbaden, 1990).

(40) ينسب النص عموما إلى حسن السعودي Hasan al-Suʿudi، لكن غودريتش

Goodrich يذهب إلى أن السعودي ربما لم يكن سوى الناسخ الذي أعد نسخة في العام 1583 المزخرفة التي أهديت للسلطان مراد الثالث. ويذهب غودريتش إلى أن العام 1580 أو 1581 هو التاريخ المرجح لتأليف النص. انظر Goodrich, Ottoman Turks and the New World, 19.

(41) Goodrich, Ottoman Turks and the New World, 86.

(42) انظر Aydın Sayılı, The Observatory in Islam and Its Place in the General History of the Observatory (Ankara, 1988), 292.

(43) Goodrich, Ottoman Turks and the New World, 19.

(44) Goodrich, Ottoman Turks and the New World, 100.

(45) حول علاقات البرتغال مع الساحل السواحلي، انظر Michael Pearson, Port Cities and Intruders: The Swahili Coast, India and Portugal in the Early Modern Era (Baltimore, 1998).

(46) حول الموارد المتاحة للعثمانيين على الساحل السواحلي، انظر DA, dec. X, bk. 7, chaps. 8–9.

(47) انظر تحذيرات برتغالية معاصرة من التهديد المحتمل لموزمبيق في رسالة فرنسيسكو باسيو من غوا بتاريخ الثلاثين من نوفمبر 1578 في Francesco Pasio from Goa, Nov. 30, 1578, Documenta Indica, 11: 341؛ ثمة تحذير مماثل يرجع إلى العام 1582 في DA, dec. X, bk. 5, chap. 2.

(48) "İspanya-yı la'în Hindistān vilāyetlerinde ḳal 'eleri żabt idup deryāya gemiler cikarur ise Yemen ve Ḥabeş ve Ḥicāz cāniblerinden Suveys'e varınca bendelerun cumlesinde bir muḥkem ḳal 'e olmayup." MD 48 #977, 333.

(49) انظر فرمانا يأمر بتوجيه غليوتين اثنين إلى اليمن في MD 49 #86, 23.

(50) لا تذكر وثائق عثمانية معاصرة حملة مير علي على شرق أفريقيا، لكن الوثائق البرتغالية تسجل وصولها للساحل السواحلي في أوائل العام 1586.

(51) تتمثل المصادر الأهم لحملة مير علي في أخبار أوائل القرن السابع عشر لجواو دوس سانتوس Joao dos Santos, Etiopia Oriental, ed. Luis de Albuquerque (Lisbon, 1989) وأخبار آسيا لكوتو Couto's Da Asia. وتعتمد أخبار فاريا إي سوسا Faria e Sousa في أغلبها على هذين المصدرين المبكرين؛ وتعتمد الرواية المقدمة هنا على مزيج من هذه المصادر. انظر إعادة بناء حديثة للأحداث في Charles Boxer and Carlos de Azevedo's Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593–1729 (London, 1960), 16–23.

(52) … "lancar os Portuguezes fora dalli, e ainda de Mocambique e das Minas de Cuama." DA, dec. X, bk. 7, chap. 8.

(53) "Tanto pode ou o calor, ou a sorte de um so homem! Tal era o mouro Mir Alibet que, tido por vivaz, atrevido e arrebatado... tudo isto foi obrado menos com a armada que trazia do que com a que proclamava trazer." FS, 5: 64–66.

(54) "Encendo-se de ouro, ambar, marfim, e escravos em que gastou ate todo Abril, e tratou com todos aquelles reys que mandassem offerecer

vassallagem ao Turco, o que os demais delles fizeram." DA, dec. X, bk. 7, chap. 16.

(55) Pearson, Merchants and Rulers, 60.

(56) انظر رواية تفصيلية للحملة في DA, dec. X, bk. 7, chaps. 15-16.

(57) "com velames, bandeiras e sinaies de luto, entrou com todos os adornos de um execito." FS, 5: 178.

(58) "Sabei que assim como nao pode vir a India armada de Turcos que se nao perca, assim nao pode ir nenhuma nossa ao estreito de Meca que nao tenha o mesmo fim " DA, dec. X, bk. 7, chap. 16.

(59) "Nao fizestes mais com esta vinda que acordar o cao que esta dormindo !" DA, dec. X, bk. 7, chap. 17.

(60) Charles-Roux, "Isthme de Suez," 174.

(61) حول روايتي إبراهيم باشا وسنان الخازندار المتضاربتين، انظر DA, dec. X, bk. 7, chap. 17.

(62) انظر نص هذا التقرير في Selaniki, Tārīḫ-i Selānikī, 1: 171.

(63) انظر تقرير الباشاوين حول هذه الحادثة في MD 61 #239, 99 and #240, 99–100؛ سُلِّم الأسرى البرتغاليون بعد ذلك لرعاية قليج علي باشا الذي يبدو أنه أيضا كان متواطئا في هذه الخدعة. انظر Selaniki, Tārīḫ-i Selānikī, 1: 185.

(64) MD 61, #107, 40.

(65) يؤرخ التقرير بتاريخ الثالث والعشرين من يوليو 1586. انظر Calendar of State Papers, vol. 8, doc. 385.

(66) Calendar of State Papers, vol. 8, doc. 385.

(67) «إن بك اليمن Bey of Jemen هنا وقد تلقى- بين أوامر أخرى- تعليمات بإجراء مسوح عن قناة السويس القديمة». Calendar of State Papers, vol. 8, doc. 385.

(68) حول مكائد قليج علي السابقة في غرب البحر الأبيض المتوسط، انظر Hess, Forgotten Frontier, 101.

(69) "Le beau dessein leur a deja tellement enfle leur vanite accoutumee, et attise leur ambition et avarice, qu'il leur semble qu'ils ont deja les tresors et pierreries de l'Inde, et qu'ils ont mis dans un rets le Perzien; il ne mettent en aucun compte l'Espagnol, car ils disent qu'ils n'y a que 4,000 hommes. A la verite, si leur desir et esperance reunissait a faire ce canal, y mettant deux cent galeres armees, qu'ils disent, ayant l'Arabie comme ils ont et y tournant la tete sans etre empeches d'ailleurs, ils fermeront la porte a Lisbonne et Espagne de ce cote, et seront pour agrandir et enrichir grandement cet empire." Charles-Roux, "Isthme de Suez," 176–77.

(70) Calendar of State Papers, vol. 8, doc. 409, Sept. 17, 1586.

(71) انظر Charles-Roux, "Isthme de Suez," 179.

(72) MD 62 #304, 137.

(73) MD 62 #393, 177.

(74) MD 62 #457, 205.

(75) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 22.

(76) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 116.

(77) Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 149.

(78) MD 62 #393, 177; MD 62 #457, 205.

(79) MD 62 #457, 205؛ انظر ترجمة كاملة لهذه الوثيقة في Farooqi, "Six Ottoman Documents," 43-44.

(80) "Como nesas partes ha tantas cousas a que acudir, sempre sera mas necessario tratarse de conserver o ganhado que de procurar novas ympresas atento que a guerra ofemsiva tem muytos ymcomvenientes, como se vio na armada em que mandastes por capitao mor Ruy Goncalves da Camara ao Estreito, que alem de nao ter os bons efeitos e socesos que se esperavao, nao servio mays esta tao grande e ymfrutuosa despesa que de espertar os turcos... com tanto discredito deste estado." APO, fasc. 3, 120.

(81) Parker, Grand Strategy, 179-207.

(82) "O que faria total destruicao da India... porque dalli se haviam logo de fazer senhores da mina de Cuama, e Sofala, e ainda da fortaleza de Mocambique, onde podiam esperar as naos do Reyno e tomallas." DA, dec. X, bk. 9, chap. 2.

(83) DA, dec. X, bk. 8, chap. 10.

(84) أصيب هذا الرجل التعس وغير معلوم الاسم في أثناء القتال، وسلمه مير علي للسلطة المحلية لإعطائه فرصة للتعافي، لكن السلطات المحلية عذبته لكي يتخلى عن المسيحية وعندما رفض واصلوا تعذيبه حتى مات في أيديهم. DA, dec. X, bk. 9, chap. 1.

(85) DA, dec. X, bk. 9, chap. 1.

(86) انظر رسالة فيليب الثاني بهذا الشأن في APO, fasc. 3, 146.

(87) انظر رسالة فيليب الثاني إلى نائب الملك بتاريخ التاسع والعشرين من مارس في APO, fasc. 3, 293.

(88) DA, dec. X, bk. 9, chap. 2.

(89) "pera os vingar das affrontas, perdas e mortes que tinham recebido dos Portugueses, e lancallos pera sempre daquellas terras." DA, dec. 11, chap. 26.

(90) MD 64, #499, 195.

(91) لا توجد إشارة إلى أن حسن قد أطلع عويس باشا أو السلطان في إسطنبول على نياته. ولم تذكر رسالته الأخيرة قبل مغادرة مير علي إلا أنه «لا توجد حتى الآن أي إشارة على سفن الكفار التعساء». [kuffār-i ẖāksār gemilerinden nām u nişān olmaduğın bildirup], MD 64 #499, 195.

(92) إن المصدر الوحيد لرحلة مير علي الثانية على الساحل السواحلي هو أخبار جواو دوس سانتوس. وربما تحتوي الأرشيفات البرتغالية معلومات مهمة حول الحملة لم تكتشف بعد، لكن في الوقت الحاضر تتمثل أقدم إشارة أرشيفية معروفة في رواية موجزة في APO, fasc. 3, 273؛ وتعتمد رواية الكتاب الحالي على دوس سانتوس.

(93) "receberam com muito contentamento... todas as cidades e lugares de Mouros daquella costa." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 27.

(94) يوجد تحليل فني لهذا المزيج التكتيكي من الدعم الإمدادي الجيد والقلعة الساحلية القوية والقوادس الحربية والمدفعية الثقيلة، الذي وصفه جون غيلمارتن بأنه موقف دفاعي «لا يقهر»، في Guilmartin, Gunpowder and Galleys, 13.

(95) انظر مناقشة لمصداقية أخبار دوس سانتوس في Giancarlo Casale, "Global Politics in the 1580s: A Canal, Twenty Th ousand Cannibals, and an Ottoman Plot to Rule the World," Journal of World History 18/3 (Nov. 2007), 273–76.

(96) "entre estas huma assas grande." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 41.

(97) "escolhendo antes a morte da agua, que a do ferro cruel dos barbaros." dos Santos, Etiopia Oriental, 45.

(98) "Nao me espanto de minha adversa fortuna, porque sao sucessos de guerra, e mais quero ser cativo de cristaos, de quem ja outra vez fui em Espanha, que ser comido dos Zimbas barbaros e desumanos." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 37.

(99) "Alegrai-vos e esperai em Deus, que ja eu fui cativo de pior senhor do que vos sois, que foi o Malabar, e agora estou neste estado que vedes; assim vos pode seceder a vos." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 242.

(100) "Senhor, verdade e que eu sou cativo, mas sendo-o de V. Senhoria, me tenho por grande senhor." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 242.

(101) "Mirale Beque foi mandado para Portugal, onde se converteu e se fez cristao, no que restaurou para a sua alma todas as perdas e quebras que tinha recebido no corpo." dos Santos, Etiopia Oriental, 1: 242.

(102) انظر الوثيقة في Filmoteca Ultramarina Portuguesa no.16, p. 692, quoted in Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, trans. Siân Reynolds (New York, 1972), 2: 760.

(103) Boxer and de Azevedo, Fort Jesus, 23.

(104) انظر التاريخ اللاحق للتدخل البرتغالي في الساحل السواحلي في Pearson, Port Cities and Intruders, 129–54.

(105) Pearson, Merchants and Rulers, 49–51, 112–13; also Thomaz, "Crise de 1565–1575," 495.

الفصل السابع

(1) عن عهد إسكندر مودا، انظر Amirul Hadi, Islam and State in Sumatra: A Study of Seventeenth-Century Aceh (Leiden, 2004)؛ انظر أيضا Lombard, Sultanat d'Atjeh.

(2) توجد ترجمة فرنسية كاملة لهذه القطعة من كتاب «حكاية آتشيه» في Lombard, Sultanat d'Atjeh, 227–33.

(3) عن اقتصاد المحيط الهندي خلال القرن السابع عشر، انظر R. J. Barendse, The

Arabian Seas: The Indian Ocean World of the Seventeenth Century .(London, 2003)

(4) انظر Hanna, Making Big Money, 107.

(5) MD 27 #164, 263.

(6) MD 43 #328, 180.

(7) MD 48 #617, 220. حدث ذلك بعد شكاوى مريرة من إسطنبول في العام 1581 من أن والي مصر لم يرسل أيا من الألف ومائة بالة توابل التي كانت متوقعة في تلك السنة. انظر MD 46 #187, 99.

(8) MD 53 #127, 65.

(9) MD 53 #177, 66.

(10) تشير سجلات المحاكم المصرية إلى أن وكيل حسن باشا باع للقنصل الفرنسي في القاهرة في العام 1596 حمولة توابل لا تقل قيمتها عن عشرة آلاف دينار. Hanna, Making Big Money, 108.

(11) وفقا لسجلات المحاكم المصرية، كان من بين هؤلاء رجال مثل إبراهيم باشا والي مصر وبيرم باشا وفضلي باشا والي اليمن وأحمد باشا والي إريتريا. انظر Hanna, Making Big Money, 107-9.

(12) انظر Michel Tuchscherer, "Commerce et production du café en Mer Rouge au XVIe siècle," in Michel Tuchscherer, ed., Le commerce du cafe avant l'ere des plantations coloniales: espaces, reseaux, societe, XVe-XIXe siecle (Cairo, 2001), 69–90.

(13) C. G. Brouwer and A. Kaplanian, Early Seventeenth Century Yemen, Dutch Documents Relating to the Economic History of Southern Arabia (Leiden, 1988), 137, 166, 223.

(14) Hanna, Making Big Money.

(15) عن ماسوليباتنام، انظر Sanjay Subrahmanyam, "Persians, Pilgrims and Portuguese: The Travails of Masulipatnam Shipping in the Western Indian Ocean 1590–1665," Modern Asian Studies 22/3 (1988): 505؛ وعن بيغو والبحر الأحمر، انظر Manuel de Abreu Mousinho, Breve discurso em que se conta a conquista do reino do Pegu na India oriental, ed. Maria Paula Caetanto (Lisbon, 1990), 60–61.

(16) Pearson, Pilgrimage to Mecca, 56.

(17) Pierre du Jarric, Akbar and the Jesuits, C. H. Payne, trans. (London, 1926), 178; also Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, 23.

(18) Andreas Tietze, ed. and trans., Mustafa Ali's Counsel for Sultans of 1581 (Vienna, 1982), 2: 37.

(19) Tietze, Mustafa Ali, 2: 38.

(20) Tietze, Mustafa Ali, 2: 39.

(21) Tietze, Mustafa Ali, 2: 36.

(22) هذه الأرقام مأخوذة من İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 23-25.
تشير بيانات مماثلة من العمل المرجعي ذاته إلى حدوث زيادة خلال أواخر القرن

السادس عشر في نسخ وانتشار أعمال سابقة أخرى مثل كتاب القزويني «عجائب المخلوقات» وكتاب مصطفى المواقيت «إعلام العباد في أعلام البلاد». انظر قائمة مخطوطات باقية لهذه النصوص والنصوص المذكورة في الأقسام التالية في İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 5-49؛ انظر لمحة عامة عن الأدبيات الجغرافية العثمانية في Fr. Taeschner, "Djughrāfiyā VI: The Ottoman Geographers," EI 2, 2: 587-90.

(23) مقارنة بذلك، لا يوجد اليوم إلا نسختان فقط من كتاب أحمد بن خليل الصالحي في الجغرافيا الذي طبع في روما في العام 1585 (وهو أول كتاب جغرافيا باللغة العربية يطبع بحروف مطبعية متحركة)، مع أنه طبع منه في الأصل عدة مئات. انظر Olga Pinto, "Una rarissima opera araba stampata a Roma nel 1585," in Studi bibliografici: Atti del convegno dedicato alla storia del libro italiano nel V centenario dell'introduzione dell'arte tipografica in Italia, Bolzano, ottobre, 1965 (Firenze, 1967), 47 8-7.

(24) ثمة تفسير جزئي لعدم معرفة العثمانيين النسبية بهذه النصوص العربية، هو أن الجغرافيا لم تكن جزءا من منهج المدرسة medrese المعتاد. انظر İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, xxxi-xli.

(25) Adıvar, Osmanlı Turklerinde İlim, 93-94؛ انظر أيضا İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 28-29.

(26) Seydi Ali Reis, Kitāb al-Muḫīt, ed. Fuat Sezgin (Frankfurt, 1997); M. Guadefroy-Demombynes, "Les sources arabes du Muhit turc," Journal Asiatique, 2nd series, 20 (1912): 347-50.

(27) İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 64.

(28) Mehmet Aşık, Menazıru'l-Avalim, 2 vols., ed. Mahmut Ak (Istanbul, 2007); for the original manuscript, T.S.M.K., R. 1667.

(29) Istanbul, Süleymaniye Library Veliyüddin Efendi 2337؛ انظر أيضا İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 66.

(30) T.S.M.K. R. 1642؛ انظر أيضا Adıvar, Osmanlı Turklerinde İlim, 93; İhsanoğlu, Osmanlı Coğrafya Literaturu, 67.

(31) "Kitāb-ı tevārīḫ-i pādişāhān-ı vilāyet-i Hindū ve Ḫitāy ve Keşmīr ve vilāyet-i 'Acem ve Kaşġār ve Kalmuk ve Cin ve sā'ir pādişāhān-i pīşīn ez evlād-ı Cingiz Hān ve Ḫāḳān ve faġfūr ve pādişāhān-I Hindūstān der zamān-ı Sulṭān Murād b. Sulṭān Selīm Ḫān." See Jospeh Matuz, ed. and trans., L'ouvrage de SeyfiCelebi (Paris, 1968).

(32) "Halḳ mā beyninde eṭrāf-ı 'ālemde şehirlerun İstanbūl şehrinden bu'dı ve kac ayliḳ ve kac gunluk yol olduğı ḫıyānā ba'żı mecālisde soylenmede 'ādet-i vāḳı'-yı evvelī gelmişdur ve soylenen aḫbārun daḫī ba'żısı ṣaḫīḫ olursa eks_eri ġayr-i ṣaḫīḫ olduğı daḫī ma'lūmdur zīrā kim mubālaġa ḳasḍ idup vaḳı ' olan bu'ddan ziyāde ẕikr idup ve ba'żı daḫī bir sabīl taḫmīn ve taḳr īr idup." T.S.M.K. K. 893, fol. 91a.

(33) انظر Campbell, "Portulan Charts," 371-447.

(34) T.S.M.K. H. 1822.

(35) الأطالس العثمانية الأربعة المعروفة من هذا النوع هي أطلس الريس علي مكار Ali Macar Reis, T.S.M.K. Ms. H.644، وأطلس المكتبة الوطنية بباريس مجهول المؤلف Biblioteque Nationale in Paris, Ms. A.Y. 2978 والأطلس الهمايوني في متحف الآثار بإسطنبول Atlas-I Humāyūn of the Istanbul Archaeology Museum, Ms: no. 1621، وأطلس البحار بمعرض والترز للفنون في بالتيمور Deniz Atlası of the Walters Art Gallery in Baltimore, no. W. 660.

(36) اكتشف توماس غودريتش الخريطة في العام 1984. انظر وصفا كاملا للخريطة في Thomas Goodrich, "Atlas-ı Hümayun: A Sixteenth Century Ottoman Maritime Atlas Discovered in 1984," Archivum Ottomanicum 10 (1985): 84–101.

(37) Thomas Goodrich, "The Earliest Ottoman Maritime Atlas: The Walters Deniz Atlası," Archivum Ottomanicum 11 (1986): 25–44.

(38) تميز العقد السادس من القرن السادس عشر بنشاط خاص في هذا النوع من التبادل، إذ طلب الكثير من الأمراء العثمانيين المتنافسين شراء خرائط للعالم من البندقية. انظر Benjamin Arbel, "Maps of the World for Ottoman Princes? Further Evidence and Questions concerning 'The Mappamondo' of Hajji Ahmed," Imago Mundi 54 (2002): 24–26.

(39) انظر Svat Soucek, "The 'Ali Macar Reis Atlas' and the Deniz Kitabı," Imago Mundi 25 (1971): 27.

(40) انظر على سبيل المثال Goodrich, "Atlas-ı Hümayun," 88.

(41) انظر قائمة مراجع موسعة حول الخريطة في Arbel, "Maps of the World," 19–20؛ انظر مناقشة للهوية المحتملة لمؤلف الخريطة المزعوم «حاجي أحمد التونسي» في V. L. Ménage, "The Map of Hajji Ahmed and Its Makers," Bulletin of the School of Oriental and African Studies 21(1958): 291–314.

(42) انظر تدوينا صوتيا كاملا للنص التركي الأصلي في B. Şehsuvaroğlu, "Kanuni Devrinde Yazılmış ve Şimdiye Kadar Bilinmeyen bir Coğrafya Kitabı," in Kanuni Armağanı (Ankara, 1970), 207–25.

(43) "El-ḥāṣıl bu musạ nnefetde olan resim degul cihānun numūnesi ve kernāmesidur... li'ennehum dunyāda vāki' olan memleket ve vilāyetlerun ṣaḥīḥ aḥvālerin ve ḫaberin alıncaya degin nice feylesoflar ve ehl-i'ilmun ma'rifetlerin ve meşveretlerin gerek ve bī-nihāye māl ḫarc eylemesin lāzım olur." Şehsuvaroğlu, "Bilinmeyen bir Coğrafya," 225.

(44) Antonio Fabris, "Ottoman Mappa Mundi," 31–37.

(45) Robert Jones, "The Medici Oriental Press (Rome 1584–1614) and the Impact of Its Arabic Publications on Northern Europe," in G. A. Russell, ed., The "Arabick" Interest of the Natural Philosophers in Seventeenth-Century England (Leiden, 1994), 88–108.

(46) Gabor Agoston, "Information, Ideology, and the Limits of Imperial

Policy: Ottoman Grand Strategy in the Context of Ottoman-Habsburg Rivalry," in Virginia Aksan and Daniel Goff man, eds. The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire (Cambridge, 2007), 87.

(47) انظر Aydın Sayılı, -"çüncü Murad'ın İstanbul Rasathanesi," 397. مخطوطة سيد لقمان «شاهنشاه نامه» محفوظة حاليا في مكتبة جامعة إسطنبول Istanbul University Library, M.S. 1404. حول وظيفة المؤرخ الرسمي şehnāmeci التي شغلها لقمان، انظر Christine Woodhead, "An Experiment in Official Historiography: The Post of Şehnameci in the Ottoman Empire, c. 1555-1605," Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes 75 (1983): 157-82.

(48) عن تطور أدب الاستكشاف الأوروبي، انظر (في الحالة الإسبانية) Ricardo Padron, The Spacious Word: Cartography, Literature and Empire in Early Modern Spain (Chicago, 2003)؛ انظر معالجة مماثلة للحالة الهولندية في Benjamin Schmidt's Innocence Abroad: The Dutch Imagination and the New World, 1570-1670 (Cambridge, 2001)؛ انظر أيضا W. D. C. Randles, "La diffusion dans l'Europe du XVIe siècle des connaissances géographiques dues aux découvertes portugaises," in La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du colloque, Paris, les 26, 27 et 28 mai 1988 (Paris, 1990), 269-78؛ وثمة مقاربة أكثر عمومية تشمل المنظور العثماني في Jerry Brotton and Lisa Jardine, Global Interests: Renaissance Art between East and West (Ithaca, 2000).

(49) حول الحركة الإنسانية الغربية في عصر الاستكشاف، انظر Pagden, Fall of Natural Man; and Sebastiano Gentile, ed., Firenze e la scoperta dell'America: Umanesimo e geografia nel '400 fiorentino (Firenze, 1992)؛ حول اشتباك الإنسانيين مع النصوص الكلاسيكية عموما، انظر James Hankins, Plato in the Italian Renaissance (New York, 1991).

(50) انظر Justin Stagl, "The Methodising of Travel in the 16th Century: A Tale of Three Cities," in Pagden, Facing Each Other, 123-50.

(51) انظر على سبيل المثال Fabris, "Ottoman Mappa Mundi," 31-37.

(52) Busbecq, Turkish Letters, 205-7.

(53) انظر حالة مماثلة من القرن السابع عشر في Paul Kahle, "China as Described by Turkish Geographers from Iranian Sources," in Paul Kahle, Opera Minora I (Leiden, 1956), 312-25.

(54) انظر محاولة حديثة لتناول هذه المسألة في Nelly Hanna, In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth through the Eighteenth Centuries (Syracuse, 2003).

(55) انظر على سبيل المثال Adrian Johns, The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making (Chicago, 1998)؛ انظر أيضا Joseph Dane, The Myth of Print Culture: Essays on Evidence, Textuality, and Bibliographical Method (Toronto, 2003); for the older view on the

"printing revolution," see Elizabeth Eisenstein, The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformation in .Early Modern Europe (Cambridge, 1979)

(56) انظر تناولا معمقا للطبيعة الساكنة على ما يبدو لخرائط العالم في الجغرافيا الإسلامية في .Karen Pinto, "3 Ways of Seeing," 147-352

(57) حول منشورات مطبعة مديتشي بالحروف العربية، انظر Jones, "Medici Oriental Press," 88-108؛ انظر أيضا Geoffrey Roper, "Early Arabic Printing in Europe," in Eva Hanebutt-Benz, Dagmar Glass, and Geoffrey Roper, eds., Middle East Languages and the Print Revolution: A Cross-Cultural .Encounter (Westhofen, 2002), 129-50

(58) انظر Venice, Biblioteca Marciana, Ms. Or. 98؛ انظر Olga Pinto, "Rarissima opera araba," 47-51؛ انظر أيضا Yousuf Alian Serkis, Dictionary of Arabic Printed Books from the Beginning of Arabic Printing until the End of .1337 A.H.-1919 A.D. (Cairo, 1928), 1: 1037

(59) Selim Nüzhet, Turk Matbaacılığı (Istanbul, 1928), 11؛ وحول منشورات مطبعة مديتشي بالحروف العربية، انظر "Jones, "The Medici Oriental Press.

(60) Vitorino Magelhaes Godinho, "The Portuguese 'Carreira da India' 1497-1810," in Jaap Bruijn and Femme Gaastra, eds., Ships, Sailors and Spices: East India Companies and Their Shipping in the 16th, 17th, and 18th Centuries (Amsterdam, 1993), 36.

(61) المثال الأشهر لهذا النوع من الكتابة هو كتاب مصطفى علي «كنه الأخبار» Kunhu'l-Ahbār الذي أكمل في العام 1594. انظر Cornell Fleischer, Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Ali 1541-1600 (Princeton, 1986). ثمة أمثلة أخرى منها كتاب مصطفى جنبي «الحافل الوسيط والعالم الزاهر المحيط» Mustafa Cenabi's al-Ḥāfil al-Vasīt ve'l-'Aylam al-Zāhir al-Muḥīt, Süleymaniye Library, Hamidiye Ms. No. .896

(62) انظر مناقشة لنص تعليقي زاده في .Necipoğlu, Age of Sinan, 29-30

(63) "Devr-i Ādemden beru baḥre mālik olan selāṭīn berri żabt, ve berri ḳabża-i ḳabżına olan ḥavā kīn baḥri ḥavze-ı teshīre geturimemişlerdi. Bu devlet-i 'uẓmā bu 'uẓemā-yı devlete muyesser olmışdur. Ḥ attā, Sulṭān-ı Ṣāḥib-ḳirān Suleymān Ḥān ḥażretleri bu şerefe nā'il olduḳları-na—şukran li'Allahi'lāliye—muhur-i şerīflerin bu 'unvān ile tezyīn buyurmışlardı: Şahī ki ez şeref şude ber şer' mustāḳīm Sulṭān-ı berr-u-baḥr Suleymān ibn-i Selīm." Christine Woodhead, Ta'līḳī-zāde's Şeh-nāme-I humāyūn: A History of the Ottoman Campaign into Hungary 1593-94 (Berlin, 1983), 118.

(64) حول خسارة اليمن العثمانية، انظر Jane Hathaway, A Tale of Two Factions: Myth, Memory and Identity in Ottoman Egypt and .Yemen (Albany, 2003)

(65) Charles Boxer, "Anglo-Portuguese Rivalry in the Persian Gulf, 1615-1635," in Boxer, Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia 1500–1750 (London, 1985).

(66) Rudi Matthee, "Between Arabs, Turks and Iranians: The Town of Basra, 1600–1700," Bulletin of the School of Oriental Studies, 16/1 (2006): 53–78.

(67) عن ملقا الهولندية، انظر Dianne Lewis, Jan Compagnie in the Straits of Malacca 1641–1795 (Athens, 1995).

(68) في العام 1627 على سبيل المثال، لم تصل توابل لمصر على الإطلاق بسبب الثورة اليمنية، ما اضطر التجار العثمانيين إلى استيرادها من أوروبا لتلبية الطلب المحلي. انظر Inalcik, Economic and Social History, 1: 334. بوجه عام، تشدد الدراسات الأحدث عن الاقتصاد الأوسع للمحيط الهندي خلال القرن السابع عشر على الحيوية المتواصلة للتجارة العثمانية مع آسيا البحرية على الرغم من الأزمة السياسية داخل البلاد العثمانية. لكن يظل من الثابت أن أغلب هذه التجارة انسلت من أيدي التجار العثمانيين إلى أيدي تجار الهند واليمن ومناطق المحيط الهندي الأخرى. انظر مقدمة لهذه الدراسات في Barendse, Arabian Seas ومناقشة في Inalcik, Economic and Social History, 1: 338–55; and Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 158–60.

(69) نقلا عن W. Barthold and M. Fuad Koprülü, Islam Medeniyeti Tarihi (Istanbul, 1963), 230.

(70) إلى جانب الأدبيات الواسعة حول سؤال «التدهور العثماني»، ظهر أخيرا اهتمام متجدد بسؤال «الأزمة العامة» خلال القرن السابع عشر كظاهرة عالمية. انظر العدد الخاص الأخير في مجلة أمريكان هيستوريكال ريفيو American Historical Review، لا سيما المقالة Geoffrey Parker, "Crisis and Catastrophe: The Global Crisis of the Seventeenth Century Reconsidered," American Historical Review 113/4 (October 2008): 1053–79 التي تطرح سؤال التغير البيئي كعامل موحد خلف هذه الأزمة.

(71) انظر Cemal Kafadar, "The Myth of the Golden Age: Ottoman Historical Consciousness in the Post-Süleymanic Era," in Kafadar and Inalcik, Suleyman the Second, 37–48.

(72) كانت مواد أساسية بالقدر نفسه مثل القار والمسامير والوقود غير متوافرة، وكان يتحتم الإتيان بها من مناطق بعيدة عن البحر الأحمر. وكانت السويس تفتقر أيضا إلى مصدر محلي للماء الصالح للشرب. انظر Faroqi, Pilgrims and Sultans, 41, 71–72, 94–95؛ انظر أيضا المناقشة العامة لجغرافية المدن الميناثية في عالم المحيط الهندي في Barendse, Arabian Seas,13–86.

(73) انظر مقدمة حول هذه المسألة في Daniel Goff man, The Ottoman Empire and Early Modern Europe (Cambridge, 2002), 123–28.

(74) انظر Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 80–91.

ببليوغرافيا

المصادر العثمانية غير المنشورة

Abdi Efendi. Ḳānūnu'd-Dunyā. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Revan 1639.
Anonymous. Ḳānūnnāme-i Sulṭān Suleymān H ̣ān. Süleymaniye Kütüphanesi, Ms. Veliyüddin Efendi 1970.
———. Mekātib-i H ̣ulefā ve Selāṭīn. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Revan 1959.
Aşık, Mehmed. Menāẓiru'l-Avālim. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Revan 1667.
Cenabi, Mustafa. Ḥafīl al-Vaṣīṭ ve'l-'Aylam al-Zāḫir al-Muḥīṭ, Süleymaniye Kütüphanesi, Ms. Hamidiye 896.
Lokman, Seyyid. Zubdetu't-Tevārīḫ. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Hazine 1321.
———. Mucmelu't-Tūmār. British Museum, Turkish Ms. Or. 1135.
———. Şehinşāhnāme. İstanbul niversitesi Kütüphanesi, Ms. 1404.
Al-Mar'aşi, Mehmed. İḳlīmnāme. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms III. Ahmed 2844.
Mekki, Kutbeddin. Aḫbāru'l-Yemānī. Translated into Ottoman Turkish and expanded by Haci Ali. Süleymaniye Kütüphanesi, Ms. Aya Sofya 3091.
al-Muvakkit, Mustafa b. 'Ali. İ'lāmu'l-'İbād fī A'lāmi'l-Bilād. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Koğuşlar 893.
al-Rumi, Mahmud al-Hatib. Nevādiru'l-Ġarā'ib ve Mevāridu'l-'Acā'ib. Süleymaniye Kütüphanesi, Ms. Esad Efendi 2051.
Rumuzi. Tārīḫ-i Fetḥ-i Yemen. İstanbul niversitesi Kütüphanesi, Ms. 6045.
Rüstem Paşa Tevārīḫ-i Āl-i 'Oṣmān. Cambridge University Library, Turkish OR. Ms. Gg 6.33.
Sipahizade Mehmed. Evẓaḥu'l-Mesālik fī Ma'rifet'il-Buldān ve'l-Memālik. Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi, Ms. Revan 1642.
al-Su'udi, Hasan. Tārīḫ-i Hind-i Ġarbī or İḳlīm-i Cedīd. Beyazıt Devlet Kütüphanesi, Ms. 4969.
Tulun, Hasan b. Tārīḫ-i Mıṣır. British Museum, Ms. Add. 1846.

المصادر العثمانية المنشورة

'Arab Faqih, The Conquest of Abyssinia: Futuḥ Al-Ḥabaṣa. Translated by Paul Lester Stenhouse. Hollywood, Calif.: Tsehai, 2005.
Aşık, Mehmet. Menaẓiru'l-Avalim. 2 vols. Edited by Mahmut Ak. Istanbul: Türk Tarih Kurumu, 2007.
Bacqué-Grammont, Jean-Louis, ed. and trans. La premiere histoire de France en turc ottoman: Chroniques des padichas de France. Paris: L'Hattaman, 1997.
Barkan, Omer Lütfi, ed. XV ve XVI'ıncı Asırlarda Osmanlı İmparatorluğunda Zirai Ekonominin Hukuki ve Mali Esasları, Birinci Cilt: Kanunlar. Istanbul: Burhaneddin Matbaası, 1943.
Bayley, E. C., ed. and trans. The Local Muhammadan Dynasties: Gujarat. London: W. H. Allen, 1886.
Blackburn, J. R., ed. Journey to the Sublime Porte: The Arabic Memoir of a Sharifian Agent's Diplomatic Mission to the Ottoman Imperial Court in the Era of Suleyman the Magnificent. Beirut: Oriental Institute, 2005.
Bozorg b. Shariyar. Livres des merveilles de l'Inde par le captaine Bozorg fils de Chahriyār de Rāmhormoz. Translated by Marcel L. Devic. Leiden: E. J. Brill, 1883.
ad-Dabir, Muhammad al-Makki al-Asafial-Ulughkhani Hajji. Zafar ul-Wālih bi Muzaff ar wa Ālihi—An Arabic History of Gujarat. Translated by M. F. Lokhandwala. Baroda, India: Oriental Institute, 1970.
Feridun, Ahmed Beg, Mecmū'a-yı Munşe'āt-ı Selāṭīn. 2 vols. Istanbul, a.h. 1264–1275/ a.d.
1848–1858.
Goodrich, Thomas. The Ottoman Turks and the New World: A Study of Tarih-i Hind-i Garbi and Sixteenth-Century Ottoman Americana. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1990.
Ibn Iyas. Journal d'un bourgeois du Caire: Chronique d'Ibn Iyās. 2 vols. Translated by Gaston Wiet. Paris: Libraire Armand Colin, 1945.
Katib Celebi, Tuḥfetu'l-Kibār fī Esfāri'l-Biḥār. Edited by Orhan Şaik Gokyay. Istanbul: Milli Eğitim Basımevi, 1973.
Kutbeddin Mekki (a.k.a. al-Nahrawali, Muhammad ibn Ahmad). al-Barḳ al-Yamānī fī al-Fatḥ al-'Uthmānī. Edited by Hamad Jasir. Riyad: Dar al-Yamamah, 1967.
———. "La foudre du Yémen, ou conquête du Yémen par les Othomans." Translated by Silvestre de Sacy. Notes et extraits des manuscrits de la Bibliotheque Nationale 4 (1788): 412–504.
Lutfi Pasha, Khalās al-Umma fī Ma'rifat al-A'immah. Edited by Majidah Makhluf. Cairo, 2001.
———. Tevārīḫ-i Āl-i 'Oṣmān. Istanbul A.H. 1341 /D.C. 1922–1923.
Matrakçı Nasuh. Beyān-ı Menāzil-i Sefer-i 'Irāḳeyn-i Sulṭān-ı Suleymān H ̣ān. Edited by Hüseyin Yurdaydın. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1976.
al-Najdi, Ahmad b. Majid. Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese, Being a Translation of the Kitāb al-Fawā'id fī Uṣūl al-Bahr wa'l-Qawā 'id of Ahmad b. Mājid al Najdī. Edited and Translated by G. R. Tibbetts. London: Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, 1971.
Peçevi, İbrahim. Tārīḫ-i Peçevī. 2 vols. Istanbul: Maṭba'a-ı Āmire, a.h. 1283/a.d. 1866.
Piri Reis. Kitāb-ı Bahrīye. 4 vols. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1988.

———. Kitāb-ı Baḥrīye. Edited by Fevzi Kurtoğlu. Istanbul: Türk Tarihi Araştirma Kurumu, 1935.
———. Piri Reis Haritası Hakkında İzahname. Edited by Yusuf Akçura. Istanbul: Türk Tarihi Araştirma Kurumu, 1935.
Sa'deddin, Mehmed. Tācu't-Tevārīḫ. Istanbul, a.h. 1279/ a.d. 1863.
Sahillioğlu, Halil. Topkapı Sarayı Arşivi H.951–952 Tarihli ve E-12321 Numaralı Muhimme Defteri. Istanbul: IRCICA, 2002.
Schuman, L. O., ed. and trans. Political History of the Yemen at the Beginning of the 16th Century according to Contemporary Arabic Sources. Amserdam: Djambatan, 1961.
Selaniki Mustafa Efendi, Tārīḫ-i Selānikī. 2 vols. Edited by Mehmed İpşirli. Istanbul: Türk Tarih Kurumu, 1989.
Serjeant, R. B. The Portuguese off the South Arabian Coast: Hadrami Chronicles with Yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in the Seventeenth Century. Oxford: Clarendon Press, 1963.
Seydi Ali Reis. Mir'ātu'l-Memālik: İnceleme, Metin, İndeks. Edited by Mehmet Kiremit. Ankara: Türk Dil Kurumu, 1999.
———. Kitāb al-Muḥīṭ. Edited by Fuat Sezgin. Frankfurt: Institut fur Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften, 1997.
———. The Travels and Adventures of Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the Years 1553–1556. Translated by A. Vambery. London: Luzac, 1899.
SeyfiCelebi. L'ouvrage de SeyfiCelebi. Edited by Joseph Matuz. Paris: Maisonneuve, 1968.
Süheyli Efendi. Tārīḫ-i Mışır al-Cedīd. Kostantiniyye: Müteferrika, a.h. 1142/a.d. 1729.
Smith, Clive, ed. and trans. Lightning over Yemen: A History of the Ottoman Campaign 1569–71. London: I. B. Tauris, 2002.
Soudan, Frédérique. Le Yemen Ottoman d'apres la chronique d'al-Mawza'ī: al-Iḥsān fī duḫūl mamlakat al-Yaman taḥt ẓill 'adālat Āl 'Uṯmān. Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1999.
Süreyya, Mehmed. Sicill-i Osmanī. 6 vols. Edited by Nuri Akbayar and Seyit Ali Kahraman. Istanbul: Tarih Vakfi, 1996.
Tietze, Andreas, ed. and trans. Mustafa Ali's Counsel for Sultans of 1581. 2 vols. Vienna: Verlag der osterreichischen Akademie der Wissenschaften, 1978, 1982.
Vatin, Nicolas. Sultan Djem: Un prince ottoman dans l'Europe du XVe siecle d'apres deux sources contemporaines: Vakiat-ı Sultan Cem, Oeuvres de Guillaume Caoursin. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1997.
Christine Woodhead, ed. Ta'līḳī-zāde's Şehnāme-i Humāyūn: A History of the Ottoman Campaign into Hungary 1593–94. Berlin: Klaus Schwarz, 1983.
Yavuz, Hulusi, ed. Yemen'de Osmanlı Idaresi ve Rumuzi Tarihi. 2 vols. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 2002.
Zeinu'd-Din. Tohfut ul-Mujahideen. Translated by M. J. Rowlandson. London: Oriental Translation Fund, 1833.

المصادر البرتغاليةوغيرها من المصادر الأولية الأوروبية

Abreu, Lisuarte. Livro de Lisuarte de Abreu [Facsimile edition]. Lisbon: Comissao Nacional para as Comemorações dos Descobrimentos Portugueses, 1992.
Alberi, Eugenio, ed. Le relazioni degli ambasciatori veneti al senato. 18 vols. Florence: Società Editrice Fiorentina, 1839–1863.
Anonymous. "Particular Relation of the Expedition of Solyman Pacha from Suez to India against the Portuguese at Diu, Written by a Venetian Officer Who Was Pressed into Turkish Service on That Occasion." In General History and Collection of Voyages and Travels, 22 vols., edited by Robert Kerr, 7: 257–87. Edinburgh: William Blackwood, 1824.
Arquivo Nacional da Torre do Tombo. As Gavetas da Torre do Tombo. 8 vols. Lisbon: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, 1960–1977.
Baiao, Antonio, ed. Historia quinhentista (inedita) do segundo cerco de Dio, ilustrada com a correspondencia original, tambem inedita, de D. Joao de Castro, D. Joao de Mascarenhas, e outros. 2 vols. Coimbra: Imprensa da Universidade, 1925.
Bocarro, Antonio. Livro das plantas de todas as fortalezas, cidades e povoacoens do Estado da India Oriental. Evora, Biblioteca Pública, Codice CXV/2–1.
Busbecq, Ogier Ghiselin de. The Turkish Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq, Imperial Ambassador at Constantinople 1554–1562. Translated by Edward Seymour Forster. Oxford: Clarendon Press, 1968.
Castanheda, Fernao Lopes de. Historia do descobrimento e conquista da India pelos Portugueses. 8 vols. Lisbon: Typographia Rollandiana, 1833.
Castro, Joao de. Cartas de D. Joao de Castro. Edited by Elaine Sanceau. Lisbon: Agencia Geral do Ultramar, 1955.
———. Roteiros de Joao de Castro. Edited by A. Fontoura da Costa. 2 vols. Lisbon: Agencia Geral das Colonias, 1940.
———. Primeiro roteiro da costa da India; desde Goa ate Dio: narrando a viagem que fez o vice-rei D. Garcia de Noronha em soccorro desta ultima cidade, 1538–1539. Porto: Typographia Commercial Portuense, 1843.
———. Roteiro que fez Dom Joao de Castro da viajem que fezeram os Portugueses desde India atee Soez. University of Minnesota James Ford Bell Library, Ms. 1541 fCa.
Cavendish, Edward. A New Universal Collection of Voyages and Travels, from the Earliest Accounts to the Present Time. London: Cooke, 1771.
Corpo Diplomatico Portuguez. 15 vols. Paris: J. P. Aillaud, 1846.

Correia, Gaspar. Lendas da India. 4 vols. Edited by M. Lopes de Almeida. Lisbon: Academia Real das Ciências de Lisboa, 1858–1864.
Coutinho, Lopes de Sousa. Historia do cerco de Diu. Lisbon: Typographia do Comercio de Portugal, 1890.
Couto, Dogo do. Diogo do Couto e a decada 8a da Asia. 2 vols. Edited by Maria Augusta Lima Cruz. Lisbon: Imprensa Nacional-Casa da Moeda, 1994.
———. Da Asia. Lisbon: Régia Officina Typografica, 1777. [vols. 10–24 of the 24-volume work Da Asia de Joao de Barros e de Diogo do Couto.
Documentacao Ultramarina Portuguesa. Lisbon: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos da Junta de Investigaçao do Ultramar, 1960–1973.
dos Santos, Joao. Etiopia Oriental. 2 vols. Edited by Luis de Albuquerque. Lisbon: Alfa, 1989.
Faria e Sousa, Manuel de. Asia Portuguesa. 6 vols. Translated by Isabel Ferreira do Amaral Pereira de Matos. Porto: Biblioteca Historica, 1956.
Fitch, M. Ralph. "The Voyage of M. Ralph Fitch, Merchant of London." In Voyages. 8 vols. Edited by Richard Hakluyt, 3: 281–300. London: J. M. Dent and Sons, 1907.
Gaio, Joao Ribeiro. Roteiro das cousas do Achem: um olhar portugues sobre o norte de Sumatra em finais do seculo XVI. Edited by Jorge Manuel dos Santos Alves and Pierre-Yves Manguin. Lisbon: Sociedade Historica de Independência de Portugal, 1997.
Jarric, Pierre du. Akbar and the Jesuits. Translated by C. H. Payne. London: Harper, 1926.
Monserrate, S.J. The Commentary of Father Monserrate on His Journey to the Court of Akbar. Translated by J. S. Hayland and S. N. Banerjee. New Delhi: Asian Education Services, 1992.
Mousinho, Manuel de Abreu. Breve discurso em que se conta a conquista do reino do Pegu na India oriental. Edited by Maria Paula Caetanto. Lisbon: Mem Martins, 1990.
Oliveira, Julieta Teixeira Marques de, ed. Fontes documentais de Veneza referentes a Portugal. Lisbon: Imprensa Nacional-Casa da Moeda, 1996.
Pigafetta, Filippo. "Il Golfo di Suez e il Mar Rosso in una relazione inedita de Filippo Pigafetta (1567–77)." Edited by Alberto Magnaghi. Bolletino della societa geografica italiana. Ser. 4, 47/11, part 1 (1910): 264–312.
Pinto, Fernao Mendes. The Travels of Mendes Pinto. Edited and translated by Rebecca D. Catz. Chicago: University of Chicago Press, 1989.
Public Records Office. Calendar of State Papers and Manuscripts Relating to English Affairs Existing in the Archives and Collections of Venice, and in Other Libraries of Northern Italy. 38 vols. Great Britain: Public Records Office, 1939–1947.
Rego, Antonio da Silva, ed. Documentacao para a historia das missoes do padroado portugues do oriente. 12 vols. Lisbon: Ministério das Colonias, 1948–.
Rego, Antonio da Silva, and T. W. Baxter, eds. Documentos sobre os portugueses em Mocambique e na Africa central, 1497–1840. 9 vols. Lisbon: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, 1962–1989.
Rivara, J. H. da Cunha, ed. Archivo Portuguez-Oriental. 6 vols. in 10 parts. Nova Goa: Imprensa Nacional, 1857–1877.
Rycaut, Paul. Present State of the Ottoman Empire. London: Starkey and Brome, 1668.
Sanceau, Elaine, ed. Colleccao de Sao Lourenco. 3 vols. Lisbon: Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, 1973–1983.
Sanuto, Marin. I diarii di Marino Sanuto. Edited by Rinaldo Fulin, Federico Stefani, and Marco Allegri. 58 vols. Venetia: Deputazione Veneta di Storia Patria, 1879–1903.
Whiteway, R. S., trans. and ed. The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541–1543 Related by Castanhoso and Bermudas. London: Hakluyt Society, 1902.
Wicki, Joseph, ed. Documenta Indica. 11 vols, Roma: Institutum Historicum Societatis Iesu, 1948–1994.

المصادر الثانوية

Adıvar, Adnan. Osmanlı Turklerinde İlim. 9th ed. Istanbul: Remzi Kitabevi, 2000.
Agoston, Gabor. "Information, Ideology, and the Limits of Imperial Policy: Ottoman Grand Strategy in the Context of Ottoman-Habsburg Rivalry." In The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire, edited by Virginia Aksan and Daniel Goffman. Cambridge: Cambridge University Press, 2007, 75–102.
———. Guns for the Sultan: Military Power and the Weapons Industry in the Ottoman Empire. Cambridge: Cambridge University Press, 2005.
Ak, Mahmut. "Menâzirü'l-Avâlim." Akademik Araştırmalar Dergisi 2/4–5 (2000): 291–306.
Akdağ, Mustafa. Turkiye 'nin İktisadi ve Ictimai Tarihi. 2 vols. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1971.
al-Aidarous, Mohamed Hasen. "The Ottoman-Portuguese Conflict in the Arabian Gulf during the Second Half of the Sixteenth Century." Arab Historical Review for Ottoman Studies 1–2 (Jan. 1990): 15–43.
Alam, Muzaffar, and Sanjay Subrahmanyam. Indo-Persian Travels in the Age of the Discoveries. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.
Albuquerque, Luis de. "Alguns aspectos de ameaça turca sobre a India por meados do século XVI." Agrupamentos de Estudos de Cartographia Antiga 51 (1977).
———. "O dominio português do indico e a resposta turca." Vertice 36 (1976): 6–18.
Alkanderei, Faisal. "Selman Reis and his Report of 931/1525." Arab Historical Review for Ottoman Studies 7–8 (1993): 103–26.
Allen, W. E. D. Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century. London: Central Asian Research Center, 1963.

Al-Tikriti, Nabil. "Şehzâde Korkud (c. 1468–1513) and the Articulation of Early 16th-Century Religious Identity." PhD dissertation, University of Chicago, 2004.

Alves, Jorge Manuel de Santos. O Dominio do norte de Sumatra. Lisbon: Sociedade Historica da Independência de Portugal, 1999.

Arasaratnam, S. "Recent Trends in the Historiography of the Indian Ocean 1500–1800." Journal of World History 1/2 (1990): 225–48.

Arbel, Benjamin. "Maps of the World for Ottoman Princes? Further Evidence and Questions concerning 'The Mappamondo' of Hajji Ahmed." Imago Mundi 54 (2002): 19–29.

———. Trading Nations: Jews and Venetians in the Early Modern Eastern Mediterranean. Leiden: E. J. Brill, 1995.

———. "Nur Banu (c. 1530–1580)—A Venetian Sultana?" Turcica 24 (1992): 241–59.

Artan, Tülay. "The Kadırga Palace Shrouded by the Mists of Time." Turcica 26 (1994): 54–124.

Atasoy, N. "Nakkaş Osman'ın Padişah Portreleri Albümü." Turkiyemiz 6 (1972): 2–12.

Aubin, Jean. "La politique orientale de Selim I." In Itineraires d'Orient: Hommages a Claude Cahen, edited by Raoul Curiel and Rika Gyselen. Bures-sur-Yvette, 1994, 197–215.

———. "Merchants in the Red Sea and the Persian Gulf at the Turn of the 15th and 16th Centuries." In Asian Merchants and Businessmen in the Indian Ocean and the China Sea, edited by Denys Lombard and Jean Aubin. Oxford: Oxford University Press, 1988, 79–86.

——— "Albuquerque et les négotiations de Cambaye." Mare Luso-Indicum 1 (1971): 3–63.

Ayalon, David. "Memlukler ve Deniz Kuvvetleri." Tarih Dergisi 25 (March 1971): 39–50.

———. Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. London: Vallentine Mitchell, 1956.

Babinger, Franz. Osmanlı Tarih Yazarları ve Eserleri, 3rd ed. Translated by Coşkun çok. Ankara: Türk Kültür Bakanlığı, 2000.

———. Mehmed the Conqueror and His Time. Translated by Ralph Manheim. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1978.

Bacqué-Grammont, Jean-Louis. "Une lettre d'Ibrahim Pacha à Charles Quint." In Comite Internationale d'Etudes Pre-Ottomanes et Ottomanes, VIth Symposium, Cambridge 1st–4th of July 1984, edited by J.-L. Bacqué-Grammont and Emeri Van Donzel. Istanbul: IFEA, 1987.

———. "Les affaires mogholes vues par un ambassadeur ozbek à Istanbul vers 1550." In Passe turcotatar, present sovietique: Etudes offertes a Alexandre Bennigsen, edited by Ch. Lemercier-Quelquejay, G. Veinstein, and S. E. Wimbush. Paris: Peeters, 1986, 165–73.

Bacqué-Grammont, Jean-Louis, and Anne Kroell. Mamlouks, Ottomans et Portugais en Mer Rouge: L'affaire de Djedda en 1517. Cairo, 1988.

Bacqué-Grammont, Jean-Louis, and Mohammad Mokri. "Une lettre de Qâsim Širvânî à Muzaff er Šâh du Gujarat: Les premieres relations des Ottomans avec l'Inde." In Zafername: Memorial Volume of Felix Tauer, edited by Rudolf Vesely and Eduard Gambar. Prague, 1996, 35–49.

Barendse, R. J. The Arabian Seas: The Indian Ocean World of the Seventeenth Century. London: East Gate, 2003.

Barkan, Omer Lütfi. "H.933–34 (M.1527–28) Mali Yılına Ait Bir Bütçe omeği." İktisat Fakultesi Mecmuası 15/1–4 (1954): 251–93.

Barthold, W., and M. Fuad Koprülü. Islam Medeniyeti Tarihi. Istanbul: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1963.

Beckingham, C. F. "The Red Sea in the Sixteenth Century." Journal of the University of Manchester Egyptian and Oriental Society 25 (1947–1953): 28–36.

Beller-Hann, Ildiko. "Ottoman Perceptions of China." In Comite International d'Etudes Pre-Ottomanes et Ottomanes, VIth Symposium, Cambridge 1st–4th of July 1984, edited by J.-L. Bacqué-Grammont and Emeri Van Donzel. Istanbul: IFEA, 1987.

Benedict, Barbara. Curiosity: A Cultural History of Early Modern Inquiry. Chicago: University of Chicago Press, 2001.

Bisaha, Nancy. Creating East and West: Renaissance Humanists and the Ottoman Turks. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2004.

Blackburn, J. Richard. "Two Documents on the Division of Ottoman Yemen into Two Beglerbegiliks (973–1565)." Turcica 27 (1995): 223–36.

———. "Arabic and Turkish Source Materials for the Early History of Ottoman Yemen 945/1538—976/1568." Sources for the History of the Arabs, Part 2/2, edited by Abd Al-Rahman b. Al-Ansary. Riyadh, 1986, 197–210.

———. "The Ottoman Penetration of Yemen: An Annotated Translation of Ozdemir Bey's Fethnâme for the Conquest of San'a in Rajab, 954/Aug 1547." Archivum Ottomanicum 5 (1980): 70–89.

———. "The Collapse of Ottoman Authority in Yemen 968/1560–976/1568." Die Welt des Islams, New Series 19, 1–4 (1979): 119–76.

Bloss, J. F. E. "The Story of Suakin." Sudan Notes and Records 19, part 2 (1936): 71–100.

Bono, Salvatore. Schiavi musulmani nell'Italia moderna. Napoli: Edizioni Scientifiche Italiane, 1999.

Bostan, İdris. Osmanlılar ve Deniz: Deniz Politikaları, Teşkilat, Gemiler. Istanbul: Küre, 2007.

———. Osmanlı Denizciliği. Istanbul: Kitap, 2006.

———. Kurekli ve Yelkenli Osmanlı Gemileri. Istanbul: Bilge, 2003.

Bouchon, Geneviève. Albuquerque, le lion des mers d'Asie. Paris: Editions Desjonquères, 1992.

———. "Sixteenth-Century Malabar and the Indian Ocean." In India and the Indian Ocean 1500–1800, edited by Ashin Das Gupta and M. N. Pearson. Calcutta: Oxford University Press, 1987, 162–84.
———. "L'évolution de la piraterie sur la côte malabare au cours du XVIe siècle." In Course et piraterie: Etudes presentees a la Commission Internationale d'Histoire Maritime a l'occasion de son Xve colloque international. San Francisco, 1975, 744–65.
Boxer, C. R. Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia 1500–1750. London: Variorum, 1985.
———. "A Note on Portuguese Reactions to the Revival of the Red Sea Spice Trade and the Rise of Atjeh 1540–1600." Journal of South East Asian History 10/3 (Dec. 1969): 416–510.
Boxer, Charles, and Carlos de Azevedo. Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593–1729. London: Hollis and Carter, 1960.
Braudel, Fernand. "The Expansion of Europe and the 'Longue Durée." In Expansion and Reaction, edited by H. L. Wesseling. Leiden: Leiden University Press, 1978, 17–28.
———. The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II. 2 vols. Translated by Sian Reynolds. New York: Harper and Row, 1972.
Brotton, Jerry. Trading Territories: Mapping the Early Modern World. London: Reaktion, 1987.
Brotton, Jerry, and Lisa Jardine. Global Interests: Renaissance Art between East and West. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 2000.
Brouwer, C. G., and A. Kaplanian. Early Seventeenth-Century Yemen, Dutch Documents Relating to the Economic History of Southern Arabia. Leiden: E. J. Brill, 1988.
Brummet, Palmira. "What Sidi Ali Saw." Portuguese Studies Review 9/1–2 (2002): 232–53.
———. "The Ottomans as a World Power: What We Don't Know about Ottoman Seapower." Oriente Moderno, 2nd Ser., 20/1 (2001): 1–21.
———. Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery. Albany: State University of New York Press, 1994.
———. "Foreign Policy, Naval Strategy and the Defence of the Ottoman Empire in the Early Sixteenth Century." International History Review 11/4 (Nov. 1989): 613–28.
Budge, E. A. Wallace. A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia. 2 vols. London: Methuen, 1928.
Cahen, Claude. "Douane et commerce dans les ports méditerranéens de l'Egypte médiévale d'après le Minhādj d'Al-Makhzūmī." Journal of the Economic and Social History of the Orient 7/3 (Nov. 1964): 218–313.
Campbell, Tony. The Earliest Printed Maps. London: British Library, 1987.
———. "Portulan Charts from the Late Th irteenth Century to 1500." In The History of Cartography, Vol. 1: Cartography in Prehistoric, Ancient and Medieval Europe and the Mediterranean, edited by J. B. Harley and David Woodward. Chicago: University of Chicago Press, 1987, 371–447.
———. "Census of Pre-Sixteenth-Century Portolan Charts." Imago Mundi 38 (1986): 67–94.
Carboni, Stefano, ed. Venice and the Islamic World. New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007.
———. "Oggetti decorati a smalto di influsso islamico nella vertraria muranese: tecnica e forma." In Venezia e l'Oriente vicino: Arte veneziana e arte islamica: Atti del Primo Simposio Internazionale sull'Arte Veneziana e l'Arte Islamica, edited by Ernst J. Grube. Venice, 1989, 147–66.
Casale, Giancarlo. "Ottoman Guerre de Course and the Intercontinental Spice Trade." Itinerario 32/1 (Spring 2008): 59–79.
———. "The Ethnic Composition of Ottoman Ship Crews and the 'Rumi Challenge' to Portuguese Identity." Medieval Encounters 13 (2007): 122–44.
———. "An Ottoman Intelligence Report from the Mid Sixteenth-Century Indian Ocean." Journal of Turkish Studies 31/1 (2007): 181–88.
———. "Global Politics in the 1580s: A Canal, Twenty Th ousand Cannibals, and an Ottoman Plot to Rule the World." Journal of World History 18/3 (Nov. 2007): 267–96.
———. "The Ottoman 'Discovery' of the Indian Ocean in the Sixteenth Century." In Seascapes: Maritime Histories, Littoral Cultures and Trans-Oceanic Exchanges, edited by Jerry Bentley, Renate Bridenthal, and Karen Wigen. Honolulu: University of Hawaii Press, 2007, 87–104.
———. "The Ottoman Administration of the Spice Trade in the Sixteenth-Century Red Sea and Persian Gulf." Journal of the Economic and Social History of the Orient 49/2 (May 2006): 170–98.
———. "His Majesty's Servant Lutfi: The Career of a Previously Unknown Sixteenth-Century Ottoman Envoy to Sumatra Based on an Account of His Travels from the Topkapı Palace Archives." Turcica 37 (2005): 43–81.
Charles-Roux, F. "L'isthme de Suez et les rivalités européenes au XVIe siècle." Revue de l'histoire des colonies francaises (1924): 174–85.
Chaudhuri, K. N. Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750. Cambridge: Cambridge University Press, 1985.
Cipolla, Carlo. Guns, Sails and Empires: Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion 1400–1700. New York: Pantheon, 1965.
Cizakça, Murat. "Ottomans and the Mediterranean: An Analysis of the Ottoman Shipbuilding Industry as Reflected by the Arsenal Registers of Istanbul 1529–1650." In Le genti del mare mediterraneo, edited by Rosalba Ragosta. 2 vols. Naples: Lucio Pironti, 1981, 2: 773–88.

Coates, Timothy J. "D. Joao de Castro's 1541 Red Sea Voyage in the Greater Context of the Sixteenth-Century Portuguese-Ottoman Red Sea Rivalry." In Decision Making and Change in the Ottoman Empire, edited by Caesar E. Farah. Kirksville, Mo.: Thomas Jefferson University Press, 1993, 263–85.

Couto, Dejanirah. "Trois documents sur une demande de secours ormouzi à la Porte Ottomane." Anais de Historia de Alem-Mar 3 (2002): 469–98.

———. "L'itinéraire d'un marginal: la deuxième vie de Diogo de Mesquita." Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian 39 (2000): 9–35.

———. "No rasto de Hādim Seleimao Pacha: Alguns aspectos do comércio do mar vermelho nos anos de 1538–40." In A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII Seminario Internacional de Historia Indo-Portuguesa, edited by Artur Teodoro de Matos and Luis Filipe Thomaz. Angra do Heroismo, 1998, 485–508.

———. "L'espionage portugais dans l'empire ottoman au XVIe siècle." In La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du Colloque, Paris les 26, 27 et 28 Mai 1988. Paris: Fondation Gulbenkian, 1990, 243–67.

Crone, G. R. Maps and The ir Makers: An Introduction to the History of Cartography, 2nd ed. London: Hutchinson, 1964.

Crosby, Alfred W. The Measure of Reality: Quantification and Western Society 1250–1600. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

Cruz, Maria Augusta Lima. "Notes on Portuguese Relations with Vijayanagara." In Sinners and Saints: The Successors of Vasco da Gama, edited by Sanjay Subrahmanyam. Delhi: Oxford University Press, 1998, 13–39.

Cruz, Maria do Rosario de Sampaio The mudò Barata de Azevedo. "A 'Questao de Baçora' na menoridade de D. Sebastiao (1557–1568): A perspectiva das informações colhidas na India e as iniciativas do governo." Rivista da falcudade de letras, 5th series, 6 (1986): 103–38.

Dames, Longworth. "The Portuguese and the Turks in the Indian Ocean in the 16th Century." Journal of the Royal Asiatic Society 1 (Jan. 1921): 1–28.

Dane, Joseph. The Myth of Print Culture: Essays on Evidence, Textuality, and Bibliographical Method. Toronto: University of Toronto Press, 2003.

Das Gupta, Arun. "The Maritime Trade of Indonesia: 1500–1800." In India and the Indian Ocean 1500–1800, edited by Ashin Das Gupta and M. N. Pearson. Calcutta: Oxford University Press, 1987, 240–76.

de la Veronne, Chantal. "Giovanni Margliani et la trève de 1580 entre l'Espagne et la Turquie." Arab Historical Review for Ottoman Studies 3–4 (Dec. 1991): 70–75.

Desai, Z. A. "Relations of India with the Middle Eastern Countries during the 16th-17th Centuries." Journal of the Oriental Institute 23 (1973–1974): 75–106.

Destombes, M. "Fragments of Two Medieval World Maps at the Topkapı Saray Library." Imago Mundi 18 (1964): 244–54.

———. "The Chart of Magellan." Imago Mundi 12 (1955): 77–88.

———. "L'Hemisphère austral en 1524: une carte de Pedro Reinel à Istanbul." Comptes rendus du Congres International de Geographie, Amsterdam 1938, 2 vols. Leiden: E. J. Brill, 1938.

Diffie, Bailey, and George D. Winius. Foundations of the Portuguese Empire 1415–1580. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1977.

Diamond, Jared. Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies. New York: Norton, 1999.

Disney, Anthony. "The Gulf Route from India to Portugal in the Sixteenth and Seventeenth Centuries: Couriers, Traders and Image Makers." In A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII Seminario Internacional de Historia Indo-Portuguesa, edited by Artur Teodoro de Matos and Luis Filipe Thomaz. Angra do Heroismo, 1998, 535–37.

Ebel, Kathryn. "City Views, Imperial Visions: Cartography and the Visual Culture of Urban Space in the Ottoman Empire, 1453–1603." PhD dissertation: University of Texas, Austin, 2002.

Eisenstein, Elizabeth L. The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformation in Early Modern Europe. 2 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1979.

Elbl, I. "Man of His Time (and Peers): A New Look at Henry the Navigator." Luso-Brazilian Review 28/2 (1991): 73–89.

Emiralioğlu, Mevhibe Pınar. "Cognizance of the Ottoman World: Visual and Textual Representations in the Sixteenth-Century Ottoman Empire (1514–1596)." PhD dissertation: University of Chicago, 2006.

Fabris, Antonio. "The Ottoman Mappa Mundi of Hajji Ahmed of Tunis." Arab Historical Review for Ottoman Studies 7–8 (1993): 31–37.

Farah, Caesar E. "Organizing for the 2nd Conquest of Yemen." In X. Turk Tarih Kongresi, Ankara 22–26 July, 1986, vol. 6, 1150–59.

Farooqi, Naimur Rahman. "Six Ottoman Documents on Mughal-Ottoman Relations during the Reign of Akbar." Journal of Islamic Studies 7/1 (1996): 32–48.

———. Mughal-Ottoman Relations: A Study of Political and Diplomatic Relations between Mughal India and the Ottoman Empire 1556–1748. Delhi: IAD, 1989.

———. "Moguls, Ottomans, and Pilgrims: Protecting the Routes to Mecca in the 16th and 17th Centuries." International History Review 10 (1988): 198–220.

Faroqhi, Suraiya. The Ottoman Empire and the World around It. London: I. B. Tauris, 2004.

———. Pilgrims and Sultans: The Hajj under the Ottomans 1517–1683. New York: I. B. Tauris, 1994.

———. "Crisis and Change 1590–1699." In Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300–1914, Vol. 2. Edited by Halil Inalcik and Donald Quataert. Cambridge: Cambridge University Press, 411–623.
———. "Trade, Controls, Provisioning Policies and Donations: The Egypt-Hijaz Connection During the 2nd Half of the 16th Century." In Suleyman the Second and His Time, edited by Halil Inalcik and Cemal Kafadar. Istanbul: Isis, 1993.
Fetvacı, Emine. "Viziers to Eunuchs: Transitions in Ottoman Manuscript Patronage, 1566–1617." PhD dissertation: Harvard University, 2005.
Finlay, Robert. "How Not to (Re)Write World History: Gavin Menzies and the Chinese Discovery of America." Journal of World History 15/2 (2004): 229–42.
———. "Crisis and Crusade in the Mediterranean: Venice, Portugal and the Cape Route to India (1498–1509)." Studi Veneziani 28 (1994): 45–90.
———. "Portuguese and Chinese Maritime Imperialism: Camoes's Lusiads and Loo Maodeng's Voyage of the San Bao Eunuch." Comparative Studies in Society and History 34/2 (1992): 225–41.
———. "The Treasure Ships of Zheng-He: Chinese Maritime Imperialism in the Age of Discovery." Terrae Incognitae 23 (1991): 1-12.
Fischel, Walter J. "The Spice Trade in Mamluk Egypt." Journal of the Economic and Social History of the Orient 1 (1958): 157–74.
Fitzmaurice, Andrew. Humanism and America: An Intellectual History of English Colonization. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.
Fleischer, Cornell. "The Lawgiver as Messiah: The Making of the Imperial Image in the Reign of Suleyman." In Soliman le Magnifique et son temps, edited by Gilles Veinstein. Paris, 1992, 163–79.
———. Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Ali (1541–1600). Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1986.
Flint, Valerie. The Imaginative Landscape of Christopher Columbus. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1992.
Floor, Willem. The Persian Gulf: A Political and Economic History of Five Port Cities 1500–1730. Washington, D.C.: Mage, 2006.
Flores, Jorge Manuel Costa da Silva. "The Straights of Ceylon, 1524–1539: The Portuguese Mappilla Struggle over a Strategic Area." In Sinners and Saints: The Successors of Vasco da Gama, edited by Sanjay Subrahmanyam. Delhi: Oxford University Press, 1998, 57–74.
———. Os Portugueses e o mar de Ceilao 1498–1543: Trato, diplomacia e guerra. Lisbon: Cosmos, 1998.
Frank, Andre Gunder. ReOrient: Global Economy in the Asian Age. Berkeley: University of California Press, 1998.
Fuchs, Barbara. Mimesis and Empire: The New World, Islam and European Identities. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.
Gambara, Agostino. "Il Canale di Suez e la Repubblica di Venezia." Archivio veneto 2 (1871): 175–213.
Gaudefroy-Demombynes, M. "Les souces arabes du Muhit." Journal asiatique, 2nd series, 20 (1912): 547–50.
Gaudio, Michael. Engraving the Savage: The New World and Techniques of Civilization. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2008.
Geanakoplos, Deno John. Constantinople and the West: Essays on the Late Byzantine (Palaeologan) and Italian Renaissances and the Byzantine and Roman Churches. Madison: University of Wisconsin Press, 1989.
Genç, Mehmet. Osmanlı İmparatorluğu'nda Devlet ve Ekonomi. Istanbul: otüken, 2000.
Gentile, Sebastiano, ed. Firenze e la scoperta dell'America: Umanesimo e geografia nel '400 fiorentino. Firenze: Olschki, 1992.
Gibb, H. A. R. "LutfiPaşa on the Ottoman Caliphate." Oriens 15 (1962): 287–95.
Glete, Jan. Warfare at Sea 1500–1650: Maritime Conflicts and the Transformation of Europe. London: Routledge, 2000.
Godinho, Vitorino Magelhaes. "The Portuguese 'Carreira da India' 1497–1810." In Ships, Sailors and Spices: East India Companies and their Shipping in the 16th, 17th and 18th Centuries, edited by Jaap Bruijn and Femme Gaastra. Amsterdam: Neha, 1993, 1–47.
———. Os descobrimentos e a economia mundial. 2nd ed. 4 vols. Lisbon, 1981.
———. "Le tournant mondial de 1517–1524 et l'empire portugais." Studia 1 (Jan. 1958): 184–200.
Goetz, Herman. "Ottoman Turkish Art in India: The Architect of the Gol Gumbaz at Bijapur." In Studies in the Foreign Relations of India (from the Earliest Times to 1947), edited by P. M. Joshi. Hyderabad: State Archives Press, 1975, 522-26.
Goff man, Daniel. The Ottoman Empire and Early Modern Europe. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.
Gokbilgin, Tayyib. "Rüstem Paşa Hakkındaki İthamlar." Tarih Dergisi 11–12 (July 1955): 11–50.
———. "Ibrāhīm Pa sh a," The Encyclopaedia of Islam, New Edition. Leiden: E.J. Brill, 1954–, vol. 3, 998a.
Goodrich, Thomas. "Some Unpublished Sixteenth-Century Ottoman Maps." In Comite International d'Etudes Pre-Ottomanes et Ottomanes, VIth Symposium, Cambridge 1st–4th of July 1984, edited by J.-L. Bacqué-Grammont and Emeri Van Dunzel. Istanbul: IFEA, 1987, 99–103.
———. "The Earliest Ottoman Maritime Atlas: The Walters Deniz Atlası." Archivum Ottomanicum 11 (1986): 25–44.
———. "Atlas-ı Hümayun: A Sixteenth-Century Ottoman Maritime Atlas Discovered in 1984." Archivum Ottomanicum 10 (1985): 84–101.
Grafton, Anthony. New Worlds, Ancient Texts: The Power of Tradition and the Shock of Discovery. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992.

Greenblatt, Stephen. Marvelous Possessions: The Wonder of the New World. Chicago: University of Chicago Press, 1991.

Guillot, Claude, and Ludvik Kalus. "Inscriptions islamiques sur des canons d'Insulinde du XVIe siècle." Archipel 72 (2006): 69–94.

Guilmartin, John. Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the 16th Century. New York: Cambridge University Press, 1980.

Hadi, Amirul. Islam and State in Sumatra: A Study of Seventeenth-Century Aceh. Leiden: E. J. Brill, 2004.

Hall, Bert S. Weapons and Warfare in Renaissance Europe: Gunpowder, Technology and Tactics. Baltimore: Johns Hopkins, 1997.

Hamdani, Abbas. "Ottoman Response to the Discovery of America and the New Route to India." Journal of the American Oriental Society 101/3 (July 1981): 323–30.

———. "Columbus and the Recovery of Jerusalem." Journal of the American Oriental Society 101 (1981): 323–30.

Hankins, James. "Renaissance Crusaders: Humanist Crusade Literature in the Age of Mehmed II." Dumbarton Oaks Papers 49 (1995): 111–207.

———. Plato in the Italian Renaissance. 2 vols. New York: Brill, 1991.

Hanna, Nelly. In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth through the Eighteenth Centuries. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 2003.

———. Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'il Abu Taqiyya, Egyptian Merchant. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1998.

Hathaway, Jane. A Tale of Two Factions: Myth, Memory, and Identity in Ottoman Egypt and Yemen. Albany: State University of New York Press, 2003.

Hess, Andrew G. The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth-Century Ibero-African Frontier. Chicago: University of Chicago Press, 1978.

———. "Piri Reis and the Ottoman Response to the Voyages of Discovery." Terrae Incognitae 6 (1974): 19–37.

———. "The Ottoman Conquest of Egypt and the Beginning of the Sixteenth-Century World War." International Journal of Middle East Studies 4/1 (Jan. 1973): 55–76.

———. "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453–1525." American Historical Review 75/7 (Dec. 1970): 1892–1919.

———."The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-Century Spain." American
Historical Review 74/1 (1968): 1–25.

Ho, Engseng. The Graves of Tarim: Genealogy and Mobility across the Indian Ocean. Berkeley: University of California Press, 2006.

Hodgson, Marshall D. Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History. Edited by William Burke III. Cambridge: Cambridge University Press, 1993.

Hostetler, Laura. The Art of Ethnography: A Chinese Miao Album. Seattle: University of Washington Press, 2007.

———. Qing Colonial Enterprise: Ethnography and Cartography in Early Modern China. Chicago: University of Chicago Press, 2001.

Hourani, George. Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1995.

Howard, Deborah. Venice and the East: The Impact of the Islamic World on Venetian Architecture 1100– 1500. New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000.

İhsanoğlu, Ekmeleddin. Osmanlı Coğrafya Literaturu Tarihi. 2 vols. Istanbul: IRCICA, 2000.

Imber, Colin. Ebu's-Su'ud: The Islamic Legal Tradition. Palo Alto: Stanford University Press, 1997.

———. "Suleyman as Caliph of the Muslims: Ebu's-Su'ud's Formulation of Ottoman Dynastic Ideology." In Soliman le Magnifique et son temps, edited by Gilles Veinstein. Paris, 1992, 179–84.

———. "The Navy of Suleyman the Magnificent." Archivum Ottomanicum 6 (1980): 211–82.

Inalcık, Halil. An Economic and Social History of the Ottoman Empire 1300–1914, Vol. 1: The Ottoman State, Economy and Society 1300–1600. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

———. "The Socio-Political Effects of the Diffusion of Firearms in the Middle East." In The Ottoman Empire: Conquest, Organization, and Economy, edited by Halil Inalcik. London: Variorum, 1978, 195–217.

———. "The Ottoman Economic Mind and Aspects of Ottoman Economy." In Studies in the Economic History of the Middle East, edited by M. A. Cook. London: Oxford University Press, 1970, 207–18.

———. "Bursa and the Commerce of the Levant," Journal of the Economic and Social History of the Orient 3/2 (1960): 131–47.

———. "Review: David Ayalon, Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom," Belleten 21/81–84 (1957): 500–12.

———. "The Origins of the Ottoman-Russian Rivalry and the Don-Volga Canal 1569." Les annales de l'Universite d'Ankara 1 (1946–1947): 47–106.

İslamoğlu-İnan, Huri. "Introduction: Oriental Despotism in World-System Perspective." In The Ottoman Empire and the World Economy, edited by Huri Islamoğlu-Inan. Cambridge: Cambridge University Press, 1987, 1–24.

Johns, Adrian. The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making. Chicago: University of Chicago Press, 1998.

Jones, Robert. "The Medici Oriental Press (Rome 1584–1614) and the Impact of Its Arabic Publications on Northern Europe." In The "Arabick" Interest of the Natural Philosophers in Seventeenth-Century England, edited by G. A. Russell. Leiden: Brill, 1994, 88–108.

Kafadar, Cemal. Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State. Berkeley: University of California Press, 1994.

———. "The Myth of the Golden Age: Ottoman Historical Consciousness in the Post-Süleymanic Era." In Suleyman the Second and His Time, edited by Halil İnalcık and Cemal Kafadar. Istanbul: Isis Press, 1993, 37–48.

———. "A Death in Venice: Anatolian Muslim Merchants Trading in the Serenissima." Journal of Turkish Studies 13 (1990): 191–218.

Kagay, Donald G. "Columbus as Standardbearer and Mirror of the Spanish Reconquest." Neptune 53/4 (Winter 1993): 254–59.

Kahle, Paul. "China as Described by Turkish Geographers from Iranian Sources." In Opera Minora I, edited by Paul Kahle. Leiden, 1956, 312–25.

Karamustafa, Ahmet. "Introduction to Ottoman Cartography." In The History of Cartography, Vol. 2, Book 1: Cartography in Traditional Islamic and South Asian Societies, edited by J. B. Harley and David Woodward. Chicago: University of Chicago Press, 1987, 206–8.

———. "Military, Administrative, and Scholarly Maps and Plans." In The History of Cartography, Vol. 2, Book 1: Cartography in Traditional Islamic and South Asian Societies, edited by J. B. Harley and David Woodward. Chicago: University of Chicago Press, 1987, 209–27.

Kearney, Milo. The Indian Ocean in World History. London: Routledge, 2004.

Kissling, Hans-Joachim. "Şah Ismail I, la nouvelle route des Indes, et les Ottomans." Turcica 6 (1975): 89–102.

Kosal, Nejat. Hind Yolu ve Osmanlı İmparatorluğu. Istanbul, 1936.

Kunt, Metin. The Sultan's Servants: Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650. New York: Columbia University Press, 1983.

Kurat, A. N. "The Turkish Expedition to Astrakhan and the Problem of the Don-Volga Canal." Slavonic and East European Review 40 (Dec. 1961): 7–23.

Kurtoğlu, Fevzi. "Hadım Süleyman Paşa'nın Mektupları ve Belgrad'ın Muhasara Planı," Belleten 9 (1940): 53–87.

———. "XVI. Asırda Hind Okyanusunda Türkler ve Portekizler." In II. Tarih Kongresi. Istanbul, 1937.

———. Ali Macar Reis Atlası. Istanbul, 1935.

———. "Amiral Selman Reis Lâyıhası." Deniz Mecmuası 47/335 (1935): 67–73.

Kütükoğlu, Bekir. Osmanlı-İran Siyasi Munasebetleri. Istanbul: Edebiyat Fakültesi Matbaası, 1962.

Lach, Donald. Asia in the Making of Europe. 2 vols. Chicago: University of Chicago Press, 1965.

Lambourn, Elizabeth. "India from Aden: Khutba and Muslim Urban Networks in Late Th irteenth-Century India." In Secondary Cities and Urban Networking in the Indian Ocean Realm, c. 1000–1800, edited by K. Hall. Lanham, Md.: Lexington, 2008, 55–97.

Lane, Frederick C. "The Mediterranean Spice Trade: Further Evidence for Its Revival in the 16th Century." In Crisis and Change in the Venetian Economy in the Sixteenth Century, edited by Brian Pullman. London: Methren, 1968, 47–58.

Le Goff, Jacques. "The Medieval West and the Indian Ocean: An Oneiric Horizon." In Facing Each Other: The World's Perception of Europe and Europe's Perception of the World, edited by Anthony Pagden. Burlington, Vt.: Variorum Press, 2000, 1–19.

Lesure, M. "Notes et documents sur les relations vénéto-ottomanes 1570–73." Turcica 4 (1972): 134–64.

Levathes, Louise. When China Ruled the Seas: The Treasure Fleet of the Dragon Th rone, 1405–1433. New York: Oxford University Press, 1994.

Lewis, Bernard. The Muslim Discovery of Europe. New York: George J. Mcleod, 1982.

Lewis, Dianne. Jan Compagnie in the Straits of Malacca 1641–1795. Athens: Ohio University Center for International Studies, 1995.

Lieberman, Victor. Strange Parallels: Vol. 1, Integration on the Mainland: Southeast Asia in Global Context, c. 800–1830. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

Liu, Yih-Min. "A Comparative and Critical Study of Ali Akbar's Khitaynama with References to Chinese Sources." Central Asiatic Journal 27/1–2 (1983): 58–78.

Lo, Jung-Pang. "The Decline of the Early Ming Navy." Oriens Extremis 5/2 (Dec. 1958): 149–68.

Lombard, D. "L'Empire ottoman vu d'Insulinde." In Passe turco-tatar, present sovietique: Etudes offertes a Alexandre Bennigsen, edited by Ch. Lemercier-Quelquejay, G. Veinstein, and S. E. Wimbush. Paris: Peeters, 1986, 157–64.

———. Le sultanat d'Atjeh au temps d'Iskandar Muda 1607–1636. Paris: Presses Universitaires de France, 1967.

Lowry, Heath. The Nature of the Early Ottoman State. Albany: State University of New York Press, 2003.

Lybyer. A. H. "The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade." English Historical Review 30 (1915): 577–88.

Mack, Rosamund. Bazaar to Piazza: Islamic Trade and Italian Art. Berkeley: University of California Press, 2001.

Maghrebi, Nizamuddin. "The Ottoman-Gujarat Relations (1517–1556): Political and Diplomatic." In Studies in the Foreign Relations of India (from the Earliest Times to 1947), edited by P. M. Joshi. Hyderabad: State Archives Press, 1975, 184–93.

Mandaville, Jan E. "The Ottoman Province of Al-Hasâ in the Sixteenth and Seventeenth Centuries." Journal of the American Oriental Society 90 (1970): 486–513.

Manguin, Pierre-Yves. "Of Fortresses and Galleys: The 1568 Achehnese Siege of Melaka, after a Contemporary Bird's-Eye View." Modern Asian Studies 22 (1988): 607–28.
Manning, Patrick. Migrations in World History. London: Routledge, 2005.
Mantran, Robert. "L'Empire ottoman et le commerce asiatique aux 16e et 17e siècles." In Islam and the Trade of Asia, edited by D. S. Richards. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1970, 169–79.
———. "Règlements fiscaux ottomans: la province de Bassora (la moitié du XVIe s.)." Journal of the Economic and Social History of the Orient 10 (1967): 224–77.
Matar, Nabil. Europe through Arab Eyes: 1578–1727. New York: Columbia University Press, 2009.
———. In the Lands of the Christians: Arab Travel Writing in the Seventeenth Century. New York: Routledge, 2003.
———. Turks, Moors, and Englishmen in the Age of Discovery. New York: Columbia University Press, 1999.
Matthee, Rudi. "Between Arabs, Turks and Iranians: The Town of Basra, 1600–1700." Bulletin of the School of Oriental Studies 16/1 (2006): 53–78.
Mazzaoui, Michael M. "Global Policies of Sultan Selim, 1512–1520." In Essays on Islamic Civilization Presented to Niyazi Berkes, edited by Donald P. Little. Leiden: Brill, 1976, 224–43.
Mcintosh, Gregory C. "Christopher Columbus and the Piri Reis Map of 1513." Neptune 53/4 (Winter 1993): 280–94.
McNeill, John R., and Willam McNeill. The Human Web: A Bird's-Eye View of World History. New York: Norton, 2003.
McNeill, William. The Age of Gunpowder Empires 1450–1800. Washington, D.C.: American Historical Association, 1989.
Meloy, John. "The Privatization of Protection: Extortion and the State in the Circassian Mamluk Period." Journal of the Economic and Social History of the Orient 47/2 (2004): 195–212.
———. "Imperial Strategy and Political Exigency: The Red Sea Spice Trade and the Mamluk Sultanate in the Fifteenth Century." Journal of the American Oriental Society 123/1 (2003): 1–19.
Melziğ, Herbert. Buyuk Turk Hindistan Kapılarında: Kanuni Sultan Suleyman Devrinde Amiral Hadım Suleyman Paşa'nın Hind Seferi. Istanbul: Selami Sertoğlu, 1943.
Ménage, V. L. "The Map of Hajji Ahmed and Its Makers." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 21(1958): 291–314.
Menard, Russell, "Transport Costs and Long-Range Trade, 1300–1800: Was There a European Transport Revolution?" In The Political Economy of Merchant Empires, edited by James Tracy. Cambridge: Cambridge University Press, 1991, 228–75.
Menzies, Gavin. 1421: The Year China Discovered America. New York: Harper Perennial, 2004.
Mirkovich, Nicolas. "Ragusa and the Portuguese Spice Trade." Slavonic and East European Review 21/56, part 1 (March 1943): 174–87.
el-Moudden, Abderrahmane. "Sharifs and Padishahs: Moroccan-Ottoman Relations from the Sixteenth through the Eighteenth Centuries." PhD dissertation: Princeton University, 1992.
Mughul, M. Yakub. Kanuni Devri Osmanlılar'ın Hint Okyanusu Politikası ve Osmanlı-Hint Muslumanları Munasebetleri 1517–1538. Istanbul: Fetih Yayınevi, 1974.
———. "Türk Amirali Emir Ibn Behram Bey'in Hindistan Seferi (1531)." İstanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi 4–5 (Aug. 1973–1974): 247–62.
———. "The Beginning of the Ottoman Domination in the Red Sea: The Way to India." Sind University Research Journal Arts Series: Humanities and Social Sciences 9 (1970): 54–76.
———. "The Expedition of Suleyman Pasha Al-Khadim to India (1538)." Journal of the Regional Cultural Institute (Iran, Pakistan, Turkey) 2/3 (Summer 1969): 146–51.
———. "Early Relations of the Osmanlı Sultans with the Muslim Rulers of the Indo-Pakistan Subcontinent." Sind University Research Journal: Arts Series, Humanities and Social Science 4 (1967): 147–58.
———."Portekizlilerle Kızıldeniz'de Mücadele ve Hicaz'da Osmanlı Hakimiyeti'nin Yerleşmesi Hakkında Bir Vesika." Turk Tarih Belgeleri Dergisi 2/3–4 (1965): 223–40.
Murphey, Rhoads. Ottoman Warfare, 1500–1700. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1999.
Necipoğlu, Gülru. The Age of Sinan: Architectural Culture in the Ottoman Empire. London: Reaktion, 2005.
———. "A Kanun for the State, a Canon for the Arts: Conceptualizing the Classical Synthesis of Ottoman Art and Architecture." In Soliman le Magnifique et son temps, edited by Gilles Veinstein. Paris, 1992, 195–216.
———."Süleyman the Magnificent and the Representation of Power in the Context of Ottoman-Hapsburg-Papal Rivalry." Art Bulletin 71/3 (Sept. 1989): 401–27.
Newitt, Malyn. "Prince Henry and the Origins of European Expansion." In Historiography of Europeans in Africa and Asia, 1450–1800, edited by in Anthony Disney. Brookfield: Variorum, 1995, 85–11.
Nüzhet, Selim. Turk Matbacılığı. Istanbul, 1928.
Orhonlu, Cengiz. Osmanlı İmparatorluğu'nda Şehircilik ve Ulaşım Uzerine Araştırmalar. İzmir: Egeniversitesi Edebiyat Fakültesi Yayınları, 1984.
———. Osmanlı İmparatorluğu'nun Guney Siyaseti: Habeş Eyaleti. Istanbul: Türk Tarihi Kurumü, 1974.
———. "Seydi Ali Reis." Tarih Enstitusu Dergisi 1 (Oct. 1970): 39–56.
———. "Osmanlı-Borno Münasebetine Aid Belgeler." Tarih Dergisi 23 (March 1969): 111–31.
———. "1559 Bahreyn Seferine Ait bir Rapor." Tarih Dergisi 17/22 (1967): 1–17.

———. "Hint Kaptanlığı ve Piri Reis." Belleten 34/134 (1967): 235–54.
———. "Osmanlılar'ın Habeşistan Siyaseti." Tarih Dergisi 15/20 (March 1965): 39–54.
———. "XVI. Asırın İlk Yarısında Kızıldeniz Sahilleri'nde Osmanlılar." Tarih Dergisi 16 (July 1961): 1–24.
———. "Kh ādım Süleymān Pa sh a," EI 2, 4: 901–902.
Ozbaran, Salih. Ottoman Expansion towards the Indian Ocean in the 16th Century. Istanbul: Bilgi University Press, 2009.
———. Portuguese Encounters with the World in the Age of the Discoveries: The Near and Middle East. London: Ashgate, 2008.
———. Yemen'den Basra'ya Sınırdaki Osmanlı. Istanbul: Kitap Yayınevi, 2004.
———. Bir Osmanlı Kimliği: 14.–17. Yuzyıllarda Rūm/Rūmī Aidiyet ve İmgeleri. Istanbul: Kitap Yayınevi, 2004.
———. "Ottomans as 'Rumes' in Portuguese Sources in the Sixteenth Century." Portuguese Studies 17 (2002): 64–74.
———. The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean and Ottoman Administration in the Arab Lands during the Sixteenth Century. Istanbul: Isis, 1994.
———. "The Ottomans in Confrontation with the Portuguese in the Red Sea after the Conquest of Egypt in 1517." Studies in Turkish-Arab Relations (1986): 207–13.
———. "A Note on the Ottoman Administration in Arabia in the 16th Century." International Journal of Turkish Studies 3/1 (Winter 1984–1985): 93–99.
———. "Bahrain in 1559—A Narrative of Turco-Portuguese Conflict in the Gulf." Journal of Ottoman Studies 3 (1982): 91–104.
———. "Two Letters of Dom Alvaro de Noronha from the Hormuz-Turkish Activities along the Coast of Arabia: 1550–1552." İstanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi 9 (1978): 241–92.
———. "A Turkish Report on the Red Sea and the Portuguese in the Indian Ocean (1525)." Arabian Studies 4 (1978): 81–88.
———. "Osmanlı İmparatorluğu ve Hindistan Yolu: Onaltıncı Yüzyılda Ticaret Yolları zerinde Türk-Portekiz Rekabet ve Ilişkileri." Tarih Dergisi 31 (March 1977): 66–146.
———. "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf 1534–1581." Journal of Asian History 6/1 (Spring 1972): 45–88.
———. "XVI. Yüzyılda Basra Korfezi Sahillerinde Osmanlılar: Basra Beylerbeyliği'nin Kuruluşu." Tarih Dergisi 25 (March 1971): 51–73.
———. "Portekiz Devlet Arşivi 'Torre do Tombo'nun XVI. Yüzyıl Osmanlı Tarihi İçin onemi." Tarih Enstitusu Dergisi 1 (Oct. 1970): 57–62.
———. "Osmanlı Tarihi Bakımından XVI. Yüzyılda Portekizli Tarihçiler." Tarih Dergisi 23 (March 1969): 75–82.
ozdemir, Kemal. Osmanlı Deniz Haritaları—Ali Macar Reis Atlası. Istanbul: Marmara Bankası, 1992.
Padron, Ricardo. The Spacious Word: Cartography, Literature and Empire in Early Modern Spain. Chicago: University of Chicago, 2003.
Pagden, Anthony, ed. Facing Each Other: The World's Perception of Europe and Europe's Perception of the World. Burlington, Vt.: Variorum Press, 2000.
———. Lords of All the World: Ideologies of Empire in Spain, Britain and France 1500–1800. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1995.
———. European Encounters with the New World: From Renaissance to Romanticism. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1993.
———. The Fall of Natural Man: The American Indian and the Origins of Comparative Ethnology. Cambridge: Cambridge University Press., 1982.
Pamuk, Şevket. A Monetary History of the Ottoman Empire. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
Parker, Geoff rey. "Crisis and Catastrophe: The Global Crisis of the Seventeenth Century Reconsidered." American Historical Review 113/4 (Oct. 2008): 1053–79.
———. The Grand Strategy of Philip II. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1998.
———. The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West, 1500–1800, 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
Pearson, M. N. The Indian Ocean. London: Routledge, 2003.
———. Port Cities and Intruders: The Swahili Coast, India, and Portugal in the Early Modern Era. Baltimore: John Hopkins, 1998.
———. Pilgrimage to Mecca: The Indian Experience 1500–1800. Princeton: Marcus Wiener, 1996.
———. "Merchants and States." In The Political Economy of Merchant Empires: State Power and World Trade 1350–1750, edited by Jim Tracy. Cambridge: Cambridge University Press, 1991, 41–116.
———. Merchants and Rulers in Gujarat: The Response to the Portuguese in the Sixteenth Century. Berkeley: University of California Press, 1976.
Peirce, Leslie. The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire. New York: Oxford University Press, 1993.
Petry, Carl. The Reigns of the Mamlūk Sultans al-Ashraf Qāytbāy and Qānṣūh al-Ghawrī in Egypt. Seattle: University of Washington Press, 1993.
Pinto, Karen. "3 Ways of Seeing: Scenarios of the World in the Medieval Cartographic Imagination." PhD dissertation: Columbia University, 2002.

Pinto, Olga. "Una rarissima opera araba stampata a Roma nel 1585." In Studi bibliograflci: Atti del convegno dedicato alla storia del libro italiano nel V centenario dell'introduzione dell'arte tipografica in Italia, Bolzano, 7-8 ottobre, 1965. Firenze: Leo S. Olschki, 1967, 47–51.

Pomeranz, Kenneth. The Great Divergence: China, Europe and the Making of the Modern World Economy. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2000.

Potach, Dejanirah. "The Commercial Relations between Basra and Goa in the Sixteenth Century." Studia 48 (1989): 142–62.

Pryor, John. Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649–1571. Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

Randles, W. G. L. "La diffusion dans l'Europe du XVIe siècle des connaissances géographiques dues aux découvertes portugaises." In La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du Colloque, Paris, les 26, 27 et 28 Mai 1988. Paris: Fondation Gulbenkian, 1990, 269–78.

———. "From the Mediterranean Portulan Chart to the Marine World Chart of the Great Discoveries: The Crisis in Cartography in the 16th Century." Imago Mundi 40 (1988): 115–20.

Rego, Antonio da Silva. "Duarte Catanho, espiao e embaixador (1538–1542)." Anais, serie 2, 4 (Lisbon, 1953): 123–40.

Reid, Anthony. "Islamization and Christianization in Southeast Asia: The Critical Phase 1550–1650." In Southeast Asia in the Early Modern Era: Trade, Power and Belief, edited by Anthony

Reid. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1993, 151–79.

———. Southeast Asia in the Age of Commerce 1450–1680, Vol. 1: The Lands below the Winds. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988.

———. "Sixteenth-Century Turkish Influence in Western Indonesia." Journal of South East Asian History 10/3 (Dec. 1969): 395–414.

Ribeiro, Luciano. "Em torno do primeiro cerco de Diu." Studia 13–14 (Jan.–July 1964): 41–100.

———. "O primeiro cerco de Diu." Studia 1 (Jan. 1958): 201–95.

Richards, John F. The New Cambridge History of India: The Mughal Empire. New York: Cambridge University Press, 1993.

Rispoli, Adelia. ed., İstanbul Tòpkapı Sarayı Muzesi ve Venedik Correr Muzesi Koleksiyonlarından XIV–XVIII. Yuzyıl Portolan ve Deniz Haritaları. Istanbul: İtalyan Kültür Merkezi, 1994.

Risso, Patricia. Merchants and Faith: Muslim Commerce and Culture in the Indian Ocean. Boulder, Colo.: Westview, 1995.

Roberts, Sean. "Cartography between Cultures: Francesco Berlinghieri's Geographia of 1482." Ph.D. dissertation: University of Michigan, 2006.

Roper, Geoff rey. "Early Arabic Printing in Europe," In Middle Eastern Languages and the Print Revolution: A Cross-Cultural Encounter, edited by Eva Hanebutt-Benz, Dagmar Glass, and Geoff rey Roper. Westhofen: WVA-Verlag Skulima, 2002, 129–50.

Ross, E. Denison. "The Portuguese in India and Arabia, 1517–38." Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland 54 (January 1922): 1–18.

Rubiés, Joan-Pau. Travel and Ethnology in the Renaissance: South India through European Eyes, 1250–1625. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

———. "New Worlds and Renaissance Ethnology." In Facing Each Other: The World's Perception of Europe and Europe's Perception of the World, edited by Anthony Pagden. Burlington, Vt.: Variorum Press, 2000, 81–121.

Russell, P. R. Prince Henry the Navigator: The Rise and Fall of a Cultural Hero. Oxford: Oxford University Press, 1984.

Safvet Bey. "Bahreyn'de bir Vaḳ'a." Tārīḫ-i 'Os̱mānī Encumeni Mecmū'asi 14–18 (h.1329/ c.e. 1910): 1139–44.

———. "Bir Osmanlı Filosu'nun Sumatra Seferi." Tārīḫ-i 'Os̱mānī Encumeni Mecmū'ası 7–12 (h.1328/ c.e. 1909): 604–16 and 678–81.

———."Ḳara Deñiz-İzmit Korfezi Ḳānāli." Tārīḫ-i 'Os̱mānī Encumeni Mecmū'ası 14–18 (h.1328/ c.e. 1909): 948–56.

Şah, Razaulhak. "Açi Padişahı Sultan Alâeddin'in Kanunî Sultan Süleyman'a Mektubu." Tarih Araştırmaları Dergisi 5/8–9 (1967): 373–409.

Sahillioğlu, Halil. "Yemen'in 1599–1600 Yılı Bütçesi." In Yusuf Hikmet Bayur'a Armağan. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1985, 287–319.

Said, Edward. Orientalism. New York: Random House, 1978.

Saldanha, Antonio Vasconcelos de. "Conceitos de espaço e poder e seus reflexos na titulaçao régia portuguesa da época da expansao." In La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du Colloque, Paris, les 26, 27 et 28 Mai 1988. Paris: Fondation Gulbenkian, 1990, 105–30.

Salinari, Marina Emiliani. "An Atlas of the 15th Century Preserved in the Library of the Former Serail in Constantinople." Imago Mundi 8 (1951): 101–2.

Samardjitch, Radovan. Mehmed Sokolovitch: le destin d'un grand vizir. Translated by Mauricette Begitch. Lausanne: L'Age d'homme, 1994.

Sanceau, Elaine. "Uma narrativa da expediçao portuguesa de 1541 ao Mar Roxo." Studia 9 (Jan. 1962): 199–234.

Sarınay, Yusuf. Ottoman Archives and Ethio-Ottoman Relations. Ankara: Başbakanlık Genel Müdürlüğü, 2001.

Sarkar, Jagadash Narayan. "Indian Merchants in the Red Sea Ports, 1611." Journal of Indian History 27/1 (April 1949): 109–20.

Sauvaget, Jean. "Les caravansérails syriens du hadjdj de Constantinople." Ars Islamica 4 (1937): 98–121.

Sayılı, Aydın. The Observatory in Islam and Its Place in the General History of the Observatory. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1988.

———. "çüncü Murad'ın İstanbul Rasathanesindeki Mücessem Yer Küresi ve Avrupa ile Kültürel Temaslar." Belleten 25/99 (1961): 397–445.

Schmidt, Benjamin. Innocence Abroad: The Dutch Imagination and the New World, 1570–1670. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Schwartz, Stuart, ed. Implicit Understandings: Observing, Reporting and Reflecting on the Encounters between Europeans and Other Peoples in the Early Modern Era. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

Şehsuvaroğlu, Bedi. "Kanuni Devrinde Yazılmış ve Şimdiye Bilinmeyen Bir Coğrafya Kitabı." In Kanuni Armağanı. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1970, 207–25.

———. "Türkçe lok İlginç bir Coğrafya Yazması." Belgelerle Turk Tarihi 2 (1967): 63–72.

Serjeant, Robert Bertram. "Yemeni Merchants and Trade in Yemen: Th irteenth and Sixteenth Centuries." In Asian Merchants and Businessmen in the Indian Ocean and the China Sea, edited by Denys Lombard and Jean Aubin. Oxford: Oxford University Press, 1988, 79–86.

———. "The Yemeni Coast in 1005/1579: An Anonymous Note on the Flyleaf of Ibn al-Mujawir's Tarikh al-Mustahsir." Arabian Studies (1985):187–91.

Serkis, Yousuf Alian. Dictionary of Arabic Printed Books from the Beginning of Arabic Printing until the End of 1337 A.H.-1919 A.D. 2 vols. Cairo, 1928.

Sezgin, Fuat. The Contribution of the Arabic-Islamic Geographers to the Formation of the World Map. Frankfurt: Institut für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften, 1987.

Skilliter, S. A. "The Sultan's Messenger Gabriel Deferens: An Ottoman Master Spy of the 16th Century." Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes 68 (1976): 47–59.

———. "Hürrem," The Encyclopaedia of Islam, New Edition. Leiden: E. J. Brill, 1954–55: 66a–b.

Smith, Richard. Ahmad al-Mansur: Islamic Visionary. New York: Longman, 2005.

Soucek, Svat. Piri Reis and Turkish Map Making after Columbus. Oxford: Oxford University Press, 1996.

———. "Piri Reis and the Ottoman Discovery of the Great Discoveries." Studia Islamica 79 (1994): 121–42.

———. "The 'Ali Macar Reis Atlas' and the Deniz Kitabı: The ir Place in the Genre of Portolan Charts and Atlases." Imago Mundi 25 (1971): 117–27.

Stagl, Justin. "The Methodising of Travel in the 16th Century: A Tale of Three Cities." In Facing Each Other: The World's Perception of Europe and Europe's Perception of the World, edited by Anthony Pagden. Burlington, Vt.: Variorum Press, 2000, 123–50.

Steensgaard, Niels. "The Indian Ocean Network and the Emerging World Economy c. 1500–1750." In The Indian Ocean: Explorations in History, Commerce and Politics, edited by Satish Chandra. New Delhi: Sage, 1987, 125–50.

———. The Asian Trade Revolution of the Seventeenth Century. Chicago: University of Chicago Press, 1973.

Studnicki-Gizbert, Daviken. A Nation upon the Ocean Sea:. Portugal's Atlantic Diaspora and the Crisis of the Spanish Empire, 1492–1640. New York: Oxford University Press, 2007.

Subrahmanyam, Sanjay. Explorations in Connected History: Mughals and Franks. New York: Oxford University Press, 2005.

———. "A Note on the Rise of Surat in the Sixteenth Century." Journal of the Social and Economic History of the Orient 43/1 (2000): 23–33.

———. "The Trading World of the Western Indian Ocean, 1546–1565: A Political Interpretation." In A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII Seminario Internacional de Historia Indo-Portuguesa, edited by Artur Teodoro de Matos and Luis Filipe Thomaz. Angra do Heroismo, 1998, 207–29.

———. The Career and Legend of Vasco da Gama. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

———. "Connected Histories: Notes towards a Reconfiguration of Early Modern Eurasia." Modern Asian Studies 31/3 (1997): 735–62.

———. "A Matter of Alignment: Mughal Gujarat and the Iberian World in the Transition of 1580–1581." Mare Liberum 9 (July 1995): 461–80.

———. "Of Imarat and Tijarat : Asian Merchants and State Power in the Western Indian Ocean, 1400 to 1750." Comparative Studies in Society and History 37/4 (Oct. 1995): 750–80.

———. The Portuguese Empire in Asia, 1500–1700: A Political and Economic History. London: Longman, 1993.

———. The Political Economy of Commerce: Southern India 1500–1650. Cambridge: Cambridge University Press, 1990.

———. "Persians, Pilgrims and Portuguese: The Travails of Masulipatnam Shipping in the Western Indian Ocean 1590–1665." Modern Asian Studies 22/3 (1988): 503–30

Taeschner, Fr. "Djughrāfiyā VI: The Ottoman Geographers," EI 2. 1954, 2: 587–90.

Tan, M. Turhan. Hint Denizlerinde Turkler. Istanbul: Kanaat Kitabevi, 1939.

Tavim, José Alberto Rodrigues da Silva. "From Setubal to the Sublime Porte: The Wanderings of Jacome de Olivares, New Christian and Merchant of Cochin (1540–1571)." In Sinners and Saints: The Successors of Vasco da Gama, edited by Sanjay Subrahmanyam. Delhi: Oxford University Press, 1998, 94–134.

———. "Outras gentes em outras rotas: judeus e cristaos-novos de Cochin—entre Santa Cruz de Cochin e Mattancherry, entre o Império Português e o Médio Oriente." In A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII Seminario Internacional de Historia Indo-Portuguesa, edited by Artur Teodoro de Matos and Luis Filipe Thomaz. Angra do Heroismo, 1998, 309–42.

———. "Os Judeus e a expansao portuguesa na India durante o século XVI. O exemplo de Isaac do Cairo: espiao, 'lingua,' e judeu de Cochim de Cima." Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian 33 (1994): 137–266.

Tekindağ, S. "Süveyş'te Türkler ve Selman Reis'in Arzası." Belgelerle Turk Tarihi Dergisi 9 (1968): 77–89.

Temimi, A. "Le gouvernement ottoman face au problème morisque." Revue d'Histoire Maghrebine 23–24 (1989): 258–62.

The unissen, Hans. "Ottoman-Venetian Diplomatics—the Ahdnames." Electronic Journal of Oriental Studies 1 (1998): 1–698.

Thomaz, Luis Filipe F. R. "A questao da pimenta em meados do século XVI." In A Carreira da India e as rotas dos estreitos: Actas do VIII Seminario Internacional de Historia Indo-Portuguesa, edited by Artur Teodoro de Matos and Luis Filipe Thomaz. Angra do Heroismo, 1998, 37–206.

———. "A crise de 1565–1575 na historia do Estado da India." Mare Liberum 9 (July 1995): 481–519.

———. "L'idée imperiale manueline." In La Decouverte, le Portugal et l'Europe: Actes du Colloque, Paris, les 26, 27 et 28 Mai 1988. Paris: Fondation Gulbenkian, 1990, 35–103.

Th rower, J. W. Maps and Civilization: Cartography in Culture and Society. Chicago: University of Chicago, 1999.

Tibbetts, Gerald R. "The Role of Charts in Islamic Navigation in the Indian Ocean." In The History of Cartography, Vol. 2, Book 1: Cartography in Traditional Islamic and South Asian Societies, edited by J. B. Harley and David Woodward. Chicago: University of Chicago Press, 1987, 256–62.

Tuchscherer, Michel. "Commerce et production du café en Mer Rouge au XVIe siècle." In Le commerce du cafe avant l'ere des plantations coloniales: espaces, reseaux, societe, XVe-XIXe siecle, edited by Michel Tuchscherer. Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 2001.

Turan, Ebru. "The Sultan's Favorite: Ibrahim Paşa and the Making of the Ottoman Universal Sovereignty in the Reign of Sultan Süleyman, 1516–1526." Ph.D. Dissertation, University of Chicago, 2007.

Türkay, Cevdet. Osmanlı Turklerinde Coğrafya. Istanbul: Maarif Basımevi, 1959.

———. İstanbul Kutuphanelerinde Osmanlılar Devrine Ait Turkce-Arapca-Farsca Yazma ve Basma Coğrafya Eserleri Bibliografyası. Istanbul: Maarif Basımevi, 1958.

Uzunçarşılı, İsmail Hakkı. "Türk-İngiliz Münasebetlerine Dair Vesikalar," Belleten 14 (1950): 27–40.

———. Osmanlı Devletinde Merkez ve Bahriye Teşkilatı. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 1948.

———. "Hind Hukumdarı Hümayun Şah'ın Kanuni'ye Gonderdiği bir Mektup." Yedigun 8/202 (1937): 5–27.

Vatin, Nicolas. Les Ottomans et l'Occident (XVe-XVIe Siecles). Istanbul: İsis, 2001.

———. "Sur quelques propos géographiques d'Ibrahim Pacha, grand vizir de Soliman le Magnifique (1533)." In Comite International d'Etudes Pre-Ottomanes et Ottomanes, VIth Symposium, Cambridge 1st–4th of July 1984, edited by J.-L. Bacqué-Grammont and Emeri Van Donzel. Istanbul, 1987.

Vaughan, Dorothy M. Europe and the Turk: A Pattern of Alliances 1350–1700. Liverpool: AMS Press, 1954.

Veinstein, G. "Sokollu Mehmed Pasha." The Encyclopaedia of Islam, New Edition. Leiden: E. J. Brill, 1954–, 706–11.

Vinaver, Verk. "Mercanti e bastimenti di Ragusa in India: Una leggenda." In Mediterranee et Ocean Indien: Travaux du Sixieme Colloque International d'Histoire Maritime, Venice 1962, edited by Christine Villain-Gandossi and Manlio Cortelazzo. Paris, 1970, 170–190.

Wake, C. H. H. "The Changing Pattern of Europe's Pepper and Spice Imports ca. 1400–1700." Journal of European Economic and Social History 8/2 (1979): 361–403.

Wake, Christopher. "The Myth of Zheng He's Great Treasure Ships." International Journal of Maritime History 14/1 (June 2004): 59–75.

Wicki, Joseph, ed. "Duas relações sobre a situaçao da India Portuguesa nos anos 1568 e 1569." Studia 8 (July 1961): 133–235.

———. "Duas cartas oficiais de vice-reis da India, escritas em 1561 e 1564." Studia 3 (Jan. 1959): 36–89.

Wills, John E. "Maritime Asia 1500–1800: The Interactive Emergence of European Domination." American Historical Review 98/1 (Feb. 1993): 83–105.

Winius, George. "Iberian Historiography on European Expansion since World War II." In Reappraisals in Overseas History Writing, edited by P. C. Emmer and H. L. Wesseling. Leiden: Brill, 1979, 101–21.

Wink, Andre. "Al-Hind: India and Indonesia in the Islamic World Economy, c. 700–1800 AD." Itinerario 12 (1988): 33–72.

Woodhead, Christine. "An Experiment in Official Historiography: The Post of Şehnameci in the Ottoman Empire c. 1555–1605." Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes 75 (1983): 157–82.

Woodward, David. "Maps and the Rationalization of Geographic Space." In Circa 1492: Art in the Age of Exploration, edited by Jay Levenson. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1991.
———. "Medieval Mappaemundi." In The History of Cartography, Vol. 1: Cartography in Prehistoric, Ancient and Medieval Europe and the Mediterranean, edited by J. B. Harley and David Woodward. Chicago: University of Chicago Press, 1987, 286–370.
Yurdaydın, H. "Matrakçı Nasuh'un Hayatı ve Eserleri ile İlgili Yeni Bilgiler." Belleten 29 (1965): 329–54.
Zachariadou, Elizabeth, ed. The Kapudan Pasha: His Office and His Domain. Rethymnon: Crete University Press, 2002.

المؤلف في سطور

جانكارلو كاسالي

■ أستاذ تاريخ العالم الإسلامي بجامعة مينيسوتا.

■ حاصل على الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط ودراساته من جامعة هارفارد.

■ يركز في كتاباته على تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال العصر الحديث المبكر وتفاعلاتها مع العالم.

■ يعمل محررا تنفيذيا لمجلة تاريخ العصر الحديث المبكر Journal of Early Modern History.

المترجم في سطور

د. مصطفى محمد عبدالله قاسم

■ حاصل على جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي في دورتها الثانية 2016، عن كتابه «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العددان 426 و427، يوليو وأغسطس 2015).

■ حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014، عن كتابه «مأساة سياسة القوى العظمى» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2012).

■ حكّم الكثير من الكتب المترجمة لعدد من مؤسسات وجوائز الترجمة في عدد من الدول العربية.

■ من أهم أعماله المترجمة: «الشبكة الإنسانية: نظرة محلّقة على التاريخ العالمي» (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 458، مارس 2018)، «عباد الله: المسلمون بين العبيد الأفارقة في الأمريكتين» (تحت النشر، الرياض: دار جامعة الملك للنشر)، «ثلاث مدن مشرقية: سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية» (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العددان 454 و455، نوفمبر وديسمبر 2017)، «حضارات السند البائدة» (أبوظبي: مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2017)، «القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم: 1543-1924» (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العددان 426 و427، يوليو وأغسطس 2015)، «القوة والوفرة: التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015)، «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس» (أبوظبي: مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2013)، «الحياة اليومية في مصر القديمة» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013)، «مولد الوفرة: كيف تشكل رخاء العالم الحديث» (الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 2012)، «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للسياحة والتراث، 2012)، «الاقتصاد السياسي لمصر: دور علاقات القوة في التنمية» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «الأطفال واللعب» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، «العلاقات الحضارية المسيحية الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، «صعود الصين» (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010)، «مقدمة إلى التطور اللغوي» (عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 2010)، «التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتنبرغ إلى الإنترنت» (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 315، مايو 2005).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير من العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

هذا الكتاب...

في العام 1517 غزا السلطان العثماني سليم «العابس» مصر؛ ما جعل إمبراطوريته على اتصال مباشر مع العالم التجاري للمحيط الهندي للمرة الأولى في تاريخها. وخلال العقود التالية أصبح العثمانيون أكثر انخراطا في شؤون هذه المنطقة الشاسعة التي كانت مجهولة لهم في السابق، وشكَّلوا في النهاية تحديا عسكريا وأيديولوجيا وتجاريا للإمبراطورية البرتغالية التي كانت منافسهم الرئيس في السيطرة على طرق التجارة المربحة خلال آسيا البحرية. يُعد هذا الكتاب أول رواية تاريخية شاملة لذلك الصراع على الهيمنة العالمية الذي غطى قرنا من الزمن، وامتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى مضيق ملقا، ومن داخل أفريقيا إلى سهول آسيا الوسطى. يقدم الكتاب صورة غير مسبوقة للامتداد العالمي للدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر، وذلك من خلال سرد مثير لحياة سلاطين وصدور أعظمين وولاة وجواسيس ورُيَّاس بحر ومرتزقة ونساء من الحريم السلطاني أثرت أفعالهم في عصر الاستكشاف العثماني. يتحدى الكتاب السرديات التقليدية للهيمنة الغربية، إذ يدفع بأن العثمانيين لم يكونوا مشاركين نشطين في عصر الاستكشاف فقط، بل تفوقوا في النهاية على البرتغاليين في لعبة السياسة العالمية، مستفيدين في ذلك من القوة البحرية والمكانة السلالية والدربة التجارية لفرض سيادتهم الإمبريالية على أنحاء المحيط الهندي.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 59 - 9

إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS